مرآة الزمان في تواريخ الأعيان

تصنيف

شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله

المعروف بسبط ابن الجوزي

٥٨١ - ٦٥٤ هـ

الجزء الحادي والعشرون

٥٥٤ - ٥٨٧ هـ

حققه هذا الجزء وعلق عليه

إبراهيم الزيبق

الرسالة العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان

(٢١)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Resalah Al-A'lamiah m.
Publishers

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء خولي وصلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

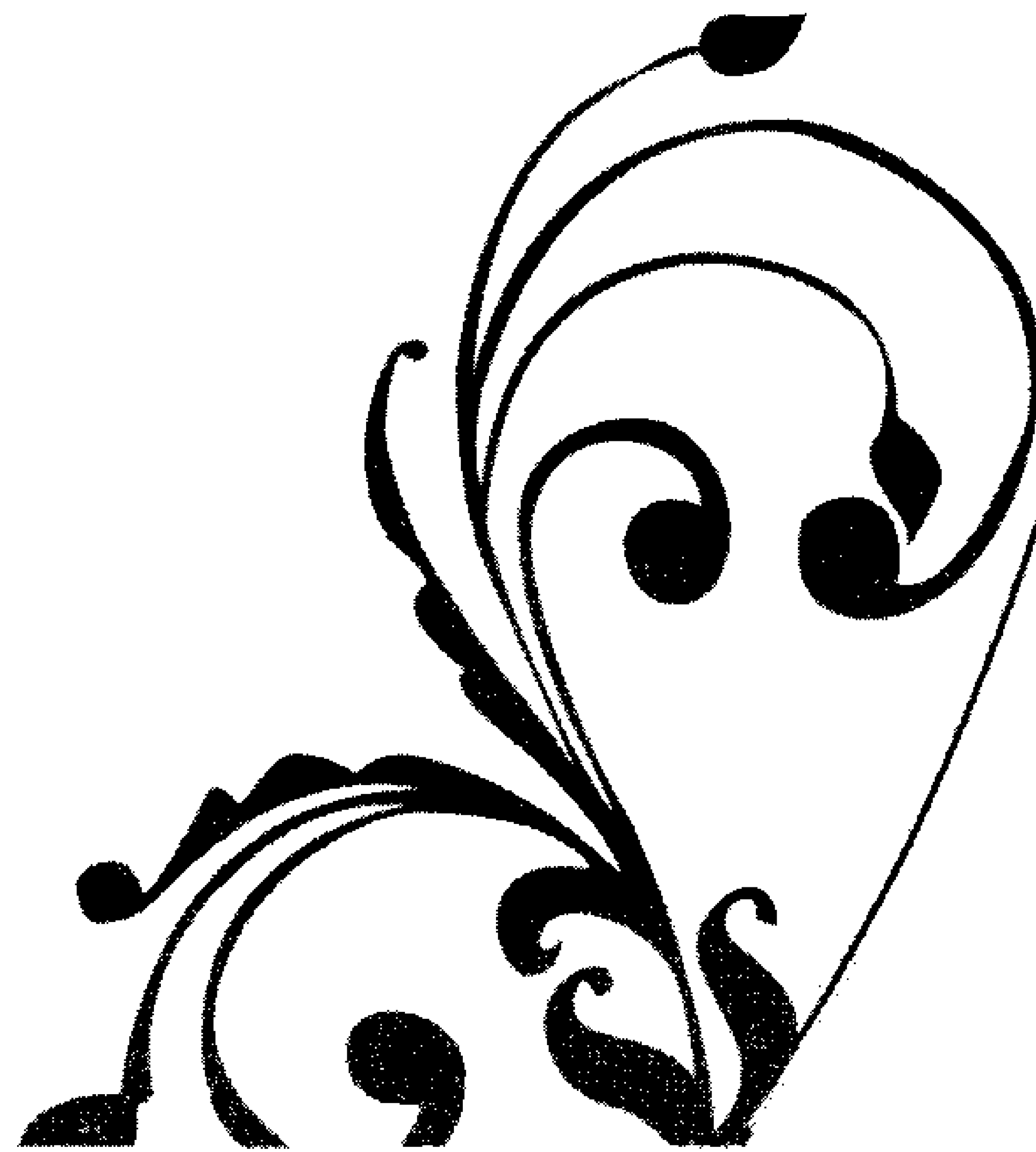
info@resalahonline.com
http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON
TELEFAX: 815112- 319039- 818615
P.O. BOX:117460

الطبعة الأولى

٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ



السَّنة الرابعة والخَمسون وخمسُ مئة

فيها في المحرَّم وصل ترشك وحده إلى بغداد، فرمى بنفسه تحت التَّاج، ومعه سَيْفٌ وكَفَن، وأُخبر الخليفة به، فأُحضر إلى الدِّيوان، ورضي عنه، ووقَّع له بمالٍ.

وفيها وَرَدَتْ رسلُ محمد شاه إلى بغداد، فوصلوا شَهْرابان[1]، فبعث الوزير مَنْ مَنَعَهم من الدُّخول، فأقاموا أياماً، وعادوا، ومات محمد شاه في آخر السَّنة.

وفيها خَرَجَ الخليفةُ إلى واسط، ودَخَلَ جامعها، ومضى إلى الغَرَّاف[2]، فزلَّت به فَرَسُه في بعض الطَّريق، فوقع، وشُجَّ جبينه بقبيعة [سيف][3] الرِّكاب، فاستنقذه مملوكٌ من مماليك الوزير ابنِ هُبيرة، فأَعْتقه الوزيرُ، وخَلَع عليه، وخاطه ابنُ صفية الطَّبيب، فحصل له مالٌ، وتصدَّق الخليفة بمالٍ جزيل.

ووقَعَ بالعراق بَرَدٌ، وَزْنُ البردة تسعةُ أرطال بالعراقي، فأتلفتِ الغِلال.

وفيها غرقت بغداد، وصارت تلالا[4] [مثل الغَرَقِ الأول.

قال جدِّي رحمه الله: فخرجتُ من داري بدربِ القيَّار، وعبرتُ إلى الجانب الغربي، وعدت بعد يومين فلم أجد حائطاً قائماً، ولم يعرف أحد موضع داره إلا بالحَزْرِ والتَّخْمين، وصارتِ الكُلُّ تلالاً، وما استدللت على درب القيَّار إلا بمنارة المسجد، فإنها لم تقع. وغرقت كتب جدِّي وغيرها].

وفيها حَشَدَ ملك الرُّوم [العساكر][5] وجَمَعَ، ووصل إلى الشَّام، وجَمَعَ نورُ الدِّين عليه العساكر، وقلَّت مِيْرتُهم، فعادوا راجعين، وغنمهم المسلمون.

---

(١) قرية كانت شرقي بغداد. «معجم البلدان»: ٣/ ٣٧٥.

(٢) نهر كبير تحت واسط. «معجم البلدان»: ٤/ ١٩٠.

(٣) ما بين حاصرتين من «المنتظم»: ١٠/ ١٨٩، وقبيعة السيف: ما على طرف مقبضه من فضة أو حديد، أو على رأس قائمه، وهي التي يدخل القائم فيها، وجمعها قبائع، انظر «معجم متن اللغة»: ٤/ ٤٨٥.

(٤) في (ع) و (ح): وصارت تلالاً، ولم يعرف أحد موضع داره إلا بالحزر والتخمين، وما بين حاصرتين من (م) و (ش)، وانظر «المنتظم»: ١٠/ ١٩٠.

(٥) ما بين حاصرتين من (م).

وفيها نزل نورُ الدِّين [محمود][(١)] على حَرَّان، وأخذها من أخيه أمير أميران [وأعطاها لزين الدين عليّ إقطاعاً، وسببه أن نور الدين لما مرض وقع الإياس منه، فَكاتَبَ أخوه أمير أميران][(١)] الجُنْدَ، وطَمِعَ في الملك، فشقَّ على نور الدِّين.

وحَجَّ بالناس قيماز.

وفيها توفي

إبراهيم بن سعيد[(٢)]

أبو إسحاق الشَّاتاني، وزير خلاط، وكان فصيحاً، ومن شعره: [من المتقارب]

ولو أنَّ دِجْلَةَ ثُمَّ الفراتَ … وسيحونَ والبحر كانوا مِدادِي
وجيحون والنِّيل ما بلغَتْ … عُشَيْرَ الذي يحتويه فؤادي
من الشَّوقِ يا مَنْ حوى مُهْجتي … وصيَّر طَرْفي حليفَ السُّهادِ
فشَوقي يزيدُ وصَبْري يَبْيِدُ … ووَجْدي شديدٌ لِطُولِ البِعادِ
أفيحاءُ حُيِّيتِ من بلدةٍ … سَقَتْك الغيومُ وصَوْبُ الغوادي
فمنكِ الحبيبُ وفيكِ القريبُ … ومَنْ حَلَّ مني مَحَلَّ السَّوادِ[(٣)]

[وفيها توفي

يحيى بن نزار المنبجي[(٤)]

كان فاضلاً، شاعراً، نزل في أُذُنه طرشٌ، فاستدعى أحد الطَّرْقية، فامتصَّ أُذُنَه، فما زال حتى خرج شيءٌ من مُخِّه، فمات، فليحذر العاقل من مثل هذا][(١)].

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٥٤٣-٥٤٤ .
(٣) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٥٤٣ .
(٤) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ١٩١ ، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٣٤-٢٣٦ ، و«معجم الأدباء»: ٢٠/ ٣٦-٣٨ ، و«وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٤٩-٢٥١ .

عبد الواحد بن جَهِير[1] بن مفرِّج الدِّمَشْقي[2]

شاعرٌ مجيد، ومن شعره: [من الرمل]

ظالمي في الحُبِّ أضحى حَكَمي ... كيفَ لا يأْثَمُ في سَفْكِ دمي
كم كتمتُ الحبَّ عن عاذلتي ... حَذَرَ البَيْنِ فلم يَنْكَتِمِ
هل ترى لذةَ أيامِ الصِّبا ... تجمعُ الشَّمْلَ بوادي الحَرَمِ
إذْ وقَفْنا ليلةَ البَيْنِ وقد ... غَرَّدَ الحادي بذات العَلَمِ
ليتهم إذْ ودَّعوا حَنُّوا على ... مُسْلمٍ في حُبِّهِمْ لم يَسْلَمِ

وكانت وفاته بدمشق في ذي القعدة.

السُّلْطان محمد بن محمود بن [محمد بن] ملك شاه[3]

ابن ألب رسلان. قد ذكرنا سيرته في السِّنين. ولما حاصر بغداد كان مريضاً، وبلغه وفاة سنجر، فزاد به المرض، فتوفي على باب هَمَذَان في ذي الحِجَّة، واختلفَ الأُمراء بعد موته، فمنهم من مال إلى أخيه ملك شاه، ومنهم من مال إلى سليمان شاه، ومنهم من مال إلى رسلان شاه.

ثم اتفقوا على سليمان شاه ـ وكان محبوساً بالمَوْصِل ـ فجهَّزه زين الدِّين بإشارة نور الدِّين محمود، فأجلسوه على سرير الملك بهَمَذَان، وكان قَصدُهم أن يأكلوا به البلاد، لأَنَّه كان مشغولاً باللهو واللَّعِب، واستوزر شهاب الدِّين محمود بن عبد العزيز النَّيْسابوري.

وكان فاضلاً جَوَاداً، مشفقاً أَميناً.

---

(١) في (ع) و (ح) حميد، وهو تحريف، والمثبت من «تاريخ ابن عساكر».
(٢) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» المجلد ٤٣/ ٣٢٩-٣٣٠، والأبيات فيه.
(٣) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ١٩١، و«تاريخ دولة آل سلجوق»: ٢٦١-٢٦٢، و«الكامل»: ١١/ ٢٥٠-٢٥١، «وفيات الأعيان»: ٥/ ١٨٣، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ٨، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٣٠، و«معجم الأنساب» لزمباور: ٣٣٤، وما بين حاصرتين من مصادر ترجمته.

محمد بن أبي عَقَامة[(١)]

أبو عبد الله، القاضي بزَبِيْد، كان حاكماً على اليمن، ولما تغلَّبَ ابنُ مهدي[(٢)] على اليمن قتله، وقتل ولده، وكانا فاضِلَيْن، ومن شعر محمد: [من البسيط]

لِلْمَجْدِ[(٣)] عنكم رواياتٌ وأخبارُ ... ولِلْعُلا نحوكُمْ حاجٌ وأَوْطارُ
وحيث كنتمْ فثغر الرَّوْضِ مُبْتَسِمٌ ... وأين سِرْتُمْ فدَمْعُ العينِ مِدْرارُ
لله قومٌ إذا حَلُّوا بمنزلةٍ ... حَلَّ النَّدى ويسير الجُودُ إنْ ساروا
تشتاقُكُمْ كلُّ أرضٍ تنزلون بها ... كأنكمْ لبقاعِ الأَرْضِ أمطارُ
لا يَعْجَبُ النَّاسُ منكمْ في مسيركُمُ ... كذلك الفَلَكُ العُلْويُّ دَوَّارُ
والبَدْرُ مُذْ صِيْغَ لا يرضى بمنزلةٍ ... فيها يخيِّمُ فَهْوَ الدَّهْرَ سَيَّارُ[(٤)]

السَّنة الخامسة والخمسون وخمس مئة

فيها في يوم الجُمُعة، سَلْخ صفر، أُرجف على المقتفي بالموت، فانزعج النَّاسُ، فوقَّع إلى الوزير بعافيته، فطابت قلوب الناس، فلما كان صبيحة الأحد ثاني ربيع الأَوَّل، أصبحت دار الخليفة مغلقةً إلى الظُّهْر، وركبت العساكر لحِفْظ البلد، [فتحقَّق النَّاسُ موته][(٥)]، فلما كان قريب الظهر فُتحتِ الأبواب، ودُعي النَّاس إلى بيعة ولي العَهْد.

---

(١) له ترجمة في «طبقات فقهاء اليمن»: ٢٤٠، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ٢٤٠-٢٤٤، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٣٠.

(٢) هو علي بن مهدي، غلب على زبيد سنة (٥٥٤هـ)، ومات بعد شهرين من دخولها، ثم ولي ابنه مهدي ابن علي، انظر «بلوغ المرام»: ١٧.

(٣) في (ع) و (ح): الوجد عنكم، ومثله في «النجوم الزاهرة»، والمثبت من «الخريدة».

(٤) الأبيات في «خريدة القصر»: ٣/ ٢٤١-٢٤٢.

(٥) في (ع) و (ح): ففتحوا للناس، وتحققوا موت الخليفة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

الباب الثاني والثلاثون في بيعة

المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن محمد المقتفي(١)

ولد في ربيع الأَوَّل سنة ثماني عشرة وخمس مئة، وأُمه أُم ولد يقال لها طاوس، أدركت خلافته، وتوفِّيت هذه السنة.

ولما توفي أبوه دَخَلَ إلى الحُجْرة التي كان يقعد فيها أبوه، فهجمت عليه أُم أخيه أبي علي الحسن ومعها جواريها بأيديهن السكاكين ليقتلنه، وتبايع لابنها، فَذُعِرَ منها، وقال: يا أُمَّاه، ما الذي صنعتُ حتى تستحلِّين دمي؟ راقبي الله فيَّ. فتوقَّفَتْ عن قَتْله، وخَرَجَ من الحُجْرة، وجاء أصحابه، فأحدقوا به [وبايعه](٢) أهلُه وعَمَّاه: أبو طالب وأبو جعفر، والوزير ابنُ هُبيرة، وقاضي القُضَاة، وأرباب الدَّوْلة.

وقال ابنُ هُبيرة: كان المستنجد بالله قد بَعَثَ إليَّ خادماً، ومعه مكتوبٌ في حياة أبيه أراد أن يستره عنه، فأخذته وقبَّلْتُه، وقلت للخادم: والله ما يمكنني أَنْ أقرأه ولا أن أُجيب عنه. فأخذ في نفسه عليَّ، فلما كان في يوم المبايعة قلتُ له: يا أمير المؤمنين، أكبر الدَّليل علي نُصحي أَنَّني ما حابيتُك نُصحاً لأمير المؤمنين. فقال: صدقت، أنتَ الوزير. قلتُ: إلى متى؟ قال: إلى الممات. قلتُ: أحتاج إلى تقبيل اليد الشَّريفة، فأعطاه يده، فقبَّلها، وأَحْلَفْتُهُ على ما ضَمِنَ لي.

ثم إن الوزير خَدَمَ بعد ذلك بخيلٍ وسلاح وغِلْمانٍ ومال فيها أربعة عشر فرساً، ومنها فرسٌ أَشْهب قيمته أربع مئة دينار، وست بغلات مثمنات، وعشر مماليك تُرْك، وثلاثة خَدَم، وعشر زَرَدِيَّات، وعشر تخوت من الثِّياب، وأسفاط فيها عُود، وعنبر، ونَدٌّ ومِسْك وكافور، وسَفَط ملآن دنانير، فقَبِلَها منه، وطَيَّب قلبه.

وقبض المستنجد على أخيه أبي علي الحسن، وهو صبيٌّ، ولم يُضيِّق عليه، بل كان في ترفيه وسَعَة، وانتقم من الجواري اللواتي أَرَدْن قَتْلَه، و[لما تولى](٣) أسقط الضَّرائب

---

(١) في (م) و (ش): بيعة المستنجد بالله، واسمه يوسف بن محمد المقتفي، وكنيته أبو المظفر.

(٢) في (ع) و (ح): فأحدقوا به وأهله وعماه، والمثبت ما بين حاصرتين مستفاد من «المنتظم»: ١٠/ ١٩٢.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

والمكوس، وما كان يؤخذ من سوق الجمال والغنم، والخيل والتَّمْر والسَّمك وغيره، وبَسَطَ العَدْل، وكَفَّ الناس عن الظُّلْم، وعَمِلَ العزاء في بيت النوبة ثلاثة أيام.

قال المصنِّف رحمه الله: وتقدَّم إلى جدِّي بالكلام، فتكلَّم في يوم من الأيام على كُرْسي لطيف، وبرز توقيعُ الخليفة في اليوم الثَّالث، مضمونُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] تسليماً لأمر الله وقضائه، وصبراً لحكمه النَّافذ وبلائِهِ، في الإمام السَّعيد الذي عَظَّم الله مُصابه، واعتاض حُلْو العيش صابه، إنَّ الصبر عليه لبعيد، والتَّلهُّفَ عليه كل يوم جديد، فجدَّد الله له من كرامته الرَّاجحة، وتحياته الغادية والرَّائحة ما يُحِلُّه بُحْبُوحة جِنانه، ويُنيلُه مبتغاه من إحسانه، فلقد كان رحمةً للعِباد، ونعمةً على البلاد، وليس إلا التسليم للمقدور، والتفويض إلى الله في جميع الأمور، وإن السَّعيد مَنْ كان عمله في دنياه لأُخراه، ومرجوعه إلى الله تعالى في بدايته وعقباه، والله يوفّق أميرَ المؤمنين لما يرضاه، ويُصلح على يديه رعاية رعاياه، ليعود النِّظام إلى اتِّساقه، ويرجع نور الإمامة إلى إشراقه، فانهضْ إلى الدِّيوان لتنفيذ المهام، واثقاً بشمول الإنعام، ولتأمر المتصرِّفين بالانكفاء إلى الخدمات، وليتقدَّم بضرب النَّوبة في أوقات الصَّلوات، إنْ شاء الله تعالى.

وفي هذا اليوم أمر الخليفة بالقَبْض على ابن المُرَخِّم القاضي الظالم، واستصفيتْ أمواله، ورَدَّ منها على أربابها ما ارتشاه، وما أخذه بغير حَقّ، وقيَّده وحبسه، ولم يزل في حَبْسه حتى مات. وكان يُنْسَبُ إلى الزَّنْدقة، فَفُتِّشت كتبُه، فوجدوا فيها كُتُب ابن سينا: «الشِّفاء» و«النَّجاة» و«الإرشادات» و«رسائل إخوان الصَّفا»، وكتب الفلاسفة. فأمر الخليفةُ بإحراقها في الرحبة بعد صلاة الجمعة بمحضر من العلماء، فأُحرقت، وتضاعفت عليه اللَّعْنة، وكَثُرَ ضجيجُ النَّاسِ بالدُّعاء للخليفة.

ولما انقضى شهرٌ للمقتفي، خَلَعَ الخليفة على الوزير والقضاة وأبي الفرج ابن الجوزي وأبي النَّجيب وعبد القادر، وغيرهم من الأعيان، فأَذِن للوعَّاظ في الجلوس، فجلس [أبو جعفر بن][(١)] سعيد بن المشاط، فكان يقول إذا قَصَّ: هذا كلام موسى، هذا كلامُ النَّمْلة، فقيل له ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾[البقرة: ١-٢]، كلام الله؟ قال: لا. فأُخرج من بغداد.

(١) ما بين حاصرتين من «المنتظم»: ١٠/ ١٩٤.

وفي جُمادى الآخرة عُزل أبو الحسن عليُّ بن الدَّامَغَاني قاضي القضاة، وولي مكانه عبد الواحد ابن الثقفي(١)، وسبب عَزْله أن الثَّقفي كان إذا دخل عليه لم يقم له. فقيل له: قُمْ له، فقال: ما جرت عادة أَنَّ قاضي القضاة يقوم لأحدٍ(٢). فقيل له: فقد كنتَ تقوم لابنِ المُرَخِّم، فأنكر، فأشهد عليه العدول بذلك، فَعُزِلَ.

وكان رجلٌ يرفع إلى المقتفي أخبارَ البلد، فلما ولي المستنجد، كَتَبَ إليه على العادة، فقال [المستنجد](٣): ما هذا؟ فقالوا: صاحبُ خبر، فأَمَرَ به فَضُرِبَ حتى سال دمُه، [ثم أمر به فحبس](٤).

وفي شوال اتَّفق الأُمراء بباب هَمَذَان على خَلْع سليمان شاه، لما كان عليه من البُخْل والغَفْلة واللهو، وكتبوا إلى شمس الدين إيلدكز يطلبون أرسلان شاه بن طُغْريل ابن السُّلْطان محمد، واتَّفق أَنَّ سليمان شاه ركب يوماً فرساً، وهو مخمور، فسقط عن الفرس، فأصابه صَرْعٌ، فقبضوا عليه، وحبسوه في حُجْرة بقصر هَمَذَان، وجاء إيلدكز ومعه أرسلان شاه بن طُغْريل بن محمد بن ملك شاه بن ألب رسلان، وذلك في ذي القعدة، وتولى أتابكية العسكر إيلدكز، وكان زوج أُمه، وله منها أولاد، فأجلسوا أرسلان شاه على التَّخْت، وتقرَّرَت الوِزارة لشهاب الدين الثِّقة، وأما سليمان شاه، فكان الموكلين به أطلقوه، فهرب، وانضم إليه جماعةٌ، وسار طالباً بغداد، فاجتاز بأرض الموصل، فَقَبَضَ عليه زين الدِّين، وأدخله المَوْصِل، وبعث القاضي فخر الدين الشَّهْرُزُوري رسولاً يطلب السَّلْطنة لسليمان شاه وهو بالمَوْصل، ولا تَعَلُّق له ببغداد.

وقَدِمَ زين الدِّين علي كوجك حاجًّا في هذه السنة، وجلس له الخليفة، وأوصله إليه، وخَلَعَ عليه خِلْعة طويلة، فأخرج منديلاً وشَدَّ وسطه، فَقَصُرَتِ الجُبَّة، فأعجب الخليفة،

(١) هو عبد الواحد بن أحمد بن محمد ابن الثقفي، ولد سنة (٤٧٩هـ) بالكوفة، وتوفي سلخ ذي الحجة من سنة (٥٥٥هـ)، انظر ترجمته في «المنتظم»: ١٠/ ١٩٦، و«العبر» للذهبي: ٤/ ١٥٧، و«الجواهر المضية»: ٢/ ٤٧٨-٤٧٩ .

(٢) في «المنتظم»: ١٠/ ١٩٥: وكان قد قيل لابن الدامغاني: قم لابن الثقفي الصغير الذي ولي مكان ابن المرخم، فقال: ماجرت العادة أن يقوم قاضي القضاة لقاضٍ.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٤) في (ع) و (ح): وحبس، والمثبت من (م) و (ش).

وكان كوجك بخيلاً، كانت هديته إلى الخليفة عشر سكاكين، حَلَّها من وسطه، وجعل يبوس كلَّ واحدة ويتركها بين يدي الخليفة، ولما حَجَّ ما فعل خيراً قط، ولا تصدَّق بدِرْهم[(١)].

وحجَّ في هذه السنة أسد الدِّين شيركوه، فتصدَّق وفعل كلَّ خير، وأغنى أهل الحرمين، وأمر ببناء رباطه في مدينة النَّبي ﷺ، وأَوْصى إذا مات أن يُحملَ ويدفنَ فيه.

وفيها انتهى تاريخ ابنُ القلانسي، ومات.

وفيها توفي

أحمد بن محمد بن سُمَيْعة البغدادي[(٢)]

من شعره: [من الخفيف]

وُدُّ أَهْلِ الزَّوْراءِ زُوْرٌ فلا يَسـ ... ـكُنُ ذو خِبْرةٍ إلى ساكنيها
هيَ دارُ السَّلام حَسْبُ فلا يُطْـ ... ـمَعُ فيها في غيرِ ما قيل فيها

الحسن بن علي بن عبد الله بن أبي جرادة[(٣)] أبو علي ثقة الملك الحلبي

سافر إلى مِصر، وتَقدَّم عند الصَّالح بن رزِّيك، وكان يحترمه لفَضْله، وبيته، وتوفِّي بمِصر في هذه السَّنة، وقيل: سنة إحدى وخمسين[(٤)]، ومن شعره: [من البسيط]

يا صاحبيَّ أَطيلا في مُؤَانستي ... وذكِّراني بخُلَّاني وعُشَّاقي
وحَدِّثاني حديثَ الخَيْفِ إنَّ به ... رَوْحاً لرُوحي وتَسْهيلاً لأخلاقي[(٥)]

---

(١) كذا قال، وأما ابن الأثير فقد ذكر في «الباهر»: ١١٥ أن زين الدين علي حج في هذه السنة، وأحسن إلى الناس في طريق مكة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله، فلما لبس الخلعة كانت طويلة، وكان قصيراً جداً، فمد يده إلى كمراته، وأخرج ما شد به وسطه، وقصر الجبة، فنظر المستنجد إليه واستحسن ذلك منه. وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم. وانظر «الروضتين»: ١/ ٣٨٩.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ١/ ٣٤٤-٣٤٥، وفيه شميعة، والبيتان فيه، وقال العماد: توفي بعد سنة خمس وخمسين.

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ١٩٧، و«معجم الأدباء»: ١٦/ ١٢-١٦، و«الجواهر المضية»: ٢/ ٧٣، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٣١، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٧٤.

(٤) ذكر وفاته في سنة (٥٥١هـ) كل من ترجم له خلا ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»، والعماد في «شذرات الذهب»، فقد تابعا المؤلف في ذكر وفاته سنة (٥٥٥هـ).

(٥) في (ع) و (ح): لآماقي، والمثبت من «الخريدة».

ما ضَرَّ ريحَ الصَّبا لو ناسَمَتْ حُرَقي واستنقذت مُهْجتي من أَسْر أشواقي
داءٌ تـقـادمَ عـنـدي مَـنْ يـعـالـجُـهُ ونَفْثَةٌ بلغتْ منِّي إلى الرَّاقي[1]
يـفـنـى الـزَّمـانُ وآمـالـي مُـصَـرَّمـةٌ ومـن أُحِـبُّ عـلـى مَـطْـلٍ وإمـلاقِ
وَاضيعةَ العُمْرِ لا الماضي انتفعتُ به ولا حَصَلْتُ على شيءٍ من الباقي[2]

وقال: [من البسيط]

ما ضَرَّهُمْ يوم جَدَّ البينُ لو وقَفوا وزَوَّدوا كَـلِـفـاً أَوْدَى بـه الـكَـلَـفُ
تـخلَّفوا عن وَداعي ثُمَّتَ ارتَحلُوا وأَخـلـفـوني وعُـوداً مـالـهـا خَـلَـفُ
أستودعُ اللهَ أحباباً أَلِفْتُهُمُ لكنْ على تَلَفي يوم النَّوى ائْتَلَفُوا
عَمري لئن نَزَحَتْ بالبَيْنِ دارُهُمُ عنِّي فما نزحوا دَمْعي ولا نَزَفوا[3]

وقال: [من الكامل]

قـالـوا تـركـتَ الـشِّـعـر قـلـتُ لـهـمْ فـيـه اثْـنـتـانِ يـعـافُـهـا حِـبِّـي
أمـا الـمـديـح فـكـلُّـه كَـذِبٌ والـهَـجْـو شـيءٌ لـيـس يَـحْـسُـنُ بـي[4]

حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى التَّميمي[5]، العميد الدِّمَشْقي، ويعرف بابن القلانسي

كان فاضلاً، أديباً، مترسِّلاً، جمع تاريخ دمشق، وسماه «الذيل»[6]، وذكر في أوله طَرَفاً من أخبار المِصْريين وبعض حوادث السِّنين، وإلى هذه السنة انتهى غايته، وكانت وفاته يوم الجمعة سابع ربيع الأول، ودُفِنَ يوم السبت بقاسيون.

(١) في «الخريدة»: من الراقي.
(٢) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ١٩٨ .
(٣) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٢١٨ .
(٤) البيتان في «الخريدة»: ٢/ ٢١٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٥) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) (س): ٥/ ٢٩٨-٢٩٩، و«معجم الأدباء»: ١٠/ ٢٧٨-٢٨٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٨٨-٣٨٩، وفيه تتمة مصادر ترجمته.
(٦) نشره المستشرق آمدروز، وطبع بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٨م ، ثم أعاد نشره الدكتور سهيل زكار، وطبع في دمشق سنة ١٩٨٣م.

ومن شعره: [من الكامل]

إيـاكَ تَـقْـنَـطُ عـنـد كـلِّ شـديـدةٍ ... فـشـدائِـدُ الأيـامِ سـوف تـهـونُ
وانـظـرْ أوائـلَ كـلِّ أمـرٍ حـادثٍ ... أبـداً فـمـا هـو كـائـنٌ سـيـكـونُ[1]

عيسى الملقب بالفائز[2]

ابن الظَّافر، صاحب مصر.

أمه أم ولد، يقال لها زين الكمال[3]، ومولده في المحرَّم سنة أربعٍ وأربعين وخمس مئة، وتوفي وهو ابن إحدى عشرة سنة وشهور، وكانت أيامه ستَّ سنين وستة أشهر وسبعة عشر يوماً، وبين وفاته ووفاة المقتفي أربعة أشهر وأيام[4].

وقام بعده أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، ولم يلِ أبوه الخلافة، وأمه أم ولد تُدْعى ست المُنَى[5]، ولقب بالعاضد، ولد سنة أربع وأربعين[6]، وبويع لعشر بقين من رجب، وهو ابن إحدى عشرة سنة وشهور، وقيل: تسع سنين، والأول موافق لمولده، وتولى تدبير الأمور الصَّالح بن رُزِّيك.

قيماز الأَرْجُواني[7]

أمير الحاجِّ بعد نَظَر الخادم.

---

(١) البيتان في «تاريخ ابن عساكر»: ٥/ ٢٩٩، و«معجم الأدباء»: ١٠/ ٢٧٨-٢٧٩ .

(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ١٩٦، و«الكامل»: ١١/ ١٩١، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٩١-٤٩٤، و«اتعاظ الحنفا»: ٣/ ٢١٣-٢٣٩، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٢٠٥-٢٠٧ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) في «اتعاظ الحنفا»: ٣/ ٢١٣ ست الكمال.

(٤) قال ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٠٦ أما السابق فهو الخليفة المقتفي، فإن وفاة المقتفي في شهر ربيع الأول، ووفاة الفائز هذا صاحب الترجمة في شهر رجب.

(٥) في (ع) و (ح): عاشت المنى، والمثبت من «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٠٧ ، وهو ينقل عن السبط.

(٦) ثمة اختلاف في سنة ولادته، فقد ذكر ابن خلكان والذهبي والمقريزي أنها في سنة (٥٤٦هـ)، أما ابن تغري بردي فتابع السبط في أنها سنة (٥٤٤هـ).

(٧) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ١٩٦-١٩٧، و«الكامل»: ١١/ ٢٦٤، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٣٢ .

كان شجاعاً عادلاً، رفيقاً بالحاجّ، مُحْسِناً إليهم، دَخَلَ ميدان دار الخلافة يلعب بالكُرة، فسقط من الفرس على رأسه، فخرج من أُذُنه [دم][(١)]، فمات، فحزن الخليفةُ عليه والنَّاس [لخيره وحُسْنِ سيرته][(١)] وأمر أرباب الدولة أن يمشوا في جِنازته، فمشوا إلى الشُّونيزِيَّة، فدُفِنَ بها، وحَجَّ بالنَّاسِ مدَّة سنين.

المُقْتفي بالله أمير المؤمنين[(٢)]

أبو عبد الله محمد بن المستظهر، وسبب وفاته أنَّه خرج إلى بعض متنزَّهاته في حَرٍّ شديد، يقال: إنه أكل رُطَباً كثيراً أياماً متواترة، فَحُمَّ حُمَّى حادَّة، وعاد مريضاً، فاتصل به المرض حتى صار تراقيا، وهو دُمَّلٌ يخرج في العُنُق، وبه مات أبوه المستظهر، وماتا جميعاً في ربيع الأول.

[وبين وفاة المقتفي والسُّلْطان محمد ثلاثة أشهر، وكذا السُّلْطان محمود مات قبل المستظهر بثلاثة أشهر، وكذا المقتدي مات قبل ملك شاه بثلاثة أشهر، ومات المقتفي بعد غرق بغداد بسنة، وكذا القائم[(٣)].

وكانت وفاة][(١)] المقتفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول عن ستٍّ وستين سنة، وقيل: خمس وستين وأحد عشر شهراً، ومولده سنة تسعٍ وثمانين وأربع مئة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة، وثلاثة أشهر، وواحداً وعشرين يوماً، وأُمُّه أم ولد، تدعى بُغْية النُّفوس ـ وقيل: نسيم ـ ودُفِنَ في داره بعد أن صَلَّى عليه المستنجد، وكَبَّرَ أربعاً، ثم نُقِلَ بعد ذلك إلى الرُّصافة.

[وحجَّ في أيامه بالناس نظر الخادم وقيماز الأُرجواني، وسمع المقتفي الحديث من أبي الفرج واسمه عبد الوهاب بن هبة الله بن السِّيبي][(١)].

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٣٩٩-٤١٢، و«الكامل»: ١١/ ٢٥٦، «الروضتين»: ١/ ٣٨٩، «الفخري»: ٣١٠-٣١٥، و«السير»: ٢٠/ ٣٩٩-٤١٢ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) في (م) و (ش) المستظهر، وهو تحريف، والمثبت هو الصواب، وكان ذلك سنة (٤٦٦هـ)، انظر «المنتظم» ٨/ ٢٨٤-٢٨٦ .

وقال عفيف النَّاسخ، وكان صالحاً: رأيت في المنام قائلاً يقول: إذا اجتمعتْ ثلاث خاءات كان آخر خلافته، فقلت: خلافة مَنْ ؟ قال: [خلافة][(١)] المقتفي. فلما دخلت سنة خمس وخمسين وخمس مئة مات.

محمد بن يحيى بن علي[(٢)]

أبو عبد الله الزَّبيدي [شيخ الوزير ابن هُبيرة][(١)].

ولد بزبيد اليمن سنة ثمانين وأربع مئة[(٣)]، وقدم بغداد سنة تسع عشرة وخمس مئة[(٤)]، فصحبه ابنُ هُبيرة، وانتفع به، وكان يعرف النَّحو والأدب، زاهداً عابداً، يركب الجمل إلى بغداد وهو مخضوبٌ بالحِنَّاء، ويعظ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصبر على الفقر، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

[وحكي أنه][(١)] دخل على الوزير ابنِ هُبيرة، وقد خلع الخليفةُ عليه خِلْعة حرير، والنَّاس يهنئونه، فقيل: هذا يوم عزاء لا يوم هناء، أَيُهنَّى الوزير على لبس الحرير! فبكى [الوزير][(١)] ابن هبيرة، وقال: صدق.

[وكانت له سياحاتٌ باليمن ورياضات][(١)] قال: خرجتُ من زَبِيْد أُريد المدينة على الوحدة، فآواني الليل إلى جبل، فصَعِدْتُ عليه، وناديتُ: اللهم إنِّي الليلة ضيفك، فنوديت: مرحباً بك يا ضيف الله، الضِّيافة عند طلوع الشَّمس. فلما صلَّيْتُ الصُّبْح مشيتُ، فأتيتُ وقت طلوع الشمس إلى بئر، وعندها قومٌ يستقون الماء، وقد جلسوا يأكلون خُبْزاً وتَمْراً، فقالوا: بسم الله، هَلُمَّ إلى الضِّيافة. فأكلتُ معهم، وتعجبتُ.

[وفي رواية: نُوديت في الليل: إنك تأتي على قوم عند طلوع الشمس على بئر يأكلون خبزاً وتمراً، فإذا دعوك فكُلْ][(١)]. وكانت وفاته في ربيع الأَوَّل [في الشهر الذي

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) له ترجمة في «الأنساب»: ٦/ ٢٤٧-٢٤٨، و«المنتظم»: ١٠/ ١٩٧-١٩٨، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ١٠٦-١٠٨، و«الكامل»: ١١/ ٢٦٤، «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٤٣، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ١٩٨، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣١٦-٣١٩، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) نقل ابن خلكان عن ابن النجار ولادته سنة (٤٦٠هـ)، وهو ما اعتمده الذهبي في «السير».

(٤) كذا في النسخ الخطية، وفي «المنتظم» و«الكامل»، و«وفيات الأعيان»: سنة ٥٠٩، وهو الأشبه بالصواب.

مات فيه المقتفي][١]، ودفن بباب الشام، غربي بغداد، وصلى عليه الوزير وأربابُ الدولة.

السنة السادسة والخمسون وخمس مئة

في المحرَّم قُطعت خُطْبة سليمان شاه من المنابر في جوامع بغداد، وضَعُفَ أمره.

وفي ربيع الأول نُقِلَ المقتفي إلى الرُّصافة ليلة الأربعاء، وأُنزل تابوته في الزَّبْزَب[٢]، ومعه جميعُ أرباب الدولة.

[وفيها قتل طلائع بن رزِّيك بمصر][١].

وفيها اجتمع خَلْقٌ من التركمان في البَنْدَنِيجَيْن[٣] ليقصدوا بغداد، فجهَّز إليهم الخليفة عسكراً، وقدَّمَ عليهم ترشك، فلما قربوا منهم امتنع ترشك من لقائهم، وكان يُظْهر أنَّه مع الخليفة، وهو مع التركمان باطناً، فلما عَلِمَ عسكر الخليفة نِفاقه، وَثَبوا عليه، فقتلوه، وبعثوا برأسه إلى بغداد في مخلاة.

وفيها قَدِمَ أبو الخير القزويني[٤] بغداد، وجلس بالنِّظامية، وذكر مذهب الأشعري، وثارتِ الحنابلةُ عليه.

وفيها توفي

إبراهيم بن دينار[٥]

أبو حكيم النَّهْرواني، الفقيه الحنبلي، [شيخ جدي في القرآن والمذهب والحديث والفرائض][١].

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) الزبزب: سفينة صغيرة. «شفاء الغليل»: ١٤٣.

(٣) بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعلى بغداد. «معجم البلدان»: ١/ ٤٩٩.

(٤) هو أحمد بن إسماعيل، وسترد ترجمته في وفيات سنة (٥٩٠هـ).

(٥) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٠١-٢٠٢، و«مشيخة ابن الجوزي»: ١٩١-١٩٣، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ٣٤٦-٣٤٧، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٩٦، و«المنهج الأحمد»: ٣/ ١٦٥-١٦٨، وفيهما تتمة مصادر ترجمته.

ولد سنة ثمانين وأربع مئة، وقرأ القرآن، وسَمِعَ الحديث، [وتفقه][(١)] وناظر وأفتى، وانفرد بعلم الفرائض.

[وأعطي مدرسة ابن الشمحل بباب الأزج[(٢)]، ثم أعطيت لجدي بعده][(٣)].

ورأى الخضر عليه السَّلام في منامه، فقال له: [من الوافر]

تـأهَّبْ لـلـذي لا بُـدَّ مـنـه ... مـن الـمـوت الـموكَّـل بـالـعـبـادِ

قال: فأردتُ أن أقول له: متى؟ فقال: قد بقي من عمرك كذا وكذا سنة، فكان كما قال.

وكانت وفاتُهُ في جُمادى الآخرة، ودُفِنَ قريباً من بِشْر الحافي، وكان صالحاً متواضعاً حليماً جداً، صبوراً، صدوقاً، ثقة، صائماً، قائماً. [وعاش نيفاً وسبعين سنة][(٣)].

أحمدُ بن الحسن[(٤)]

أبو السعود بن قُضَاعة، البغدادي.

ومن شعره: [من البسيط]

وشـادِنٍ فـاتـرِ الألـحـاظ مُـشْـتَـمِـلٍ ... ثـوبَ الـملاحةِ في ثَوبٍ من الـخَـفَـرِ
كـأنَّـه قـمـرٌ أضـحـتْ مـغـارِسُـهُ ... في دِعْص رَمْلٍ على غُصنٍ من الشَّجرِ
يـمـيسُ مُـشْـتـمـلاً ثـوب الـشَّـبـاب وقـد ... حافت عليه بقايا الكأس في السَّحَرِ
فَـظَـلْـتُ مـنـهُ بـصُـبْـح مـن مـحـاسـنِـهِ ... مـع الـمُـدَام وفـي لـيـلٍ مـن الـشَّـعَـر
حتى إذا لاحَ مِصباحُ الصَّباحِ رَمَتْ ... بـنـا الـظُّـنـونُ إلـى هَـوْلٍ مـن الـخَـطَـرِ
فـقـمـتُ أَنْـفُـضُ ثـوبـاً بـاتَ مُـشْـتـمـلاً ... عـلـى الـعـفـافِ نـقـيًّـا طـاهـرَ الأُزُرِ

(١) في (ع) و (ح) وتقدم، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) في «المنتظم»: ١٠/ ٢٠١ : وأعطي المدرسة التي بناها ابن الشمحل بالمأمونية، وأعدت درسه، فبقي نحو شهرين فيها، وسلمت بعده إليَّ، فجلست فيها للتدريس، وله مدرسة بباب الأزج، فكان مقيما بها، فلما احتضر أسندها إليَّ.

قلت: والمأمونية محلة كبيرة ببغداد بين نهر العالي وباب الأزج، انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٤٤.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٤) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٦/ ٣٢١-٣٢٢ ، وفيه أحمد بن الحسن بن قضاعة، أبو السعود، وقد نقل ترجمته عن ابن النجار.

حمزة بن علي بن طلحة أبو الفتوح(١)

حاجب باب المسترشد والرَّاشد والمقتفي، ترك الدُّنيا عن قُدْرة، وحَجَّ، ولبس القميص القُطْن عند الكعبة، وعاهد الله أن لا يخدم أحداً، وقَدِمَ من الحج إلى بغداد، والتقاه النَّاس يبكون على فَقْده [لأنَّه كان لطيفاً بهم](٢)، وأنشده أبو الحسين(٣) الشَّاعر: [من السريع]

يا عَضُدَ الإسلامِ يا مَنْ سَمَتْ ... إلى العُلا هِمَّتُهُ الفاخِرَهْ
كانت لك الدُّنيا فلم تَرْضَها ... مُلْكاً فأَخْلَدْتَ إلى الآخرهْ

وكان تزهُّده في زمان المقتفي، فأقام عشرين سنة على هذا، وكان محترماً في زمان عزلته أعظم مما كان في زمان خدمته، وكان يغشاه أربابُ الدولة وغيرهم، وكان يتعبَّد في داره، ويسمع الحديث؛ [سمع من أبيه ومن ابن بيان وغيرهما](٤). وكانت وفاته في رمضان، فحمل إلى الحربية، فدفن في تربته مقابل أبي الحسن القَزْويني، وكان يوماً مشهوداً.

الصالح طلائع بنُ رُزِّيك(٥)

أبو الغارات، [وزير الديار المصرية، وقد ذكرناه](٢).

أقام وزيراً بمِصر سبع سنين على أحسن الوجوه، [وبسطَ](٦) العَدْلَ والإحسان، فلما كان في العاشر من رجب وَثَبَ عليه باطنيٌّ بين القَصرين، فضربه بسكِّينٍ في رأسه، ثم في تَرْقُوته، فحمل إلى داره، وقُتِلَ الباطني، ومات طلائع من الغد، فحزن النَّاسُ عليه، وبكوا، وأُقيمت المآتم بين القصرين، وفي المشارع، ومِصر، لأنَّه كان كثيرَ

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٠٢، و«الكامل»: ١١/ ٢٨٠-٢٨١، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ٤٨، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ١٧٩-١٨٠.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٣) في (ع) و (ح): أبو الحسن، والمثبت من «المنتظم»، وهو أحمد بن المبارك، وسلفت ترجمته في وفيات سنة (٥٥٢هـ).

(٤) كذا بين حاصرتين من (م) و (ش)، وفي «المنتظم»: روى عن أبي القاسم بن بيان، وهو الأشبه بالصواب.

(٥) له ترجمة في «النكت العصرية» لعمارة اليمني، و«خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٧٣-١٨٥، و«الكامل»: ١١/ ٢٧٤-٢٧٦، و«الروضتين»: ١/ ٣٧٤-٣٧٥، ٣٩٠-٣٩٦، «وفيات الأعيان»: ٥/ ٥٢٦-٥٣٠، و«العبر»: ٤/ ١٦٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٩٧، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٦) في (ع) و (ح): وبذل، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

الإحسان جَوَاداً، مشفقاً على الرعية، دَيِّناً، صالحاً كما سمِّي، كثيرَ الصَّدقات، حَسَنَ الآثار، بنى جامعاً على باب زُويلة، وآخر بالقرافة، وتُرْبة إلى جانبه، وهو مدفونٌ بها، وعَمَرَ المساجد، وكان يتفقَّد أربابَ البيوت، وكان فاضلاً، شاعراً، وله ديوان [مليح](١)، ورثاه الشُّعراء.

وقام بعده ولدُه رُزِّيك بن طلائع بأمر الوزارة، ولقب بمجد الإسلام.

ومن شعر الصَّالح يجيب مؤيد الدولة أُسامة ابن منقذ: [من الطويل]

هي البَدْرُ لكنَّ الثُّريا لها قُرْطُ ... ومن أَنْجُمِ الجوزاء في نَحْرها سِمْطُ
مَشَتْ وعليها للغمامِ ظلائِلٌ ... تُظِلُّ ومن نَسْجِ الرَّبيع لها بُسْطُ
فما اخْضَرَّ ثوبُ الأَرْض إلا لأنَّها ... عليه إذا زارت بأقدامها تَخْطُو

[وهي أبيات طويلة(٢).

قال: وحكي أنَّه] دَخَلَ الحَمَّام، فخرج فقال: [من الخفيف]

نحن في غَفْلَةٍ ونومٍ وللمو ... تِ عيونٌ يقظانةٌ لا تنامُ
قد دخلنا الحَمَّامَ عاماً ودَهْراً ... ليتَ شِعْرِي متى يكونُ الحِمامُ(٣)

فقتل بعد ثلاثة أيام.

وكَتَبَ إلى صديق له إلى الشَّام يقول: [من البسيط]

أحبابَ قلبي إنْ شَطَّ المَزَارُ بكمْ ... فأنتُمُ في صميمِ القَلْبِ سُكَّانُ
وإنْ رَجَعْتُمْ إلى الأوطانِ إنَّ لكُمْ ... صدورَنا عِوَضَ الأَوْطانِ أَوْطانُ
جاورتمُ غيرنا لما نأتْ بكُمُ ... دارٌ وأنتم لنا بالودِّ جيرانُ
فكيف ننساكُمُ يوماً لبعدكُمُ ... عنَّا وشخصكُمُ للعينِ إنسانُ(٤)

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، ويبدو أن ديوانه قد فقد، فجمع شعره الدكتور أحمد أحمد بدوي، وطبعه في مصر سنة ١٩٥٨، ثم استدرك عليه محمد هادي الأميني، وطبع في النجف سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤.

(٢) في (ع) و (ح): من أبيات، ودخل الحمام.. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، والأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٧٧.

(٣) البيتان في «النكت العصرية»: ٤٨-٤٩ مع اختلاف في اللفظ، وانظر «الروضتين»: ١/ ٣٩٢.

(٤) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٨٢.

وقال زين الدين بن نُجَيَّة: عمل الصَّالح لأخيه دعوة، ودفع إلي هذه الأبيات يوم الدَّعوة، وهي: [من الطويل]

أَنِسْتُ بكم دَهْراً فلمَّا ظَعَنْتُمُ اسـ ـتقرَّتْ بقلبي وَحْشَةٌ للتفرُّقِ
وأعجبُ شيءٍ أَنَّني يومَ بَيْنكُمْ بقيتُ وقلبي بين جنبيَّ ما بقي
ألا جَدِّدي يا نفسُ وَجْداً وحسرة فهذا فراقٌ بعدَه ليس نلتقي[(١)]

[قال ابنُ نُجية][(٢)]: فقتل في رمضان، ولم يلتقيا بعد ذلك.

وقال أيضاً: [من مجزوء الكامل]

يا راكباً ظهر المعاصي أوَمَا تخافُ من القِصَاص
أَوَمَا ترى أسباب عمـ ـركَ في انتقاضٍ وانتقاص[(٣)]

محمد بن أحمد بن محمد أبو طاهر الكَرْخي[(٤)]

وليَ قضاء واسط وباب الأَزَج وحريم دار الخلافة، وولي لخمسة من الخلفاء: المستظهر، والمسترشد، والرَّاشد، والمقتفي، والمستنجد، وهو الذي حكم بفَسْخ ولاية الرَّاشد، وكانت وفاتُه في ربيع الأول.

عبد الكريم بن عبد الله[(٥)]

ابن محمد، أبو الفضائل، التنوخي، المعرِّي، أخو القاضي أبو اليُسْر شاكر [بن عبد الله][(٢)]، ولد سنة ثماني عشرة وخمس مئة بحماة، وبها نشأ، [وربَّاه جده القاضي أبو المجد محمد بن عبد الله وأخوه أبو اليُسْر][(٢)]، وكان جَوَاداً، زاهداً، فاضلاً شاعراً، كثير الصدقة، مواظباً على قراءة القرآن [[(٦)] قال الحافظ ابن عساكر: أنشدني

(١) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٨٤، وانظر «الروضتين»: ١/ ٣٩١.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٣) البيتان في «الخريدة»: ١/ ١٨٤.
(٤) له ترجمة في «الأنساب»: ١٠/ ٣٩٢، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٠٢-٢٠٣، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ١٠٩، و«سير الأعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٩٠-٣٩٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.
(٥) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) (س): ١٠/ ٤٢٩-٤٣١.
(٦) في (ع) و (ح): ومن شعره في جسر ابن شواش، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

أبو اليُسْر شاكر، أنشدني أخي أبو الفضائل لنفسه، وقد اجتاز بجسر ابن شوَّاش[(١)] في زمان الربيع هذه الأبيات]: [من السريع]

مــررتُ بــالـجـسـر وقـد أَيْـنَـعَـتْ ... رِيــاضُــهُ بــالــخُــرَّدِ الــعِــيْــنِ
جسـرِ ابـنِ شَـوَّاش الـذي لـم تَـزَلْ ... فـيـهِ الـعـيـونُ الـنُّـجْـل تَـسْـبـيـنـي
ونـشـر عِـطْـرٍ فـاغـم لـم أَزَلْ ... أمـوتُ مـن شـوقٍ فـيـحـيـيـنـي
وكـان قـلـبـي فـي الـهـوى طـائـعـي ... وعـاصـيـاً مـن كـان يـغـريـنـي[(٢)]
ولـم يُـجـبـه لـلـذي سـامـه ... مـن الـخـنـا قـلـبـي فـيـصـبـيـنـي
فـسـرتُ عـنـهـنَّ سُـرى مُـسْـرِعٍ ... مـخـافـةً مـنـهـا عـلـى دِيـنـي
فـالـحـمـدُ لـلـه الـذي لـم يـزل ... إلـى سـبـيـل الـرُّشْـد يـهـديـنـي[(٣)]

وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن بقاسيون.

وقال [لأخيه لما احْتُضر][(٤)]: يا أخي قد حضرني قومٌ حِسانُ الوجوه، نظافُ الثِّياب، طَيِّبُو الرَّائحة، مستبشرين. فقلتُ: هذه الملائكة، [وكانت وفاته في هذه السنة كما ذكرنا][(٥)].

أبو البركات القاضي الأعز ابن أبي جرادة[(٦)]

أخو القاضي ثقة الملك الحسن بن علي بن أبي جرادة [الذي ذكرناه في سنة إحدى وخمسين وخمس مئة][(٧)].

---

(١) أحد متنزهات دمشق. «معجم البلدان»: ٣/ ٣٧٠.
(٢) في «تاريخ ابن عساكر»: يغويني، وهي الأشبه.
(٣) الأبيات في «تاريخ ابن عساكر»: ١٠/ ٤٢٩-٤٣٠.
(٤) في (ع) و (ح): وقال أخوه لما احتضر قال لي، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٥) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٦) توفي على الصواب سنة (٥٥٢هـ)، وقد سلفت ترجمته في وفياتها، وأعاد المصنف ترجمته في هذه السنة.
(٧) ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، وقد ذكر في وفيات سنة (٥٥٥هـ)، وقال في ترجمته: قيل توفي سنة إحدى وخمسين وخمس مئة. قلت: وما أدري هل ذكره السبط في وفيات سنة (٥٥١هـ) كما ذكر هنا، وغيره قطب الدين اليونيني مختصر «المرآة»، أم هو مظهر من مظاهر كثيرة تدل على أن الكتاب يعوزه التحرير والتنقيح؟

كان أبو البركات أميناً على خزانة نور الدين [محمود][١]. وكان فاضلاً [شاعراً، وله إلى أخيه مكاتبة وأجوبة، منها ما نذكر، وهي هذه الأبيات][٢]: [من الطويل]

أأحبابَ قَلْبي والذين أَوَدُّهُمْ ... وأَشْتاقُهُمْ في كل صُبْحٍ وغَيْهَبِ
بغيرِ اختياري فاعْلَموا وإرادتي ... نزلتُ على حُكْم النَّوى والتَّجنُّبِ
رحلتُ بقلبٍ عنكُمُ غيرِ راحلٍ ... وعِشْتُ بعيش بعدكم غيرِ طَيِّبِ
لقد فَلَّ غَرْبي غربتي عن بلادكم ... وأجرى غُروبَ العين مني تغرُّبي
فلا تحسبوا أنّي تسلَّيْتُ عنكُمُ ... فما الهَجْرُ من شأْني ولا الغَدْرُ مَذْهبي
لعَمْري لقد أبليتُ نفسيَ عُذْرها ... وإن كنتُ لم أظفر بغايةِ مطلبي
وقد كنتُ قبل البَيْنِ جَلْداً على النَّوى ... فهدَّ الأسى رُكْني وضَعْضَع منكبي
لحا اللهُ دَهْراً فرَّقتنا صروفُه ... فَشَعَّبَ منا الشَّمْلَ في كل مَشْعبِ
ولكنني أرجو من الله أنَّه ... سَيُنْعِمُ بالي منكُمُ بالتقرُّبِ[٣]

[قال العماد الكاتب: توفي بعد سنة خمس وخمسين وخمس مئة][٤].

أبو المكارم الآمِدِي[٥]

ويلقب بالكامل. ومن شعره يمدح الوزير ابنَ هُبيرة: [من الطويل]

وزير يضمُّ الدَّسْتُ منه جمالَهُ ... كما ضَمَّتِ الحسناءَ حاشيتَا بُرْدِ
تقضَّتْ أحاديثُ الورى ولفِعلِهِ ... أحاديثُ تروى بين غَوْرٍ إلى نَجْدِ
حديث كنَشْرِ الرَّوْضِ يجري نسيمُهُ ... على صفحة النَّادي بأذكى من النَّدِّ
إذا هبطت زهر النجوم فنجمُهُ ... مقيمٌ على الإشراق في طالع السَّعدِ
فَدُمْ وابقَ للإسلامِ والمُلْكِ ما شَدَتْ ... مطوَّقةٌ واشتاقَ ظامٍ إلى الوِرْد

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) في (ع) و (ح): وكان فاضلاً، وكتب إلى أخيه، وما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٢١-٢٢٢.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، انظر «الخريدة»: ٢/ ٢١٩.

(٥) هو محمد بن الحسين، وله ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٤٦٣، وقسم شعراء العراق: ج٣/ ٣٧٥-٣٨٠ - والأبيات فيه مع اختلاف في بعض ألفاظه - و«معجم البلدان»: ١/ ٥٧، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ١٧ . وفي «معجم البلدان» و«الوافي» وفاته سنة (٥٥٢هـ).

هبة الله بن الفَضْل[1]

ابن عبد العزيز، أبو القاسم البغدادي.

الغالب على شعره الهجو، ومن شعره[2]: [من الوافر]

يا مَنْ هَجَرَتْ فما تُبالي ... هل ترجعُ دولةُ الوِصالِ
ما أطمَعُ يا عذابَ قلبي ... أن ينعَمَ في هواكِ بالي
الطَّرْفُ كما عهدت باكٍ ... والجسمُ كما تَرَيْنَ بالِ
ما ضرَّكِ أن تُعَلِّليني ... في الوَصل بموعدٍ مُحالِ
أهواكِ وأنتِ حَظُّ غيري ... يا قاتلتي فما احْتيالي
أيَّامُ عَنَايَ فيكِ سودٌ ... ما أشبَهَهُنَّ بالليالي
العُذَّلُ فيك يزجروني ... عن حُبِّك مالهم ومالي
يا مُلْزِميَ السُّلُوَّ عنها ... الصَّبُّ أنا وأنتَ سالِ
والقولُ بتركها صوابٌ ... ما أَحْسَنَهُ لو استوى لي
في طاعتها بلا اختياري ... قد صَحَّ بعِشْقها اختبالي
طلَّقْتُ تجلُّدي ثلاثاً ... والصَّبْوةُ بَعدُ في حبالي[3]

وقال يمدح ابنَ هبيرة، من أبيات: [من البسيط]

أهلاً وسهلاً بمولانا فأَوْبتُهُ ... لكلِّ شاكٍ بها من رِفْدِهِ فَرَجُ
لا أعدَمَ الله فيك الخَلْقَ راحتهم ... يا من به تَفْخَرُ الدُّنيا وتَبْتَهِجُ
ودامَ جُودُك عونَ الدِّين يَغْمُرُنا ... يا مَنْ تعيشُ بما تسخو به المُهَجُ

---

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٠٧، و«خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ١/ ٢٧٠-٢٨٨، و«طبقات الأطباء»: ٣٨٠-٣٨٩، «وفيات الأعيان»: ٦/ ٥٣-٦١، و«الوافي بالوفيات»: ٢٧/ ٣٠٧-٣١٢، و« لسان الميزان»: ٦/ ١٨٩، وعندهم وفاته سنة (٥٥٨هـ).

(٢) قال العلامة محمد بهجة الأثري في تعليقه على «الخريدة»: وزن هذا الشعر من الوافر إلا أنه دخل فيه العَقَص، وهو اجتماع الخَرْم والعَضْب، فنقل فيه مفاعيلن إلى مفعولُ -بتحريك اللام- وهذه الحالة في البحر الوافر تشكل على معظم الأدباء، لقلتها وغرابتها، فيقع بينهم التنازع فيها.
قلتُ: وعدَّه بعضُهم من مجزوء الوافر، ومال العلامة عز الدين التنوخي إلى أنه من مجزوء الدوبيت، والله أعلم، انظر «إحياء العروض»: ص٦١ .

(٣) «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ١/ ٢٧٣-٢٧٥ ، وقد ساقها بتمامها ابن أبي أصيبعة في «طبقات الأطباء».

مولايَ قد قَصُرَتْ بي نهضتي كِبراً ... فما عليَّ بشكوى فاقةٍ حَرَجُ
يا مُحْسِناً طَرَدَتْ آلاؤه كرماً ... ما في فؤادي من اللأواء يعتلجُ
طيِّبْ بقيةَ عُمْري بالتعهُّد لي ... يا مَنْ له طيبُ ذِكْرٍ نَشْرُهُ أَرِجُ
فإنَّ من جاوز العُمْرين قد خَرِبَتْ ... بالعجز منه أعالي القَصر والأَزَجُ
ففيم تخدَعُني الدُّنيا بزينتها ... والحَيْنُ قد حان والأحبابُ قد دَرَجوا[1]

وتوفي في هذه السنة، وقيل: سادس وعشرين رمضان سنة ثمانٍ وخمسين[2]، ودفن بمقبرة معروف الكرخي.

[فصل، وفيها توفي

يوسف بن مكي، أبو الحجاج الحارثي[3]

الشَّافعي، إمام جامع دمشق بعد أبي محمد بن طاوس.

كان صالحاً، ورعاً، لا يأخذ على الإمامة أجرة، وتوفي بدمشق، سمع ببغداد ابن الطُّيوري وطبقته، وروى عنه أبو الحسن السُّلمي[4]، والحافظ ابن عساكر وغيرهما، وكان ثقة][5].

السَّنة السَّابعة والخمسُون وخمسُ مِئَة

في رجب ذكر يوسف الدِّمَشْقي الدَّرس في النِّظامية، وخُلِعَ عليه، وصُرِفَ ابن النِّظام بسبب تزويجه امرأة، عَقَدَ العَقْدَ عليها فقيه يقال له الأَشْتري سِرًّا، فأُدِّب الفقيه بباب النّوبي، وكانت المرأةُ قد ادَّعت أنه تزوَّجها وأنكر، ثم اعترف، فَعُزِلَ عن النِّظامية، وأُلزم بيته.

(١) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٧٨-٢٨١.
(٢) وهو ما ذكرته مصادر ترجمته.
(٣) له ترجمة في «مختصر ابن عساكر»: ٢٨/ ٩٣-٩٤ (اختصرته سكينة الشهابي على نهج ابن منظور).
(٤) كذا، وفي «مختصر ابن عساكر»: وتفقه مدة طويلة عند الفقيه أبي الحسن السلمي.
(٥) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

وفيها تكاملتِ المدرسةُ التي بناها الوزير ابن هُبيرة بباب البَصرة، ورتَّب بها الفقهاء، ودرَّس بها أبو الحسن البَرَانْدِسي الحَنْبَلي[(١)]، ثم خربت بعد الوزير، وذهبت أوقافها، وبها دُفِنَ الوزير.

وفيها حاصر نور الدين [محمود بن زنكي][(٢)] حِصن حارم، واجتمع الفرنج، وراسلوه، ولاطفوه، وكانوا خَلْقاً عظيماً، فرجع إلى حلب، وكان معه مُؤَيَّد الدِّين أُسامة بن مُرْشد بن منقذ [الذي أخرجه عمه من شيزر][(٢)]، فنزل بدار إلى جانبها مسجد، وكان قد نزل بها عام أَوَّل، وحَجَّ، ثم عاد، فدخل المسجد بعد عوده من الغَزَاة، فكتَبَ على [حائط المسجد أبياتاً لنفسه، وهي][(٣)]: [من الطويل]

لك الحمدُ يا مولاي كم لكَ مِنَّةٍ عليَّ وفَضْلٍ لا يحيطُ به شُكْري
نزلتُ بهذا المسجد العامَ قافلاً من الغزو موفورَ النَّصيب من الأَجْرِ
ومنه رَحَلْتُ العيْسَ في عاميَ الذي مضى نحو بيتِ الله والركن والحِجْرِ
فأدَّيْتُ مفروضي وأسقطتُ ثِقْلَ ما تحمَّلْتُ من وِزْرِ الشَّبيبة عن ظَهْرِي[(٤)]

وحجَّ النَّاسُ من العراق، ووقفوا بعرفة، فلما نزلوا الخَيْف خرجَ إليهم عبيد مكَّة فنهبوهم، فرحلوا إلى المدينة، ولم يَطُفْ أحد بالبيتِ، ولم يَسْعَ [خوفاً من العبيد][(٢)].

[وفيها توفي

خُطْلُخ بن عبد الله[(٥)]

أبو محمد، الأتابكي، الطُّغْتكيني الحنفي، ويسمى بعبد الهادي.

---

(١) هو علي بن محمد بن علي البراندسي، نسبة إلى براندس قرية من قرى بغداد، وقد توفي سنة (٥٨٦هـ)، انظر ترجمته في «التكملة لوفيات النقلة»: ١/ ١٣١ و«ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٦٦-٣٦٨، و«المنهج الأحمد»: ٣/ ٣٠٠-٣٠١.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٣) في (ع) و (ح): فكتب على حائطه لنفسه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٤) انظر «كتاب «الروضتين»: ١/ ٣٩٦.

(٥) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) و (س): ٥/ ٦٦٣-٦٦٤، و«الجواهر المضية»: ٢/ ١٦٦-١٦٧.

تفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث، وكان إمام جامع النَّيْرب ـ قرية غربي دمشق ـ وكانت وفاته بها، سمع أبا طاهر الحِنَّائي وطبقته، وروى عنه أبو سعد ابن السمعاني وغيره، وكان فاضلاً ثقة](١).

وفيها توفي

الحسين بن علي بن القاسم(٢)

ابن المُظَفَّر، أبو علي الشَّهْرُزُوري، قاضي قضاة المَوْصِل والجزيرة. كان عظيم الشأن، فاضلاً، قاضياً بالحقِّ، بعثه صاحب المَوْصِل إلى المقتفي في رسالةٍ، فتوقف الغَرَضُ الذي بُعث لأجله، فأقام ببغداد، وولاه المقتفي القضاء في إحدى جانبي بغداد مع أبي البركات الثقفي.

زُمُرُّد خاتون بنت جاولي(٣)

أُخت الملك دُقاق لأمه [ابن تاج الدولة تُتُش بن ألب رسلان](١) وهي أُمُّ شمس الملوك إسماعيل، وشهاب الدِّين محمود ابني بُوري بن طُغْتِكِين.

قرأت القرآن [على أبي محمد بن طاوس، وأبي بكر القرطبي، وسمعت الحديث من نَصر بن إبراهيم المقدسي وغيره](٤)، وكانت محبةً للعلماء وأهل الخير، حنفية المذهب، وهي التي بنت مسجد خاتون على الشرف القبلي ظاهر دمشق بأرض صَنْعاء ووقفت عليه الأوقاف الكثيرة.

[وليست خاتون التي بنت خانقاه الصوفية على الشرف القِبْلي قريباً من القبلة، تلك بنت معين الدين أُنر زوجة نور الدين محمود بن زنكي، وتزوجها صلاح الدين، وسنذكرها بعد الثمانين وخمس مئة، ودفنت بجبل قاسيون، وهي التي بنت مدرسة خاتون بدمشق.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) له ترجمة في «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٧٥، و«الوافي بالوفيات»: ١٤/ ٢١٣-٢١٤، «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٦١.

(٣) لها ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) (س): ١٩/ ٤٢٤ (تراجم النساء: ١١٢) و«العبر» للذهبي: ٤/ ١٦٢، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٧٨.

(٤) في (ع) و (ح): قرأت القرآن وسمعت الحديث، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

وأما صاحبة هذه الترجمة فهي التي][1] ساعدت على قَتْلِ ابنها شمس الملوك إسماعيل، لما كَثُرَ فساده، وسَفْكُه للدِّماء، وقَتْله خواص أبيه، ومصادرات النَّاس، ومواطأة الفرنج على بلاد المسلمين، [فأراحت منه العباد، وطهرت منه البلاد، قال الحافظ ابن عساكر: دبرت عليه حتى قتل بحضرتها،][2] وأقامت أخاه محموداً مكانه [وقد ذكرناه][2].

وتزوجها أتابك زَنْكي طمعاً في دمشق، فلم يظفر بطائل، ونقلها إلى حلب، فلما قُتِلَ [أتابك][3] على قلعة جَعْبر عادت إلى دمشق، فأقامت مُدَّة، ثم حَجَّت على طريق العراق، ودخلت بغداد.

وعادت إلى الحج، فجاورت بمكة سنةً، ثم جاءت إلى المدينة، فجاورت بها حتى توفيت، ودُفِنَت بالبقيع، وكان قد قَلَّ ما بيدها [فبلغني أنها كانت][4] بالمدينة تغربل القمح والشَّعير، وتتقوَّت بأُجرتهما، وكانت كثيرة البِرِّ والصَّدقات والصِّلات، والصَّوم والصَّلاة، [رحمها الله تعالى][3].

صدقة بن وزير الواسطي[5]

[ذكره جدِّي في «المنتظم»، وقال:][6] دخل بغداد [ولبس الصوف][3]، ولازم التقشُّفَ زائداً على الحد، ووعظ، وكان يصعد المنبر، وليس عليه فرش، فأخذ قلوب العوام، وكان يميل إلى مذهب الأشعري، وعنده رِفْض.

[قال: وبلغني أنَّه][3] لما مرض كان يُحْضِرُ الطَّبيبَ بالليل لئلا يقال عنه إنَّه يتداوى، وكان إذا جاءه فتوح يقول: أنا لا آخذ شيئاً، سَلِّموه إلى أصحابي. فَتَمَّ له ما أراد، وبنى

---

(١) في (ع) و (ح): ووقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وساعدت على قتل، وما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٤) في (ع) و (ح): قد قل ما بيدها، فكانت.. وما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٥) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٠٤-٢٠٥، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٠٦-١٠٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ١١٢-١١٣، والبداية والنهاية (وفيات سنة ٥٥٧هـ)، و«الوافي بالوفيات»: ١٦/ ٢٩١-٢٩٢.

(٦) في (ع) و (ح): قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

رباطاً بقَرَاح القاضي، فاجتمع إليه جماعةٌ، وتوفي يوم الخميس ثامن ذي القعدة، وصُلّي عليه في ميدان الخيل داخل السُّور، ودفن في رباطه.

[وبنى يزدن لرباطه منارةً، وتعصَّب له، لأجل ما كان يميل إليه صدقة من التشيع، وصار رباطه مقصوداً بالفتوح، وفيه دفن، هذا صورة ما ذكر جدِّي في «المنتظم»](١).

وقال ابن الدُّبَيْثي: صدقة بن الحسين بن أحمد بن محمد بن وزير، أبو الحسن الواسطي، من أهل قرية خُسَّابور(٢)، كان أبوه من تُنَّائها(٣)، وبها ولد صدقة، فأَحبَّ الاشتغال بالعِلْم، والزُّهْد في الدنيا، فترك ما كان فيه، وصار إلى واسط، فحفِظَ القرآن وقرأ بالعشر قراءات، وتكلَّم في الوعظ، فصار له بها قَبولٌ كبير، وأخذ نفسه بالمجاهدة، والرِّياضة وإدامة الصَّوم، والعبادة(٤).

قال المصنِّف رحمه الله: حكى لي مَنْ أدركه ببغداد، أَنَّه كان من الأولياء الأفراد، أقام سنين لم يدخل حَمَّاماً، ويقطع نهاره صياماً، وليله قياماً. واتَّفق وعَّاظ العراق على ثَلْبه على المنابر، ورميه بالصَّغائر والكبائر، ولم يُنْقل عنه أَنَّه ذكر أحداً منهم بلفظةٍ، ولا ثَلَمَ مال مسلم ولا ثَلَبَ عِرْضه، وكلَّما وقعوا فيه قد زاد قبوله.

[ولقد حكى لي تلميذُه الشيخ مُصَدِّق النَّحْوي](٥) أَنَّه منذ دخل العراق إلى أن توفي لم يأكل من حِنْطَةٍ زُرِعَتْ بأرض بغداد، وإنَّما كان يُحمل إليه من غَلَّةٍ واسط من مُلْكه ما يتقوَّتُ به، ولم يأكل من أوساخ أهل بغداد، وأقام عليه ثوب واحد ثلاثين سنة شتاءً وصيفاً ما غَيَّره. [وذكر مصدق عنه عجائب من زُهْده وورعه وأمانته وديانته](٦).

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، وانظر «المنتظم»: ١٠/ ٢٠٤-٢٠٥، وترجمة يزدن فيه: ١٠/ ٢٤٢.

(٢) هي خسروسابور، والعامة تقول خسابور، وهي قرية قرب واسط. «معجم البلدان»: ٢/ ٣٧١.

(٣) أي من أغنيائها. انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٤١٠.

(٤) انظر «المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٠٧.

(٥) في (ع) و (ح): وقال مصدق النحوي تلميذه أنه منذ دخل، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، وانظر ترجمته مصدق في «المذيل على «الروضتين»: ١/ ١٩٩-٢٠٠، بتحقيقي.

(٦) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

عبد الله بن علي بن أحمد(١)

ابن علي بن الحسن بن عبد الله بن فارس، أبو القاسم، الشاهد، الدِّمَشْقي، ويعرف بابن السيرجي.

وكان شيخاً صالحاً، ثقةً، أميناً، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتوفي بدمشق في ربيع الأول.

عَبد الرَّحمن بن مروان(٢)

ابن سالم، أبو محمد، التَّنوخي، المَعَرِّي، الواعظ.

قال العماد الكاتب: اجتمعتْ له الفصاحة والصَّباحة، ومواعظه مُبْكية مُضْحكة، وكلماته بالوَعد منجية، وبالوعيد مُهْلكة، إذا وعظ كانت عباراته أَرَقَّ من عبرات الباكين، وإذا أنشد كانت غُرره مثل ثغور الضَّاحكين، حَضَرْتُ مجلسه ببغداد، وشهِدْتُ محاسنه، فألفيته جوهريَّ الوقت، جَهْوَري الصَّوت، فهو كما قال الحريري: يقرعُ الأسماعَ بزواجر وَعْظِهِ، ويطبع الأسجاع بجواهر لفظه.

وكان شحاذاً، نتاشاً، حَوَّاشاً، قلما يخلو يوماً شَرَكُه من صيد، حتى لو رآه الحريري لم يذكر أبا زيد.

ورأيتُه قائماً يعظ في عزاء صدر الدين إسماعيل شيخ الصُّوفية ببغداد، وهو ينشد: [من المديد]

يـا أخِـلاَّئـي بـحـقـكُـمُ ... مـا بـقـي مـن بـعـدكـم فَـرَحُ
أيُّ صَـدْرٍ فـي الـزَّمـانِ لـنـا ... بـعـد صَـدْرِ الـدِّيـن يَـنْـشَـرِحُ

(١) له ترجمة في مختصر «تاريخ ابن عساكر» (اختصرته سكينة الشهابي على منهج ابن منظور): ١٣/ ١٤٥، وفيه وفاته سنة (٥٥٨هـ).

(٢) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»: ١٠/ ١٨٢-١٨٣، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٩٢-٩٧، و«الوافي بالوفيات»: ١٨/ ٢٦٦-٢٦٩، و«فوات الوفيات»: ٢/ ٣٠٠-٣٠١، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٧٨، ووفاته في «تاريخ ابن عساكر» سنة (٥٥٩هـ)، وفي «الخريدة» سنة (٥٦٠هـ).

وأثرى ببغداد، وحسنت حاله، وكان مُغْرًى بالنِّسوان، وله قَبولٌ حسنٌ عند الحِسان، ومن شعره: [من مجزوء الرمل]

أفّ لـلـدنـيـا وأفّ   كـلُّ مـن فـيـهـا يَـلُـفُّ
مـثـل خـيَّـاطِ حـريـصٍ   كـلـمـا شـلَّ يـكُـفُّ[١]

وقال ابنُ عساكر: كان أبوه منجِّماً، رأيتُه يجلس على الطَّريق، وكان عبد الرحمن هذا ينشد على الطريق، وفي الأسواق على الدَّكاكين، وكان في صوته شجًى، وخرج عن دمشق وهو شابٌ، فغاب عنها مدَّة وعاد، وكان يعظ في الأعزية، ثم وعظ بعد ذلك على الكُرْسي، ورُزِق قَبولاً، واكتسب من الوعظ مالاً، ثم خرج إلى العراق، فأقام ببغداد مدة، وأظهر الزُّهد، وظهر له بها سوق، ثم رجع إلى دمشق، ووعظ، وصَعِدَ إليه يوماً إلى المنبر طفلٌ صغير، فأخذه على يده، وقال: [من الرجز]

هـذا صـغـيـرٌ مـا جـنـى صـغـيـرةً   فـهـل كـبـيـرٌ يـركـب الـكـبـائـرا

فضجَّ المجلس بالبكاء.

وحضرنا عزاء المقتفي في جامع[٢] وصدر المجلس القاضي أبو الفَضْل محمد بن عبد الله الشَّهْرُزُوري[٣]، فرثى الخليفة بأبياتٍ، فَخَلَعَ القاضي عليه ثوبه، فتذكر عادته في الكُدْية، فخرج عما كان فيه من العزاء إلى استدعاء موافقة الحاضرين في خَلْع ثيابهم، فخلع بعضهم، فقال: أنا المُعَرِّي لا المعزي، وذكر أشياء فأضحك القوم، فلما خرجنا، قلتُ له: أخرجتَ العزاء عن معناه، وجعلته مضحكة، فقال بعضُ مَنْ أراد التقرُّب إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]. فقلت: لكلِّ مقامٍ مقال، وليس هذا موضعه. فسكت[٤].

وكانت وفاته يوم الجمعة من رجب، ودفن بقاسيون.

(١) انظر «خريدة القصر»: ٢/ ٩٢-٩٦.
(٢) أي في جامع دمشق.
(٣) هو المعروف بالقاضي كمال الدين الشهرزوي، وسترد وفاته سنة (٥٧٢هـ).
(٤) «تاريخ ابن عساكر»: ١٠/ ١٨٢-١٨٣.

ومن شعره: [من الهزج]

ولــمــا أصــبــح الــوصــلُ صــحــيــحــاً مــا بــه داءُ
أتــى الــهَــجْــرُ فــلا مــيــمٌ ولا راءٌ ولا حــاءُ
ولا بــاءٌ ولا ســيــنٌ ولا هــاءٌ ولا لاءُ

يعني لا مرحباً ولا سهلاً بالهجر(١).

[عَدِي بن مسافر](٢)

قلتُ: ذكر قاضي القضاة شمس الدين ابن خَلِّكان ـ رحمه الله ـ في «وفيات الأعيان»(٣):

الشيخ عَدِي بن مسافر، الهَكَّاري مسكناً، العبد الصَّالح المشهور، سار ذكره في البلاد، وتبعه خَلْقٌ كثير، وجاوز حسنُ اعتقادهم فيه الحدَّ، وجعلوه ذخيرتهم في الآخرة، وكان قد صَحِبَ جماعةً من أعيان المشايخ والصُّلحاء، ثم انقطع إلى جبل الهكَّارِيَّة من أعمال المَوْصِل، وبنى له هناك زاويةً، ومال إليه أهل تلك النَّواحي كلها ميلاً لم يُسْمع بمثله.

وكان مولده في قرية يقال لها بيت فار من أعمال بَعْلَبَك، والبيتُ الذي ولد فيه يزار إلى الآن، وتوفي سنة سبع، وقيل: خمس وخمسين وخمس مئة، ودفن ببلده بزاويته، وقبره عندهم من المزارات المعدودة، وحَفَدَتُه بموضعه يقتفون آثاره والنَّاسُ معهم على ما كانوا عليه زمن الشيخ من جميل الاعتقاد، وتعظيم الحُرْمة، وكان مُظَفَّر الدِّين صاحبُ إِرْبل يقول: رأيتُ الشيخ عدي بن مسافر، وأنا صغير بالمَوْصِل، وهو شيخٌ، رَبْعَةٌ أسمرُ اللَّون، وكان يحكي عنه صلاحاً كثيراً، وعاش تسعين سنة.

---

(١) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٩٧ بغير هذا الترتيب.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح، وهذه الترجمة مما زاده القطب اليونيني على «مرآة الزمان»، يدل على ذلك أن ابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان»: قدم دمشق سنة (٦٥٩هـ)، أي بعد وفاة السبط بخمس سنين، وفيها عين قاضياً للقضاة، وتوفي سنة (٦٨١هـ)، يعني بعد وفاة السبط بسبع وعشرين سنة، ولم يكن ابن خلكان سنة وفاة السبط قد فرغ بعد من تأليف كتابه، انظر الدراسة القيمة عن ابن خلكان للدكتور إحسان عباس في الجزء السابع من «وفيات الأعيان»: ص ٤٠، ٦٦. وانظر «المذيل على «الروضتين»: ٢/ ١٦٥، ١٦٧.

(٣) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٥٤-٢٥٥، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٤٢-٣٤٤، و«الكواكب الدرية»: ٢/ ٢٦٨-٢٦٩، وفيهما تتمة مصادر ترجمته.

قلتُ[١]: وقد وقعتُ على مجموعٍ فيه أخباره، وهو للشيخ شرف الدِّين أبي الفضائل: عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان ابن الحكم بن مروان الأُموي[٢]، استوطن لالش من جبل الهَكَّار إلى أن مات بها سنة ثمانٍ وخمسين وخمس مئة، ودفن بزاويته، وقبره بها ظاهرٌ يزار، وكان عالماً، فقيهاً، صالحاً ظريفاً، متواضعاً، حسنَ الأخلاق مع كثرة الهيبة، وهو أحدُ أركانِ الطَّريقة، وأعلام العلماء بها، وسَلَكَ في المجاهدة وأحوال البداية طريقاً صَعْباً، بعيداً، عزيز المنال، تعذَّر على كثيرٍ من المشايخ سلوكه، وكان سيِّدُنا شيخ الإسلام محيي الدِّين عبد القادر ينوِّه بذكره، ويُثْني عليه كثيراً، وشَهِدَ له بالسَّلْطنة، يعني على الأولياء. وقال: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر.

وكان في أول أمره في الصَّحارى والجبال، مجرداً سائحاً، يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات مدَّةً مديدة، وكانت الحَيَّات والسِّباع تألفه فيها، وتتلمذ له خَلْقٌ كثير من الأولياء، وتخرَّج بصحبته غيرُ واحد من ذوي الأحوال، وانتمى إليه عالمٌ عظيم، وكان له كلامٌ نفيس على لسان أهل الطَّريق.

ومن كلامه في توحيد الباري عَزَّ وجل: لا تجري ماهيته في مقال، ولا تخطر كيفيته ببال، لا مثل الأشكال، صفاته قديمة كذاته، ليس جسمٌ في صفاته، جَلَّ أن يشبهه بمبتدعاته، أو أنْ يضاف إلى مخترعاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا سميَّ له في أرضه وسماواته، ولا عديل له في حكمه وإرادته، حرام على القلوب أن تَمثَّلَ الله تعالى، وعلى الأوهام أن تحدَّه، وعلى الظنون أن تقطع وعلى الضمائر أن تعمق، وعلى النفوس أن تفكر، وعلى الفكر أن يحيط، وعلى العقول أن تصور إلا ما وصف به ذاته في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

ومنه: أول ما يجب على سالك طريقنا هذه ترك الدعاوى الكاذبة، وإخفاء المعاني الصادقة.

---

(١) أي القطب اليونيني، مختصر «مرآة الزمان».

(٢) كذا في (ع) و (خ)، ولعله الحكم بن أبي العاص.

وقال إسرائيل بن عبد المقتدر: أقمتُ مدَّة ثلاث سنين سائحاً مجرداً في جبل الهَكَّار، وجبل لبنان وجبال العراق والعجم، وكانت الأحوال تطرقني، فأَخِرَّ لوجهي، فَتَسْفي عليَّ الرِّياح إلى أن ترى فوق جِلْدي جِلْداً آخر من الوسخ، فجاءني ذئب ونظر إليَّ متبسماً، ولَحِسَ جِلْدي كله حتى تركه كالجُمَّارة[1]، فتداخلني العُجْب، فإذا هو قد شَزَرني مُغْضَباً، وبال عليَّ، فأتيتُ إلى عين ماء، فاغتسلتُ، ودخلتُ قُبَّة في وسط الصحراء، بيني وبين النَّاس مسيرة عشرة أيام من كل قطر، ولا يمرُّ بي أحد، ولا أسمع صوتَ أحد البتَّة، فقلتُ في نفسي: لو قيَّضَ الله لي بعضَ العارفين. فإذا الشيخ عدي ابن مسافر إلى جانبي، ولم يُسَلِّمْ عليَّ، فأرعدت من هيبته، وقلتُ في نفسي: ولِمَ لَمْ يُسَلِّمْ علي؟ فقال لي: إنا لا نلتقي بالسَّلام والترحاب من تبول عليه الذِّئاب. ثم ذكر لي جميعَ ما جرى لي في سياحتي، وواجهني بجميع خواطري، وبكلِّ شيءٍ اختلج في سِرِّي، وأضمره قلبي، واقعة واقعةً، حتى ذكَّرني بأشياء أُنْسِيْتُها. فقلتُ له: يا سيدي، أشتهي الانقطاع في هذه القُبَّة، فلو كان عندي ما أشرب منه وما أقتاتُ به. فقام إلى صخرتين كانتا في تلك القُبَّة، ووكز إحداهما برجله، فانفجرت منها عينُ ماءٍ حُلْو عَذْب من ماء النِّيل، ووكز الأُخرى، فنبتَتْ فيها شجرة رُمَّان، وقال لها: أيتها الشجرة أنا عدي بن مسافر، أَنْبتي بإذن الله تعالى يوماً رُمَّاناً حُلْواً ويوماً رماناً حامضاً. وقال لي: أقم هنا، وكُلْ من هذه الشجرة، واشرب من هذه العين، وإذا أردتني اذكر اسمي آتك.

فأقمتُ في تلك القبة سنين، فكنت آكل من تلك الشجرة يوماً رُمَّاناً حُلْواً، ويوماً حامضاً، أحسن رمان في الدنيا وأطيبه، وما ذكرتُه قَطُّ إلا وجدتهُ حاضراً عندي، وينبئني بما يختلج في صَدْري في مُدَّة غيبته عني، ثم بعد سنتين أتيت إلى بلالش، وبتُّ عنده ليلة، فأحرقني بأنفاسه، ومكثت أربعين يوماً أصبُّ عليَّ الماء البارد كل يوم، وإني لأجِدُ النَّار الشديدة في باطني، من هَبَّة أنفاسه.

---

(١) يعني جمارة النخل، وهي شحمته التي في قمة رأسه، تقطع قمته، ثم تكشط عن جمارة في جوفها بيضاء كأنها قطعة سنام ضخمة، وهي رخصة تؤكل بالعسل «اللسان» (جمر).
وقد شبه جلده بها لبياضها، ولكن لا يوصل إليه إلا بالكشط، والله أعلم.

قال: وودَّعْتُه مرةً مسافراً إلى عَبَّادان، فقال لي: إذا رأيت سَبُعاً تخاف منه، فقل له: يقول لك عدي بن مسافر اذهب ودَعْني، وإذا رأيت هولَ البحر، فقل: أيتها الأمواج المتلاطمة يقول لك عدي بن مسافر اسْكُني بإذن الله. فكنتُ إذا لقيت شيئاً من الوحوش، قلت: يقول لك الشيخ عدي بن مسافر اذهب وَدَعْني، فينكِّس رأسه، ويذهب. ولما اشتدَّ علينا البحر، وأشرفنا فيه على الغرق، قلتُ ما أمرني به، فما تمَّ كلامي حتى سكن الريح، وصار كأنه عين ديك.

وقال الشيخ عمر بن محمد: خدمتُ الشيخ عدي بن مسافر سبع سنين، شَهِدْتُ له فيها خارقات في نفسي، إحداها أنني صببتُ على يديه ماء، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أُريد تلاوة القرآن، فإني لا أحفظ منه سوى الفاتحة وسورة الإخلاص، وحِفْظُه عليَّ عسيرٌ جداً. فضَرَبَ بيده في صدري، فحفظت القرآن كلَّه في وقتي، وخرجتُ من عنده، وأنا أتلوه بكماله، لا تتوقف علي منه آية واحدة، وأنا إلى الآن من أجودِ النَّاس تلاوةً له، وأقدرِهم على دَرْسه.

وقال لي يوماً: اذهب إلى الجزيرة السَّادسة من البحر المحيط تجدْ بها مسجداً، فادْخُلْه تَرَ فيه شيخاً، فَقُلْ له: يقول لك عدي بن مسافر احذرِ الاعتراض، ولا تختر لنفسك أمراً لك فيه إرادة. فقلتُ: يا سيدي وأنَّى لي بالبحر المحيط؟ فدفعني بين كتفي، وأنا بظاهر زاويته بلالش، فإذا بجزيرةٍ بالبحر المحيط، فلا أدري كيف جِئْتُ، فدخلت المسجد، فرأيتُ شيخاً مهيباً مفكِّراً، فسلَّمْتُ عليه، وبَلَّغْتُه الرِّسالة، فبكى وقال: جزاه الله خيراً. فقلتُ: يا سيدي وما هذا؟ فقال: يا بني إنَّ أحد السبعة الخواص في النَّزْع الآن، وإني طَمَحَتْ بي إرادتي أن أكون مكانه، وإنَّ خطرتي لم تكمل في نفسي حتى أتيتني، وقد جئتَ إليَّ وأنا مفكر في ذلك. فقلتُ: يا سيدي، وأنَّى لي بالوصول إلى جبل الهَكَّار؟ فدفعني بين كتفي، وإذا أنا بزاوية الشيخ عدي، فقال لي: هو من العشرة الخواص[1].

---

(١) الله أعلم بصحة هذه الأخبار، وفي صحتها في النفس أشياء.

السَّنة الثامنة والخمسون وخمس مئة

فيها بُني كشك الخليفة والوزير على باب المُظَفَّرية ظاهر بغداد، وأنفق على ذلك مالاً عظيماً، وسُمِّي المكان الحُطَمِيَّة، وكان الخليفة والوزير يخرجان فيقيمان فيه، ويصلِّيان الجُمعة في جامع الرُّصافة مدَّة إقامتهما فيه، ويخرج أهل بغداد أيام الجُمَع، ويقفون صفوفاً يتفرَّجون، ويعبر الخليفة بينهم، وكان له حاجبٌ يقال له أحمد النوبي، وكان المستنجد سميناً، فاجتاز بامرأتين، فقالت إحداهما للأُخرى: ما ترين ما أسمن الخليفة؟ فقالت لها: إنَّك باردة، مَنْ يكون بين يدي النوبي ما يسمن!

وفيها كانت وقعة عظيمة بين أتابك إيلدكز والخَزَر، خرجوا من باب الأبواب، وأغاروا على البلاد، ونهبوا وسَبَوْا وأسروا وقتلوا، وأيقن المسلمون بالهلاك، فجمع إيلدكز عساكره والمُطَّوِّعة وأهلَ البلاد، فقيل له: لا طاقةَ لك بهم، هؤلاء في ثلاث مئة ألف، وأنتَ ما يبلغ جمعك ثلاثين ألفاً! فقال: ألقاهم بالله وببركات الصَّالحين، فالتقوا على أَذْرَبيجان، واقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله إلا قتال الغُزّ وسنجر، وظهروا على المُسْلمين أول النَّهار، فترجَّل إيلدكز والعساكر، وهبَّت ريحٌ عاصف، فَسَفَتْ في وجوه الخَزَر التُّراب، فهزمهم الله تعالى، وسار إيلدكز في آثارهم قَتْلاً وأَسْراً، وأُسر ملوكهم، وقُتِلَ أبطالهم، وأُخذ منهم صليب الصَّلبوت، وكان مرصعاً بالجواهر واليواقيت ما قيمته مئة ألف دينار، وبعث بالملوك والأعيان والرؤوس إلى بغداد والصَّليب، وخرج الموكب بأَسْره، ولم يتخلَّف سوى الوزير، وجَلَسَ الخليفة في الكشك، وعبروا بهم عليه، فَسُرَّ سروراً كثيراً، وخلع على الرُّسُل، وأعطاهم الأموال، وبعث إلى إيلدكز بخِلَعٍ تقارب خِلَع السَّلْطنة، ومراكب الذهب والكوسات والأعلام ومال كثير.

وفيها قَبَضَ قُطْبُ الدِّين مودود صاحب المَوْصِل على جمال الدِّين الوزير الأَصفهاني، وحَبَسَه في قلعة المَوْصِل، واستصفى أمواله.

وفيها سارَ نورُ الدِّين إلى قتال قليج رسلان(١) ابن السُّلْطان مسعود، صاحب الروم، وسببه أن قليج رسلان حاصر ذا النون الدانْشَمَنْد صاحب مَلَطْيَة وسيواس، وأخذهما منه، فجاء إلى نور الدِّين، فأرسل إلى صاحب الرُّوم يقول: هذا ملكٌ، وقد استجار بي، فَرُدَّ عليه بلاده. فلم يلتفت، فسار نورُ الدِّين، فاستولى على أطراف الرُّوم بَهَسْنا ورَعْبان وكَيْسوم والمَرْزُبان والقلاع المتاخمة للرُّوم، وقَصَدَ مَلَطْية، فتأخر قليج رسلان إلى وسط بلاده لأَنَّه ما كان له طاقة بنور الدِّين، وبينا نور الدِّين على ذلك القَصد جاءه خبر الفرنج أَنَّه قد وصلوا إلى بلاد المُسْلمين، فرجع إلى حِمْص، وأقام بها أياماً، ثم دخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حِصن الأكراد عازماً على حِصار طرابُلُس، ومعه خَلْقٌ عظيم، وضَرَبَ النَّاس خيامهم، ولم يكن لهم يَزَك(٢) ظناً من نور الدِّين أنهم لا يقدمون عليه، فبينا النَّاس وسط النَّهار في خيامهم لم يَرُعْهم إلا ظهور الصُّلبان من وراء الجبل الذي عليه الحِصن، فالسَّعيد من رَكِبَ فرسه، ونجا، وخرج نورُ الدِّين وعليه قَبَاء، فركب فرس النَّوْبة، وفي رِجْله شِبْحة(٣)، فقطعها كرديٌّ ونجا نور الدِّين، وقُتِلَ الكردي، وقَتَلَ الفرنجُ، وأسروا خَلْقاً عظيماً، واستولوا على العسكر بما فيه [وكان من قِلَّة الحَزْم حيث غفلوا عن العدو، ولم يستظهروا باليَزَك والطلائع](٤)، وجاء نورُ الدِّين إلى حِمْص، فلم يدخُلْها، ونزل على البحيرة، واجتمع إليه من نجا من المعركة، وأرسل إلى دمشق وحلب، وأحضر الخيام والسِّلاح والخيل، وفرَّقها في النَّاس، ومَنْ قتل أبقى إقطاعه على ولده وإلا فأهله.

وكان [من](٤) عَزْمِ الفرنج قَصد حِمْص، فلما بلغهم نزول نورِ الدِّين على البحيرة، قالوا: ما فعل هذا إلا عن قوة، فتوقفوا.

---

(١) في هذا الخبر خلط المصنف ـ وربما المختصر ـ بين حادثتين متباعدتين، وليست إحداهما سبباً للأخرى كما ساقهما، أما الأولى فمسير نور الدين لقتال قليج رسلان بن السلطان مسعود، وهذه الحادثة وقعت سنة (٥٦٨هـ)، انظر «الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٣٩١-٣٩٢، و«كتاب «الروضتين»: ٢/ ٢٦١-٢٦٣ . وأما الثانية فهزيمة نور الدين عند حصن الأكراد، وهي قد وقعت سنة (٥٥٨هـ)، انظر «كتاب «الروضتين»: ١/ ٣٩٧-٣٩٩ .

(٢) اليزك: طلائع الجيش.

(٣) هي التي تربط بها يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه، انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ١/ ٧١٩ .

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

وفرَّق في يومٍ واحد مئتي ألف دينار، وجاء رجلٌ فادَّعى أَنَّه ذَهَبَ له شيءٌ كثير، وكان الأمر بخلافه، وكتب النُّواب إلى نور الدين يخبرونه بأنه مُبْطل [في دعواه](١)، فكتب إليهم: لا تكدِّروا عطاءنا، فإنِّي أرجو الأجْر من الله على القليل والكثير.

وكتَبَ إليه النُّواب بأنَّ الإدرارات كثيرة في البلاد للفقراء والفقهاء والصُّوفية، فلو حملناها إليك في هذا الوقت لاستعنتَ بها، ثم تعيد العوض، فَغَضِبَ، وكتب إليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١] وهل أرجو النَّصر إلا بهؤلاء، وهل تُنْصرون إلا بضُعفائكم(٢)؟ فكتب إليه النُّواب: فإذا لم تغيِّر عليهم شيئاً، وقد وقعتَ في هذه الورطة العظيمة، فلو أمرتنا لاقترضنا من أرباب الأموال ما تستعين به على جهاد العدو، فقد نَفِدَتْ الخزائن، ويطمع العدو في الإسلام. فبات مفكِّراً، وقال في نفسه: نقترض، ثم ندفع العوض. ثم قال: ما أفعل. وباتَ قلقاً إلى وقت السَّحر، فنام، فرأى إنساناً يُنْشِد: [من المديد]

أَحْسِنُوا ما دامَ أمرُكُمُ نافذاً في البَدْو والحَضَرِ
واغْنَموا أَيَّام دَوْلتكُمْ إنَّكُمْ منها على خَطَرِ

فقام مرعوباً مستغفراً مما خَطَرَ له، وعَلِمَ أَنَّ هذا تنبيه من الله، فكتب إليهم: لا حاجة لي بأموال النَّاس. وعاد الفرنج إلى بلادهم.

وفيها ظهر شاور بن مجير السَّعدي من الصَّعيد، وجَمَعَ أوباش الصَّعيد والعبيد، وجاء إلى القاهرة، فخرج إليه رُزِّيك بن الصَّالح فهزمه، ودخل القاهرة، فأخرب دار الوِزارة، ودار بني رُزِّيك ونهبها، وبَعَثَ إليه العاضد بخِلْعة الوِزارة، ولقبه أمير الجيوش، وتتبَّع رُزِّيكَ بنَ الصَّالح، وكان مختفياً عند بعض اللَّخْميين، فجاؤوا به إليه فقتله، وأقام شاور، فأساء السِّيرة، فخرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن ثعلبة(٣) من الصَّعيد، وحشد، فخرج إليه شاور،

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) إشارة إلى حديث النبي ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم». أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٩٦)، والنسائي في المجتبى (٣١٧٨) من حديث سعد، وبنحوه أخرجه الترمذي (١٧٠٢) من حديث أبي الدرداء.

(٣) كذا في (ع) و (ح)، وورد في «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٤ وغيره من كتب التاريخ: ضرغام بن عامر بن سوار اللخمي المنذري، وانظر أخباره في «الروضتين».

فهزمه ضرغام، وقتل ولده، وخذل أهلُ القاهرة شاور، فانهزم إلى الشَّام، وكان نورُ الدِّين بدمشق، فالتقاه وأكرمه، وأقام عنده أياماً، ثم طلب منه العسكر، وقال: أكون نائبك بالدِّيار المِصرية، وأقنع بما تعين لي من الضياع، والباقي لك، فأجابه نور الدين.

[فصل وفيها توفي

طلحة بن علي أبو أحمد الزَّيْنبي[1]

نقيب النقباء، وله نقابة العباسيين، وناب في الوزارة، وحضر مجالس جدِّي مراراً، بات معافى، فأصبح في منزله ميتاً، فذكر أنه أكل لبّاً وأرزاً وجماراً، ودخل الحَمَّام، فعرضت له سكتة، فتوفي في ربيع الأول، ودفن بباب حرب][2].

وفيها توفي

عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب[3]

[وقد ذكرنا ولايته وبدايته][2]، وأقام بعده ولده يوسف [بن عبد المؤمن][2]، وتوفي سنة ثمان وسبعين وخمس مئة[4]، وكان عبد المؤمن فاضلاً في فنون العلوم الشرعية والأحاديث [النبوية.

وأجرى نهراً من الجبل إلى جامع مرَّاكُش من مسافة بعيدة، وكان مشدداً في أمر الصلاة، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، قتل كثيراً من تاركي الصلاة، وكان يأمر الناس بحفظ عقيدة ابن تومرت، وقد ذكرناها[5]، وتسمى المرشدة، وضرب الدينار الوازن الخالص، ويسمى المؤمني إلى اليوم، وكان إماماً في كل فن، وكانت أيامه منذ مات ابن تومرت إلى أن توفي عبد المؤمن ثلاثاً وثلاثين سنة، وخلف من الولد خمسة

---

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/٢٠٦، و«الوافي بالوفيات»: ١٦/٤٨٨-٤٨٩، والبداية والنهاية (وفيات سنة ٥٥٨هـ).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٣) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٢٩١-٢٩٢ ، و«المعجب»: ٢٨٤-٣٠٣ ، ٣٢٧-٣٤٤ ، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٣٧-٢٤١ ، «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٦٦-٣٧٥ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) الصحيح أنه توفي سنة (٥٨٠هـ).

(٥) ج٢٠/ ٢٦١ - ٢٦٣ من هذا الكتاب.

عشر ولداً، وخمس بنات، وحمله ابنه أبو يعقوب يوسف القائم بعده في محفة، ودفنه عند محمد بن تومرت، وسار ابنه يوسف في الناس سيرة أبيه، وسنذكره][(١)].

محمد بن عبد الكريم أبو عبد الله[(٢)]

سديد الدولة، ابن الأنباري، كاتب الإنشاء بديوان الخليفة، أقام كاتباً به نيفاً وخمسين سنة، وناب في الوزارة، وكان فاضلاً، ومن شعره:

يـا قـلـبُ إلامَ لا يُـفـيـدُ الـنُّـصـحُ   دَعْ مَـزْحـك كـم هـوًى جـنـاه الـمَـزْحُ
مـا جـارحـة مـنـك خـلاهـا جـرحُ   مـا تـشـعـر بـالـخُـمـار حتى تَـصـحـو[(٣)]

وكانت بينه وبين الحريري صاحب «المقامات» مكاتباتٌ ومراسلات مدوَّنة، وخَرَجَ مع المسترشد لما سافر إلى لقاء مسعود، وأُسر، وترسَّل عن الخليفة إلى الملوك، وكانت وفاته في رجب عن تسعين سنة، وصَلَّى عليه الوزير ابن هُبيرة بجامع القَصر، ودُفِنَ بمقابر قريش.

محمد بن محمد أبو الفتح[(٤)]

الكاتب البغدادي الفاضل.

ولد سنة ثمان وتسعين وأربع مئة، ومن شعره: [من البسيط]

مـالـي ولـلـبَـرْقِ مـجـتـازاً عـلـى إضَـمِ   يُـبْـدي تـألُّـقَـهُ عـن ثَـغْـرِ مُـبْـتَـسِـمِ
سهرتُ والـلـيـلُ مكحولُ الـجـفونِ به   كـأنَّـه ضَـرَمٌ قـد دَبَّ فـي فَـحَـمِ
أمُخْبِرِي أنتَ عن وادي العقيق وهل   حـلَّـتْ مـجـاورةً سَـلْـمـى بـذي سَـلَـمِ
حَمَّلْتُكَ العِبْء من شوقي لتحملَهُ   رسـالـةً لـم تـكـن فـيـهـا بـمُـتَّـهَـمِ
فـمـا لـهـم عَـلِـمـوا ما قد كـتـبتُ به   عـلـى لـسـان الـهـوى عن بـانـة الـعَـلَـمِ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج٢/ ١٤٠-١٤٤، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٠٦، و«الكامل»: ١١/ ٢٩٧، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ٢٧٩-٢٨٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٥٠-٣٥١، وفيه تتمة مصادر ترجمته.
(٣) «خريدة القصر»: ٢/ ١٤٢.
(٤) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج١/ ج٣/ ٢٦٠-٢٧٢، و«الوافي بالوفيات»: ١/ ١٢٠.

يـا طـائـراً عَـذَبـاتُ الـبـانِ مـسـكَـنُـهُ ... أيـقـظْـتَ لـلـدَّمْـعِ جَـفْـنـاً عـنـه لـم يَـنَـمِ
غَـرِّدْ بـألـحـانـك الـمُـسْـتَـعْـجِـمات فـمـا ... أبـقـيـتَ جـارحـةً إلا عـلـى أَلَـمِ
لِـيَـهْـنِـكَ الإلْـفُ والـعـيـش الـرَّغـيـد وإنْ ... كـان الـذي سَـرَّ أو مـا سـاء كـالـحُـلُـم
تـحـيـة مـن مَـشُـوق طـال مـوقـفُـهُ ... عـلـى الـثَّـوِيَّـةِ[1] بـالـوَخَّـادة الـرُّسُـمِ[2]
يَـحِـنُّ شـوقـاً إلـى أرض الـحـجـاز ومِـنْ ... دونِ الـذي رامَ شـعـبٌ غـيـر مُـلْـتَـئِـمِ
فقِفْ بـحـيـث أفـاض الـمُـحْـرمـون عـلـى ... عارٍ من [الثوب][3] مكْسُوٌّ من السَّقَمِ
فـي كـل وقـت لـه [وجْـدٌ][4] يُـقَـلْـقِـلُـهُ ... حـتـى يُـظَـنَّ بـه طَـيْـفٌ مـن الـلَّـمَـمِ

من أبيات[5].

يحيى بن سعيد [الطبيب][6] النَّصراني البغدادي[7]

أوحد زمانه في معرفة الطِّبِّ، والأدب، وله ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريري، وله شِعْرٌ رائق، فمنه في الشيب يقول: [من الخفيف]

نَـفَـرَتْ هـنـدُ مـن طـلائـعِ شَـيْـبـي ... واعــتــرتــهــا ســآمــةٌ مــن وجــو
هــكــذا عــادةُ الــشَّــيــاطــيــن يَــنْــفِــرْ ... نَ إذا مـا بَـدَتْ رجـومُ الـنُّـجـومِ[8]

وقال: [من الكامل]

قَـسَـمـاً بـسـكَّـانِ الـعـقـيـقِ وحـاجـرِ ... مُـذْ غِـبْـتَ مـا لاذ الـرُّقـاد بـنـاظـري
وإذا أَلَـمَّ فـمـا يُـلِـمُّ بـمُـقْـلـتـي ... إلا طــمــاعــيــةً بــطــيــفٍ زائــر

---

(١) الثوية: موضع قريب من الكوفة، وقيل: بالكوفة. «معجم البلدان»: ٢/ ٨٧.
(٢) الوخادة: الإبل التي تخد؛ أي تسرع وتوسع الخطو. «اللسان» (وخد). والرسم جمع رسوم، وهي الناقة تؤثر في الأرض من شدة الوطء. «اللسان» (رسم).
(٣) في (ع) و (ح): السقم، والمثبت ما بين حاصرتين من «الخريدة».
(٤) في (ع) و (ح): طيف، والمثبت ما بين حاصرتين من «الخريدة».
(٥) القصيدة في «خريدة القصر» ٣/ ٣٧٠-٣٧٢.
(٦) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٧) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٤/ ٦٩٥-٧٠١، و«أخبار الحكماء» للقفطي: ٢٣٦، و«معجم الأدباء»: ٢٠/ ٤٠، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٦٤، و«البداية والنهاية» (وفيات ٥٨٩ هـ)، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٨٥.
(٨) البيتان في «الخريدة»: ٤/ ٦٩٦.

سَلْ صادحاتِ الوُرْقِ عن وَلَهي بمَنْ ضَمَّتْ تِهامةُ فهي عينُ الخابرِ
وإذا نطقتُ فأنتَ لفظُ مقالتي وإذا سكتُّ فأنتَ سِرُّ الخاطِرِ(١)

يوسف بن محمد بن مُقَلَّد التَّنوخي(٢)

رحل إلى بغداد، وعاد إلى دمشق مريضاً بعِلَّة الاستسقاء، فمات بها في صفر، ودفن بقاسيون، ومن شِعْره: [من الهزج]

فؤادي منكَ مقروحُ وقلبي منكَ مجروحُ
وقد زاد الذي ألقى فدمعُ العينِ مَسْفُوحُ
أَغِثْني يا مُنى قَلْبي فما الهِجْرانُ ممدوحُ
فأنتَ القَلْبُ واللُّبّ و[أنتَ](٣) الرَّاحُ والرُّوح
أنا إنْ عَنَّفَ الواشي ففي قلبي التَّبارِيحُ

السنة التَّاسعة والخمسون وخمس مئة

فيها قال أبو الفرج بنُ الجَوْزي - رحمه الله - في «المنتظم»: فيها وَرَدَ البشيرُ إلى المستنجد بفَتْح مِصر، فقال حاجب الوزير ابن تركان(٤) قصيدة منها: [من الطويل]

لعل حُداةَ العِيْس أن يترفَّقوا لتشفي عليلاً بالمدامع مُذْنَفُ
لِيَهْنكَ يا مولى الأنام بشارةٌ بها سيفُ دين الله بالحقِّ مُرْهَفُ
ضَرَبْتَ بها هام الأعادي بهمَّةٍ تقاصَرَ عنها السَّمْهَرِيُّ المُثَقَّفُ
بَعَثْتَ إلى شَرْقِ البلادِ وغَربِها بعوثاً من الآراء تحيي وتُتْلِفُ

(١) الأبيات في «الخريدة»: ٤/ ٦٩٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٢٩/ ٣١٥-٣١٧، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ١/ ٣٦٦-٣٦٧، و«مختصر تاريخ دمشق»: ٢٨/ ٩١ (اختصرته سكينة الشهابي على نهج ابن منظور).
وهو والد عبد السلام بن يوسف الصوفي، المتوفى سنة(٥٨١هـ)، وانظر خبر قدوم عبد السلام إلى دمشق سنة (٥٧١هـ) في كتاب «الروضتين»: ٢/ ٤٢٠-٤٢١ .

(٣) ما بين حاصرتين ليس في (ع) و (ح)، وقد زدتها لاستقامة الوزن.

(٤) هو شمس المعالي أبو الفضائل محمد بن الحسين بن تركان، كان حاجب الوزير ابن هبيرة، وتوفي سنة (٥٦١هـ)، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج٢/ ج٤/ ٥٠٦-٥٠٨ . و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ٢٧٤ .

فقامت مقامَ السَّيْفِ والسَّيْفُ قاطِرٌ ونابَتْ منابَ الرُّمح والرُّمُحُ يرعُفُ
فقدتَ لها جَيْشاً من الرَّوعِ هائلاً إلى كلِّ قلب من عُداتك يَزْحفُ
لِيَهْنِكَ يا مولاي فتحٌ تتابعت إليكَ به خُوصُ الرَّكائب توكَفُ
أخذتَ به مِصراً وقد حال دونها من الشِّرك ناسٌ في لحى الكُفْر تقذف
فعادَتْ بحمد الله باسْمِ إمامنا تَتِيْه على كل البلاد وتَشْرُفُ
ولا غَرْوَ إنْ ذَلَّتْ ليوسفَ مِصرُه وكانت إلى عَلْيائِهِ تتشوَّفُ
تملَّكها مِنْ قَبْضة الكُفْر يوسفٌ وخلَّصَها من عُصبة الرِّفْضِ يوسفُ
فشابَهَهُ خَلْقاً وخُلْقاً وعِفَّةً وكلٌّ عن الرحمن في الأرض يَخْلُفُ
كشفتَ بها عن آلِ هاشم سُبَّةً وعاراً أبى إلا بسَيْفك يُكْشَفُ(١)

قال المصنف رحمهُ الله: وهذا وهمٌ من ابنِ تركان، فإن تواريخ الشَّاميين والمِصريين مُطْبِقَةٌ على أن مِصر لم تملك في هذه السنة، بل في سنة أربع وستين وخمس مئة، ولم يخطب للمستنجد فيها، وإنما أُقيمت الخُطْبة فيها في أيام المستضيء، وكان المستنجد قد مات، وقد ذكرنا أنَّ شاور قَدِمَ على نور الدين في السَّنة الماضية، وأقام عنده إلى هذه السنة، فجهَّز نورُ الدين العساكر مع أسد الدِّين شيركوه في العشرين من جُمادى الأُولى، وكان صلاحُ الدين مع عَمِّه أسد الدين، فلمَّا وصلوا إلى القاهرة، خَرَجَ إليهم أبو الأشبال الضرغام ابن سوار، فحاربهم أياماً، فلما كان في بعضها التقوا على بابِ القاهرة، فحمل ضرغام في أوائل النَّاس، فَطُعِنَ فَقُتِلَ، واستقام أمر شاور، وكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر.

وكان شاور سفَّاكاً للدِّماء، ولما استولى على القاهرة، ظهرت منه أمارات الغَدْر، فأشار صلاح الدين على أسد الدين بالتأخُّر إلى بِلْبيس. وما كان يقطع أمراً دونه، ثم بعث أسدُ الدِّين إلى شاور يطلب منه أرزاق الجند، فاعتذر وتعلل عليه، فأقطع أسد الدين الغربية، وكتب إلى نور الدين يخبره بما جرى.

وَدَسَّ شاور إلى الفرنج رسولاً يدعوهم إلى مصر، وبذل لهم الأموال، فاجتمعوا من السَّاحل، وساروا من الدَّاروم متفقين مع شاور على قتال أسد الدين، وحصروه في

(١) انظر «المنتظم»: ١٠/٢٠٨-٢٠٩، وقال: ثم تكامل الأمر بعد سبع سنين على ما نذكره في خلافة المستضيء.

بِلْبيس شهرين وقاتلوه، فصالحهم أسدُ الدين على مال، وكان حصارهم له من أول رمضان إلى ذي القَعدة، وجرت بينهم حروبٌ ووقائع، وبلغهم أن نور الدِّين على قَصدِ بلادهم، فرجعوا، وعاد أسد الدين إلى دمشق، وأقام شاور بالقاهرة يظلم ويقتل، ويصادر النَّاس، ولا رأي للعاضد معه، وأقام أسد الدِّين بدمشق إلى سنة اثنتين وستين، ودخل ديار مِصر، وهي نوبة البابين، وعاد إلى دمشق، ثم دخل إلى مصر سنة أربع وستين، فاستولى عليها، وقتل شاور، ولم يخطب بها لبني العباس إلا عند موت العاضد سنة سبعٍ وستين في خلافة المستضيئ لما نذكر، إنْ شاء الله تعالى.

ذِكْرُ بداية أَمْر بني أيوب

كان نجم الدِّين أيوب بن شاذي بن مروان، وأخوه أسد الدِّين شيركوه، نجم الدِّين الأكبر، أصلهم من دُوِيْن بلدة صغيرة في العجم، وقيل هو من الأكراد الرَّوَاديَّة، قدما العراق، وخدما مجاهد الدِّين بِهْرُوز الخادم شِحْنة بغداد، فرأى من نجم الدِّين رأياً وعقلاً وحُسْنَ سيرة، فولَّاه دُزْدَاراً لتكريت، وكانت له، أعطاه إياها السُّلْطان مسعود، فأقام بها نجم الدِّين ومعه أخوه شيركوه، فلمَّا انهزم أتابك زَنْكي من المسترشد في سنة ستٍّ وعشرين وخمس مئة، ووصل إلى تكريت، خدمه أيوب، وأقام له المعابر، فعبر دِجْلة من هناك، وخَدَمَ من تبعه من أصحابه، فرأى زَنْكي له ذلك.

وأقاما بتكريت مُدَّة، ثم فارقاها، وسببُه أَنَّ نجم الدِّين كان يرمي يوماً بالنُّشَّاب، فوقعت نُشابة في مملوك لبهروز، فقتله من غير قَصد، واستحيا من بهروز، فخرجا إلى المَوْصل، وقيل: إنَّ بهروز أخرجهما. وقيل غير ذلك، وقصدا أتابك زَنْكي، فأحسن إليهما، وأقطعهما إقطاعات كثيرة، وصارا من جُمْلة أجناده.

فلما فتح زَنْكي بَعْلَبَكَّ ولَّى نجم الدين دُزْداراً في قلعتها، فلما قُتِلَ زَنْكي على قلعة جَعبر، حَصَرَ نجمَ الدِّين صاحبُ دمشق، وضايقه، فكتب إلى نور الدِّين وسيف الدِّين غازي يطلبُ منهما نجدةً، فاشتغلا عنه بملك جديد، واشتدَّ الحصار على بعلبك، فخاف نجمُ الدِّين من فَتْحها عَنْوةً، أو تسليم أهلها، فصالح معين الدِّين أُنَر على مالٍ وإقطاع، وانتقل وأخوه إلى دمشق، وصارا من أكبر أُمرائها.

ثم اتَّصلَ أسدُ الدِّين بنور الدِّين، فرأى منه نجابةً وشجاعة، فأعطاه حِمْص والرَّحْبة، وجعله مقدَّم عساكره، فلما صَرَفَ نورُ الدِّين هِمَّتَه إلى دمشق أمر أسدَ الدين أَنْ يكاتبَ أخاه نجمَ الدِّين على المساعدة على فتحها، وقال: هذا واجب، فإنَّ مجير الدِّين قد أعطى الفرنج بانياس، وربما سَلَّم إليهم دمشق. فأجابه نجمُ الدِّين إلى ذلك، وطلبا من نور الدِّين إقطاعاً وأملاكاً، فأعطاهما، وحَلَفَ لهما ووفى بيمينه، وصارا عنده في أعلى المنازل، وخصوصاً نجم الدين، فإنَّ جميع الأُمراء كانوا إذا دخلوا على نور الدِّين لا يقعد واحد حتى يأمره نور الدِّين بالقعود، إلا نجم الدِّين فإنَّه كان إذا دَخَلَ قعد من غير أن يأمره نور الدين. فلما كان في هذه السنة، وعَزَمَ نور الدِّين على إنفاذ العساكر إلى مِصر، لم يَرَ لها مثل أسد الدين، فبعثَ به مع شاور كما ذكرناه.

وفيها حارب أمير أميران أخاه نور الدِّين [فكسره نور الدين، وسنذكره في ترجمة أمير أميران في السنة الآتية.

وفيها فتحت حارم في شهر رمضان، وكان السبب فيه أَنَّ نور الدين][(١)] لما أصابه بالبقيعة ما أصابه، بعث إلى أخيه قُطْب الدِّين بالمَوْصل وفخر الدين قرا رسلان بالحِصن، ونجم الدِّين بميَّافارِقِين وغيرهم يطلبُ النَّجْدة، فأما [أخوه][(١)] قطب الدِّين، فإنَّه جمع العساكر، وسار مُجدًّا، وعلى مقدّمته زين الدِّين علي كُوجك، وأما فخر الدِّين قرارسلان، فقال له أصحابه: على أيِّ شيء عَزَمْتَ؟ فقال: على القعود: فإنَّ نورَ الدين قد أَثَّر فيه الصَّوم والصَّلاة، وهو يُلْقي نفسه والنَّاس معه في المهالك. فوافقوه، فلما كان من الغد نادى في عسكره بالتجهز للغَزَاة، فقيل له في ذلك، فقال: إنَّ نور الدِّين قد كاتَبَ زُهَّاد بلادي المنقطعين عن الدُّنيا، وذَكَرَ لهم ما جرى على المُسْلمين من الفرنج، وطلب منهم الدُّعاء، وطلب منهم أن يحثُّوا المسلمين على الجهاد، وقد قَعَدَ كلُّ واحدٍ وحوله جماعة يقرؤون كُتُبَ نور الدين ويبكون، ويدعون له وعليّ، فإن تأخرتُ خَرَجَ أهلُ بلادي عن طاعتي، ثُمَّ سار بنفسه.

وأما صاحب مارِدِين فبعثَ بالعساكر، وكان له عُذْرٌ يمنعه عن المسير بنفسه.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

ولما اجتمعت العساكر على حلب سُرَّ نور الدين بقدومها، وسار إلى حارم، فنازلها، وبلغ الفرنج، فحشدوا وجاؤوا في ثلاثين ألفاً، وفيهم البرنس صاحِبُ أنطاكية والقُومص [صاحب طرابُلُس وابن جوسلين والدوك، وهو رئيس القوم][1]، وكان فيهم من الرَّجَّالة ما لا يُحصى، ولما تراءى الجمعان صَعِدَ نور الدِّين على تلٍّ عال، فشاهد من الفرنج ما أذهله وهاله، فنزل من التل، وانفرد عن العساكر، ونزل عن فرسه، وصلَّى ركعتين، ومرَّغ وجهه على التراب، وبكى، وقال: يا سيدي، هذا الجيش جيشك، والدين دينك، ومن محمود في البين، افعل ما يليق بك. وحملتِ الفرنجُ على الميمنة، وفيها عسكر حلب، فاندفعوا بين أيديهم ليبعدوا عن الرَّاجل، وتبعهم الفرنج، فعطفَ نورُ الدِّين على الرَّجَّالة، فحصدهم بالسَّيْف، ورجعت الفرنج، فلم يروا من الرَّجَّالة أحداً، فانخلعت قلوبُهم، وأحاط بهم المسلمون، فذلّوا، وخضعوا، وعمل فيهم السَّيف، فلم يبقَ منهم إلا من نجا به فرسه، وأَسَرَ نورُ الدِّين من سَمَّيْنا من ملوكهم، وستَّة آلافٍ من أكنادهم، وغَنِمَ ما كان معهم من الأموال والخيل والسِّلاح والخيام، وغير ذلك، وفَتَحَ حِصنَ حارم في حادي عشرين رمضان يوم الجمعة، وعاد إلى حلب بالأسارى والغنائم، وامتلأت حلب منهم، فبيع الأسير بدينار، وفرَّقهم نور الدين على العساكر، وأعطى أخاه وصاحِبَ الحِصن الأموال العظيمة، والتُّحف الكثيرة، وعادوا إلى بلادهم، ثم فاداهم نور الدين.

وكان قد استفتى الفُقَهاء، فاختلفوا، فقال قوم: يقتل الجميع. وقال آخرون: يفادي بهم. فمال نورُ الدِّين إلى الفدية، فأخذ منهم ست مئة ألف دينار معجلة، وخيلاً، وسلاحاً وغير ذلك، فكان نورُ الدِّين يحلف بالله أَنَّ جميع ما بناه من المدارس والربط [والمارستانات][1] وغيرها من هذه المفاداة، وجميع ما وقفها[2] منها، وليس فيها من بيتِ المال دِرْهمٌ واحد.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) في (م) و (ش): الصدقات.

وفيها توفي

الحسن بن محمد(١)

ابن الحسن، أبو المعالي الوَرْكاني، الفقيه، الشافعي، وَوَرْكان من نواحي قاشان.

عاش نيفاً وثمانين سنة، يقرئ فنون العلوم بأصبهان، ومن شعره: [من الرمل]

يا أحبائي بجرعاءِ الحِمى ... بِكُمُ منكمْ لقلبي المُسْتَجارْ
ليتَ شِعْري ما الذي زَهَّدكُمْ ... في وِصالي أدلالٌ أم نِفارْ
أَمْ لأن كنتُمْ بدوراً طُلَّعاً ... في دُجى اللَّيل وللبدرِ سِرارْ

وكتب إليه أبو المعالي محمد بن مسعود القَسَّام فُتْيا سنة ستٍّ وأربعين وخمس مئة بأصبهان: [من البسيط]

يا مَنْ تساهَمَ فيه الفَضْلُ والشَّرفُ ... ومن به نفراتُ العِزِّ تأتلفُ
قد حَلَّ في مَدْرَجِ العَلْياءِ مرتبةً ... مطامحُ الشُّهْبِ عن غاياتها تَقِفُ
تشاجَرَ النَّاسُ في تحديد عِشْقهُمُ ... شتى المذاهب فالآراءُ تختلفُ
فاكشِفْ حقيقته واسْتَجْلِ غامضه ... يا من به شُبَهُ الآراءِ تنكشِفُ(٢)

فأجابه على البديهة:

حدُّ الهوى أنَّه يا سائلي شَغَفٌ ... أدْنى نكايته في أهله التَّلَفُ
نار تأجَّجُ في الأحشاء جاحِمُها ... دماءُ عينٍ تراه دائماً يَكِفُ
وقد يُجَنُّ الفتى منه لشِدَّته ... فكم أُناسٍ به في قيده رسفوا
يُشِبُّ نيرانَه فِكرٌ ويُطفِئُهُ ... وَطْءٌ كذا قاله القوم الأُلى سلفوا
فهذا ما رمتَ من عندي حقيقتَه ... فإنَّه واضح كالشَّمْسِ مُنْكَشِفُ
بديهة لم أنقِّحْ لفظها فأتَتْ ... كالدُّرِّ ينشَقُّ عن لألائها الصَّدَفُ(٣)

---

(١) له ترجمة في «الأنساب»: ١٢/ ٢٥٠، و«التحبير»: ١/ ٢٠٥-٢٠٦، و«خريدة القصر» قسم شعراء أصبهان ١/ ١٨٩-١٩٦، و«الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٢٣١-٢٣٢، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٦٦-٦٧، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٦٥، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٨٧ .

(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٩٤ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٩٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

محمد بن علي بن أبي منصور(١)

أبو جعفر، الوزير جمال الدين الأَصبهاني.

وزير أتابك زَنْكي، وسيف الدِّين غازي، وقُطْب الدِّين مودود، وكان الحاكم على الدَّولة، و[كان](٢) بينه وبين زين الدِّين علي كُوجك مصافاة، وعهود ومواثيق، وكانت المَوْصل في أيامه ملجأً لكلِّ ملهوف، ومفزعاً لكل مكروب، ولم يكن في زمانه من يضاهيه، ولا يقاربه في الجُود والنَّوال، والإحسان والإفضال، وكان كثيرَ الصِّلات، غزير البر والصَّدقات، بنى مسجد الخَيْف، وغَرِمَ عليه أموالاً كثيرة، وجدَّد الحجر إلى جانب الكعبة، وزخرف البيت بالذَّهب، وبنى أبواب الحَرَم وشيَّدها، ورَفَع أعتابها صيانةً للحرم، وبنى المسجد الذي على جبل عَرَفَة، والدَّرج الذي يَطْلُعُ فيها إليه، وكان النَّاس يعانون في صعودهم شِدَّة، وأجرى الماءَ إلى عرفات، وعمل البرك والمصانع، وأجرى الماء في قنوات، وكان يعطي أهل مكة كلَّ سنة مالاً عظيماً ليجروا الماء إلى عرفات، وبنى على مدينة رسول الله ﷺ سُوراً، وكانت الأعراب تنهبُها وتغارُ عليها، فكان الخطيب يقول على المنبر: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك محمد ﷺ، وهو محمد بن علي الأَصبهاني.

وكانت صدقاتُه وصِلاتُه في المشرق والمغرب، يبعث بها إلى خُرَاسان، والعراق والبصرة، والكُوفة، وبغداد والشَّام، ومِصر، والحجاز، واليمن، فيعمُّ [الفقهاء و](٢) العلماء والزُّهَّاد وأرباب البيوت، وغيرهم، وما خيَّبَ رجاء مَنْ قَصَده، وكان له في كلِّ يوم ـ خارجاً عن أرباب الرَّواتب ـ مئة دينار يتصدَّق بها على باب بيته، وبنى الجسور والقناطر والرُّبُط بالمَوْصِل، والجسر الذي عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والرَّصاص، وأوثقه بالحديد بين البنيان، وبنى الرُّبُط بالموصل وسِنْجار ونَصِيبين، وكان إذا قلَّ ما بيده باع بُسُطَ داره وثيابَه، وتصدَّق بها، وكان يبعث إلى عمر الملا

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٠٩، و«مختصر تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٣-١٩٥، و«الكامل»: ١١/ ٣٠٦-٣١٠، «وفيات الأعيان»: ٥/ ١٤٣-١٤٧، و«الروضتين»: ١/ ٤٢٠-٤٣٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٤٩-٣٥٠، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

بالأموال، فيتصدَّق بها، فإذا نَفِدَ ما عنده خلع ثيابه وعِمامته، وبَعَثَ بها إلى عمر ليتصدَّق بثمنها، [فيبكي عمر.

وكان قد](١) وقع بالمَوْصل قحطٌ، فكان يقول: هذه أيَّام المواساة. ولهذا الخَرْجِ العظيم كان يُنْسب إلى عمل الكيمياء، وحُوشي من ذلك.

[ذكر وفاته](١):

ولما سارت الرُّكْبان بجوده، وعَمَّ معروفُه أهلَ الدُّنيا حَسَدَه أقوامٌ، فكذَّبوا عليه عند قُطْب الدين، وقالوا: إنَّه يأخذُ أموالك فيتصدَّق بها. وما كان قُطْبُ الدِّين يقدر على قبضه لما كان بينه وبين زين الدِّين من المصافاة، فوضع مَنْ أغرى بينهما، فتغيَّر عليه زين الدِّين، فقبض عليه قُطْب الدين، واعتقله في قلعة المَوْصل، فقال ابنُ المعلِّم [الشَّاعر هذه الأبيات](١): [من البسيط]

إنْ يَعْزِلُوكَ لمعروفٍ شَمَخْتَ به ... على ذوي الأرضِ ذات العَرْضِ والطُّولِ
فأنتَ يا واحدَ الدُّنيا وسيِّدَها ... بذلك الجُودِ فيها غيرَ مَعْزُولِ

ثم ندم زين الدِّين على موافقة قُطْب الدِّين على قَبْضه، لأنَّ خواص قُطْب الدين كانت أيديهم مقبوضة عن التصرُّف، فلما قُبِضَ جمالُ الدِّين انبسطوا في الأمر والنَّهْي على خلاف غَرَضِ زين الدين، وأقام في الحَبْسِ سنة، ثُمَّ توفي.

وقال(٢) أبو القاسم الصُّوفي، وكان صاحبه: قال لي جمال الدِّين: كنتُ أخشى أن أنقل من الدَّسْت إلى القبر، فلو جاء الموتُ الآن ما كَرِهْتُه. ثم مَرِضَ، فقال [لي](١): يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدّار فَعَرِّفْني. فقلتُ في نفسي: قد اختلط الرَّجل. فلما كان من الغد إذْ سَقَطَ طائرٌ أبيض لم أَرَ مثله، فَعَرَّفْتُه، فاسْتَبْشَرَ، وقال: جاء الحقُّ. ثم قال: بيني وبين أسد الدين شيركوه عهد، مَنْ مات منا قَبْلَ صاحبه حَمَلَه إلى المدينة ـ وكان أسد الدين وجمال الدِّين قد بنيا رباطين بالمدينة وعملا فيهما تُربتين ـ فاذهَبْ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٢) في (م) و (ش): وحكى.

إلى أسد الدين، فذكَّرْه. وأَقْبَلَ على ذِكْر الله تعالى والتشهُّد حتى مات، وطار الطَّائر، ودُفِنَ في تابوت بالمَوْصِل، وذلك في رمضان. ومضى أبو القاسم إلى أسد الدِّين، فأخبره، فقال: صَدَق. وأعطاه مالاً صالحاً يحمله به إلى مكة والمدينة، وأن يحجَّ معه جماعةٌ من الصُّوفية، ويُقرأ بين يدي تابوته عند النُّزول وعند الرَّحيل، وأن يُنادى بالصَّلاة عليه في كلِّ بلد. فخرجوا بتابوته على هذه الهيئة، فقدموا به بغداد، ونزلوا به في الشُّونيزية، ولم يبق ببغداد أحدٌ إلا وخرج إليه خصوصاً مَنْ كان له إليه إحسان، فصلُّوا عليه وبكوا وترحَّموا، ثُمَّ خرجوا به إلى الحِلَّة والكوفة، وزاوية المشهدين، فقام بعضُ العلويين بالكُوفة على تلٍّ عالٍ، فلما مَرُّوا بجنازته رَفَعَ صوتَه، وقال: [من الطويل]

سَرَى نعشُه فوق الرِّقابِ وطالما ... سرى بِرُّه في العالمينَ ونائِلُهْ
يمرُّ على الوادي فتُثْني رمالُهُ ... عليه وبالنَّادي فتبكي أرامِلُهْ

فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم، ثم ساروا به مع الحاجّ، فلمَّا وصلوا [به][1] إلى وادي المحرم، ألقوا على تابوته شقة كأنَّه مُحْرِم، ثم أَتَوْا به عرفات، وخرج أهل مكة باكين، وصَعِدوا به إلى الجبل، ونزلوا به إلى مِنى، واشتروا له جمالاً، ونحروها عنه، ودخلوا به مكَّة، فطافوا به حول البيت، واشتغل النَّاس به عن البيت من كَثْرة البكاء والصُّراخ، وخرج النِّساء المجاورات اللائي كان إليهن بِرَّه بين يدي تابوته يبكين ويصرخن، وكان يوماً عظيماً، وساروا به إلى المدينة، فخرج أهلُها، وفعلوا به كما فعل أهل مكَّة، ودخلوا به إلى الرَّوْضة، فصلوا عليه، وحملوه إلى رِباطه، فدفنوه فيه، وبين رباطه وبين مسجد النَّبي ﷺ أذرع عرض الطَّريق، وكان فصيحاً. ولما حُبس قال: [من الكامل]

أيـن اليمينُ وأينَ ما عاهدْتني ... ما كان أسرعَ في الهوى ما خُنْتني
وتركتني حيرانَ صَبًّا مُدْنَفاً ... أرعى النُّجومَ وأنتَ ترقد ها هَنِي

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

فــلأرفــعــنَّ إلــى إلــهــيَ قِــصَّــةً   إنــســان مــظــلــوم وأنــتَ ظــلــمــتــنــي
ولأدعـونَّ عـلـيـك فـي غَـسَـقِ الـدُّجـى   فـعـسـاك تـبـلـى بـالـذي أبـلـيـتـنـي

ولم يحمل إلى مكة مَيْتٌ قبله سوى الحُرَّة ملكة عدن، وابن رُزِّيك أخو الصَّالح طلائع، والخادم أومشت صاحب عُمان.

أبو الفَرَج ابن الدَّهَّان الواسِطي(١)

ويلقب شمس الرُّؤساء، شاعِرٌ فصيح، ومن شعره: [من الخفيف]

عـاد عـيـد الـهـوى بـقـلـبـي فـأبـدى   زفـراتٍ تُـغْـيـي الـحـلـيـمَ الـجَـلْـدا
مـا يـريـد الـهـوى كـأنَّ لـه عـنــ   ـدَ فـؤادي الـمـتـبـولِ ثـاراً وحِـقْـدا
يـا طـلـيـقَ الـفـؤاد حـاجـة مـأسـو   رٍ أبــى مــن وَثَــاقــه أَنْ يُــفَــدَّى
أيــنَ أيـامُـنـا بـسَـلْـعٍ أعـاد الــ   ـلــهُ أيــامــنــا بــسَــلْــعٍ ورَدَّا
يـالـهـا نـفـحـةً بـذي الـبـان يَـزْدا   دُ فـؤادي لـبَـرْدِهـا الـدَّهْـرَ وَقْـدا
ولـيـالٍ بـجـوٍّ ضـارجَ صَـيَّـرْ   نَ لـحُـزْنـي أيـامـيَ الـبِـيْـضَ رُبْـدا(٢)
لا عـدا الـغـيـثُ مـن تِـهـامـةَ رَبْـعاً   هـامَ قـلـبـي بـه غـرامـاً وَوَجْـدا
أتـمـنَّـى نَـجْـداً ومـن أيـن تُـعْـطيـ   ـنـي الـلَّـيـالـي بـأرضِ نـعـمـانَ نـجـدا
حَـبَّـذا رفـقـتـي بـوادي الأثـيـلا   تِ وأظـعـانـهـم مـع الـفَـجْـرِ تُـحْـدى
يـا لُـوَاتـي دَيْـنَ الـغَـرامِ أمـا آ   ن لِـدَيْـنـي عـلـيـكُـمُ أَنْ يُـؤدَّى
يـا ظـبـاء الـصَّـريـم فـيـكـنَّ ظـبـيٌ   صـاد قـلـبـي يـوم الـغـمـيـمِ وصَـدَّا
لـم أكـن عـالـمـاً بـوَجْـرة يـومـاً   أَنَّ غـزلانـهـا تـصـيـد الأُسْـدا
أَخْـلَـقَـتْ جِـدَّتـي صـروفُ الـلَّـيـالـي   وأَرَتْـنـي هَـزْلَ الـمُـلِـمَّـاتِ جِـدَّا
مـلأتـنـي يـدُ الـخُـطـوب كُـلُـومـاً   أَنْ رأَتْـنـي لـصَـرْفـهـا مُـسـتَـعِـدَّا

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مجلد ١/ج٤/ ٣٦٥-٣٦٨، والأبيات فيه.
(٢) ربد: سود، مختلط سوادها بكدرة، «اللسان» (ربد).

السنة الستون وخمس مئة

فيها في رجب عَمِلَ الخليفة دعوةً في الدَّار الجديدة واحتفل لها، وحَضَرَها أرباب الدولة والعلماء [والفقهاء](١) والصُّوفية والقُرَّاء، والوعَّاظ، ووعظوا، وقرؤوا، ونُصبت الموائد، عليها فنون الأَطعمة والحلوى، وغنَّى المغنون، ورقص الصُّوفية نهارهم وليلتهم، ثم خَلَعَ على جميع من حَضَر، وصار ذلك رسماً [مقرراً](١) في كل سنة في رجب.

[وذكر جدي في «المنتظم»، قال](١): وفي عيد الأضحى ولدت امرأة من درب هارون [يقال لها بنت أبي العز الأهوازي](١) أربع بنات، وماتت المرأة ومعها بنت أخرى(٢).

وتوفي الوزير يحيى بن هُبيرة، وقُبِضَ على وَلَدَيْه، وحاجبه ابن تركان، وحبسوا في دار أُستاذ الدار.

وفيها فتح نورُ الدِّين بانياس عَنْوَةً، وكان معه أخوه نصير الدِّين(٣) أمير أميران، فأصابه سَهْمٌ، فأَذْهَبَ إحدى عينيه، فقال له نور الدين: لو كُشِفَ لك عما أَعدَّ الله لك من الأَجْر لتمنَّيْتَ ذَهَاب الأخرى.

وكان ولد معين الدِّين أُنَر، الذي سَلَّم أبوه بانياس إلى الفرنج، قائماً على رأس نور الدِّين، فقال له نور الدين: للنَّاس بهذا الفَتْح فرحةٌ واحدة، ولك فرحتان. قال: يا مولانا، ولِمَ؟ قال: لأَنَّ اليوم بُرِّدْتَ جِلْدة أبيك من نار جهنم.

وفيها فوَّضَ نورُ الدِّين شِحْنكيَّة دمشق إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب [على ما قيل](١)، فأظهر السِّياسة وهذَّب الأمور، فقال عرقلة: [من المتقارب]

رُوَيْدَكُمُ يا لصوصَ الشَّآم ... فإنِّي لكُمْ ناصحٌ في مقالي

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) «المنتظم»: ١٠/ ٢١٠.

(٣) كذا في (ع) و (ح)، وفي «الروضتين»: ١/ ٤٣٧ نصرة الدين.

وإيـــاكُـــمْ وســـمـــيَّ الـــنَّـــبـــي يـوسـف ابـن الـحـجـا والـجـمـال
فـــذاك يُـــقَـــطِّـــعُ أيـــدي الـنـســـاء وهـــذا يـــقـــطِّـــعُ أيـــدي الـــرِّجـــال

وفيها توفي أمير أميران بن زَنْكي أخو نور الدِّين [محمود](١)، أصابه سَهْمٌ على بانياس في عينه، فقتله(٢).

وقد ذكرنا أن نورَ الدِّين لما مَرِضَ، كاتبَ أمير أميران الأُمراء، فلما بَرِئَ نور الدين سار إليه، وأخذ حَرَّان منه، وطَرَده، فمضى إلى صاحب الرُّوم(٣)، وجَيَّش الجيوش في سنة تسعٍ وخمسين، وانضمَّ إليه خَلْقٌ كثير، وكان نور الدين نازلاً على رأس الماء، فالتقوا، فكُسِرَ نور الدين، وقُتِلَ أخو مجد الدِّين ابن الدَّاية، ونُهِبَ عسكر نور الدين، ورجع [أمير أميران إلى صاحب](٤) حِصن كيفا مستجيراً به. فقيل: إنه مات عنده، ويقال: إنه شَفَعَ فيه إلى نور الدين، فَقَبِلَ شفاعته، وماتَ بدمشق.

حَسَّان بن تميم بن نَصْر(٥)

أبو النَّدى الدِّمَشْقي، [ويعرف بالصَّيْرفي](١).

سمع الحديث وحَجَّ، وتوفي في رجب، ودفن بمقبرة باب الفراديس، [سمع الفقيه نَصراً الصيرفي وغيره](١)، وكتب عنه [الحافظ](١) ابن عساكر لعبد الملك بن جمهور القُرْطُبي [هذه الأبيات](١): [من البسيط]

الموت يقبضُ ما أطلقتُ من أملي لو صَحَّ عقلي طلبتُ الفوزَ في مَهَلِ
مــا يــنــقــضــي أمــلٌ إلا أتــى أمــلٌ فالدَّهْرُ في ذا وذا لم أَخْلُ من شُغُلِ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) هكذا قال السبط، وتابعه على ذلك الذهبي في «العبر»: ٤/ ١٦٩، وقد ذكر ابن أبي طي والعماد الكاتب أنه أخذ رهينة أثناء حصار حلب سنة (٥٧١هـ)، انظر «الروضتين»: ٢/ ٤١٣-٤١٤.

(٣) كذا قال، وقد أورد أبو شامة في «الروضتين»: ٢/ ٩١-٩٢ نقلاً عن ابن أبي طي أن نصرة الدين أمير أميران كان مع الفرنج على أرتاح، وأنه انضم إلى أخيه نور الدين في بدء المعركة.

(٤) في (ع) و (ح): ورجع إلى حصن كيفا، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٥) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) (س): ٤/ ٣٥٣-٣٥٤ - والأبيات فيه- و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٦٧.

مـن أيـن أُرْضـيـك إلا أَنْ تـوفِّـقَـنـي هيهات هيهاتَ ما التوفيقُ من قِبَلي
فـارحـمْ بـعـزَّتـك الـلـهـم مُـلْـتـهـفـاً فـيـمـا أتـى واغـتـفـر مـا كـان مـن زَلَـل

عبد الواحد بن إبراهيم[1]

ابن أحمد أبو الفضائل[2]، [ويعرف بابن قُزَّة][3] الحلبي.

انتقل أبوه إلى دمشق، وولد عبد الواحد سنة خمسٍ وسبعين وأربع مئة [وسمع الحديث][3] وتوفي في ذي الحجة، ودُفِنَ بالباب الصَّغير، [سمع نَصْراً المقدسي وغيره، وروى عنه الحافظ ابن عساكر وغيره، وقال: وأنشدني للمبرِّد هذه الأبيات][4]: [من السريع]

يـا صـاحـبَ الـمـعـروفِ كـنْ تـارِكـاً تَـرْدادَ ذي الـحـاجـة فـي حـاجـتِـهْ
فَـشَـرُّ مـعـروفـك مـمـطـولُـهُ وخـيـره مـا كـان مِـنْ سـاعـتِـهْ
لـكـلِّ شـيءٍ آفـةٌ تُـتَّـقـى وحَـبْـسُـك الـمـعـروف مِـنْ آفـتِـهْ[5]

[وفيها توفي

عمر بن بلهيقا الطَّحَّان البغدادي[6]

الذي عمر جامع بلهيقا بالجانب الغربي من بغداد بالقرية، وكان مسجداً صغيراً، فاشترى حوله أماكن وأوسعه، واستأذن الخليفة في أن يجعله جامعاً، فأذن له.

قال جدي في «المنتظم»: إلا أن أكثر المواضع التي اشتراها كانت تُرباً فيها موتى، فأخرجوا، وبيعت أماكنهم، وكان المسجد الأول مما يلي الباب والمنارة.

وتوفي يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة، ودفن على باب الجامع بعيداً من حائطه، ثم نبش بعد أيام وأخرج، ودفن ملاصقاً للجامع ليشتهر ذكره بأنه بنى الجامع، فقال الناس: هذا رجل نبش الموتى وأخرجهم، فقضي عليه بأن نبش بعد دفنه][3].

(١) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) (س): ١٠/ ٥٤٧ (مج٤٣/ ٣٢٥-٣٢٦)، و«توضيح المشتبه»: ٧/ ٢٠٣.
(٢) في «تاريخ ابن عساكر»: أبو الفضل.
(٣) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٤) في (ع) و (ح): ودفن بالباب الصغير، قال ابن عساكر: أنشدني المبرد، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٥) الأبيات في «تاريخ ابن عساكر».
(٦) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢١٢، و«البداية والنهاية» (وفيات سنة ٥٦٠هـ) وفيهما: بهليقا.

محمد بن إبراهيم بن الكِيزاني(١)

أبو عبد الله، الواعظ، المِصري، [رجل مشهور فاضل، وله أصحاب بمصر، و](٢) كان يقول بأنَّ أفعال العباد قديمة، [وبينه وبين جماعة من المصريين خلاف](٢)، ودفن عند الشَّافعي رحمة الله عليه، [فتعصب عليه رجل شافعي يقال له الخبوشاني ونبشه(٣)] في أيام صلاح الدين [وقال: هذا حشوي لا يحل أن يدفن عند الشافعي](٢)، ودفن في مكانٍ آخر، وكان زاهداً عابداً، قنوعاً من الدُّنيا باليسير، فصيحاً، [وله النظم والنثر، وديوانه بمصر مشهور، وممدوح مشكور، وقد وقعت عليه بمصر، فرأيته حسن العبارة، صحيح الإشارة، وفيه رقة وحلاوة، وعليه طلاوة، وغير ذلك أنشدني منه الفضل مرهف ابن أسامة ابن منقذ بمصر في سنة تسع وست مئة هذه الأبيات](٤): [من مجزوء الرمل]

اصرفوا عني طبيبي ... ودعوني وحبيبي
علِّلُوا قلبي بذكرا ... ه فقد زاد لهيبي
طاب هَتْكي في هواه ... بين واشٍ ورقيبِ
لا أُبالي بفوات النّـ ... ـفس ما دامَ نَصِيبي
ليس من لام وإن أطـ ... ـنب فيه بمصيب
جسدي راض بسُقْمي ... وجفوني بنحيبي(٥)

وقال: [من الكامل]

---

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ٢/ ١٨-٤٠، و«اللباب»: ٣/ ١٢٥، و«المحمدون من الشعراء» للقفطي: ١٥٣-١٥٥، «وفيات الأعيان»: ٤/ ٤٦١-٤٦٢، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ٩٠-٩١، و«الوافي بالوفيات»: ١/ ٣٤٧-٣٥٠، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٦٧-٣٦٨، ووفاته في «وفيات الأعيان»: و«طبقات الشافعية» سنة (٥٦٢هـ).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ع) و (ح) فبعث عليه الخبوشاني ونبشه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، والخبوشاني هو محمد بن الموفق، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٨٧هـ).

(٤) في (ع) و (ح): فصيحاً، ديوانه مشهور، ومن شعره، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٥) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٢٠ .

يا مَنْ يتيه على الزَّمان بحُسْنِهِ ... اعْطِفْ على الصَّبِّ المشوق التَّائِهِ
أضحى يخافُ على احتراقِ فؤاده ... أسفاً لأنَّك منه في سودائِهِ[1]

وقال: [من الطويل]

أسُكَّان هذا الحيِّ من آلِ مالك ... مسالمةٌ ما بيننا وجميلُ
ألم تَعِدُونا أن تزوروا تكرُّماً ... فما بالُ ميعاد الوِصالِ يطولُ
وَحُلْتُمْ عن الوَعدِ الجميلِ مَلالة ... وأنتمْ على نَقْضِ العُهودِ نُزُولُ
وما منكُمُ بُدٌّ على كلِّ حالةٍ ... وإن كان منكم هاجرٌ ومَلولُ
دواعي الهوى محتومةٌ فاصطَبِرْ لها ... وإن جار بَيْنٌ أو جَفَاك خليلُ[2]

وقال: [من المتقارب]

تَخَيَّرْ لنفسك ما تَرْتَضِيْهِ ... ولا تُدْنِينَّ إليك اللِّئاما
فليس الصَّديقُ صديقَ الرَّخاءِ ... ولكنْ إذا قَعَدَ الدَّهْرُ قاما
ينامُ وهِمَّتُه في الذي ... يَهُمُّك لا يَستَلِذُّ المناما
وكم ضاحكٍ لك أحشاؤه ... تَمنَّاك أنْ لو لقيتَ الحِماما[3]

محمد بن سَعْد بن عبد الله[4]

ابن الحسن، أبو عبد الله، البغدادي. توفي بحلب في المحرَّم، ومن شعره: [من السريع]

أفدي الذي وكَّلَني حبُّه ... بطولِ إعلالٍ وإمراضِ
ولستُ أدري بعد ذا كلِّه ... أساخِطٌ مولاي أم راضِ

وقال: [من السريع]

يا ذا الذي وكَّلَ بي حبُّه ... على مدى الأيام أوْجاعا
وما يبالي لقساواته ... إنْ ظَمِيَ المشتاقُ أو جاعا

---

(١) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٣٢.
(٢) «الخريدة»: ٢/ ٣٥-٣٦.
(٣) «الخريدة»: ٢/ ٣٩.
(٤) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) (س): ١٥/ ٣٤٩-٣٥٠، و«الكامل»: ١١/ ٣٢١ - وفيه أنه توفي بالموصل- و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ٩٠.

وقال: [من الطويل]

سيطوي على ذي البهجة الجسم حُسْنه هـوامٌ تـرى الـرَّمْـسَ الـبـعـيـدَ وذُوْدُه
ويُـضْـجـعـه سَـهْـمُ الـمَـنِـيَّـة مُـفْـرداً ويَـجْـفُـوه مـن بـعـد الـوِصـالِ وَدُوْدُه

محمد بن عبد الله ابن العباس، أبو عبد الله، الحَرَّاني(١)

ولد سنة أربع وثمانين وأربع مئة، وشَهِدَ عند أبي الحسن الدَّامَغاني في سنة أربعٍ وخمس مئة، وعاش حتى لم يبق من شهود ابن الدَّامَغاني غيره، وسمع الحديث، وصنَّف كتاباً سماه «روضة الأدباء».

قال الشَّيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله: زرتُه يوماً، فأطلتُ الجلوس عنده، فقلت له: ثَقَّلْتُ. فأنشدني: [من الوافر]

لـئـن سَـمَّـيْـتَ إبـرامـاً وثِـقْـلاً زيـاراتٍ رَفَـعْـتَ بـهـنَّ قَـدْري
فـمـا أبـرمـتَ إلا حَـبْـلَ وِدِّي ولا ثَـقَّـلْـتَ إلا ظَـهْـرَ شُـكْـري

وكانت وفاته في جمادى الآخرة، وكان فاضلاً، ثقةً، ودُفِنَ بباب الأَزَج(٢).

محمد بن محمد بن الحسين بن الفَرَّاء الحَنْبلي(٣)

ولد سنة أربع وتسعين وأربع مئة، وسمع الحديث، وتفقَّه على والده، وأفتى، ودرَّس، وولي القضاء بباب الأَزَج، وبواسط، وقدم بغداد، وقد ذهب بصره، فأقام في منزله، وتوفي في جُمادى الآخرة، ودفن بمقبرة باب حرب.

مَرْجان خادم المقتفي(٤)

كان متعصباً ببغض الحنابلة، [وتعصَّب على جدي تعصباً زائداً، قال جدي](٥):

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢١٢-٢١٣ ، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ٣٣٠، ٣٤٠-٣٤١، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٥٢-٣٥٣، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) «المنتظم»: ١٠/ ٢١٢ .

(٣) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢١٣، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٢٤٤-٢٥٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٥٣-٣٥٤، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢١٣-٢١٤، و«الوافي بالوفيات»: ٢٥/ ٤١٧، و«البداية والنهاية» (وفيات سنة ٥٦٠هـ).

(٥) في (ع) و (ح): قال الشيخ أبو الفرج: عاداني.. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

عاداني، وناصبني دون الكُلِّ. فقيل له في ذلك، فقال: قَصدي أَنْ أقلع مذهب الحنابلة، وسعى بي إلى الخليفة، فلم يلتفت عليه، فلما رأيته كذا، لجأتُ إلى الله تعالى[(١)]، ودعوتُ عليه وسألته أن يكفيني شَرَّه، فصرفه عني بأَنْ ضربه السِّلُّ بعد أيام، فمات في ذي القَعدة، [وحمل إلى ترب الرصافة][(٢)] وسر الحنابلة بموته، لأَنَّه لما حج، قلع الحطيم الذي كان لهم بمكَّة، وأبطل إمامتهم بها، وبالغ في أذاهم.

قرأ مَرْجان القرآن، وشيئاً من مذهب الشَّافعي، رحمة الله عليه.

قال[(٣)]: وسمعتُ الخليفةَ المستنجد والوزير يحيى بن هُبيرة قائمٌ بين يديه، وهو يمدحه وينشده أبياتاً نَظَمها الخليفةُ في مَدْحِ الوزير، وهي هذه: [من الطويل]

وُجُودُك والدُّنيا إليك فقيرة ... وَجُودك والمعروف في النَّاس يُنْكَرُ
فلو رام يا يحيى مكانك جعفر ... ويحيى لكفَّا عنه يحيى وجعفر
ولم أرَ مَنْ ينوي لك السُّوءَ يا أبا الـ ... ـمُظَفَّر إلا كنتَ أنتَ المُظَفَّرُ

[فصل وفيها توفي

الوزير ابن هبيرة[(٤)]

وقد نسبه جماعة من العلماء منهم محمد بن الدُّبيثي في «الذيل» وأبو بكر والعماد الأصفهاني فقالوا: هو][(٢)] يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن حسن بن أحمد بن الحسن بن جهم بن عمر بن هُبيرة بن علوان بن الحَوْفزان، وهو الحارث بن شَرِيك بن عمرو بن قيس بن شراحيل بن مُرَّة بن همام بن مُرَّة بن ذُهْل بن شيبان بن ثعلبة بن عُكابة

(١) في «المنتظم» ١٠/ ٢١٣: ولما قويت عصبيته لجأت إلى الله سبحانه.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش). قلت: ولم أعرف من هو أبو بكر هذا.

(٣) يعني مرجان الخادم، انظر «المنتظم»: ١٠/ ٢١٤.

(٤) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج٢/ ٩٦-١٠٠، و«المنتظم»: ١٠/ ٢١٤-٢١٧، و«مشيخة ابن الجوزي»: ٢٠٠-٢٠٢، و«الكامل»: ١١/ ٣٢١، و«كتاب «الروضتين»: ١/ ٤٤٠-٤٤١، و«وفيات «الأعيان»: ٦/ ٢٣٠-٢٤٤، و«الفخري»: ٣١٢-٣١٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٢٦-٤٣٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

ابن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أَفْصى بن دُعْمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان، [وهذا النسب استنبطوه بعد وزارته بسنتين، وكنيته أبو المظفر، ولقبه عون الدين.

ذكر طرف من أخباره][١]:

ولد سنة تسعٍ وتسعين وأربع مئة[٢]، بقرية [يقال لها][٣] الدُّور من أعمال دُجَيْلِ العراق.

وقرأ القرآن بالرِّوايات، وسَمِعَ الحديث الكثير، وقرأ النحو واللغة والعروض، وتفقَّه على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل رحمة الله عليه، وصنَّف الكُتُبَ الحِسان، منها «الإفصاح عن معاني الصِّحاح» عشر مجلَّدات، غَرِمَ عليه في [أيام][٣] وزارته مئة ألف دينار؛ كان يجمع العلماء، ويبحث معهم في حديثٍ، ويخلع عليهم، ويبرُّهم، وكان قبل وزارته فقيراً جداً، [فذكر جدِّي رحمه الله في «المنتظم»، وقال: أمضه الفقر، فتعرض][٤]، فجعله المقتفي مُشْرفاً في المخزن، ثم صيَّره صاحبَ الدِّيوان، ثم استوزره، فكان يجتهد في دَفْع الظُّلْم، ويجتنب المحرَّمات، وأمر المقتفي بأن يُخْلَعَ عليه، فأدخل بيتاً قريباً منه، وجيء بخِلْعة حرير، فقال: والله لا لبستها أبداً. قال الوزير: فسمعتُ صوت المقتفي، وهو يقول للفَرّاشين: ما قلتُ لكم إنَّه ما يلبسها.

وأول يوم جلس في الدِّيوان، نظر إلى رجلٍ من غِلْمان الدِّيوان، فاستدعاه، فأعطاه، ووصله، فقيل له في ذلك، فقال: دخلتُ يوماً إلى هذا الدِّيوان، فجاء هذا، وأقامني، وقال: قُمْ، فليس هذا موضعك.

ودخل عليه يوماً تركيٌّ، فقال لحاجبه: أعطه عشرين ديناراً، وكُرًّا من طعامٍ، وقُل له لا يحضر هاهنا. ثم التفت إلى الجماعة، وقال: هذا كان شِحْنة الدُّور، فجمع المشايخ، وظلمهم، وأخذ من كلِّ واحدٍ شيئاً، وقال لي: أيش معك؟ قلت: ما معي شيء. فضربني، وشتمني، وآذاني.

---

(١) في (ع) و (ح): بن عدنان، أبو المظفر عون الدين الوزير، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٢) في «الروضتين»، و«وفيات الأعيان»: ولد سنة (٤٩٧هـ)، وهو الأصح.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٤) في (ع) و (ح): فقيراً جداً، فلما أمضه الفقر تعرض للعمل.. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

وكانت أمواله مبذولة، ينفق في كلِّ سنة مئة ألف دينار ويستدين، وكان يقول: ما وجبتْ عليَّ زكاة قطُّ[(١)].

وكان يقول: أفادني فلان، وأفادني فلان.

[قال جدِّي رحمه الله: وسألني يوماً عن قوله عليه السَّلام: «مَنْ فاته حِزْبُه من اللَّيل، فصلاه قبل الزَّوال، فكأنه صلاه بالليل[(٢)]». فقلت: هذا ظاهر في اللغة والفقه، أما اللغة فإن العرب تقول: إلى الزوال كنت الليلة، وأما الفقه، فإنه عند أبي حنيفة يصح الصوم بنية قبل الزوال، فقد جعل ذلك الوقت في حكم الليل. فأعجبه ذلك، وكان يقول للناس: ما كنت أعرف معنى هذا الحديث حتى عرَّفني إياه فلان، فأخجل][(٣)].

وجرى بين يديه بحثٌ في مسألةٍ، فخالف فيها فقيه مالكي، وادَّعى الإجماع، فقال له الوزير والجماعة: خالفْتَ. وهو لا يرجع، فقال له الوزير: أحمارٌ أنت، أَمَا ترى الجماعة يخالفونك. ثُمَّ ندم الوزير على قوله، وقال: هذا لا يليقُ بالأدب، ولا بُدَّ أن تقول لي كما قلتُ لك، وما أنا إلا كأحدكم. فارتفع بكاءُ الجماعة، وأخذ الفقيه المالكي يعتذر ويبكي، والوزير يبكي، ويقول: القِصاص القِصاص. فقال يوسف الدِّمشقي [للوزير][(٤)]: القِصاص أو الفِدْية، فقال الوزير: له حُكْمه. فقال الفقيه: نعمك عليَّ كثيرة، فأي حكم بقي لي؟ فقال: لا بُدَّ. فقال: عليَّ مئة دينار دَيْن. فأعطاه إياها [فرضي][(٤)].

وكان في وزارته يتأسَّفُ على ما مضى من زمانه، ويندم حيث دخل في الدُّنيا، ويقول: كان عندنا في القرية نخلة في مسجدٍ تحمل ألف رطل تمراً، فكان أخي محبّ

(١) «المنتظم»: ١٠/ ٢١٥.

(٢) أخرج مسلم (٧٤٧)، وأبو داود (١٣١٣)، والترمذي (٥٨١)، والنسائي في «المجتبى»: ٣/ ٢٥٩ و ٢٦٠، وابن ماجه (١٣٤٣) من حديث عمر بن الخطاب مرفوعاً «من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل». وهذا لفظ مسلم.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و (ش). وانظر «المنتظم»: ١٠/ ٢١٥.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

الدِّين[1] يقول: يا أخي تكفانا[2] هذه. وكان أخوه محبُّ الدِّين سيِّدَ الزُهَّاد، ما دخل معه فيما كان فيه، ولا أكل له طعاماً.

[قلت: وقد سمعنا مشايخنا ببغداد يحكون عنه حكايات عجيبة، منها أنه][3] قال: وكان سببُ ولايتي للمخزن أنني ضاق ما بيدي حتى فَقَدْتُ القوت أياماً، فأشار عليَّ بعضُ أهلي أَنْ أمضي إلى قبر معروف الكَرْخي، وأسأل الله عنده، فإنَّ الدُّعاء عنده مستجاب. فأتيتُ قبر معروف، وصلَّيتُ عنده، ودعوتُ، ثمَّ خرجتُ لأقصد البلد ـ يعني بغداد ـ فاجتزت بقَطُفْتا[4]، فرأيتُ مسجداً مهجوراً، فدخلتُ لأصلي فيه ركعتين، وإذا بمريضٍ ملقى على بارِيَّة[5]، فقعدتُ عند رأسه، وقلتُ: ما تشتهي؟ فقال: سَفَرْجلة، فخرجتُ إلى بقَّال هناك، فَرَهَنْتُ عنده مِئْزري على سَفَرْجَلَتين وتُفَّاحة، وأتيتُه بها، فأكل من السَّفَرْجلة، ثم قال: أغلقِ البابَ ـ أي باب المسجد ـ فَغَلَقْتُه، فتنحى عن البارية، وقال: احفرْ هاهنا، فحفرتُ، وإذا بكوزٍ، فقال: خُذْ هذا، فأنتَ أَحَقُّ به، فقلتُ: أما لك وارث؟ فقال: لا، وإنما كان لي أَخٌ، وعَهْدِي به بعيد، وبلغني أنَّه مات، ونحن من الرُّصافة. وبينا هو يحدِّثُني إذ قضى نحبه، فغسَّلته، وكَفَّنْتُه، ودفنته، ثم أخذتُ الكُوز، وإذا فيه مقدار خمس مئة دينار، وأتيتُ إلى دِجْلة لأعبرها، وإذا بملاحٍ في سفينة عتيقة، وعليه ثيابٌ رَثَّة. فقال: معي معي. فنزلتُ معه، وإذا به أَشْبه النَّاس بذلك الرجل، فقلتُ: من أين أنتَ؟ فقال: من الرُّصافة، ولي بناتٌ، وأنا صعلوك. قلت: فما لك أحد؟ قال: لا، كان لي أَخٌ، ولي عنه زمان، وما أدري ما فعل الله به. فقلتُ: ابسط حِجْرَك، فبسطه، فصببتُ المال فيه، فَبُهِتَ، فحدَّثْتُه الخبر، فسألني أن آخذ نصفه، فقلتُ: والله ولا حَبَّة. ثم صَعِدْتُ إلى دار الخليفة، وكتبت رُقْعةً، فخرج عليها إشراف المخزن، ثم تدرَّجْتُ إلى الوِزارة.

---

(١) في (ع) و (ح): مجير الدين، والمثبت من (م) و (ش)، وهو الموافق لما في «المنتظم».

(٢) كذا في النسخ، وفي «المنتظم»: وحاصلها يكفينا.

(٣) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) محلة كبيرة بالجانب الغربي من بغداد، مجاورة للمقبرة التي فيها قبر معروف الكرخي، انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٣٧٤.

(٥) البارية: الحصير المنسوج، «معجم متن اللغة»: ١/ ٢٨٥.

[ومنها أَنَّه نَظَرَ][١] يوماً إلى طَرَفِ الإيوان، فرأى غُلاماً تركياً قائماً في الخِدْمة، وبيده سيفٌ، فقال لابن تركان: ادفع إلى هذا [التركي][٢] خمسين ديناراً، ومُرْه [أن][٢] لا يقف بين يديّ بعد اليوم، وله في كلِّ سنة مثلها. فقال له بعض الجماعة: يا مولانا، وما السَّببُ؟ فقال: كان هذا شِحْنة دُجَيْل، فَطَرَحَ على قريتنا فدادين، فجاء ليلة والبَرْدُ شديدٌ والمطر كثير، فقال: قُمْ، واخرج إلى الشَّجرة، فقلتُ: أنا ضعيف، وقليل الكسوة، [فأبصر غيري][٢]. فضربني بالمَقْرَعة على رأسي، فأصاب [طرف] السوط[٣] عيني هذه، فذهَبَتْ، وما أُبْصر بها إلا قليل، فما أُريد رؤيته، ولا أَقْطَعُ رِزْقه. فعجبَ الحاضرون من هذا الحِلْم.

[ومنها أنه][٤] عمل سِماطاً عظيماً [فكان يعمل في اللبنية عوض الكراث تماثيل السُّكَّر][٢]، وكان إذا مُدَّ السماط أكثر ما يحضر عليه الفقراء والعميان، فلما كان في ذلك اليوم، وأكل النَّاس، وخرجوا، بقي رجلٌ ضرير يبكي ويقول: سرقوا مداسي، ومالي غيره، ووالله ما أقدر على ثمن مداس، وما بي إلا أَنْ أمشي حافياً، وأصلي. فقام الوزير من مجلسه، ولبس مداسه، وجاء إلى الضَّرير، فوقف عنده، وخَلَعَ مداسه، وهو لا يعرفه، وقال له: أَبْصِرْ هذا المداس على قدر رِجْلك. فلبسه، وقال: نَعَمْ، لا إله إلا الله، كأَنَّه مداسي. ومضى الضَّرير، ورجع الوزير إلى مجلسه، وهو يقول: سلمتُ منه أن يقول أنتَ سرقته.

[وله كثير من العجائب والغرائب، وحكى أنه وشى به واشٍ إلى المستنجد، وكان الوزير قد أحسن إلى ذلك الواشي][٥]، فكتب [إليه][٢] الخليفة يقول: إنَّ فلاناً وشى بك. فكتب إليه الوزير: [من الطويل]

زرعتُ زروعاً تُجْتنى ثمراتُها ... فلا ذنبَ لي إن حَنْظَلَتْ شجراتُها
هُمُ نقلوا عني الذي لم أَفُهْ به ... وما آفةُ الأخبارِ إلا رواتُها

(١) في (ع) و (ح): ونظر الوزير يوماً، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٣) في (ع): فأصاب الضرب عيني، وفي (ح) فأصاب السوط عيني، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٤) في (ع) (ح): وعمل، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٥) في (ع) (ح): ووشى بالوزير واشٍ -وكان أحسن إليه- إلى المستنجد، فكتب الخليفة.. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

يطولُ على مِثْلي بأنِّيَ كلَّما سمعتُ نُباحاً من كلابٍ خَسَاتُها[١]

ذكر وفاته:

[حكى جدِّي في «المنتظم»، وقال][٢]: كان يسأل الله الشَّهادة، ويتعرَّض لأسبابها، وكان [الوزير][٢] صحيحاً يوم السَّبت ثاني عشر جُمادى [الأولى من هذه السنة][٣]، ونام ليلة الأحد في عافية، فلمَّا كان وقت السَّحَر قاء، فحضر طبيبٌ كان يخدمه يقال له ابن رشادة، فسقاه شيئاً، فيقال: إنَّه سَمَّه، فمات. وسُقِيَ الطبيبُ بعده بنحو ستة أشهر سُمًّا، فكان يقول: سُقِيْتُ كما سَقَيتُ، ومات الطَّبيب.

[قال جدي][٤]: وكنت ليلة مات الوزير نائماً على سطحٍ مع أصحابي، فرأيتُ في المنام كأنِّي في دار الوزير، وهو جالسٌ، فدخل رجلٌ بيده حَرْبةٌ، فضربه بها بين أُنْثَيَيْه، فخرج الدَّم كالفوَّارة، فَضَرَبَ الحائط. فالتفتُّ، فإذا بخاتمٍ من ذهب مُلْقى، فأخذتهُ، وقلتُ: لمن أُعطيه؟ أنتظر خادماً يخرج، فأعطيه إياه، وانتبهتُ، فحدَّثت أصحابي، فلم أستتمَّ الحديث حتى جاء رجلٌ فقال: ماتَ الوزير. فقال بعضُ الحاضرين: هذا محال، أنا فارَقْتُه أمسِ العَصر، وهو في كلِّ عافية، وجاء آخر، فَصَحَّ الحديث، وقال لي ولده: لا بُدَّ أن تُغَسِّلَه، فأخذتُ في غسله، ورفعتُ يده لأَغسل مغابنه، فسقط الخاتم من يده، [فحيث رأيت الخاتم تعجَّبْتُ من المنام. قال][٥]: ورأيت في وقتِ غسله آثاراً بوجهه وجَسَدِه تدلُّ على أَنَّه مسموم، فلما خرجَتْ جِنازَتُه غُلِّقَتْ أسواقُ بغداد، وامتلأت السُّطوح ودِجْلة من الجانبين، ولم يتخلَّف عن جِنازته أحدٌ، وكَثُرَ البكاءُ عليه والحُزْنُ لإحسانه وعدله، وصُلِّي عليه في جامع القَصر، وحُمِلَ إلى باب البَصرة، فدفن في مدرسته [التي أنشأها][٦]، وقد دَثَرَتِ الآن، [ولو كانوا دفنوه عند

---

(١) أي خسأتها: طردتها. «اللسان» (خسأ).

(٢) في (ع) و (ح): قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٣) في (ع) و (ح): الآخرة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٥) في (ع) و (ح): فسقط الخاتم من يده فعجبت، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

(٦) ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، انظر «المنتظم»: ١٠/ ٢١٦-٢١٧.

أحمد بن حنبل كان أحيا لذكره والترحم عليه، ورثاه جماعة منهم نَصر النُّميري][1]، فقال: [من مجزوء الكامل]

ألــمـم عــلــى جَــدَثٍ حــوى ... تــاجَ الــمـلـوك وقُــلْ ســلامُ
واعــقــر ســويــداءَ الــضَّـمـيــ ... ــرِ فـلـيـسَ يـقـنـعـني الـسـوامُ
وتــوقَّ أن يــفــنــى حــيــا ... ءً دَمْــعُ عــيــنــك أو مــلامُ
فــإذا ارتــوتْ تــلــك الــجـنـا ... دل مــن دمــوعــك والــرَّغــامُ
فــأَقِــمْ صــدورَ الــيَـعْـمَــلا ... تِ فـبـعـد يـحـيـى لا مـقـامُ
ذهَــبَ الــذي كــانــت تــقــيِّــ ... ـدُنــي مــواهِــبُــه الــجــسـامُ
فــإذا نــظــرتُ إلــيــه لــم ... يَـخْـطُـرْ عـلـى قـلـبـي الـشَّـآمُ
راح الــنــدى الــفــيــاض عــن ... راجــيــه واشــتــدَّ الأُوامُ
وتَــفَــرَّقَــتْ تــلــك الــجـمـو ... عُ وقــوِّضَــتْ تــلــك الــخــيــامُ
عــجــبــاً لــمــن يــغــترُّ بــالــدُّ ... نــيــا ولــيــس لــهــا دوامُ
عُــقْــبــى مَــسَــرَّتــهــا الأســى ... وعــقــيــبَ صِــحَّــتِــهــا الــسَّــقــامُ
مــا مــتَّ وَحْــدَك يــوم مــتّ ... وإنَّــمــا مــاتَ الأنــامُ
يــأبــى لــي الإحــســانُ أنْ ... أنــســاكَ والــشِّــيــمُ الــكِــرامُ[2]

ورآه بعضُ أصحابه في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: [من الخفيف]

قـد سُـئِـلْـنـا عـن حـالـنـا فـأَجَـبْـنـا ... بـعـد مـا حـال حـالُـنـا وحُـجِـبْـنـا
ووَجَـدْنـا مُـضَـاعَـفـاً مـا كَـسَـبْـنـا ... ووجـدنـا مُـمَـحَّـصـاً مـا اكـتَـسَـبْـنـا

وكان يكتب إلى المستنجد أوراقاً تدلُّ على شفقته على الدَّوْلة ليجري أمورها على السَّداد، وكان فيما كتب إليه: يا أمير المؤمنين، اللهَ اللهَ في أُمة محمد ﷺ، احفظْ محمداً في أُمته، وأقم ناموس الخلافة، ففي الأعداء والوافدين كثرة، والواجب أن يصدروا بما يُحَسِّنُ السِّيرة، ويزيد في الطَّاعة، وقد سمع الوزير الحديث.

---

(١) في (ع) و (ح): ورثاه نصر النميري، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش)، وستأتي ترجمة نصر النميري في وفيات سنة(٥٨٨هـ)

(٢) بعض الأبيات في «المنتظم»: ١٠/ ٢١٧ .

[وذكره جدِّي في «المشيخة[١]»] فقال: أخبرنا الوزير أبو المُظَفَّر يحيى بن محمد بن هُبيرة قراءةً عليه وأنا أسمع في جمادى الأُولى سنة ستٍّ وخمسين وخمس مئة. قال: قرأتُ على سيدنا ومولانا الإمام المقتفي لأمر الله ـ أمير المؤمنين ـ أبي عبد الله محمد بن الإمام المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن الإمام المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدِّين أبي العَبّاس أحمد بن الإمام القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن الإمام القادر بالله أبي العَبّاس أحمد بن الأمير أبي محمد إسحاق بن الإمام المقتدر بالله أبي الفَضْل جعفر بن الإمام [المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الأمير أبي محمد طلحة الموفق بن الإمام المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن الإمام][٢] المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الإمام الرَّشيد أبي عبد الله هارون بن الإمام المهدي أبي عبد الله محمد بن الإمام المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن حبر الأُمة أبي الأئمة ترجمان القرآن أبي العَبَّاس عبد الله بن العَبَّاس عَمّ رسول الله ﷺ، وذلك في يوم الجمعة سابع وعشرين ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة فأَقَرَّ به، قلت له: حدَّثكم أبو البركات أحمد بن عبد الوهَّاب بن هبة الله بن أحمد السِّيْبي من لفظه في رمضان سنة خمس مئة، قال: أنبأنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر بن أحمد بن هَزَارْمَرْد الصَّريفيني قراءةً عليه وأنا أسمع ببغداد في صفر سنة تسعٍ وستين وأربع مئة، حدثنا محمد بن عبد الرحمن المُخَلِّص، حدثنا أبو علي إسماعيل بن العَبَّاس الوَرَّاق، حدَّثنا حفص بن عمرو، حدثنا المبارك بن سُحَيْم، حدثنا عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس ابن مالك، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يزداد الزَّمان إلا شِدَّةً، ولا يزداد النَّاس إلا شُحًّا، ولا تقوم السَّاعة إلا على شِرار النَّاس»[٣].

---

(١) في (ع) و (ح): وذكره الشيخ جمال الدين بن الجوزي في المشيخة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٢) ما بين حاصرتين ساقط من (ع) و (ح)، والمثبت من «المشيخة».
(٣) انظر «المشيخة»: ٢٠٠-٢٠٢.
والحديث أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٤٨٥)، والحاكم في «المستدرك» ٤/ ٤٤١-٤٤٢ من طريق المبارك بن سحيم، به، والمبارك متروك، وأخرجه بنحوه ابن ماجه (٤٠٣٩) من طريق محمد بن خالد الجندي، عن أبان بن صالح، عن الحسن، عن أنس، به، ومحمد بن خالد منكر الحديث.

وكان الوزير مُمَدَّحاً، ورُزِقَ من الشُّعراء ما لم يُرْزقه أحد، قال صاحب الخبر ابن المهتدي: جمعتُ من القصائد التي مُدِحَ بها ما يزيد على مئتي ألف قصيدة، في مجلَّدات، فلما بِيْعت كتُبُه اشترى المدائحَ بعضُ الأكابر، فغسلَها جميعاً.

ومن شعر الوزير رحمه الله: [من الطويل]

تَمَسَّكْ بتقوى الله فالمرء لا يبقى ... وكلُّ امرىءٍ ما قدَّمَتْ يدُه يَلْقى
ولا تظلِمَنَّ النَّاسَ ما في يديهِمُ ... ولا تذكُرَنْ إفكاً ولا تحسُدَنْ خَلْقا
ولا تقربَنْ فِعْلَ الحرام فإنَّما ... لذاذتُه تفنى وأنتَ به تَشْقى
وعاشِرْ إذا عاشَرْتَ ذا الدِّين تنتفعْ ... بصُحبتِهِ واحْذَرْ معاشرةَ الحَمْقى
ودارِ على الإطلاق كُلاً ولا تكن ... أخا عَجَلٍ في الأمر واسْتَعْمِلِ الرِّفْقا
وخالِفْ حظوظَ النَّفْس فيما ترومه الـ ... أماني ولا تستعظمنَّ لها الصّدقا
تعوَّدْ فِعال الخير جَمْعاً فكلَّما ... تَعَوَّده الإنسانُ صار له خُلْقا[1]

وقال الأبله[2] يمدحه: [من الكامل]

لله من يحيى الوزيرِ عزيمةٌ ... بقوى النَّوائب والسُّيوفُ نوابِ
طَلقُ اليدينِ سماحةً وسِلاحُهُ ... هُلْكُ البُغاةِ وبُغْيةُ الطُّلاَّبِ
غَيْثٌ تَفَهَّقَ للعُفاةِ وعَوْذُه ... ليثٌ تقهقر عند ليثِ الغاب[3]
ولَّاجُ أنديةِ المكارم والنَّدى ... قَرَّاح[4] خُطْبٍ قادح بخطابِ
هذا وربَّ كتيبةٍ مَلْمومةٍ ... شَعْراءَ فَرَّق شَمْلَها بكتابِ
جانبتُ أَفْنية اللِّئام ولذتُ من ... يحيى بأخصبِ مَرْتَعٍ وجَنابِ
بجناب مِتْلافٍ إذا حُسِبَ النَّدى ... ألفيتَ نائِلَهُ بغير حسابِ

وقال يهجوه: [من الكامل]

يا قاصداً بغدادَ جُزْ عن بلدةٍ ... الجَوْرُ فيها زَخْرَةٌ وعُبابُ

---

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ٩٩-١٠٠ .
(٢) هو محمد بن بختيار، وستأتي ترجمته سنة (٥٧٩هـ).
(٣) معنى الشطر الثاني لم يتضح لي.
(٤) من اقترح خطبة: ارتجلها، «معجم متن اللغة»: ٤/ ٥٢٤ . وسكنت الطاء في خطب لضرورة الشعر.

إن كنت طالب حاجةٍ فارجعْ فقد سُدَّتْ على الرَّاجي بها الأبوابُ
بادتْ وأهلُوها معاً فبيوتهُم ببقاء مولانا الوزير خرابُ
والناس قد قامتْ قيامتهم فلا أحسابَ بينهمُ ولا أنسابُ
والمَرْءُ يُسْلِمُهُ أخوه وعِرْسه ويخونه الأصحاب والأترابُ
شهدوا معادهُمُ فعاد مكرَّما مَنْ كان قبلُ ببعثه يرتابُ
حشر وميزان وعرضُ صحائفٍ وجرائدٌ منشورةٌ وحسابُ
وبها زبانيةٌ تُبَثُّ على الورى ومقامع وسلاسلٌ وعقابُ
ما فاتهم من كل ما وعدوا به في الحشر إلا راحِمٌ وهَّابُ(١)

وقال من شعر الوزير المؤيَّد الألوسي(٢) وكان فصيحاً، كتب إلى الوزير متعتِّباً عليه: [من الرمل]

ولعمر اللهِ ما أعْجزني سرعةُ السَّيْرِ ولا عرض البِقاعِ
والغِنى مني إذا حاوَلْتُهُ بالشِّرى أقرب مِنْ حَبْل الذِّراعِ
غير أنِّي ليس ترضى هِمَّتي أنَّني أكسبُ مالاً بانتجاعِ
وإذا ما قَصَّرَتْ بي ثَرْوةٌ طوَّلَتْ لي عِفَّتي خَطْوي وباعي
وتقنعت وكم من حسرة نكأت قلب المعالي بأفاعي
فلئن أصفيت غيري بالعُلا وتجافيتَ اصطفائي واصطناعي
وزها رَوْضُك من بعد العِدى وصفا حَوْضُك من ري الرعاع
وطباع المُلْك ما زالت كذا ومن الإعجاز تبديل الطِّباعِ
ترزق الضَّعْفاء في ساجورها وتخاضُ البِيْدُ في قَتْلِ السِّباعِ

وقال أيضاً يعاتبه: [من البسيط]

(١) كذا قال، ورأيت بعض هذه الأبيات من قصيدة لسبط ابن التعاويذي، وهي في «ديوانه»: ص٤٧-٤٨، مع اختلاف في بعض الألفاظ، وفيها: وقال يهجو ابن البلدي.

(٢) سماه ابن خلكان المؤيد بن محمد بن علي بن محمد الألوسي، وسماه ابن النجار: عطاف بن محمد المعروف بالمؤيد، وسماه ياقوت: المؤيد بن عطاف، شاعر بغدادي من أعيان شعراء عصره، ولد بألوس سنة (٤٩٤هـ)، وهي ناحية عند حديثة عانة على الفرات، ودخل بغداد في أيام المسترشد بالله، وانقطع إلى الوزير ابن هبيرة، وله فيه مدائح جيدة، وتوفي بالموصل سنة (٥٥٧هـ). انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ج١/ ١٧٢-١٧٩، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ٢٠٧-٢٠٩، و«وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٤٦-٣٥٠.

لا أعرفُ الغَمْضَ إلا ما تحدِّثُني به المُنَى في منامي ربَّما كانا
وأستعينُ العِدى مما بليتُ به يا ذُلَّ مَنْ طَلَبَ الأعداءَ أعْوانا
ولم تَزَلْ قسمةُ الأيَّامِ جائرةً إذا قَضَتْ ناقضت ظُلْماً وعُدْوانا
تختصُّ بالعَطَل البازي وقد جَعَلَتْ لمعُظْم الطَّيْر أطْواقاً وتيجانا
وتُغْرِقُ الدُّرَّ في قَعْر البحور وقد أَعْلَتْ على قُلَلِ الأجبال صَوَّانا

ذكر ما جرى بعد وفاة الوزير رحمه الله:

استوزر الخليفةُ شَرَفَ الدِّين أبا جعفر أحمد بن محمد بن البلدي، فشرع في التضريب على أولاد الوزير وأسبابه، فقبض على ولديه عز الدين محمد، وشرف الدين ظَفَر [وكان أكبر أولاده][١] وأُخذت أموالهما، وخُنِقَ عزُّ الدِّين وأخوه، وسنذكرهما، واضطرَّ ورثة الوزير إلى بيع ثيابهم وأثاثهم، وثياب نسائهم ومقانعهن[٢]، وبيعت كُتُب الوزير الموقوفة على مدرسته وغيرها، حتى إنَّه بيع كتاب «البُسْتان» في الرَّقائق لأبي الليث السَّمَرْقَنْدي بخطٍّ منسوب، وكان مُذْهباً يساوي عشرة دنانير، بدانقين وحبَّة، فقال بعضُ الحاضرين: ما أرخص هذا البُسْتان! فقال جمال الدين بن الحصني: ثِقَلُ ما عليه من الخَرَاج أَرْخَصَه. أشار إلى الوقفية وغيرها. وقال بعضُ الحاضرين: كيف يجوز بيع كتب الوقف بعد أن حكم بها حاكم؟! فأُخذ وضرب ضرباً مبرِّحاً، وحُبس، فامتنع النَّاسُ من الكلام في ذلك.

قلتُ: هذا تلخيصُ ما ذكره المصنِّف رحمه الله في ترجمته[٣]، وقد ذكر قاضي القضاة شمس الدين أحمد ابن خَلِّكان رحمه الله في «وفيات الأعيان[٤]» ترجمة الوزير رحمه الله، وذكر بمعنى بعض ما ذكره المصنِّف، وزاد فقال: أَوَّلُ ولاياته الإشراف بالأقرحة الغربية[٥]، ثم نُقِلَ إلى الإشراف على الإقامات المخزنية، ثم قُلِّد الإشراف بالمخزن، ولم يطل في ذلك مكثه حتى قلد في سنة اثنتين وأربعين كتابة ديوان الزِّمام، ثم ترقَّى إلى الوِزارة، وكان سبب توليته الوزارة ما جرى من مسعود البلالي شِحْنة بغداد نيابةً عن

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٢) مفردها المقنعة: وهي ما تغطي به المرأة رأسها. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/ ٦٦٢ .
(٣) هذا من أصح النصوص التي تدل على اختصار اليونيني لمرآة الزمان.
(٤) «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٣١-٢٤٢ .
(٥) مواضع ببغداد، انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٣١٥-٣١٦ .

السُّلْطان مسعود بن محمد بن ملك شاه ـ وكان مسعود أحد الخَدَم الحبشيين الخِصيان الكبار من أُمراء دولته ـ من سوء أدبه في الحَضْرة، وخروجه عن معتاد الواجب، وانتشار مُفْسدي أصحابه، وكان وزير الخليفة إذ ذاك قوام الدِّين أبو القاسم عليُّ بنُ صدقة قد كتب عن الخليفة إلى السُّلْطان عِدَّة كُتُب يعتمد الإنكار على مسعود البلالي، فلم يرجع جواب، فلما قُلِّد عون الدين ابن هُبَيْرة كتابة ديوان الزِّمام، خاطَبَ الخليفةَ في مكاتبة السُّلْطان مسعود بالقضية، فوقَّع إليه: قد كان الوزير كَتَبَ في ذلك عِدَّة كتب فلم يجيبوه. فراجع عون الدِّين في ذلك سؤاله إلى أن أُجيب، فكتب من إنشائه رسالةً طويلة، دعا للسُّلْطان، وأذكره ما كان أسلافه يعاملون الخلفاء به من حُسْن الطّاعة والتأدُّب معهم، والذَّبِّ عنهم ممن يفتات عليهم، وشكا من مسعود البلالي، وأطال القول، وكان هذا في سنة اثنتين وأربعين في ربيع الآخر، فما مضى على هذا إلا قليل حتى عاد الجواب بالاعتذار والذَّمِّ لمسعود البلالي، والإنكار لما اعتمده، فاستبشر المقتفي بإشارة عون الدين، وعَظُمَ سروره بذلك، وعظم موقعه في قلبه، ولم يزل عنده مكيناً حتى استوزره.

وكان أيضاً من جملة أسباب وزارته [أنه][1] في سنة ثلاث وأربعين وصل إلى بغداد صاحب اللِّحف[2] ويلدكز السُّلْطاني، وقصداها في جموعٍ كثيرة، وصدر منهم فتن عظيمة، فشرع الوزير قوام الدِّين ابنُ صدقة في تدبير الحال، فأخفق مسعاه، فاستأذن عونُ الدِّين الخليفةَ في أمرهم، فأَذِنَ، فخاطب هؤلاء الخارجين عن الخليفة، وأحسن التَّدْبير في ذلك حتى كَفَّ شَرَّهم، ثم قوي عليهم حتى نهبت العامَّةُ أموالهم، وعند انقضاء هذا المهم استدعى الخليفة عون الدين بمطالعة على يد أميرين، فركب إلى دار الخلافة في جماعة، ولما وصل إلى باب الحجرة استدعي، فدخل، وقد جلس له المقتفي بمثمنة التَّاج، فقبَّلَ الأرض وجلس، وتحدَّثا ساعة بما لم يُحِطْ به غيرهما عِلْماً، ثم خَرَجَ وقد جهِّز له التشريف على عادة الوزراء، فلبسه، ثم استدعي ثانية، فقبل الأرضَ، ودعا بدعاء أَعْجَبَ الخليفة، ثم أنشد: [من الطويل]

سأشكر عمراً ما تراخَتْ منيَّتي ... أيادِيَ لم تُمنن وإن هي جَلَّتِ
رأى خَلَّتي من حيثُ يخفى مكانُها ... فكانت بمرأى منه حتى تجلَّتِ

---

(١) ما بين حاصرتين من «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٣٢ .

(٢) صقع من نواحي بغداد. «معجم البلدان»: ٥/ ١٤ .

وهذان البيتان لإبراهيم بنِ العَبَّاس الصُّولي، وهي ثلاثة أبيات، الثاني منهما بعد الأول:

فتًى غيرُ محجوبِ الغِنى عن صديقه ولا مُظْهِرُ الشَّكْوى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ

ولما أنشد عونُ الدِّين البيتين، غيَّر نصف البيتِ الثَّاني منهما، فإنَّ الشَّاعر قال:

فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فما رأى أن يخاطب الخليفة بهذه العبارة، فغيَّره تأدُّباً.

ثم إنه خرج، فَقدِّمَ له حصانٌ أَدْهم سائل الغُرَّة محجَّل، وعليه من الحَلْي ما جَرَتْ به عادةُ الوزراء، وخرج بين أرباب المناصب وأعيان الدَّوْلة، وأمراء الحَضْرة، وجميع خدم الخليفة، وسائر حُجَّاب الدِّيوان، والطبولُ تُضْرب أمامه، والمسند وراءه محمول حتى دخل الدِّيوان، ونزل على طرف الإيوان، وجلس في الدَّسْت، وقام لقراءة عهده سديدُ الدَّوْلة محمد بنُ عبد الكريم الأنباري، وقرأ القُرَّاء، وأنشد الشُّعراء، وتولى الوِزارة يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر سنة أربعٍ وأربعين، وكان لقبه جلال الدين، فلقّب عون الدين.

وكان عالماً فاضلاً، ذا رأيٍ صائبٍ، وسريرة صالحة.

وذكر عِزُّ الدِّين عليُّ ابن الأثير في «تاريخه الصَّغير[1]» في فصل حِصار الملك محمد وزين الدِّين بغداد، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاثٍ وخمسين: أنَّ المقتفي جَدَّ في حِفْظ بغداد، وقام وزيره عون الدِّين في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره، وأمر المقتفي، فنودي في بغداد: مَنْ جُرح فله خمسة دنانير، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه، فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحاً، فقال الوزير: هذا جرحٌ صغير لا تستحقُّ عليه شيئاً. فعاد إلى القتال، فَضُرِبَ في جوفه، فخرجت أمعاؤه، فعاد إلى الوزير، وقال: يا مولانا، يرضيك هذا؟ فضحك منه، وأمر له بصِلة، وأحضر مَنْ عالجه.

وقال الحيص بيص يمدحه: [من الطويل]

يهزُّ حديثُ الجودِ ساكنَ عِطْفه كما هَزَّ شَرْبَ الحيِّ صَهْباءُ قَرْقَفُ
ويرسو إذا طاشت حُبا القوم واغتدتْ صِعابُ الذُّرى من زَعْزَعِ الخَطْبِ تَرْجُفُ
صروmُ الدَّنايا هاجرٌ كلَّ سُبَّةٍ ولكنَّه بالمجدِ صبٌّ مكلَّفُ

(١) انظر «الباهر»: ١١٣.

يـضـيـقُ بـأدنـى الـعـار ذَرْعـاً وصـدرُهُ بأهوالِ ما يُدْني من الحمد نَفْنَفُ
إذا قيل عونُ الدِّين يحيى تألَّق الـ ـغمامُ وماسَ السَّمْهَريُّ المُثَقَّفُ

وقال أبو عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبله الشَّاعر يمدحه: [من الكامل]

ولـع الـنَّـسـيـم وبـانـة الـجـرعـا وصـفـاك إلا الـحَـلْـي والـوَدْعـا
يـا دُمـيـةً ضـاقـتْ خـلاخـلـهـا عـنـهـا وضـقـتُ بـحـبِّـهـا ذَرْعـا
قـد كـنـتُ ذا دَمْـعٍ وذا جَـلَـدٍ فـبـقـيـتُ لا جـلـداً ولا دَمْـعـا
صيَّرتِ جسمي للضَّنى سكَناً وسكنتِ بعد تبالةَ الجَزْعا
يـا مَـنْ رأى أدمـاء سـانـحـةً قلبي لها لا المنحنى مَرْعى
لاثـتْ بـمـثـل الـدِّعْـصِ مئـزرهـا وجَـلَـت بـعـودِ أراكـةٍ طـلْـعـا
وإذا تُـراجـعـكَ الـكـلامَ فـلا تَـعـدَمْ لأيَّـامِ الـصِّـبـا رُجْـعـى
ولقد سعت بالكأس تُصبحني سكرى اللَّواحظ وَعْثة المَسْعى
في مستنير الزهر ما صنعتْ أبـراده عَـدَنٌ ولا صَـنْـعـا
بـاكـرتُ مـفـتـرعـاً ثـراه ومـا ركب الحمامُ لبانةٍ فَرْعا
سَلَّت عليه البارقاتُ ظُبًى لَبِسَ الغديرُ لخوفها دِرْعا
يا عاذلي إن شئت تُسْمعني عَـذْلاً فَـشُـقَّ لـصـخـرةٍ سَـمْـعـا
طَبْعاً جُبِلْتُ على الغرام كما جُبِلَ الوزيرُ على النَّدى طَبْعا

وقال محمد بن عبد الله سِبْط ابن التَّعاويذي يمدحه: [من الطويل]

سقاها الحيا من أَرْبُعٍ وطلولِ حَكتْ دَنَفي من بعدهم ونحولي
ضمنتُ لها أجفانَ عينٍ قريحةٍ من الدَّمْع مِدْرارِ الشُّؤون هَمُولِ
لئن حالَ رَسْمُ الدَّارِ عما عهدْتُهُ فعهدُ الهوى في القلب غير محيل
خليليَّ قد هاج الغرامُ وشاقني سنا بارقٍ بالأَجْرعَيْنِ كليلِ
ووكَّلَ طَرْفي بالسُّهاد تنظُّري قضاءَ مليٍّ بالدِّيون مَطُولِ
إذا قلتُ قد أنحلتِ جسمي صبابةً تقولُ وهل حُبٌّ بغير نحولِ
فإن قلتُ دمعي بالأسى فيك شاهدي تقول شهود الدَّمْعِ غيرُ عدولِ
فلا تعذلاني إنْ بكيتُ صبابةً على ناقضٍ عهدَ الوفاءِ مَلُولِ

فأبرحُ ما يُمنى به الصَّبُّ في الهوى ملالُ حبيبٍ أو ملام عذولِ
ودون الكثيب الفَرْدِ بيضٌ عقائلٌ لعبْنَ بألبابٍ لنا وعقولِ
غداة التقت ألحاظها وقلوبنا فلم تجلُ إلا عن دم وقتيلِ
ألا حبذا وادي الأراك وقد وشَتْ بريَّاك ريحا شمألٍ وقبُولِ
وفي أبرديه كلَّما اعتلتِ الصَّبا شفاءُ فؤادٍ بالغرام عليلِ
دعوت سُلواً فيك غير مساعدي وحاولتُ صبراً عنك غير جميلِ
تعرفت أسبابَ الهوى وحملته على كاهلٍ للنائبات حمولِ
فلم أحظَ في حُبِّ الغواني بطائلٍ سوى رَغْي ليل بالغرام طويلِ
إلى كم تمنيني الليالي بماجدٍ رزينٍ وقارِ الحلم غير عَجُول
أهز اختيالاً في هواه معاطفي وأسحب تيهاً في ثراه ذيولي
لقد طال عهدي بالنَّوال وإنني لصبٌّ إلى تقبيلِ كفٍّ منيل
وإنَّ ندى يحيى الوزير لكافلٌ بها لي وعونُ الدِّين خيرُ كفيلِ

وذكر قاضي القضاة ـ رحمه الله ـ عن مؤلف سيرة الوزير، أَنَّ سببَ موته كما بلغنا أنه خرج مع المستنجد للصَّيْد، فسقي مسهلاً، فقصر عن استفراغه، فدخل بغداد يوم الجمعة سادس جمادى الأُولى راكباً متحاملاً إلى المقصورة لصلاة الجمعة، فصلَّى بها، وعاد إلى داره، فلما كان وقت صلاة الصُّبْح عاوده البلغم، فوقع مغشيًّا عليه، فصرخ الجواري، فأفاق، فسكَّتهن، وبلغ الخبر ولده عز الدين، فبادر إليه، فلما دخل عليه قال له: أستاذ الدار قد بث جماعة ليستعلم ما هذا الصِّياح، فتبسم الوزير على ما هو عليه، وأنشد: [من الطويل]

وكم شامتٍ بي عند موتي جهالةً بظلم يسلُّ السَّيفَ بعد وفاتي
ولو علم المسكين ماذا يناله من الضُّرِّ بعدي مات قبل مماتي

ثم تناول مشروباً، فاستفرغ به، ثم استدعى بماءٍ، فتوضأ للصَّلاة، وصلى قاعداً، فسجد، فأبطأ عن القعود من السجود، فحركوه، فإذا هو ميتٌ، فطولع به الإمام المستنجد، فأمر بدفنه.

وقال ابنُ القادسي: ولد سنة سبع وتسعين وأربع مئة، ولما بلغ موته عضد الدين أبو المظفر أُستاذ الدار كان بحضرته سبط ابنِ التعاويذي، فأنشد مرتجلاً: [من الخفيف]

قـال لـي والـوزيـر قـد مـات قـومٌ ... قُـمْ لـنـبـكـي أبـا الـمُـظَـفَّـر يـحـيـى
قـلـت أهـونْ عـنـدي بـذلـك رُزْأً ... ومـصـابـاً وابـنُ الـمُـظَـفَّـر يـحـيـا

وقال آخر: [من الطويل]

أيـا رَبِّ مـثـلُ الـمـاجـدِ ابـن هُـبـيـرة ... يـموت ويحيا مثل يحيى بن جعفر
يـمـوت بـيـحـيـى كـلُّ فَـضْـلٍ وسـؤدد ... ويـحيا بـيـحـيى كـلُّ جَـهْـل ومُـنْـكَـرِ(١)

السَّنة الحَادية والسُّتون وخمس مئة

فيها عاد ابن المشَّاط الواعظ إلى بغداد، وتعصَّبوا له، فجلس بجامع القَصر، وأظهر البِدَع، ووقعت الفِتَنُ بين الحنابلة والأشاعرة، وكان يقول: هذا كلام الهُدْهُد، هذا كلام بِلْقيس، ما قال الله هذا.

وسُئِلَ عن تفسير التين والزيتون فقال: التين في الريحانيين، والزَّيتون في جميع الأسواق.

وفيها هَرَبَ عِزُّ الدين محمد بن الوزير ابن هُبيرة من دار الخليفة، وأُخذ.

وفيها فَتَحَ نورُ الدِّين العُرَيمة وصافيتا، وهدم قلعتيهما وسوريهما، وعصى عليه غازي بن حَسَّان صاحب منبج، فأخذ منه منبج، وأعطاه الرَّقَّة(٢).

[فصل وفيها توفي

إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم(٣)

أبو إسحاق الموصلي الحنفي، تفقَّه على برهان الدين البَلْخي، وناب عنه في المدرسة الصادرية، وسمع منه الحديث وغيره، وكان أبوه قاضياً على الرُّها، وتوفي أبوه في دمشق، وكان فاضلاً ثقة](٤).

---

(١) إلى هنا تنتهي نسخة (ع)، ويبدأ الاعتماد على نسخة (ح) وحدها، وهي نسخة فشا فيها التصحيف والتحريف، والله المستعان.

(٢) كذا قال، وهو وهم، إذ لم يعط نور الدين الرقة لغازي بن حسان، بل أعطاها لأخيه قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، انظر «الروضتين»: ٢/ ٢٤-٢٥، وقد ذكر ذلك أبو شامة نقلاً عن ابن الأثير في حوادث سنة (٥٦٢هـ).

(٣) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) و (س): ٢/ ٣٦١، و«الجواهر المضية»: ١/ ٦٥-٦٦، و«الطبقات السنية»: ١/ ١٩٨-١٩٩، ووفاته عندهم سنة (٥٦٠هـ).

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

وفيها توفي

إسماعيل بن سُلْطان بن علي(١)

ابن منقذ، شرف الدِّين والدولة، كان فاضلاً، نزل بغداد لما أُخذت منهم شَيْزَر، ومن شعره: [من البسيط]

سُقيتُ كأس الهوى علًّا على نَهَلٍ   فلا تَزِدْني كأسَ اللَّوْمِ والعَذَلِ
نأى الحبيبُ فبي من نأيه حُرَقٌ   لو لابَسَتْ جبلاً هَدَّت قُوى الجبلِ
كم مِيْتةٍ وحياةٍ ذُقْتُ طَعْمَهُما   مُذْ ذُقْتُ طَعْمَ النَّوى لليأس والأمل
وكم رَدعتُ فؤادي عن تهافُتِهِ   إلى الصَّبابة رَدْعَ الحازمِ البَطَلِ
حتى أتاحت لي الأقدار غُرَّتَه   وكنتُ من أجَلي منها على وَجَلِ
فانظر إليه تَرَ الأقمارَ في قمرٍ   وانظرْ إليّ تَرَ العُشَّاق في رَجُلِ(٢)

الحسن بن العباس(٣) أبو عبد الله الأَصبهاني(٤)، الشيخ الصَّالح

كان كثيرَ البكاء، ولم يكن بأصبهان في زمانه أزهد منه ولا أورع، قال: وقفتُ على ابن ماشاذة وهو يتكلَّم على النَّاس، فلما جاء الليل رأيتُ ربَّ العِزَّة في المنام، فقال لي: يا حسن، وقفتَ على مبتدع وسمعت كلامه؟! لأحرمنَّك النَّظر في الدُّنيا، فاستيقظ وعيناه مفتوحتان، ولا يبصر بهما شيئاً، ومات في صفر بأصبهان.

عبد الله بن الحسين، أبو محمد الأنصاري(٥)

ويعرف بابن رواحة، ولد بحماة سنة ستٍّ وثمانين وأربع مئة، وقرأ القرآن بالرِّوايات، [وقال الحافظ ابن عساكر](٦): قدم دمشق وصلَّى بالنَّاس التَّراويح في

---

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٥٦٤-٥٦٦، و«معجم الأدباء»: ٥/ ٢٣٤-٢٣٨ (ضمن ترجمة أسامة ابن منقذ)، و«الوافي بالوفيات»: ٩/ ١١٨-١١٩.

(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٥٦٥-٥٦٦.

(٣) في (م) و (ش): وفيها توفي ابن العباس أبو عبد الله بن رستم.

(٤) له ترجمة في «الأنساب»: ٦/ ١١٥-١١٧، و«المنتظم»: ١٠/ ٢١٩، و«الكامل»: ١١/ ٣٢٣، و«اللباب»: ٢/ ٥٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٣٢-٤٣٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٥) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ) و (س): ٩/ ١٤٠، والأبيات فيه، و«الوافي بالوفيات»: ١٧/ ١٤٢-١٤٤.

(٦) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

جامعها، وكانت له اليد البيضاء في القراءات، والتهجد في الخلوات، وكان يُشْعِرُ، مدح المقتفي، فَخَلَعَ عليه ثياب الخطابة، وقلَّده أمرها بحماة، ومن شعره: [من الوافر]

إلـهـيَ لـيـس لـي مـولـى سـواكـا فَـهَـبْ مـن فَضْلِ فَضْلك لي رضاكا
وإلَّا تـرضَ عـنِّـي فـاعْـفُ عـنِّـي لـعـلـي أن أجـوزَ بـه حِـمـاكـا
فـقـد يَـهَـبُ الـكـريـمُ ولـيـس يـرضـى وأنـتَ مُـحـكَّـمٌ فـي ذا و ذاكـا

وكانت وفاته بحماة في المحرم.

عبد الرَّحمن بن الحَسَن بن عَبدِ الرحمن بن طاهر(١)

أبو طالب الحلبي، وكان جليل القَدْر، ويعرف بابن العَجَمي، تفقَّه ببغداد [على أَسْعد المِيْهني](٢)، وبدمشق [على نَصر بن إبراهيم المقدسي، وسمع من نَصر الحديث](٢)، وبنى بحلب مدرسة للشافعية، وعمر جامع بَعْلَبَكَّ في أيام زَنْكي بن آق سُنْقُر، وتوفي بحلب في شعبان.

عَبْدُ العَزيز بن الحُسين بن الجَبَّاب(٣)

أبو المعالي، القاضي الجليس السَّعدي، كان يجالس الخلفاء في مِصر، ومن شِعْره: [من الطويل]

ومـن عَـجَـبٍ أنَّ الـصَّـوارِمَ في الـوغـى تـحـيـضُ بـأيـدي الـقَـوْم وهـي ذكـورُ
وأَعْـجَـبُ مـن ذا أَنَّـهـا فـي أكُـفِّـهـم تـأَجَّـجُ نـاراً والأكـفُّ بـحـورُ(٤)

وكتب إلى الصَّالح من رسالةٍ: وهو العزيز الكافي الكافل، والملك الذي تتكتب باسْمه الكتائب، وتتجحفل المحافل(٥)، جدد رسوم المملكة، وقد كاد يخفيها دثورها، وعاد إليها ضياؤها ونورها.

---

(١) له ترجمة في «العبر»: ٤/ ١٧٥، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ١/ ٤٤٠، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٩٨.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٨٩-٢٠٠، و«كتاب الروضتين»: ٢/ ٦-١٠، و«فوات الوفيات»: ٢/ ٣٣٢-٣٣٥، و«الوافي بالوفيات»: ١٨/ ٤٧٣-٤٧٦، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٧١، و«حسن المحاضرة»: ١/ ٥٦٣.
(٤) البيتان في «الخريدة»: ١/ ١٩٠ مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٥) كذا في (ح)، وفي «الخريدة»: والملك الذي تلقى بذكره الكتائب، وتنهزم باسمه الجحافل.

[من الطويل]

أعـدتَ إلـى جـسـم الـوِزارة رُوحَـه ... ومـا كـان يُـرْجى بعثُـها ونُـشُـورُها

أقـامـتْ زمـانـاً عـنـد غـيـرك طـامـثـاً ... وهــذا الأوانُ قَــرْؤهــا وطَـهُـورُهـا

من العَدْلِ أن يجتابَها[1] مستحِقُّها ... ويـخـلَـعَـهـا مـردودةً مـسـتـعـيـرُهـا

إذا خَطَبَ الحسناءَ مَنْ ليس كُفْأَها ... أشار عليها بالطَّلاق مشيرُها[2]

ولقد نَفَقَتْ في دولته أسواقُ الآداب بعدما كَسَدَتْ، وهَبَّتْ رياح الفَضْلِ بعدما ركدت، إذا لها الملوك بالقِيان والمعازف، كان لهوه بالعلوم والمعارف، وإن عَمَروا أوقاتهم باللَّهو والخمر، عمر أوقاته بالنَّهي والأمر: [من الطويل]

مليك إذا ألهى الملوك عن اللُّها ... خُمارٌ وخَمْرٌ هاجَرَ الدَّلَّ والدَّنَّا

ولـم تُـنْـسـه الأوتـادَ أوتـارُ قـيـنـةٍ ... إذا ما دعاه السيف لم يثنه المَثْنى

ولا عَـيْـبَ فـي إنـعـامـه غـيـر أنَّـه ... إذا مَـنَّ لـم يَـتْـبـع مـواهِـبَـهُ مَـنَّـا[2]

وقال: [من الطويل]

بـدا فـأرانـا مـنـظـراً جـامـعـاً لِـمَـا ... تفرَّقَ من حُسْنٍ على الخَلْقِ مُوْنِقا

أقـاحـاً وراحـاً تـحـت وَرْدٍ ونـرجـسٍ ... وليلاً وصُبْحاً فوق دِعْصٍ على نَقَا[3]

وقال يرثي أباه، وكان قد نزل البحر، فعصفت ريح، فأغرقت المركب: [من البسيط]

وكـنـت أُهْـدِي مع الرِّيح السلامَ لـه ... مـا هـبت الـرِّيـحُ فـي صُـبْـحٍ وإمـسـاءِ

إحـدى ثـقـاتـي عـلـيـه كـنـتُ أحـسـبـهـا ... ولـم أَخَـلْ أنـهـا مـن بـعـضِ أعـدائـي[3]

---

(١) في (ح): يحيا بها، وهي كذلك في «الخريدة»، والمثبت من «الروضتين»: ٢/ ٨، فهو الموافق للمعنى، فيجتابها: أي يلبسها.

(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٩٣ - ١٩٤

(٣) البيتان في «الخريدة»: ١/ ١٩٨-١٩٩

سيدنا الشيخ

عبد القادر بن أبي صالح

[أبو](١) محمد، الجِيْلي(٢).

[ذكره جدِّي في «المنتظم»، وقال](١): ولد سنة سبعين وأربع مئة، ودخل بغداد، [فسمع الحديث من أبي بكر أحمد بن المظفر بن سُوسَن التمَّار، وأبي القاسم علي بن أحمد بن بيان، وأبي طالب بن يوسف](٣)، وتفقه على أبي سَعْد المُخَرِّمي، وكان أبو سَعْد قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأَزَج، وفُوِّضَتْ إلى الشيخ عبد القادر، فتكلَّم على النَّاس [بلسان](١) الوعظ، وظهر له صيتٌ بالزُّهد، وكان ذا صَمْتٍ وسَمْتٍ، فضاقت مدرسته بالنَّاس، فكان يجلس عند سور بغداد بباب الحَلْبة، مستنداً إلى الرِّباط، ويتوب عنده في المجلس خَلْقٌ كثير، فَعُمِّرت المدرسة ووسِّعت [وتعصَّبَ له العوام](١)، وأقام في مدرسته يدرِّس ويعظ إلى أن توفي ليلة السبت ثامن ربيع الآخر، ودُفن في الليل في مدرسته، وقد بلغ تسعين سنة، [هذا صورة ما ذكره جدِّي رحمه الله(٤).

قلت](١): صحب(٥) حمَّاداً الدَّبَّاسَ(٦)، ومنه اكتسب علوم المعاملات والحقائق، وكان سكوتُه أكثرَ من كلامه، وكان يتكلَّم على الخواطر، [فظهر له صيت عظيم وقبول تام](٧)، وما كان يخرج من مدرسته إلا يوم الجُمُعة إلى الجامع، أو إلى الرِّباط، وتاب على يده معظمُ أهل بغداد، وأسْلَم معظمُ اليهود والنَّصارى، وما كان أحدٌ يراه إلا في

---

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «الأنساب»: ٣/ ٤١٥، «المنتظم»: ١٠/ ٢١٩، و«مناقب الإمام أحمد»: ٦٤٠، و«الكامل»: ١١/ ٣٢٣، «بهجة الأسرار في مناقب سيدي عبد القادر» للشطنوفي، «المختصر في أخبار البشر»: ٣/ ٤٣، «ذيل طبقات الحنابلة»: ٣/ ٢٩٠-٣٠١، «الوافي بالوفيات»: ١٩/ ٣٨-٤٠، «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٣٩-٤٥١، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) في(ح): وسمع الحديث وتفقه، والمثبت مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) «المنتظم»: ١٠/ ٢١٩.

(٥) في(ح): وصحب، والمثبت من (م) و(ش).

(٦) سلفت ترجمته في وفيات سنة (٥٢٥هـ).

(٧) في(ح): وله قبول تام، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

أوقات الصَّلاة، وكان يَصْدَع بالحقِّ على المنبر، وينكر على من يولِّي الظَّلَمة [على النَّاس][(١)]، ولما ولَّى المقتفي القاضي ابن المُرَخِّم [الظالم][(١)]، قال على المنبر: ولَّيْتَ على المُسْلمين أَظْلَمَ الظَّالمين، ما جوابك غداً عند ربِّ العالمين.

وكان له كرامات ظاهرة، [ولقد أدركتُ جماعةً من مشايخنا يحكون منها جملة، حكى لي خالي لأمي، وكان اسمه خاصْبَك، قال:][(٢)] كان الشيخ عبد القادر يجلس يوم الأحد [فَنمتُ ليلة الأحد][(١)] مهتماً بحضور مجلسه، فاتَّفقَ أنني احتلمْتُ، وكان ليلةً باردة، فقلتُ: ما أفوِّتُ مجلسه، وإذا انقضى المجلس اغتسلتُ، فجئتهُ إلى المدرسة، والشَّيخ على المنبر، فساعة وَقَعَتْ عينُه عليَّ قال: يا دبير، تحضرُ مجلسَنا وأنتَ جُنُبٌ وتحتجُّ بالبرد!.

قال المصنِّفُ رحمه الله: حكى لي رجلٌ صالح من أهل الحَرْبية يقال له مُظَفَّر، قال: كنتُ ليلة الأحد أنام في مدرسة الشَّيخ عبد القادر لأجل المجلس [قال][(١)]: فمضيتُ ليلةً، وصَعِدْتُ على سطوح المدرسة، وكان الحَرُّ شديداً، فاشتهيتُ الرُّطَب، وقلتُ: إلهي ولو أنها خمس رطبات. وكان للشيخ بابٌ صغير في السطوح، فَفُتح الباب، وخرج الشَّيخ وبيده خمس رطبات، وصاح: يا مظفر ـ وما يعرفني قبلها ـ: تعال خُذْ ما طلبتَ.

[ومن هذا شيء كثير][(١)].

وكان ابنُ يونس وزير النَّاصر[(٣)] قد قَصَدَ أولادَ الشيخ عبد القادر، وبدَّدَ شملهم [وفَعَل في حَقِّهم كل قبيح، ونفاهم إلى واسط][(١)]، فبدَّد الله شَمْلَه، ومزَّقه كلَّ ممزَّق، ومات أقبح موتة، [وسنذكره في موضعه][(١)].

وكان الشيخ [عبد القادر][(١)] قد لبس خرقة المشايخ من أبي سَعْد المُخَرِّمي، ولبس المُخَرِّمي من أبي الحسن علي بن محمد القُرَشي، ولبس القرشي من أبي الفرج الطَّرسوسي، [ولبس الطرسوسي][(١)] من أبي الفَضْل عبد الواحد التَّميمي، ولبس

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): وكان له كرامات ظاهرة، قال خاصبك: والمثبت مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (م) و(ش): وكان وزير الإمام الناصر، يقال له: ابن يونس الحنبلي.

التميمي من والده عبد العزيز، ولبس عبد العزيز من أبي بكر الشِّبْلي، ولبس الشِّبْلي من أبي القاسم الجُنيد، ولبس الجنيد من خاله سَرِيّ السَّقَطي، ولبس سَرِيّ من معروف الكَرْخي، ولبس معروف من داود الطَّائي، ولبس داود من حبيب العَجَمي، ولبس حبيب من الحَسَن البَصْري، ولبس البَصْري من عليّ بن أبي طالب عليه السَّلام.

وللخِرْقة طريقٌ آخر إلى عليّ بن موسى الرِّضا، ولا يثبت سنده مثل الحديث، وإنما المعتبر فيها الصُّحبة.

[وقد ذكرنا تاريخ وفاته، وأنه][(١)] دُفِنَ ليلاً من كثرة الزِّحام، فإنَّه لم يبقَ ببغداد أحدٌ إلا وجاء إلى باب الأَزَج، وامتلأتِ الحَلْبة والشَّوارع والأسواق والدُّروب، فلم يتمكَّنوا من دفنه في النَّهار، وتوفي وله اثنتان وتسعون سنة.

ذِكْرُ أولاده:

[وكان له][(٢)] جماعة من الولد: عبد الوَهَّاب، وعبد الرَّزَّاق، وعبد العزيز، وسليمان، وإبراهيم، وغيرهم، [وسنذكرهم في مواضعهم][(٢)].

قلتُ[(٣)]: هذا حاصل ما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ في ترجمته، والعجبُ منه، فإنَّه يذكر من لا يلحق بأصاغر أصحابه، ويبسط القول، ويذكر من المناقب والأقوال ما ينبِّه به على محل الشخص، ولعله اكتفى بشهرة سيدنا الشَّيخ عبد القادر رحمة الله عليه، فاخْتَصَر، وسلك أسلوبَ جدِّه الشيخ جمال الدين أبي الفَرَج رحمه الله، فإنَّه ذكره في «مناقب الإمام أحمد»[(٤)] رحمة الله عليه، ذكر فيه المختارين من الطبقة الثَّامنة من أصحاب الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه وأتباعه، فقال: عبد القادر بن أبي صالح الجِيْلي، تفقَّه على أبي سَعْد المُخَرِّمي، وسَمِعَ الحديث، ثم لازم الانقطاع عن النَّاس في مدرسته، متشاغلاً بالتدريس والتذكير، وبلغ من العمر تسعين سنة، وتوفي في ليلة السبت ثامن ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمس مئة، ودفن في مدرسته.

(١) في (ح): ولما توفي دفن ليلاً، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) مابين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) القائل هو القطب اليونيني مختصر «مرآة الزمان».
(٤) المناقب: ٦٤٠.

هذا صورةُ ما ذكر لا غير، وسأذكر شيئاً من أحواله على وَجْه الاختصار، فإنَّ مناقبه أكثر من أن تحصر، فأقول: هو سَيِّدُنا شيخ الإسلام، تاجُ العارفين، محيي الدِّين، أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزَّاهد بن محمد بن داود ابن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - الهاشمي العَلَوي الحَسَني الجِيْلي الحَنْبلي؛ سِبْط أبي عبد الله الصَّوْمعي الزاهد، وبه كان يعرف حيث كان بجِيلان، وأمه أم الخير أَمَة الجبَّار فاطمة بنت أبي عبد الله الصَّومعي، وكان لها حَظٌّ وافرٌ من الخير والصَّلاح.

ولد رضي الله عنه سنةَ سبعين وأربع مئة، قال ولده عبدُ الرَّزَّاق: سألتُ والدي عن مولده، فقال: لا أعلمه حقيقةً، لكني قَدِمْتُ بغداد في السَّنة التي مات فيها التَّميمي، وعمري إذ ذاك ثماني عشر سنة، والتميمي توفي سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة.

وقال أبو سَعْد الهاشمي الجِيْلي، وأم الخير سعدى بنت أبي البَسَّام الجيلية: كان لأُمِّ الخير أَمَة الجَبَّار أُم الشيخ عبد القادر رضي الله عنه قَدَمٌ في هذا الأمر، وسمعناها تقول غير مرَّة: لما وضعتُ ابني عبد القادر كان لا يرضع ثديه في نهار شهر رمضان، وغُمَّ على النَّاس هلالُ شهر رمضان، فأتوني وسألوني عنه، فقلتُ: لم يلقم اليوم ثدياً، ثم اتَّضح أنَّ ذلك اليوم كان من رمضان، واشتَهر ببلدنا في ذلك الوقت أنه وُلِدَ للأشراف ولدٌ لا يرضع في نهار رمضان.

وقال الشيخ الإمام موفق الدِّين رحمه الله: كان شيخُنا محيي الدِّين عبد القادر رحمه الله، نحيفَ البدن، رَبْعَ القامة، عريضَ الصَّدْر واللِّحية، طويلها، أسمر، مقرون الحاجبين، حفياً، ذا صوتٍ جَهْوَرِي، وسَمْتٍ بهيٍّ، وقَدْرٍ عليٍّ، وعِلْمٍ وفيٍّ، رضي الله عنه.

وقال إبراهيم بن سعيد الدَّاري: كان شيخُنا عبد القادر رضي الله عنه يَلْبَسُ لباس العلماء، ويتطيلس، ويركب البغلة، وتُرفع الغاشية بين يديه، ويتكلَّم على كُرْسي عالٍ، وكان في كلامه سرعة وجَهْر، وله كلمةٌ مسموعة، إذا قال أُنْصِتَ له، وإذا أمر ابْتُدِر لأمره، وإذا رآه ذو القلب القاسي خَشَع، وإذا مرَّ إلى الجامع يوم الجمعة وقف النَّاس في الأسواق يسألون الله تعالى به حوائجهم، وكان له صيتٌ وصوت، وسَمْت وصمت، ولقد عَطَسَ

يوم جمعة، فشمَّته النَّاس حتى سُمِعَتْ في الجامع ضجَّةٌ عظيمة يقولون: يرحمك الله، ويرحم بك. وكان المستنجد بالله الخليفة في مقصورة الجامع، فقال: ما هذه الضَّجة؟ قيل له: قد عَطَسَ الشيخ عبد القادر. فهاله ذلك.

وقال الشيخ المعمَّر جرادة: ما رأتْ عيناي أَحْسَنَ خُلُقاً ولا أَوْسَعَ صَدْراً، ولا أَكرمَ نفساً، ولا أعطف قلباً، ولا أحفظ عهداً ووُدًّا من سيِّدنا الشيخ عبد القادر، ولقد كان مع جلالة قَدْره، وعلوِّ منزلته، وسَعَة عِلْمه يقف مع الصَّغير، ويوقِّر الكبير، ويبدأ بالسَّلام، ويجالس الضُّعفاء، ويتواضع للفُقَراء، وما قام لأحدٍ من العظماء ولا الأعيان، ولا أَلَمَّ ببابِ وزير قَطُّ ولا سُلْطان.

وحكى محمَّد بن الخضر، عن أبيه، قال: خدمتُ سَيِّدي الشيخ عبد القادر ثلاث عشرة سنة، فما رأيتُه فيها يتمخط ولا يتنخَّع، ولا قعدت عليه ذُبابة، ولا قام لأحدٍ من العظماء، ولا أَلَمَّ ببابِ ذي سُلطان، ولا جَلَسَ على بساطه، ولا أكل من طعامه إلا مرَّة واحدة، وكان يرى الجلوسَ على بساط الملوك ومن يليهم من العقوبات المعجَّلة. وكان يأتيه الخليفة أو الوزير أو من له الحُرْمة الوافية وهو جالسٌ، فيقوم ويدخل داره، فإذا جلس خَرَج الشيخ ﵁ من داره لئلا يقوم لهم، وإنَّه ليكلِّمَهم الكلام الخشِن، ويبالغ لهم في العِظَة، وهم يقبِّلُون يده، ويجلسون بين يديه متواضعين متصاغرين. وكان إذا كاتَبَ الخليفةَ يكتب إليه: عبد القادر يأمرك بكذا، وأمره نافِذٌ عليك، وطاعتك واجبة عليه، وهو لك قُدْوة وعليك حُجَّة. فإذا وقف الخليفة على ورقته قَبَّلها، وقال: صَدَقَ الشيخ.

وقال الشيخ محمد بن قائد الأَوَاني ـ وسيأتي ذكره في هذا الكتاب ـ: كنتُ عند سيدنا عبدالقادر ﵁، فسأله سائل: علامَ بنيت أمرك؟ قال: على الصِّدْق، ما كذبتُ قَطُّ، ولا لما كنتُ في المكتب، ثم قال: كنتُ صغيراً في بلدنا، فخرجتُ إلى السَّواد في يوم عَرَفة، وتبعت بقراً حَرَّاثة، فالتفتتْ إليَّ بقرة، وقالت لي: يا عبدالقادر، ما لهذا خُلِقْتَ، ولا بهذا أُمرتَ. فرجعتُ فَزِعاً إلى دارنا، وصَعِدْتُ إلى سطح الدَّار، فرأيتُ النَّاس واقفين بعرفات، فجِئْتُ إلى أُمي، وقلتُ لها: هبيني لله عز وجل، وَأْذني لي في المسير إلى بغداد أشتغل بالعِلْم، وأزور الصَّالحين. فسألتني عن سبب ذلكَ؟ فأخبرتُها

خبري، فبكَتْ وقامتْ إلى ثمانين ديناراً ركنية، وَرَّثَها أبي، فتركتْ لأخي أربعين ديناراً، وخاطت في دَلَقي تحت إِبْطي أربعين ديناراً، وأَذِنَتْ لي في المسير، وعاهدتني على الصِّدْق في كلِّ أحوالي، وخرجتْ مودِّعة لي، وقالت: يا ولدي، اذهَبْ فقد خَرَجْتُ عنك لله عزَّ وجل، فهذا وَجْه لا أراه إلى يوم القيامة. فسرتُ مع قافلةٍ صغيرة نطلبُ بغداد، فلما تجاوزنا هَمَذان، وكُنَّا بأرض برتيك خَرَج علينا ستون فارساً، فأخذوا القافلة، ولم يتعرَّض لي أحد، فاجتاز بي أحدهم، وقال: يا فقير، ما معك؟ فقلتُ: أربعون ديناراً، فقال: وأين هي؟ قلتُ: مخاطة في دَلَقي تحت إِبْطي. فظنني أستهزئ منه، فتركني وانصرف. ومرَّ بي آخر، فقال لي مِثْلَ ما قال الأَوَّل، وأجبته كجواب الأول. فتركني وانصرف، وتوافيا عند مقدَّمهم، وأخبراه بما سمعاه مني، فقال: عليَّ به، فأُتي بي إليه، وإذا هم على تلٍّ يقتسمون أموال القافلة، فقال لي: ما معك؟ قلتُ: أربعون ديناراً، فقال: وأين هي؟ قلتُ: مخاطة في دَلَقي تحت إبْطي. فأمر بدَلَقي فَفُتِقَ، فوجد فيه الأربعين ديناراً، فقال لي: ما حَمَلَك على هذا الاعتراف؟ قلت: إنَّ أمي عاهدتني على الصِّدْق، فأنا لا أخون عهدها. فبكى، وقال: أنتَ لم تَخُنْ عهدَ أُمِّك، وأنا اليوم كذا وكذا سنة أخون عهد ربي. فتاب على يدي، فقال له أصحابه: أنتَ كنتَ مقدَّمنا في قَطْع الطَّريق، وأنتَ الآن مقدَّمنا في التوبة. فتابوا كلُّهم على يدي، وردُّوا على القافلة ما أخذوا منهم، فهم أول من تاب على يدي.

وقال سيدنا الشيخ محيي الدين رحمة الله عليه: بلغتْ بي الضَّائقة في غلاءٍ نَزَلَ ببغداد، إلى أَنْ بقيت أياماً لم آكل فيها طعاماً، بل كنت أَتَّبعُ المنبوذات أَطْعَمُها، فخرجتُ يوماً من شِدَّة الجوع إلى الشَّطِّ لعلِّي أجد وَرَقَ الخسِّ أو البَقْل أو غير ذلك من المنبوذات، فأتقوتُه، فما ذهبتُ إلى موضعٍ إلا وجدت غيري قد سبقني إليه، وإنْ أدركتُ شيئاً وجدتُ جماعةً من الفقراء، ولا أستحسن مزاحمتهم عليه، فرجعتُ أمشي وسط البلد، فلا أدرك موضعاً قد كان فيه شيء منبوذ إلا وقد سُبِقْتُ إليه، حتى وصلتُ إلى مسجد في سوق الريحانيين وقد أجهدني الجوع، وعَجَزْتُ عن التَّماسك، فدخلتُ إليه، وقعدتُ في جانبٍ منه، وقد كدت أُصافح الموت، إذْ دَخَلَ شابٌّ عجمي ومعه خبز رصافي وشواء، وجلس يأكل، فكنتُ أكاد كلَّما رَفَعَ يده باللُّقْمة أفتح فمي من شِدَّة

الجوع، حتى أنكرتُ على نفسي، وقلت: ما هذا؟ما ها هنا إلا الله، أو ما قضاه من الموت، إذ التفت العجمي إليَّ فرآني، فقال: بسم الله يا أخي، فأبيتُ عليه، فأقسم عليَّ، فبادرَتْ نفسي إلى إجابته، فأكلتُ مقصراً، وأخذ يسألني: ما شُغْلُك؟ ومِنْ أين أنت؟ ومن تعرف؟ فقلتُ: أما شغلي فمتفقِّه، وأما مِنْ أين أنا؟ فمن جِيْلان. فقال لي: فأنا أيضاً جِيْلاني، فهل تعرف لي شاباً جِيْلانياً يسمَّى عبد القادر، ويعرف بسِبْط أبي عبد الله الصَّوْمعي الزَّاهد؟ فقلتُ: أنا هو. فاضطربَ لذلك، وتغيَّر وجهه، وقال: والله يا أخي، لقد وصلتُ بغداد ومعي بقيةُ نفقةٍ لي، فسألتُ عنك، فلم يرشدني أحدٌ إلى أن نَفِدَتْ نفقتي، وبقيتُ بعدها ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا مما لك معي، فلما كان هذا اليوم الرَّابع، قلتُ: قد تجاوزتني ثلاثةُ أيام لم آكل فيها طعاماً، وقد أَحَلَّ لي الشَّرْعُ أَكْلَ الميتة، فأخذتُ من وديعتك من هذا الخُبْز والشِّواء، فَكُلْ طَيِّباً، فإنَّما هو لك، وأنا ضيفُك الآن بعد أن كان في الظَّاهر لي وأنت ضيفي. فقلتُ: وما ذاك؟ فقال: إنَّ أمك وجَّهت لك معي ثمانية دنانير، فاشتريتُ منها هذا الطَّعام، وأنا معتذر إليك من خيانتي لك مع فُسحة الشَّرْع لي في بعض ذلك، فسكَّنْتُه وطيَّبْتُ من نفسه، وفَضَلَ من طعامنا ما دفعته إليه مع شيء من الذَّهب، فقَبِلَه، وانصرف.

وقال عبد الله السُّلمي: سمعت سيِّدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه يقول: بقيتُ أياماً لم أستطعم فيها بطعام، فبينا أنا في باب محلَّة القطيعة الشَّرْقية؛ وإذا رجلٌ قد جعل في يدي قرطاسة مصرورة وانصرف، فأقبلتُ حتى دفعته لبعض البقَّالين، وأخذتُ منه خبز سميد وخبيصاً[1]، وجئتُ إلى مسجدٍ مُفْرد كنتُ أخلو فيه لإعادة الدَّرْس، وتركتُ ذلك في القِبْلة بين يديَّ، وأخذتُ أفكر: هل آكل أم لا؟ فلمحت قِرْطاساً مطوياً في خَلَلِ الحائط، فتناولتُه، فإذا فيه مكتوب: قال الله تعالى في بعض كُتُبه السَّالفة: ما للأقوياء والشَّهوات، إنَّما جُعِلَتِ الشهواتُ لضعفاء المساكين المؤمنين ليستعينوا بها على الطَّاعات. قال: فأخذتُ المنديل، وتركتُ ما كان فيه في القبلة، وصلَّيْتُ ركعتين، وانصرفْتُ.

وقال الشيخ طلحة بن مُظَفَّر العَلْثي: قال شيخنا عبد القادر: أقمتُ ببغداد في بدوِّ أمري عشرين يوماً ما أجد ما أقتاتُ به، ولا أجد مباحاً، فخرجتُ إلى خراب إيوان

(١) الخبيص: وهو المعمول من التَّمرِ والسَّمنِ، القاموس المحيط (خبص).

كسرى أطلبُ مباحاً، فوجدتُ هنالك سبعين رجلاً من الأولياء كلهم يطلب ما طلبت، فقلتُ: من المروءة أنْ أُزاحمهم؟! فرجعتُ إلى بغداد، فلقيني رجلٌ أعرفه من بلد أهلي، فأعطاني قُراضة(١)، وقال: هذه بعثتْ بها أُمُّك إليك معي، فأخذتُ منها قطعة تركتها لنفسي، وأسْرعتُ بالباقي إلى خراب الإيوان، وفرَّقت القُراضة كلَّها على أولئك السبعين، فقالوا لي: ما هذا؟ قلتُ: إنَّه قد جاءني هذا من عند أمي، وما رأيتُ أن أتخصص به دونكم. ثم رجعتُ إلى بغداد، واشتريتُ بالقطعة التي معي طعاماً، وناديت فقراء، فأكلنا جميعاً، ولم يبت معي من القُراضة شيء.

وقال أبو عبد الله النجار: قال لي سيِّدنا الشيخ عبد القادر: تَرِدُ عليَّ الأثقالُ الكبيرة لو وُضِعَتْ على الجبال تفسَّخت، فإذا كثرت عليَّ وضعتُ جنبي على الأرض، وقلتُ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] ثُمَّ أرفع رأسي وقد انفرجت عني تلك الأثقال.

وقال لي: كنتُ أشتغلُ بالفِقْه على المشايخ، وأخرج إلى الصَّحراء، ولا آوي في بغداد، وأجلس في الخراب باللَّيل والنَّهار، وكنتُ ألبس جُبَّة صوفٍ، وعلى رأسي خُريقة، وكنتُ أمشي حافياً في الشَّوك وغيره، وأقتات بخرنوب الشوك، وقمامة البَقْل، وورق الخسِّ من جانب النَّهر والشَّطِّ، وما هالني شيء إلا سلكته.

وقال لي: كنتُ آخذ نفسي بالمجاهدة حتى طَرَقني من الله عزَّ وجل الحال، فكان يَطْرُقني بالليل والنهار وأنا في الصَّحراء، فأصرخ وأهجُّ(٢) على وجهي، وما كنتُ أعرف إلا بالتخارس والجنون، وحُمِلْتُ إلى البيمارَسْتان، وطرقتني الأحوال حتى متُّ، وجاؤوا بالكفن والغاسل، وجعلوني على المغتسل ليغسلوني، ثم سُرِّي عني وقمتُ.

وقال الجُبَّائي: قال لي سيدنا الشيخ عبد القادر: أتمنى أن أكون في الصَّحارى والبراري كما كنتُ في الأوَّل، لا أرى الخَلْق ولا يروني، ثم قال: أراد الله عز وجل مني منفعة الخلق، فإنَّه قد أسلم على يدي أكثر من خمس مئة من اليهود والنَّصارى، وتاب على يدي من العَيَّارين والمشالحة وقُطَّاع الطُّرُق أكثر من مئة ألف، وهذا خيرٌ كثير.

---

(١) القراضة: ما سقط بالقرض، ومنه قراضة الذهب. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/ ٥٣٦.

(٢) كلمة عامية بمعنى أهيم، ولها أصل فصيح، انظر «قاموس رد العامي إلى الفصيح»: ٥٦٩.

وقال عمر الكميماتي: لم تكن مجالس سيِّدنا الشيخ عبد القادر تخلو ممن يسلم من اليهود والنصارى، ولا ممن يتوب عن قَطْع الطَّريق، وقَتْل النَّفْس، وغير ذلك من الفساد، ولا ممن يرجع عن معتقد سيىء، وأتاه راهِبٌ، وأسلم على يديه في المجلس، ثم قال للنَّاس: إنِّي رجلٌ من أهل اليمن، وإنَّ الإسلام وقع في نَفْسي، وقوي عزمي على أن لا إسلام إلا على يد خير أهل اليمن في ظنِّي، وجلستُ مفكِّراً، فغلب عليَّ النوم، فرأيتُ عيسى ابن مريم صلوات الله عليه يقول لي: يا سِنان، اذهب إلى بغداد، وأسلم على يد الشيخ عبد القادر، فإنَّه خيرُ أهلِ الأرض في هذا الوقت.

قال: وأتاه مرة أخرى ثلاثة عشر رجلاً من النَّصارى، وأسلموا على يده في مجلس وعظه، وقالوا: نحن من نصارى المغرب، وأردنا الإسلام، وتردَّدْنا فيمن نقصده لنسلم على يديه، فهتف بنا هاتِفٌ نسمعُ كلامه ولا نرى شخصه يقول: أيُّها الركب ذا الفلاح، ائتوا بغداد، وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر، فإنَّه يوضع في قلوبكم من الإيمان عنده ببركته ما لم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس في هذا الوقت.

وقال عبد الله الجُبَّائي: كان الشيخ عبد القادر يوماً يتكلَّم في الأسواق في الإخلاص والرِّياء والعُجْب، فالتفتَ إليَّ الشيخ، وقال: إذا رأيتَ الأشياء من الله، وأنَّه وفقك لعمل الخير، وأخرجتَ نفسك من البَيْن، سَلِمْتَ من العُجْب.

وقال أبو الفرج بن الحمامي: كنتُ كثيراً ما أسمع عن الشيخ عبد القادر أشياء أستبعد وقوعها، وأنكرها وأدفعها، وكنتُ بحسب ذلك أتشوق إلى لقائه، واتَّفق أني مضيتُ إلى باب الأزَج لحاجةٍ كانت لي هناك، فلما عُدْتُ مررت بمدرسة الشيخ والمؤذن يقيم الصَّلاة؛ فتنبهت بالإقامة على ما كان في نفسي، فقلت: أُصلي العصر، وأُسَلِّم على الشيخ، وذهب عني أنني على غير وضوء، فصلَّى بنا العصر، فلما فرغ من الصَّلاة والدُّعاء، أقبل عليَّ، وقال: أي بني، لو قدمتني بالقَصْد على حاجتك لقضيت لك، ولكن الغفلة شاملة لك، بحيث قد صليت على غير وضوء، وقد سهوت عن ذلك. قال: فتداخلني من العجب بحاله ما أَدْهشني وأَذْهَلَ عقلي من كونه عَلِمَ من حالي ما خفي عني، وحيَّرني، ومنذ حينئذ لازمتُ صحبته، وتعلَّقْتُ بمحبته وخِدْمته، وتعرَّفْتُ بذلك شمول بركته.

وقال الجُبَّائي: كنتُ أسمع كتاب «حلية الأولياء» على ابنِ ناصر، فَرَقَّ قلبي، وقلتُ في نفسي: أشتهي أن انقطع عن الخَلْق، وأشتغل بالعبادة. ومضيتُ وصليتُ خلف الشَّيخ عبد القادر، فلما صلَّى جلسنا بين يديه، فنظر إليَّ، وقال: إذا أردتَ الانقطاع فلا تنقطع حتى تتفقَّه، وتجالس الشُّيوخ، وتتأدَّب بهم، فحينئذٍ يصلحُ لك الانقطاع، وإلا فتمضي وتنقطع قبل أن تتفقه، وأنت فريخ ما ريَّشْتَ، فإنْ أشكل عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك وتسأل النَّاس! ينبغي لصاحب الزَّاوية أن يكون كالشمعة ليستضاء بنوره.

وقال لي الشيخ أبو الثناء النهرملكي: سمعتُ أنَّ الشيخ عبد القادر لا يقع في ثيابه ذبابة، فقلتُ له: مالي علم بهذا! وفي بكرة الجمعة اتفقنا ومضينا إلى مجلس الشيخ، فالتفتَ إلينا في أثناء المجلس، وقال: أي شيء تعمل الذُّبابة عندي، لا دبس الدُّنيا عليَّ ولا عَسَلُ الآخرة!

وقال أبو محمّد داود البغدادي: رأيتُ في منامي سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة الشيخ معروف الكَرْخي تأتيه قِصَصُ النَّاس، وهو يعرضها على الله تعالى، فقال لي: يا داود، هاتِ قصَّتك أعرضها على الله تعالى، فقلتُ: وشيخي عزلوه؟ أعني الشيخ عبد القادر. فقال: لا والله ما عزلوه ولا يعزلونه. ثم استيقظتُ، وأتيتُ في السَّحَر إلى مدرسة الشيخ، وجلستُ على باب داره لأُخبره، فناداني مِنْ داخل داره قبل أَنْ أراه أَوْ أكلِّمه: يا داود شيخك ما عزلوه ولا يعزلونه، وهاتِ قِصَّتك أعرضها على الله عز وجل، فَوَعِزَّتِهِ، ما عرضتُ قِصَّةً لأصحابي ولا لغيرهم، فَرُدَّتْ عليَّ مسألتي فيها.

وقال عمر بن حسين بن خليل الطِّيبي: حضرتُ مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر، وكنت قاعداً محاذي وجهه، فرأيتُ شيئاً على هيئة القِنْديل البِلَّوْر نَزَلَ من السَّماء إلى أَنْ قارَبَ فم الشَّيخ، ثم عاد وصَعِدَ سريعاً، هكذا ثلاث مرات، فما تمالكتُ أَنْ قمتُ لأقول للنَّاس من فَرْط تَعجُّبي، فبادرني وقال: اقعد، فإنَّ المجالس بالأمانة. فلم أتكلَّم به إلا بعد موته.

وقال يحيى بن نجاح الأديب: قلتُ في نفسي: أريد أُحصي كم يقصّ الشيخ عبد القادر شعراً من التُّوَّاب[١] في مجلس وعظه، فحضرتُ المجلس ومعي خيطٌ، فلما

---

(١) هكذا جمع لفظ تائب، والصواب: من التائبين، والله أعلم.

قص شعراً عقدتُ عقدة تحت ثيابي من الخيط، وأنا في آخر النَّاس، وإذا به يقول: أنا أحل وأنت تعقد.

وقال أبو الخير كرم بن الشيخ القدوة مطر الباذرائي: لما حضرتْ أبي الوفاةُ، قلتُ له: أَوْصني بمن أقتدي بعدك؟ فقال: بالشيخ عبد القادر. فظننته في غَلَبَةِ مرضه، فتركتُه ساعةً، ثم قلتُ له: أوصني بمن أقتدي بعدك؟ قال: بالشِّيخ عبد القادر، فتركته ساعةً، ثم أَعدْتُ عليه القول، فقال: يا بني، زمانٌ يكون فيه الشيخ عبد القادر لا يقتدى إلا به. فلما مات أتيتُ بغداد، وحضرتُ مجلس الشيخ عبد القادر، وفيه الشيخ بقاء بن بطو، والشيخ أبو سعد القيلويي والشيخ علي بن الهيتي، وغيرهم من أعيان المشايخ، فسمعتُه يقول: لستُ كوعاظكم، إنما أنا بأمر الله، إنما كلامي على رجال في الهواء. وجعل يرفع رأسه إلى الهواء، فرفعتُ رأسي إلى الفضاء، فإذا بإزائه صفوف رجال من نور على جبل من نور، قد حالوا بين نظري وبين السَّماء من كثرتهم، وهم مُطْرقون، ومنهم من يبكي، ومنهم من يرعد، ومنهم من في ثيابه نار، فأُغشي عليَّ، ثم قمتُ أعدو، وأشقُّ النَّاس حتى طلعت إليه فوق الكرسي، فأمسك بأُذُني، وقال: يا كرم، أما اكتفيتَ بأَوَّل مرَّة من وصية أبيك! فأطرقتُ من هيبته.

وقال مفرج بن نبهان بن ركاب الشيباني: لما اشتهَرَ أمرُ الشَّيخ عبد القادر اجتمع مئة فقيه من أعيان فقهاء بغداد، وأذكيائهم، على أن يسأله كلُّ واحدٍ منهم مسألة في فنٍّ من العلوم غير مسألة صاحبه، ليقطعوه بها، وأتوا مجلس وعظه، وكنتُ يومئذٍ فيه، فلما استقرَّ بهم المجلس أطرق الشَّيخ، فظهرت من صدره بارقةٌ من نور لا يراها إلا مَنْ شاءَ الله تعالى، ومرَّت على صدور المئة، ولا تمرُّ على أحدٍ منهم إلا ويُبْهَتُ ويضطرب، فصاحوا صيحةً واحدة، ومزَّقوا ثيابهم، وكشفوا رؤوسهم، وصَعِدُوا إليه فوق الكرسي، ووضعوا رؤوسهم على رِجْليه، وضجَّ أهلُ المجلسِ ضجَّةً واحدة، ظننتُ أنَّ بغداد رُجَّتْ لها، فجعل الشيخ يضمُّ إلى صدره واحداً منهم بعد واحدٍ، حتى أتى على آخرهم، ثم قال لأحدهم: أما أنتَ فمسأَلَتُك كذا، حتى ذَكَر لكلٍّ منهم مسألته وجوابَها، فلما انقضى المجلس أتيتُهم، وقلتُ لهم: ما شأنكم؟ قالوا: لما جلسنا فقدنا جميع ما نعرفه من العِلْم حتى كأنه لم يمر بنا قَطّ، فلما ضمَّنا الشَّيخ إلى صَدْره

رَجَعَ إلى كلٍّ منّا ما نُزِعَ منه من العِلْم، ولقد ذكر لنا مسائلنا التي بيتناها له، وذكر فيها أجوبةً لا نعرفها.

وقال أبو الحجر حامد الحَرَّاني الخطيب: دخلتُ على الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه بمدرسته ببغداد، وجلستُ عنده على سَجَّادةٍ لي، فنظر إليَّ، وقال: يا حامد، لتجلسنَّ على بساط الملوك. فلما رجعتُ إلى حَرَّان جبرني السُّلطان نور الدّين الشَّهيد على ملازمته، وقرَّبني ، وأَجْلَسني على بساطه، وولّاني الأوقاف، فكنتُ أتذكر كلامَ الشيخ رضي الله عنه.

وقال أحمد بن صالح الجيلي: كنت مع سيِّدنا الشيخ عبد القادر بالمدرسة النِّظامية، واجتمع إليه الفقهاء والفقراء، فتكلَّم عليهم في القضاء والقدر، فبينا هو يتكلَّم إذ سقطتْ حيةٌ عظيمة في حِجْره من السَّقف، ففرَّ منها كلُّ مَنْ كان حاضراً عنده، ولم يبق إلا هو، ودخلتِ الحيةُ تحت ثيابه، ومرَّت على جسده، وخرجت من طوقه، والتفَّتْ على عُنُقه، ومع ذلك ما قَطَعَ كلامه، ولا غيَّر جلسته، ثم نزلتْ إلى الأرض، وقامت على ذنبها بين يديه، فصوَّتت، ثم كلَّمها بكلامٍ ما فهمناه، ثم ذهبتْ، فجاء النَّاسُ إليه، وسألوه عما قالت له، وقال لها، فقال: قالتْ لي: لقد اختبرتُ كثيراً من الأولياء فلم أَرَ مثل ثباتك. فقلتُ لها: إنَّك سَقَطتِ عليَّ وأنا أتكلَّم في القضاء والقدر، وهل أنت إلا دُوَيْبَّةٌ يحرِّكُك ويُسَكِّنُك القضاء والقدر! فأردتُ أن لا يناقض فِعْلي قولي.

وقال عبد الرَّزَّاق ابنُ سيدنا الشيخ محيي الدِّين رحمة الله عليه: سمعتُ والدي يقول: كنتُ ليلةً في جامع المنصور أُصلِّي، فسمعتُ حِسَّ مشي شيءٍ على البواري[1]، فجاءت أَصَلَةٌ[2] عظيمة، ففتحت فاها موضعَ سجودي، فلما أَرَدْتُ السجود دَفَعْتُها بيدي، وسجدتُ، فلما جلست للتشهُّد مشت على فَخِذي، وطلعت على عُنُقي، والتفَّتْ عليه، ، فلما سلَّمْتُ لم أرها، فلما كان من الغد دخلتُ خربة بظاهر الجامع، فرأيتُ شخصاً عيناه مشقوقتان طولاً، فعلمتُ أنَّه جني، فقال: أنا الأَصَلة التي رأيتها البارحة، ولقد اختبرت كثيراً من الأولياء بما اختبرتك به، فلم يثبت منهم لي كثباتك،

(١) مفردها بارية، وهو الحصيرة.

(٢) الأصلة: حية عظيمة تهلك بنفخها. «القاموس المحيط» (أصل).

وكان منهم من اضطرب ظاهراً وباطناً، ومنهم من اضطرب باطنُه، وثبت ظاهره، ورأيتك لم تضطرب باطناً ولا ظاهراً، وسألني أن يتوبَ على يدي، رحمة الله عليه.

سمعتُ والدي رحمه الله يقول: خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية، ومكثتُ أياماً لا أجد ماءً، فاشتدَّ بي العطَش، فظلَّلتني سحابة، ونزل عليَّ منها شيء يشبه النَّدى، فتروَّيْتُ به، ثم رأيتُ نوراً أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها: يا عبد القادر، أنا ربُّك، وقد حلَّلْتُ لك المحرَّمات ـ أو قال: ما حرمت على غيرك ـ فقلتُ: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم، اخسأ يا لعين، فإذا ذلك النُّور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني، وقال: يا عبد القادر، نجوتَ منِّي بعملك بحكم ربّك، وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللتُ بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطَّريق. فقلتُ: لربي الفَضْل والمِنَّة. فقيل له: كيف علمتَ أنَّه شيطان؟ قال: بقوله: قد حَلَّلْتُ لك المحرَّمات.

وقال عمر الرَّازي: ما رأتْ عيناي أفقه في علوم الحقائق من سيِّدي الشيخ محيي الدِّين عبد القادر، قيل له: إنَّ بعض مريديه يقول: إنه يرى الله تعالى بعيني رأسه، فاستدعى به، وسأله عن ذلك، فقال: نَعَمْ، فانتهره، ونهاه عن هذا القول، وأخذ عليه أن لا يعود، فقيل له: أمحقٌّ هذا أم مُبْطل؟ قال: هو محقٌّ يُلَبَّسُ عليه، وذلك لأنَّه شَهِدَ ببصيرته نور الجمال، ثم خرق بصيرته إلى بصر متقد، فرأى بصره ببصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده، فظنَّ أنَّ بصره رأى ما شهدته بصيرته، وإنما رأى بصرُه بصيرته فحسب وهو لا يدري، قال الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠] وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعث بمشيئته على أيدي ألطافه أنوار جلاله وجماله إلى قلوب عباده، فتأخذ منها ما تأخذ الصُّور من الصور ولا صور، ومن وراء ذلك رداء كبريائه الذي لا سبيل إلى انخراقه. وكان جمعٌ من المشايخ والعلماء حاضرين، فأطربهم سماع هذا الكلام، ودهشوا من حُسْن إفصاحه عن حال الرجل.

وقال الشيخ المعمر جرادة: لقد كنت يوماً في دار سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، وهو جالسٌ ينسخ، فسقط عليه من السقف تراب، فنفضه ثلاث مرَّات، يسقط عليه وهو ينفضه، ثم رَفَع رأسه في الرابعة إلى السَّقْف، فرأى فأرة تبعثر، فقال: طار رأسك.

فسقطت جُثَّتها ناحية ورأسها ناحية، فترك النَّسخ وبكى. فقلتُ: يا سيدي، ما يبكيك؟ قال: أخشى أن يتأذى قلبي من رجل مُسْلم، فيصيبه مثل ما أصاب هذه الفأرة.

وقال الشيخ عمر بن مسعود البزاز: كان سيدي الشيخ عبد القادر ﷺ يوماً يتوضأ في المدرسة، فبال عليه عصفور، فرفع رأسه إليه وهو طائر، فسقط ميتاً، فلما أَتَمَّ وضوءه غَسَلَ موضع البول من الثوب، وخلعه وأعطانيه، وأمرني أن أبيعه وأتصدَّق بثمنه، وقال: هذا بهذا.

وقال أبو اليُسْر عبد الرَّحمن بن عبد الله: كان عبد الصَّمد بن همَّام من العدول ذوي اليسار والثروة، وكان شديدَ الانحراف عن سيدنا الشيخ محيي الدِّين رحمة الله عليه، والإنكار لما يُحكى عنه من الكرامات مع الانقطاع عنه بالكُلِّية، ثم لازمه ملازمةً شديدة، فعَجِبَ النَّاس من ذلك، فسألته بعد وفاة الشيخ عن سبب ذلك، فقال: كنتُ لقِلَّة سعادتي أولاً على ما تعلم مني، فاتفق أني اجتزت يوماً بمدرسة الشيخ، والصلاة قد أُقيمت، فقلتُ في نفسي: أُصلِّي بسرعة وأُزيل ما بي - وكنتُ حاقناً - فدخلت، ووجدت إلى جانب المنبر الذي يجلس عليه الشيخ خِلْواً، فصلَّيْتُ فيه وأنا لا أشعر أنَّه يوم المجلس، وتكاثَرَ النَّاسُ لحضور المجلس تكاثراً منعني من التصرُّف في نفسي والخروج من مكاني، وتزايد ما بي من الاحتياج إلى الخلاء، وصَعِدَ الشيخ إلى المنبر، وقد كِدْتُ أتلف، فتضاعَفَ ما بي من بُغْض الشيخ ذلك الوقت، وتحيَّرت في نفسي، وكدت أُحْدث في ثيابي، ثم قلت: أفتضح بين النَّاس، ويشم مني رائحة خبيثة، فعاينت في ذلك الموت، فبينا أنا مفكر في أمري إذْ نزل الشيخ من المِنْبر درجات، وأَسْبل كُمَّه على رأسي، فرأيت نفسي في روضة خضراء بفلاةٍ من الأرض، وماء جارٍ، فأزلتُ ما بي، وتوضَّأتُ للصَّلاة، وصلَّيْتُ ركعتين، ثم رفع الشيخ كُمَّه عن رأسي، وإذا أنا تحت المنبر على حالي، وقد زال ما بي جميعه، فكَثُرَ تعجُّبي من ذلك جدًّا، ووجدتُ أطرافي رطْبةً من أثر الوضوء، فتحيَّرْتُ في أمري، وذَهَلَ عقلي، فلما انقضى المجلس قمت، ففقدت منديلي، ومفاتيحُ صندوقي فيه، وطلبتُ ذلك في موضعي الذي كنت قاعداً فيه، وفيما يليه، فلم أجده، فمضيتُ إلى منزلي، وأحضرت صانعاً فتح صندوقي، وعمل له مفاتيح، وكنتُ في ذلك الوقت على عَزْمٍ إلى عراق العجم لمهمٍّ

اعتراني، فتوجَّهت عند اليوم الذي حضرت فيه المجلس، فلما سرت عن بغداد ثلاثة أيام، اجتزت بمكانٍ أفيحَ، وفيه روضةٌ خضراء وماءٌ جارٍ، فقال لي بعضُ الرِّفْقة: ألا تنزل ها هنا نصلي ونأكل شيئاً، فإننا لا نجد أمامنا ماء؟ فنزلت، فتخيلته المكان الذي رأيته آنفاً لا أشكُّ فيه، فتوضَّأتُ للصلاة، وقصدت مكاناً أُصلِّي فيه، فإذا فيه منديلي بعينه، وفيه مفاتيحي التي فقدتها يوم المجلس هناك، فكدت أخرج من عقلي، فقضيتُ سفري وعُدْتُ، وأهمُّ الأمور عندي ملازمةُ الشيخ واستدراك ما فَرَطَ مني، فلازمتُه لما أراد الله تعالى بي من السَّعادة والبركة، فشاهدتُ منه ما لا أذكره قَطُّ مخافةَ أن يشك السَّامع في حديثي، فقلتُ له: حدِّثْ بما رأيتَ منه، فمِثْلُك لا تتطرَّق إليه التُّهم مما يحكي. فقال لي: ليس لي إلى ذلك حاجة، فقد كان يُحكى لي عند من لا أشك في صِدْقه وعدالته ما يُشبه هذا، فلا أصدقه. فقلت: لقد أراد الله بك خيراً، فقال: الحمد لله الذي لم أمت على ما كنت عليه.

وقال الحافظ أبو العَبَّاس أحمد بن أحمد بن أحمد البَنْدَنيجي: حضرتُ أنا والشيخ جمال الدّين بن الجوزي - رحمه الله - مجلس سَيِّدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه، فقرأ القارئ آية، فذكر الشيخ في تفسيرها وَجْهاً، فقلتُ للشيخ جمال الدين: أتعلم هذا الوَجْه؟ قال: نَعَمْ، فذكر الشيخ فيها أَحَدَ عشر وجهاً، وأنا أقول له: أتعلم هذا الوَجْه؟ وهو يقول: نَعَمْ، ثم ذكر الشيخ وجهاً آخر، فقلتُ له: أتعلم هذا؟ قال: لا، حتى ذكر فيها كمال أربعين وجهاً، يعزو كلَّ وَجْهٍ إلى قائله، والشيخ جمال الدِّين يقول: لا أعرف هذا الوجه، واشتدَّ تعجبه من سَعَة عِلْم سيدنا الشيخ، ﷺ. ثم قال: نترك القال ونرجع إلى الحال، لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاضطرب النَّاس اضطراباً شديداً، وخَرَقَ الشيخ جمال الدين بن الجوزي ثيابه.

وقال محمَّد الحسني المَوْصلي: سمعتُ أبي يقول: كان سيدنا الشيخ عبد القادر يتكلَّم في ثلاثة عشر عِلْماً، وكان يذكر في مدرسته درساً من التفسير، ودرساً من الحديث، ودرساً من المذهب، ودرساً من الخلاف، وكان يُقرأ عليه في طرفي النهار التَّفسير وعلوم الحديث، والمذهب والخلاف والأصول والنحو، وكان يُقْرِئُ القرآن بالقراءات بعد الظُّهْر.

وقال الشيخ عمر البزاز: كانت الفتاوى تأتيه من بلاد العراق وغيره، وما رأيناه تبيتُ عنده فتوى ليطالع عليها أو يفكر فيها، بل يكتب عليها عقيب قراءتها، وكان يفتي على مذهب الإمام الشَّافعي وأحمد رحمهما الله، وتعرض فتاواه على علماء العراق، فما كان تَعَجُّبهم من صوابه أشدَّ من تعجُّبهم من سُرْعة جوابه فيها، وكان من اشتغل عليه في فنٍّ من الفنون الشَّرعية افتُقِرَ إليه فيه، وساد على أقرانه.

وقال الشيخ عبد الرَّزَّاق: جاءت فتوى من العَجَم إلى بغداد بعد أن عُرِضَتْ على علماء العراقَيْن: عراقِ العجم وعراق العرب، فلم يتضح لأحدٍ منهم جوابٌ شافٍ، وصورتُها: ما يقول السَّادة العلماء في رجلٍ حَلَفَ بالطَّلاق الثَّلاث أَنَّه لابُدَّ له أن يعبد الله عزَّ وجَلَّ عبادةً ينفرد بها دون جميعِ النَّاس في وقتِ تَلَبُّسِهِ بها، فما يفعل من العبادات؟ فأُتي بها إلى والدي، فكتب عليها على الفور: يأتي مكة ويخلى له الطَّواف، ويطوف أُسبوعاً وحده، وتنحل يمينه. فما باتَ المستفتي ببغداد.

وقال الخضر بن أبي العَبَّاس المَوْصلي: سمعتُ أبي يقول: رأيتُ في النوم ببغداد بمدرسة سيدنا الشيخ عبد القادر ﷺ في سنة إحدى وخمسين وخمس مئة مكاناً عظيم السَّعَة، وفيه مشايخ البر والبحر، وسيدنا الشيخ عبد القادر في صدرهم، ومن المشايخ مَنْ على رأسه عِمامة فحسب، منهم من فوق عِمامته طرحة، ومنهم من فوق عِمامته طَرْحتان، وفوق عِمامة سيدنا الشيخ محيي الدين ثلاث طَرَحات، فبقيت في النوم مفكِّراً في تلك الطَّرحات الثلاث، ما هُنَّ؟ واستيقظتُ، فإذا به قائمٌ على رأسي، فقال: طرحة تشريف علم الشَّريعة، وطرحة تشريف علم الحقيقة، وطرحة الشَّرف.

وقال الشيخ علي بن الهيتي: زرت مع سيدي الشَّيخ عبد القادر والشَّيخ بقاء بن بطو قبر الإمام أحمد رحمة الله عليه، فشهِدْتُه خرج من قبره، وضمَّ الشَّيخ عبد القادر إلى صدره، وألْبسه خِلْعة، وقال له: يا شيخ عبد القادر، قد افتُقِرَ إليك في عِلْم الشَّريعة، وعلم الحقيقة، وعلم الحال.

وقال أبو نَصْر بن عمر البغدادي المشَّاء المعروف بالصَّحراوي: سمعتُ أبي يقول: استدعيتُ الجان مرَّة بالعزائم، وأبطأت إجابتهم أكثر من عادتي، ثم أتوني، وقالوا: لا تعد تستدعينا إذا كان الشيخ عبد القادر يتكلَّم على النَّاس. فقلتُ: ولم؟ قالوا: إنَّا

نحضره. قلتُ: وأنتم أيضاً؟ قالوا: إنَّ ازْدحامنا بمجلسه أشد من ازدحام الإِنس، وإنَّ منا طوائف كثيرة أسلمت، وتابت على يده.

وقال محمَّد بن الخضر الحسيني: سمعتُ أبي يقول: كان سيِّدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يتكلَّم في مجلسه بأنواعِ العلوم ولا يبيِّتُ ما يقول، وكان إذا صَعِدَ الكرسي لا يتصدق أحد، ولا يَمْخُط ولا يتنحنح ولا يتكلَّم. ولا يقوم هيبة له إلى وسط المجلس، فيقول: مضى القال وعظنا بالحال، فيضطرب النَّاس اضطراباً شديداً، ويتداخلهم الحال والوَجْد، وكان يُعَدُّ من كراماته أن أقصى من [في][1] مجلسه يسمع صوتَه كما يسمعه أدناهم منه على كَثْرتهم، وكان يتكلَّم على خواطر أهلِ المجلس، ويواجههم بالكَشْف، وكان إذا قام فوق الكرسي، يقوم النَّاس لجلالته، وإذا قال لهم اسكتوا سكتوا، حتى لم يُسْمَعْ منهم سوى أنفاسهم هيبةً له، وكان النَّاس يضعون أيديهم في مجلسه، فيقع على رجال بينهم يدركونهم باللَّمس ولا يرونهم، ويسمعون وقت كلامه في الفضاء حِسًّا وصياحاً، وربما سمعوا وَجْبَة ساقط من الجوِّ إلى أرض المجلس، وذلك رجال الغيب وغيرهم.

وقال الشيخ أبو سَعْد القيلويي رحمة الله عليه: رأيتُ رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ في مجلس الشيخ عبد القادر، وإنَّ السيد ليشرف عنده، وإنَّ أرواح الأنبياء عليهم السَّلام لتتجول في السَّموات والأرض جَوَلان الرِّياح في الآفاق، ورأيتُ الملائكة يحضرونه طوائف بعد طوائف، ورأيتُ رجالَ الغيب يتسابقون إلى مجلسه، ورأيتُ أبا العَبَّاس الخضر عليه السَّلام يُكْثِرُ من حضوره، فسألته فقال: مَنْ أراد الفلاح فعليه بملازمة هذا المجلس.

وقال الشيخ محمَّد بن أبي الفَتْح الهَرَوي: حضرتُ يوماً مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه، فتكلَّم حتى استغرقَ في كلامه، وقال: لو أراد الله تعالى أن يبعث طيراً أخضر يسمع كلامي لفعل. فلم يتمَّ كلامه حتى جاء طائرٌ أخضر حسنُ الصُّورة، ودخل في كُمِّه وما خرج.

(١) زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

قال: وتكلَّم يوماً آخر في مجلسه، فتداخل بعض الناس فترة، فقال: لو أراد الله سبحانه وتعالى أن يرسل طيوراً خُضْراً تسمع كلامي لفعل، فلم يتمَّ كلامه حتى امتلأ المجلسُ بطيورٍ خُضْر يراها مَنْ حَضَرَ.

قال: وتكلَّم يوماً في قُدرة الله تعالى، وغَمَر النَّاسَ من كلامه هيبةٌ وخشوع، فمرَّ بالمجلس طائر عجيبُ الخِلْقة، فاشتغل بعضُ النَّاس بالنَّظر إليه عن سماع كلام الشيخ، فقال: وعِزَّة المعبود، لو شئت أن أقول لهذا الطائر مت قِطَعاً قِطعاً لمات قِطَعاً قطَعاً، فما تمَّ كلامه حتى وَقَعَ الطَّائر إلى أرض المجلس قِطَعاً.

وقال الشيخ بقاء بن بطو: فبينا هو يتكلَّم على المرقاة الأُولى من الكرسي، إذْ قطع كلامه وسها ساعةً، ونَزَل إلى الأرض، ثم صَعِدَ الكرسي، وجلس على المرقاة الثانية، فأُشْهِدْتُ أنَّ المرقاة الأُولى قد اتَّسعت حتى صارت مَدَّ البصر، وفُرِشَت من السُّنْدس الأخضر، وجلس عليها رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﵃، وتجلَّى الحقُّ سبحانه على قلب الشيخ، فمال حتى كاد أن يسقط، فأمسكه رسولُ الله ﷺ لئلا يقع، ثم تضاءل حتى صار كالعُصْفور، ثم نمى حتى صار على صورةٍ هائلة، ثم توارى عني.

فسئل الشيخ بقاء عن رؤيته رسول الله ﷺ، وأصحابه ﵃، فقال: أرواحهم تشكَّلَتْ، وأن الله تعالى أيَّدهم بقوَّةٍ يظهرون بها، فيراهم من قوَّاه الله تعالى لرؤيتهم في صور الأجساد وصفات الأعيان بدليلِ حديث المعراج.

وسئل عن تضاؤل الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه، ونموه، فقال: كان التَّجلِّي الأول بصفة لا يثبت لبدوها بشر إلا بتأييد نبوي، فلذلك كاد الشيخ يسقط لولا تداركه رسولُ الله ﷺ، وكان التَّجلِّي الثَّاني بصفة الجلال من حيث موصوفه، فلذلك تضاءل، وكان التجلِّي الثَّالث بصفة الجمال من حيث مشاهده، فذلك انتعش ونمى، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الحديد: ٢١].

وقال الشيخ عبد الوهَّاب بن سيدنا الشيخ محيي الدِّين رحمة الله عليهما: سافرتُ إلى بلاد العجم، وتفننت في العلوم، فلمَّا رجعت إلى بغداد، قلتُ لوالدي: أُريد أن أتكلَّم على النَّاس بحضرتك. فأَذِنَ لي، فَصَعِدْتُ الكرسي، وتكلَّمت بما شاء الله من

العلوم والمواعظ، فلم يخشع قلب، ولم تجرِ دمعة، فضجَّ أهلُ المجلس بوالدي يسألونه أن يتكلَّم عليهم، فنزلتُ وصَعِدَ، وقال: كنتُ صائماً أمسِ، وقَلَتْ لي أُم يحيى بويضات، وجعلَتْها في سكيريجة، فجاء السِّنَّور، فرمت بها، فانكسرت، فَضَجَّ أهلُ المجلس بالصُّراخ، فلمَّا نزل، قلتُ له في ذلك، فقال: يا بني، أنتَ مُدِلٌّ بسفرك، أسافرتَ إلى هنا؟ وأشار بأُصبعه إلى السَّماء، ثم قال: يا بني، إنِّي لما صَعِدْتُ الكُرْسي تجلَّى الحقُّ عزَّ وجل على قلبي وبسطني، فحدَّثْتُ بما سَمِعْتُ، فكان الذي رأيت.

قال عبد الوهَّاب: وكنتُ بعد ذلك ربما أصعد الكرسي، وأتكلَّم على الناس بفنون العلوم ووالدي يسمع، فلا يتأثر أحد، ثم أنزل ويصعد، فيقول بأوله: الشجاعة صَبْرُ ساعة. فيصيح أهل المجلس، فكنتُ أسأله عن ذلك، فيقول: أنتَ المتكلِّم، وأنا المتكلِّم فيَّ غيري. وكان إذا سُئِلَ مسألة في مجالس وعظه ربما يقول: أستأذِنُ في الكلام عليها. ويُطْرِقُ، فتجلِّلُه الهيبة، ويعلوه الوقار، ثم يتكلَّم عليها بما شاء الله تعالى، وكان يقول: وعِزَّة العزيز ما تكلَّمْتُ حتى قيل لي تكلَّم، فقد أمكنتك من الرد يا عبد القادر، تكلَّم يسمعْ منك.

وقال أبو عمر وعثمان الصَّيريفيني وعبد الحق الحريمي: كان شيخنا محيي الدين عبد القادر ﵁ يبكي ويقول: يا رب كيف أهدي لك الروح، وقد صَحَّ بالبُرْهان أنَّ الكُلَّ لك.

ومما كان ينشد [من الطويل]:

وما ينفعُ الإعراب إذ لم يكن تُقًى ... وما ضَرَّ ذا تقوى لسانٌ معجَّمُ

وقال عبد الوهَّاب بن سيِّدنا الشيخ محيي الدِّين ﵁: كان والدي يتكلَّم في الأُسبوع ثلاث مرَّات بالمدرسة بُكْرة الجُمُعة، وعَشِيَّة الثلاثاء، وبالرِّباط بكرة الأحد، وكان يحضره العُلَماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم، ومدَّة كلامه على النَّاس أربعون سنة، أولها سنة إحدى وعشرين وخمس مئة، وآخرها سنة إحدى وستين وخمس مئة، ومدَّة تصدُّره للتدريس والفتوى بمدرسته ثلاث وثلاثون سنة، أولها سنة ثمان وعشرين وخمس مئة، وآخرها سنة إحدى وستين، وكان يقرأُ في مجلسه أخوان قراءةً مرسلة

مجوَّدة بغير ألحان، ويقرأُ أيضاً في مجلسه الشَّريف مسعود الهاشمي، وكان يموت في مجلسه الرَّجُلان والثَّلاثة، ويكتب ما يقول في مجلسه أربع مئة محبرة عالم وغيره، وكان كثيراً ما يخطو في الهواء في مجلسه على رؤوس النَّاس خطواتٍ، ثم يرجع إلى الكرسي.

وقال أبو الفَتْح الهَرَوي: خدمتُ سَيِّدي الشيخ عبد القادر ﷺ أربعين سنة، فكان في مُدَّتها يصلي الصُّبح بوضوء العِشاء، وكان إذا أحدث جَدَّد في وقته وضوءاً، وصلَّى رَكْعتين، وكان يصلِّي العشاء، ويدخل خلوته، ولا يدخلها معه أحد، ولا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر، ولقد أتاه الخليفة باللَّيل مراراً يقصد الاجتماع به، فلا يقدر على ذلك إلى الفجر، وبتُّ عنده ليالي، فكان يصلِّي أول الليل يسيراً، ثم يذكر إلى أن يمضي الثُّلُث الأَوَّل، يقول: المحيط الرَّب الشَّهيد الحسيب الفعَّال الخلَّاق الخالق البارئ المصوّر، فتتضاءل جثته مرة، وتعظم مرة، ويرتفع في الهواء إلى أن يغيب عن نظري مرة، ثم يُصلِّي قائماً على قدميه يتلو القرآن إلى أن يذهب الثُّلُث الثاني، وكان يطيل في سجوده جداً؛ يباشر بوجهه الأرض، ثم يجلس متوجِّهاً مراقباً مشاهداً إلى قريب طلوع الفجر، ثم يأخذ في الدُّعاء والابتهال والتذلُّل، ويغشاه نور يكاد يَخْطَفُ الأبصار إلى أن يغيب فيه عن النظر، وكنتُ أسمع عنده: سلامٌ عليكم، سلام عليكم، وهو يردُّ السَّلام إلى أن يخرج إلى صلاة الصُّبح.

وقال الشيخ أبو مسعود الحريمي: سمعتُ سيدنا الشيخ عبد القادر ﷺ يقول: أقمتُ في صحارى العراق وخرابه خمساً وعشرين سنة مجرَّداً سائحاً، لا أعرف الخَلْق ولا يعرفوني، يأتيني طوائفُ من رجالِ الغيب والجان أُعلمهم الطَّريق إلى الله تعالى، ورافقني الخَضِر عليه السَّلام في أول دخولي العراق، وما كنتُ عَرَفْتُه، وشرَطَ أن لا أخالفه، وقال لي: اقعد هنا. فجلستُ في المكان الذي أقعدني فيه ثلاث سنين، يأتيني في كلِّ سنة مرة، ويقول لي: مكانَك حتى آتيك.

وكانت الدُّنيا وزخارِفُها وشهواتُها تأتيني في صور، فيحميني الله تعالى من الالتفات إليها، وتأتيني الشياطين في صور شتَّى مزعجات ويقاتلوني، فيقويني الله تعالى عليهم، وتبرز إليَّ نفسي في صورة، فتارة تتضرع إليَّ فيما تريده، وتارة تحاربني، فينصرني الله

عز وجل عليها، وما أخذتُ نفسي في حال البداية بطريقٍ من طُرُقِ المجاهدات إلا ولازمتُه واعْتَنَقَتْهُ نفسي، وأخذته بكلتا يدي، وأقمتُ زماناً في خراب المدائن، آخذ نفسي بطرق المجاهدات، فمكثتُ سنة آكلُ المنبوذ، ولا أشرب الماء، وسنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ، وسنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام، ونمت بإيوان كسرى في ليلةٍ شديدة البرد، فاحتلمتُ، فقمتُ وذهبت إلى الشَّطِّ واغتسلتُ، فنمت تلك الليلة أربعين مرة، واحتلمت أربعين مرة، واغتسلتُ في الشَّطِّ أربعين مرة، ثم صَعِدْتُ إلى الإيوان خوفَ النَّوم، وأقمت في خرائب الكَرْخ سنين لا أقتات فيها إلا بالبَرْدي، ويأتيني رجلٌ في رأس كلِّ سنة بجُبَّة صوف، ودخلتُ في ألف فنٍّ حتى استريحَ من دُنْياكم، وما كنتُ أُعرف إلا بالتخارس والبَلَه والجنون، وكنتُ أمشي حافياً في الشَّوْك وغيره، وما هالني شيء إلا سلكته، ولا غلبتني نفسي فيما تريده قَطُّ، ولا أعجبني شيء من زينة الدُّنيا قطُّ، فقلت له: يا سيدي، ولا لما كنتَ صغيراً؟ قال: ولا لما كنت صغيراً.

وقال الشيخ عثمان الصَّريفيني: سمعتُ سيدنا الشَّيخ عبد القادر رحمة الله عليه يقول: كنتُ أجلس في الخراب باللَّيل والنَّهار، ولا آوي في بغداد، وكانت الشَّياطين تأتيني صفوفاً رجالاً وركباناً بأنواع السِّلاح، وأَزْعج الصُّوَر، يقاتلوني ويرموني بشهب النَّار، فأجد في قلبي تثبيتاً لا يُغَيَّر عنه، وأسمع مخاطِباً من باطني يقول لي: قم إليهم يا عبد القادر، فقد ثبتناك تثبيتاً، وأيَّدناك بنصرنا، فما هو إلا أن أنهض إليهم، فيفرون يميناً وشمالاً، ويذهبون من حيث أتوا، وكان يأتيني الشيطان منهم وحده، ويقول لي: اذهب من هنا، وإلا فعلتُ وفعلتُ. ويحذرني تحذيراً كثيراً، فألطمه بيدي، فيفرُّ مني، فأقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فيحترق وأنا أنظر إليه. وأتاني مرَّة شخصٌ كريه المنظر، منتن الرِّيح، وقال لي: أنا إبْليس أتيتك أخدمك، فقد أعييتني وأعييت أتباعي. فقلتُ: اذهب. فأبى، فجاءته يدٌ من فوقه، وضربَتْ أُمَّ رأسه، فغاص في الأَرْض، ثم أتاني ثانية، وبيده شهابٌ من نار، يقاتلني به، فأتاني رجلٌ مُلَثَّم راكب فرساً أَشْهَبَ، وناولني سيفاً، فنكَصَ إبليس على عقبيه، ثم رأيته مرَّةً ثالثة جالساً بالبُعْد مني، وهو يبكي، ويحثو التُّراب على رأسه، ويقول: قد أَيِسْتُ منك يا عبد القادر. فقلتُ: اخسأْ يا لعين، فإنِّي لا أزال حَذِراً منك، فقال: هذه أَشَدُّ عليَّ، ثم كَشَفَ لي

عن أشراك كثيرة متَّصلة بي من كلِّ جهة، فقلت: ما هذا؟ قيل لي: هذه أسباب الخَلْق متصلة بك. فتوجَّهتُ في أمرها سنة أخرى حتى تقطَّعت كلَّها، وانفردتُ عنها، ثم كُشِفَ لي عن باطني، فرأيتُ قلبي مناطاً بعلائق كثيرة، فقلت: ما هذا؟ فقيل لي: هذه إرادتك واختياراتك. فتوجَّهتُ في أمرها سنة أخرى حتى تقطعت جميعها، وتخلَّص منها قلبي، ثم كُشِفَ لي عن نفسي، فرأيتُ أدواءها باقية، وهواها حيٌّ، وشيطانها مارِد، فتوجَّهتُ في ذلك سنة أخرى، فتراءت أدواء النَّفْس، وماتَ الهوى، وأسلم الشَّيطان، وصار الأمر كلُّه لله، فبقيت وَحْدي، الوجود كلُّه مِنْ خَلْفي، وما وصلتُ إلى مطلوبي بَعْدُ، فاجتذبت إلى بابِ التوكُّل لأدخل منه على مطلوبي، فإذا عنده زحمةٌ، فجُزْتُه، ثم اجتذبت إلى باب التَّسليم لأدخل منه، فإذا عنده زحمة، فجزته، ثم اجتذبت إلى باب الغنى لأدخل منه، فوجدتُ عنده زحمة، فجزته، ثم اجتذبت إلى باب القرب لأدخل منه على مطلوبي، وإذا عنده زحمة، فجزته، ثم اجتذبت إلى باب المشاهدة لأدخل منه على مطلوبي، فإذا عنده زحمة، فجزته، ثم اجتذبت إلى باب الفَقْر، فإذا هو خالٍ، فدخلت منه، فرأيتُ فيه كل ما تركته، وفُتِحَ لي منه الكنز الأكبر، وأُوتيت فيه العز الأعظم، والغِنى السَّرْمَد، والحرمة الخالصة، ومُحقت البقايا، ونُسِخَتِ الصِّفات، وجاء الوجود الثَّاني.

وقال الشيخ عمر البزاز: سمعتُ سيدنا الشيخ عبد القادر ﷺ يقول: كانتِ الأحوال تطرقني في بدايتي في السِّياحة، فأقاويها، فأملكها، فأغيب منها عن وجودي، وأعدو وأنا لا أدري، فإذا سُرِّيَ عنِّي من ذلك وجدتُ نفسي في مكان بعيدٍ عن المكان الذي كنتُ فيه، وطرقني الحالُ مرَّة، وأنا في خرائب بغداد، وَعَدَوْتُ قَدْرَ ساعة وأنا لا أدري، ثم سُرِّي عني وأنا في بلاد ششتر، بيني وبين بغداد اثنا عشر يوماً، فبقيت مفكِّراً في أمري، فإذا امرأةٌ تقول: أتعجب مِنْ هذا الأمر، وأنت الشيخ عبد القادر!

وقال الجُبَّائي: قال سَيِّدنا الشيخ عبد القادر ﷺ: كان إذا وُلِدَ لي ولدٌ أخذته على يدي، وقلتُ: هذا ميت فأُخرجه من قلبي، فإذا مات لم يؤثر عند موته شيئاً؛ لأني قد أخرجته من قلبي أول ما يولد.

قال: فكان يموتُ من أولاده الذكور والإناث ليلة مجلسه فلا يقطع المجلس، ويصعد على الكرسي، ويعظ الناس، والغاسل يغسل الميت، فإذا فرغوا من غسله، جاؤوا به إلى المجلس، فينزل سيدنا الشيخ، ويصلِّي عليه.

وقال ابن الأخضر: كنتُ أدخل على سيدنا الشيخ عبد القادر ـ سلام الله عليه ـ في وسط الشتاء وقوَّة برده، وعليه قميصٌ واحد، وعلى رأسه طاقية، والعَرَقُ يخرج من جسده، وحوله من يروِّحُه كما يكون في شِدَّة الحَرِّ.

وقال أبو النَّجيب عبد القاهر السُّهْرَوَرْدِي: كان الشيخ حَمَّاد الدَّبَّاس يُسمع له كل ليلة كدَوِيِّ النَّحل، فقال أصحابُه للشيخ عبد القادر في سنة ثمانٍ وخمس مئة، وكان في صحبته يومئذٍ: اسأله عن ذلك. فسأله، فقال له: إنَّ لي اثني عشر ألف مريد، وإني أذكر أسماءهم كلَّ ليلة، وأسأل لكلٍّ منهم حاجته إلى الله عز وجل، وإذا أصابَ مريدٌ لي دنيا، فلا ينقضي عنه شهره ذلك حتى يتوب إشفاقاً عليه أن يتمادى فيه. فقال له الشيخ عبد القادر: لئن أعطاني الله تعالى منزلةً عنده لآخذنَّ من ربي تبارك وتعالى عهداً لمريديَّ إلى يوم القيامة أن لا يموتَ أحدُهم إلا على توبة، ولأكوننَّ بذلك ضميناً لهم، فقال الشيخ حماد: أشهدني الله تعالى سيعطيه ذلك، ويبسط ظل جاهه عليهم.

وقال المشايخ أبو السعود وأبو عبد الله محمَّد الأواني وعمر البزاز: ضَمِنَ سَيِّدُنا الشيخ عبد القادر لمريديه إلى يوم القيامة أن لا يموت أحدٌ منهم إلّا على توبة، وأُعطي أن مريديه ومريدي مريديه إلى سبعةٍ يدخلون الجنة، وقال: أنا كافِلٌ لمريد المريد إلى سبعة، ولو انكشفت عورةٌ بالمغرب وأنا بالمشرق لسترتُها، وأُمِرْنا من حيثُ الحال والقدر أن نحفظ بهممنا أصحابنا، وطوبى لمن رآني، وأنا حسرةٌ لمن لم يرني.

وقال الشيخ علي الفرنثي: قال سَيِّدُنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه: أُعطيت سِجِلًّا مَدّ البصر فيه أسماء أصحابي ومريديّ إلى يوم القيامة، وقيل لي: قد وُهِبوا لك.

وقال السَّادة المشايخ عبد الغني وموفق الدين ابن قدامة، وعبد الملك بن ديالى رحمة الله عليهم: سمعنا شيخَنا عبدَالقادر رحمهُ الله يقول ببغداد على الكرسي في شهور سنة إحدى وستين وخمس مئة، وقد سُئِلَ عن فَضْل من انتمى إليه: البيضة منا بألف، والفَرْخ ما يُقَوَّم.

وقال الشيخ أبو الحسن الجوسقي: حَضَرَ عند سيدنا الشيخ عبد القادر ـ سلام الله عليه ـ الشيخ علي بن الهيتي، والشيخ بقاء بن بطو، فقال سيدنا الشيخ عبد القادر: لي من كل طويلة فحل لا يقاوى، ولي في كل أرضٍ خيلٌ لا تسابق، ولي في كل جيش سلطان لا يخالف، ولي في كل منصب خليفةٌ لا يُعزل.

وقال المشايخ؛ أبو الفرج الدويرة، وعبد الكريم الأثري ويحيى بن يوسف الصرصري، وعلي بن محمد الشهراباني: كُنَّا عند الشيخ علي بن إدريس البعقوبي سنة عشر وست مئة، فجاء الشيخ عمر اليزيدي، فقال له الشيخ علي بن إدريس: اقصص عليهم رُؤْياك. فقال: رأيتُ في النَّوم القيامة قد قامت، والأنبياء وأممهم قادمين الموقف، ويتبع بعضَ الأنبياء الرَّجلان والرَّجل الواحد، ثم أقبل رسولُ الله ﷺ يقدمه كالسَّيل وكاللَّيل، وفيهم المشايخ، ومع كلِّ شيخٍ أصحابُه متفاوتون عدداً وأنواراً وبهجة، وأقبلَ رجلٌ في عِداد المشايخ، ومعه خَلْقٌ كثير يفضلون غيرهم، فسألتُ عنهم، فقيل: هذا الشيخ عبد القادر وأصحابه. فتقدَّمتُ إليه، وقلتُ له: يا سَيِّدي، ما رأيت في المشايخ أبهى منك، ولا في أتباعهم أحسن من أتباعك، فأنشد: [من الطويل]

إذا كـان مِـنَّـا سـيِّـدٌ فـي عـشـيـرةٍ ... عَـلاهـا وإنْ ضـاق الـخِـنـاقُ حَـمَـاهـا
ومـا اخْـتُـبِـرَتْ إلّا وأصـبـحَ شَـيْـخَـهـا ... ومـا افْـتَـخَـرَتْ إلا وكـانَ فَـتـاهـا
ومـا ضُـرِبَـتْ بـالأَبْـرَقَـيْـنِ خـيـامُـنـا ... فـأصـبـح مـأوى الـطَّـارقـيـن سـواهـا(١)

قال: فاستيقظتُ وأنا أحفظهن، وكان الشيخ محمّد الخَيَّاط الواعظ حاضراً، فقال له الشيخ عليُّ بنُ إدريس: يا محمَّد، أَنْشِدْنا شيئاً في هذا المعنى على لسان الشيخ عبد القادر. فقال: [من الطويل]

هـنـيـئـاً لـصـحـبـي أنَّـنـي قـائِـدُ الـرَّكْـبِ ... أسيرُ بهـم قَصْداً إلى المَـنْزِلِ الرَّحْبِ
وأكـنُـفُـهُـمْ والـكُـلُّ فـي شُـغْـلِ أمـره ... وأُنـزلُـهُـمْ في حَضْرَةِ القُدْس من قُرْبي
ولـي مـعـهـدٌ كـلُّ الـطَّـوائِـفِ دونَـهُ ... ولي مَنْهَلٌ عَذْبُ المشارِبِ والشِّرْبِ
وأهـل الـصَّـفـا يسعـون خَـلْـفي وكـلُّـهُـمْ ... له هِمَّةٌ أمضى من الصَّارِمِ العَضْبِ

(١) الأبيات لأبي فراس الحمداني، وهي في «ديوانه»: ٢/ ٤٢٥ طبعة المعهد الفرنسي بدمشق، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

فقال له الشيخ علي: أحسنتَ أحسنتَ، ولقد صدقت.

وقال الشيخ عمر البزاز: سمعتُ سيِّدي الشَّيخ عبد القادر ﷺ يقول: عَثَرَ حسين الحلاج فلم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو كنتُ في زمنه لأخذتُ بيده، وأنا لكلِّ من عَثَر به مركوبه من أصحابي ومريديّ ومحبيّ إلى يوم القيامة آخذ بيده، يا هذا؛ فرسي مُسْرَج، ورمحي منصوب، وسيفي شاهر، وقوسي موتر، أحفظك لله، وأنتَ غافل!

ذكر شيء من أجوبته ﷺ:

سُئِلَ عن صفات الموارد الإلهية والطَّوارق الشَّيطانية، فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستدعاء، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نَمَطٍ واحد، ولا في وقتٍ مخصوص، والطَّارق الشَّيطاني بخلاف ذلك غالباً.

وسئل عن المحبة، فقال: هي تشويش في القلوب يقع في المحبوب، فتصير الدُّنيا عليه كحَلْقة خاتم أو مجمع مأتم، والحبُّ سُكْرٌ لا صحو معه، وذِكْرٌ لا محو معه، وقَلَقٌ لا سكون معه، وخلوص المحبوب بكلِّ وَجْه سِرًّا وعلانية بإيثار اضطرار لا بإيثار اختيار، وبإرادة خِلْقة لا بإرادة كُلْفة، والحبُّ العمى عن غير المحبوب غيرةً عليه، والعمى عن المحبوب هيبةً له، فهو عمى كلُّه، والمحبون سُكارى لا يصحون إلا بمشاهدة محبوبهم، مَرْضى لا يشفون إلا بملاحظة مطلوبهم، حيارى لا يأنسون إلا بمولاهم، ولا يلهجون بغير ذكره، ولا يجيبون غير داعيه، وفي هذا المعنى يقول مجنون ليلى: [من الطويل]

لقد لامني في حُبِّ ليلى أقاربي

الأبيات[1].

وسئل ﷺ عن التَّوحيد، فقال: هو إشارة سِرِّ الضَّمائر بإخفاء السَّرائر، عند ورود الحضرة، ومجاوزةُ القلب منتهى مقامات الأفكار، وارتفاعُه على أعلى درجات الوِصال، وتجلُّله أستارَ التَّعظيم، وتخطِّيه إلى التقرُّب بأقدام التجريد، وترقيه إلى التَّداني بسعي التفريد، مع تلاشي الكونين، وتعطُّل الملكين، وخَلْعِ النَّعلينِ، واقتباس النُّورين، وفناء العالمين تحت لمَعان أنوار بروق الكَشْف من غير ما عزيمة متقدِّمة.

---

(١) وعجزه: أبي وابنُ عميَّ وابن خالي وخاليا
وانظر الأبيات في «ديوانه»: ص٣٠٦-٣٠٧.

وسئل عن التَّجريد، فقال: هو تجريد السِّرِّ عن المدثر بثياب السكون عن طلب المحبوب، وتعريه في التنزيل بلباس الطمأنينة على مفارقة المحدود، والرُّجوع من الخلق إلى الحقِّ مُبيناً.

وسئل عن الهِمَّة، فقال: هي أن يتعزَّى بنفسه عن حُبِّ الدُّنيا، وبروحه عن التعلُّقِ بالعقبى، وبقلبه عن إرادةٍ مع إرادة المولى، وبتجرُّدِ سِرِّه عن الإشارة إلى الكون ولو بلمحةٍ أو طرفة.

وسئل عن الشَّوق، فقال: أحسنُ الأشواقِ ما كان عن مشاهدة، فهو لا يَفْتُرُ على اللِّقاء، ولا يَسْكُنُ على الرؤية، ولا يذهب على الدُّنو، ولا يزول على الأُنْس، بل كلما ازداد لقاءً ازداد تشوُّقاً، ولا يصحُّ الشَّوق حتى يتجرَّد من عِلَله، وهي موافقة روح، أو متابعة هِمَّة، أو حَظُّ نَفْس، فيكونُ شوقاً مجرَّداً عن الأسباب، فلا يدري السببَ الذي أوجب له ذلك الشوق، لأنه هو ذا يشاهده ويتشوق إلى المشاهدة مع المشاهدة.

وسئل عن التوكل، فقال: هو اشتغالُ السِّرِّ بالله عن غير الله، فينسى ما يتوكَّلُ عليه لأجله، ويستغني عما سواه، فيرتفع عن خشية الفَنَاء في التوكل، والتوكُّلُ استشراف السِّرِّ بملاحة عين المعرفة إلى خفي غيب المقدورات، واعتقاد حقيقة اليقين بمعاني مذاهب المعرفة أنها محتومة، لا يقدح فيها تناقض.

وسئل عن التَّوبة، فقال: التوبة نَظَرُ الحقِّ تعالى إلى عنايته السَّابقة القديمة لعبده، وإشارته بتلك العناية إلى قلب عبده، وتجريده إياه بالشَّفقة، مجتذباً إليه وقابضاً، فإذا كان ذلك كذلك انجذب القلب إليه عن كلِّ هِمَّةٍ فاسدة، وتابعته الروح، ووافقه العقل، وصحَّتِ التوبة، وصار الأمر كلُّه لله تعالى.

وسئل عن البكاء، فقال: ابك له، وابك منه، وابك عليه.

وسئل عن الدُّنيا، فقال: أَخرِجْها من قَلْبك إلى يدك، فإنها لا تغرُّك.

وسئل عن التَّصوف، فقال: الصُّوفي من جَعَل ضالَّته مراد الحقِّ منه، ورَفَضَ الدُّنيا فَخَدَمَتْه ووفَّتْه أقسامه، وحَصَلَ له في الدُّنيا قبل الآخرة مرامه، فعليه من ربه سلامه.

وسئل عن الفَرْق بين التعزُّز والتكبُّر، فقال: التعزُّز ما كان لله وفي الله، ويفيد ذُلَّ النَّفْس، وارتفاع الهِمَّة إلى الله عز وجل. والتَكبُّرُ ما كان للنَّفْس، وفي الهوى، ويفيد هيجان الطَّبع وقهقرة الإرادة عن الله عز وجل، والكِبْر الطَّبيعي أسهل من الكبر المكتسب.

وسئل عن الشُّكْر، فقال: حقيقةُ الشكر الاعترافُ بنعمة المُنْعم على وَجْه الخضوع، ومشاهدةُ المِنَّة وحفظُ الحُرْمة على وَجْه معرفة العجز عن الشكر، وينقسم أقساماً:

شكر باللِّسان: وهو الاعتراف بالنعمة بنعت الاستكانة.

وشكر بالأركان: وهو الإنصاف بالخدمة، والوقار.

وشكر بالقلب: وهو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحُرمة، ثم التَّرقِّي بعد حضور هذه المشاهدة إلى الغيبة في رؤية المنعم عن رؤية النِّعمة. والشاكر الذي يشكر على الموجود، والشَّكور الذي يشكر على المفقود. والحامد الذي يشهد مع المنع عطاء، والضُّرّ نفعاً، ثم يستوي عنده الوصفان، والحمد الذي يستنفد المحامد شهود الكمال بوصف الجمال، ونعت الجلال بعين المعرفة على بساط القُرْب.

وسئل عن الصبر، فقال: هو الوقوف مع البلاء بحُسْنِ الأدب، والثَّبات مع الله عَزَّ وجل، وتلقي أمر أقضيته بالرُّحب والسَّعَة على أحكام الكتاب والسُّنَّة، وينقسم أقساماً: صبر لله، وهو الثَّبات على أداء أمره، وانتهاء نهيه. وصبر مع الله: وهو السُّكون تحت جريان قضائه وفعله فيك، وإظهار الغِنى مع حلول الفقر من غير تعبيس. وصبر على الله: وهو الرُّكون إلى وَعْده في كلِّ شيء، والسير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن، وهِجْران الخَلْق في جَنْبِ الحقِّ شديد، والمسير من النَّفس إلى الله أشدّ، والصَّبر مع الله أشد، والفقيرُ الصَّابر أفضل من الغنيِّ الشَّاكر، والفقير الشَّاكر أفضل منهما، والفقير الصَّابر الشاكر أفضل منهم، وما خطب البلاء إلا مَنْ عرف المبتلي.

وسُئِلَ عن حُسن الخُلُق، فقال: هو أن [لا] يؤثر فيك جفاءُ الخَلْق بعد مطالعتك الحق(١)، واستصغار نفسك وما منها معرفةً بعيوبها، واستعظام الخلق وما منهم نظراً إلى ما أُودعوا من الحِكَم والإيمان، وهو أفضلُ مناقب العبد، وبه تظهر جواهر الرجال.

(١) في (ح): هو أن يؤثر فيك خفاء الحق، والمثبت من «الغنية»: ٢/ ١٩٢، وما بين حاصرتين منه.

وسئل عن الأخذ والرَّدِّ، فقال: الأخذ مع وجود الهوى من غير الأمر عنادٌ وشقاق، الأخذ مع عدم الهوى وفاق واتِّفاق ،وتركه رياءٌ ونفاق.

وسُئِلَ عن الفناء، فقال: هو أن يطالع الحقُّ تعالى سِرَّ وليِّه بأدنى تجليه، فيتلاشى الكون ويفنى الولي تحت تلك الإشارة، وفناؤه في ذلك الوقت بقاءٌ، لكنَّه يفنى تحت إشارة الباقي، فإنْ كانت إشارة الحق نفسه، فإنَّ تجليه بنفسه، فكأنَّه ينفيه عنه، ثم ينفيه به.

وسئل عن الوفاء، فقال: هو الرِّعاية لحقوق الله تعالى في الحرمات أن لا يطالعها بسِرٍّ ولا نَظَر، والمحافظة على حدود الله قولاً وفعلاً، والمسارعة إلى مرضاته بالكُلِّية سِرًّا وجَهْراً.

وسُئِلَ عن الرِّضا، فقال: هو ارتفاع التَّردُّد، والاكتفاء بما سَبَق في عِلْم الله عز وجل في أزله، والرِّضا أن لا يستشرف القَلْبُ إلى نزولِ قضاءٍ من الأقضية بعينه، فإذا نَزَلَ قضاءٌ، فلا يستشرف القلب إلى زواله.

وسئل ﷺ عن الخوف، فقال: الخوفُ على أنواعٍ: فالخوفُ للمُذْنبين، والرَّهبة للعابدين، والخَشْية للعالمين، والوَجْد للمحبين، والهيبة للعارفين، فخوفُ المُذنبين من العقوبات، وخوفُ العابدين من فوت ثواب العبادات، وخوفُ العالمين من الشكر الخفي للطَّاعات، وخوفُ المحبين فوت اللِّقاء، وخوف العارفين الهيبة والتَّعظيم، وهو أشد الخوف؛ لأنَّه لا يزول أبداً، وسائر هذه الأنواع تسكن إذا قوبلت بالرَّحمة واللُّطف.

وسُئِلَ عن الدُّعاء، فقال: هو على ثلاث درجات: تصريح، وتعريض، وإشارة، فالتَّصريح: ما يلفظ به، والتَّعريض: دعاء في دعاء مضمر، وقول في قول مستور، وإشارة في فعل مخفي، فمن التعريض قولُ النَّبي ﷺ: «لا تكِلْنا إلى أنفسنا طَرْفة عين»[1]، ومن الإشارة قولُ إبراهيمَ الخليل ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، يشير إلى الرؤية، والتَّصريح قول موسى عليه السَّلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(١) كذا قال، ولم أجده مرفوعاً في دواوين السنة المعتمدة.

وسُئِلَ عن المشاهدة، فقال: هي العمى عن الكونين بعين الفؤاد، ومطالعة الحقِّ بعين المعرفة على غير توهُّم استدراكٍ، ولا طَمَعٍ في تصوُّرٍ ولا تكييف، واطِّلاع القلوب بصفاء اليقين إلى ما أخبر الحق تعالى به من الغيوب.

وسُئِلَ رضي الله عنه عن معنى القُرْب، فقال: هو طَيُّ المسافاتِ بلطف المداناة.

وقيل بين يديه: ما أحسنَ المولَّهين، فقال: عقلاءُ الله تعالى أحسن، لأنَّ المولَّه سُلِبَ عقله بنظرة أو لحظةٍ، والعاقل تهبُّ عليه نسمات الله فلا تحرِّك من شعر لحيته طاقة تجمّل بها على تحامل النبوة[1].

وقال الشيخ عبد الرَّزَّاق: كان من أدعية والدي في مجالس وعظه: اللهمَّ، إنَّا نسألك إيماناً يصلح للعرض عليك، وإتقاناً نقف به في القيامة بين يديك، وعصمة تنقذنا بها من ورطات الذنوب، ورحمة تطهرنا بها من دَنَس العيوب، وعِلْماً نفقه به أوامرك ونواهيك، وفهماً نعلم به كيف نناجيك، واجعلنا في الدُّنيا والآخرة من أَهْل ولايتك، واملأ قلوبنا بنور معرفتك، وكَحِّلْ عيون عقولنا بإثمد هدايتك، واحرس أقدام أفكارنا من زوالق مواطئ الشبهات، وامنع طيور نفوسنا من الوقوع في شباك موبقات الشهوات، أعِنَّا في إقام الصَّلوات على تَرْك الشهوات، وامحُ سطور سيئاتنا من جرائد أعمالنا بأيدي الحسنات، كن لنا حيثُ ينقطع الرَّجاء منا إذا أعرض أهلُ الوجود بوجوههم عنا، حين نحصل في ظُلَم اللحود رهائن أفعالنا إلى اليوم المشهود، أَجِرْ عبدك الضَّعيف على ما ألف من العِصْمة من الزَّلل، ووَفِقْه والحاضرين لصالح القَوْل والعمل، وأَجْرِ على لسانه ما ينتفع به السَّامع، وتَذْرِفُ له المدامع، ويلين له القَلْبُ الخاشع، واغفرْ له وللحاضرين، ولجميع المسلمين.

وكان من أدعيته:

اللهم، إنَّا نعوذ بوصلك من صَدِّك، وبقربك من طَرْدك، وبقَبُولك من ردِّك، فاجعلنا من أهل طاعتك ووُدِّك، وأَهِّلنا لشكرك وحمدك.

---

(١) كذا، ولم تتجه لي العبارة.

وكان ربما خَتَمَ مجلسه بأن يقول: جَعَلَنا الله وإياكم ممن تَنَبَّه لخلاصه، وتنزَّه عن الدُّنيا، وتذكر يوم حشره، واقتفى آثار الصَّالحين، إنَّه وليُّ ذلك، والقادر عليه.

تسمية شيوخه:

اشتغل بالقرآن العظيم حتى أتقنه، وتفقه بأبي الوفاء علي بن عَقيل، وأبي الخَطَّاب محفوظ الكَلْواذاني، وأبي الحسن محمد بن القاضي أبي العلاء، وأبي سَعْد المبارك بن علي المُخَرِّمي مَذْهباً وخلافاً وفروعاً وأصولاً، وقرأ الأدب على أبي زكريا يحيى بن علي التِّبْريزي، وسَمِعَ الحديث من جماعةٍ، منهم: أبو غالب محمَّد بن الحسن الباقِلَّاني، وأبو سَعْد محمَّد بن عبد الكريم بن خُشَيْش، وأبو الغنائم محمَّد بن علي بن ميمون النَّرْسي، وأبو بكر أحمد بن المُظفَّر، وأبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسن القارئ السَّرَّاج، وأبو القاسم علي بن أحمد بن بيان الكَرْخي، وأبو عثمان إسماعيل بن محمَّد، وأبو طالب عبد القادر بن محمَّد بن يوسف، وابن عمه عبد الرَّحمن بن أحمد، وأبو البركات هبة الله بن المبارك، وأبو العِزّ محمد بن المختار، وأبو نَصْر محمَّد، وأبو غالب أحمد، وأبو عبد الله يحيى أولاد الإمام أبي علي بن البَنَّاء، وأبو الحسين المبارك ابن الطُّيوري، وأبو منصور عبد الرَّحمن القَزَّاز، وأبو البركات طلحة العاقولي، وغيرهم.

وصَحِبَ الشيخ أبا الخير حَمَّاد الدَّبَّاس(١)، وأخذ عنه عِلْم الطَّريقة، وتأدَّب به، وأخذ الخِرْقة الشَّريفة من أبي سَعْد المبارك المخرِّمي، ولقي جماعةً من أعيان زُهَّاد الزمان، وأضيف إلى مدرسة المخرِّمي مما حولها من المنازل والأمكنة ما يزيد على مثليها، وبذل الأغنياءُ في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء بأنفسهم، فتكملت المدرسة المنسوبة إليه الآن، وكان الفراغ منها في سنة ثمانٍ وعشرين وخمس مئة، وتصدَّر بها للتدريس والفتوى، وجَلَسَ بها للوعظ، وقُصِدَت بالزِّيارات والنُّذور، واجتمع عنده بها من العلماء والفقهاء والصُّلحاء جماعة من الآفاق، فحملوا عنه وسمعوا عنه، وانتهت إليه تربية المريدين بالعراق، وتتلمذ له خلق كثير، فممن انتمى إليه من المشايخ وأخذ عنه شيئاً من العلوم الشيخ الإمام القُدْوة أبو عمرو عمار بن مرزوق بن حميد بن سلام القُرَشي، نزيل مِصْر.

(١) في ترجمته في «السير» ١٩/ ٥٩٤ : «أبو عبد الله».

قال الشيخ عبد الرَّزَّاق: لما حَجَّ والدي ـ رحمه الله ـ في السنة التي كنتُ فيها معه، اجتمع به في عرفات الشيخان: عمَّار بن مرزوق، وأبو مَدْين، ولبسا منه خرقة بركة، وسمعا عليه جزءاً من مروياته، وجلسا بين يديه.

وقال الشيخ سَعْد بن عمار بن مرزوق: كان أبي ـ رحمه الله ـ يقول: قال شيخُنا عبد القادر كذا وكذا، رأيتُ سَيِّدَنا الشيخ عبد القادر يفعل كذا وكذا، سمعتُ أستاذنا الشيخ عبد القادر يقول كذا، وكان إمامنا وقُدْوتنا الشيخ عبد القادر يفعل كذا.

والقاضي أبو يعلى محمد ابن الفَرَّاء.

قال عبد العزيز بن الأخضر: سمعتُ القاضي أبا يعلى ابن الفَرَّاء يقول: جالستُ الشيخ عبد القادر كثيراً، وقلتُ بإرادته.

والشيخ الفقيه أبو الفَتْح نَصْر بن فِتْيان بن مطر بن المَنِّي، والشيخ أبو محمَّد محمود ابن عثمان النَّعَّال، والإمام أبو حفص عمر بن أبي نَصْر بن علي الغَزَّالي، والشيخ أبو محمَّد الحسن الفارسي، والشيخ عبد الله بن أحمد بن الخَشَّاب، والحافظ أبو العِزّ عبد المغيث بن زهير بن علوي الحَرْبي، والإمام أبو عمر عثمان بن إسماعيل الملقب بشافعي زمانه، والشيخ محمد الكِيزاني، والشيخ الفقيه رسلان بن عبد الله بن شعبان، والشيخ أبو السعود أحمد بن أبي بكر الحَرِيمي العَطَّار، والشيخ محمّد بن قائد الأَوَاني، وعبد الله بن سنان الرُّدَيني، والحسن بن عبد الله بن رافع الأنصاري، وطلحة بن مُظَفَّر بن غانم العَلْثي، وأحمد بن أسعد بن وهب بن علي الهَرَوِي، ومحمَّد ابن الأزهر الصَّريفيني، و[أحمد بن][1] يحيى بن بركة بن محفوظ الدَّبيقي، وعلي بن أحمد بن وهب الأَزَجي، وقاضي القضاة عليّ، وأخوه الحسن ابنا أحمد ابن الدَّامَغَاني، وقاضي القضاة عبد الملك بن علي بن دِرْباس الماراني، وأخوه عثمان، وولده عبد الرَّحمن، وإبراهيم بن مُزَيْبل بن نَصْر المخزومي الضَّرير، وولده عبدالله، ومحمَّد بن رسلان الشَّافعي، وولده عبدالرحمن، وعبد الله بن نَصْر بن حمزة البكري، وعبد الجبَّار بن أبي الفَضْل القَفْصي، وعلي ابن طاهر الأَنصاري، وعبد الغني بن عبد

(١) مابين حاصرتين من «معجم البلدان»: ٢/ ٤٣٨ .

الواحد المقدسي الحافظ، وأبو عمر محمَّد بن أحمد ابن قدامة المقدسي، وإبراهيم بن عبد الواحد المقدسي، وعبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الإمام موفق الدِّين، رحمه الله.

قال الشيخ شمس الدِّين رحمه الله: سمعتُ الشيخ موفق الدين رحمه الله يقول: لبست أنا والحافظ عبد الغني الخِرْقة من يد شيخ الإسلام عبد القادر في وقتٍ واحد، واشتغلنا عليه بالفِقْه، وسمعنا منه، وانتفعنا بصحبته، ولم ندرك من حياته غير خمسين ليلة.

[وأبو][1] محمَّد بن أبي الحسن الجُبَّائي، وخلف بن عَيَّاش المِصْري، وعبد المنعم بن علي الحَرَّاني، وإبراهيم الحداد التيمي، وعبد الله الأسدي اليمني، وعطيف بن زياد اليمني، وعمر بن أحمد اليَمَني، ومدافع بن أحمد وإبراهيم بن بشارة العدني، وعمر بن مسعود البَزَّاز، وأسباه مير بن محمّد الجيلاني، وعبد الله البطائحي نزيل بَعْلَبَكّ، ومكي بن أبي عثمان السَّعْدي وولداه عبد الرَّحمن وصالح، وعبد الله بن الحسين العُكْبَرِي، وأبو القاسم بن أبي بكر بن أحمد، وأخوه أحمد، وعتيق، وعبد العزيز بن أبي نَصْر الجُنَابَذي، ومحمّد بن أبي المكارم الحجة البعقوبي، وعبد الملك بن ديالى، وولداه أبو الفرج وأبو أحمد، وعبد الرَّحمن بن نجم الخَزْرجي، ويحيى التكريتي، وهلال بن أُميَّة العَدَني، ويوسف بن المُظَفَّر - يعرف بالعاقول - وأحمد بن إسماعيل بن حمزة، وعبد الله بن أحمد المنصوري، ومحمّد بن شهرويه الصّريفيني، وعثمان الياسري، ومحمّد الواعظ الخَيَّاط، وتاج الدِّين بن بطة، وعمر المدائني، وعبد الرَّحمن بن بقاء، ومحمّد بن النَّحال، وعبد العزيز بن دُلَف، وعبد الكريم بن محمّد المِصْري، وعبد الله بن محمَّد بن الوليد، وعبد المحسن بن الدَّوَيْرة، ومحمد بن أبي الحسين، ومحمَّد بن عبد الصَّمد الصُّوفي نزيل مِصْر، ودُلَف الحَرِيمي، ومحمد بن أحمد المؤدِّب، ويوسف بن هبة الله الدِّمَشْقي، وعبد الباقي ابن عبد الجبار الهَرَوِي، وأحمد بن الدَّبيقي البابَصْري، وعبد الرَّحمن بن محمَّد الهاشمي، وأحمد بن مطيع، وعلي بن النَّفيس المأموني، ومحمد بن الليث الضَّرير، والشريف أحمد ابن مسعود، وعلي بن أبي بكر بن إدريس، ومحمد بن نَصْر، وعبد اللطيف بن محمد

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا.

الحَرَّاني وغيرهم، ممن يطول هذا المختصر بذكرهم، وإنما سمينا أعيان من بَلَغنا من أصحابه.

ذكر أولاده، ﷺ:

كان له عِدَّة أولاد ذكوراً وإناثاً، فمن أعيانهم الشيخ عبد الوهَّاب، تفقَّه على والده، وسمع منه، ومن أبي غالب ابن البَنَّاء وغيرهما، ورحل إلى بلاد العَجَم في طلب العِلْم، ودرَّس بعد والده بمدرسته، وحدَّث ووعظ وأفتى، وتخرَّج به جماعة، منهم: الشِّريف الحسيني البغدادي، وأحمد بن عبد الواسع بن أميركاه، وغيرهما، وتوفي ببغداد ليلة الخامس وعشرين من شوَّال سنةَ ثلاثٍ وتسعين وخمس مئة، ودفن من الغد بمقبرة الحَلْبة، ومولده في شعبان سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة، رحمه الله.

والشيخ عيسى، تفقَّه على والده، وسمع منه، ومن أبي الحسن محمَّد بن صَرْما وغيرهما، ودرَّس، وحدَّث، ووعظ، وأفتى، وصنَّف، ومن مصنَّفاته كتاب «جواهر الأسرار ولطائف الأنوار» في علوم الصُّوفية، وقَدِمَ مصر، وحدَّث بها، ووعظ، وتخرَّج به من أهلها غيرُ واحد، منهم: أبو نزار ربيعة بن الحسن الحَضْرمي الصَّنعاني، ومسافر بن يعمر المِصْري، وأحمد بن مَيْسرة، وحامد بن أحمد المِصْري الأَرْتاحي، ومحمّد بن حمد الفقيه المحدِّث، وعبد الخالق بن صالح القُرَشي الأموي المِصْري، وغيرهم.

والشيخ أبو بكر عبد العزيز، تفقَّه على والده، وسمع منه، ومن أبي منصور عبد الرَّحمن بن محمد القَزَّاز، وغيرهما، وحدَّث ووعظ، ودرَّس، وتخرَّج به غيرُ واحد، وكان بَهِيًّا متواضعاً، رحل إلى الحيال؛ قرية من قُرى سِنْجار، واستوطنها، رحمه الله.

والشيخ عبد الجبار، تفقَّه على والده، وسمع منه، ومن أبي منصور القَزَّاز، وغيرهما.

والشيخ عبد الرَّزَّاق، تفقَّه على والده، وسَمِعَ منه، ومن أبي الحسن بن صَرْما وغيرهما، وحدَّث وأملى، وخرَّجَ، ودرَّس، وأفتى، وناظر، وتخرَّج به غيرُ واحد، منهم: إسحاق بن أحمد بن غانم العَلْثي، وعليّ بن علي خطيب رُؤْيا وغيرهما، وحُدِّث عنه أنه مَكَثَ ثلاثين سنة لا يرفع رأسه إلى السَّماء حياءً من ربه عزَّ وجل. وتوفي ببغداد

في السادس من شَوَّال سنة [ثلاث وست مئة، ومولده سنة][١] ثمانٍ وعشرين وخمس مئة، رحمه الله.

والشيخ إبراهيم، تفقَّه على والده، وسمع منه، ومن سعيد بن البَنَّاء وغيرهما، ورحل إلى واسط، وتوفي بها سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة.

والشيخ محمّد، تفقَّه على والده، وسمع منه، ومن ابن البَنَّاء، وأبي الوقت، وغيرهم، وحدَّث، وتوفي ببغداد في الخامس والعشرين من ذي القَعْدة سنةَ ست مئة، ودُفِنَ من يومه بمقبرة الحَلْبة، رحمه الله.

والشيخ عبد الله، سمع من أبيه، ومن ابن البَنَّاء، وتوفي ببغداد في السَّابع والعشرين من صفر سنةَ سبعٍ وثمانين وخمس مئة، ومولده سنة ثمانٍ وخمس مئة، وهو أسنُّ أولاد سيدنا الشيخ محيي الدِّين، رحمة الله عليه.

والشيخ يحيى، تفقَّه على والده، وسمع منه، ومن محمد بن عبد الباقي وغيرهما، وحدَّث، وانتفع به النَّاس، وقَدِمَ مِصْر، وتوفي ببغداد في ليلة النِّصف من شعبان سنة ستّ مئة، ودُفِن عند أخيه عبد الوهَّاب، ومولده في سادس ربيع الأول سنة خمسين وخمس مئة، رحمه الله.

والشيخ موسى، تفقَّه على والده، وسَمِعَ منه، ومن ابن البَنَّاء وغيرهما، وحدَّث بدمشق وعمَّر، وانتفع به النَّاس، ودخل مِصْر، واستوطن دمشق، وتوفي بها بالعقيبة في ليلة مستهل جُمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وست مئة، ودفن بسفح جبل قاسيون، ومولده سَلْخ ربيع الأول سنة تسعٍ وثلاثين وخمس مئة، ويقال: سنة سبع وثلاثين وخمس مئة، وهو آخر مَنْ مات من أولاده رضي الله عنهم.

والشيخ عفيف بن المبارك سِبْطه، تفقَّه على جَدِّه، وسمع منه، ومن أبي زُرْعة.

وعبد السَّلام بن الشيخ عبد الوهَّاب، تفقَّه على جَدِّه وأبيه، ودرَّس وأفتى، وتولى عِدَّة ولايات، ومولده ثامن ذي الحِجَّة سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة، وتوفي ببغداد

(١) مابين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

في ثالث رجب سنة إحدى عشرة وست مئة، ودُفِنَ من يومه في مقبرة الحَلْبة، وسيأتي ذكره إنْ شاء الله تعالى.

وسليمان بن عبد الوهَّاب: سمع من غير واحد، وحدَّث.

وداود بن عبد الوهَّاب، تفقه وسَمِعَ وحدَّث، وتوفي ببغداد في ثامن عشر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وست مئة، ودُفِنَ من الغد بمقبرة الحَلْبة عند أبيه وجَدِّه، رحمه الله.

ونصر بن الشيخ عبد الرَّزَّاق، تفقَّه على والده وغيره، وسمع منه، ومن والده، ومن عمه عبد الوهَّاب، ومن أبي هاشم الدُّوْشابي وغيرهم، ودرَّس وحدَّث، وأملى، ووعظ، وأفتى وناظر، وتولى قضاء القضاة بمدينة السَّلام، وتخرَّج به في عِلْمي الشَّريعة والحقيقة غيرُ واحد، وتوفي ببغداد في السَّادس عشر من شَوَّال سنة ثلاثٍ وثلاثين وستّ مئة، ودفن بباب حَرْب، ومولده الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مئة. وأُمه أَمَةُ الكريم تاج النِّساء بنت فضائل بن علي التَّكْريتي، سمعت وحدَّثت، وكان لها حظٌّ وافر من الخير والصَّلاح، وتوفيت ببغداد في الثَّاني عشر من شهر رجب سنة ثلاث عشرة وست مئة، ودُفنت بباب حَرْب.

وعبدُ الرَّحيم بن الشيخ عبد الرَّزاق، سمع من محمّد بن عبد الباقي، وشُهْدة بنت الإِبَرِي، وخديجة بنت أحمد النَّهرواني وغيرهم، وحدَّث، وتوفي ببغداد في سابع ربيع الأول سنة ستٍّ وست مئة، ودُفِنَ من يومه بباب حرْب.

وإسماعيل بن عبد الرَّزَّاق، سمع من غير واحد، وتفقَّه، وحدَّث، وتوفي ببغداد في ثالث عشر المحرَّم سنة ست مئة، ودُفِنَ بمقبرة الإمام أحمد، رحمة الله عليه.

وأبو المحاسن بن عبد الرَّزَّاق، تفقَّه على والده، وغيره، وسمع منه، ومن عمِّه عبد الوهَّاب وأبي الفَتْح، وغيرهم. وتوفي شهيداً بأيدي التَّتر ببغداد في صفر سنة ست وخمسين وست مئة، ومولده سنة أربع وسبعين وخمس مئة ببغداد، رحمه الله.

والشيخة سعادة بنت عبد الرَّزَّاق، سمعت من عبد الحق، وغيره، وتوفيت ببغداد في سابع عشر جُمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وست مئة، وصَلَّى عليها أبو صالح.

والشيخة عائشة بنت عبد الرَّزَّاق، سَمِعَتْ من عبد الحقِّ وغيره، وحدَّثت، وكانت خَيِّرة، زاهدة، عابدة، صالحة، توفيت ببغداد في ثالث عشر ربيع الأَوَّل سنة ثمانٍ وعشرين وست مئة، ودُفِنَتْ من الغد بباب حَرْب.

ومحمَّد بن عبد العزيز، سمع من غير واحد، وكانت الحيال داره وتُرْبَتَه، وأُخته زهراء زاهدة، سَمِعَتْ وحدَّثَتْ، وتوفيت ببغداد في السَّابع من جُمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين وست مئة.

والشيخ محمّد بن نَصْر بن عبد الرَّزَّاق، تفقَّه على والده، وسمع منه ومن غيره، وكان يُشْبه جدَّ أبيه سيدنا شيخ الإسلام محيي الدِّين رحمة الله عليه، وتوفي ببغداد سنة ستٍّ وخمسين وست مئة.

والشيخ يحيى بن نَصْر بن عبد الرزاق، تفقَّه على والده وغيره، وسمع من والده، ومن غيره، وحدَّث ووعظ، وله كلامٌ حسن على لسان أهل الحقيقة، وشِعْرٌ بديع، سُئِلَ عن المتمكِّن، فأنشد لنفسه: [من البسيط]

يسقي ويشربُ لا تلهيه سَكْرَتُهُ عن النَّديمِ ولا يلهو عن الكاسِ
أطاعه سُكْرُهُ حتى تحكَّمَ في حالِ الصُّحاةِ وذا من أَعْجَبِ النَّاسِ

ثم تلعَّب فيهما بالعبارة، فقال: [من الوافر]

ويَشْرَب ثُمَّ يسقيها النَّدامى ولا يُلْهيه كأسٌ عن نديمِ
له مع سُكْره تأييدُ صاحٍ ونشوةُ شارِبٍ وندى كريمِ

والشيخ محمّد بن علي البغدادي التَّوحيدي، سِبْط عبد الرَّزَّاق، تفقَّه على خاله نصر، وتخرَّج به، وسمع منه، ومن عليِّ بن أبي بكر البعقوبي، وعمر السُّهْرَوَرْدِي، واسحاق العَلْثي، وهبة الله المنصوري الخطيب وغيرهم، توفي ببغداد على أيدي التَّتر شهيداً في صفر سنة ستٍّ وخمسين وستّ مئة، ولقد كان منهم بمصر غير واحد وبغيرها من البلاد، رحمهم الله أجمعين.

ذكر ثناء المشايخ على سيدنا الشيخ محيي الدِّين رضي الله عنه، وتعظيمهم له وتأدُّبهم معه، وذكرهم لشيء من طريقه، وتنبههم على عِظَم مَحَلِّه وعلوِّ قَدْره.

قال أبو الفتح الهروي: سمعتُ الشيخ علي بن الهِيْتي يقول: لا مريدين بشيخهم أسعد من مريدي الشيخ عبد القادر، سلام الله عليه.

قال: وسمعتُ الشيخ أبا سعد القيلويي يقول: ما رَجَعَ سيدنا الشيخ عبد القادر إلى العالم إلَّا على أن من تمسَّك بذيله نجا.

وقال بقاء بن بطو: رأيتُ أصحابَ سيدي الشيخ عبد القادر كلَّهم غُرًّا في جحفل السعداء.

وقال الشيخ عدي بن أبي البركات: سمعتُ عمي الشيخ عدي بن مسافر سنة أربعٍ وخمسين وخمس مئة بزاويته بالجبل يقول: مَنْ سألني من أصحاب المشايخ أن أُلبسه خرقةً فعلتُ له ذلك، إلا أصحابَ الشيخ عبد القادر، فإنهم منغمسون في الرحمة، وهل يترك أحدٌ البحر ويأتي إلى السَّاقية!

وقال الشيخ علي بن إدريس البعقوبي: سُئِلَ الشيخ علي بن الهيتي وأنا أسمع عن طريق سيِّدنا الشيخ عبد القادر، رضي الله عنه، فقال: كان قدمه التَّفويض والموافقة مع التَّبرِّي من الحَوْل والقُوة، وطريقه تجريدُ التَّوحيد، وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية بسر قائم في مقام العِنْدية لا بشيء ولا لشيء، وكانت عبوديته مستمدَّة من لحظ كمال الرُّبوبية، فهو عبدٌ سما عن مصاحبة التفرقة إلى مطالعة الجمع مع أحكام الشَّرع.

وقال الشيخ عدي بن أبي البركات: قيل لعمِّي الشيخ عَدِي بن مسافر، وأنا أسمع: ما طريقُ الشيخ عبد القادر؟ فقال: الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والرُّوح، واتِّحاد الباطن والظَّاهر، وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النَّفع والضّر، والقُرْب والبُعْد.

وقال الخليل بن أحمد الصَّرْصَرِي: سمعتُ الشيخ بقاء بن بطو يقول: طريقُ سيِّدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه اتحاد القول والفعل، واتحاد النفس والوقت، ومعانقة الإخلاص والتَّسليم، وموافقة الكِتاب والسُّنَّة في كل خطرة ولحظة، ونفس ووارد وحال، والثبوت مع الله عزَّ وجل.

وقال الشيخ أبو سعد القيلويي: قوة سيدنا الشيخ عبد القادر مع الله وفي الله وبالله، ضَعُفَتْ عندها قُوى الصَّناديد، ولقد سبق كثيراً من المتقدِّمين بتمسكه بعروة من طريقة لا انفصامَ لها، ولقد رفعه الله إلى مقام عزيز بتدقيقه في تحقيقه.

وقال الشيخ عبد الرَّحمن الرِّفاعي: قَدِمْتُ بغداد، وحضرتُ الشيخ عبد القادر ـ سلام الله عليه ـ فرأيتُ من حاله وفراغ قلبه وخلوِّ سِرِّه ما أذهلني، فلما رجعتُ إلى أُم عبيدة[١] أخبرت خالي الشيخ أحمد عنه بذلك، فقال: يا ولدي، ومن يُطيق مثل قوة الشيخ عبد القادر وما هو عليه، وما وصل إليه.

وقال أبو محمَّد الحسن: سمعتُ الشيخ علي الفرنثي يقول لرجلٍ: لو رأيتَ الشيخ عبد القادر لرأيتَ رجلاً فاقت قوتُه في طريقه إلى ربه قوى أهل الطَّرائق شِدَّة ولزوماً، كانت طريقه التَّوحيد وصفاً وحُكْماً وحالاً، وتحقيقه الشَّرْع ظاهراً وباطناً، ووصفه: قلبٌ فارغ، وكونٌ غائب، ومشاهدة ربٍّ حاضر، بسريرة لا تتجاذبها الشكوك، وسِرٌّ لا تتنازعه الأغيار، وقلبٍ لا تفرقه البقايا، جعل الملكوت الأكبر من ورائه، والمُلْك الأعظم تحت قدمه، رضي الله عنه.

وقال الشيخ أبو محمّد الشَّنْبكي: سمعتُ شيخنا أبا بكر بن هوار يقول: أوتاد العراق ثمانية: معروف الكَرْخي، والإمام أحمد ابن حنبل، وبِشْر الحافي، ومنصور بن عَمَّار، والجُنَيْد، والسَّرِي، وسَهْل بن عبد الله التُّستري، وعبد القادر الجِيْلي. فقلتُ له: ومن عبد القادر؟ قال: عجميٌّ شريف، يسكن بغداد، يكون ظهوره في القرن الخامس، وهو أحدُ الصِّدِّيقين الأوتاد، الأفراد، أعيان الدُّنيا، أقطاب الزَّمان.

وقال الشيخ أبو محمد الشَّنْبكي: كان شيخنا أبو بكر بن هوار يذكر الشيخ عبد القادر الذي يتوق يظهر بالعراق في وسط القرن الخامس، وينص على فضْله، وما كان علمي به يتجاوز مسمعي، ثم كوشفت بمقامات الأولياء، فإذا هو في صدورهم، وكوشفت بمقامات العلماء، فإذا هو في صدورهم، وكوشفت بمقامات الأقطاب، فإذا هو في صدورهم، وكوشفت بمراتب المقرَّبين، فإذا هو من أعلاهم، وكوشفت بأطوار

(١) أم عبيدة: أرض بالبطائح، وانظر «طبقات الشعراني»: ١/ ١٢١.

المكاشفين، فإذا هو من أجلِّهم، وسيظهره الله مظهراً لا يظهر فيه إلا الصِّدِّيقون المُؤَيَّدون العلماء بالله تعالى، وهو ممن يُقْتدى بأفعاله وأقواله، وسوف يرفع الله ببركته خَلْقاً من العباد إلى الدَّرجات العُلى، وهو ممن يباهي الله به الأمم يوم القيامة.

قلتُ: وكان الشيخ أبو بكر بن هوار ـ رحمة الله عليه ـ عظيمَ القَدْر، كبيرَ الشَّأْن وإليه ينتمي أكثر أعيان مشايخ العراق، وتتلمذ له خَلْق كثير لا يحصون من أرباب المقامات الرَّفيعة، وكان جميلَ الصِّفات، شريف الأخلاق، كامل الآداب، كثيرَ التَّواضع، شديدَ الاقتفاء لأحكام الشَّرْع، مكرِّماً لأهل السُّنَّة والدِّين، دائم المجاهدة، لازم المراقبة إلى الرَّبِّ، وله كلامٌ عالٍ في علوم المعارف.

قال الشيخ أبو محمَّد الشَّنْبكي: كان شيخنا أبو بكر بن هوار شاطراً، يقطع الطَّريق بالبطائح، ومعه رفقاء هو مقدَّمهم، فسمع ليلةً امرأةً تقول لزوجها: انزل ها هنا لئلا يأخذنا ابن هوار وأصحابه. فاتعظ وبكى، وقال: الناس يخافوني وأنا لا أخاف الله تعالى. وتاب في وقته ذاك، وتاب معه أصحابه، وانقطع مكانه متوجِّهاً إلى ربِّه على قدم الصِّدق والإخلاص في إرادته، ووقع في نفسه أن يُسَلِّم نفسه إلى من يُوصله إلى رَبِّه عزَّ وجل، ولم يكن يومئذٍ بالعراق شيخٌ مشهور، فرأى في منامه رسولَ الله ﷺ، وأبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فقال: يا رسولَ الله، ألبسني خِرْقة، فقال له: يا ابن هوار، أنا نبيُّك وهذا شيخك، وأشار إلى الصِّدِّيق رضوان الله عليه، ثم قال: يا أبا بكر، ألبس سَمِيَّك ابن هوار. فألبسه الصِّدِّيق رضي الله عنه ثوباً وطاقية، ومَرَّ بيده على رأسه، ومسح على ناصيته وقال: بارك الله فيك، وقال له رسولُ الله ﷺ: يا أبا بكر، بك تحيا سنن أهل الطريق من أمتي بالعراق بعد موتها، ويقوم منار أربابِ الحقائق من أحباب الله تعالى، وفيك تكون المشيخة بالعراق إلى يوم القيامة، وقد هَبَّت نسمات الله بظهورك. ثم استيقظ، فوجد الثوب والطَّاقية عليه، وكانت على رأسه ثواليل، فلم يَرَها، وكأنَّه نودي في العراق أن ابنَ هوار وصل إلى الله عز وجل، فأهرع إليه الخلق من كل قطر، وبَدَتْ علامات قُرْبه من الله تعالى، وترادف إخباره عن ربه عز وجل، وكنت آتيه وهو في البطيحة وحده، والأُسْد مُحْدقةٌ به، يتمرَّغ بعضُها على قدميه.

وقال الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي: سمعت خالي الشيخ منصور يقول: أول من ذلَّل الأُسد والحيَّات لأهل البطائح الشيخ أبو بكر بن هوار، وسبب ذلك أنه أراد أن يرحل إلى مكة، فأحدقت به الأفاعي والحَيَّات والكواسر من الطُّيور والجن، وسأَلَتْه بالله العظيم أن لا يرحل عنهم، فأخذ عليهم أن لا يؤذوا مريداً له ولا محباً إلى يوم القيامة.

وقال الشيخ عزاز بن مستودع: الشيخ أبو بكر بن هوار أول المشايخ بالعراق بعد مضي السَّلف، وكانت الأنوار تُرى تخترق البطائح من كَثْرة ما يَطْرُقها رجالُ الغيب لزيارته، وكان مجابَ الدَّعوة، وكان ظاهر التَّصريف، إذا أجدبت قريةٌ أتاه أهلُها يشتكون إليه الجَدْب، ويسألونه الاستسقاء، فيقول لهم: أدركوا أهلكم. فما يلحقون بيوتهم حتى يخوضوا في ماء المطر، ولا يعدو المطر تلك القرية.

وزُلزلت واسط مرة زلزالاً شديداً رجَّت منه الجبال، وتساقط البُنْيان، وضجَّ النَّاس بالصُّراخ، فإذا الشيخ أبو بكر بينهم، وبينه وبين واسط أيام، فسكن الزَّلْزال، وطلبوه فلم يروه. وكان بواسط يومئذٍ رجلٌ صالح، فرأى في منامه تلك الليلة مَلَكين نازلَيْن من السَّماء أحدهما يقول للآخر: كادت هذه الأرض أن تذهب اليوم. فقال له صاحبه: وما أمسكها؟ قال: إنَّ الله تعالى نَظَر إلى ابن هوار، فرحم الخَلْق، وأَذِنَ في تسكين الزَّلْزال.

وقال الشيخ أحمد بنُ أبي الحسن الرِّفاعي: أتتِ امرأةٌ إلى الشيخ أبي بكر بن هوار، وقالت له: إنَّ ابني غرق في الشَّطِّ، وليس لي سواه، وأنا أُقسم بالله عزَّ وجل أنَّ الله أقدرك على رَدِّه عليَّ، فإن لم تفعل شكوتك غداً إلى الله ورسوله، وأقول: يا ربِّ، أتيته ملهوفة، وكان قادراً على رَدِّ لهفتي، فلم يفعل. فأَطْرق، ثم قال: أرني أين غَرِقَ ابنُك. فأتت به إلى الشَّطِّ، فإذا ابنها قد طفا على وَجْه الماء ميتاً، فسبح الشيخ في الماء حتى وصل إليه، وحمله على عاتقه، وأعطاه لأمه، وقال: خُذيه، فقد وجدته حيًّا، فانصرفت وهو يمشي معها، ويدُه في يدها، كأَنْ لم يكن به شيء قَطُّ.

قلتُ: وكان الشيخ أبو محمَّد الشَّنْبكي جليلَ القَدْر، انتهت إليه الرياسة في تربية السَّالكين الصَّادقين بالعراق، وكَشْف مشكلاتهم، وتخرَّج بصحبته غيرُ واحد من العظماء مثل الشيخ أبي الوفاء، والشيخ منصور، والشيخ عزاز وغيرهم، وكان لطيف الصِّفات، وافر العقل، مخفوض الجناح، شديد الحياء، دائباً في اتِّباع أحكام الشَّرْع

وآداب السنة، وله كلامٌ نفيس في الحقائق، وكان يقطع الطَّريق، ثُمَّ تاب على يد ابن هوار، وأقام عنده ثلاثة أيام، فقال ابنُ هوار في اليوم الرَّابع: قد صرتَ شيخاً مكمَّلاً، ثم قال لأصحابه: قد وصل أبو محمَّد إلى الله تعالى في ثلاثة أيام، فقال: تركتُ الدُّنيا في اليوم الأول، والآخرة في اليوم الثَّاني، وطلبتُ الله في اليوم الثالث طلباً مجرَّداً عما سواه، فوجدته.

واشتهر أمره في الآفاق، فظهرت أمارات قُرْبه من الله سبحانه وتعالى، وتتابعت كراماته، فكان يبرئ اللهُ تعالى بدعوته الأكمه والأبرص والمجنون، ويبارك له في اليسير.

قلت: إنما قصدتُ بذكر بعضِ مناقب ابن هوار والشَّنْبكي ـ رحمة الله عليهما ـ ليُعلم محلّهما، ويتمسك بقولهما في حَقِّ سيدنا محيي الدِّين ﷺ حسبما تقتضيه شهادةُ مثلهما، وإنْ كان ليس هذا موضع استقفاء أحوالهما.

وقال الشيخ عبد اللَّطيف: سمعتُ أبي يقول: سمعت الشيخ عزاز بن مستودع البطائحي، يقول: قد دخل بغداد شابٌّ عجمي شريف، اسمه عبد القادر، ستبرز في هيئته المقامات، وتظهر في جلاله الكرامات، ويسطو بعِزَّة الحال، ويعلو في رفعة المحبة، ويُسَلِّم إليه الكون وجميع من فيه من الفاضل والمفضول يده، وله قدمٌ راسخة في التمكين، تقدم بها في القدر، ويد بيضاء في الحقائق امتاز بها في الأزل، ولسان بين يدي الله عزَّ وجل في حضرة القُدْس، وإنه من أرباب المراتب التي فاتت كثيراً من الأولياء.

قلتُ: كان الشيخ عزاز من أعيان مشايخ العراق، اجتمع إليه جماعةٌ من الصُّلحاء وذوي المراتب، وأخذوا عنه علم الطَّريقة، وانتفعوا به، وكان جميلَ الأوصاف، متَّبعاً لأحكام الشَّرْع والسُّنَّة، مفوِّضاً لأحكام الله، مُسْترسلاً مع أقداره، كثير المجاهدة والمراقبة والمعانقة لطريق السَّلف في السِّرِّ والجَهْر، وله كلامٌ عالٍ على لسان أهل المعارف، وكراماتٌ ظاهرة، وكانت الجن تكلِّمه، والأُسْد تأنس به، والوحوش تألفه، والطير تأوي إليه، وكان يقول: من أَنِسَ بالله أَنِسَ به كلُّ شيء، ومن خاطبه الله تعالى

خاطبه كلُّ شيء، ومَنْ هاب الله هابه كلُّ شيء، ومَنْ وَصَلَ إلى الله تأخَّر عنه كلُّ شيء إجلالاً له، ومَنْ عرف الله جهله كل شيء بعظيم ما أودعه.

وقال الشيخ عبد اللَّطيف: كان الشيخ عزاز يمشي بين النخل، فاشتهى الرُّطَب، فتدالَّت له عراجين النخل، فأكل منها، ثم عادت إلى حالها.

قال: ومرَّ بأسد قد افترس شاباً بالبطيحة، وقد قضم ساقه نصفين، فصاح عليه، فولَّى منهزماً، فتناول الشيخ من الأرض حصاةً قدر الفولة، وحذفه بها، فخرَّ ميتاً، ثم جاء إلى الشَّاب، ووضع ما انكسر من ساقه في موضعه، وأَمَرَّ عليه يده، فإذا هو سويٌّ، فقام يعدو إلى أهله، ومات الشيخ بعد ذلك بيسير.

قلت: كان الشيخ منصور من سادات المشايخ، صاحب حال، ومقامات وكرامات ظاهرة، ومواهب باهرة، كانت أمه تدخل وهي حامل به على شيخه الشيخ أبي محمَّد الشَّنْبكي، وكان بينها وبينه نسب، فنهض لها قائماً، ونكِرَتْ منه ذلك، وسُئِلَ عنه فقال: إنما أقوم للجنين الذي في بطنها إجلالاً له، فإنَّه أحدُ المقرَّبين إلى الله تعالى أصحاب المقامات، وله شأنٌ عظيم.

قلت: وكان الشيخ منصور جميلاً بهيًّا، كاملَ الآداب، معانقاً طريق السَّلف والاسترسال مع أحكام الله عزَّ وجل في الشِّدَّة والرخاء، لم يَكْبُ جوادُ طريقه، وكان مجابَ الدَّعوة، وله كلامٌ جليل في علوم الحقائق.

وقال الشيخ علي بن الهيتي: أتاه رجلٌ من مِصْر، وقال له: يا سيدي، قد هاجرتُ إليك من مصر، وتركت مالي وولدي، ووطني وجاهي رغبةً في صُحْبتك. فنفخ الشيخ منصور في صَدْر الرَّجل، فأضاءت في قلبه برقة كشفت له عن الملكوت الأعلى، وقال له: هذه بتركك المال والولد والوطن. ثمَّ نفخ في صدره بعد شهر، فمحقت منه البقايا، وانتسخت منه الحظوظ، وقال له: هذه بتركك الجاه والرِّياسة. ثم نفخ في صدره بعد شهر، فأشهد مقامه بين يدي الله عزَّ وجل، وأقيم فيه، وقال له: هذه بهجرتك إليَّ. ثم قال له: يا هذا، إني استوهبتك من الله عزَّ وجل، وقد وهبك لي، وصرَّفني فيك، وجعل عطيتك على يدي، وهذه غايتك التي أنت عندها قائم. ولم يزل هذا الرجل على هذا الحال إلى أن توفي بالبطائح.

وقال الشيخ أحمد بن الرِّفاعي: سُئِلَ شيخنا خالي منصور عن المحبة، فقال، وأنا أسمع: المحب سكران في خُماره، حيران في شرابه، لا يخرج من سكرة إلا إلى حيرة، ولا من حيرة إلا إلى سَكْرة، ثم أنشد:

الـحـبُّ سُـكْـرٌ خُـمـاره الـتَّـلَـفُ   يَـحْـسُـنُ فـيـه الـذُّبـول والـدَّنَـفُ
والحب كالموت يفني كل ذي شغفٍ   ومـن تـطـعَّـمـه أودى بـه الـتَّـلـف
في الحُبِّ مات الأُلى أصفوا محبتهم   لو لم يحبوا لما ماتوا وما تلفوا[1]

سكن نهر دقلا من أرض البطائح، واستوطنها إلى أن مات بها، وقد عَلَتْ سِنُّه، وقبره بظاهرها يزار، ولما حضرته الوفاة، قالت له زوجته: أَوْصِ لولدك، فقال: بل لابن أختي أحمد. فلما كرَّرت عليه القول، قال لابنه ولابن أخته: ائتياني بنخيلٍ كثير. ولم يأته ابن أخته بشيء، فقال له: يا أحمد لم تأتِ بشيء. فقال له: إني وجدته كلّه يُسَبِّح، فلم أستطع أن أقطع منه شيئاً. فقال الشيخ لزوجته: سألتُ غير مرة أن يكون ابني، فقيل لي: بل ابن أُختك أحمد.

وحكى جماعةٌ من أصحاب الشيخ منصور البطائحي، وهو خال الشيخ أحمد الرفاعي، وبصحبته انتفع وتخرَّج، قالوا: ذُكر الشيخ عبد القادر وهو شابٌّ عند شيخنا الشيخ منصور، فقال: سيأتي زمانٌ يُفْتقر إليه فيه، وتعلو منزلته بين العارفين، ويموت وهو أحبُّ أهلِ الأرض إلى الله تعالى ورسوله في ذلك الوقت، فمن أدرك منكم ذلك فليعرف حُرْمته، وليعظِّمَ أمره.

وقال الشيخ علي بن الهيتي: كان شيخنا أبو الوفاء يتكلَّم على النَّاس فوق الكرسي، فدخل الشيخ عبد القادر إلى مجلسه، وهو يومئذٍ شابٌّ أَوَّلَ ما دخل بغداد، فقطع كلامه، وأمر بإخراج الشيخ عبد القادر، فأُخرج وتكلَّم، ثم دخل الشيخ عبد القادر المجلس، فقطع كلامه، وأمر بإخراجه، فأُخرج، وتكلَّم، ثم دخل الشيخ عبد القادر ثالثةً، فنزل الشيخ أبو الوفاء، واعتنقه، وقبَّلَ بين عينيه، وقال: قوموا لوليِّ الله يا أهلَ بغداد، ما أمرتُ بإخراجه إهانةً له، بل لتعرفوه، وعِزَّة المعبود على رأسه سناجق قد تجاوزت ذوائبها المشرق والمغرب. ثم قال له: يا عبد القادر، الوقت الآن لنا وسيصير

(١) البيت الأول من المنسرح، والثاني والثالث من البسيط!

لك يا عبد القادر، قد وهبوك العراق يا عبد القادر، كلُّ ديك يصيح ويسكت إلا ديكك، فإنَّه يصيح إلى يوم القيامة. وأعطاه سجادته وقميصه، ومسبحته وقصعته وعُكَّازه، فقيل له: خُذْ عليه العهد، فقال: على جبينه داعي المخرِّمي[1]. فلما انقضى المجلس، ونزل تاجُ العارفين أبو الوفاء من الكُرْسي جلس على آخر مرقاة، وأمسك بيد الشيخ عبد القادر، وقال له في غلبات النَّاس: يا عبد القادر، لك الوقت، فإذا جاء فاذكر هذه الشيبة. وقبضَ على كريمته.

قال الشيخ عمر البزاز: وكانت مسبحة الشيخ أبي الوفاء التي أعطاها لسيدنا الشيخ عبد القادر إذا وضعها سيدنا الشيخ على الأرض تدور وحدها حبةً حبة، فلما مات أخذها بعده الشيخ علي بن الهيتي، وكانت القصعة التي أعطاها له لا يَمَسُّها أحد إلا وأرجفت يده إلى كتفه.

وقال مطر: كنتُ يوماً عند شيخنا أبي الوفاء بزاويته معلمينا[2]، فقال لي: يا مطر، أغلق الباب، فإذا جاء شابٌّ عجمي يطلب الدُّخول عليَّ فامنعه، فقمت، وإذا الشيخ عبد القادر وهو شابٌّ يومئذٍ، فطلب الدخول عليه، فاستأذنتُ الشيخ، فلم يأذن له في الدُّخول، ورأيتُه يمشي في الزَّاوية كالمنزعج، ثم أَذِنَ له، فلما رآه مشى إليه خُطُواتٍ، واعتنقا طويلاً، وقال له: يا عبد القادر، وعِزَّة من له العِزَّة، ما منعتك من الدُّخول عليّ أول مرَّة جحداً لحقِّك بل خشية، لمَّا علمت أنك تأخذ وتعطيني أَمِنْتُ.

قلت: كان الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء سيدَ مشايخ العراق في وقته، وله الكراماتُ الخارقة، وانتهت إليه رياسة هذا الشَّأْن في زمانه، وتخرَّج به جماعةٌ من صدور مشايخ العراق مثل الشيخ علي بن الهيتي، والشيخ بقاء بن بطو، والشيخ عبد الرَّحمن الطفسونجي، والشيخ مطر، والشيخ حامد الكُرْدي، والشيخ أحمد البقلي وغيرهم، وكان له أربعون خادماً من أصحاب الأحوال، ولما أخذ عليه شيخه الشَّنْبكي العهد قال: قد وقع اليوم في شبكتي طائِرٌ لم يقع مثلُه في شبكة الشيخ أبي الوفاء.

(١) لعله يعني شيخه المخرِّمي، والله أعلم، انظر ص٧٨ من هذا الجزء.
(٢) كذا، ولم أتبينها.

[وكانت مشايخ البطائح يقولون: عجباً لمن يذكر أبا الوفاء][1]، ولم يمرّ يده على وجهه، ويسمِّي الله تعالى، ويصلي على النبي ﷺ، كيف لا يسقط وجهه من هيبته!

ورُوي أن الشيخ عزاز رأى النبي ﷺ في المنام، فقال: يا رسول الله، ما تقول في أبي الوفاء؟ قال: قُلْ بسم الله الرحمن الرحيم، ما أقول فيمن أباهي به الأمم يوم القيامة!

وكان للشيخ أبي الوفاء كلامٌ عالٍ على لسان أهل الحقائق، رحمة الله عليه، منه: مَنْ أخلص لله تعالى في معاملته يخلُصُ من الذُّنوب الكاذبة، ومن ضَيَّع حكم وقته فهو جاهل، ومن قَصَّر فيه فهو غافل، ومن أهمله فهو عاجز، والتَّسْليم إرسالُ النَّفس في ميادين الأحكام، وترك الشفقة عليها من الطَّوارق.

وقال الشيخ علي بن الهِيْتي: طرقت منازلةٌ من منازل الغيب عشرةً من الأولياء زمن شيخنا أبي الوفا ﷺ، واشتركت فيها أسرارهم، وأشكل شيء من أمرها عليهم، فاجتمعوا، وأتوا إلى الشيخ أبي الوفاء ليسألوه عنها، فوجدوه نائماً، وسمعوا كلَّ عضو منه ينطق بالتسبيح والتَّهليل، فجلسوا ينتظرون يقظته، فنطقت لهم أعضاؤه وخاطبتهم بمنازلهم، وكشفت لهم منها ما أَشكل عليهم، وانصرفوا قبل أن يستيقظ. وكان نرجسي الأصل؛ قبيلة من الأكراد.

وقال سيدنا محيي الدِّين رحمة الله عليه: ليس على باب الحق عز وجل كُرْدي مثل الشيخ أبي الوفاء.

وقال الشيخ حماد بن مسلم الدَّبَّاس، وقد ذكر عنده سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ، وهو يومئذٍ شاب: رأيتُ على رأسه علمين قد نصبا من البهموت الأسفل إلى الملكوت الأعلى، وسمعت الشاويش يصيح له في الأفق الأعلى بألقاب الصِّدِّيقين.

وقال محمود بن النعال: سمعتُ أبي يقول: كنتُ يوماً عند الشيخ حماد الدَّبَّاس، فجاء الشيخ عبد القادر وهو شابٌّ يومئذٍ، فقام إليه، وتلقَّاه، وقال: مرحباً بالجبل الراسخ، والطَّوْد المنيف الذي لا يتحرَّك، وأجلسه إلى جانبه، وقال له: ما الفرق بين الحديث والكلام؟ فقال: الحديث ما استدعيت من الجواب، والكلام ما صدقك من الخطاب، وانزعاج القلب لدعوة الانتباه أرجح من أعمال الثَّقلين، فقال له الشيخ حماد: أنت سيد العارفين في عَصْرك.

---

(١) ما بين حاصرتين ساقط من (ح)، والمثبت من «طبقات الشعراني»: ١/ ١١٦ .

قلتُ: كان الشيخ حماد الدَّبَّاس أحدَ العلماء الرَّاسخين في العِلْم وعلوم الحقائق، وانتهت إليه تربية المريدين ببغداد، وانعقد عليه الإجماع في الكَشْف عن مخفيات المراد، وانتمى إليه معظمُ مشايخ بغداد وصوفيتهم في وقته، وهو أحدُ مَنْ أخذ عنه سيدنا الشيخ عبد القادر ـ رحمة الله عليه ـ وصحبه، وأثنى عليه، وروى كراماته، وكان أبو الوفاء إذا قَدِمَ بغداد، ينزل عنده ويعظِّم شأنه، وكان المشايخ ببغداد يعظمون أمره ويتأدَّبون في حضرته، وينصتون لسماع كلامه.

وقال الشيخ أبو النَّجيب: الشيخ حماد الدباس من أَجَلِّ من لقيتُ من مشايخ بغداد، وهو أوَّلُ شيخ فتح الله عليَّ ببركته، وكانت دَبَّاسته لا يدخلها زنبور ولا ذبابة، وله كلامٌ عالٍ في طريقة القوم، رحمة الله عليه.

وقال سيدنا الشيخ عبد القادر: قدم بغداد رجلٌ يقال له يوسف الهَمَذاني، وكان يقال: إنه القُطْب، ونزل في رباط، فلما سمعتُ به مشيت إلى الرِّباط، فلم أره، فقيل لي: هو في السِّرْداب، فنزلتُ إليه، فلما رآني قام، وأجلسني، ففرسني، وذكر لي جميعَ أحوالي، وحَلَّ لي جميع ما كان مشكلاً عليّ، ثم قال لي: يا عبد القادر، تكلَّم على النَّاس. فقلتُ: يا سيدي، أنا رجلٌ أعجمي أيش أتكلَّم على فصحاء بغداد؟ فقال لي: أنتَ حفظت القرآن والفِقْه وأُصول الفقه والخلاف والنَّحو واللغة وتفسير القرآن، ألا يصلح لك أن تتكلَّم على النَّاس؟! اصعد على الكرسي وتكلم، فإني أرى فيك عِذْقاً وسيصير نخلةً.

قلتُ: تَقَدَّم ذكر يوسف الهَمَذاني في سنة خمس وثلاثين وخمس مئة.

وقال الشيخ أبو سلمان داود المَنْبِجي: كنتُ يوماً عند الشيخ عقيل المنبجي، فقيل له: قد اشتَهَر ببغداد أمر شاب عجمي شريف اسمه عبد القادر. فقال الشيخ عقيل: وإن أمره في السَّماء أشهر منه في الأرض، ذاك الفتى الرَّفيع المدعو في الملكوت بالباز الأشهب، وسينفرد في وقته، وسَيُرَدُّ إليه الأمر، ويصدر عنه.

والشيخ عقيل أول من لَقَّب سيدنا الشيخ محيي الدّين ﷺ بالباز الأشهب فيما نعلم.

قلت: كان عقيل شيخ شيوخ الشَّام في وقته، وتخرَّج بصحبته الشيخ عَدِي بن مسافر، والشيخ موسى الزولي وغيرهما، وهو أوَّل من دخل بالخرقة العمرية إلى الشَّام، وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم الشيخ علي الفرنثي: رأيتُ أربعة من المشايخ يتصرَّفون في قبورهم كما يتصرف الأحياء: الشيخ عبد القادر، والشيخ معروف الكرخي، والشيخ عقيلاً المنبجي، والشيخ حياة بن قيس الحَرَّاني.

وكان للشيخ عقيل كلامٌ عالٍ في المعارف.

وقال الشيخ أبو المجد بن أحمد: أخبرنا أبي عن أبيه قال: حضرت الشيخ عقيلاً بظاهر منبج تحت الجبل، وعنده جمعٌ من الصُّلحاء، فقال له أحدهم: ما علامة الصَّادق؟ قال: لو قال لهذا الجبل تحرَّك فيتحرك الجبل، ثم قال له: ما علامة المتصرِّف؟ قال: لو أراد وحوش البَرِّ والبحر أن تأتيه لفعلت. فما تمَّ كلامه حتى نَزَلَ علينا من الجبل وحوش سدتِ الفضاء، وأخبرنا الصَّيادون أنَّ شَطَّ الفرات امتلأ في ذلك الوقت أسماكاً. قال: يا سيدي، وما علامةُ المبارك على أهل زمانه؟ قال: لو وكز برجله هذه الصَّخرة لتفجَّرت عيوناً. قال: فتفجَّرت صخرةٌ كانت بين يديه عيوناً، ثم عادت صخرة كحالها أوَّل مرة.

سكن ﷺ منبج، واستوطنها نيفاً وأربعين سنة، وماتَ بها، وقد عَلَت سِنُّه، وقبره بها ظاهر يزار.

وقال الشيخ عمر الصِّنْهاجي: جاء بعضُ أصحابنا إلى الشيخ أبي يعزى يستأذنه في المسير إلى بغداد، فقال له: إذا أتيتَ بغداد فلا يفوتنك رؤية رجل بها شريف عجمي اسمه عبد القادر، فإذا رأيته سَلِّم عليه عني وسَلْه لي الدُّعاء، وقل له: لا تنسَ أبا يعزى من قلبك، فإنه والله لم يخلِّف في العجم بأسره مثله، وإنك لن ترى في العراق مثله، وإن المشرق ليفضل عن المغرب به، وإنَّ علمه ونسبه قد ميَّزاه على الأولياء تمييزاً واضحاً كثيراً.

قلتُ: كان الشيخ أبو يعزى من أعيان المشايخ بالمغرب، وتخرَّج به من أكابر مشايخها وأعلام زُهَّادها جماعةٌ، وأقام في بدايته في خمس عشر سنة لا يأكل إلا حب الخُبازى، وكانت الأُسْد تأوي إليه، والطَّير تعكف عليه، وكانت الأُسد إذا ضربت

وافترست القفول جاء فأمسك بأذنابها وقادها، فتنقاد له ذليلة، وكان أهل المغرب يستسقون به فيُسْقون، ويرجعون إليه في المعضلات فتنكشف.

وقال الشيخ أبو محمد الإِفريقي: جاء إلى الشيخ أبي يعزى المحتطبون يشكون إليه كثرة الأُسْد في غابةٍ يحتطبون فيها، فقال لخادمه: اذهب إلى طرف الغابة، وناد بأعلى صوتك: معاشر الأسد يأمركِ أبو يعزى أنْ ترحلي من هذه الغابة. قال: فذهب وفعل ذلك، فكانت الأُسد تُرى خارجةً من الغابة تحمل أشبالها حتى لم يبق فيها شيء منها، ولم يُر بعد ذلك فيها أسد.

وقال الشيخ شاور السبتي المحلي: صنعَ الخليفةُ ببغداد وليمةً، ودعا إليها جميع مشايخ العراق وعلمائها، فحضروا كلُّهم إلا سيدنا الشيخ محيي الدِّين عبد القادر والشيخ عدي بن مسافر والشيخ أحمد الرِّفاعي رحمة الله عليهم، فلمَّا انصرف النَّاس قال الوزير للخليفة: إنَّ الشيخ عبد القادر والشيخ عدياً والشيخ أحمد لم يحضروا، فقال الخليفة: فكأن لم يحضر إذن أحد. ثم أمر حاجبه أن يأتي إلى الشيخ عبد القادر يدعوه أن ينطلق إلى جبل الهَكَّار، وإلى أُم عبيدة ليحضر الشيخ عدي والشيخ أحمد، قال الشيخ شاور: فقال لي الشيخ عبد القادر قبل أن يقوم الحاجب من مجلس الخليفة، وقبل أن تُسَطَّر البطاقتان: يا شاور، اذهب إلى المسجد الذي بظاهر باب الحَلْبة تجد فيه الشيخ عدي بن مسافر ومعه اثنان، فادعهم لي، ثم امضِ إلى مقبرة الشُّونيزي تجد فيها الشيخ أحمد الرّفاعي ومعه اثنان، فادعهم لي، قال: فذهبت إلى المسجد الذي بظاهر باب الحَلْبة، فوجدت الشيخ عدياً ومعه اثنان، فقلتُ: يا سيدي، أجب الشيخ عبد القادر، فقال: سَمْعاً وطاعة، وقاموا، فذهبتُ معهم، فقال لي الشيخ عدي: يا شاور، ألا تذهب إلى الشيخ أحمد كما أمرك الشيخ عبد القادر(١)؟ قلتُ: بلى، فأتيت مقبرة الشُّونيزي، فوجدت الشيخ أحمد ومعه اثنان، فقلتُ: يا سيدي، أجب الشيخ عبد القادر، فقال: سمعاً وطاعة. وقاموا، فتوافى الشيخان في باب رباط الشيخ عبد القادر وقتَ المغرب، فقام إليهم الشيخ، وتلقاهم، فما لبثوا غير يسير، فجاء الحاجب إلى الشيخ، فوافاهما عنده، فأسرع إلى الخليفة، وأخبره باجتماعهم،

(١) في النسخة: عدي، وهو سبق قلم، والصواب ما أثبته، انظر صدر الخبر.

فكتب الخليفةُ إليهم بخطِّه يسألهم الحضور، وبَعَثَ إليهم ولده وحاجبه، فأجابوه وذهبوا، وأمرني سيدنا الشيخ محيي الدين بالمسير معه، فلمَّا كُنَّا بالشَّطِّ إذا الشيخ ابن الهيتي، فتلقاه المشايخ، وسار معهم، فأُتي بنا إلى دارٍ حَسَنةٍ، فإذا الخليفةُ فيها قائم، مشدود الوسط، ومعه خادمان له، وليس في الدار سواهم، فتلقَّاهم الخليفة، وقال لهم: يا سادة، إنَّ الملوك إذا اجتازوا برعاياهم بسطوا لهم الحرير ليطؤوه، ووضع لهم ذيله، وسألهم أن يمشوا عليه، ففعلوا، وانتهى بنا إلى سماطٍ مهيأ، فجلسوا، وأكلوا وأكلنا معهم، ثم خرجوا، وأتوا إلى زيارة قبر الإمام أحمد ابن حنبل رحمة الله عليه، وكانت ليلةً شديدة الظُّلْمة، فجعل الشيخ عبد القادر كلما مرَّ بحجرٍ أو خشبة أو جدار أو قبرٍ أشار بيده إليه، فيضيء كضوء القمر، ويمشون في نوره إلى أن ينتهي ضوءه، فيشير الشيخ إلى آخر، فيضيء، فما زالوا يمشون في النُّور، وليس فيهم من يتقدَّم على الشيخ عبد القادر إلى قبر الإمام أحمد ابن حنبل ﵁، فدخل المشايخ الأربعة يزورون، ووقفنا على باب المزار حتى خرجوا، فلما أرادوا أن يتفرَّقوا، قال الشيخ عدي للشيخ عبد القادر: أوصني. قال: أوصيك بالكتاب والسُّنَّة. ثم تفرَّقوا.

وقال الشيخ عمر البزاز: كان سيدنا الشيخ محيي الدِّين ـ رحمة الله عليه ـ يثني كثيراً على الشيخ عدي بن مسافر، فاشتقت إلى رؤيته، واستأذنتُ الشيخ في زيارته، فأَذِنَ لي، فسافرت حتى أتيتُ جبل الهَكَّار، فوجدته قائماً على باب زاويته بلاكش، فقال: أهلاً يا عمر، تركت البحر، وجئت إلى السَّاقية! يا عمر، الشيخ عبد القادر مالك أزِمَّة الأولياء كلِّهم، وقائد.

عدي بن مسافر ﵁ مشهور، ومحلُّه معروف، وقد تقدَّم ذكره في السنة السابعة والخمسين وخمس مئة، فينظر هناك.

وقال الشيخ العارف القُدْوة علي بن وهب السِّنْجاري: عبد القادر أحدُ أعيان الدُّنيا، الشيخ عبد القادر أحدُ أفراد الأولياء، الشيخ عبد القادر من تُحَفِ الوجود، الشيخ عبد القادر من هدايا الله تعالى إلى الكون، طوبى لمن رآه، طوبى لمن جالسه، طوبى لمن باتَ في خاطر الشيخ عبد القادر.

قلت: كان الشيخ عليُّ بن وهب كبيرَ القَدْر، تتلمذ له جماعةٌ من الأكابر مثل الشيخ سويد السِّنجاري، والشيخ أبي بكر الجاري، وجماعة لا يحصون كثرة، ويقال: إنه مات عن أربعين رجلاً من مريديه كلهم أصحاب أحوال، وحدّث عنهم أنه لما مات اجتمعوا في رَوْضة تجاه زاويته، فجعل كل منهم يأخذ من تلك الروضة قبضة من نباتها، ويتنفس عليها، فتزهر من جميع الأزهار مختلفة ألوانها حتى أَقَرَّ بعضُهم لبعض بالتمكُّن والتَّصريف، والشيخ علي بن وهب يسمى برادّ الفائت؛ لأنَّه من فَقَدَ حالاً كان له وأتى إليه رَدَّه عليه بزيادة.

ومناقبه كثيرة، وهو ربعي شيباني، سكن البدوية؛ قرية من أعمال سِنْجار، وبها مات وقد نيَّف على الثمانين، وقبره ظاهر يزار، وكان عالماً فاضلاً فصيحاً متواضعاً، لا يحلف بالله تعالى، ولا يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله تعالى، رحمة الله عليه ورضوانه.

وقال الشيخ يحيى التكريتي: لما قدم الشيخ موسى بن ماهين الزولي بغداد حاجًّا كنتُ أنا ووالدي معه، فلما اجتمع بالشيخ عبد القادر رأينا من احترام الشيخ موسى له وأدبه معه ما لم نَرَه فَعَلَه مع غيره من النَّاس، فلما خلونا به قال له والدي: ما رأيتُك احترمتَ أحداً مثلما احترمت الشيخ عبد القادر، فقال: الشيخ عبد القادر خيرُ النَّاس في زماننا هذا، وسُلْطان العارفين في وقتنا، وكيف لا أتأدَّب مع من تتأدب معه ملائكة السَّماء.

قلتُ: كان الشيخ موسى من أجلِّ المشايخ وأعظمهم حالاً، وهو أحد من أبرزه الله إلى العباد، وأنطقه بالمُغَيَّبات، وخَرَقَ له العادات، وأوقع له الهيبة في القلوب، وانعقد عليه إجماع المشايخ وغيرهم، وقُصِدَ بحلِّ مشكلات الموارد، وكَشْفِ مخفياتها، وتربية السالكين، وتخرَّج بصحبته كثير من مشايخ بلاد المشرق، وتتلمذ له جماعةٌ من أهل الأحوال، وكان سيِّدنا محيي الدِّين يُثْني عليه كثيراً، ويعظِّمُ شأنه.

ولما اجتمع الشيخ إبراهيم الأعزب والشيخ عسكر النعيبي بالبطائح، قال الشيخ عسكر للشيخ إبراهيم[1].

(١) بياض في الأصل.

وكان للشيخ موسى كلامٌ بليغ على لسانِ أهل المعرفة، وكان إذا مَسَّ الحديد بيده لان حتى يصيرَ كاللُّبان.

ووقع بمارِدِين حريقٌ، فضجَّ النَّاس به، فأعطاهم عُكَّازه، وأمرهم أن يلقوه في النَّار، فألقوه، فانطفأت لوقتها، وأخرجوا العُكَّاز لم يسخن ولا اسْوَدَّ.

وكان كثير الإخبار بالمغيَّبات، وأتته امرأةٌ بصغير عمره أربعة أشهر، فدعاه إليه، فأتاه يعدو، فأقرأه سورة الإخلاص، فقرأها الصَّبيُّ، ومازال يمشي ويتكلَّم من ذلك الوقت، وكبر والتحى، فوالله ما زادَتْ فصاحةُ نُطْقه على فصاحته حين تكلَّم بين يدي الشَّيخ أَوَّل مرَّة.

ومات الشيخ بمارِدِين وقد عَلَتْ سِنُّه، وقبره ظاهر يزار، ولما وضع في لحده نهض قائماً يصلي، واتَّسع له اللَّحد، وأُغمي على من كان نزل قبره، وكان جميلاً بهياً فاضلاً، رحمة الله عليه.

وقال الشيخ شهاب الدِّين: دخلتُ مع عمِّي الشيخ أبي النَّجيب عبد القاهر السُّهْرَوَرْدِي في سنة ستين وخمس مئة إلى الشيخ عبد القادر، فتأدَّب عمي معه أدباً عظيماً، وجلس بين يديه أُذُناً بلا لسان، فلما رجعنا إلى النِّظامية، قلتُ له في ذلك، فقال: كيف لا أتأدَّب معه وهو له الوجود التَّام، وقد صرف في وجود الملك، وبُوهي به في وجود الملكوت، وانفرد في عالم الكون في هذا الوقت؟ وكيف لا أتأدَّب مع من صرَّفه مالكي في قلبي وحالي، وفي قلوب الأولياء وأحوالهم، إن شاء أمسكها، وإن شاء أرسلها؟

قلت: كان الشيخ أبو النجيب عظيمَ القَدْرِ، جَمَعَ بين العِلْم والعمل، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

قلتُ: وحكى لي ابنُ الشيخ عز الدين عبد العزيز السلمي الشافعي نزيل مِصْر، كان يقول: كراماتُ الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه[1].

وقال الشيخ محمد بن أبي العَبَّاس الخضر بن عبد الله الحسني المَوْصلي: سمعتُ أبي يقول: كنتُ يوماً جالساً بين يدي سيدنا الشيخ محيي الدِّين عبد القادر ﷺ، فخطر في نفسي زيارة الشيخ أحمد الرِّفاعي، فقال لي: يا سيدنا، أتحبُّ زيارة الشيخ أحمد؟

(١) لم يذكر عنه شيئاً من كراماته، ولعله بيَّض لها، ولم يسدَّها.

قلتُ: نعم. فأطرقَ يسيراً، ثم قال: يا خضر، ما ترى الشيخ أحمد؟ فإذا إلى جانبه شيخٌ مهيب، فقمتُ إليه، وسلَّمت عليه، فقال: يا خضر، مَنْ يرى مثل الشيخ عبد القادر سيد الأولياء يتمنَّى رؤية مثلي، وهل أنا إلا من رعيَّته! ثم غاب عني، فبعد وفاة سيدنا الشيخ رحمة الله عليه انحدرت إلى أُم عبيدة لأزوره، فقَدِمْتُ عليه، إذا هو الشخص الذي رأيته إلى جانب الشيخ عبد القادر ـ رحمة الله عليه ـ في بغداد، لم تجدد رؤيته عندي زيادة، فقال لي: يا خضر، ألم تَكْفِكَ الأُولى؟

وقال الشيخ عبد الله البطائحي رحمة الله عليه: انحدرتُ في حياة سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ إلى أُم عُبيدة، وأقمتُ برواق الشيخ أحمد أياماً، فقال لي الشيخ أحمد يوماً: اذكر لي شيئاً من مناقب الشيخ عبد القادر وصفاته، فذكرتُ منها شيئاً، فجاء رجلٌ في أثناء حديثي، فقال لي: مَهْ، لا تذكر عندنا مناقب غير هذا. وأشار إلى الشيخ أحمد، فنظر إليه الشيخ أحمد مُغْضَباً، فوقع الرَّجل بين يديه ميْتاً، ثم قال: ومَنْ يبلغ مبلغ الشيخ عبد القادر، ذاك بحر الشَّريعة عن يمينه، وبحر الحقيقة عن يساره، من أيِّهما شاء اغترف الشيخ عبد القادر، لا ثاني له في وقتنا هذا.

قال: وسمعتُه يوصي أولاده فيه وأكابر أصحابه، وقد جاء رجل يودِّعه مسافراً إلى بغداد قال: إذا دَخَلْتُم بغداد، فلا تقدِّموا على زيارة الشيخ عبد القادر شيئاً إن كان حياً، ولا على زيارة قبره إن كان ميتاً، فقد أُخذ له العهد: أَيما رجلٍ من أصحاب الأحوال دخل بغداد، فلم يَزُرْه، سُلِبَ حاله، ولو قبيل الموت. والشيخ عبد القادر خَسِرَه من لم يَرَه، ﷺ.

قلتُ: كان الشيخ أحمد الرِّفاعي رحمة الله عليه عظيم القَدْر كبير الشأن، ومحلُّه عظيم، وحاله أشهر من أن ينبَّه عليه، وهو أحدُ من اشتهر في الدُّنيا، وتتلمذ له من الخَلْق عالمٌ لا يُحصون كثرةً في كلِّ بلد وقطر، ولم أر في مُدُنِ المسلمين مكاناً يخلو من زاوية ومكان برسمهم، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في هذا الكتاب مفصَّلاً.

دخل عليه رجلٌ، فوضع له الشيخ طعاماً، فقال: إذا جاء وقتي أكلتُ، وقال له: ومتى وقتك؟ قال: المغرب، قال: عن كم؟ قال: عن ستة أشهر، فلما كان وقتُ المغرب قُدِّم له الطَّعام، فسأله الرجل أن يأكل معه، فقال: إذا جاء وقتي أكلتُ، قال:

ومتى وقتك؟ قال: بعد ستة أشهر، قال: وكم مضى لك؟ قال: ستة أشهر، فسئل الشيخ عن ذلك فقال: دخلت أنا إلى دارنا يوماً شديد الحر وأنا عطشان، فوجدتُ ماءً مخلوطاً ببياض العجين، فأردتُ أن أشربه، فقالت لي نفسي: ترى الماء البارد في الكوز! ثم امتنعتُ من الشرب، وعاهدتُ الله تعالى أن لا آكل ولا أشرب إلى سنة.

والشيخ أحمد أحدُ مَنْ قهر أحواله وملك أسراره، وانتهت إليه الرياسة في علوم الطَّريق، وشَرْحِ أحوال القوم، وكَشْفِ منازلاتهم، وله كلامٌ شريف على لسان أهل الحقائق.

وقال الشيخ أبو الحسن علي ابن أخت الشيخ أحمد: كنتُ يوماً جالساً على باب خلوة خالي، وليس فيها غيره، فسمعتُ عنده حِسًّا، فنظرتُ، فإذا عنده رجلٌ، فتحدَّثا طويلاً ثم خرج من كوَّةٍ في الحائط، ومَرَّ في الهواء كالبَرْقَ الخاطف، فدخلت على خالي، وقلت: ما الرجل؟ قال: أورأيته؟! قلتُ: نعم. قال: هو الذي يحفظ الله به قَطْر البحر، وهو أحدُ الأربعة الخواص إلا إنه هُجر منذ ثلاث ليال، وهو لا يعلم، قلت: فبأي سبب؟ قال: مُطرت جزيرته حتى سالت أوديتها، فَخَطَر في نفسه: لو كان هذا في العمران. ثم استغفر، فَهُجِرَ، فقلتُ: أَوَأَعْلَمْتَه؟ قال: لا، فقلت: لو أَذِنْتَ لي لأعْلَمْتُه. قال: رَنِّقْ، فرنَّقْتُ[1]، ثم سمعتُ صوته: ارفع رأسك. فرفعتُه، وإذا بجزيرة في البحر، قمت أمشي فيها، وإذا بالرجل، فأخبرتُه، فقال: ناشدتك اللهَ إلا ما وضعت خرقتي في عُنُقي، وسحبتني على وجهي، ونادِ عليَّ: هذا جزاءُ من يعترض. فوضعتُ الخِرْقة في عنقه، ثم هممتُ بسحبه، وإذا هاتفٌ يقول: يا عليّ، دَعْه، فقد ضجَّتْ ملائكة السماء باكيةً عليه، وقد رضي عنه. فأغمي عليَّ ساعة، ثم سُرِّي عني، وإذا أنا بين يدي خالي بخلوته، ووالله لا أدري كيف ذهبتُ، ولا كيف جِئْتُ.

قلت: وكرامات سيدنا شيخ الإسلام مُحيي الدِّين عبد القادر رحمة الله عليه كثيرة، ومناقبه غزيرة، وقد اقتصرنا على هذه النبذة، إذ لا يحتمل هذا الكتاب أكثر منها، وبالله التوفيق.

---

(١) من رنَّقَ الطائرُ: إذا خفق بجناحيه في الهواء، وثبت ولم يطر، فرنَّقْتُ: أي تهيأْتُ لذلك. انظر «لسان العرب» (رنق).

وكذلك نبهت على محل المشايخ الذين أثنوا عليه بما يعرف به مَحَلَّهم الناظِرُ في هذه الترجمة والمتأمّل لها، ويعلم أنَّ الفَضْل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفَضْل العظيم، مع أنه لم يجتمع لأحدٍ من المناقب، وأسباب المحامد ما اجتمع لسيدنا الشيخ محيي الدِّين ـ رحمة الله عليه ـ من العِلْم والعمل والحسب، والمواهب الجسيمة، والنِّعم المتتابعة، نفعنا الله ببركته، وحشرنا في زمرته، وأماتنا على محبته، فقد حُكي أن بعض محبيه حَلَفَ بالطَّلاق أن سيدنا الشيخ عبد القادر أفضل من أبي يزيد البِسْطامي رحمة الله عليه، ثم استفتى علماءَ العراق، فكلٌّ منهم أحجم عن الجواب، فتحيَّر في أمره، فقيل له: عليك بالشيخ عبد القادر، فهو أخبر بذلك، فجاء إليه، وقصَّ عليه قِصَّته، فقال: وما الذي حملك على هذا؟ فقال: قد وقع ذلك، فَمُرْني ما أفعل؟ هل أفارق زوجتي أو أستمر على مضاجعتها؟ فقال: ضاجع زوجتك، فكلُّ ما وَصَلَ إليه أبو يزيد البِسْطامي وصلتُ إليه، وسبقتُه بفضيلة عِلْم الفُتْيا، وهو لم يفت، وتزوَّجْتُ ولم يتزوج، ورُزِقْتُ الأولاد.

قلت: وسَيِّدنا أحقُّ النَّاسِ بقول المتنبي: [من الطويل]

إذا علويٌّ لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجة للنواصب[(١)]

[وفيها توفي][(٢)]

عبد الكريم بن محمَّد بن أبي فضل الأنصاري الحرستاني[(٣)]

الشافعي][(٤)]، ولد سنة سبع عشرة وخمس مئة، وسافر إلى العراق وخراسان، وسمع الحديث وتفقه، واستنابه أبو سعد بن أبي عصرون بالزاوية الغربية بجامع دمشق [في التدريس][(٤)]، وضمَّ إليه المدرسة الأمينية، وكانت وفاته بدمشق في رمضان، [سمع أبا الحسن بن قُبيس وغيره][(٤)]، وكان صالحاً، ثقة.

(١) «ديوانه»: ١/ ٢٨٤ .

قال الإمام الذهبي: ليس في كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، ولكن كثيراً منها لا يصح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة... وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه، والله الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه. «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٥٠، ٤٥١ .

(٢) مابين حاصرتين من (م).

(٣) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»، المجلد ٤٣/ ١٠١ .

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

محمد بن حيدر بن عبد الله(١)

أبو طاهر بن شعبان الشاعر البغدادي، ومن شعره: [من مجزوء الكامل]

خُـذْ بـي عـلـى قَـطَـنٍ يـمـيـنـا ... فـعـسـى أُريـك بـه الـقـطـيـنـا
حـتـى إذا طَـلَـعَـتْ بـه ... أقـمـارُ رنَّـحـتِ الـغُـصـونـا
يُـخْـلِـفْـنَ مـيـعـادَ الـوفـا ... ءِ لـنـا ويَـمـطُـلْـنَ الـدُّيـونـا
ويـقـمـن مـن تـلـك الـعـيـو ... نِ عـلـى خـواطِـرنـا عُـيُـونـا
يـا مـن تـسـمَّـحَ لـلـعـوا ... ذلِ بـي وكـنـتُ بـه ضـنـيـنـا
أحـسـنـتُ ظـنـي فـي هـوا ... ك فـلِـمْ أسـأت بـي الـظـنـونـا
مـنـي تـعـلـمـت الـحـمـا ... م الـنـوح والإبـل الـحـنـيـنـا(٢)

وأنشد أصحابه قبيل موته لما احتضر: [من الطويل]

خـلـيـلـيَّ هـذا آخـرُ الـعـهـد مـنـكُـمُ ... ومـنـي فـهـل مـن مَـوْعِـدٍ نـسـتـجِـدُّهُ
لأنَّ أخـاكـم حـلَّ فـي دار غُـرْبـةٍ ... يـطـولُ بـهـا عـن هـذه الـدَّارِ عَـهْـدُهُ
فـلا تـعـجَـبُـوا إذْ خَـفَّ لـلـبَـيْـنِ رَحْـلُـهُ ... وقـد جَـدَّ فـي إِثْـر الأَحِـبَّـةِ جِـدُّهُ
وقـد أزمـع الـمـسـكـينُ عـنـكـم تـرحُّـلاً ... فـهـل فـيـكُـمُ مـن صـادقٍ يـسـتـردُّه(٣)

محمّد بن الوزير يحيى(٤)

ابن هبيرة، عز الدين.

---

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ١/ ٢١٩-٢٦٦، و«المحمدون من الشعراء»: ٢٧٢-٢٧٤، و«الوافي بالوفيات»، ٣/ ٣٢-٣٤، و«فوات الوفيات»: ٣/ ٢٤٥-٣٤٧، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٧٢، ووفاته في «الوافي بالوفيات» و«فوات الوفيات»: سنة ٥١٧هـ، وهذا هو الصحيح فيما ذكر العلامة محمد بهجة الأثري في حاشيته على «الخريدة»، فقد ذكر العماد الكاتب أن عمر بن الواسطي الصفار ذكر له ببغداد في سنة ٥٦١هـ أنه دخل وهو صغير على ابن حيدر في أيام المسترشد، وعنده جماعة يعودونه في مرضه الذي مات فيه، وخلافة المسترشد كانت بين سنتي ٥١٢هـ - ٥٢٩هـ، فلعل سبط ابن الجوزي وهم، فظن تاريخ لقاء الواسطي بالعماد الكاتب هو تاريخ وفاته، والله أعلم. وفي «الخريدة» و«المحمدون» شُعَيْبان، وفي «النجوم الزاهرة»: شعبان.

(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٢٤-٢٢٦.

(٣) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٢٣.

(٤) له ترجمة في «الخريدة»، قسم شعراء العراق: ج٢/ ١٠٠-١٠١، و«الفخري»: ٣١٦-٣١٧، و«المنتظم»: ١٠/ ٢١٨، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ١٩٨-١٩٩، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٧٢.

كان فاضلاً، كبيرَ الشَّأن، عظيم القَدْر، ناب عن أبيه في الوِزارة مُدَّة، ولما توفي الوزير أُخذ وحُبس في دار الخليفة، فَغُفِلَ عنه، فهرب إلى الجانب الغَرْبي من بغداد، وواعد بدوياً كان صديقاً لأبيه أن يهرب به، فقال: ادخل جامع بلهيقا حتى أتجهَّز وآتيك. وجاء إلى أُستاذ الدَّار فأخبره بخبره، فبعث وأخذه، وضُرِبَ ضَرْباً مُبَرِّحاً، وأُلقي في مطمورة، [قال جدي في «المنتظم»: فحدثني][١] بعض الأتراك، وكان محبوساً عندهم، أنهم صاحوا من فوق المطمورة: أين ابن الوزير؟ ودلُّوا له حبلاً، فتعلَّق به، وصَعِدَ، فمدُّوه، وجلس واحدٌ على رأسه، وآخر على رِجْليه، وخُنِقَ بحبلٍ، وأُخرج من دار الخليفة ميتاً، [وأما أخوه شرف الدين ظفر، فإنه أخرج من دار الخليفة ميتاً في صفر سنة اثنتين وستين وخمس مئة، فحمل إلى أبيه، فدفن عنده، وكانا من أجلاء الناس وأكابرهم][١].

السنة الثانية والستون وخمس مئة

فيها تزوَّج المستنجد بابنة عمه أبي نصر ابن المستظهر، ودَخَلَ بها في رجب ليلة الدعوة التي كان يعملها كل سنة للصُّوفية وغيرهم، وغنَّى المغني [في هذه الليلة][١]: [من الطويل]

يقول رجالُ الحيِّ تطمعُ أن ترى   محاسنَ ليلى مُتْ بداء المطامعِ
وكيف ترى ليلى بعينٍ ترى بها   سواها وما طَهَّرْتَها بالمدامعِ
وتلتذُّ منها بالحديثِ وقد جرى   حديثُ سواها في خروقِ المسامعِ

وكان مع الصُّوفية رجل من أهل أصبهان، فقام قائماً، وجعل يقول للمغني: أي خواجا جي كفت. والمغني يعيد الأبيات، فصاح، ووقع ميتاً، فصار ذلك الفرح مأتماً، وبكى الخليفة والصُّوفية، ولازالوا يتراقصون حوله إلى الصَّباح، وحملوه إلى الشُّونيزيّة، فدفنوه بها.

وفيها حشد شملة التركماني، وجاء ومعه صبيٌّ من أولاد السَّلْجوقية ليحاصر بغداد، فنزل البَنْدَنيجين، وبعث الخليفةُ إليه العساكر، فنزلوا مقابله وبينهم النهر، فبعث

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

الخليفةُ إليه يوسف الدِّمَشْقي، فوعظه وذكر [له](١) ما يجب [عليه](١) من طاعة الخليفة ووبَّخه، فرحل إلى هَمَذان، [فيقال: إن يوسف الدمشقي مات عنده، وقيل في السنة الآتية](١).

وفيها عاد أسد الدين شيركوه إلى مِصْر؛ وهي المرة الثَّانية، وسببه أنَّ العاضد كتب إلى نور الدين [محمود](١) يستنجده على شاور، وأنه قد استبدَّ بالأمر، وظَلَمَ وسَفَك الدَّم، وكان في قلب نور الدين من شاور لأنَّه غدر بأسد الدين، واستنجد بالفرنج، فسار أسد الدِّين من دمشق منتصف ربيع الأَوَّل، ومعه [ابن أخيه](١) صلاح الدين، فنزل الجِيْزة غربي مصر على البحر، وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال [العظيمة](١)، وأقطعهم الإقطاعات، وأنزلهم دُور القاهرة، وبنى لهم أسواقاً تخصُّهم، وكان مقدَّمهم الملك مُرِّي وابن بيرزان، فأقام أسد الدِّين على الجِيْزة شهرين، وعدَّى إلى بَرِّ مِصْر والقاهرة في خامس عشرين جُمادى الآخرة، وأصْعَدَ إلى البابين، وخَرَجَ شاور والفرنج، ورتَّب العساكر، فجعل الفرنج في الميمنة مع ابن بيرزان، وعسكر مصر في المَيْسرة، وأقام الملك مُرِّي في القلب في شوكة الفرنج والخيَّالة، ورتَّبَ أسدُ الدِّين عساكره، فجعل صلاح الدين في الميمنة، وفي الميسرة الأكراد، وأسد الدين في القلب، فحمل الملك مُرِّي على القلب فَتَعْتَعَهُ، وكانت أثقالُ المُسْلمين خلفه، فاشتغل الفرنج بالنَّهب، وحَمَل صلاحُ الدِّين على شاور فكسره، وفرَّق جَمْعه، وعاد أسدُ الدِّين إلى صلاحِ الدين فحملا على الفرنج، فانهزموا، فقتلا منهم ألوفاً، وأسرا مئةً وسبعين فارساً، وطلبوا القاهرة، فلو ساق أسدُ الدِّين خلفهم لملك القاهرة، وإنما عَدَل إلى الإسكندرية، فتلقَّاه أهلُها طائعين، فدخلها، وولَّى عليها [ابن أخيه](١) صلاح الدين، فأقام بها، وسار أسدُ الدِّين إلى الصَّعيد، فاستولى عليه، وأقام يجمعُ أمواله [ويجبي خراجه](١)، وخرج شاور والفرنج من القاهرة، فحصروا الإسكندرية أربعة أشهر، وأهلُها يقاتلون مع صلاح الدِّين، ويقوُّونه بالمال، وبلغ أسد الدين، فجمع عَرَبَ البلاد، وسار إلى الإسكندرية، فعاد شاور إلى القاهرة وراسل أسدَ الدِّين، وأعطاه إقطاعاً بمصر، وعَجَّل له مالاً، فعاد إلى الشَّام، وصلاح

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

الدين معه، واعتذر إلى نور الدين بكثرة الفرنج والمال، ورأى صلاح الدين لأهل الإسكندرية ما فعلوا، فلما ملك أَحْسَنَ إليهم، [وسنذكره][١].

ثم إنَّ الفرنج طلبوا من شاور أن يكون لهم شِحْنة بالقاهرة، ويكون أبوابها بأيدي فُرْسانهم، ويحمل إليهم في كلِّ سنة مئة ألف دينار، ومن سكن منهم بالقاهرة يبقى على حاله، ويعود بعض ملوكهم إلى السَّاحل، فأجابهم، وهذا كله تقرَّر والعاضد لا يعلم بشيء منه، وسار بعضُ الفرنج إلى السَّاحل.

وكان نورُ الدِّين ينظر من سِتْرٍ رقيق، ويخاف على مِصْر من غَلَبة الفرنج عليها، فسار بعساكره إلى السَّاحل، ففتح المُنَيْطِرة، وقلاعاً كثيرة، فخاف كلُّ مَنْ بمصر من الفرنج، فعادوا إلى السَّاحل، ثم طمعوا في مِصْر، وعادوا إليها سنة أربع وستين [وخمس مئة][١]، وسنذكره إنْ شاء الله تعالى.

وفيها احترقت اللَّبَّادين وباب السَّاعات بدمشق حريقاً عظيماً صار تاريخاً، وسببه أنَّ بعض الطَّبَّاخين أوقد ناراً عظيمة تحت قدر الهريسة ونام، فاحترق دُكَّانه، ولعبتِ النَّار في اللَّبَّادين، وتعدَّت إلى دورٍ كثيرة، ونُهِبَتْ أموالٌ عظيمة، وأقامت النَّار تلعبُ أياماً كثيرة.

وفيها قدم [أبو حامد محمّد بن محمّد الأصفهاني الملقب بالعماد الكاتب إلى][٢] دمشق، فأنزله القاضي كمال الدين الشَّهْرُزُوري بالمدرسة التي بناها نور الدين بنواحي باب الفرج [عند حمام القصير للشافعية][١]، وهي تنسب إلى العماد، وإلى هلمَّ جَرًّا، ثم ولاه إياها نُور الدِّين في سنة سبعٍ وستين [وخمس مئة][١] بعد الفقيه ابن عبد، وكان بين العماد ونجم الدِّين أيوب وأسد الدين شيركوه معرفةٌ، لأنَّ عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السُّلطان محمود [بن محمد بن محمد بن ملك شاه][١] بقلعة تكريت لما كان نجم الدين واليها [وقد ذكرناه][١] فانتسجت المودَّة بينهم من هناك، فلما قدم العماد دمشق بكَّرَ نجمُ الدين إلى زيارته بقصد تعظيمه بذلك، وكان صلاح الدين مع أسد الدين بمصر، فمدح العماد نجمَ الدِّين أيوب، فقال: [من البسيط]

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): وفيها قدم العماد الكاتب إلى دمشق، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

يومُ النَّوى ليس من عُمْري بمحسوبِ ولا الفِراقُ إلى عَيْشي بمنسوبِ
ما اخترتُ بُعدَكَ لكنَّ الزمانَ أتى كَرْهاً بما ليس يا محبوبُ محبوبي
أرجو إيابي إليكم ظافراً عَجِلاً فقد ظَفِرْتُ بنجم الدِّين أيوبِ
موفَّقُ الرأي ماضي العَزْم مرتفعٌ على الأعاجم طُرًّا والأعاريبِ
أحبَّك الله إذْ لازمتَ سَجْدَتَهُ على جبينٍ بتاج الملك معصوبِ
أخوك وابنكَ عِزًّا منهما اعتصما بالله والنَّصْر وعدٌ غيرُ مكذوبِ
هما هُمامان في يومَيْ وغًى وقِرًى تعوَّدا ضربَ هامٍ أو عراقيبِ
ليستقرَّ بمصر يوسفٌ وبه تَقَرُّ بعد التَّنائي عَيْنُ يعقوبِ
ويلتقي يوسفٌ فيها بإخوته والله يَجْمَعُهُمْ من غير تَثْريبِ(١)

وفيها توفي

أحمد بن علي بن الزُّبير(٢)

القاضي الرَّشيد، أصله من أُسْوان، وسكن مِصْر، وكان من شعراء شاور وابنه الكامل، وله فيهما مدائح، إلا أنه لم ينجُ من شَرِّ شاور؛ اتهمه بمكاتبة أسد الدين، وأنه أعان عليه، فقتله، وله تصانيفُ حسان، منها كتاب «جِنان الجَنَان ورياض الأذهان»(٣)، ذيَّل به «اليتيمة»، وكان قد دخل اليمن، وهو القائل: [من الطويل]

تواصى على ظُلْمي الأنامُ بأَسْرهمْ وأظلمُ مَنْ لاقيتُ أهلي وجيراني
لكلِّ امرئ شيطانُ جِنٍّ يكيده بسُوءٍ ولي دون الورى ألفُ شيطانِ(٤)

وقال يمدح طلائع بن رُزِّيك: [من مجزوء الكامل]

جارى الملوكَ إلى العُلا لكنهم ناموا وأَسْرَى

(١) الأبيات في «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٧-١٨ .
(٢) له ترجمة في: «معجم الأدباء»: ٤/ ٥١-٦٦ ، و«خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٠-٢٠٢ ، و«الروضتين»: ٢/ ٢٥ ، و«وفيات الأعيان»: ١/ ١٦٠-١٦٤ ، و«الطالع السعيد»: ٩٨-١٠٢ ، و«الوافي بالوفيات»: ٧/ ٢٢٠-٢٢٥، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٩٧-٢٠٣ ، «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٧٣-٣٧٤.
(٣) كان في أربع مجلدات، ولما يصل إلينا.
(٤) البيتان في «الخريدة»، قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٣ .

سـائِـلْ بـه عَـصَـبَ الـنِّـفـا قِ غـداةَ أمـسـى الـقـوم أَسْـرى
قـسـمـاً بـمـنْ طـاف الـحـجـيـ ـج بـبـيـتـه شُـعْـثـاً وغُـبْـرا
لـولا طـلائـعُ لـم نـكـن نـرجـو لـمَـيْـتِ الـمُـلْـكِ نَـشْـرا[1]

[وفيها توفي][2]

الخضر بن شِبْل[3]

ابن الحسين بن عبد الواحد، أبو البركات، [الدمشقي الشافعي، خطيب جامع دمشق، ومدرس الزاوية الغربية][4]، ويعرف بابن عبد، كان عارفاً بالأُصولين والمذهب، نَزِهاً، عفيفاً، ذا مروءة ظاهرة، وكرم وافر، دَيِّناً صالحاً، ثقة صدوقاً.

ولد سنة ست وثمانين وأربع مئة، [وسمع شيوخ دمشق أبا القاسم النَّسيب، وأبا الحسن ابن الموازيني، وأبا طاهر الحِنَّائي، وغيرهم، درس بالزاوية الغربية][2] وبالمدرسة المجاهدية، ووقف عليه نورالدين مدرسته التي بباب الفرج، ومنه انتقلت إلى العماد الكاتب.

ظَفَر ابن الوزير[5]

يحيى ابن هُبَيْرة، شَرَف الدِّين.

ناب عن والده في الوِزارة، قال العماد: قال لي ابنُ الوزير يوماً ببغداد: قد وازنتُ قصيدةَ مهيار التي أوَّلها: [من الرمل]

بـكَّـر الـعـارِضُ تـحـدوه الـنُّـعـامـى وسُـقِـيْـتِ الـغـيـثَ يـا دارَ أُمـامـا

قال: فقلتُ:

أَخْـلَـفَ الـغَـيـثُ مـواعـيـدَ الـخُـزامـى فـقـفِ الأنـضـاء تـسـتـسـقي الـغَـمـامـا

---

(١) الأبيات في المصدر السالف مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) مابين حاصرتين من (م).

(٣) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»: ٥/ ٦٥١-٦٥٢ (وترجمته فيه من زيادات القاسم على تاريخ أبيه)، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٩٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء العراق: ٢/ ١٠١-١٢٠، والأبيات فيه.

وأبحني ساعةً من عُمُري ... أملأ الدَّار شكاةً وغراما
أصف الأشواق في[1] تلك الرُّبا ... وأعاطي التُّرب رَشْفاً والتثاما
يا ولاة الغَدْر ما دينُكُمُ ... أحرامٌ فيه أنْ تقضوا الذِّماما
أنا مِنْ أَسْرِ الهوى في رِبْقةٍ ... حكمتْ للحرِّ فيها أن يُساما
وطني حيثُ أناخَتْ عِيْسُكُمْ ... ومقامي حيثما اخترتم مقاما

ثم قال لي: وازنها، فقلت: [من الرمل]

خَطَرَتْ تحملُ من سَلْمى سلاما ... فانثنى يشكُرُ إنعام النُّعامى
مُغْرمٌ هاجت جواه نَسْمَةٌ ... يا لها من نسمةٍ هاجتْ غراما
نفحةٌ أذكت بقلبي لفحةً ... كلَّما هَبَّت له زادت ضِراما
يا لأوطاري فقد أَنْشرها ... نشرها من بعد ما كانت رِماما
ذكَّرت ريحُ الصَّبا روحي الصِّبا ... وزماناً كنتُ بل كان غلاما
ونديماً ليَ لم أندمْ به ... يا رعاه الله من بين النَّدامى
قال ما أطيبَ أيام الصِّبا ... قلتُ ما أطيَبَه لو كان داما
أنْجِداني فبنجْدٍ أرَبي ... حينَ غيري شامَ بالغَوْرِ الشآما
وانشُرا عنديَ أخبار الحِمى ... فبأخبار الحِمَى قلبيَ هاما
ناظري من دمعتي في شُغُلٍ ... فانظُرا عنيَ هاتِيكَ الخِياما
عَلِّلاني بأحاديثهم ... فأحاديثُهمُ تَشْفي الأُواما
هذه أطلالهم تشكو الظَّما ... فدعا الأَدْمُعَ تنهلُّ انسجاما
وقفا نَسْتَسْقِ جَدْوى ظَفَرٍ ... فهو من بخَّلَ بالجود الغَماما

من أبيات.

وقد وازنها جماعةٌ، ولم يبلغ أحدٌ شأو مهيار في قوله: [من الرمل]

حَمِّلوا ريح الصَّبا نَشْرَكُمُ ... قبل أن تحمل شيحاً وثماما
وابعثوا أشباحكم لي في الكرى ... [إن أذنتم لجفوني أن تناما][2]

---

(١) في (ح): إلى، والمثبت من «الخريدة»: ٢/ ١١٠.

(٢) ما بين حاصرتين من «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١١٧.

ولما مات الوزير عزمَ ظفر على الخروج من بغداد، فَقُبِضَ عليه، وقُتل، وأُخرج ميتاً في صفر، فحمل إلى أبيه، فدفن عنده.

محمد بن الحسن[١]

ابن علي، أبو المعالي ابن حَمْدُون، الكاتب، كان فاضلاً فصيحاً، وله اختصاصٌ بالمستنجد، يجتمع به ويذاكره، وولاه ديوان الزِّمام، وكان كريمَ الأخلاق، حَسَنَ العِشْرة، وكتابه «التذكرة»[٢] كتابٌ نافع، وتوفِّي في ذي القَعْدة، ودُفِنَ بمقابر قريش، وكان صدوقاً ثِقَةً.

الموفق بن أحمد[٣]

ابن محمَّد الخُوارَزْمي، أبو المؤيَّد، خطيب خوارزم، قدم بغداد حاجاً سنة نيف وأربعين، وعاد إلى خوارزم، فتوفي بها، ولما حَجَّ رأى الخدم يُلْبِسُون الكعبة السِّجاف، فقال: [من البسيط]

أملبسَ البيت أستاراً ظواهرها تبلى كما بليت يوماً بواطنُها
الله ألبسه من فَضْلِه خِلَعاً يبلى الزمان[٤] ولا تبلى محاسنها[٥]

يحيى بن عبدالله[٦]

ابن القاسم، تاج الدِّين الشَّهْرُزوري.

كان فاضلاً شاعراً، وكانت وفاته بالموصل، ومن شعره يوازن قصيدة مهيار التي يقول فيها: [من المتقارب]

---

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٢١-٢٢٢ ، و«الخريدة»، قسم شعراء العراق: ٢/ ١٨٤ ، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٨٠-٣٨٢ ، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ٣٥٧ ، و«فوات الوفيات»: ٣/ ٣٢٣-٣٢٤ ، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٧٤ ، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٠٦ .

(٢) حققه د. إحسان عباس، ونشرته دار صادر في بيروت سنة ١٩٩٦ .

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم «شعراء أصبهان»: ٢/ ١٧٣-١٧٤ وفيه توفي بعد الستين. و«إنباه الرواة»: ٣/ ٣٣٢ ، و«العقد الثمين»: ٧/ ٣١٠-٣١١ ، و«الجواهر المضية»: ٣/ ٥٢٣ ، و«بغية الوعاة»: ٢/ ٣٠٨ ، وفيها وفاته سنة (٥٦٨هـ).

(٤) في النسخة الخطية لا تقرأ، وأثبتها من إحدى نسخ «الخريدة».

(٥) البيتان في «الخريدة» مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٦) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم «شعراء الشام»: ٢/ ٣٤٠-٣٤٢ وفيه توفي سنة ٥٦٦هـ، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤٥ وفيه أنه توفي سنة ٥٥٦هـ، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٣٣٣ ، وفيه توفي سنة ٥٥٦ هـ.

وعَطِّلْ كُؤوسك إلا الكبار تجد للصِّغار أُناساً صِغارا[١]

فقال يحيى: [من المتقارب]

وَسَقِّ الندامى عقيقيَّةً تضيءُ فَتَحْسَبُ في الكأسِ نارا
تدور المسرَّة مَعْ كاسها وتتبعُه حيث ما الكاسُ دارا
ولا عيبَ فيها سوى أنَّها متى عَرَّسَتْ بحمى الهمِّ سارا
ستلقى ليالي الهموم الطِّوال فبادِرْ ليالي السُّرور القِصارا

[فصل وفيها توفي

علي بن أبي سعد[٢]

الأَزَجي، الخَبَّاز، من باب الأَزَج:

ولد سنة خمس وثمانين وأربع مئة، وسمع الحديث، وتوفي في شعبان.

وسمع أبا القاسم بن الحُصَيْن وغيره، وروى عنه أشياخنا، وكان ثقة، وهو الذي روى عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: لما أخرج الله آدم من الجنة بكى عليه كل شيء إلا الذهب والفضة. الحديث[٣]. وهذا الشيخ هو خال يحيى بن بَوْش][٤].

السنة الثالثة والستون وخمس مئة

[ذكر جدي في «المنتظم» أن الورد ببغداد ابتاع في هذه السنة مئة][٥] رطل بقيراط وحبة. [وقال غيره: وفي هذه السنة][٦] زاد ظلم أبي جعفر بن البلدي وزيرالخليفة ومصادراته للكتَّاب والعُمَّال، وتتبّعه لأولاد ابن هُبيرة وابن رئيس الرُّؤساء وغيرهم

(١) ديوان مهيار: ١/ ٣٥٠.
(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٢١.
(٣) هو موضوع لا أصل له، انظر الفردوس للديلمي: ٣/ ٤٢٤، الموضوعات للفُتَّني: ١٦١، وكنز العمال ٣/ ٢٤٠، وساقه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية»: ٢٧٠-٢٧١ من كلام أبي العباس بن عطاء الآدمي المتوفى سنة (٣٠٩هـ) أو (٣١١هـ).
(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٥) في (ح): فيها بيع الورد ببغداد مئة رطل بقيراط وحبة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م).
(٦) ما بين حاصرتين من (م).

خوفاً من التقدُّم، فساءتِ السُّمْعة وقَبُحَتِ السِّيرة، وتجبَّر تجبراً زائداً، ولبَّس على الخليفة [وتتبع من يقع إليه بما لا يريد،][1] ولم يجد مانعاً يمنعه، ولا صادًّا يصدُّه، فاستغاثَ النَّاسُ منه إلى الله، ودعوا عليه، فأخذه الله أَخْذَ عزيزٍ مقتدر، فسلَّط عليه الحُمَّى المحرقة، وعسر البول والحصى، فكان يستغيث الليلَ والنَّهار، فلا يُغاث، ويداوى بأنواع الأدوية فلا تنجع [فيه][1]، فقال بعضُهم: [من المنسرح]

قالوا أبو جعفر يبول الحصى ... وليس يدرون فيه ما السِّرُّ
فقلتُ هذا مما يدلكُمُ ... فيه على أنَّ وَجْهَه صَخْرُ

وفيها قطع نورُ الدين الفرات، واستولى على الجزيرة والرُّها، وعاد إلى مَنْبج، وبها يَنَال بن حَسَّان، فأخذها منه، ثم أعاده إليها، فقال العماد الكاتب: [من الكامل]

أدركتَ من أمر الزَّمانِ المُشْتهى ... وَبَلغْتَ من نيل الأماني المُنْتهى
لازِلتَ نورَ الدين في فَلك العُلى ... ذا غُرَّةٍ للعالمين بها البها
كلُّ الأُمور وَهَتْ وأمرك مُبْرَمٌ ... مُسْتَحْكِمٌ لا نَقْضَ فيه ولا وَهَا
ما صِيْنَ عنك الصِّينُ لو حاوَلْتَهُ ... والمَشْرِقانِ فكيفَ منْبج والرُّها
يا محييَ العَدْلِ الذي في ظِلِّه ... من عَدْله رعَتِ الأُسودُ مع المَهَا
محمودٌ المحمودُ مَنْ أيَّامُهُ ... لبهائها ضحكَ الزَّمانُ وقَهْقها
ما للملوكِ لدى بهائك رَوْنَقٌ ... وإذا بدَتْ شَمْسُ الضُّحى خَفي السُّها
أَتْعَبْتَ نَفْسك كي تنالَ رفاهةً ... مَنْ ليس يتعب لا يعيش مُرَفَّها
ولك الفَخَارُ على الملوكِ ودونَهُمْ ... أصبحتَ من كلِّ العيوب مُنَزَّها

وفيها فوض نور الدين أمر الرُّبُط والزَّوايا والأوقاف بدمشق وحماة وحمص وبَعْلَبَكّ وغيرها إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن محمد بن حَمُّويه، وكَتَبَ له العماد منشوراً، [وذكره في «البرق الشامي»][2].

وفيها سَلَّمَ زينُ الدين علي كوجك المَوْصِل وبلادها إلى قُطْب الدِّين، وأخذ إرْبل، ومضى إليها، فتوفي بها، وولَّى قطبُ الدِّين المَوْصل مملوكه فخر الدِّين عبد المسيح،

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) سنا البرق الشامي: ١/ ١٣٥-١٣٦، وما بين حاصرتين من (م) و(ش).

فأساء السِّيرة [وسلك غير طريق زين الدِّين][1]، فكرهه الناس، فلم تطل أيامه، [وسنذكره في سنة ست وستين وخمس مئة][1].

وفيها توفي

ظافر بن القاسم[2]

أبو منصور، الإسكندراني.

شاعر فاضل، ويقال له الحَدَّاد، قال يمدح قاضي الإسكندرية ويهنئه بشهر رمضان: [من مجزوء الكامل]

شهرُ الصِّيام بك المهنَّا ... إذْ كان يُشْبِه منك فنَّا
ما سار حولاً كاملاً ... إلا ليسرق منك معنى
وينالَ منك كما ننا ... لُ ويستفيدَ كما استفدنا
بهرتْ محاسِنُك الورى ... فأعادتِ الفُصَحاءَ لُكْنا
والفَضْل أعظم بعضُ وصـ ... ـفِكَ فهو غايةُ ما وَجَدْنا
إنَّ الذي صَدَح الحما ... مُ به ثناؤك حين غَنَّى
فتهَنَّ شهرك واستزدْ ... بقدومه سَعْداً ويُمْنا
فمكانُهُ من عامِهِ ... كمكانِكَ المحروسِ مِنَّا[3]

وقال: [من الوافر]

هي الدُّنيا فلا يَحْزُنْك منها ... ولا من أهلها سَفَهٌ وعابُ
أتطلبُ جيفةً لتنالَ منها ... وتُنْكر أنْ تُهارِشَكَ الكلابُ[4]

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «معجم الأدباء»: ١٢/ ٢٧-٣٣، و«الخريدة»، قسم «شعراء مصر»: ٢/ ١-١٧، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ٥٤٠-٥٤٣، و«الوافي بالوفيات»: ١٦/ ٥٢١-٥٢٨، و«سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٥٩٧، وفيه تتمة مصادر ترجمته، ووفاته عندهم سنة ٥٢٩ هـ، ما عدا الوافي فذكر أنه توفي سنة ٥٢٥هـ، وقد تابع السبط في ذكره بوفيات هذه السنة ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٧٦-٣٧٧.

(٣) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٥-٦.

(٤) البيتان في «الخريدة»: ٢/ ٨.

وأحضره الأمير ابن ظفر والي الإسكندرية لِيَبْرُدَ له خاتماً قد ضاق في خِنْصَره، فقال: [من السريع]

قَصَّر في أوصافك العالَمُ فاعْتَرَفَ النَّاثر والنَّاظِمُ
مَنْ يكنِ البحرُ له راحةً يضيقُ عن خِنْصَرِهِ الخاتَمُ[1]

ودخل يوماً على الأمير، وفي حجره غزالٌ مستأنس، فقال له بعض الحاضرين: قل فيه شيئاً. فقال بديهاً: [من المتقارب]

عجبتُ لجرأة هذا الغزالِ وأمرٍ تهيَّا له واعتمدْ
وأعجبْ به إذْ بدا جاثماً فكيف اطمأنَّ وأنتَ الأَسَدْ

فأمر له بعطاء[2].

وكان على بابِ الأمير شِباكاً تمنع العصافير، فقال له ممتحناً: قُلْ فيها شيئاً، فقال: [من المتقارب]

رأيتُ ببابك هذا المنيفِ شِباكاً تُحيِّر مَنْ قد شَبَكْ
وفكَّرْتُ فيما جرى لي فقلتُ مكانَ البحورِ يكونُ الشَّبَكْ[2]

وقال: [من الطويل]

ألا رُبَّ من يلقاك في زِيِّ ناسكٍ كسُفْيانِ الثَّوريِّ وابنِ عياضِ
يميلُ على مالِ الأنامِ كأنَّه فريسةُ صيدٍ وهو ليثُ غياضِ
فيا مَنْ يرى أنَّ الرِّياءَ وسيلةٌ تَنَبَّهْ فما الرَّحمنُ عنكَ براضِ

وقيل: هي لغيره.

عبد الرَّحيم بن رُسْتم[3]

أبو الفضائل الزَّنْجاني الشَّافعي، [قاضي بعلبك، تفقه ببغداد على أبي منصور الرَّزَّاز، وقدم][4] دمشق سنة تسع وثلاثين، ودرس بالزَّاوية الغربية في الجامع،

(١) البيتان في «الخريدة»: ٢/ ١٥ .

(٢) البيتان في «الخريدة»: ٢/ ١٥ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) له ترجمة في «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ١٥٨-١٥٩ ، و«طبقات الإسنوي»: ٢/ ٨ ، و«الدارس»: ١/ ٤١٨ ، وقد أحالوا في ترجمته على «تاريخ ابن عساكر»، ولم أجدها في المطبوع منه.

(٤) ما بين حاصرتين من (م).

وبالمدرسة المجاهدية، وكان فاضلاً، ولاه نورُ الدِّين قضاء بَعْلَبَكَّ، فأقام بها مُدَّة، وقُتِلَ بها، فَحُمِلَ إلى قاسيون، فدفن به.

عبد القاهر بن محمد(١)

ابن عبد الله بن محمد بن عبد الله عمُّويه(٢).

وقال ابنُ عساكر: عبد القاهر بن عبداللهَ بن محمد بن عبد الله بن سَعْد بن الحسين ابن القاسم بن النَّضْر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصِّدِّيق رضوان الله عليه، أبو النَّجيب البغدادي السُّهْرَوَرْدِي، الفقيه الواعظ، الصُّوفي(٣).

وقال ابنُ السَّمْعاني: عبد القاهر بن عبدالله بن محمَّد بن عَمُّويه، وهو عبد الله بن سَعْد بن الحسن بن القاسم بن علقمة بن النَّضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصديق(٤).

وقال محمد بن القادسي: كان من ولد الأمير حسنويه الكُرْدي، ولم يكن بكرياً، والله أعلم، نزل بغداد، وتفقَّه في النِّظامية زماناً، ثم هَبَّ عليه نسيم الإقبال والتوفيق، فدلَّه على الطريق، فانقطع عن النَّاس مدة مديدة، ثم رجع، ودعا الخَلْقَ إلى الله تعالى، فرجع جماعةٌ كبيرة بسببه إلى الله تعالى، وأنشد: [من الكامل]

يا سادةً عمروا بقلبي منزلاً ... يتعوَّضون به عن الجُدْرانِ
فتجمَّلوا ما دمتمُ سُكَّانه ... فعمارةُ الأوطان بالسكان
وتعجبوا من شجو قَلْبِ المُبْتلى ... سبحانَ من عافاكمُ وبلاني

وقال ابنُ عساكر: قدم بغداد وهو شابٌّ، وسمع بها الحديث وتفقَّه، ثم اشتغل بالزُّهد والمجاهدة حتى كان يستقي(٥) الماء ببغداد بالقربة، ويأكل من كَسْب يده، ثم

---

(١) كذا في (ح)، وكأنه نسبه إلى جده، والذي في مصادر ترجمته «عبدالقاهر بن عبد الله».

(٢) له ترجمة في «الأنساب»: ٧/ ١٩٧، و«تاريخ ابن عساكر»: مج ٤٣/ ٧١-٧٢، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٢٥، و«تاريخ إربل»: ق ١/ ١٠٧، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٠٤-٢٠٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٧٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) «تاريخ ابن عساكر»: مج ٤٣/ ٧١.

(٤) «الأنساب» للسمعاني: ٧/ ١٩٧.

(٥) في (ح): لا يستقي، والمثبت من «تاريخ ابن عساكر».

وَعَظَ، وحصل له القَبُول، وولي مدرسة النِّظامية، وقدم دمشق سنة ثمانٍ[1] وخمسين، ووعظ بها وحدَّث، وعاد إلى بغداد، وعاد عازماً على زيارة القُدْس، فلم تتفق لانفساخ الهُدْنة بين المسلمين والفرنج، وأكرمه نورُ الدِّين، وأقام بدمشق مُدَّةً يسيرة، ووعَظَ بها وحدَّث، وعاد إلى بغداد[2].

وقال: ولدتُ بسُهْرَوَرْد سنة تسعين وأربع مئة، وتوفِّي ليلة السبت ثامن عشر جُمادى الأُولى[3].

عبد الكريم بن محمَّد[4]

ابن عبد الجبار، أبو سَعْد بن السَّمْعاني التَّميمي.

ولد بمرو في شعبان سنة ست وخمس مئة، ورحل إلى البلاد، وسمع الحديث، ودخل بغداد سنة اثنتين وثلاثين[5]، وذَيَّل على تاريخ الخطيب، وكان يتعصَّب على مذهب الإمام أحمد رحمة الله عليه، ويبالغ، وطَعَنَ في جماعةٍ من أصحابه، فشفى غيظه في كتابه بما لا معنى له، فلم يُرْزق نشره لسوء قصده، فتوفي وما بلغ الأمل، ولو أن متتبِّعاً يتتَّبع ما في كتابه من الأغاليط والأنساب المختلطة، ووفاة قوم هم في الحياة، لأخرج كثيراً من الغلط، غير أنَّ الزَّمان أشرف من أن يضيع في مثل هذا، وكان مموَّهاً؛ فكان يأخذ الشيخ البغدادي، فيقعده فوق نهر عيسى، ويقرأ عليه، ويقول: حدثني فلان من وراء هذا النهر، ويأخذ آخر، ويقعده في رقة بغداد، ويسمع عليه، ويقول: حدَّثني فلان بالرَّقة، في أشياء من هذا الفن كثيرة.

ولما قدم ابن السمعاني دمشق نَزَلَ على ابنِ عساكر، وكان بينهما مؤانسة، قال ابنُ عساكر: ثم عاد من دمشق إلى بغداد فسمع تاريخ الخطيب وذَيَّله، وعاد إلى خُراسان،

---

(١) في (ح): ثلاث، وهو تحريف، والمثبت من «تاريخ ابن عساكر».

(٢) «تاريخ ابن عساكر»: مج ٤٣/ ٧٣ .

(٣) في مصادر ترجمته: جمادى الآخرة.

(٤) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»: مج ٤٣/ ١٠١-١٠٣، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٢٤-٢٢٥ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٥٦-٤٦٥ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٥) في (ح): اثنتين وثمانين، وهو تحريف، والمثبت من «المنتظم».

وعبر النهر، وحدَّث ببَلْخ دهراً، وصنَّف كتاباً سَمَّاه «فرط الغرام إلى ساكني الشَّام»، وأرسل به إلى دمشق، وهو بخطِّه في ثمانية أجزاء تشتمل على أخبار وحكايات، وكتبَ كتاباً بخطِّه فيه: [من المتقارب]

نسيمَ صَبا الوَجْد بَلِّغْ سلامي إلى ساكني أرضِ نجدٍ وشامِ
زماناً نعِمْنا بروضاتِ عَيْشٍ سَقَتْها الغوادي دموعَ الغَمَامِ
فماذا عليهم إذا ما قنعنا برَجْعِ التَّحايا وَرَدِّ السَّلام(١)

ومات بمرو في ربيع الأول ـ أو الآخر ـ سنة اثنتين وستين وخمس مئة، وغير ابن عساكر يقول في هذه السنة.

قال المصنف رحمه الله: وقد ذيل أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى الدُّبيثي على ذيل ابن السمعاني.

عليُّ بن بُكتِكين(٢)

زين الدِّين كوجك، التركي.

[وهو الذي حاصر بغداد مع محمَّد شاه وكان قصيراً جداً فلذلك سمي كوجك، وكان](٣) حاكماً على المَوْصل وغيرها، عادلاً، حسنَ السيرة، كثير الأمانة، محافظاً على الأيمان والعهود، قليل الغدر، متجاوزاً عن الزلَّات، ميمون النَّقيبة، لم يُكْسر جيشٌ هو فيه، وكان بخيلاً، ثم إنه جادَ في آخر عمره، وبنى المدارس والرُّبُط والقناطر والجسور، وحكى أنَّ بعض الجند جاءه بذنب فرس، وقال: مات فرسي، فأعطاه، وأخذ ذلك الذنب، وجاءه آخر، وقال: مات فرسي، فأعطاه فرساً، ولا زال يَتَدَاوَل ذلك الذنب اثنا عشر رجلاً وهو يعلم أنَّه الأوَّل، ويعطيهم الخيل، فلما أضجروه أنشد: [من الكامل]

ليس الغبي بسيِّدٍ في قومه لكنَّ سيد قَوْمِهِ المتغابي(٤)

---

(١) «تاريخ ابن عساكر»: مج ٤٣/ ١٠٢-١٠٣.

(٢) له ترجمة في «وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٤، و«الروضتين»: ٢/ ٣٨-٤١، وأخباره مبثوثة في تواريخ ذلك العصر.

(٣) في (ح): وغيرها، وكان قصيراً جداً عادلاً، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي: ١/ ٨٧.

فعرفوا أنَّه قد علم، فلم يرجعوا إليه، ولما كبر طرش وقَلَّ نظره، فسلَّم البلاد إلى قُطْب الدِّين، وقال: إنك لا تنتفع بي، فقد كبرت وهرمت، وضَعُفَتْ قوَّتي، وخانني سمعي وبصري. وكانت إرْبل له، أعطاه إياها أتابك زَنْكي، فمضى إليها، وأقام بها حتى توفي في ذي الحِجَّة، وكانت أيامه على المَوْصِل إحدى وعشرين سنة ونصفاً، ولم يخلف شيئاً لأنَّه أنفقه في أبواب البر [والصدقات][1] ولما توفي كان الحاكمُ بإرْبل خادِمَهُ مجاهد الدين قيماز، وملك بعده ولده زين الدين يوسف بن علي، ثم [ملك بعده][1] مظفر الدين كُوكُبُوري [بن زين الدِّين، وسنذكره][1].

محمَّد بن إسحاق[2]

ابن محمَّد بن هلال الصَّابي، من ولد غرس النعمة صاحب التاريخ.

ولد سنة إحدى وثمانين وأربع مئة، وولي ديوان الزّمام للمقتدي، وله ترسُّلٌ وكلامٌ فصيح، وهو من بيت الفَضْل والرياسة والكتابة، وتوفي في بغداد في شوال، وكان ثِقَةً.

محمد بن[3] عبد الحميد[4]

أبو الفَتْح، علاء الدِّين الرَّازي، العالم السَّمَرْقندي، صاحب «التعليقة» و«المعترض والمختلف» على مذهب أبي حنيفة.

وكان من فُرسان الكلام، قدم بغداد، وناظر وبَرَعَ، وفاق أهلها، وكان شحيحاً بكلامه، فكانوا يوردون عليه أسئلة وهو عالم بأجوبتها، فيكاد ينقطع ولا يذكرها لأحد لئلا تستفاد منه، وقيل: إنَّه تنسَّك، وتَرَكَ المناظرة، واشتغل بالخير إلى أن مات.

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٢/ ١٩١ .

(٣) له ترجمة في «الأنساب»: ١/ ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٢٦، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ٢١٨ ، «معجم البلدان»: ١/ ١٨٩ ، «لسان الميزان» ٥/ ٢٤٣ ، «الجواهر المضية»: ٣/ ٢٠٨-٢٠٩ ، «تاج التراجم»: ١٩٣-١٩٤ ، «طبقات المفسرين» للداودي: ٢/ ١٧٧ ، «الفوائد البهية»: ١٧٦ وفي الوافي والجواهر وتاج التراجم والداودي وفاته سنة (٥٥٢هـ).

(٤) في (ح) عبد المجيد، وهو تحريف، والمثبت من مصادر ترجمته.

هبة الله بن الحسن(١)

ابن هبة الله، أبو الحسين الدمشقي، [أخو الحافظ ابن عساكر، وكان هبةُ الله أسنَّ من الحافظ](٢).

ولد سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة، وسافر إلى بغداد، [وتفقه على أسعد المِيْهني، وسمع من أصحاب التنوخي والبرمكي وغيرهما، وتفقه بالشام أيضاً على الفقيه نصر](٢) ودرس بالزَّاوية الغربية بجامع دمشق، وبالمدرسة الأمينية، وسمع منه أخوه الحافظ ابن عساكر، وكان غزير العِلْم، كبير القدر، [وكان](٢) يَفْضُلُ على أخيه، وتوفي بدمشق.

هبة الله بن محفوظ(٣)

ابن الحسن أبو الغنائم، ابن صَصْرى، الدِّمَشْقي، التَّغلبي.

قَبِلَ القُضاة قوله وله عشرون سنة، وسمع الحديث الكثير، وكانت وفاته بدمشق، ودفن بباب توما عند أهله. [سمع شيوخ الشام، أبا محمد بن طاوس وطبقته، وتفقه على أبي الحسن السُّلَمي](٢) وكان صالحاً، متصدِّقاً، دَيِّناً، ثِقَةً.

فصل: وفيها توفي

يوسف بن عبدالله(٤)

ابنُ بُنْدار، الدِّمشقي الكبير.

تفقَّه ببغداد على أسعد المِيْهَني، وبرع في المناظرة، ودرَّس بالنِّظامية وبغيرها، وكان كبير القَدْر، بعثه المستنجد إلى شملة التركماني رسولاً، فمات هناك في شوال.

---

(١) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء الشام: ١/ ٢٨١، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣١١، «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٩٥-٤٩٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) له ترجمة في «طبقات الشافعية»: للإسنوي: ٢/ ١٤٣-١٤٤ نقلاً عن «تاريخ ابن عساكر»، وترجمته فيه في القسم المخروم من النسخة التي بين يدي.

(٤) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٢٦، و«الكامل»: ١١/ ٣٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥١٣-٥١٤، و«طبقات الشافعية»: للإسنوي: ١/ ٥٤٠-٥٤١، البداية والنهاية (وفيات سنة ٥٦٣هـ)، وانظر ج٢٠/ ٤٠٦، من هذا الكتاب.

وله واقعات عجيبة ببغداد حكاها أشياخنا، منها أنه كانت له بغلة حرون، ركبها يوماً، فدخلت به في درب لا تنفذ، وكان يوسف قصيراً مدوراً بعمامة كبيرة وثوب واسع الكمين، فجعل يضرب البغلة وهي تحتك بالحائط ولاتزول من مكانها، فقال: فَعَل الله بالغلام وصنع، كم أقول له: استعمل هذه البغلة تحت الرَّاوية حتى تلين آذانها، وهو لا يقبل. وهناك امرأة مُطِلَّةٌ من روزنة، فقالت له: يا فقيه، فذي ما تحمل دلو، فكيف تحمل راوية؟! فخجل، ونزل من عليها، وساقها بين يديه.

ومنها: أنه اجتاز يوماً بمحلة قَرَاح أبي الشَّحم، فنبحته كلابها، فقال: قبَّح الله كلاب هذه المحلَّة، فما أكثرها وأضراها! فقالت امرأة من طاقة: نعم، وكلهم اليوم غرباء.

ومنها أنه اجتاز على جماعة، فسلَّم عليهم، فلم ينصفوه، فقال لغلامه: ما ترى هؤلاء التيوس؟ فقال واحد منهم: الله يحفظك يا أبانا. ومن هذا شيء كثير.

السنة الرَّابعة والستون وخمس مئة

في المحرَّم ملك نورُ الدِّين محمود قلعة جَعْبر، خرج صاحبها ابنُ مالك العُقَيْلي يتصيَّد، فأخذه بنو كلب، وذهبوا به إلى نور الدين، فأحسن إليه وأكرمه، وقال: أنتَ عاجز عن حِفْظها، فاخترْ مهما شِئْتَ من الإقطاعات والبلاد. فامتنع، فأرسل إليها نور الدين فخر الدين مسعود ابن الزَّعفراني ومجد الدِّين ابن الدَّاية، فحاصراها، فلم يقدرا عليها، ثم إن صاحبها طلب من نور الدين سَرُوج وأعمالها ومالاً، فأعطاه وتسلمها. وهذه القلعة ما زالت في يد بني مالك من أيام السُّلْطان ملك شاه إلى هذه السنة، وبلغ نور الدين أنهم كان لهم رجال يقطعون الطريق.

وفي صفر خرج الفرنج من عَسْقلان والسَّاحل طالبين الدِّيار المِصْرية، فنزلوا [على][1] بِلْبِيْس، وأغاروا على الرِّيف، فقتلوا وأسروا، فأخرج شاور مَنْ كان بالقاهرة من الفرنج، وقَتَلَ البعض وهرب الباقون، وأمر شاور أهل مصر بأن ينتقلوا إلى

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

القاهرة، وأحرق مِصر، وسار الفرنج [من](١) بِلبْيس، فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر، وضايقوها، وضربوها بالمجانيق، فلم يجد شاور بُدًّا أن كاتب نورَ الدين بأمر العاضد، وكان الفرنج لما وصلوا إلى مصر في المرَّتين الأوليين اطَّلعوا على عوراتها، وطمعوا فيها، وعلم نور الدين، فاسترجع وخاف عليها، وجاءته كُتُبُ العاضد وشاور فقال نور الدين لأسد الدين: خُذِ العساكر وتوجَّه إليها، وقال لصلاح الدين: اخرج معه. فامتنع، وقال: يا مولانا ما يكفي ما لقينا من الشَّدائد! فقال: لابُدَّ من خروجك. فما أمكنه مخالفة نور الدين.

فساروا إلى مِصْر، وبلغ الفرنج، فرجعوا إلى السَّاحل، وقيل: إنَّ شاور أعطاهم مئة ألف دينار، وجاء أسد الدين فنزل على باب القاهرة، فاستدعاه العاضد إلى القَصْر، وخلع عليه في الإيوان خِلَع الوِزارة، وسُرَّ أهل مصر بوصوله.

وقيل: إنَّه لم يستدعه، وإنما بعث إليه بالخِلَع والأموال والإقامات وللأمراء الذين معه، وأقام مكانه وأربابُ الدَّولة يتردَّدون إلى خِدْمته كلَّ يوم، ولم يقدر شاور على منعهم لكثرة العساكر وكون العاضد مائلاً إلى أسد الدين، فكاتَبَ الفرنج، واستدعاهم، وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر. وبلغ أعيانَ دولة المِصْريين، فاجتمعوا عند أسد الدين، وقالوا: شاور [هو](١) فساد العباد والبلاد، وقد كاتَبَ الفرنج، وهو يكون سبب هلاك الإسلام.

ثم إنَّ شاور خاف لما تأخَّر وصول الفرنج، [فشرع](٢) في عمل دعوة لأسد الدِّين والأُمراءِ ويقبضهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال: واللهِ لئن لم تنته عن هذا الأمر لأعرِّفن أسد الدين. فقال له شاور: والله لئن لم أفعل هذا لنُقتلن كلنا. فقال: [له ابنه](١) : لأن نقتل والبلاد بيد المسلمين خيرٌ من أن نُقْتَلَ والبلاد بيد الفرنج.

وكان شاور قد شَرَطَ لأسد الدين ثُلُثَ البلاد، فأرسل [أسد الدين](١) يطلب منه المال، فجعل يتعلَّل ويماطل وينتظر وصولَ الفرنج إلى البلاد، فقتلوه، وسنذكره [في موضعه](١) إن شاء الله تعالى.

---

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): فعمل، والمثبت مابين حاصرتين من (م) و(ش).

ولما قُتِلَ بَعَثَ العاضد منشوراً بالوِزارة لأسد الدِّين بخطِّ الفاضل، وعليه بخطِّ العاضد ما صورته: هذا عهدٌ لم يعهد إلى وزيرٍ بمثله، فتقلَّد ما أراك الله أهلاً بحمله، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بقوَّة، واسحَبْ ذيل الافتخار بأنِ اعْتَرف بخدمتك بيتُ النُّبوة، والتزمْ حقَّ الأمانة تجدْ إلى الفوز سبيلاً ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[النحل: ٩١].

وأرسل العاضد نسخةَ الأَيمان إلى أسد الدين، وحَلَفَ كلٌّ واحدٍ منهما لصاحبه على الوفاء والطَّاعة والصَّفاء، فتصرَّف أسدُ الدين شهرين ومات، ولما احْتُضر أوصى إلى ابنِ أخيه صلاح الدين، فاختلف عليه جماعةٌ من الأُمراء عقيب وفاةِ أسد الدين، وبلغ نورَ الدين اتِّفاقُ الأمراء على صلاح الدين، فقال له الملك المُعَظَّم تورانشاه بن أيوب، وكان أسنَّ من صلاح الدِّين: يا مولانا أريد أن أسير إلى أخي. فقال له: إنْ كنتَ تسير على مِصْر وترى يوسف أخاك بعين أنه كان يقف في خدمتك وأنت قاعد فلا تسير، فإنك تفسد العباد والبلاد، فتحوجني إلى عقوبتك بما تستحقه، وإن كنتَ تسير إليه، وترى أنَّه قائم مقامي، وتخدمه كما تخدمني، وإلا فلا تذهب إليه. فقال: يا مولانا سوف يبلغك ما أفعل من الخدمة والطَّاعة. وسار إلى مصر، فتلقَّاه صلاحُ الدين من بِلْبِيس وخدمه، وقدَّم له المال والخيل والتُّحف، وأقام على أحسن حال، وفعل ما ضمن لنور الدين.

وكان للعاضد خادمٌ يقال له مؤتمن الخلافة، وكان مُقَدَّم السُّودان والخدم، والمشار إليه في القَصْر، فأمر بقتال الغُزِّ، واتَّفق العسكر المِصْري مع الخادم وثاروا على الغُزِّ، فقتلوا منهم جماعةً، فركب صلاح الدِّين وشمس الدولة، ودخلا إلى باب القصر، وأبلى شمس الدولة بلاءً حسناً، وقتل الخادمَ وجماعةً من السودان، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يتعتَّب عليه، ويقول: فأين أمانتُكم؟ هذا الخادم جاهل، فَعَلَ ما فعل بغير أمرنا. فقال صلاحُ الدين: نحن على الأَيمان والعهود ما نتغير، وما قتلنا إلا مَنْ قَصَدَ قتلنا.

وفيها توفي [صاحب دمشق](١)

أبق بن محمّد(٢)

ابن بوري بن أتابك طُغْتكين؛ مجير الدِّين، وهو آخر ولد طغتكين، وكان لطغتكين تاجُ الملوك بوري، فولد بوري إسماعيل ومحمود ومحمد، ولما ماتَ بوري ملك بعده ولده إسماعيل، فَقُتِلَ لفساده، وولي بعده أخوه محمود. فقتل، فولي بعده أخوه محمد، فمات، فولي بعده ابنه مجير الدين أبق بن محمد، ومات ببغداد، ودفن بداره التي عند النِّظامية، وبلغ نور الدين، فقعَدَ له في العزاء، [وقد ذكرنا سيرته](٣).

حميد بن مالك(٤)

ابن مُغْيث بن نَصْر بن مُنْقِذ، أبو الغنائم الكِناني.

ولد بشَيزر سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، ونشأ بها، ثم انتقل عنها وسكن دمشق مُدَّةً، وكان قارئاً للقرآن، فاضلاً عفيفاً أديباً، قال في وصف دمشق: [من البسيط]

ما بعد جِلَّقَ للمُرْتادِ منزلةٌ ... ولا كسُكَّانها في الأرض سُكَّانُ
فكلُّها لمجال الطَّرْفِ مُنْتَزَهٌ ... وكلُّهم لصروف الدَّهْرِ أقرانُ
وهم وإنْ بَعُدُوا مني بِنِسْبتهم ... إذا بَلَوْتُهُمُ بالوُدِّ إخوانُ

ومات أخوه يحيى فرثاه، وقال: [من الطويل]

يذكِّرُني يحيى الرِّماح شوارعاً ... وبيض المواضي جُرِّدَتْ للوقائعِ
فأقسمُ ما رؤياه في العين بهجةً ... بأحسنَ مِنْ أوصافِهِ في المسامعِ

وكانت وفاته بحلب ليلة نصف شعبان.

---

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «وفيات الأعيان»: ٥/ ١٨٨-١٨٩، و«الروضتين»: ١/ ٣٠٧، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٦٥-٣٦٦ و«العبر» للذهبي: ٤/ ١٨٥-١٨٦، و«الوافي بالوفيات»: ٦/ ١٨٨.

(٣) مابين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر حوادث سنة (٥٤٩هـ).

(٤) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»: ٥/ ٣٥٦، و«معجم الأدباء»: ١١/ ١٦-١٨، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٢٠٢.

سَعْد الله بن نَصْر(١)

ابن سعيد، أبو الحسن ابن الدَّجاجي، الواعظ الحنبلي البغدادي.

ولد في رجب سنة ثمانين وأربع مئة، وتفقَّه وناظر، وكان حلو الإيراد، كثير المطالعة، فصيحاً، خاف من الخليفة لحادثٍ نزل به، قال: فرأيت في المنام قائلاً يقول: [من الكامل]

ادفعْ بصَبْرِكَ حادثَ الأَيَّامِ وتَرَجَّ لُطْفَ الواحد العَلَّامِ
لا تأيسنَّ وإنْ تضايق كَرْبُها ورماكَ رَيْبُ صُرُوفها بسِهامِ
فله تعالى بين ذلك فَرْجَةٌ تخفى على الأبصار والأوهام
كم مَنْ نجا مِن بين أطراف القَنا وفريسةٍ سَلِمتْ من الضِّرْغامِ

وسئل عن أخبار الصِّفات، فقال: لا تتعرض لها يا عديم، وعليك بالرِّضا والتسليم، وأنشد: [من الطويل]

أبى العاتبُ الغضبانُ يا نفس أَنْ يرضى وأنتِ التي صَيَّرْتِ طاعته فَرْضا
فلا تهجري من لاتطيقين هَجْرَهُ وإنْ هَمَّ بالهِجْرانِ خَدَّك والأَرْضا

وكانت وفاته في شعبان، ودفن عند رباط الزَّوْزني، ثم نُبِشَ بعد خمسة أيام، ونقل إلى مقابر الإمام أحمد رحمة الله عليه، وكان ديناً عفيفاً ثقة.

شاور بن مجير السَّعْدِي

وزير الدِّيار المِصْرية [وقد ذكرنا وقائعه إلى هذه السنة، و(٢)] كان جَبَّاراً لا ينظر في عاقبة، سفَّاكاً للدِّماء، ممدَّحاً، [وقد مدحه عمارة اليمني الشاعر بقصائد.

(١) له ترجمة في «الأنساب»: ٤/ ٢٩٤، «المنتظم» ١٠/ ٢٢٨، «معرفة القراء الكبار»: ٢/ ١٠١٢-١٠١٣، «الوافي بالوفيات»: ١٥/ ١٨٦-١٨٧، «فوات الوفيات»: ٢/ ٤٦، «البداية والنهاية» وفيات سنة (٥٦٤هـ)، «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٠٢-٣٠٥، «غاية النهاية»: ١/ ٣٠٣، «المقصد الأرشد»: ١/ ٤٣٠-٤٣١، «شذرات الذهب»: ٤/ ٢١٢-٢١٣.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وقد سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر أخباره كذلك في «كتاب الروضتين»، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٣٩-٤٤٨.

ذكر مقتله: قد ذكرنا أنه عزم على عمل دعوة لأسد الدين والأمراء، ثم يقتلهم، وأن ابنه الكامل نهاه، [(١)] واختلفوا في كيفية مقتله على أقوال:

أحدها أنَّ الأمراء اتفقوا على قتله لما علموا بمكاتبته الإفرنج، وأَنَّ أسد الدّين تمارض، وكان شاور يخرج إليه كل يوم، والطَّبْل والبوق يضرب بين يديه على عادة وزراء مصر، فجاء ليعودَ أسدَ الدين، فقتلوه.

و[القول](١) الثاني أن صلاح الدِّين وجُرْديك اتَّفقا على قَتْله، وأخبرا أسد الدين، فنهاهما، وقال: لا تفعلا، فنحن في بلاده ومعه عسكرٌ عظيم. فسكتا، واتفق أنَّ أسد الدين ركب إلى زيارة الشَّافعي رحمة الله عليه، فأقام عنده، وجاء شاور على العادة إلى أسد الدين، فالتقاه صلاحُ الدين وجُرْديك، وقالا: هو في الزّيارة، انزل. فامتنع، فجذباه، فوقع إلى الأرض، فقتلاه.

و[القول](١) الثالث أنهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغيرِ أمر أسد الدِّين، وسحبه الغِلْمان إلى الخيمة، وانهزمَ أصحابه إلى القاهرة ليجيِّشوا عليهم، وعلم أسدُ الدين، فعاد مُسْرعاً، وجاء رسولٌ من العاضد برقعة يطلبُ من أسد الدِّين رأسَ شاور، وتتابعتِ الرُّسُل، وكان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول: لك في رقبتي أيمان، وأنا خائف عليك من الذي عندي، فلا تجئ. فلم يلتفت، وجاء على العادة، فجذبوه، وألقوه عن فرسه، وأدخله جُرْديك إلى الخيمة، وحَزَّ رأسه، فلما عاد أسد الدين استرجع، وبعث برأسه إلى العاضد، فَسُرَّ به، ودعا العاضد ولدَ شاور الكامل، فقتله في الدِّهليز، وقتل أخاه، واستوزر أسد الدِّين، وذلك في ربيع الآخر(٢).

شِيرْكُوه أسد الدين(٣)

[عم صلاح الدين](١).

أقام في الوِزارة شهرين وأياماً، لأنه وَزَرَ في سابع عشر ربيع الآخر، وتوفي فجأة يوم السبت ثاني عشر جُمادى الآخرة، [وكانت وزارته شهرين وخمسة أيام](١)، وكان كثير الأكل للحوم

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (م) و(ش): واستوزر أسد الدين على ما ذكرنا، وقتل شاور في ربيع الآخر.

(٣) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر أخباره كذلك في «الروضتين»، وفي «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٧٩-٤٨١ .

الغليظة، فكانت تتواتر عليه التُّخَم والخوانيق، فاعتراه خانوقٌ عظيم، فقتله، ودُفِنَ بظاهر القاهرة إلى أن مات أخوه نجم الدِّين أيوب، فحملا جميعاً إلى مدينة النَّبيِّ ﷺ، فدفنا في رباطيهما، وكان قد أوصى إلى ابنِ أخيه صلاح الدين، فاختلفَ الأُمراء عليه، منهم عز الدين الياروقي رأس الأتراك، وسيف الدين [علي بن أحمد الهكاري](١) المشطوب ملك الأكراد، وشهاب الدِّين محمود صاحب حارم؛ وهو خال صلاح الدين، وجماعة، وكلُّ واحدٍ منهم رام أن يكونَ له الأمر، فبادر العاضد، واستدعى صلاحَ الدين، وخَلَعَ عليه في الإيوان خِلْعة الوِزارة، وكتب عهده [كما فعل بأسد الدين](٢)، ولقبه الملك النَّاصر - وقيل: إنما لقبه المستضيء بعد ذلك - وشَرَعَ الفقيه عيسى في تفريق البعض [عن البعض](٢)، وأصلح الأمور لصلاح الدِّين، وبَذَلَ صلاحُ الدِّين الأموال، وأحسن إلى الجميع، فأطاعوه، وأقام نائباً عن نور الدِّين، يُدْعى لنور الدين على المنابر بعد العاضد، ولصلاح الدين بعدهما.

وذكر ابنُ عساكر أسدَ الدِّين، فقال: ولي دمشق مُدَّة، وقام بحرب الفرنج، وفتح حُصُوناً كثيرة، وكان شجاعاً مقداماً، صارماً، مهيباً، وحَجَّ سنة خمسٍ وخمسين [وخمس مئة، وذكر فتوح مصر(٣).

انتهت ترجمة أسد الدين، والحمد لله وحده، وصلى على أشرف خلقه محمد، ﷺ](٢).

عبد الخالق بن أسد(٤)

ابن ثابت، أبو محمَّد الدِّمَشْقي.

كان عارفاً بالحديث، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، ودرَّس بالصَّادرية بدمشق، وكان مُفْتياً، وكانت وفاته بدمشق، ومن شِعْره: [من مجزوء الكامل]

قال العواذِلُ ما اسم مَنْ أَضْنى فُؤادك قلتُ: أَحمَدْ
قالوا أَتَحْمَدُهُ وقد أضنى فؤادك قلت: أَحْمَدْ

(١) في (م) و(ش): أحمد بن علي الهكاري المشطوب، وهو قلب، والصواب ما هو مثبت.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) «تاريخ ابن عساكر»: ٨/ ١٧٠-١٧١.
(٤) له ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٩٧، و«العبر»: ٤/ ١٨٧، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ٥٤، و«الجواهر المضية»: ٢/ ٣٦٨-٣٧٠، وفيه توفي سنة (٥٨٣هـ) وقد انفرد بذلك، و«تاج التراجم»: ١٣٣-١٣٤، و«الطبقات السنية»: ٤/ ٢٧٤-٢٧٥، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢١٢، و«الدارس»: ١/ ٥٣٨، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٨١.

محمد بن عبد الملك بن عبد الحميد(١)

أصله من مَيَّافارِقين، وانتقل إلى بغداد، فأقام بها، وكان صالحاً زاهداً، يتكلَّم على النَّاس بجامع الخليفة على السجَّادة قاعداً، وربما قام على قدميه قائماً، وكان يحفظ «نهج البلاغة»، وكان لكلامه في القلوب موقع، وتوفي في رجب ببغداد بباب أبرز، وعمره إحدى وسبعون سنة.

وله نَظْمٌ ونَثْر، فمن ذلك: اللهم إنِّي أعوذُ بك من حركات الهوى واللهو، وسكنات البلادة والسَّهو، أطلعْ ثمارَ الأماني من أغصان آمالنا، لُمَّ بلُطْفك شَعَثَ أحوالنا.

ولما حُوصرت بغداد، قال: عساكر الأقضية والأقدار مُحْدِقةٌ بأسوار الأعمار، تَهْدِمُها بمعاول اللَّيل والنهار، فلو أضاء لنا مِصْباحُ الاعتبار، لم يبق لنا سكونٌ ولا قَرَار.

وقال: الخَلْوة لقومٍ سرور، ولآخرين غرور، ولا تنظروا إلى المَجَازِيَّات الزَّائلات، وانظروا إلى الحقائق الدائمات.

وقال: اللهم، سَلِّمْ القلوبَ من سُموم الهموم، بدِرْياق الثقة بالرِّزق المقسوم.

ومن شعره: [من البسيط]

يا مَنْ يرى خدمة السُّلْطان عُدَّته ... ما أرْشُ كدِّكَ إلَّا الهَمُّ والنَّدمُ
دعِ الملوكَ فخيرٌ من طِلابك ما ... ترجوه عندهُمُ الحِرْمانُ والعَدَمُ
إني أرى صاحِبَ السُّلْطان في ظُلَم ... ما مِثْلُهُنَّ إذا قاس الفتى ظُلَمُ
فقلبُه تَعِبٌ والنَّفْسُ خائفةٌ ... وعِرْضُه عُرْضة والدِّينُ منثلمُ(٢)

السنة الخامسة والستون وخمس مئة

فيها نزل الفرنج على دِمياط يوم الجُمُعة ثالث صفر، وجدُّوا في القتال، وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوماً يضربونها بالمجانيق، ويزحفون عليها ليلاً ونهاراً، ووجَّه صلاحُ الدِّين إليها العساكر مع خاله شهاب الدِّين وتقيِّ الدِّين، وطلب من العاضد

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٤٣١-٤٥٤، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٢٩، و«الوافي بالوفيات»: ٤/ ٢٤٤، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢١٤.

(٢) نسبت الأبيات إلى أبي الفتح البستي، وهي في «ديوانه»: ١٧٦-١٧٧، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

مالاً، فبعث إليه بشيءٍ كثير، فكان صلاحُ الدِّين يقول: ما رأيتُ أكرمَ من العاضد، جهَّز إليَّ في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثِّياب وغيرها.

وأشغل نور الدِّين بلاد الفرنج بالغارات، ووقع فيهم الوباء والفناء، فرحلوا في ربيع الآخر(١) بعد أن مات منهم خَلْقٌ كثير.

وفي رجب وصل نجمُ الدِّين أيوب إلى مِصْر، وكان صلاح الدين قد طلبه من نور الدين، فخرج صلاحُ الدين وجميعُ الأُمراء إلى لقائه، وترجَّل صلاحُ الدين والجميع، ومشوا في رِكابه، وقال له صلاح الدين: هذا الأمر لك، ونحن بين يديك. فقال له: يا بُني ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أَهْلٌ له. وحكَّمه في الخزائن، فكان يُطْلق ولا يردُّ أحداً.

وكَثُرَ فساد الغُزِّ، فكتب العاضد إلى نور الدين يسأله أن يكون صلاحُ الدين وأصحابه وخواصُّه مقيمين عنده، والباقون يرجعون إلى الشَّام، فلم يُجِبْه، وقال: هؤلاء فرسان الإسلام، وليس للفرنج إلا سهامهم. وكَتَبَ إلى صلاح الدين يكفُّهم عن الفساد.

وفي شعبان سار نور الدِّين إلى الكَرَك، فنازله، وضربه بالمجانيق، واجتمع ملوك السَّاحل، وجاؤوه فتأخر إلى البَلْقاء.

وفي شوال كانت بالشام زلازلُ هائلةٌ بحيث وقع مُعْظم دمشق وشرّافات الجامع، وتشقق رؤوس المنائر، وكانت تهتز مثل النخل في يوم ريحٍ عاصف، وكانت بحلب أعظم بحيث وقع نصف القلعة والبلد، فَهَلك من أهلها ثمانون ألفاً تحت الهَدْم، وتهدَّمت أسوارُ جميعِ القلاع، وخرج أهلُها إلى البراري.

ووقعت قلعة حِصْن الأكراد، بحيث لم يبق للسُّور أثر، وكذا حماة وحمص، ولولا أن نور الدين كان بالبَلْقاء والفرنج في قتاله لسار وأخذ حِصْن الأكراد.

وجاءه ما شغل قلبه من ناحية الشَّرْقِ ودمشق: أمَّا من [ناحية](٢) الشرق فوفاة أخيه قُطْب الدين مودود بالمَوْصِل، وأمَّا [من](٢) دمشق فوفاة العمادي، وكان نائبه في حلب وغيرها، وكانت له بَعْلَبَكّ وتدمر، وكان عزيزاً عنده، وصاحبه وحاجبه.

(١) عن العماد: فرحلوا في الحادي والعشرين من ربيع الأول، انظر «الروضتين»: ٢/ ١٤٢.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وبلغه أيضاً وفاةُ مجد الدِّين ابن الدَّاية بحلب، وكان صاحبَ أمره، وسار نورُ الدِّين إلى حلب خوفاً عليها من العدو؛ لأن أسوارها تهدَّمت، وفرَّق العساكر في القلاع خوفاً عليها من العدو؛ لأنها بقيت بغير أسوار.

وفي الزلزلة يقول العماد: [من الخفيف]

سَطْوَةٌ زَلْزَلَتْ بِسُكَّانِها الأرْ ضَ وهَدَّت قواعِدَ الأَطْوادِ
خَفَضَتْ من قِلاعِها كُلَّ عالٍ وأعادَتْ قِلاعَها كالوادِ

وكانت هذه الزلزلة عامةً في الدنيا، أخربت [قلاع المسلمين وبلادهم بالشَّام و[1]] حلب والعواصم وأنطاكية، ونزلت اللاذقية وجبلة، وجميعَ بلاد السَّاحل إلى الدَّاروم، و[يقال إنَّه][1] لم يمت بدمشق إلا رجلٌ واحد أصابه حجرٌ وهو على دَرَج جيرون، لأنَّ أهلها خرجوا إلى الصَّحراء.

ثم امتدَّت الزلزلة، وقطعت الفرات، فوصلت إلى المَوْصِل وسِنْجار ونَصِيبين والرُّها وحَرَّان والرَّقَّة ومارِدين وغيرها، وامتدت إلى بغداد وواسط والبَصْرة، وجميع بلاد العراق، ولم يَرَ النَّاس زلزلةً من أَوَّل الإسلام مِثْلَها أفنتِ العالم.

وفيها أمر نور الدين بعِمارة جامع داريَّا القائم الآن، وكان قديماً عند قُبَّة أبي سليمان الدّارَاني، فأحرقوه لما نزلت الفرنج على داريا في أيام مجير الدين أبق، فعمر نور الدين في هذه السنة هذا الجامع الذي في وسط القرية.

[فصل: وفيها توفي

[علي بن] هبة الله[2]

ابن محمد بن أحمد بن أبي البركات، البخاري، الفقيه الشافعي.

تفقَّه ببغداد على أسعد المِيْهني، وسمع أباه، وولي القضاء بقونية من بلد الروم.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «التكملة لوفيات النقلة»: ١/ ٢٨١ (في ترجمة ابنه علي حوادث سنة (٥٩٣هـ)، و«الوافي بالوفيات»: ٢٢/ ٢٨٣، و«طبقات الشافعية»: للسبكي: ٧/ ٢٣٨، و«طبقات الشافعية»: للإسنوي: ٢/ ١٧٤، وابنه علي سترد ترجمته في وفيات سنة (٥٩٣هـ)، وما بين حاصرتين من مصادر ترجمته، وسياق هذه الترجمة.

وابنه علي بن علي ولي القضاء ببغداد، وكنيته أبو طالب، وناب في الوزارة. ومات ابنه علي ببغداد في سنة ثلاث وتسعين وخمس مئة، وعقبه اليوم ببغداد قضاة، يقال لهم: بيت البخاري][1]

وفيها توفي

الحسين بن محمد[2]

أبو المُظَفَّر ابن السِّيْبي البغدادي.

كان يلي ضياعاً للخليفة من بلد قُوسان، فرُفِع إليه أنَّه خان، فحبسه، فكتب إلى أهله من الحبس لنفسه: [من الطويل]

سلامٌ على أهلي وصَحْبي وجُلَّاسي ... ومَنْ في فؤادي ذكرُهُم راسبٌ راسي
أحبةَ قلبي قَلَّ صبريَ عنكُمُ ... وزاد بكم وجدي وحُزْني ووسواسِي
أعالجُ فيكُمْ كلَّ همٍّ ولا أرى ... لداءِ همومي غيرَ رؤيتكُمْ آسي
خذوا الواكِفَ المِدْرار من فَيْضِ أدْمُعي ... وحَرّ لهيبِ النَّارِ من كَرْبِ أنفاسي
لقد أبدتِ الأيَّامُ لي كلَّ شِدَّةٍ ... تشيبُ لها الأكبادُ فَضْلاً عن الرَّاسِ
أقول لقلبي والهمومُ تنوشُهُ ... وقد حدَّثَتْه النَّفْسُ بالصَّبْر والياسِ
وكيف اصطباري عنكُمُ وتجلُّدي ... على فَقدكُمْ ويلي على قلبيَ القاسي
ومَنْ لي بطيفٍ منكُمُ أنْ يزورني ... على الليلة الليلاء في جُنْحِ ديماسي[3]

حمَّاد بن منصور البُزَاعي[4]

ويعرف بالخرَّاط، شاعر فصيح، فمن شعره: [من الرجز]

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٣١، و«خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٨٥-١٨٦، و«الكامل»: ١١/ ٣٤٩، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٤٠-٤١.

(٣) القصيدة في «المنتظم» و«الكامل»: مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٤) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء الشام: ٢/ ١٣٠-١٥٢، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ١٤٨-١٥٠، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٨٣.

تَـوَلَّـعـي يـا نـسـمـاتِ نَـجْـدِ بـالـشِّـيـح فـي ذاك الـحِـمـى والـرَّنْـدِ
لـعـلَّ ريـاكِ إذا مـا نَـفَـحَـتْ يـعـودُ حَـرُّ لَـوْعـتـي بـبَـرْدِ
أصبـو إلـى ريـح الـصَّـبـا لـو أنـهـا تُـهـدي حديث الـحـيِّ فيما تُـهـدي
اسـأَلـهـا هـل صَـافـحـتْ مـواقـفـاً أَوَدُّ لـو صـافَـحْـتُـهـا بـخـدِّي
أَسْـتـودِعُ الـلـهَ بـهـا قَـلْـبـي فـقـد طـال بـه بـعـد الـفِـراق عَـهْـدِي
كـان مـعـي قـبـل رحـيـلـي عـنـهُـمُ ثُـمَّ رَحَـلْـتُ وأقـام بـعـدي
لـهـفـي عـلـى زمـانِ قُـرْبٍ مـا وفـى بـمـا أُلاقـي مـن زمـانِ الـبُـعْـدِ
أبـكـي ويـبـكـي رحـمـةً لـي مـعـشـرٌ مـا عـنـدهُـمْ من الـهـوى مـا عـنـدي
تـجـمَّـعـوا فـيـك عـلـى الـحُـبِّ مـعـي لـكـنـنـي كـنـتُ الـمُـعَـنَّـى وَحْـدي
ويـلاه مـن شَـوْقٍ تـبـيـتُ نـارُهُ تـشـبُّ بـيـن أَضْـلُـعـي وجِـلْـدي
يـا بَـيْـنُ أنـجَـزْتَ وعـيـدي فـمـتـى تُـنْـجِـزُ أيـامُ الـلِّـقـاء وَعْـدي[1]

وقال: [من المنسرح]

مـوسـى هـواكـمْ بـجـانـبِ الـطُّـورِ يـسعـى بـقـلـبٍ في الـحـبِّ مـكـسـورِ
حـيـرانَ فـي ظُـلْـمـة الـرَّجـاء فـهـل نـارُ انـعـطـافٍ تُـدْنـيـه مـن نـورِ
نـادُوه سِـرًّا بـكُـنْـهِ سِـرِّهُـمُ لُـطْـفـاً ونـاجـوه بـالـمـعـاذيـرِ[2]

وقال: [من مجزوء المتقارب]

تـكـلَّـمَ بـالأَدْمُـعِ وقـال فـلـم تـسـمـعـي
شـكـا بـالـبُـكـا لـو رحـمـتِ شـكـوى فـتـى مـوجَـعِ
وأشـفَـقَ يـوم الـنَّـوى عـلـى سِـرِّه الـمُـوْدَعِ
ودلَّ بـمـاء الـجـفـون عـلـى الـنَّـار فـي الأَضْـلُـعِ[3]

---

(١) القصيدة في «خريدة القصر»: ٢/ ١٣٣-١٣٤ .

(٢) الأبيات من قصيدة في «الخريدة» قسم شعراء الشام: ٢/ ١٤٧-١٤٩ .

(٣) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ١٤٥-١٤٦ .

طاووس أم المستنجد[١]

كانت كثيرة الصَّدقات والمعروف، توفيت في ذي الحِجَّة، وحملت إلى ترب الرُّصافة، وكان الوزير وأربابُ الدولة قياماً إلى السُّفن، وهي في الزَّبْزب، وجلس الوزير لها في العزاء ثلاثة أيام.

علي بن ثَرْوان[٢]

ابن زيد بن الحسن، أبو الحسن الكِنْدي، ابن عم تاج الدين الكندي.

كان فاضلاً، أديباً، حسن الخط، سكن دمشق، وتوفي بها، وحظي عند نور الدين، ومن شعره: [من الرمل]

هَتَكَ الدَّمْعُ بصوبٍ هَتِنٍ ... كلَّ ما أضمرتُ من سرٍّ خَفِي
يا أخِلائي على الخَيْفِ أما ... تَتَّقونَ الله في حَتْفِ المَطِيّ

محمّد بن إبراهيم بن هانئ[٣]

أبو القاسم المغربي.

من شعراء الدولة المِصْرية، ومن شعره: [من الرمل]

امسحوا عن ناظري كحل السُّهادِ ... وانفُضُوا عن مضجعي شوكَ القَتَادِ
أَوْ خُذوا مني الذي أبقيتمُ ... ما أُحب الجسمَ مسلوبَ الفُؤادِ
هل تجيرون محباً من هوًى ... أو تفكُّون أسيراً من صِفاد

---

(١) لها ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٣١-٢٣٢، وفيه أنها توفيت يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء الشام: ١/ ٣١٠-٣١٢، وفيه وفاته بعد ٥٦٥هـ، و«معجم الأدباء»: ١٢/ ٢٧٥-٢٧٧، «إنباه الرواة»: ٢/ ٢٣٥، «بغية الوعاة»: ٢/ ١٥٢.

(٣) «الوافي بالوفيات»: ١/ ٣٥٢-٣٥٥ واسمه محمد بن هانئ، ولم يذكر في آبائه إبراهيم غير الصفدي، فإن كان هو ابن هانئ الشاعر المشهور، فقد توفي سنة (٣٦٢هـ) على قول ابن خَلِّكان، وسنة (٣٦٥هـ) على قول السبط، يقوي ذلك إيراده قصيدة: امسحوا عن ناظري كل السهاد، فقد أوردها الصفدي في ترجمته ١/ ٣٥٢-٣٥٥. أما إذا كان غيره فلم أقف على ترجمته إلا أنني وجدت في «الخريدة»، قسم شعراء مصر: ١/ ٢٤٨ ترجمة محمّد بن هانئ، وكناه أبا عبد الله وقال: توفي في آخر أيام الصالح بن رزيك قبل سنة ستين، وانظر مصادر ترجمته في «السير»: ١٦/ ١٣١.

فـعـلـى الأيـام مـن بـعـدكُـمُ ما على الثكلاء من لبس الحداد
وحـديـثٍ عـنـكُـمُ أكـثـره عن نسيمِ الرِّيح أو بَرْقِ الغوادِ
لـم يـزدنـا الـقُـرْبُ إلا هَـجْـرَهُ فرضينا بالتَّنائي والبِعادِ

وقال: [من المتقارب]

صـهِ كـلُّ آتٍ قـريـبُ الـمـدى وكلُّ حياةٍ إلى منتهى
ولـم أر كـالـمـرءِ وهـو الـلَّـبـيـبُ يرى مِلءَ عَيْنيه ما لا يُرى
ولـيـس الـنـواظـر إلا الـقـلـوبُ وأما العيون ففيها العمى
خـلـيـلـيَّ هـل يـنـفـعـنِّي الـبـكـا أو الوَجْدُ لي راجعٌ ما مضى
هـلـمـوا فـذا مـصـرع الـعـالـمـيـن ففي كلِّ قلبٍ عليه أسى
ضـريـحٌ سَـقَـتْـه غِـزارُ الـدُّمـوعِ فما باتَ حتى سقاه الحَيَا
ومـا جـادَهُ الـغـيـثُ مـن غُـلَّـةٍ ولكن ليبكِ النَّدى بالنَّدى

وقال في مرض بعض الأمراء: [من البسيط]

يا خير ملتحف بالجودِ والكَرَمِ وأفضل النَّاس من عُرْبٍ ومن عَجَمِ
يا ابنَ الهدى والندى والمكرمات معاً والحِلْم والعِلْم والآداب والحِكَمِ
لو كنت أُعطى المنى فيما أُوَمِّلُهُ حَمَلْتُ عنك الذي حُمِّلْتَ من ألم
الله يعلمُ أنِّي مُذْ سمعتُ بما عَرَاكَ لم أغتمضْ وَجْداً ولم أنَمِ
أدعو وطوراً أجيل الوَجْهَ مُبْتهلاً على صعيد الثَّرى في حِنْدسِ الظُّلَمِ

مودود بن زَنْكي(١)

[ولقبه](٢) قُطْبُ الدِّين، [أخو نور الدين محمود،](٢) صاحبُ المَوْصِل.

كان أسمَرَ اللون، تامَّ القامة، عادلاً، منصفاً، ولما احْتُضِرَ أوصى إلى ولده عماد الدين زنكي، وكان أكبرَ ولده وأعزَّهم عليه، وكان الحاكم على المَوْصل فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عمادَ الدين، وكان عمادُ الدين قد أقام عند نور الدِّين بحلب

(١) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٣٥٥-٣٥٦، و«الباهر»: ٩٤، ١٤٦، و«الروضتين»: ٢/ ١٦١-١٦٥، «وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٠٢-٣٠٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٢١-٥٢٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

مُدَّة، وزوَّجه ابنته، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظُلْمه، فخاف عبدُ المسيح أن يعزله عمادُ الدين زنكي، فاتَّفق مع الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش صاحب ماردِين زوجة قُطْب الدين أن يثنوا قطب الدين عن عماد الدين، وأن يستخلف ولدَه سيف الدين غازي بن مودود، فعهد إليه، وتوفي قطب الدين وقد جاوز الأربعين، فكانت ولايته إحدى وعشرين سنة، ولما بلغ نورَ الدِّين فعلُ عبد المسيح واستبدادُه [قال: أنا أولى][1] بتدبير أولاد أخي من غيري. وقَصد المَوْصِل.

أبو بكر ابن الدَّاية[2]

[ويلقب][3] مجد الدِّين.

وكان شجاعاً دَيِّناً، من أكابر أُمراء نور الدِّين، بنى بحلب خانكاه، [وهي باقية إلى هلم جراً][3] واتَّفق موتُ العمادي في هذه السنة [وكان من أعظم أمرائه][3]، فبكى نور الدين، وقال: قُصَّ جناحاي. وأعطى أولادَ العمادي بَعْلَبَكَّ، وقدَّم على العساكر سابقَ الدِّين عثمان بن الدَّاية أخا مجد الدِّين، ودفن مجدُ الدين بحلب، والعمادي بقاسيون في تُرْبةٍ قريبة من تربة شركس شماليِّها، وهي أَوَّلُ تربةٍ بنيت في الجبل، واسمه مكتوبٌ[4] على بابها: هذه تربة محمد بن العِمادي.

السنة السَّادسة والستون وخمس مئة

في أول المحرَّم سار نور الدين إلى سِنْجار، ففتحها، وسلَّمها إلى عمادِ الدين زنكي ابنِ أخيه، وسار، فنزل على المَوْصِل من المشرق، عَبَر من مخاضة عند بَلَد، وكان عبد المسيح قد نفَّذ عِزَّ الدين مسعود بن مودود إلى أتابك إيلدكز يسأله شفاعةً إلى نور الدين بالكَفِّ عن المَوْصِل، فجاء الرَّسول إلى نور الدين، وأبلغه الرِّسالة، فقال

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، انظر «الروضتين»: ٢/ ١٦٦.
(٢) أخباره مبثوثة في «الروضتين»، وكتب تاريخ تلك الفترة. وما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٤) في (م) و(ش): ووقفت على باب التربة وعليها مكتوب.

للرسول: قُلْ لصاحبك: أنا أَرْفَقُ وأَشْفَقُ على أولاد أخي منك، فلا تدخل بيننا، وعند الفراغ من هذا الأمر أسير إليك، ويكون الجواب على باب هَمَذان، فإنَّك قد أهملت أمور الثُّغور حتى استولى عليها الكُرْج، وأنا وَحْدي بالشَّام، وقد ابتليتُ بأشجع النَّاس، وأشدِّهم بأساً وهم الفرنج، فأسرتُ ملوكهم، وقتلتُ كنودهم، وبعتهم بيعَ العبيد، واستوليتُ على بلادهم، فلا يَسَعُني في دِيْني أنْ أَدَعَكَ على ما أنتَ عليه. وكان كلُّ مَنْ بالمَوْصِل مع نور الدين، وكاتبوه بالوثوب على عبد المسيح، وتسليمِ البلد إليه، وعَلِمَ عبدُ المسيح، فراسله في الطَّاعة، وتسليم البلد إليه، وتقريره على سيف الدِّين، وأن يكون عبدُ المسيح مقيماً به على حاله، فقال نور الدين: أمَّا تقرير سيفِ الدين على البلد فَنَعَمْ، وأما أنتَ عبدَ المسيح، فلك الأمانُ على نَفْسك ومالك، وما يَحِلُّ لي أَنْ أَدَعَكَ في المَوْصِل لظُلمك وعَسْفك، ولكني آخذكَ معي إلى الشَّام، وأُحْسنُ إليك.

ثم فتحتِ الأبواب لنور الدين، فدخل المَوْصِل في ثالث عشر جُمادى الأُولى، وولَّى عليها خادماً، يقال له كُمُشْتِكِين بالقلعة، وقرَّر ابنَ أخيه سيف الدين على حاله.

وكان نور الدين قد بعثَ العمادَ الكاتب إلى الخليفة يستأذنه فيما يفعل، فوصل العماد ونورُ الدِّين على المَوْصل، ومعه الخِلَع والتَّقليد، فأَلْبَسَ ابنَ أخيه سيف الدين الخِلْعة، وأزال من المَوْصل الضَّمانات والمكُوس، وعَدَلَ وأحسنَ إلى أهله، وأعطى عمر المَلَّاء ستين ألفَ دينار من فتوح الفرنج، وأمره بعمارة الجامع النُّوري وسط البلد، وأعطى جزيرةَ ابنِ عمر لابنِ أخيه سيف الدين مضافاً إلى المَوْصل، وأقام عشرين يوماً، وكان يحبُّ الموصل، فقيل له: لو أقمتَ بها. فقال: ومَنْ يجاهد الكُفَّار، ويحفظ بلاد المسلمين! ثم رحل نحو الشَّام ومعه عبد المسيح، وقد أحسن إليه، وأقطعه إقطاعاتٍ كثيرة، ثم قال له: ويحك، ما هذا الاسم القبيح، أَمَا كان في الدنيا مسلمٌ يغيِّره، وكيف وافقك أخي قُطب الدين على هذا؟ وسمَّاه عبد الله.

وفيها توفي المستنجد، وولي المستضيء.

الباب الثالث والثلاثون في خلافة المستضيء بأمر الله

وهو أبو محمّد الحسن بن يوسف المستنجد بأمر الله، وأُمُّه أُمُّ ولد تدعى غضة أرمنية.

ولد في شعبان سنة ستٍّ وثلاثين وخمس مئة، ولم يلِ الخلافةَ مَنْ اسمه الحسن وكنيته أبو محمد غيرَ الحسن بن علي عليه السَّلام والمستضيء.

بويع بالخلافة يوم الأحد تاسع ربيع الآخر، وأَطْلَقَ الأموال للأمراء والعلويين والهاشميين والقُضَاة والعلماء وجميعِ الناس، وردَّ المظالم، وأسقط المكوس، وولى أمر الجند والممالك قُطْبَ الدِّين قيماز مملوك المستنجد، ولقبه ملك العرب والعجم، واستوزر ابن رئيس الرؤساء، وكان الوزير ابن البلدي قد قُتلَ يوم مات المستنجد، ولما ولَّى ابنَ رئيس الرؤساء الوِزارة خَلَعَ عليه، ومشى بين يديه قُطْبُ الدِّين وأربابُ الدولة، ولم يتخلف أحد، وجلس في الديوان، ومدحه الشُّعراء، فقال ابنُ التعاويذي: [من الكامل]

الـدَّسْـتُ مـن لألاء وَجْـهـك مـشـرقُ ... وعـلـى الـوِزارة مـن جـلالـك رَوْنَـقُ
رُدَّتْ إلـيـك وأصـلُـهـا بـك ثـابِـتٌ ... عـالـي الـبـنـاء وفَـرْعُـهـا بـك مُـوْرِقُ
أنـتـم وإن رَغَـمَ [١] الـعِـدَى وُرَّاثُـهـا ... قِـدْمـاً وغـيـرُكُـمُ الـدَّعـيُّ الـمُـلْـحَـقُ
لـكُـمُ اسـتـقـادَ عـلـى الإبـاء شَـمُـوسُـهـا ... وبـكُـمْ تَـجَـمَّـع شَـمْـلُـهـا الـمـتـفـرِّقُ[٢]

وأنشد الحيص بيص: [من الوافر]

أقـول وقـد تـولَّـى الأمـرَ حَـبْـرٌ ... ولـيٌّ لـم يَـزَلْ بَـرًّا تـقـيّـا
وقـد كُـشِـفَ الـظَّـلامُ بـمـسـتـضـيءٍ ... غـدا بـالـخَـلْـقِ كـلِّـهُـمُ حَـفِـيّـا
بـلـغـنـا فـوقَ مـا كُـنَّـا نـرجِّـي ... هـنـيـئـاً يـا بـنـي الـدُّنـيـا هَـنِـيّـا
سـألْـنـا الـلـه يَـرْزُقُـنـا إمـامـاً ... نُـسَـرُّ بـه فـأعـطـانـا نـبـيًّـا[٣]

---

(١) رغم: كره: «اللسان» (رغم).

(٢) انظر القصيدة في «ديوان سبط ابن التعاويذي»: ٢٩٦-٢٩٨.

(٣) الأبيات في ديوانه ٣/ ٢٧٩، وقد أوردها العماد الكاتب في «الخريدة»، قسم شعراء العراق: ٢/ ٣٣٠.
قال إبراهيم، عفا الله عنه: والبيت الأخير فيه الغلو المفضي إلى الكفر والعياذُ بالله، مما يقدح بالمادح والممدوح على السواء، المادح بقوله والممدوح بقبوله، نسأل الله السلامة.

وقال عبد الرَّحمن بن محمّد بن عبد السّميع الواسطي الهاشمي: رأيت في المنام ليلة مات المستنجد قائلاً يقول: [من البسيط]

ماتَ الخليفةُ واستولى على النَّاسِ ... ابنٌ له طاهرٌ من نَسْلِ عَبَّاس
فارحلْ إلى بابه واضرعْ إليه تَجِدْ ... من جُوده دافعاً للضُّرِّ والباسِ
والظُّلْمُ والجَوْرُ قد حُصَّتْ قوادِمُهُ ... مع الخوافي وخافَ القَطْعَ بالرَّاسِ
مَنْ يَفْعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازيه ... لا يذْهَبُ العُرْفُ بين اللهِ والنَّاسِ(١)

ووَلَّى المخزن ظهير الدِّين ابن العَطَّار، ووَلَّى ابنَ البخاري الدِّيوان، ووَلَّى ابن الشَّاشي تدريس النِّظامية، ووَلَّى الأمير السيد العلوي التدريس بجامع السُّلْطان ببغداد.

وفيها بعث الخليفةُ رسولاً إلى نور الدين يعرِّفه بخلافته، ويطلب البيعةَ له، فقال له العماد الكاتب: [من الكامل]

هل عائدٌ زمنَ الوِصالِ المنقضي ... أم عائِدٌ لي في الصَّبابة ممرضي
لا أشتكي إلا الغرام فإنَّه ... بَلْوى عليَّ من السَّماء بها قُضي
يا لاح حالي في الهوى مشهورةٌ ... حاولتَ تسليتي وأنتَ محرِّضي
أنفقتُ ذُخْرَ الصَّبْرِ من كَلَفي فهل ... من واهبٍ للصَّبْرِ أو من مُقْرِضِ
لهفي على زمنِ الشَّباب فإنني ... بسوى التأسُّفِ عنه لم أتعوَّضِ
نُقِضَتْ عهودُ الغانياتِ وإنها ... لولا انقضاءُ شبيبتي لم تنقضِ
يا حُسْنَ أيَّام الصِّبا وكأنَّها ... أيامُ مولانا الإمامِ المستضي
ذي البهجةِ الغرَّاء يُشْرِقُ نورُها ... والطَّلْعة الزَّهْراءِ والوجْه المضي
قَسَمَ السَّعادةَ والشَّقاوة ربُّنا ... في الخَلْقِ بين مُحِبِّهِ والمُبْغِضِ
فَضَلَ الخلائفَ والخلائقَ بالتُّقى ... والفَضْلِ والإفضالِ والخُلُقِ الرَّضي
فانْعَمْ أميرَ المؤمنين بدَوْلةٍ ... ما تنتهي وسعادةٍ ما تنقضي(٢)

فبعث نور الدين إلى الخليفة شرف الدين ابن أبي عصرون نائباً عنه في الخِدْمة.

---

(١) هذا بيت مشهور للحطيئة، وقد ضمنه أبياته، انظر «ديوانه»: ص٥١ .

(٢) انظر بعض الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٧-١٨ ، و«كتاب الروضتين»: ٢/ ١٧٩-١٨٠ .

وفيها بنى صلاحُ الدِّين بالقاهرة مدرسةً للشَّافعية، وكان موضعُها حبسَ المعونة، وبنى بها أيضاً مدرسة للمالكية تعرف بدار الغزل، وولَّى صدر الدين عبد الملك بن دِرْباس الكُرْدي القضاء بالقاهرة ومِصْر وأعمالها.

وفي جُمادى الأُولى خرج صلاح الدين بالعساكر إلى الشَّام، فأغار على غَزَّة وعسقلان والرَّمْلة، ومضى إلى أَيْلة وكان بها قلعة فيها جماعةٌ من الفرنج، والتقاه الأُسطول في البحر، فافتتحها، وقَتَلَ مَنْ فيها، وشحنها بالرِّجال والعُدَد، وكان على الحجازِ منها خَطَرٌ عظيم، ثم عاد إلى القاهرة في جُمادى الآخرة.

وفي شعبان اشترى تقيُّ الدِّين عمر بن شاهنشاه منازل العِزّ بمصر، وعملها مدرسةً للشافعية، ووقفَ عليها حمام الذهب والرَّوضة وغيرهما.

وفيها توفي

عبد الله بن خلف(١)

ابن عبد الله الكَفْرطابي، ولد بشَيْزَر، وقدم دمشق سنة تسعٍ وعشرين، وأقام بجامع حماة يدرِّس النحو اثنتي عشرة سنة، وماتَ بها، وكتب إلى ابن منيرة(٢)، وقد حال بينهما الوَحَل: [من البسيط]

يـا حُـجَّـتي حيـن ألـقـى الـلـه مُـنْـفَـرِداً ... تـفـديـك نـفـسـيَ بـالأَهْـلـيـن والـوَطَـنِ
بيـنـي وبـيـنـك سـورُ الـوَحْـلِ لـيـس لـه ... بـابٌ فـقـلـبـي رهـيـنُ الـهَـمِّ والـحَـزَنِ
مـا هَـجْـرُ مِـثْـلِـكَ مـحـمـودٌ عـواقـبُـهُ ... ولا الـتَّـصـبُّـرُ عـن رؤيـاك بـالـحَـسَـنِ

محمد بن أسعد(٣)

أبو المُظَفَّر، العراقي، الواعظ.

(١) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»: ٩/ ١٦٤.

(٢) هو محمّد بن يوسف بن عمر المعروف بابن منيرة الخولي، توفي سنة (٥٥٣هـ)، وقد سلفت ترجمته في وفياتها، وانظر «معجم الأدباء»: ١٩/ ١٢٢-١٢٣، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ٢٤٧، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٥٧٣-٥٧٤.

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق، مج ١/ ج٣/ ٢٦٦-٢٧٣، «المحمدون»: ٢٠٨-٢١١، و«ذيل تاريخ بغداد» لابن الدبيثي: ١/ ١٧٦، و«العبر» ٤/ ١٩٩، و«ميزان الاعتدال»: ٣/ ٤٨٠، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٢٥، و«الجواهر المضية»: ٣/ ٨٩-٩٢، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ٢٠٣، وتوضيح المشتبه: ٣/ ٢٨٧، =

توفي بدمشق، ودفن بالباب الصَّغير، ومن شعره: [من الطويل]

ألا هَلْ لِصَبٍّ بالشآم متيمٍ ... بحبِّكُمُ بين الأنام بلاغُ
له شُغُلٌ بالحبِّ عن كل شاغلٍ ... وليس له عما عراه فراغُ
تجرَّع يوم البَيْنِ كأسَ فراقكم ... فليس لكأس الصَّبْر فيه مساغ(١)

محمود بن نعمة الشَّيْزَرِي(٢)

أبو الثَّناء.

شاعرٌ فصيح، وهو القائل: [من الطويل]

يقولون كافات الشِّتاء كثيرة ... وما هي إلا فَرْدُ كافٍ بلا مِرا
إذا صحَّ كاف الكيس فالكلُّ حاصِلٌ ... يصحُّ وكلُّ الصَّيْدِ يوجد في الفَرا

يوسف المستنجد بالله ابن المقتفي محمّد (٣)

ولد في ربيع الآخر سنة عشر وخمس مئة، وكان أسمرَ طويلَ اللِّحْية، معتدلَ القامة، شُجاعاً، مهيباً، عادلاً، رفيقاً بالرَّعية، ذكياً فطِناً، فصيحاً، أزال المظالم والمكوس [وله واقعات عجيبة](٤) كتبَ إليه منكورس شحنة البَصْرة يطلب أمانه، وكان قد عصى عليه، فوقع على رأس الرُّقْعة: يُؤَمَّن ولا يُؤْمَن.

وأشكى إليه رجلٌ من القاضي، فوقَّع على الرقعة: تجنَّبِ الآثام، وأنصفِ الأنامَ، وخَفْ سطواتِ حاكم الحُكَّام.

= و«لسان الميزان»: ٥/ ٧٣-٧٤، و«تاج التراجم»: ١٨٥-١٨٦، و«الدارس»: ١/ ٥٣٨-٥٣٩، «طبقات المفسرين» للداودي: ٢/ ٨٧-٨٩، «شذرات الذهب»: ٤/ ٢١٨، وفي بعض المصادر وفاته سنة (٥٦٧هـ).

(١) الأبيات في «الخريدة» قسم شعراء العراق: مج١/ ج٣/ ٢٧١.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٥٧٥-٥٧٩، و«النجوم الزاهرة»: ٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وفيه وفاته سنة (٥٥٦هـ)، وذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٤١٣.

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٨-٢٢، و«المنتظم» ١٠/ ١٩٢-١٩٤- ٢٣٦، و«الكامل»: ١١/ ٢٥٦، و«الباهر»: ١٥٠-١٥٢، ٣٦٠-٣٦٢، و«الروضتين»: ٢/ ١٧٧-١٧٨، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤١٢-٤١٨، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

والتقاه ابن شبيب في البرية في الرَّبيع، فقال له الخليفة: أين شتَّيت؟ فقال: عندك يا أمير المؤمنين. أراد الخليفة ابن شبيب، وأراد ابن شبيب عبدك.

وقبض الخليفةُ على إنسان يسعى بالنَّاس، فشفع فيه بعضُ أصحاب الخليفة، وبذل عشرة آلاف دينار [فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار][١] وأحضر لي إنساناً مثله يُؤذي النَّاس بالسِّعايات لأحبسه، وأكُفّ شَرَّه عن النَّاس.

ومن شعر المستنجد: [من الخفيف]

عَيَّرَتْني بالشَّيْبِ وهو وَقارُ ... لَيتَها عَيَّرَتْ بما هو عارُ
إنْ تكن شابتِ الذَّوائبُ منّي ... فالليالي تَزِيْنُها الأقمارُ

وقال في بخيل:

وباخلٍ أشعل في بيته ... طرمذةً[٢] منه لنا شَمْعَهْ
فما جَرَتْ من عينها دمعةٌ ... حتى جَرَتْ من عينه دَمْعَهْ

ذكر وفاته:

مرض في ربيع الآخر أياماً، فاحمرَّ الأُفُق، وما زالتِ الحُمْرة على الحيطان وشعاعُها متَّصلٌ بالسَّماء حتى مات، وكان قد فوَّضَ أمورَ العساكر إلى قُطْب الدِّين قيماز مملوكه، فأظهر الاستبداد بالأمر، وبلغه أَنَّ قيماز يجتمع بالمستضيء، وأنَّ بينهما مراسلاتٍ، فتغيَّر عليهما، وكان وزيره ابنُ البلدي قد اطَّلع على الحال، وأخبر المستنجد، فأمره بالقبض عليهما، وخاف قيماز، ومرض المستنجد، وكان له طبيبٌ، يقال له ابن صفية، فخلا به قيماز، وقال: خَلِّصْنا منه وإلا قتلتُك. فقال: به حُمَّى محرقة، وليس عليه أضَرَّ من الحَمَّام. فدخل عليه قيماز وهو في فراشه، فقال: قد وَصَفَ لك ابنُ صفية الحَمَّام. فقال: لا حاجة لي فيه. وقيماز يقول: لابُدَّ لك منه. فحمله كَرْهاً وهو يقول: بلى ينفعك. فأدخله الحَمَّام، وأغلق عليه الباب، وقطع [عنه][١] الماء البارد، فمات يوم السبت ثامن ربيع الآخر، ودفن بالدَّار وقد بلغ ثمانياً

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) الطرمذة: المفاخرة والنفج: «تاج العروس» (طرمذ).

وأربعين سنة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً، وعمل العزاء ثلاثة أيام، [قال جدي: وتكلمت فيه وخُلع عليَّ][١].

ولما جلس المستضيء للبيعة، عَزَمَ الوزير ابن البلدي على الهرب، فلم يقدر، فاستدعاه المستضيء، فلما دَخَلَ عليه ضربه الغِلْمان بالسُّيوف، ورموا به في دِجْلة.

السنة السَّابعة والستون وخمس مئة

فيها خُطِبَ لبني العَبَّاس بمِصْر [بعد انقطاع الخطبة عن بني العباس فيها مئتي سنة وثماني سنين][٢] وسببه أنَّ صلاح الدِّين لما استولى عليها، وضَعُفَ أمر العاضد كتبَ إليه نورُ الدِّين يأمره بقطع الخطبة للمِصْريين، وإقامتها لبني العَبَّاس، فخاف من أهل مِصْر أن لا يجيبوه إلى ذلك، وربما وقعت فتنة لا تُتدارك، فكتَبَ إلى نور الدين يخبره، فلم يسمع منه، وألزمه إلزاماً لا محيد عنه، ومرض العاضد، فجمع صلاحُ الدِّين الأُمراء والأعيان واستشارهم، فمنهم مَنْ أجاب ومنهم من امتنع، وقالوا: هذا بابُ فتنة وما يفوت. فعاود نورُ الدِّين، فأرسل رسلاً، وألزمهم بذلك، فأقامها.

واختلفوا في الخطيب، فقيل: إنَّه رجل من الأعاجم يقال له العالم، وقيل: هو رجلٌ من أهل بَعْلَبَك يقال له: محمّد بن المحسَّن ابن أبي المَضَاء البَعْلَبكي، فأُقيمت في أول المحرَّم والعاضدُ مريض، فأخفى عنه أهلُه ذلك، وقيل بلغه، فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه، فخاف أن يكون خديعةً، فلم يذهب إليه، ومات يوم عاشوراء، فندم صلاحُ الدِّين على قَطْعِ الخطبة، وقال: يا ليتني صبرتُ حتى يموت.

وكتَبَ صلاحُ الدِّين إلى نور الدين يخبره بإقامة الدعوة العبَّاسية، فكتب نورُ الدِّين كتاباً إلى بغداد من إنشاء العماد، وفيه: [من الخفيف]

قد خَطَبْنا للمستضيء بمصرٍ ... نائبِ المُصْطفى إمامِ العَصْرِ
ولدنيا تضاعفَتْ نِعَمُ اللَّـ ... ـهِ وجَلَّتْ عن كلِّ عَدٍّ وحَصْرِ

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر «المنتظم»: ١٠/ ٢٣٣.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

واستنارت عزائمُ الملكِ العا دلِ نور الدين الهُمامِ الأغَرِّ
هو فَتحٌ بِكْرٌ ودون البرايا خَصَّه الله باقتراعِ البِكْرِ

من أبيات[١].

وبعث نور الدِّين إلى الخليفة بالبشارة شهاب الدين المطهر بن شرف الدين بن أبي عَصْرون.

وقال ابنُ الخراساني الشَّاعر[٢]: [من البسيط]

جاء البشيرُ فَسُرَّ النَّاسُ وابتهجوا فما على ذي سرورٍ بعدها حَرَجُ
أُقيمتِ الدعوةُ الغَرَّاءُ معلنةً للمستضيء بمصرٍ واستوى العِوَجُ
هو الإمامُ الذي قامت دلائِلُهُ وكلُّ ذي لَسَنٍ بشُكْره لَهِجُ
لذِكْرِهِ عَبَقٌ في كلِّ ناحيةٍ فالكونُ أجمعُ من أنبائه أَرِجُ
حتى لقد دَخَلَ الأقوامُ كلُّهم في دين خالقهمْ من بعد ما خرجوا
بالمستضيء أضاءتْ كلُّ داجيةٍ كأنَّما أُوقدتْ بين الورى سُرُجُ
أعطى من المالِ ما لم يُعْطه أحدٌ لله منه خِضَمٌّ كلُّه لُجَجُ
يا أهل مِصْر لقد جاءتْ سعادتُكُمْ واستوضحت سُبُل الخيراتِ فابتهجوا
صِرْتُمْ رعيَّةَ خَيْرِ الخَلْقِ كلِّهِم مَنْ حُبُّه بدماءِ الخَلْقِ مُمْتَزِجُ

من أبيات[٣].

وقال أحمد بن المُؤَمَّل العَدْوَاني البَغْدادي: [من السريع]

قد جاء فَتْحُ اللهِ والنَّصْرُ واعتذرتْ مما جَنَتْ مِصْرُ
وأرسلَتْ تسألُ صَفْحاً لها فاغفِرْ فمن عادتك الغَفْرُ
كان على منبرها ظلمةٌ إذْ لم يكنْ في أُفْقها بَدْرُ

---

(١) الأبيات في «الخريدة»: قسم شعراء العراق: ٢/ ١٤-١٧، وانظر «الروضتين»: ٢/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) هو أبو العز محمّد بن محمّد بن مواهب، الكاتب المعروف بابن الخراساني، شاعر وأديب ونحوي، توفي سنة (٥٧٦هـ)، وله اثنتان وثمانون سنة، انظر ترجمته في «خريدة القصر»، قسم شعراء العراق: ج٣/ مج١/ ٢٢٨-٢٥٥، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ٤٦-٤٧، و«إنباه الرواة»: ٣/ ٢١٣-٢١٤، و«الوافي بالوفيات»: ١/ ١٥٠-١٥١.

(٣) انظر بعضها في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج١/ ج٣/ ٢٣٤-٢٣٥.

فـمـذ أضـاءَ الـمُـسْـتـضـي أَشْـرَقَـتْ وابـتـهـجَ الـمـنـبـرُ والـقَـصْـرُ
وأصـبـحـت قـاهـرةُ الـمُـدَّعـي مـقـهـورةً قـد زانـهـا الـقَـهْـرُ(١)

وقال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في جملة خُطْبة كتابٍ سمَّاه «النَّصْر على مِصْر»: الحمد لله الذي قدَّم الآدميين على جميع المخلوقين تعظيماً لهم وتبجيلاً، ثم فَضَّل محمَّداً ﷺ وصان شَرْعه أن يُغَيَّر نَسْخاً أو تبديلاً، ثم جَمَعَ شَمْلَ أُمَّته بخلافة بني العَبَّاس زادها الله تجميلاً، فكم هَيْنَم عدوٌّ في ولايتهم وعدَّ نفسه عديلاً، فأُديلت دولتهم عليه وكفى بالإدالة دليلاً، ولما بانت البوارق بمصر من فِرْعونها زمناً طويلاً، مدَّ لهم أَمَدَ البغي فحملوا منه حِمْلاً ثقيلاً، فلما نهضت خلافةُ الإمام المستضيء بأمر الله بالحق سَدَّتْ في وجوه الظَّلَمة سبيلاً، وخربت قصر مصر بالظُّلم، وأعادت باغي البغي قتيلاً، وبادت شرقاً وغرباً وقُرْباً وبعْداً، والعاقبة للمتقين ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ثم اتبع أقوام يسمَّون الرَّافضة، يثلبون الصَّحابة، ولا يدينون بطاعة الخلافة، ومعنا في بلدتنا منهم خَلْقٌ كثير، ولم نطلع منهم على هفوة وعثرة، وكلما رأوا من أنوار الدولة العَبَّاسية ما يخجلُ الشَّمْسَ والقمر سَلَوا نفوسهم بساكني مصر والمنتظر، فليتهم علموا أَنَّ صاحب مصر قد محقته آفة، وأن المنتظر حديث خرافة، يا لهذا الفتح فتحٌ ضاهى فتح مكة، تجهَّمت فيه وجوه ضُربت على غير المسكنة، أظهر عليها الحُزْن والأسف أثره ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٨٠] ولقد فَتَحَ هذا الفَتْحُ صدرَ كلِّ صَدْر، أسهمنا من وقعته وما حضرنا وقعة بدر.

ثم قال في آخر الكتاب: هذه كلمات مَنْ قَلْبُهُ معقودٌ على الولاء، ولسانُه مشغولٌ بالدُّعاء، ولا بُدَّ أن يبوح بفضل العطر ناشق، ولا يمكن أن يكتم وَجْده عاشق، ولما علَّق الناسُ اللآلي المثمنات، عَلَّق العبدُ - إذ لا مال له - هذه الكلمات، استجاب الله منه صالحَ دعائه، في صباحه ومسائه، بمحمّد وآله، وانقطعت ولايةُ المِصْريين عن مصر، وقد كان يخطب لبني العَبَّاس بها إلى سنة تسع وخمسين وثلاث مئة في خلافة

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج١/ ج٣/ ٣٢٥-٣٢٦.

المطيع، وولي بعده تسعة من الخلفاء، والأمر بحاله إلى هذه السنة، فعادت الخطبة، فكان مدَّةُ انقطاعها لبني العباس بمصر مئتي سنة وثماني سنين.

وفيها بعث الخليفة صَنْدَل المقتفوي؛ وهو أكبر الخدم إلى نور الدين جواب [ابن أبي][١] عصرون بالخِلَع لنور الدين، وفيها الطَّوْق فيه ألفُ دينار، والفَرَجية والعِمامة، ولصلاح الدِّين دونها، وبعث لنور الدين سيفَيْن، قلَّده سيفاً للشَّام وسيفاً لمِصْر، وزينت بغداد وضُربت القِباب.

وفيها بدت الوَحْشة بين نور الدِّين وصلاح الدّين، لأنَّ نور الدِّين كَتَبَ إلى صلاحِ الدِّين بأن يجمع العساكر، ويقدَمَ إلى الشَّام ليحاصر الكَرَك، ويجتمعا هناك لتدبير أمورٍ لا ذكر لها في كتابٍ، فَبَرَزَ صلاحُ الدين إلى بِلْبِيس، وكتَبَ إلى نور الدِّين يخبره بأنَّه واصِلٌ، وخرج نورُ الدِّين إلى دمشق، فنزل على البَلْقاء، وأقام ينتظره، وشاور صلاح الدين أصحابه، فخوَّفوه من نور الدِّين، فأثنوا عزمه، فكتَبَ يعتذر من اختلال البلاد، وأنَّه متى بَعُدَ عنها لم يأمن أهلَها. فشَقَّ على نور الدين، ولم يقبل عُذْره، وعَزَمَ على قَصْدِ مِصْر، وإخراجِ صلاح الدين منها، وشَرَع يتجهَّز، فجمع صلاحُ الدِّين الأُمراءَ وأهلَه، وقال: ما تَرَوْن؟ وكان فيهم تقيُّ الدِّين عمر بن أخي صلاح الدين، و شهاب الدين خال صلاحِ الدِّين، فقال تقي الدين: إنْ جاء قاتلناه. وكان نجمُ الدِّين أيوب حاضراً، فسبَّ تقيَّ الدِّين وزَبَرَه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا خالك ـ عن شهاب الدِّين ـ أتظنّ في هؤلاء كلِّهم من يحبُّك ويريد لك الخير مِثْلَنا؟ قال: لا، فقال: والله لو رأينا المولى نور الدِّين لم يُمْكِنَّا إلا أَنْ نترجَّل، ونقبِّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بقتلك لفعلنا، فإذا كُنَّا نحن كذا، فكيف غيرنا! وهذه البلاد [له][٢] ونحن مماليكه، وأنت نائبه فيها، وإذا أراد عَزْلك، فأيُّ حاجة لك في المجيء، يُنفِّذ كتاباً مع نجّاب يأمرك بالمسير إليه لتنزل إلى خدمته، وهل عندنا له خلاف. وتفرقوا على هذا، وكتَبَ أصحابُ الأخبار إلى نور الدين بصورة المجلس، وأما نجم الدين، فإنه خلا بابنه، وقال له: يا قليل المعرفة، تجمعُ هذا الجمعَ الكثير، وتُطْلعهم على ما في

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في (ح)، والمثبت من «الروضتين»: ٢/ ٢٢٨ .

نفسك، ومتى بلغ نور الدين أنك عازمٌ على مَنْعه من البلاد قَصَدَك بعساكر الشَّام والشَّرق ودياربكر والرُّوم وغيرها، فلم يبق معك أحد، وأولهم خالك وغيره ممن نافسك في المُلْك، وفي قلوبهم منك ما فيها، وقد كَتَبَ أصحابُ الأخبار إلى نور الدين بما قلتَ، فاكتبْ إليه كتاباً تُذْعِنُ له فيه بالطَّاعة، وقُلْ له: ما حاجة إلى قَصْدي بنفسك، ابعثْ أحد غِلْمانك يحملني إلى بين يديك، [فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهم عنده][١]، والأيام تندرج، والله تعالى كل يوم في شأن. فكتَبَ صلاحُ الدين إلى نور الدين بذلك، فرجع عن قَصْده، واستحيا منه، واشتغل عنه بالفرنج.

وقال ابن شدَّاد رحمه الله: قال لي صلاح الدين: أشار عليَّ جماعةُ الأهل إنْ قصدني نور الدين أنْ أقاتله، وكنت وَحْدي أُخالفهم، وأقول: والله لا كان ذلك أبداً، ولا قاتلت مولاي، حتى وصلت الأخبار بموته[٢].

وقال أبو الحسن علي بن محمد ابن الأثير الجَزَري: في هذه السنة اتَّخذ نورُ الدِّين الحَمَام الهوادي في جميع البلاد في الأبراج تنقل إليه الأخبار، وسببُه اتِّساعُ مملكته، فكانت من حَدِّ بلاد النُّوبة إلى هَمَذَان، وكان أهم ما عنده قَلْع الفرنج من السَّاحل، فكان إذا تحرَّك الفرنج لقصده أو تحرَّك لقصدهم، كتب الكُتُبَ على أجنحة الطيور إلى البلاد البعيدة يستدعي العساكر، فيأتون إليه بسرعة[٣].

وفيها قبض المستضيء على وزيره ابنِ رئيس الرؤساء، ونُهبت دوره، وسببه ولده كمال الدين، فإنَّه كان ظالماً جبَّاراً، دخل الخادم صَنْدَل إلى دار الوزير، فأطبق دواته وحَبَسَ ابنه كمال الدين في بيت من الدَّار، واستولى على جميع [ما في الدار من المال والثياب والمتاع والخدم والمماليك والخيل وغيرها][٤]، وكمال الدين[٥] في البيت ينظر إلى ماله كيف ينهب، ولا يقدر على الكلام.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من الباهر : ١٥٩ ، وانظر «الروضتين»: ٢/ ٢٢٨-٢٢٩ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٤٧ .

(٣) الباهر : ١٥٩ ، و«الكامل»: ١١/ ٣٧٥ .

(٤) في (ح): على جميع ما فيها، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) كذا في النسخ الخطية، والصواب «عضد الدين» وهو لقب الوزير، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٧٣هـ).

وفيها توفي

حَسَّان بن نُمَيْر، أبو النَّدى[١]

الشَّاعر الكلبي، ويقال له عَرْقلة، من حاضرة دمشق، [ذكره العماد في «الخريدة» وقال]: كان شيخاً خليعاً أعور، مطبوعاً كيِّساً، لطيفاً ظريفاً منادماً، واختصَّ بصلاح الدِّين، وله فيه قصائدُ كثيرة، وقيل: إنَّ وفاته تأخَّرت حتى أَخَذَ صلاحُ الدين دمشق.

[وله ديوان مشهور][٢]، ومن شعره وقد اقترح عليه مجير الدين أبق موازنة:

شَربْتُ من دِنانه ... من كلِّ دَنٍّ قدحا

فقال: [من مجزوء الرجز]

من لي بساقٍ أغيدٍ ... عِذارُه قد سنحا
كأنه بَدْرُ دُجًى ... في كفِّه شمسُ ضُحى
ما زلتُ من مُدامِهِ ... مُغْتبقاً مُصْطبحا
حتى غدوتُ لا أرى النُّـ ... ـدمان إلا شبحا
وقد عصيتُ في الهوى ... من لامَ فيه ولحا
يا قلبُ كم تذكُرُه ... لا بارحتك البُرَحا
هذا الذي تَعْشَقُه ... كم قلبِ صَبٍّ جَرَحا
يا صاحِ يا صاح اسْقني ... من راحتيك القَدَحا
واغتنمِ العيشَ فما ... تُبْقي الليالي فَرَحا
كأنَّما البَدْرُ وقد ... لاحَ لنا مُتَّضِحا
وجهُ مجيرِ الدِّين مَو ... لانا إذا ما مُدِحا[٣]

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٧٨-٢٢٩، و«فوات الوفيات»: ١/ ٣١٣-٣١٨، و«الوافي بالوفيات»: ١١/ ٣٦٤-٣٦٨، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٦٤-٦٥، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٢٠، وقد طبع ديوانه بتحقيق أحمد الجندي، وصدر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٠.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٩٣، وهي في «ديوانه»: ١٨-١٩.

وقال يمدح شمسَ الدَّولة تورانشاه، وقد نزل دمشق في دار عَمِّه أسد الدين لما فتحت دمشق، وهذا يدلُّ على تأخُّر وفاته: [من الرجز]

قلتُ لحُسَّادِك زِيْدُوا في الحَسَدْ ... قد سَكَنَ الدَّارَ وقد جازَ البَلَدْ
لا تعجَبُوا إنْ حَلَّ دارَ عَمِّهِ ... أما تَحُلُّ الشمسُ في بُرْجِ الأَسَدْ[1]

وقال يمدح صلاح الدِّين: [من الخفيف]

أصبحَ المُلْكُ بعد آلِ عليٍّ ... مُشْرِقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشَّرْقُ يحسدُ الغرب للمُلْـ ... ـك ومِصْرٌ تزهو على بغداذ
ما حواها إلا بَعَزْمٍ وحَزْمٍ ... من صليل الفولاذ في الفولاذِ
لا كفِرْعَوْن والعزيز ومن كا ... نَ بها كالخَصِيْبِ والأُستاذِ[2]

وكان صلاحُ الدِّين قد وعده إذا فتح مِصْر أن يعطيه ألفَ دينار، فلما فتحها قصده وامتدحه بأبيات منها: [من البسيط]

قُلْ للصَّلاح معيني عند إقتاري ... يا ألفَ مولاي أينَ الألفُ دينارِ
أخشى من الأَسْرِ إنْ حاولتُ أرضكُمُ ... وما تفي جَنَّةُ الفِرْدَوْس بالنَّارِ
فَجُدْ بها عاضديَّاتٍ موفَّرةً ... من بعضِ ما خلَّف الطَّاغي أبو الطَّاري
حُمْراً كأسيافكم غُبْراً كخيلكُمُ ... عُتْقاً ثقالاً كأعدائي وأطماري[3]

[قال][4]: فأعطاه [صلاح الدين][4] من عنده ألف دينار، وأخذ له من إخوته مِثْلَها، فعاد إلى دمشق، فأدركه أجلُه بها [بعد سنة ست أو سبع وستين وخمس مئة][4].

وقال في محبوب له أحول، ومَدَحَ في آخرها الوزير جمال الدين الموصلي: [من المنسرح]

يا لائمي هل رأيتَ أعجب من ... ذي عَوَرٍ هائم بذي حَوَلِ
أَقِلُّ في عينه ويكثر في ... عيني بضدِّ القياسِ والمَثَلِ

---

(١) البيتان في «الخريدة»: ١/ ٢٠٢، وهما في «ديوانه»: ٣٦.

(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٠٣-٢٠٤. وفي «ديوانه»: ٣٧-٣٨.

(٣) الأبيات مع اختلاف في بعض الألفاظ في «الخريدة»: ١/ ١٧٨-١٧٩، وهي في «ديوانه»: ٤٩-٥٠، وانظر «كتاب الروضتين»: ٢/ ١٢٨-١٢٩.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

مــا آفــتــي غــيــرُ ورد وجــنــتــه ... والــوَرْدُ لا شــكَّ آفــةُ الــجُــعَــلِ
فــلــو رأتْ حُــسْــنَــه فــلاســفــةٌ ... لــعــوَّذته بــعِــلَّــةِ الــعِــلــل
قد ذُقْتُ منه هجراً أَمَرَّ من الصَّـ ... ـبرِ ووَصْلاً أحلى من العَسَلِ
أهوى تجنِّيه والصُّدودَ كما ... يهوى المعالي محمَّدُ بنُ علي
محمّد خاتَمُ الكرام كما ... سَمِيُّهُ كانَ خاتَمَ الرُّسلِ[(١)]

وقال: [من الطويل]

يقولون لِمْ أَرْخَصْتَ شِعْرَكَ في الورى ... فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أُجازى على الشِّعْرِ الشّعير وإنَّه ... كثيرٌ إذا خلَّصتُه من بهائمِ[(٢)]

وقال: [من البسيط]

عندي إليكم من الأشواقِ والبُرَحا ... ما صيَّر الجِسْمَ من بعد الضَّنا شبحا
أحبابنا لا تظنُّوني سلوتُكُمُ ... الحالُ ما حالَ والتَّبْريح ما بَرِحا
لو كان يسبح صَبٌّ في مدامعه ... لكنتُ أوَّلَ مَنْ في دمعه سَبَحا
أو كنت أعلمُ أنَّ البَيْنَ يقتلُني ... ما بِنْتُ عنكُمْ ولكنْ فات ما ذُبِحا[(٣)]

وقال: [من الكامل]

كَتَم الهوى فَوَشَتْ عليه دموعُهُ ... مِنْ حَرِّ جَمْرٍ تحتويه ضلوعُهُ
صبٌّ، تشاغَلَ بالرَّبيعِ[(٤)] وزَهْره ... قومٌ، وفي وَجْه الحبيبِ ربيعُهُ
يا لائمي فيمن تمنَّعَ وَصْلُهُ ... عن بُغْيتي أحلى الهوى ممنوعُهُ
كيفَ التخلُّصُ إنْ تجنَّى أوْ جنى ... والحُسْنُ شيءٌ ما يُرَدُّ شفيعُهُ
شمسٌ ولكن في فؤادي حرُّها ... بَدْرٌ ولكنْ في القلوب طلوعُهُ
قال العواذِلُ ما الذي استحسنتَهُ ... فيه وما يَسْبيك قلتُ جميعُهُ[(٥)]

---

(١) «الخريدة»: ١/ ١٨٠-١٨١، «ديوانه»: ٨٥-٨٦.
(٢) البيتان في «الخريدة» ١٨٢، و«ديوانه»: ٩٤.
(٣) وهما في «الخريدة»: ١/ ١٨٢، «ديوانه»: ١٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٤) في النسخ الخطية: بالحبيب، والمثبت من «ديوانه» و«الخريدة»، وهو أصح.
(٥) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٨٣، و«ديوانه»: ٥٨-٥٩ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

وقال: [من الطويل]

تُرى عند مَنْ أَحْبَبْتُهُ لا عَدِمْتُهُ ... من الشَّوق ما عندي وما أنا صانعُ
جميعي إذا حَدَّثْتُ عن ذاك ألسنٌ ... وكلِّي إذا نُوجيتُ(١) عنه مسامعُ(٢)

وقال في ذم كتاب: [من الكامل]

وَصَلَ الكتابُ عدمت عشرَ أناملٍ ... أَلَّفْنَ ما فيه من التَّضْمينِ
ما كان أشبهه وقد عايَنْتُهُ ... بوثيقةٍ ظهرت على مَدْيونِ(٣)

[وعرقلة هو القائل لما ولي صلاح الدين شحنكية دمشق: [من المتقارب]

رويدكم يا لصوص الشآم ... فإني لكم ناصحٌ في مقالي

وقد ذكرناه.

وعرقلة هو القائل في وصف دمشق](٤): [من البسيط]

أما دمشقُ فجنَّاتٌ مُزَخْرَفَةٌ ... للطَّالبين بها الوِلْدانُ والحُوْرُ
ما صاح فيها على أوتاره قَمَرٌ ... إلا وغنَّاه قُمْرِيٌّ وشُحْرورُ
يا حبَّذا ودروعُ الماءِ تنسُجُها ... أناملُ الرِّيح إلا أنَّها زُورُ(٥)

عبد الله بن أحمد(٦)

ابن أحمد بن أحمد، أبو محمد بن الخشاب.

النَّحْوي اللُّغوي، حُجَّة العرب [وجامع أسباب الأدب، قرأ القرآن، وسمع الحديث](٧) برع في فنون العلوم، وانفرد بعِلْم النحو والعربية، وفاق أهلَ عصره.

---

(١) في «الديوان» و«الخريدة»: إذا حُدِّثتُ.

(٢) البيتان في «الخريدة»: ١/ ٢١٢، و«الديوان»: ٥٩-٦٠.

(٣) «الخريدة»: ١/ ٢٢٧، و«الديوان» ١٠١.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وفي (ح): وقال يصف دمشق.

(٥) «ديوانه»: ٤١، و«الخريدة»: ١/ ٢٠٤.

(٦) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء العراق: مج ١/ ج٣/ ٧-١٨، «المنتظم»: ١٠/ ٢٣٨-٢٣٩، و«معجم الأدباء»: ١٢/ ٤٧-٥٣، «الكامل»: ١١/ ٣٧٥-٣٧٦، «إنباه الرواة»: ٢/ ٩٩-١٠٣، «وفيات الأعيان»: ٣/ ١٠٢-١٠٤، «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٢٣-٥٢٧، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٧) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

قال ابنُ الأخضر: دخلتُ يوماً عليه وهو مريضٌ وعلى صَدْره كتابٌ ينظر فيه، فقلتُ: ما هذا؟ قال: ذَكَرَ ابنُ جني مسألةً في النحو، واجتهد أن يستشهد عليها ببيتٍ من الشعر فلم يحضره، وإني لأعرفُ على هذه المسألة سبعين بيتاً من الشِّعْر، كلُّ بيت من قصيدة يصلح أن يستشهد به عليها.

وكان مُغرًى بشرى الكُتُب؛ حَضَرَ يوماً سوق الكُتُبيين، فَنُودي على كُتُبٍ بخمسِ مئة دينار، ولم يكن عنده شيء، فاشتراها، وقال: أخروني ثلاثة أيام. ومضى فنادى على [ساج][1] داره، فبلغت خمس مئة دينار، فنقَضَ ساجَها، وباعه بخمس مئة دينار، فوفى [بها][1] ثمن الكتب، وبقيت الدَّار له بغير شيء.

وكان يؤدِّب أولادَ الخليفة، ويخرج من دار الخليفة وقتَ العصر، فيقف على الحِلَق في الرَّحْبة وعلى من يلعب بالشِّطْرنج، فقيل للخليفة: ينبغي أن يُصان عن مثل هذا. فأرسل إليه فيها، فقال: هذه الأماكن لا تخلو من فائدة، وما أنا ممن يدخل تحت حَجْر، فإنْ رضيتم، وإلا فالله قد أقالكم، أنا ما خطبتُ منكم هذا، أنتم خطبتموني. فقال الخليفة: دعوه على حاله. [وكان يكتب خطاً حسناً، وله مصنفاتٌ في النحو واللغة والعَروض والحساب وغيره][1]، وكانت وفاتُه في رمضان، ودفن قريباً من بِشْر الحافي.

[وكان يقول الشعر][1]، ومن شعره في فتح مصر: [من الطويل]

يقولون مصرٌ قد أبانتْ وأقلعتْ ... وقد سَعِدَتْ من بَعْدِ شِقْوتها مِصْرُ
وآلتْ إلى آلِ النَّبيِّ وآنست ... طُمَأْنينةً منهم وكان بها ذُعْرُ
وهل مصرُ إلا آبقٌ غاب بُرْهة ... وعاد إلى مولًى له أَمْرُهُ أَمْرُ
فأوسعَه صَفْحاً وأَوْلاه رحمةً ... وكان له منه التَّغَمُّدُ والغَفْرُ
وقد كان فِرْعونٌ يُدلُّ بمُلْكها ... ويعروه كِبْرٌ أنْ جرى تحتها نَهْرُ
فأوبقه طغيانُه وعُتُوُّه ... وأرداه في اليَمِّ التَّجبُّر والكِبْرُ
وقال لموسى إذ أتاه بآية ... هي الآية الكبرى ألا إنَّ ذا سِحْرُ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وهل هو إلا النِّيلُ إنْ مَدَّ أخْصَبَتْ على قَدَرٍ منه ويُمْحِلُها الجَزْرُ
وكان على عهد ابن هند مدينةً بها القِبْطُ فوضى حين ولِّيها عمرو
إمام نَمَتْه الصِّيْدُ من آلِ هاشم هُمُ أمناءُ الله والحُجَجُ العَشْرُ
نوى الخيرَ من قبل الخِلافة قَلْبُهُ فصدَّقه الإحسانُ والنَّائل الغَمْرُ
به تفخرُ الأملاكُ في أُفق العُلى ويُزْهى به العَبَّاس والحُجَّةُ الحَبْرُ
عليه من اللاهوت نورٌ وهيبةٌ لها يُذْعِنُ العاصي ويستعبد الحُرُّ
إذا شاءَ أمراً فالقضاءُ مؤيِّدٌ لما شاءَ والإقبالُ يتبع والنَّصْرُ
تبسَّمَتِ الدُّنيا بذكر خليفةٍ تُهنَّا به الأيامُ والخَلْقُ والعَصْرُ
هو الظِّلُّ ظِلُّ الله في الأرض كلِّها له المُلْك والأفضال والنَّهْي والأَمرُ[(١)]

وقال: [من السريع]

صفراءُ لا من سَقَم مَسَّها كيف وكانت أُمُّها الشَّافِيَهْ
عُرْيانةٌ باطِنُها مُكْتَسٍ فاعْجَبْ لها كاسيةً عاريه[(٢)]

عبد الله بن أحمد بن الحسين[(٣)]

ابن إسحاق، أبو محمَّد الحِمْيري، ويعرف بابن النَّقَّار الكاتب.

ولد بطرابلُس سنة تسع وسبعين وأربع مئة، [ونشأ بها، وقرأ القرآن والأدب][(٤)] ولما استولى الفرنج عليها انتقل إلى دمشق[(٥)]. [وله شعر رقيق ومعنى دقيق، ومنه هذه الأبيات][(٤)]

بادِر إلى اللَّذَّاتِ في أَزْمانها واركُضْ خيولَ اللَّهو في مَيْدانها
واستقبلِ الدُّنيا بصَدْرٍ واسعٍ ما أَوْسَعَتْ لكَ من رحيبِ مكانها

(١) «الخريدة»: ٣/ ١١-١٦.
(٢) «الخريدة»: ٣/ ١٠.
(٣) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر» (خ): ٨/ ١٠٠٥-١٠٠٧، و«الخريدة»، قسم شعراء الشام: ١/ ٣١٤-٣١٥، و«تكملة إكمال الإكمال»: ٣٤٨، و«توضيح المشتبه»: ٩/ ١١٨، «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٦٥.
(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٥) في (م) و(ش): وذكره العماد الكاتب في «الخريدة»، وقال: ابن المنقار الكاتب الدمشقي، كان فاضلاً، كتب لملوك دمشق ولنور الدين محمود بن زنكي، وعاش نيِّفاً وتسعين سنة، وله شعر، وسيأتي هذا النقل في (ح) بعد الأبيات الآتية.

واستخدمِ الأيَّام قبل نفورها ... واستغنمِ اللَّذَّاتِ قبل جِرانها
جاءَتْكَ أيَّامُ الرَّبيعِ فمرحباً ... بقُدُومها وبحُسْنِ فِعْلِ زمانِها
وحَبَتْك من سرِّ السَّحاب بجنَّةٍ ... تتفنَّنُ الأبصارُ في أفنانِها
وبَدَتْ لك الدُّنيا تُدِلُّ بحُسْنها ... وبهائِها وتميسُ في أرْدانِها
أرأيتَ أبهى من بدائعِ نَوْرِها ... في الرَّوضِ طالعةً على غُدْرانها
فكأنَّ مَعْبد أوْ مُخارِقَ أصبحا[١] ... في طِيْبِ صوتهما كبعض قِيانها
يا صاح مالك لا تزال مُوَلَّهاً ... تُعطي الصَّبابةَ منك فَضْلَ عِنانها
ما للرِّياض إلى دموعك حاجةٌ ... قد ناب صَوْبُ الغَيْثِ عن هَمَلانها
هل أذكَرَتْكَ علامةٌ لشقيقها ... أم هيَّجتك إشارةٌ في بانها
أم حرَّكَتْ منك البلابلُ ساكناً ... بحنينِ ما رَجَّعْنَ من ألحانها
ما ذاك إلا أنَّ في الأحبابِ ما ... أجرى لك العَبَراتِ من ألوانها
فذكرتَ ألوانَ الخُدودِ بوَرْدِها ... وسوالف الأصْداغ من رَيْحانها
وكذا المحاسنُ لا تكون محاسناً ... إلا إذا جُليت على أقرانها
آهاً لقلبٍ لم يزل في صَبْوَةٍ ... وصبابةٍ يُلْقى على نيرانها
غَلَبَتْ عليه يدُ النَّوى ويدُ الهوى ... كالنَّارِ لا يقوى على سُلْطانها
يا قاصداً أرضَ الأحِبَّة زائراً ... بلِّغْ تحيَّتَنا إلى سُكَّانِها[٢]

وقال العمادُ الكاتب: ابن النَّقَّار الدِّمشقي، كان فاضلاً، كتَبَ لملوكِ دمشق ولنور الدين، وعاش نيفاً وتسعين سنة، ومن شِعْره: [من الكامل]

اللهُ يعلَمُ أنَّني ما خِلْتُهُ ... يَصْبو إلى الهِجْران حين وَصَلْتُهُ
مَنْ مُنصفي مِنْ ظالمٍ مُتَعَتِّبٍ ... يزدادُ ظُلْماً كلَّما حكَّمْتُهُ
ملَّكْتُه رُوحي ليحفَظَ مُلْكَه ... فأضاعني وأضاع ما ملَّكْتُهُ

(١) معبد هو ابن وهب، من كبار المغنين في العصر الأموي، توفي سنة (١٢٦هـ)، وله ترجمة في الأغاني: ١/ ٣٦-٥٩ طبعة دار الكتب، ومخارق: هو ابن يحيى الجزار، كان إمام عصره في فن الغناء في العصر العباسي، وتوفي سنة (٢٣١هـ)، وله ترجمة في الأغاني: ٣/ ٧١-٧٢ طبعة دار الكتب، ولم يصرف الشاعر «معبد» لضرورة الشعر.

(٢) القصيدة بتمامها في «تاريخ ابن عساكر»: ٨/ ١٠٠٦-١٠٠٧ .

لا ذَنْبَ لي إلا هواه لأنَّه ... لما دعاني للسَّقام أَجَبْتُهُ
أحبابَنا أنفقتُ عُمْري عندكُمْ ... فمتى أُعوِّضُ بعضَ ما أَنْفَقْتُهُ
وبمن أعود إلى سواكُمْ قاصداً ... والقَلْبُ في عَرَصاتكم خَلَّفْتُهُ
ولمن ألوم على الهوى وأنا الذي ... قُدْتُ الفؤاد إلى الغرام وسُقْتُهُ
أأرومُ غيركُمُ صديقاً صادقاً ... هيهاتَ ضاقَ الوقتُ عمَّا رُمْتُهُ
قد كنتُ أَعْذِلُ كلَّ صَبٍّ في الهوى ... وألومه في العِشْق حتى ذُقْتُهُ
مالي سوى قلبي وفيك أَذَبْتُهُ ... مالي سوى دمعي وفيك سكَبْتُهُ
أبكي إذا جَنَّ الظلامُ تشوُّقاً ... في طول ليلٍ في هواك سَهِرْتُهُ
وأنوح إنْ ناحَ الحمامُ ضحىً على ... إلفٍ فقدتُ الصَّبْرَ حين فَقَدْتُه
ما كنتُ أعرِفُ ما الغرامُ ولا الأسى ... والشَّوْقُ والتَّبريحُ حتى ذُقْتُهُ(١)

عبد الله العاضد(٢)

صاحبُ مِصْر، ابنُ يوسف بن الحافظ، أبو محمَّد، لم يلِ أبوه الخلافة [وقد ذكرناه](٣)، وأمُّه أمُّ ولد يقال لها سِتُّ المُنى. ولد سنة أربع وأربعين وخمس مئة، وبويع في رجب سنة خمس وخمسين [وخمس مئة](٣) وهو ابن إحدى عشرة سنة، وتوفي يوم عاشوراء وعمره ثلاث وعشرون سنة(٤)، فكانت أيَّامه إحدى عشرة سنة وشهوراً.

واختلفوا في سبب وفاته على أقوالٍ، أحدها: أنَّه تفكَّر في أموره، فرآها في إدبار، فأصابه ذَرَبٌ عظيم، فمات منه.

والثاني: أنَّه لما خُطِبَ لبني العَبَّاس بَلَغَهُ؛ فاغتمَّ، ومات. وقيل: إنَّ أهله أخفوا عنه ذلك، وقالوا: إنْ سَلِمَ فهو يعلم، وإن مات فلا ينبغي أن ننغِّص عليه هذه الأيام التي بقيت من عمره.

---

(١) الأبيات في «الخريدة»: قسم شعراء الشام: ١/ ٣١٤-٣١٥، مع اختلاف في بعض الألفاظ، ما خلا الأبيات الثلاثة الأخيرة فيها، وإخالها زيادة من ناسخ لأنها من طبقة أدنى من ذلك الشعر، وقد كررت فيه قافية سلفت، والله أعلم.

(٢) ترجمته في «الكامل»: ١١/ ٢٥٥ وما بعدها، «وفيات الأعيان»: ٣/ ١٠٩-١١٢، و«اتعاظ الحنفا»: ٣/ ٢٤٣ وما بعدها، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٢٠٧-٢١٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في «السير» أنه ولد سنة (٥٤٦هـ)، فيكون عمره حين بويع تسع سنين، وعمره حين توفي إحدى وعشرون سنة.

والثَّالث: أنَّه لما أيقن بزوالِ دولته كان في يده خاتم، له فَصٌّ مسموم، فمصَّه، فمات.

وجلس صلاح الدين في عزائه، ومشى بين يدي جِنازته، وتولى غَسْله وتكفينه، ودفَنَه عند أهله، واستولى صلاحُ الدِّين على ما في القَصْر من الأموال والذَّخائر والتُّحَف والجواهر والعبيد والخدم والخيل والمتاع وغيره.

وكان في القَصْر من الجواهر النَّفيسة ما لم يكن عند خليفةٍ ولا ملك مما قد جُمِعَ على طول السِّنين، فمنه: القضيب الزُّمرُّذ، وطوله قبضة ونصف، والحبل الياقوت الأحمر، والدُّرَّة اليتيمة مثل بيض الحَمام، والياقوتة الحمراء وتسمى الحافر، وزنها أربعة عشر مثقالاً، ومن الكُتُب المنتخبة بالخطوط المنسوبة مئة ألف مجلد، ووَجَدَ عِمامة القائم وطَيْلَسانه بحاله، بَعَثَ البساسِيريُّ بهما إلى المستنصر، ووجد أموالاً لا تحدُّ ولا تحصى.

وأفرد أهلَ العاضد ناحيةً عن القصر، وأجرى عليهم [جميع][1] ما يحتاجون إليه، وسلَّمهم إلى قراقوش، فعَزَلَ الرِّجال عن النِّساء، واحتاط عليهم، وفرَّق الأموالَ التي أخذها من القَصر في العساكر، وباع بعضَ الجواري والعبيد، وأعطى للقاضي الفاضل من الكُتُب ما أراد، وبعثَ إلى نور الدِّين بعِمامة القائم وطَيْلَسانه، وهدايا، وتُحفاً، وطِيْباً، ومئة ألف دينار ـ وكان نور الدين بحلب ـ فلما حضرت بين يديه، قال: والله ما كان بنا حاجة إلى هذا، ما وصل إلينا عُشْر معشار ما أنفقناه على العساكر التي جهَّزناها إلى مِصْر، وما قصدنا [بفتح مصر إلا فتح السَّاحل، وقلع الكفار منه][2]، وأنشد: [من البسيط]

لم يُنْفقِ الذَّهبَ المُرْبي بكَثْرَتِهِ على الحصى وبه فقرٌ إلى الذَّهَبِ

وانقضت أيَّامُ المِصْريين بوفاة العاضد، وعِدَّتهم أربعة عشر على عدد بني أمية، إلا أن أيَّامهم طالت، فملكوا مئتين وثماني سنين، وبنو أمية ملكوا نيِّفاً وتسعين سنة.

[وقد ذكرنا سيرة المصريين على وجه التفصيل، وتقلب الأمور والأحوال، ونذكرهم هنا على وجه الإجمال فنقول: أولهم][3]:

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): وأول المصريين، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

عبيد الله الملقب بالمهدي، وهو جَدُّهم. قال ابنُ عبد البر: هو عبيد الله بن محمّد ابن ميمون بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصَّادق عليه السَّلام، والثاني: ابنه أبو القاسم محمد [بن عبيد الله](١)، ويلقب بالقائم بأمر الله، والثالث: ابنه إسماعيل [بن محمّد](١)، ويلقب بالمنصور، والرَّابع: ابنه أبو تميم مَعَدّ، ويلقب بالمُعِزِّ لدين الله، وهو الذي بنى له جوهر القاهرة، والخامس: ابنه نزار [بن معد](١) ويلقب بالعزيز بالله، والسادس: ابنه منصور، ويلقَّب بالحاكم بأمر الله، والسَّابع: ابنه علي [بن منصور](١)، ويلقب بالظَّاهر لدين الله، والثامن: ابنه معَدَّ [بن علي](١)، ويلقب بالمستنصر بالله، وَلِيَ ستين سنة، والتَّاسع: أبو القاسم أحمد، ويلقب بالمُسْتَعْلي، والعاشر: ابنه منصور [بن أبي القاسم](١) ويلقب بالآمر بأحكام الله، وقُتِلَ، والحادي عشر: أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، ويلقب بالحافظِ لدين الله، والثَّاني عشر: ولده إسماعيل ويلقب بالظَّافر، وقُتِلَ. والثَّالث عشر: عيسى، ويلقب بالفائز بأمر الله، والرَّابع عشر: العاضد.

[وقد رثاهم جماعة، منهم عمارة اليمني بقصيدته التي يقول فيها:

رميتَ يا دَهْرُ كفَّ المجد بالشَّلل

وهي كانت سبب قتله](١).

محمد بن محمّد بن محمّد [ثلاث مرات](١)

البغوي(٢) ويقال البروي(٣).

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ١٧٩، و«الكامل»: ١١/ ٣٧٦، «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٢٥-٢٢٦، و«العبر»: ٤/ ٢٠٠، و«الوافي بالوفيات»: ١/ ٢٧٩-٢٨٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ٣٨٩-٣٩١، و«البداية والنهاية»، وفيات سنة (٥٦٧هـ)، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٢٤.

(٣) قال العماد في «الشذرات»: والبروي، بفتح الموحدة وتشديد الراء المضمومة نسبة إلى بَرُّويه: جد.

وقال ابن خَلِّكان في «وفياته»: بفتح الباء الموحدة والراء وبعدها، وغالب ظني أنها من نواحي طوس، والله أعلم.

قدم بغداد في أول ولاية المستضيء، ووعظ بالنِّظامية، ونَصَرَ مذهب الأشعري، وبالغ في ذمِّ الحنابلة. وقال: لو كان إليَّ أمرٌ لوَضَعْتُ عليهم الجِزْية، [وكان شاباً حَسَن الصُّورة، مليح العبارة، فصيحاً ، فيقال: إن الحنابلة دسُّوا عليه من قتله أو سمَّه؛ جاءته](١) امرأةٌ في الليل ومعها صحن حلوى، فطرقت بابه [فقال: مَنْ؟](١) قالت: أنا امرأةٌ آكل من مغزلي، وقد غَزَلْتُ قطناً وبعتُه، واشتريت من ثمنه هذه الحلوى، واشتهيت أن الشيخ يأكل منه، فإنَّه حلال. فتناوله منها ومَضَتْ، فجلس يأكل هو وزوجتُه وولدٌ له صغير، فأصبحوا موتى جميعاً في رمضان، ودُفِن بباب أبرز.

وكان قد عدا في تلك الأيام ساعٍ للشِّيعة أسود، فخرجوا للقائه، فأنبط [ولم يجئ]، فضاقت صدورهم.

قال المصنف رحمه الله: فجلس جدِّي عقيب ذلك، وقال في أثناء كلامه: كم أبرق مبتدع بأصحاب أحمد وأرعد، فحظي بوباله وهُمْ بالعيش الأرغد، وأما أنت يا أبعد، فإنْ أردت تموت أو أردت تجرَّد، مات البروي وأنبط الأسود.

السَّنة الثامنة والستون وخمس مئة

فيها خَتَنَ الخليفةُ أولاده، فيقال: إنَّه ذبَحَ ألف رأس من الغنم وخمس مئة بقرة وخمسة آلاف دجاجة، وعمل ألف صحن حلوى، وعشرين ألف قطعة خُشْكنانك(٢)، وخَلَعَ على جميع أربابِ الدَّولة والقضاة والعدول، والعلماء، والصُّوفية وغيرهم.

وفيها بعث صلاحُ الدِّين إلى نور الدين هديةً فيها فيل وحمار عتَّابي، فبعث بها نور الدين إلى بغداد، وخرج النَّاس لتلقيها، وتعجبوا(٣) من خِلْقة الحمار.

[وكان بمحلة العَتَّابيين رجلٌ نحوي، قاصر في كل شيء، قد تعلَّق بطرف من النحو، وكان يدعي دعاوى عظيمة، فخرج مع الناس يتفرج، ورآه بعض الظراف: فقال: يا

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق ويكون على هيئة الهلال، انظر «المعرب»: ١٣٤، ودوزي: ١/ ٣٧٣ .

(٣) في (م): وعجبوا.

قوم، ليس العجب أن يحمل الفتى حمارٌ عتابي، عندنا عتابي حمار[١]. فضحك الناس][٢].

وفيها سار نورُ الدِّين إلى المَوْصل، وصلَّى في الجامع الذي بناه وسط البلد، وتصدَّقَ بمالٍ عظيم، ولما علم صلاح الدِّين أَنَّ نورَ الدين [قد][٢] توجَّه إلى المَوْصل خرج بعساكر مصر إلى الشَّام، فحصر الكَرَك والشَّوْبك، ونهب أعمالها، وكان جماعةٌ من العرب نازلين بأرض الكَرَك ينقلون الأخبار إلى الفرنج، وإذا غاروا على البلاد دلُّوهم على المسلمين، فنهبهم صلاحُ الدين، وقتل البعض، وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك، وكتب إلى نور الدين كتاباً من إنشاء الفاضل: سببُ إصدار هذه الخِدْمة إلى حضرة مولانا الملك العادل أعزَّ الله سُلْطانه، ومكَّن بالنَّصر إمكانه، وشيَّد بالتأييد مكانه، ونَصَرَ أنصاره، وأعان أعوانه، عَلِمَ المملوك بما يؤثِرُه المولى من قَصْدِ الكُفَّار بما يَقُصُّ به أجنحتهم، ويحصُّ[٣] به أسلحتهم، ويقطع موادَّهم، ويخرِّبُ بلادهم، ومن أكبر الأسباب المعينة لهم على ما يراد منهم أن لا يبقى في بلادهم أحد من العُرْبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفْر إلى عِزِّ الإيمان، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، وعَدَّه من أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص على تبديل ديارهم بحيث إنَّ العدوَّ إذا نَهَضَ اليوم لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي إليه سبيلاً، [وهو «كتاب طويل»][٢].

ثم عاد صلاح الدِّين إلى مِصْر.

وقيل: هي أوَّل غَزَاةٍ غزاها.

[وذكر القاضي أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي، ويعرف بابن شداد قاضي حلب ـ رحمه الله ـ في سيرة صلاح الدين، وقال: إنما بدأ صلاح الدين بالكرك والشوبك لأنهما في طريق الديار المصرية، وكانوا يغارون على القوافل منها، فقصد

(١) نوع من حمر الوحش المخططة، نسبة إلى العتابيين، إحدى محال بغداد في الجانب الغربي منها، اشتهرت بالنسيج المخطط، ومن ثم كان هذا النوع من الحمير يوصف بالعتابي تشبيهاً له بهذا النسيج، انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٨٩، و«تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الطبعة الفرنسية): ٢/ ٩٣.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في «الروضتين»: ٢/ ٢٣٩: ويفلل أسلحتهم.

تسهيل الطريق ليصل البلاد بعضها ببعض، فحصرها هذه السنة، فلم يظفر منهما بطائل، وتأخر فتحهما إلى ما بعد الفتوح][١].

وعاد نور الدِّين إلى المَوْصل، وقطع الفرات، وقصَدَ بلاد الرُّوم؛ وسببُه أنَّ عزَّ الدين قليج رسلان صاحب الرُّوم كان قد تعرَّض لبلاد نورالدِّين محمد بن قرارسلان ابن أُرْتُق صاحب آمِد، فسار نورُ الدِّين في نجدته.

وقال ابن الأثير: إنما سار نورُ الدِّين إلى بلاد عِزِّ الدين قليج رسلان بن مسعود بن قليج رسلان بن سليمان بن قُتُلْمِش بسبب ذي النُّون بن الدَّانْشَمَنْد صاحب مَلَطْيَة، كان قليج رسلان قد أخرجه منها ومن سيواس، فأرسل إليه نورُ الدِّين يشفع فيه، فلم يجبه، ففتح نورُ الدِّين بَهَسْنى، ومَرْعَش، وقلاعاً من أعمال قليج رسلان، وبينا هو على ذلك جاءه خبرٌ من حِمْص بأنَّ الفرنج نزلوا عليها فرجع إلى الشَّام ومعه ابن الدَّانْشَمَنْد، ووعده بخلاص قلاعه، ولما أخذ نورُ الدين مَرْعَش وبَهَسْنى والمَرْزُبان وغيرها، خاف منه قليج رسلان، فأجابه إلى ما أراد، ورَدَّ بلاد ابن الدَّانْشَمَنْد، وشَرَطَ عليه نورُ الدِّين تجديدَ إسلامه لأنه كان يُتَّهم بالزَّنْدقة، وأنَّه متى طلب منه العساكر ينجده وأن يزوِّج ابنته بابنِ أخيه سيف الدِّين غازي صاحب المَوْصِل، ففعل، وبعثَ نورُ الدِّين فخر الدِّين عبد المسيح مع ابن الدِّانْشَمَنْد إلى مَلَطية وسيواس، ومعه عسكر يكون في خِدْمته، فأقام عنده حتى توفي نورُ الدين، ورجعتِ البلادُ إلى قليج رسلان[٢].

وفيها قدم القُطْب النَّيْسابوري من حلب إلى دمشق، فدرَّس في الزَّاوية الغربية بجامع دمشق وبالمدرسة الأمينية، وقيل: لم يدرس بالأمينية[٣].

وشَرَع نورُ الدِّين في بناء مدرسة للشَّافعية[٤] إلى جانب الجاروخية، فأدركه أجله [دون بنائها][٥] وقد وضع [نور الدين][٤] المحراب وبعض البناء، وبقي أمرها على حاله، فجاء العادل أبو بكر بن أيوب، فأزال ذلك البناء، وبناها البناء المُحْكم، ودُفِنَ فيها.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر «النوادر السلطانية»: ٨٦-٨٧ .

(٢) انظر «الباهر»: ١٦٠-١٦١ .

(٣) في (م) و(ش): بعثه نور الدين يدرس بالمدرسة الأمينية وبالزاوية الغربية بجامع دمشق؛ زاوية الفقيه نصر، وقيل: لم يدرس بالأمينية بل بالزاوية الغربية.

(٤) هي المدرسة العادلية الكبرى.

(٥) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها بعث تَقيُّ الدِّين عمر [ابن أخي صلاح الدين][1] جيشاً إلى المغرب مع مملوكه يوزبا، فالتقاه عسكر ابن عبد المؤمن، فهزمه بعد أنْ أقامَ الدَّعوة العباسية بإفريقية، فعاد إلى القاهرة مهزوماً[2].

وفيها وَصَلَ توقيعُ الخليفة إلى نور الدين بأوانا وصَريفين قريتين بدُجَيْل كانتا لأبيه زَنْكي، وعَزَمَ نورُ الدِّين على بناء مدرستين ببغداد أحدهما للحنفية والأُخرى للشَّافعية، وأن يوقف عليهما القريتين، فمات.

وفيها توفي

أيوب بن شاذي[3]

ابن مروان[4]، نجم الدِّين؛ والد صلاح الدين. كان عاقلاً، حازماً، شجاعاً، حليماً، رحيماً، جَوَاداً، عاطفاً على الفقراء والمساكين، محبًّا للصَّالحين، قليل الكلام جداً لا يتكلَّم إلا لضرورة، ولما قَدِمَ مِصْر سأله ولده صلاحُ الدِّين أَنْ يكون هو السُّلْطان، فقال: أنت أَوْلى.

[وكان يلعب بالأكرة دائماً، قال القاضي ابن شدَّاد: كان كثير الركض بالخيل، يلعب بالأكرة، ومن يراه يلعب بها ما يقول إلا أنه يموت من ظهر الفرس، و][1]، ركب يوماً من داره، وخرج من باب النَّصْر يريد الميدان، فشبَّ به فرسه، فوقع على رأسه، [فحمل على داره][5] فأقام ثمانية أيام، وتوفي ليلة الثلاثاء السَّابع والعشرين من ذي الحِجَّة، ودُفِنَ إلى جانب أخيه أسد الدين في بيتٍ بالدَّارِ السُّلْطانية، ثم نقلا بعد سنين إلى مدينة النَّبيِّ ﷺ، وكان صلاح الدين قد عاد من الكَرَك، فبلغه خبره في الطريق، فحزن عليه، وتأسَّف حيث لم يحضره، وخلف من الذكور ستة: يوسف صلاح الدين،

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في سياقة هذا الخبر اختلاف، وذلك أن تقي الدين عمر أرسل سنة (٥٦٨هـ) غلامه قراقوش، فاستولى على طرابلس. أما يوزبا فأرسله سنة (٥٨٢هـ)، وقد أسر ثمة، انظر «كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٦٧، ٣/ ٢٥٦-٢٥٧، ٤/ ٢١٧.

(٣) ترجمته في «الكامل»: ١١/ ٣٩٣-٣٩٤، و«الروضتين»: ٢/ ٢٤١-٢٦٠، «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٥٥-٢٦١، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٨٩-٥٩٠، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) الصحيح في نسبه أنه لا يعرف له جد فوق شاذي. انظر «الروضتين»: ٢/ ٢٥٠.

(٥) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر «النوادر السلطانية»: ٤٦.

وأبا بكر العادل، وتورانشاه شمس الدولة، وشاهنشاه، وطُغْتِكِين سيف الإسلام، وبوري تاج الملوك[١]، وهو الأصغر، وشمس الدولة الأكبر، ومن البنات: ستّ الشَّام، وربيعة خاتون.

الحسن بن أبي الحسن صافي[٢]

ملك النُّحاة، مولى حسين بن الأُرموي التَّاجر البغدادي.

ولد [ببغداد][٣] سنة تسع وثمانين وأربع مئة، وقرأ النحو [على أبي الحسن الاستراباذي الفَصيحي، وأصول الدين على أبي عبد الله القيرواني، وقرأ][٣] أصول الفِقْه والخلاف والمذهب والحديث، وبَرَعَ في النحو، وفاق أهلَ زمانه، وفُتح له جامع الخليفة، فدرَّس فيه النحو، ثم سافر إلى خراسان وكَرْمان وغَزْنة، وصنَّف الكتب في فنون العلوم، ثم دخل الشَّام، واستوطن دمشق، وله ديوان شعر [مليح][٣] ومدائح في النبيِّ ﷺ، فمنها: [من المنسرح]

يا خاتم الأنبياءِ قاطبةً ... أتاك لفظُ الثَّناءِ يَسْتَبِقُ
كنتَ نبياً وطينُ آدمَ مَجْـ ... ـبولٌ وتلك الأنوارُ تأتلِقُ
وعدتَ فينا تهدي إلى سُبُلِ الـ ... ـحقِّ فقد أُوضحتْ بكَ الطُّرُقُ

وقد وصفه العماد الكاتب[٤] بالكريم، فقال: كان يضمُّ من الذَّهب يده على المئة والمئتين، ويُمْسي وهو منها صِفْرُ اليدين، وكان يصنعُ الحلاواتِ ويُهديها إلى جيرانه وأصحابه وخُلَّانه، [قال][٣]: ووصل إلى أصبهان في سنة إحدى وأربعين [وخمس مئة][٣]، وعاد إلى دمشق، فعاش تحت ظلِّ نور الدين [محمود][٣] إلى أن مات.

---

(١) في (م): «تاج الإسلام».

(٢) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»: (خ) س: ٤/ ٤٣٧-٤٤٠، «خريدة القصر»، قسم شعراء العراق: مج١/ج٣/ ٨٩-١٣٧، و«معجم الأدباء»: ٨/ ١٢٢، و«إنباه الرواة»: ١/ ٣٠٥-٣١٠، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٩٢-٩٤، «إشارة التعيين»: ص٩١-٩٢، «العبر» للذهبي ٤/ ٢٠٤، «الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٥٦، «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٦٣-٦٤، «شذرات الذهب»: ٤/ ٢٢٧.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (م) و(ش): وذكره الحافظ ابن عساكر، ووصفه بالكرم فقال: كان يضم من الذهب يده على المئة والمئتين ويمسي وهو منها صفر اليدين.

ومن شعره يشكو من دمشق: [من الكامل]

لأُرَحِّلَنَّ مطيَّتي عن بلدةٍ شعثاءَ يُكرَهُ ماؤها وهواؤها
ولأزجُرَنَّ العِيْسَ عنها مُعْرِضاً إنْ أدركتني [(١)] دولةٌ ولواؤها
فإلامَ أُغضي في دمشق على القذى والأرضُ نازحةٌ بها أرجاؤها
أأُضامُ والأملاكُ ترجو أَنْ ترى شخصي ولي في العالمين ولاؤها
إنْ لم أَثُرْ أَنَفاً فلا أجْرَتْ يدي قلماً، به يُرْوي المعاليَ ماؤها[(٢)]

وبلغ ابنَ منير أنه كتب إلى بعضِ القضاة: المجلس القاضوي، فقال يهجوه: [من المتقارب]

أيا ملك النَّحو والحاءُ من تهجِّيه من تحتُ قد أعجموها
أتانا قياسُكَ هذا الذي يُعَجِّمُ أشياءَ قد أعربوها
ولما تَصَفْعَنْتَ في القاضوي غدا وَجْه جَهْلِك فيه وجُوها
وقالوا قفا الشيخ إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها[(٣)]

فأجابَه: [من المتقارب]

أيا ابنَ منيرٍ حسِبْتَ الهجاءَ رتبةَ فخرٍ فبالغتَ فيها
جمعتَ قوافيَ من ذا وذا وأصبحتَ منتحِلاً تدَّعيها
وقالوا قفا الشيخ إنَّ الملوك إذا أخطأتْ سوقةٌ أدَّبوها[(٤)]

وله مقاماتٌ من جنس مقامات الحريري، هَزْلٌ وكذب، وله كتاب أربع مئة كرَّاسة سماه «التذكرة السفرية» وكان قد تزوَّج ببغداد امرأة بذيئة اللِّسان، فكانت تسفه عليه، [فقالت له يوماً: أنا امرأتك، زوج مَنْ أنتَ؟][(٥)].

وكان يغشى وزيرَ الخليفة، فمدحه في بعض اللَّيالي بقصيدة فأمر له بجائزة سنية، وخِلْعة، فقال: ما أُريدها، فقال الوزير: وما الذي تريد؟ قال: لي امرأةٌ سفيهة، وقد فضحتني عند

(١) في «الخريدة»: «إن أقدرتني».
(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١٢٤-١٢٥.
(٣) إشارة إلى سورة النمل، الآية: ٣٤.
(٤) «الخريدة»: مج١/ج٣/ ١٣٥-١٣٦.
(٥) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

الجيران بطول لسانها، وأُريد أن لا يبقى في هذا المجلس شمعة إلا وتحمل بين يدي إلى داري لعلّها تكفُّ لسانها عني. فقال [الوزير][١]: الخِلْعة والبغلة والشَّمْع لك، فخرج وعليه الخِلْعة وتحته البغلة والشموعُ بين يديه، فلمَّا قَرُبَ من داره أمر غِلْمان الوزير، فصاحوا بين يديه. فأطلع الجيران من الزَّوازن والسُّطوح وامرأته في الجُمْلة، فبهتت، وكفَّتْ عنه [لسانها][١] بعد ذلك. [وقال الحافظ ابن عساكر: مات ملك النحاة بدمشق في شوال][٢]، ودُفن بالباب الصَّغير، وكان صحيحَ الاعتقاد، كريمَ النَّفْس، وجاوز ثمانين سنة[٣].

[قال العماد][١]: ورآه بعض [الصَّالحين من][١] أصحابه في المنام فقال [له][١]: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بأبياتٍ قلتُها [في أيام الدنيا. قلتُ: وما هي؟ فأنشدني][١]: [من المنسرح]

يارِبِّ ها قد أتيتُ معترفاً ... بما جَنَتْه يداي من زَلَلِ
ملآنَ كفٍّ بكلِّ مأثمةٍ ... صِفْرَ يدٍ من محاسن العمل
فكيف أخشى ناراً مسعَّرةً ... وأنت يا ربّ في القيامة لي

[قال][١]: فوالله منذ فَرَغْتُ من إنشادها ما سمعتُ حسيسَ النَّار[٤].

سَعْد بن علي بن القاسم [٥]

ابن علي، أبو المعالي الكُتُبي الحَظِيري الحنفي.

والحَظيرة قرية بدُجَيْل [وقد ذكره الأئمة، وأثنوا عليه، فقال جدي في «المنتظم»][١]: كان فاضلاً، يقول الشِّعر [المليح والنَّثر الفصيح][١]، وله رسائلُ ومدائح، وكان من الذَّكاء على غايةٍ، وتوفي في صفر، ودُفِنَ بباب حرب، وكان دلال الكتب ببغداد.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): ومات بدمشق في الشوال، وما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) «تاريخ ابن عساكر»: ٤/ ٤٤٠.

(٤) «الخريدة»: مج١/ ج٣/ ١٣٧.

(٥) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٤١-٢٤٢، «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج١/ ج٤/ ٢٨-١٠٦، «معجم الأدباء»: ١١/ ١٩٤-١٩٧، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٢٦٦-٣٦٨، «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٨٠-٥٨١، و«الوافي بالوفيات»: ١٥/ ١٦٩-١٧٠، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٦٨.

[هذا صورة ما ذكره جدي رحمه الله(١).

وذكره القاضي أبو المحاسن عمر بن علي القرشي في «تاريخه»، وقال: أبو المعالي الكتبي، وأثنى عليه ثناء كبيراً، وقال: صحب أبا القاسم علي بن أفلح الشاعر مدَّة، واشتغل بالأدب حتى برع فيه، وفاق أهل زمانه، وقال الشعر، وتفقه على مذهب أبي حنيفة](٢) وغلبت عليه الفكرة، فأحبَّ الخلوة، فخرج على قدم التجريد سائحاً، ورأى عجائب [من الدُّنيا](٢)، وجال في الأقطار، وحجَّ، وعاد إلى بغداد، وصنَّف الكتب: «لُمَح المُلَح» في الألغاز، و«زينة الدَّهر في شعراء العَصْر»، وغيرهما.

[وذكره العماد الكاتب في «الخريدة»، وسجع له، وقال: أنشدني أبياتاً في وصف العِذار أرق من الاعتذار، وذكر مقطعات من شعره، وكلاماً فاحشاً يدل على أنه كان خليعاً ظريفاً، وأنشدني له في الشيب](٣): [من الطويل]

بدا الشيب في فَوْدي فأقصَرَ باطلي ... وأيقنت قطعاً بالمصير إلى قبري
أتطمَعُ في تسويد صُحْفي يدُ الصِّبا ... وقد بيَّضَتْ كفُّ النُّهى حُسْبَةَ العُمْرِ(٤)

وقال: [من المنسرح]

صُبْحُ مشيبي بدا وفارقني ... ليلُ شبابي فصحتُ واقَلَقي
وصرتُ أبكي دماً عليه ولا ... بُدَّ لصُبْحِ المشيبِ من شَفَقِ(٥)

وقال: [من الطويل]

أرى ذا النَّدى والطَّوْلِ يغتاله الرَّدى ... ويُبقي الذي مافيه طَوْلٌ ولا منُّ
كما الورد يبدو في الغصون وينقضي ... سريعاً ويبقى الشَّوْكُ ما بقي الغُصْنُ(٦)

وقال: [من الطويل]

(١) «المنتظم»: ١٠/ ٢٤١-٢٤٢.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) في (ح): وقال في المشيب، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٤) «الخريدة»: ٤/ ٤٣.
(٥) المصدر السالف.
(٦) «الخريدة»: ٤/ ٤٤-٤٥.

يقولون لا فَقْرٌ يدوم ولا غنى وما كُرْبةٌ إلا سيتبعها كَشْفُ
ولستُ أرى فقري وضُري بمنقضٍ كأنّي على هذين وحدهما وَقْفُ[1]

وقال في خُطْبة كتاب «لُمَح المُلَح»: هذا كتابٌ أَحكمتُ أُصوله، وأَبرمتُ فصوله، خدمتُ به خزانةَ إمام الزَّمان، وتالي القُرْآن، وصاحب القرآن، الإمام الأوَّاه، المقتفي لأمر الله، الذي لم يكن في خليقةٍ مِثْلَه خليفة، وكلّ طريقةٍ منه طريفة، فكم من قطرةٍ من سحابِ مبتدعاتِ كَلِمِه جمعتُها في قرار واديه، ودرّة من سحاب توقيعات قلمه رصَّعْتُها بين صغار لآليه، إمامٌ يواقيت مناقبه عالية عن مطمح مُشْتام، غالية على مطمع مستام، أغلق شهابَ العَدْل فتسعَّر لَفْحه، وأغلق بابَ الظُّلْم فتعسَّرَ فتحه، واستقامتِ الأقاليم بأقلامه، واستغنت الأيامى في أيامه، وأحيا محيَّاه وارفةَ عَدْلِهِ.

[من الهزج]:

وذي زيغٍ أعدَّ له فحين أتاه عدَّلَهُ
وجادله فجدَّ له فجدَّ لَهُ
إمامٌ مَنْ تأمَّله لكَشْفِ الضّر أمَّلَهُ
يرى من نَسْلِ عَبَّاسٍ طليق الكَفّ مُرْسَلَهُ

ينحو الصَّواب قولاً وآراءً، ويصوِّب في الإباء طولاً وعطاء، جَمَعَ أشتات الفضائل، وقطع أسباب الرَّذائل، وأجار الأنام من جَوْر الأيام، وبلغ الأوطار، كم غاش لذكره عاشٍ إلى ضوء ناره، عاشٍ بمبارّه، فلا زالت رياض ناديه ممرعة الرُّوَّاد، وحياض أياديه مترعة للوُرَّاد، ما تثنى عود ورسا عمود، واهتزَّ عامل بُسْتان، واعتز عامل بسُلْطان، وحبست شياطين جوارحه الكائدة استسلاماً، وحبست سلاطين جوارحه الصائدة آثاماً، كمن كَرَعَ في رياض المنى صادياً، ورتع في غياض الهوى متمادياً.

(١) «الخريدة»: ٤/ ٤٥ مع اختلاف في بعض الألفاظ. وفي (م) انتهت ترجمته، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.
تم الجزء الثالث عشر من «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» لابن الجوزي قدس الله روحه ونور ضريحه، ووافق الفراغ من نسخه في العشر الآخر من رجب الفرد سنة خمس وثلاثين وسبع مئة على يد العبد الفقير إلى الله تعالى المعترف بالتقصير إبراهيم بن عبد العزيز، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الرابع عشر «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» السنة التاسعة والستون وخمس مئة.

السَّنة التاسعة والسُّتون وخَمس مئة

في يوم عاشوراء جَلَسَ محمد الطُّوسي بالتَّاجية، وقال على المنبر: إنَّ ابن مُلْجَم لم يكفر بقتل علي عليه السلام، فضُرِبَ بالآجُرِّ، وثار النَّاس، ولولا مَنْ كان حوله من الغِلْمان لقُتِلَ، فلما كان في اليوم الثَّاني من مجالسه فرشوا له المنبر ليجلس، فاجتمع الناس على باب التَّاجية، ومعهم قوارير النِّفْط ليحرقوه، وبعضهم في أيديهم الآجُر ليرجموه، فلم يحضر، فأحرقوا منبره، وأحضره نقيب النقباء، وأسمعه كلاماً غليظاً، فقال له: أنتَ نائبُ الدِّيوان، وأنا نائب الله في أرضه. فقال له النقيب: أنا نائبُ الدِّيوان وأنت نائب الشَّيطان. وأمر بأن [يجرَّ][(١)] برِجْله، وكتب إلى الخليفة يخبره [بما بدا منه][(١)]، فأمر [الخليفة][(١)] بنفيه، فنفي إلى الجانب الغربي، ثم خرج بعد مُدَّة إلى مِصْر، [وجرى له العجائب، وسنذكره][(١)].

وفيها كَتَبَ صلاحُ الدِّين إلى نور الدين يسأله ويستأذنه في إنفاذ جيشٍ إلى اليمن، فأَذِنَ له، فبعث أخاه تورانشاه شمسَ الدَّوْلة، فسار إليها في رجب، وكان بها عبد النَّبي ابن مهدي، ويلقب بالدَّاعي من أصحاب المِصْريين، وكان ظالماً فاتكاً، فحصره شمسُ الدَّولة في قصر زَبيد مدَّة، ثم طلب الأمان، فأَمَّنه، فلما نزل إليه قيَّده ووكل به، [فسار شمس الدولة][(١)]، ففتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن، فيقال: إنَّه فتح ثمانين حِصْناً ومدينة، واستولى على أموالها وذخائرها، وقَتَلَ [الخارجي][(١)] عبدَ النَّبي [بن مهدي][(١)] وولى على زبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ [أبا الميمون، وكان من الفصحاء جواداً مُمَدَّحاً][(١)]، وعزّ الدين عثمان بن الزَّنجيلي على باقي البلاد.

وفيها أكثر نور الدِّين من الصَّدقات والصِّلات، وزاد في الأوقاف، وكسا اليتامى، وزوَّج الأرامل، وأغنى الفقراء، وكشف المظالم، بحيث لم يبق في بلاده مَظْلِمة [إلا وردَّها][(١)]، وبعث خالد بن محمّد بن القَيْسَراني أميناً على مال القَصْر، ومستوفياً لحواصل البلاد، فأكرمه صلاحُ الدِّين، وقال: نحن مماليكُ نورِ الدِّين، افعل ما أمرك إلا أنَّ جماعةً من الأكابر قد تصرَّفوا في أماكن لا يمكن انتزاعها منهم، ولا يرضون بأن

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ينقص ارتفاعها، فعَلِمَ خالدٌ أنَّ طاعته إنما هي مخادعة ومراوغة، فسكتَ، ولم يشافهه، ومات نورُ الدين في شوَّال، وبَطَلَ ذلك الأمر.

وفيها قبضَ صلاحُ الدِّين على جماعةٍ من أعيان الدَّوْلة المِصْرية مثل داعي الدُّعاة، وعمارة اليمني [الشاعر][(١)] وغيرهما، بلغه أنهم يجتمعون على إثارة الفتن، واتفقوا مع السُّودان وكاتبوا الفرنج، وأنهم يريدون قَتْلَ صلاح الدِّين والغُزّ، ورتَّبوا مع السُّودان أن يثوروا [ويناودوا][(١)] بشعار المِصْريين، وكان زين الدين بن نُجَيَّة الواعظ قد اطَّلعَ على ذلك، فخاف من صلاح الدين، فأنهى إليه الحال وما دبَّروا، فقبض عليهم، وقَتَلَ داعي الدُّعاة، وصلب عُمارة، [وسنذكره][(١)].

[فصل: وفيها توفي

أبو العلاء الهَمَذاني الحافظ[(٢)]

واسمه الحسن بن أحمد بن الحسن العَطَّار، سافر إلى الأقطار في طلب الحديث، وقرأ القرآن واللغة، وعاد إلى هَمَذان، فأقام بها، وصنَّف الكُتُب، وكان حافظاً دَيِّناً، سخياً، وانتهى إليه عِلْمُ الحديث والقراءات، وكان له قَبُولٌ عظيم ومكانة عالية، وتوفي ليلة الخميس عاشر جمادى الأولى، ودفن في هَمَذان وقد جاوز الثمانين.

رآه بعضُ أصحابه في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: نزل عليَّ الملكان، فقلت: على ماذا أتيتما؟ وصحتُ عليهما، فرجعا، ولم يقولا شيئاً][(١)].

وفيها توفي

عبد النَّبي بن مهدي[(٣)]

قال المصنِّف رحمه الله: وقعتُ على تاريخ بمصر، فرأيتُ فيه أنَّ شمس الدَّولة لما سار إلى اليمن، وكان أعيانُها قد كتبوا إلى صلاح الدِّين يسألونه أن يبعث إليهم بعضَ

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٤٨، و«معجم الأدباء»: ٨/ ٥-٥٢ و«الكامل»: لابن الأثير ١١/ ١٦٧، «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٠-٤٧ و«طبقات علماء الحديث»: ٤/ ١٠٠-١٠٤، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) له ترجمة في «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد»: ٢٩٩-٢٣٧، و«كتاب الروضتين»: ٢/ ٢٧٢-٢٧٥، ٣٦٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٨٢-٥٨٣، و«الوافي بالوفيات»: : ١٩/ ٢٤٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

أهله، فلما وصل شمسُ الدولة إلى مكَّة صَعِدَ صاحبُها إلى أبي قُبَيْس، فتحصَّن منه بقلعةٍ بناها عليه، وأغلق بابَ الكعبة، وأخذ المفاتيح، فجاء شمسُ الدولة، فطاف بالبيت، وصلَّى رَكعتين، وصَعِدَ إلى باب الكعبة، وقال: اللهم إنْ كنتَ تعلم أني جِئْتُ إلى هذه البلاد لإصلاح العِباد وتمهيدها، فيسِّر عليَّ فتح هذا الباب، وإنْ كنتَ تعلم أني جئتُ لغير ذلك فلا تفتحه. ومدَّ يده، فجذب القُفْل فانفتح، فدخل [شمس الدولة][1] إلى البيت، فصلَّى ودعا، فلما بلغ أمير مكة ذلك نزل إلى خدمته، وحمل المفاتيح، واعتذر، وقال: خفتُ منك، والآن فأنا تحت طاعتك. فقال له: إذا أخذتُ منك المفاتيح، فلمن أُعطيها؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه، وطيَّب قلبه، وسار إلى اليمن، فانهزم عبد النّبي بين يديه إلى زَبيد.

وكان أبوه مهدي قد فتح اليمن وقتل خَلْقاً كثيراً، وشقَّ بطون الحوامل، وذَبَحَ الأطفال على صدور أُمهاتهم، وكان يرى رأي القرامطة، ويُظْهر أنَّه داعية لصاحب مِصْر، ويتستَّر بالإسلام. وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين، وملك بعده ولدُه عبد النبي، ففعل باليمن أشدَّ مما فعل أبوه وسبى نساءهم، واستعبدهم، وكان أبوه لما مات بنى عليه قُبَّة عظيمة، وصفَّح حيطانها بالذَّهب [الأحمر][1] والجواهر [ظاهراً][1] وباطناً بحيث لم يُعمل في الدُّنيا مثلُها، وجَعَلَ فيها قناديلَ الذهب وستور الحرير، ومَنَعَ أهلَ اليمن من زَبيد إلى حضرموت أن يحجوا إلى الكعبة، وأمرهم بالحجِّ إلى قبر أبيه، فكانوا يحملون إليها من الأموال في كلِّ سنة ما لا يُحَدُّ ولا يحصى، ويطوفون حولها مثلما يطاف بالكعبة، ومن لم يحمل مالاً قتله، وكانوا يقصدونها من السَّحَر، فاجتمع فيها أموالٌ عظيمة.

وأقام عبد النبي على الظُّلْم والفِسْق والفجور وذَبْحِ الأطفال وسَفْكِ الدِّماء وسبي النِّساء، إلى أن دخل شمسُ الدولة إلى اليمن. وجاء إلى زَبيد، فيقال: إنَّه حَصَرَ عبد النَّبي فيها، وأَمَّنه وقيَّده وقتله [وقد ذكرناه][1].

ويقال: إنَّه انهزم بين يديه وجاء إلى قبر أبيه والقُبَّة فهدمها، وأخذ ما كان فيها من المال والجواهر والفِضَّة، فكان على ست مئة جمل، ونبش القبر، وأحرق عظام أبيه

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وذَرَاها في الرِّيح، ومضى إلى صنعاء، فحلف شمسُ الدَّولة لا ينتهي عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه، وسار خَلْفه، فرجع إلى زبيد، وعاد شمس الدولة إليها فظفر به، فأخذ ما كان معه، وقتله وصلبه وحَرَقه كما فعل بعظام أبيه.

عُمارة اليمني ابن الحسن(١)

[أبو حمزة الشاعر](٢).

قلت(٣): وقال القاضي شمس الدولة ابن خَلِّكان قاضي القضاة رحمه الله: هو أبو محمَّد عُمارة ابن أبي الحسن علي بن زيد بن بدران بن أحمد بن محمَّد بن سليمان الحَكَمي(٤)، الملقب نجم الدِّين، الشَّاعر، بلغ الحُلم سنة تسعٍ وعشرين وخمس مئة، وشُنق يوم السبت ثاني رمضان سنة تسعٍ وستين بالقاهرة(٥) ـ وهو من جبال اليمن من مدينة مُرْطان، بينها وبين مكة في مهبِّ الجنوب أحد عشر يوماً(٦).

وهو من قحطان من ولد سَعْد العشيرة، كان فقيهاً فصيحاً، أقام بزبيد مدَّةً يُقرأ عليه مذهب الشَّافعي رحمة الله عليه، وله في الفرائض مصنَّف مشهور باليمن، واستحلفه أبوه أن لا يهجو أحداً، ومدح المِصْريين(٧)، فقرَّبوه، وأعطوه الأموال، وكان عندهم بمنزلة الوزير، وخَدَمَ الملكة أم فاتك صاحب زبيد، وحجَّ معها، فحصل له مالٌ عظيم، ثم طرأت أمور باليمن اقتضت خروجه منها في سنة تسعٍ وأربعين وخمس مئة، ومات فيها أمير الحرمين هاشم، فكلَّفه ولده قاسم السِّفارة له عند الدولة المصرية، فقَدِمَ مِصْر سنة خمسين وصاحبها الفائز بن الظَّافر والوزير طلائع بن رُزِّيك، فدخل عليهما، ومدحهما بقوله: [من البسيط]

---

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١٠١-١٤١، و«الروضتين»: ٢/ ٢٨٢-٣٠٥، و«مفرج الكروب»: ١/ ٢١٢-٢٣٨، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٣١-٤٣٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٩٢-٥٩٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته. وفي كتابه «النكت العصرية» أطراف من سيرته الذاتية، ومقطعات من شعره.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وكذا سماه السِّبْط وكنَّاه.

(٣) القائل هو قطب الدين اليونيني، مختصر مرآة الزمان.

(٤) انظر الاختلاف في نسبه في حواشي «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٣١-٤٣٢.

(٥) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٣١، ٤٣٥.

(٦) إلى هنا ينتهي النقل من «وفيات الأعيان».

(٧) في (م) و(ش): ذكره العماد في «الخريدة»، وقال: مدح المصريين ـ قلت: وليس الخبر في «الخريدة».

الحمدُ للعِيْس بعد العَزْم والهِمَم ... حَمْداً يقوم بما أولَتْ من النِّعَم
لا أجحد الحقَّ عندي للرِّكابِ يدٌ ... تمنَّتِ اللُّجْمُ فيها رُتْبَةَ الخُطُمِ
قرَّبْنَ بُعْدَ مزار العِزِّ من نَظَري ... حتى رأيتُ إمام العَصْرِ من أَمَمِ
ورُحنَ من كعبة البَطْحاءِ والحَرَمِ ... وفداً إلى كعبة المعروف والكَرَمِ
فهل درى البيتُ أني بعد فُرْقته ... ما سرتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ
حيث الخلافةُ مضروبٌ سُرادِقُها ... بين النَّقيضين من عَفْوٍ ومن نِقَمِ
وللإمامةِ أنوارٌ مقدَّسةٌ ... تجلو البغيضين من ظُلمٍ ومن ظُلَمِ
وللنبوَّةِ آياتٌ تنصُّ لنا ... على الخفيين من حُكْمٍ ومن حِكَمِ
وللمكارمِ أعلامٌ تعلِّمنا ... مَدْحَ الجزيلين من بأْسٍ ومن كَرَمِ
وللعُلا ألسنٌ تُثْني محامدها ... على الحميدين من فِعْلٍ ومن شِيَمِ
ورايةُ الشَّرف البذَّاخ ترفَعُها ... يدُ الرَّفيعين من مجدٍ ومن هِمَمِ
أقسمتُ بالفائز المعصوم معتقداً ... فوزَ النَّجاةِ وأَجْرَ البِرِّ في القَسَمِ
لقد حمى الدِّينَ والدُّنيا وأهلَهما ... وزيرُه الصَّالحُ الفرَّاجُ للغُمَمِ
اللابس الفَخْرَ لم تَنْسُجْ غلائلَه ... إلا يدُ الصَّنْعتين السيفِ والقلمِ
وُجُودُه أوجد الأيام ما اقترحتْ ... وَجُودُه أعدَمَ الشَّاكين للعَدَمِ
قد ملَّكَتْه العَوَالي رِقَّ مملكةٍ ... تعيرُ أنفَ الثُّريا عزَّة الشَّمَمِ
أرى مقاماً عظيمَ الشَّأنِ أَوْهَمني ... في يقظتي أنَّها من جُمْلة الحُلُمِ
يومٌ من الدَّهر لم يَخْطُرْ على أملي ... ولا ترقَّتْ إليه رَغْبَةُ الهِمَمِ
ليتَ الكواكبَ تدنو لي فأنظِمَها ... عقودَ مَدْحٍ فما أرضى لكم كَلِمي
ترى الوِزارةَ فيه وهي باذِلةٌ ... عند الخلافة نُصْحاً غير متَّهمِ
عواطِفٌ علَّمتنا أنّ بينهما ... قرابةً من جميلِ الرَّأي لا الرَّحِمِ
خليفةٌ ووزيرٌ مدَّ عَدْلُهما ... ظِلاً على مَفْرِقِ الإسلام والأُمَمِ
زيادةُ النِّيل نَقْصٌ عند فيضهما ... فما عسى نتعاطى مِنَّةَ الدِّيَمِ

[وهي قصيدة في نفسها نفيسة إلا أن قوله "الحمد للعيس" فإنها لفظة غير رئيسة، لأن الحمد لا ينبغي إلا لعز الله وجلاله، وكبريائه وكماله، فلما أنشده القصيدة خلع

عليه الفائز، وأضافه إلى الأعيان وكبراء الدولة][1] مثل أبي المعالي بن الجبّاب الجليس والموفق أبي الحجاج يوسف بن الخلال [وقدمه وأكرمه ، وكان يستشيره، وله مدائحُ كثيرةٌ في الخلفاء، والوزراء والملوك، وشاور والصالح بن رُزِّيك وشمس الدولة تورانشاه، وأكثر مدائحه فيه، ومدح نور الدين وصلاح الدين، وقد وقفت على ديوانه وذكرت منه هاهنا من الحوادث ما يليق بزمانه، ولما قتل الصَّالح بن رُزِّيك رثاه، فقال ـ وقد نقل تابوته من دار الوزارة إلى القرافة، فدفن في تربته، فقال[1]]: [من الكامل]:

خَرِبَتْ ربوعُ المكْرُماتِ لراحلٍ ... عَمَرَتْ به الأجداثُ وهي قِفارُ
نَعْشُ الجدود العاثرات مُشَيَّعٌ ... عَمِيَتْ برؤيةِ نَعْشه الأَبْصارُ
شَخَصَ الأنامُ إليه تحت جِنازةٍ ... خُفِضَتْ برفعة قَدْرِها الأقدارُ
وكأنَّه تابوت موسى أُودِعتْ ... في جانبيه سكينةٌ ووَقارُ
وتغاير الحَرَمان والهَرَمانِ في ... تابوته وعلى الكريم يُغارُ
أُحْلِلْتَ دارَ كرامةٍ لا تنقضي ... أبداً وحلَّ بقاتليك النَّارُ
غَضِبَ الإله على رجالٍ أقدموا ... جَهْلاً عليك وآخرين أشاروا
لا تعجبوا لقُدارِ ناقةِ صالحٍ ... فلكلِّ عَصْرٍ ناقةٌ وقُدارُ[2]

وقال يرثيه: [من الطويل]

سمعتُ حديثاً أحْسُدُ الصُّمَّ عنده ... ويَذْهَلُ واعِيْه ويَخْرَسُ قائِلُهْ
وقد رابني من شاهد الحال أنَّني ... أرى الدَّسْتَ منصوباً وما فيه كافِلُهْ
وأنِّي أرى فوقَ الوجوه كآبةً ... تَدُلُّ على أنَّ الوجوه ثواكِلُهْ
ولم لا نبكِّيه ونندُبُ فَقْدَهُ ... وأولادُنا أيتامُهُ وأرامِلُهْ

وقال يمدح شمس الدولة ويحرِّضه على اليمن، [وقيل: هذه الأبيات كانت سبباً لمسير شمس الدولة إلى اليمن][3]: [من البسيط]

(١) في (ح): «فخلعا عليه، وأضافه الفائز إلى كبراء الدولة، وقدمه وأكرمه، وكان يستشيره، وأضافه إلى الأعيان مثل أبي المعالي بن الجباب الجليس والموفق أبي الحجاج يوسف ابن الخلال والوزراء والملوك. وقال: وقد نقل تابوت الصالح من دار الوزارة إلى القرافة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) هو قدار بن سالف الذي يقال له أحمر ثمود، عاقر ناقة صالح عليه السلام، انظر اللسان (قدر).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

العِلْمُ مُذْ كان محتاجٌ إلى العَلَمِ ... وشَفْرَةُ السَّيْفِ تستغني عن القَلَمِ
وخير وصْفِكَ إنْ غامرتَ في شَرَفٍ ... عزمٌ يفرِّقُ بين السَّاقِ والقَدَمِ
إنَّ المعالي عروسٌ غير راضيةٍ ... إنْ لم تخلِّقْ رداياها برَشْحِ دَمِ
كم يترك البيض في الأجفان ظامئةً ... إلى المواردِ في الأعناق والقِمَمِ
ومُقلَةُ المَجْدِ نحو العِزِّ شاخِصةٌ ... فاتركْ قعودَكَ عن حوماتها وقُمِ
أمامَكَ الفَتْحُ من شامٍ ومن يَمَنٍ ... فلا تَرُدَّ رؤوسَ الخيل باللُّجُمِ
فعمُّك الملك المنصور سوَّمها ... من الفرات إلى مِصْرٍ بلا سأَمِ
هذا ابنُ تُومَرْتَ قد كانت بدايتُهُ ... كما يقولُ الورى لحماً على وَضَمِ
قد كان أوَّل هذا الدِّين من رَجُلٍ ... سعى إلى أن دَعوه سيِّدَ الأُمَمِ

قال العماد [الكاتب في «الخريدة»][(١)]: اتفقتْ لعمارة اتفاقاتٌ عجيبة، منها أنَّه نُسِبَ إليه قولُ هذا البيت، فكان أحدَ أسباب قَتْله، ويجوز أن يكون معمولاً عليه، ثم قال: فَقُطِعَ الطريق على عُمارة، واعتيض بخرابة عن العِمارة، فأفتى فقهاءُ مِصْر بقتله، وحرَّضوا السُّلْطان على المُثْلة بمِثْله[(٢)].

ثم قال عمارة: [من البسيط]

وما رضيتُ بوَجْهي أنْ أجودَ به ... على بخيلٍ ولا استسمنت ذا وَرَم
حاشا عوائدك الحُسْنى تنامُ لها ... أجفانُ عينٍ وعينُ الله لم تَنَمِ

من أبيات.

ذكر مقتله: واختلفوا فيه على أقوال، [أحدها][(١)] أنَّ سببه قوله هذا البيت، وكان في قلب صلاح الدين منه، لأنَّه نُقل إليه عنه أنَّه سعى في الدولة، [وسنذكره][(١)].

والثَّاني: أنه رثى أهل القَصْر بمرثية عرَّض فيها بصلاح الدِّين، فقال: [من البسيط]

رميت يا دَهْرُ كفَّ المَجْدِ بالشَّلَلِ ... وجِيْدَه بعد حُسْن الحَلْي بالعَطَلِ
سَعَيْتَ في منهج الرأي العثور فإنْ ... قَدَرْتَ من عَثَرَات السَّعْي فاسْتَقِلِ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) «الخريدة» قسم شعراء الشام: ٣/ ١٠٤ .

جَدَعْتَ مارِنَك[(١)] الأقنى فأنفك لا ... ينفكُّ ما بين نقْصِ الشَّين والخَجَلِ
هَدَمْتَ قاعدة المعروفِ عن عَجَلٍ ... سُقيتَ مُهْلاً[(٢)] أما تمشي على مَهَلِ
قَدِمْتُ مِصْرَ فأوْلتني خلائِفُها ... من المكارمِ ما يُرْبي على الأملِ
قومٌ عَرَفْتُ بهم كَسْبَ الألوف ومِنْ ... كمالها أنَّها جاءت ولم أَسَلِ
وكنتُ من وزراء الدَّسْت حيث يرى ... رأس الحِصانِ يهاديه على الكَفَلِ
يا عاذلي في هوى أبناءِ فاطمةٍ ... لك المَلامةُ إن قَصَّرْتَ في عَذَلي
بالله زُرْ ساحةَ القَصْرَيْنِ وابكِ معي ... عليهما لا على صِفِّيْنَ والجَمَلِ
وقل لأهلهما واللهِ ما التحمت ... فيكم جروحي وما قَرْحي بمُنْدَمِلِ
ماذا تَرَى كانتِ الإفرنجُ فاعلةً ... في نَسْلِ آل أميرِ المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيءٌ غير قسمة ما ... مُلِّكْتُمُ بين حُكْم السَّبْي والنَّفَلِ
مررتُ بالقَصْر والأركانُ خاليةٌ ... من الوفودِ وكانت قِبْلَةَ القُبَلِ
فملتُ عنها بوجهي خوفَ مُنْتَقِدٍ ... من الوشاة ووَجْه الوُدِّ لم يَمِلِ
أَسْبَلْتُ من أسفٍ دمعي غَدَاةَ خَلَتْ ... رحابُكُمْ وغَدَتْ مهجورةَ السُّبُلِ
أبكي على مأثُراتٍ من مكارِمِكُمْ ... حالَ الزَّمانُ عليها وهي لم تَحُلِ
دارُ الضِّيافةِ كانت أُنْسَ وافِدكُمْ ... واليومَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ ومن طَلَلِ
وكسوة النَّاس في الفَصْلَيْن قد دَرَسَتْ ... ورَثَّ منها جديدٌ عنهمُ وبلي
وأوَّلُ العام والعيدان كم لكُمُ ... فيهنَّ من وَبْلِ[(٣)] جُودٍ ليس بالوَشَلِ
وموسم كان في يوم الخليج لكم ... تمشي العرائس في حلي وفي حلل
والأرضُ تهتزُّ في يوم الغدير كما ... يهتز ما بين قصريكُم مِنَ الأَسَلِ
كانت رواتبكم للمؤمنين وللضَّـ ... ـيف المقيم وللطَّاري من الرُّسُلِ
وما خَصَصْتُمْ بهذا أهلَ مِلَّتِكُمْ ... حتى عَمَمْتُمْ به الأقصى من المِلَلِ
وللجوامع من أَحْباسِكُمْ نِعَمٌ ... لمن تصدَّر في فَضْلٍ وفي عَمَلِ

---

(١) المارن: ما لان من الأنف. «اللسان» (مرن).

(٢) المهل: القيح والصديد. «اللسان» (مهل).

(٣) الوبل: المطر الشديد الضخم القطر: «اللسان» (وبل).

والله لا فازَ يومَ الحَشْرِ مُبْغِضُكُمْ ولا نجا من عذاب الله غير ولي
ولم ينلْ جَنَّة الخُلْد التي خُلِقَتْ مَنْ خان عهدَ الإمامِ العاضدِ ابنِ علي

وبلغت صلاحَ الدين فأراد قَتْله، فلم يتمكَّن من ذلك لأنه كان مكيناً محترماً في الدَّولة، وكان أخوه شمس الدولة يرى لعمارة، وكان خصيصاً به، فسكت على مضضٍ.

والثالث: أَنَّ صلاح الدين بلغه أنه قد اتفق مع داعي الدُّعاة وجماعةٍ من أعيان الدولة في التَّدْبير عليه، وإقامة ولد العاضد مقام أبيه، وكاتبوا الفرنج، وكان زين الدين ابن نُجَيَّة الواعظ معهم، فأنهى ذلك إلى صلاح الدين، فأحضرهم، وسألهم، فلم ينكروا ولا اعترفوا، واتفقت غيبةُ شمس الدولة في اليمن، ولو كان حاضراً ما مكَّن صلاحَ الدِّين من قتله، فأول من صُلِبَ داعي الدعاة، وقاضي القضاة بمصر وهو أبو القاسم هبة الله بن كامل، وكان عندهم في المنزلة العُلْيا، وكان فاضلاً، ومن شعره في صبي يرفأ: [من مخلع البسيط]

يا رافياً خَرْقَ كلِّ ثوبٍ[1] ويا رشاً حُبُّه اعتقادي
عسى بكفِّ الوصال تَرْفُو ما مزَّقَ الهَجْرُ من فؤادي

وكان عمارة قد اجتاز قبل أن يصلب بثلاثة أيام على مصلوب، فقال: [من الوافر]

أرادَ عُلُوَّ مرتبةٍ وقَدْرٍ فأصبحَ فوقَ جِذْعٍ وهو عالي
ومدَّ على صليب الجِذْعِ منه يميناً لا تطولُ إلى الشِّمالِ
ونكَّسَ رأسه لعتابِ قَلْبٍ دعاه إلى الغَوَايةِ والضَّلال

وهذا من أعجب الاتِّفاقات، [وأغرب الواقعات][2].

ولما أمر صلاح الدين بصلبه مرُّوا به على دار القاضي الفاضل، فرمى بنفسه على بابه، وطلب الدخول إليه، فلم يأذن له، ولا أجاره، فقال :[من مجزوء الكامل]

عبدُ الرَّحيم قد احْتَجَبْ إنَّ الخلاصَ من العَجَبْ

فصلب، وهو صائم في شهر رمضان.

---

(١) في (ح) و(م) و(ش): يا رافياً خرق القلوب. ولا يستقيم وزناً ولا معنى، والمثبت من «الروضتين»: ٢/ ٢٩٧ .
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وقال تاج الدين الكندي: [من الطويل]

عُـمـارة فـي الإسـلام أبـدى خـيـانـةً وبـايـع فـيـهـا بِـيْـعـةً وصَـلـيـبـا
وأمسى يعين الشِّرْكَ في بُغْضِ أحمدٍ فأصبحَ في حُبِّ الصَّليب صليبا[1]
وكـان خبيثَ الـمـلـتـقى إنْ عَـجَـمْتَه تَجِدْ منه عوداً في النِّفاق صليبا[2]
سيلقى غداً ما كان يسعى لمثله ويُسْقى صديداً في لظًى وصَلِيبا[3]

قلت[4]: وقال القاضي شمس الدِّين بن خَلِّكان قاضي القضاة رحمه الله تعالى: كان بين عُمارة وبين الكامل بن شاور صحبة متأكدة، فلما وَزَرَ والده، استحال على عمارة، فكتَبَ إليه: [من الطويل]

إذا لـم يُـسـالـمـك الـزَّمـانُ فـحـارِبِ وبـاعـد إذا لـم تـنـتـفـعْ بـالأقـارب
ولا تـحـتـقـرْ كـيـداً ضـعـيـفـاً فـربَّـمـا تـموتُ الأفاعي من سمام العقاربِ
فقد هدَّ قِدْماً عَرْشَ بِلْقيسَ هُدْهُدٌ وخـرَّبَ فـأرٌ قـبـلَ ذا سـدَّ مـأربِ
إذا كـان رأسُ الـمـال عمرَك فاحْتَرِزْ عليه من الإنفاق في غير واجبِ
فبين اختلاف الليل والصبح مَعْرَك يـكـرُّ عـلـيـنـا جيشُه بـالـعـجـائـبِ
ومـا راعـنـي غَـدْرُ الـشَّـبـاب لأنَّـنـي أَنِسْتُ بهذا الخُلْق من كلِّ صاحبِ
وغَـدْرُ الـفـتـى فـي عـهـده ووفـائـه وغَدْر المواضي في نبوِّ المضارب
إذا كـان هـذا الـدُّرُّ مـعـدِنُـه فـمـي فـصـونـوه عـن تـقـبـيـل راحـة واهـبِ
رأيـتُ رجـالاً أصـبـحـت فـي مـآدب لـديـكـم وحـالـي وحـدهـا فـي نـوادب
تـأخـرتُ لـمـا قـدَّمـتْـهُـمْ عـلاكـمُ عليّ وتأبى الأُسْد سَبْقَ الثَّعالبِ
تُـرى أيـن كـانـوا فـي مـواطـنـيَ الـتـي غَـدَوتُ لـكـم فـيـهـن أكـرم نـائـب
لـيـالـيَ أتـلـو ذكـركـم فـي مـجـالـس حديث الورى فيها بغمز الحواجب[5]

(١) في هامش (ح): أي مصلوب.
(٢) في هامش (ح): أي شديد.
(٣) في هامش (ح): أي ودك.
(٤) القائل هو قطب الدين اليونيني، مختصر مرآة الزمان.
(٥) «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٣٤ .

محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر[١]

أبو القاسم، الملك العادل نور الدين، رحمه الله تعالى.

[اعلم أن سيرة نور الدين أولى ما صرفت العناية إليها، واعتمد في اغتناء الفضائل عليها، تحثُّ الطالب على نيل المطالب، وتعدل بهمة الراغب على تحصيل الرغائب، وقد ذكر العلماء سيرته، وسطر الفضلاء ترجمته، وقد جمعت في كتابي هذا ما تفرَّق في تواريخهم من محاسن أخباره، وأتيت على معظم مآثره وآثاره.

ذكر مولده وصفته وطَرَف من أخباره:

ذكر الحافظ ابن عساكر أنه ولد][٢] سنة إحدى عشرة وخمس مئة، وكان معتدل القامة، أسمر اللون، واسع الجبهة، حسن الصُّورة، لحيته شعراتٌ خفيفة في حنكه.

[قال][٣]: ونشأ على الخير والصَّلاح، وقرأ القرآن، [وكان مواظباً على][٣] العبادة، [وكان][٣] قليل المخالطة للجُنْد، وكان [أبوه][٣] زنكي يقدمه على أولاده ويرى فيه مخايل النجابة.

[قال][٣]: وفتح نيفاً وخمسين حِصْناً، منها: تل باشر، وعَزاز، ومَرْعَش، وبَهَسْنى، وتل خالد، وحارم، والمَرْزُبان، ورَعْبان، وكيسون، والرُّها، وكسر إبرنس أَنْطاكية، وقتله، وقتل معه ثلاثة آلاف، وأخذ من القومص ثلاث مئة ألف دينار وخمس مئة زَرَدية، وخمس مئة حصان، وخمس مئة أسير.

واتسع مُلْكه، ففتح المَوْصل والجزيرة ودياربكر والشَّام والعواصم ودمشق وبعلبك وبانياس ومِصْر واليمن، وخُطِبَ له في الدُّنيا، وأظهر السُّنَّة بحلب، وأزال الأذان بحيّ على خير العمل، وبنى بها المدارس، [وأوقف الأوقاف، وبنى سور دمشق

(١) أخباره مستفيضة في تواريخ تلك الفترة، وأفرد أبو شامة شطراً من كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين» في أخباره وأخبار دولته، وأوعب فيما كتب، وقد حققته، وصدر في خمسة أجزاء عن مؤسسة الرسالة في بيروت، سنة ١٩٩٧.

(٢) في (ح) قال ابن عساكر: ولد سنة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

والمدارس][١] وأسقط ما كان يؤخذ من دار البطيخ، وسوق الخيل والغنم، والكيالة، وجميع المكوس، وعاقب على شُرْب الخمر.

وكان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، يتقدَّم أصحابه فيها، ويتعرَّض للشَّهادة، ويسأل الله أن يحشره من بطون السِّباع، وحواصل الطَّير.

ووقف أوقافاً على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارَسْتان بدمشق، ووقف على سُكان الحرمين، وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرَّضوا للحاجّ، وأمر بإكمال سور المدينة، وأجرى إليها العين التي تأخذ من أُحُد من عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الرُّبُط والجُسور والخانات والقناطر، وجدَّد كثيراً من قُني السَّبيل، وكذا صَنَعَ في غير دمشق من البلاد التي ملكها، ووقف كُتُباً كثيرة في مدارسه، وكان حسنَ الخطِّ، كثير المطالعة للكُتُب الدِّينية، متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات الخمس في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرِّياً في المطعم والمشرب والملبس، لم تُسْمع منه كلمة فحش قط، لا في رضاه ولا في غضبه، هذا مع ما جَمَع الله فيه من العقل المتين، والرأي الثَّاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السَّلف الصَّالحين، حتى روى حديث المصطفى ﷺ، وأسمعه. وكان قد استجيز له [ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث][١]، فمن رآه شاهد من جلال السَّلْطنة وهيبةِ المملكة ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيِّره، يحبُّ الصالحين ويؤاخيهم، ويزورهم في أماكنهم لحُسْن ظنِّه فيهم. [هذا قول ابن عساكر، وذكر كلاماً طويلاً في هذا المعنى][٢].

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وحديث «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من سنتي أدخلته يوم القيامة في شفاعتي». روي عن جمع من الصحابة بأسانيد لا يخلو واحد منها من مقال.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر «تاريخ ابن عساكر» (خ) (س): ١٦/ ٢٩٣-٢٩٦.

وقال الجزري في «تاريخ المَوْصل»: قد طالعتُ تواريخ الملوك المتقدمين [من] قبل الإسلام وإلى يومنا [هذا][١]، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الرَّاشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من نور الدِّين، ولا أكثر تحرِّياً للعَدْل والإنصاف منه[٢]، ثم ذكر [من][١] عدله وزُهْده وفَضْله وجهاده واجتهاده من جنس ما ذكر [الحافظ][١] ابن عساكر، قال: وكان لا يأكل ولا يَلْبَس ولا يتصرَّف فيما يخصُّه إلا من مِلْكٍ اشتراه من سهمه من غنائم الكُفَّار، وكان يحضر الفقهاء، ويستفتيهم فيما يحلُّ له من تناول الأموال، فأفتوه من جهات عيَّنوها، فلم يتعدَّها إلى غيرها، ولم يَلْبَس حريراً قطُّ ولا ذهباً ولا فضَّة، ومنع من بيع الخمرة في بلاده، وكان يحدُّ شاربها، والنَّاس عنده سواء في ذلك.

وكان كثيرَ الصِّيام، وله أوراد في اللَّيل والنَّهار، فكان يقدِّم أشغال المسلمين عليها ثم يتمّم أوراده، وكان تزوج الخاتون بنت معين الدِّين أُنَر، فطلبتْ منه زيادةَ نفقة فغَضب، وقال: قد فرضتُ لها ما يكفيها، والله [لا][١] أخوض جهنَّم بسببها، وهذه الأموال ليست لي إنما هي للمُسْلمين، وأنا خازنُهم، فلا أخونهم فيها، ولي بحمص ثلاث دكاكين اشتريتها من الغنائم، قد وهبتها لها، وكان يحصل منها قدر يسير.

قال: وكان يلعب بالكرة[٣] كثيراً، فكتبَ إليه بعضُ الصَّالحين يُنكر عليه ويقول: إنَّك تُتْعب الخيل في غير فائدة، فكتب إليه [نور الدين][١] بخطه: والله ما أقصد اللعب، وإنما نحن [في][١] ثغر، والعدوُّ منا قريب، فربما وقع صوت فتكون الخيل قد أَدْمنت على سُرْعة الانعطاف بالكَرِّ والفرِّ، فإذا طلبنا العدو أدركناه، ولو تركناها بحالها لصارت جَمَاماً لا ينتفع بها، فنيَّتي في لعب الكرة هذا[١].

وأُهديت له عِمامة مُذْهبة من مِصْر، فوهبها لشيخ الصُّوفية أبي الفتح [بن][١] حمُّويه، فبعث بها إلى العجم، فبيعت بألف دينار[١].

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) «الباهر» لابن الأثير: ١٦٣ -١٦٥ .

(٣) هي لعبة الجوكان، وهي تشبه في وقتنا لعبة الغولف.

[قال][(١)]: وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصُّب على أحدٍ، والمذاهب كلّها سواء[(٢)].

[قال][(١)]: وكان يوماً يلعب بالكرة في مَيْدان دمشق، فجاءه رجلٌ، فوقف بإزائه وأشار إليه، فقال للحاجب: سَلْه ما حاجته؟ فسأله، فقال: لي مع نور الدِّين حكومة، فرمى الصّولجان من يده، وجاء إلى مجلس القاضي كمال الدين [بن][(١)] الشَّهْرُزُوري، وتقدَّمه الحاجب يقول [للقاضي: قد قال لك][(١)] لا تنزعج، واسْلُكْ معي ما تسلكه مع آحاد النّاس. فلما حضر سوَّى بينه وبين خصمه، وتحاكما، فلم يثبت للرَّجل عليه حق، وكان يدَّعي مِلْكاً في يد نور الدِّين، فقال نور الدين للقاضي والعدول: هل ثَبَتَ له عليَّ حق؟ قالوا: لا، قال: فاشْهدوا أنِّي قد وَهَبْتُ له الملك، وقد كنتُ أعلم أنَّه لا حقَّ له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يُقال عني أني دُعيت إلى مجلس الشرع، فأبيتُ[(٢)].

[قال][(١)]: ودخل يوماً إلى خزانته، فرأى مالاً كثيراً، فقال: مِنْ أين هذا؟ قالوا: قد بعَثَ القاضي كمال الدِّين من فائض الأوقاف، فقال: ردُّوه إليه، وقولوا له: أنا رقبتي دقيقة، لا أقدر على حَمْله غداً، وأنتَ رقبتك غليظة تقدر على حَمْله[(٢)].

[قال][(١)]: ونور الدِّين أول من بنى داراً للكشف بدمشق، وسمَّاها دار العَدْل[(٣)]، وسببه أنَّ الأُمراء لما قَدِموا دمشق اقتنوا الأملاك، واستطالوا على النَّاس، وخصوصاً أسد الدِّين شيركوه، فكثرت الشكاوى إلى القاضي، فلم يقدر على الانتصاف من أسد الدِّين، فشكاه إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدْل، فأحضر شيركوه أصحابه وديوانه، وقال: إنَّ نور الدِّين ما بنى هذه الدار إلا بسببي وَحْدي لينتقم مني، وإلا فمَنْ هو الذي يمتنع على كمال الدِّين، والله لئن أُحضرت إلى دار العَدْل بسبب واحدٍ منكم لأصلبنَّه، فإن كان بينكم وبين أحدٍ منازعة فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى على جميع ما في يدي، فإنَّ خروج أملاكي من يدي أهون عليَّ من أن يراني نور الدين بعين [أني][(٤)] ظالم، ويسوِّي بيني وبين آحاد العوام. ففعلوا، وأرضوا الخصوم، فجلس نور الدين في دار

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) الباهر: ١٦٦-١٦٧.
(٣) في النسخ الخطية: ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق، وسماها دار الكشف، والمثبت من «الباهر»: ١٦٨.
(٤) ما بين حاصرتين من (الباهر).

العَدْل، وقال للقاضي: ما أرى أحداً يشكو من شيركوه، فأخبره الخبر، فسجد، وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا يُنصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا.

وكان يقعد في دار العَدْل في كلِّ أسبوع أربعة أيام [أو خمسة](١) ويحضر عنده الفقهاء(٢)، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضَّعيف والعجوز الكبيرة، ويسأل الفقهاء عما أَشكل عليه(٣).

[قال](٤): وكان [نور الدين](٤) إذا حضر الحرب شدَّ تَرْكَشَيْن(٥)، وحمل قوسين، وباشر الحرب بنفسه، فقال له القطب النَّيسابوري: لا تخاطر بنفسك فأنتَ عمادُ الإسلام والمُسْلمين، فلو أُصبتَ في معركة والعياذ بالله؛ لا يبقى من يقوم مقامك وذهبت البلاد. فقال له: ومَنْ محمود حتى يُقال له هذا، ومن حفظ [البلاد قبلي إلا الله تعالى(٣).

وكان إذا مات أحدٌ من جنده](٤) أو قُتِلَ وله ولد، فإن كان كبيراً أقَرَّ الإقطاع عليه، وإنْ كان صغيراً رتَّب معه من يتولى أمره إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا ونحن نقاتل عليها لأنَّا نتوارثها(٣).

[قال](٤): وما كان يتكل الجند على الأُمراء بل يتولاهم بنفسه، ويباشر[هم، ويتفقد](٤) خيولهم وسلاحهم مخافة أن يقصِّر الأُمراءُ في حقِّهم، ويقول: نحن كل وقت في النَّفير، فإذا لم تكن أجنادُنا كاملي العُدَّة دخل الوَهْن على الإسلام(٣).

[قال](٤): وبنى جامعه بالمَوْصل، وفوَّض عمارته إلى الشيخ عمر المَلَّاء، وكان من الصَّالحين، فقيل له: إنَّه لا يصلح لمثل هذا. فقال: إذا ولَّيتُ بعضَ الأجناد [أو بعض العمال](٤) فلا يخلو من الظُّلم، وبناءُ الجامع لا يفي بظُلْم رجلٍ مُسْلم، وإذا ولَّيتُ مثل هذا الشيخ غَلَبَ على ظنِّي أنَّه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثمُ عليه [لا عليَّ](٤).

---

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي «الباهر» ١٦٨: وكان يجلس في الأسبوع يومين.

(٢) في (م): ويحضر عنده العلماء والفقهاء.

(٣) «الباهر»: ١٦٨-١٧٠ .

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) التركاش: كلمة فارسية تعني: جعبة السهام. انظر «المعجم الذهبي».

وكان [عمر][(١)] المَلَّاء من الصَّالحين، وإنما سُمِّي المَلَّاء لأنَّه كان يملأ تنانير الآجُرّ، ويأخذ الأُجرة، فيتقوَّت بها، وكان ما عليه من الثِّياب مثل القميص والعِمامة ما يملك غيره. [وكان][(١)] لا يملك من الدُّنيا شيئاً، وكان عالماً بفنون العلوم، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه [لأجل صلاحه][(١)] ويتبركون به[(٢)]، وصنَّف كتاب سيرة النَّبيِّ ﷺ، وكان يعمل مولد النَّبي ﷺ في كلِّ سنة، ويحضر دعوته صاحبُ المَوْصل والأكابر، وكان نور الدين يحبُّه ويكاتبه، وكان مكان الجامع النُّوري خَرِبة واسعة ما شَرَعَ أحدٌ في عمارتها إلا وقصر عمره، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالاً كثيرة، يقال ستين ألف دينار، ويقال: ثلاث مئة ألف دينار، فتمَّ في ثلاث سنين، وجاء نور الدِّين إلى المَوْصل [وهي][(١)] المرة الأخيرة، فصلَّى فيه، ووقف عليه قرية بالمَوْصل، ورتَّب فيه الخطيب والمؤذِّنين والحُصُر والبُسط وغيرها، ثم دخل عمر المَلَّاء على [نور الدين][(٣)] وهو جالسٌ على دِجْلة، فترك بين يديه دساتير الخَرْج، وقال: يا مولانا أَشْتهي أن تنظر فيها، فقال له نور الدين: يا شيخ نحن عملنا هذا لله تعالى، دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالدَّساتير في دِجْلة.

[قال][(١)]: وبنى جامع حماة على العاصي[(٢)].

ووقع [بيد نور الدين][(٤)] إفرنجي من أكابر الملوك، ففدى نفسه بمالٍ عظيم، فشاور نور الدِّين أمراءه، فأشاروا ببقائه في الأَسْر خوفاً من شرِّه، فأرسل إليه نور الدِّين في السِّر يقول: أحضرِ المال، فأحضر ثلاث مئة ألف دينار، فأطلقه [نور الدين][(١)] فعند وصوله إلى مأمنه مات، فطلب الأُمراء أسهمهم من المال، فقال نور الدِّين: ما تستحقون منه شيئاً، لأنكم نَهَيْتُم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحُسْنيين: الفداء، وموت اللعين، وخلاص المُسلمين منه. [فبنى بذلك المال المارَسْتان][(٥)].

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) الباهر: ١٧٠ .

(٣) في (ح): عليه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (ح): بيده، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في (ح): «فبنى بذلك المال مارستان دمشق ومدرسته ودار الحديث بدمشق، ووقف عليها الأوقاف. وفي (م): «فبنى بذلك المال جامع ومارستان ومدرسة ودار الحديث بدمشق، ووقف عليهم الأوقاف. والمثبت ما بين حاصرتين من (ش)، وهو الصواب، وانظر «الروضتين»: ١/ ٤٦ .

فقال ابنُ الأثير: وبلغني أنَّ وقوف نور الدِّين في أبواب البر بالشام [في وقتنا هذا وهو سنة[١]] ثمانٍ وستّ مئة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية، ليس فيها ملك فيه كلام، بل حقٌّ ثابت بالشَّرْع باطناً وظاهراً، صحيح الشراء[٢].

[قلت: يرحم الله المجد[٣]، أشار إلى ذلك العهد، أما في زماننا هذا فقد تشعث وقفه، وتغيرت صفاته، ولم يبق منه إلا آثاره وبركاته.

وحكى ابن الأثير أيضاً أنَّ][٤] بعض الأُمراء [كان][٤] يحسد القطب النَّيسابوري لقربه من نور الدِّين، فنال منه يوماً عنده، فقال له: يا مسكين، لو نظرتَ في عيب نفسك لشغلك عن عيوب غيرك، وإن صحَّ ما قلته عنه فله حسنةٌ واحدة يغفر الله له بها كل زلة، وهي العِلْم، وأنتَ وأصحابك ليست لكم عند الله حسنة، والله لأن عدت إلى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدِّبنك، فكفَّ عنه[٥].

[قال][٤]: وما كان أحدٌ من الأُمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيبته، فإذا دَخَلَ عليه فقيرٌ أو عالم أو ربُّ حِرْفة، قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الأموال، فإذا قيل له في ذلك يقول: هؤلاء لهم حقٌّ في بيت المال، فإذا قنعوا منا ببعضه، فلهم المِنَّة علينا[٥].

[وذكره العماد الكاتب في أول «البرق الشامي»، وأثنى عليه، فقال: وفي سنة تسع وستين وخمس مئة، وهي التي توفي فيها نور الدين أكثر فيها من الصدقات والأوقاف وعمارة المساجد المهجورة][٦] وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما [كان فيه من

---

(١) في (ح): بالشام في سنة ثمان وست مئة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) «الباهر»: ١٧٢.

(٣) وهم سبط ابن الجوزي بقوله المجد، إذ إنه لقب المبارك ابن الأثير المحدث، أما لقب المؤرخ فهو عز الدين، وهو المراد هنا.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) «الباهر»: ١٧١-١٧٣.

(٦) في (ح): وقال: أكثر نور الدين الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

الحرام][(١)]، فما أبقى سوى الجزية والخَرَاج، وما تحصَّل من قسمة الغَلَّات على قويم المنهاج.

[قال][(٢)]: وأمرني بكِتْبَة مناشير أهل البلاد، فكتبتُ أكثرَ من ألف منشور، و[حَسَبْنا ما][(٢)] تصدَّق به في تلك الشهور، [فكان][(٢)] ثلاثين ألف دينار، وكان له برسم نفقته الخاص في كلِّ شهر من الجزية ما يبلغ ألفي قرطاس، يصرفها في كسوته وملبوسه ومأكوله حتى أُجْرة خيَّاطه وجامكية طبَّاخه، ويستفضل منها ما يتصدَّق به في آخر الشهر، ويقال: إن قيمةَ القراطيس مئةٌ وخمسون دِرْهماً، وقيل: كان [كل][(٢)] ستين قرطاساً بدينار أو سبعين [درهماً][(٢)].

[قال][(٢)]: وما كان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعث به إلى القاضي، فيبيعه ويعمر به المساجد المهجورة، ولا يتناول منه شيئاً، وأمر بإحصاء مساجد دمشق، فأُحصيت، فكانت مئة مسجد، فأوقف الأوقاف على جميعها، [وذكر العماد جملة من فضائله، ولمعة من فواضله][(٢)]، ومن المساجد: جامع قلعة دمشق، ومسجد عطية بباب الجابية، ومسجد الرَّمَّاحين، ومسجد سوق الصَّاغة، ومسجد دار البطيخ، ومسجد العباسي، [ومسجد][(٢)] بجوار بيعة اليهود، ومسجد الكشك، وأشياء أُخر.

[قلت][(٣)]: وذكر جدي نور الدين في «المنتظم» بكلمات يسيرة، فقال: ولي الشام سنين، وجاهد الكفار، وكان أصلح من كثير من الولاة، وكان يتدين بطاعة الخلافة، والطرق آمنة في أيامه، والمحامد كثيرة، وذكر بناء مارستان دمشق وجامع الموصل، وكان يميل إلى التواضع، ويحب العلماء وأهل الدين، وقد كاتبني مراراً، وذكر أسره لملك الفرنج، وأنه أخذ منه ثلاث مئة ألف دينار، وشرط عليه أن لا يُغير على بلاد المسلمين سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأخذ منه رهائن على ذلك. هذا صورة ما ذكره جدي في «المنتظم»[(٤)] في ترجمة نور الدين.

---

(١) في (ح): وإسقاط كل فيه الحرام في السنة التي توفي فيها، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): قال المصنف رحمه الله: كان مشغولاً بصيد الصناديد..، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) «المنتظم»: ١٠/ ٢٤٨-٢٤٩.

قلت: وقد صنف كتاباً سماه «الفخر النوري» فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضاً كتاباً في الجهاد، وهو بدمشق.

قلت: فقد ذكرتُ ما نقله علماء السير مما وقع لهم من سيرته، وما يستدل به على صالح سريرته، وقد وقع لي مآثر لم يذكروها، ومفاخر لم يُسَطِّروها لم تكن لملك غيره من ملوك الجاهلية والإسلام، ولا رأوها ولا في الأحلام]، كان مشغولاً بصيد الصِّيد[(١)] لا بصيْد الغزلان، وما زال بَدْرُ مبادرته إلى الخيرات يتمُّ لا عن نقصان، هذي المكارم لا قَعْبان[(٢)]، كان في عزمه أن يفتح البيت المقدَّس، فعمل منبراً وقِبْلة بجامع حلب على اسم القُدْس، فتوفي قبل الفتوح، فلما [ملك صلاح الدين البيت المقدس][(٣)] حمل المنبر إليه، وأبقى القِبْلة بجامع حلب.

[ومنها أنه][(٤)] كان له عجائز بدمشق وحلب، فكان يخيط الكوافي، ويعمل الساكر للأبواب، ويبيعها العجائز ولا يدري بهنَّ أحد، فكان يوم يصوم يُفْطر على أثمانها، وحكى لي شرف الدِّين يعقوب بن المبارز المعتمد أنَّ في دارهم سُكَّرة من عمله على خرستان، وهي باقية إلى سنة خمسين وست مئة، يتبرَّكون بها.

[ومنها ما حكاه لي الشيخ أبو عمر شيخ المقادسة رحمه الله قال][(٥)]: كان نور الدين يزور والدي الشيخ أحمد في المدرسة الصَّغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدَّير، [ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن، قال:][(٤)] فجاء يوماً لزيارة والدي، وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة، فقال له بعضُ الجماعة: يا نورَ الدِّين لو كشفت السقف وجدَّدته. فنظر إلى الخشبة وسكت، فلما كان من الغد جاء معماره ومعه خشبة صحيحة، فزرقها موضع المكسورة ومضى، فعجب الجماعة، فلما جاء

---

(١) الصِّيْد: جمع، مفرده الأصيد، وهو المائل العنق كبراً وزهواً، ويقال للملك، انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥١٢.

(٢) إشارة إلى البيت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

(٣) في (ح): فلما فتحه صلاح الدين حمل المنبر إليه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في (ح): وقال الشيخ أبو عمر رضي الله عنه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

إلى الزِّيارة قال له بعضُ الحاضرين: يا نور الدِّين، فاكرتنا في كشف السقف. فقال: لا والله، وإنما هذا الشيخ أحمد رجل صالح، وإنما أزوره لأنتفع به، وما أردتُ أن أزخرف له المسجد، وأنقض ما هو صحيح، وهذه الخشبة يحصل بها المقصود، فدعوني مع حُسْن ظني فيه، فلعل الله ينفعني به.

[ومنها ما حكاه لي رجل صالح][(١)] من أهل حرَّان بقُبَّة الشيخ حياة[(٢)] سنة خمس وستّ مئة، وكان قد نيف على التسعين سنة، قال: لما قُتِلَ أتابك زَنْكي على قلعة جَعْبر، وملك نورُ الدِّين قلعة حلب، تصدَّق وأزال المكوس، وردَّ المظالم، وأنا حديثُ عهد بعرس، وقد ركبني دينٌ، فقالت لي زوجتي: قد سمعتَ أوصاف نور الدِّين وإحسانه، فلو قصدته وأنهيتَ إليه حالك لقضى دينك، [قال]:[(٣)] فخرجت من حَرَّان، وليس معي سوى دِرْهمين، فتركتُ عندها دِرْهماً، وتزوَّدْتُ بدرهم، وأتيتُ الفرات وقت القائلة، فعبرتُ جسر منبج، وأبعدتُ عن أعين النَّاس، وخلعت ثيابي ونزلتُ، فتوضأتُ للصَّلاة، وصليتُ رَكْعتين، وإذا إلى جانبي شخصٌ ملفوفٌ في عباءة، فقال لي: يا فقير من أين أنتَ؟ قلتُ: من حَرَّان، قال: وإلى أين؟ قلتُ: إلى حلب، قال: وما تصنع فيها؟ فقلتُ: أنا فقير ومديون، وقد بلغني إحسانُ نور الدِّين إلى الخَلْق، فقصدتُه لعلَّه يقضي ديني. قال: وأين أنت من نور الدِّين؟ ومَنْ يُوصلك إليه؟ كم عليك دين؟ قلتُ: خمسون ديناراً. فأخرج يده من العباءة وبحث الرمل، وأخرج منه قرطاساً، وألقاه إليَّ، وقال: خُذْ هذا، فاقضِ به دينك، وارجعْ إلى أهلك، فأخذتُه، فعددته، وإذا به خمسون ديناراً، والتفتُّ فلم أره، فبهت وبت في مكاني أفكر: هل أرجع إلى حَرَّان أم أمضي إلى حلب؟ فترجَّح عندي المضي إلى حلب. وقلتُ في نفسي: فهذه أوفي بها ديني، فمن أين أتقوَّت؟ ثم قمتُ وقصدتُ طريق حلب، فبتُّ بباب بُزاعة، وقمتُ في الليل، فأصبحت تحت قلعة حلب [وقت الصباح][(٣)] فصلَّيتُ وقعدتُ [تحت القلعة][(٣)]، وإذا قد فُتح بابُها ونزل نور الدين في أُبَّهةٍ عظيمة والأُمراءُ بين يديه، حتى جاء إلى المَيْدان، فلما أراد أن يدخل نظر إليَّ

(١) في (ح): قال المصنف رحمه الله: وحكى لي رجل من أهل حران، والمثبت مابين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «السير»: ٢٣/ ١٨١-١٨٢، ووفاته سنة (٥٨١هـ).

(٣) مابين حاصرتين من (م) و(ش).

ورمقني طويلاً، وأشار إلى خادمٍ بين يديه بشيء، فجاء إليَّ، وقال: قُمْ. فأخذني، وصَعِدَ بي إلى القَلْعة، فندمتُ على مجيئي [إلى حلب](١)، وقلتُ: ليتني قبلتُ من ذلك [الرجل](١) الصَّالح، ولعل نور الدين توهَّم أني إسماعيلي، [قال](١): فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين إلى القلعة، وجلس في الإيوان، ومُدَّ سماطٌ عظيم ولم يمدَّ يده إليه، وإذا قد فُتح بابٌ عن يمينه صغير، وخَرَجَ منه خادم، وعلى يده طبق خُوص مُغطى بمنديل، فوضعه بين يديه، وفيه غضارة(٢) عليها رغيف، فتأملتُها [من بعيد](١) وهي ثردة، فتناول منها شيئاً يسيراً، وأكل النَّاس وأكلتُ معهم، وصرف النَّاس، وبقيت قاعداً خائفاً، فأومى إليَّ، فقمتُ، وأتيتُ إلى بين يديه [وأنا خائف أرعد](١)، فقال: من أين أنت؟ قلتُ: من حَرَّان، قال: وما الذي أقدمك؟ قلتُ: عليَّ دين، وبلغني إحسانك [إلى الناس](١) فقصدتك [لتقضي ديني](١)، قال: وكم دينك؟ قلتُ: خمسونَ ديناراً، فقال: فما أعطاك أمسِ صاحبُ العباءة على الفرات خمسين ديناراً! هلا رجعتَ إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا حصل القوت للفقير فما يطلب شيئاً آخر، ثم قال: ما نضيِّع تعبك؛ ورفع سجَّادته وكانت زرقاء، وإذا بقرطاس مثل القرطاس [الأول](١) الذي أعطاني صاحب العباءة؛ فبكيتُ بكاءً كثيراً، وقلتُ: لا آخذه حتى تخبرني بصاحبِ العباءة، قال: هذا أمرٌ ما يلزمك، فقلتُ: يا مولانا، أنا غريبٌ وضيف ولي [عليك](١) حرمة، فبالله عليك أخبرني. فقال: احلف لي أنَّك لا تتحدَّث بهذا في حال حياتي. فحلفتُ له، فكشف القَبَاء عنه، وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال: أنا ذاك الفقير. قلتُ: بالذي أعطاك هذه المنزلة(٣)، بأيِّ شيء وصلتَ إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ولكن لابُدَّ من السبب؛ لما التقينا بالفرنج على حارم، ونَصَرنا الله عليهم، وعدتُ إلى حلب، التقاني في الطَّريق شابٌّ حسنُ الوجه، طيِّبُ الرَّائحة، فسلَّم عليَّ، وقال: يا محمود، أنتَ من الأبدال، وقد أعطاك الله الدُنيا فاشترِ بها

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) إناء فخاري، انظر «تكملة المعاجم العربية»: ٧/ ٤١٢-٤١٣ .
(٣) من قرأ سيرة نور الدين بإمعان وجده ممن التزم بتطبيق الشرع بفهم واسع، وكان من الآخذين بالأسباب في تدبير أمر دولته، وهو من أولياء الله الملهمين وعباده المحدَّثين المكرمين كما وصفه معاصره عماد الدين، وولايته فيما وصف الله أولياءه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

الآخرة، وسَلْه مهما شئت، ثم علَّمني كلمات وقال: إذا طلبتَ أمراً فاذكرها، فقلتُ له: بالله مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا أخوك الخضر. ثم غابَ عني، فإذا عَزَمْتُ على أمرٍ، وأردتُ أذهب إلى مكة أو المدينة أو إلى أي بلدٍ شئتُ، لبستُ هذه العباءة، وتكلَّمت بتلك الكلمات، وأغمض عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة(1).

[وحكى(2) لي نجم الدين الحسن بن سلام؛ أحد عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله] قال: لما ملك الأشرفُ رحمه الله دمشق، وعمر مسجد أبي الدَّرْداء ﷺ في القلعة، وأفرده عن الدُّور، دخلتُ عليه يوماً وهو فيه، فقال لي: [يا نجم الدين](3) كيف ترى هذا المسجد؟ قد عمرته وأفردته عن الدُّور، وما صلَّى فيه أحدٌ منذ زمن أبي الدَّرْداء إلى الآن. فقلتُ له: الله الله يا مولانا، ما زال نور الدِّين منذ ملك دمشق يصلِّي فيه الصلوات الخمس، فقال: من أين لك هذا؟ قلتُ: حدَّثني والدي [وكان من أكابر عدول دمشق، وكان أبوه يلقب بالسَّعيد](4): إنَّ الفرنج لما نزلت على دِمْياط بعد وفاة أسد الدِّين، وضايقوها أُشرفت على الأخذ، فأقام نور الدِّين

(١) هذه القصة لا تصح، لأنها من رواية رجل مجهول، ثم إنَّ فيها اضطراباً، فهو قد ذكر في صدر القصة ما يفهم منه أن زمن ذهابه إلى نور الدين لما قتل أتابك زنكي على قلعة جعبر، وملك نور الدين قلعة حلب، وذلك كان سنة (٥٤١هـ).

ثم يخبرنا في آخر القصة ما أخبره به نور الدين من أن المنزلة هذه التي نالها كانت بعد انتصاره على الفرنج في حارم، وذلك كان سنة (٥٥٩هـ) فمتى التقى هذا الفقير نور الدين؟ ثم إن الصحيح في أمر الخضر عليه السلام عند العلماء الأثبات المحققين أنه مات، واحتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ وبقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ، لأنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الثقلين الجن والإنس، وقد قال ﷺ: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر ﷺ قبل موته بقليل أنه قال: «أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن رأس مئةِ سنةٍ منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ»، يريد بذلك أنه ينخرم ذلك القرن، إلى غير ذلك من الدلائل. ومن احتج ببقائه حياً اعتمد على حكايات وآثار كهذه.

(٢) في (ح): وقال المصنف رحمه الله: وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام، قال: لما ملك، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (ح): حدثني والدي أن الفرنج، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

عشرين يوماً صائماً لا يُفْطر إلا على الماء، فضَعُفَ، وكاد يتلف، وكان مهيباً، فلم يتجاسر أحدٌ أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمامٌ يقال له يحيى ـ ضرير ـ يصلِّي به في هذا المسجد، فكان يقرأ عليه القرآن، وله عنده حرمة، فاجتمع إليه خواصُّ نور الدين، وقالوا: قد خفنا على السلطان، ونحن من هيبته ما نقابله، وأنت تُدِلُّ عليه، و[نحن](١) نسألك أن تسأله أن يتناول ما يحفظ به قوَّته، فقال: نعم، إذا صلَّيتُ به غداة غدٍ الفجر سألته. [قال](١): فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسولَ الله ﷺ يقول له: يا يحيى، بَشِّرْ نور الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلتُ: يارسولَ الله، ربما لا يصدِّقني وأريد [له](١) أمارة. قال: قل له بعلامة يوم حارم. قال: وانتبه يحيى وهو ذاهبُ العقل، فلما صلَّى نورُ الدِّين خلفه الفجر، وسَلَّم وشرع يدعو ففاته أن يتحدَّث معه، فقال له نور الدِّين: يحيى. قال: لبَّيك يا مولانا. قال: تحدِّثني أو أحدِّثك. [قال](١): فارتعد يحيى وخَرِسَ. فقال [له](١): أنا أحدِّثُك، رأيتَ النَّبيَّ ﷺ في هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا؟ فقال: نعم، فبالله يا مولانا ما معنى قوله ﷺ: بعلامة يوم حارم. فقال [له](١) نور الدين: لما التقى الصَّفَّان خِفْتُ على الإسلام، لأني رأيتُ من كثرة الفرنج ما هالني، فانفردتُ عن العسكر، ونزلتُ فمرَّغت وَجْهي في التراب، وقلتُ: يا سيِّدي مَنْ محمود في البين، الدِّينُ دينك، والجُنْد جُنْدُك، وهو اليوم فافعل ما يليقُ بكرمك، [قال](١): فنصرنا الله عليهم.

[قلت](٢): وحدَّثني شهاب الدِّين بن البانياسي [عم جمال الدين البانياسي](١) ـ وكان على ديوان جامع دمشق ـ: أول ما قَدِمْتُ الشَّامَ اجتمعتُ به في درب الشعارين في قاعة الوزير صفي الدِّين بن شُكْر [وزير العادل](١)، وكان هناك جماعة، فاشتغل الوزير بالحديث معهم، وكان شهاب إلى جانبي، فتذاكرنا نور الدين، فقال: كان أبي يخدمه في أسفاره ومقامه على ديوانه، [قال](١) فحكى لي وأنا صغير، قال: خَرَجَ نورُ الدِّين من دمشق يتصيَّد في أرض قطنا ويعفور وأنا معه، فبينا هو ذاتَ يوم قد ركب من الخيم ليذهب إلى الصَّيد، وإذا برجلٍ أعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ومعه خيلٌ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) في (ح): قال المصنف رحمه الله: وحدثني شهاب الدين، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ومماليك، وكان تاجراً، فلما وصل إلى نور الدين، ترجَّل وقبَّل الأرض. فرحَّب به نور الدين ـ وكان صديقه ـ وقال: أين أرمغان؟ قال: حاضر، ومضى نور الدِّين، فلما عاد استدعاه، فأحضر قُماشاً وعِدَّة مماليك وفيهم مملوكٌ مستحسنٌ جداً، فقَبِلَ المملوك ورَدَّ الباقي، فكان له خادمٌ أبيض اسمه سهيل قد رَبَّاه، فقال [له](١): يا سهيل خُذْ هذا المملوك إليك، وادفعْ إلى التاجر خمس مئة دينار، وخِلْعة وبغلة.

قال والد شهاب: فحدَّثني سهيل، قال: لما قال لي كذا؛ قلتُ في نفسي: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا ما اشترى مملوكاً قطُّ يساوي خمسين ديناراً، يشتري مملوكاً بخمس مئة دينار! قال: ففعلتُ ما أمرني، فتركني أياماً، وقال: يا سهيل، أحضرِ المملوك كل يوم [مع](١) المماليك يقف في الخِدْمة. فأحضَرْتُه، فلما كان بعد أيام قال لي: أحضره وقت العِشاء الآخرة إلى الخيمة ونَمْ أنت وإياه على باب البُرْج، [قال](١): فقلتُ في نفسي: هذا الشيخ في زمن شبابه ما ارتكب كبيرةً، لما ارتفع سِنُّه يقع فيها! والله لأقتلنَّه قبل أن يقع في معصية، فعمدت إلى كتارةٍ لي فأصلَحْتُها [وقلت: والله لأقتلنَّه قبل أن يصل إليه](١) وجِئْتُ بالمملوك إلى الخيمة وأنا قَلِقٌ، فسهرت عامَّة الليل ونورُ الدِّين في أعلى البُرْج، فلما كان وقت السَّحر غلبتني عيناي، فنمتُ، ثم انقلبتُ، فوقعت يدي على خدِّ الغلام، وإذا به مثل الجمرة، قد أخذته الحُمَّى، فأخذته ومضيتُ إلى خيمتي، فلما أصبح، أحضرتُ الطَّبيب فرآه، فقال: هذا مرَضه سماويّ، فلما كان وقت الظُّهْر مات، فغسَّلْتُه وكفنته ودفنته، فلما كان اليوم الثَّاني، دعاني نور الدين فدخلتُ، فقال: اقعد. فقعدتُ، فقال: سهيل، إنَّ بعض الظَّنِّ إثم، [قال](١)، فاستحييتُ، فقال: قد عرفتَ حالي وأنتَ ربَّيتني، هل عثرتَ لي على زَلَّة؟ قلتُ: حاشى لله، قال: فَلِمَ حملتَ الكتارة وحدَّثَتْك نفسُك لي بالسُّوء؟ ما أنا معصوم، لما رأيتُ الغلام وقَعَ في قلبي منه مثل النَّار، فعلِمْتُ أنَّه من تسويل الشيطان، فقلتُ لك اشتريه لعلي يُذْهب عني ما أنا فيه، فلم يذهب، فقالت لي نفسي: أريد أنْ أراه كلَّ يوم.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

فأمرتُك بإحضاره، فقالت: ما أقنع إلا بأن يحضر [عندك][1] في البُرْج في الليل، فأمرتُك بأن تحضره، فأحضرته، فلما كان في تلك الليلة ما تركني أنام، وبقيتُ أنا وإياها في حَرْب إلى وقت السَّحر، فهممتُ أن أفتحَ باب البُرْج وأُصعده إلى عندي، فجاءتني اليقظة، وكشفتُ رأسي، وقلتُ: إلهي، محمود عبدك المجاهد في سبيلك، الذاب عن دين نبيك ﷺ الذي عَمَّر المدارس والرُّبُط وأوقفَ الأوقاف، وفعل ما فعل، تختم أعماله بمثل هذا! فسمعتُ هاتفاً يقول: قد كفيناك يا محمودُ أمره، لا بأس عليك. فعلمتُ أنه قد حَدَثَ به حَدَثٌ، وأما أنت يا سهيل فجزاك الله عن الصُّحْبة خيراً، والله إنَّ القتلَ أهونُ عليَّ من الوقوع في المعصية. ثم قدَّم سهيلاً، وأحسن إليه.

[وحكى لي الكمال ابن البانياسي ابن أخي الشهاب، قال: حكى لي من يتولى][2] أوقاف نور الدين: أنه أجر بعض بساتينه لرجلٍ من دمشق على ستٍّ مئة دِرْهم، فأصابتِ البساتين جائحة، [فجاء ذلك الرجل يتضوَّر، فأسقطوا عنه][3] ثلاث مئة دِرْهم، فلما كان بعد أيام جاء الرجل ومعه ستّ مئة دِرْهم، وهو يبكي، فقيل له: مالَكَ؟ قال: رأيتُ في المنام وقد خَرَج عليَّ نور الدين من قبره، وبيده جوكان، وقال: أنتَ تكسر وقفي. وأراد أن يضربني، فقلتُ: أنا تائب، ورمى بالدَّراهم، [فقلنا له: خذها، فقال: لا والله أخاف أن يضربني][1].

[وحكى][1] الشيخ تاج الدِّين الكندي: ما تبسَّمَ نورُ الدِّين إلا نادراً، حكى لي جماعةٌ من شيوخ المحدِّثين: أنهم قرؤوا عليه حديثَ التَّبَسُّم، وكان يرويه، فقالوا له: تَبَسَّمْ، فقال: لا والله لا أتبسَّم من غير عجب.

[و][1] حدَّثني رجلٌ من أهل حَرَّان: قال: خَرَجَ يوماً نورُ الدِّين من حرَّان قاصداً إلى الرُّها، فاجتاز على نهر، وفقير نائم على [جانب النهر][4]، فوقف وسلَّم عليه، فرفع الفقيرُ رأسه، وأشار بيده: في أيِّ شيء أنتَ؟ فحرّك نورُ الدين أُصْبعاً واحداً، فحرَّك

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): وقال متولي أوقاف نور الدين، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): فجاء متضوراً، فأسقط عنه ثلاث مئة درهم، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (ح): جانبه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م)، وبنحوه في (ش).

الفقير أُصْبعين، ومضى نور الدِّين باكياً، فقيل له: ما هذا؟ قال: أشار إلي الفقير، وقال: في أيِّ شي أنت؟ وهذا كله لماذا؟ فقلتُ: من أجلِ رغيف واحد. فأشار إليَّ بأُصبعيه، وقال: أنا آكل في اليوم رغيفين، وما أنا مثلك.

[وذكر ابن الأثير الجَزَري في «تاريخه»، قال][(١)]: كان نورُ الدِّين قد جَمَعَ العساكر من المَوْصل والجزيرة وديار بكر ليتركها بالشَّام في مقابلة الفرنج، ويتوجَّه بنفسه إلى مِصْر، فإنَّه رأى من صلاح الدين فتوراً في غَزْوِ الفرنج، وكان المانع لصلاح الدّين من الغَزْوِ خوفَه من نور الدين، [فكان يقصر في غزوهم][(٢)]، وما كان يرى نور الدين إلا خلاص القُدْس منهم، واستئصالهم من السواحل، فمضى إلى دمشق، وأقام يتجهَّز، فأدركه أجله [وهو على هذه النية][(٢)] [(٣)].

ذكر وفاته [وما يتعلَّق بها][(٢)]

كان قد خَتَنَ ولده الملك الصَّالح إسماعيل، يوم الفطر، وهُنِّئ بالعيد والطُّهور [ومدحه الشعراء][(٢)]، فقال العماد الكاتب: [من المجتث]

عـيـدان فِـطْـرٌ وطُـهْـرُ ... فـتـحٌ قـريـبٌ ونَـصْـرُ
كـلاهـمـا لـك فـيـه ... حـقًّـا هـنـاءٌ وأَجْـرُ
وفـيـهـمـا بـالـتَّـهـانـي ... رسْـمٌ لـنـا مُـسْـتَـمِـرُّ
طـهـارةٌ طـابَ مـنـهـا ... أصـلٌ وفَـرْعٌ وذِكْـرُ
مـحـمـودٌ الـمَـلِـك الـعـا ... دِلُ الـكـريـمُ الأَغَـرُّ
وبـابـنـه الـمـلـك الـصَّـا ... لـح الـعـيـونُ تَـقِـرُّ
مـولـى بـه اشـتـدَّ لـلـدِّيـ ... ـنِ والـشَّـريـعـةِ أَزْرُ
وإنَّ حُـبَّـكَ دِيْـنٌ ... وإنَّ بُـغْـضَـكَ كُـفْـرُ
لـنـا بـيـمـنـاكَ يُـمْـنٌ ... لـنـا بِـيُـسْـراك يُـسْـرُ
ولـلـمـوالـيـنَ نَـفْـعٌ ... ولـلـمُـعـاديـن ضَـرُّ

---

(١) في (ح): وقال ابن الأثير الجزري، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) انظر «الباهر»: ١٦١ .

قــد اســتــوى مــنــك تــقــوى الـــ إلـــــه ســـــرٌّ وجَـــــهْـــــرُ
يـــا أعـــظـــمَ الـــنَّـــاس قَـــدْراً وهـــل لـــغـــيـــرك قَـــدْرُ
مـــا اعْـــتَـــدْتَ إلا وفـــاءً وعـــادةُ الـــقـــوم غَـــدْرُ
هـــذا الـــطُّـــهـــورُ ظـــهـــورٌ عـــلـــى الـــزَّمـــان وأَمْـــرُ
رُزِقْـــتَ عُـــمـــراً طـــويـــلاً مـــا طـــالَ لـــلـــدَّهْـــر عُـــمْـــرُ

وخرج نورُ الدِّين يوم الأحد إلى المُصَلَّى بالأمراء والأجناد، والقَدَرُ يقول: هذا آخر الأعياد. فَمَرِضَ، وبدأ به الخوانيق، وما كان يرى الطِّبّ.

قال الرَّحْبي الطَّبيب(١): اسْتُدْعينا، فدخلنا عليه ونحن جماعةٌ من الأطباء وهو في قلعة دمشق في بيتٍ صغير كان يتعبَّد [فيه]، وقد استحكم منه المرض، واستولى الخوانيق على حلقه فما كان يسمع منه صوت، فشرعنا في مداواته، فلم ينجع فيه الدَّواء مع حضور أجله، وكانوا قد أشاروا عليه بالفَصْد في أوَّل المرض، فامتنع، وكان مهيباً فما رُوجع.

وكانت وفاته يوم الأربعاء حادي عشر شَوَّال، ودفن بالقَلْعة، ثم نُقِل إلى مدرسته التي أنشأَها مجاورة للخوَّاصين، ويقال: إنَّها كانت دار عمر بن عبد العزيز ﷺ، وقيل: دار سليمان بن عبد الملك، وعاش ثمانياً وخمسين سنة، وكانت أيامه ثمانية وعشرين سنة وستة أشهر.

وقال عرقلة في مدرسة نور الدِّين رحمه الله: [من الوافر]

ومــدرســة ســيــدرسُ كــلُّ شــيء وتــبــقــى فــي حِــمَــى عِــلْــمٍ ونُــسْــكِ
تــضــوَّعَ ذِكْــرُهــا شَــرْقــاً وغَــرْبــاً بــنــور الــدِّيــن مــحــمــودِ بــنِ زَنْــكــي
يــقــول وقــولُــه حــقٌّ وصِــدْقٌ بــغــيــر كــنــايــةٍ وبــغــيــر شَــكٍّ
دمــشــقٌ فــي الــمــدائــن بــيــت مُــلْــكــي وهــذي فــي الــمــدارس بــيــتُ مِــلْــكــي

(١) هو رضي الدين يوسف بن حيدرة بن حسن الرحبي، من أشهر أطباء عصره، توفي سنة (٦٣١هـ)، له ترجمة في «عيون الأنباء»: ٦٧٢ -٦٧٥ ، ٦٨٢ .

[ورثاه جماعة من العلماء][(١)] فقال العمادُ الكاتب: [من المتقارب]

عجبتُ من الموتِ كيف اهتدى إلى مَلِكٍ في سجايا مَلَكْ
وكيف ثوى الفَلَكُ المُستديـ ـرُ في الأَرْضِ والأرضُ وَسْطَ الفَلَكْ

وقال أيضا: [من السريع]

يا ملكاً أيَّامُه لم تَزَلْ لفَضْلِهِ فاضلةً فاخِرَهْ
ملكتَ دُنْياكَ وخَلَّفْتَها وسرتَ حتى تملكَ الآخِرَه

وقال أبو اليُسْر شاكر بن عبدالله: تعدَّى بعضُ أمراءِ صلاحِ الدِّين على رجلٍ، وأخذ ماله، فجاء إلى صلاح الدِّين، فلم يأخذ له بيد، فجاء إلى قَبْر نور الدِّين، وشَقَّ ثيابه، وحثى التُّرابَ على رأسه، وجعل يستغيث: يا نورَ الدِّين [أين] أيامك؟ ويبكي، وبَلَغَ صلاح الدِّين، فاستدعاه وأعطاه ماله، فازدادَ بكاؤه، فقال له صلاح الدين: ما يبكيك وقد أنصفناك؟ فقال: إنَّما أبكي على ملك أُنصفت ببركاته بعد موته، كيف يأكله التُّراب، ويفقده المسلمون!

ذِكرُ ألقابه

التي جاءت من بغداد مع الخِلْعة، ويُخطب له بها على المنابر: اللهم وأَصْلِحِ المولى السُّلْطان الملك العادِلَ العالم، العامل الزَّاهد، العابد الوَرِع المجاهد المرابط، نورَ الدين وعُدَّتَه، ركنَ الإسلام وسَيْفَه، قسيمَ الدولة وعمادَها، اختيار الخلافة ومعِزّها، رضيَّ الإمامة وأثيرَها، فخر المِلَّة ومجيرها، شمس المعالي وفلكها، سيِّد ملوك الشرق والغرب وسُلْطانَها، محيي العَدْل في العالمين، مُنْصِف المظلومين من الظَّالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين، وذكر ألقاباً أخرى.

ثم إنَّ نور الدِّين أسقطَ الجميع قبل موته، وقال: يقال: اللهم وأَصْلِحْ عبدَك الفقير محمود بن زنكي.

ورُوي أنَّه كَتَبَ رقعةً بخطه إلى وزيره خالد بن القَيْسَراني يأمره أن يكتبَ له صورةَ ما يُدْعى له به على المنابر، وكان مقصودُه صيانةَ الخطيبِ عن الكَذِب، ولئلا يقول ما ليس فيه، فكتبَ ابنُ القَيْسراني كلاماً، ودعا له فيه، ثم قال: وأرى أن يقال على

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

المنبر، اللهم وأَصْلح عبدَك الفقيرَ إلى رحمتك، الخاضعَ لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهِدَ في سبيلك، المرابط لأعداء دِيْنك، أبا القاسم محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر، ناصر أمير المؤمنين. فإن هذا ما يدخله كَذِبٌ ولا تزيُّد، فكتَبَ نورُ الدين على رأسها بخطِّه: مقصودي أن لا يُكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لا أعمل، قِلَّة عقل عظيم، الذي كتبت به جيد، اكتبْ به نُسَخاً إلى البلاد.

وكان يقول لأصحابه: حرام على كلٍّ من صحبني ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليَّ.

ذكرُ نُبْذةٍ مما مُدِحَ به:

كان قليلَ الابتهاج بالشِّعْر، لا يُؤْثر المديح ويجيز عليه، فمن قول ابن القيسراني فيه: [من الخفيف]

ذو الجهادين من عدوٍّ ونَفْسٍ ... فهو طول الحياةِ في هَيْجاءِ
أيها المالكُ الذي ألزم النَّا ... سَ سلوكَ المحجَّة البيضاءِ
قد فَضَحْتَ الملوكَ بالعَدْلِ لَمَّا ... سِرْتَ في الناس سيرةَ الخُلَفاء
قاسماً ما مَلَكْتَ في النَّاس حتى ... لقسمتَ التُّقى على الأتقياءِ
شيم الصَّالحين في جُنَنٍ[1] التُّرْ ... كِ وكم من سكينة في قَبَاءِ
أنتَ حيناً تقاس بالأسد الوَرْ ... دِ وحيناً تُعَدُّ في الأولياءِ
وكأنَّ القَباء منك لما ضمَّ (م) من الطُّهْر مسجدٌ بقُباءِ
أنتَ إلا تكنْ نبياً فما فا ... تَكَ إلَّا خلائقُ الأنبياءِ
رأفةٌ في شهامةٍ وعفافٌ ... في اقتدارٍ وسَطْوةٌ في حياءِ
وجمالٌ ممنطقٌ بجلالٍ ... وكمالٌ متوَّجٌ ببهاءِ
عَجِبَ النَّاسُ منك أنَّك في الحَرْ ... بِ شهابُ الكتيبةِ الشَّهْباءِ
وكأنَّ السيوفَ من عَزْمك الما ... ضي أفادتْ ما عندها من مَضَاءِ
ولعمْري لو استطاع فَدَاكَ الـ ... قومُ بالأمَّهات والآباءِ

(١) مفردها جنة، وهي الدرع، «اللسان» (جنن).

وقال: [من الخفيف]

مَلِكٌ أشْبه الملائكَ فَضْلاً وشبيه بمالكِ الأمر جُنْدُهْ
عمَّ إحسانُه فأصبحَ يُتْلى شكره في الورى ويُدْرَسُ حَمْدُهْ
فسقى الله ذِكْرَه أينما حلَّ ولا فاتَه من النَّصْرِ رِفْدُهْ

وقال أحمد بن منير: [من الطويل]

أيا ملكَ الدُّنيا الحُلاحل والذي لـه الأرضُ دارٌ والبَرِيَّةُ أعْبُدُ
وليستْ بدعوى لا يُقام دليلُها ولكنَّه الحقُّ الذي ليس يُجْحَدُ
أخو غَزَوَاتٍ كالعقودِ تناسَقَتْ تَحُلُّ بأجيادِ الجيادِ وتُعْقَدُ
لسانٌ بِذِكْر الله يكسو نهارَه بهاءً وجَفْنٌ في الدُّجى ليس يَرْقُدُ
وبَذْلٌ وعَدْلٌ اغرقا وتألَّقا فلا الوِرْدُ مثمودٌ ولا البابُ مُوْصَدُ
مرامٌ سمائيٌّ وحَزْمٌ مسدَّدٌ ورأيٌ شهابيٌّ وعَزْمٌ مؤيَّدُ

وقال ابنُ الأثير: كان مجلسُ نور الدين مثل مجلس رسول الله ﷺ لا يُسمع فيه لأحدٍ كلمة إلا مفيدة، فلما ملك صلاحُ الدِّين دمشق حضر الحافظ ابنُ عساكر مجلسه، فسمع لَغَطاً كثيراً، وكلٌّ واحدٍ يتحدَّث مع الآخر، وليس للمجلس هيبة، فبكى [الحافظ][1] وقال: يرحم الله نور الدين، لقد حضرت مجلسه مراراً، فما سمعتُ أحداً ينطق إلا جواباً، فما هذا اللَّغط! وبلغ صلاح الدين فقال: إذا حضر الحافِظُ عندنا فلا يتكلَّمَنَّ أحدٌ بكلمة[2].

ذِكْرُ ما جرى بعد وفاته:

كان ولده الملك الصَّالح لم يبلغِ الحُلُم، فأجلسوه مكانه، وحَضَرَ القاضي كمال الدين بن [الشَّهْرُزُوري وشمس الدين بن المقدَّم، وجمال الدِّين][1] ريحان ـ وهو أكبر الخدم ـ والعَدْل أبو صالح بن العَجَمي أمين الأعمال، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة، وأنَّ شمسَ الدِّين [بن المقدَّم][1] إليه تقدمةُ العساكر، وتربيةُ الملك الصالح.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) الباهر: ١٧٢-١٧٣.

ووصل كتابُ صلاح الدِّين من إنشاء الفاضل [إلى دمشق](١)، وفيه: أدامَ الله أيَّام مولانا الملك الصَّالح، رفع الله قَدْره، وأَعْظَمَ أَجْرَ المملوك في مولانا الملك العادل وأَجْره، أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القَعْدة، وفيه أُقيمت الخُطْبة بالاسم الكريم، وصرّح بذكره في الموسم العظيم، والجمعِ الذي لا لغْوَ فيه ولا تأثيم، وأشبه المملوك أَمْسَه في الخِدْمة، ووفَّى بما لزمه من حقوق النِّعْمة، وجَمَع كلمة الإسلام لعِلْمه بأن الجماعةَ رحمة، والله تعالى يخلِّدُ مُلْكَ مولانا الملك الصَّالح، ويُصْلح به، وعلى يديه، ويديمُ النَّعْماء عليه [وذكر فصولاً تتعلق بالتهنئة والتعزية](١).

ولما بلغ الفرنجَ وفاةُ نور الدِّين قصدوا بانياس(٢) طمعاً في البلاد، فراسلهم شمسُ الدِّين بن المقدَّم، وخوَّفهم بأسَ صلاح [الدين](١)، فلم يلتفتوا، فصالحهم على مالٍ دفعه [إليهم](١) في ذلك الوقت، وبلغ صلاح الدين، فشقَّ عليه، وكتب إلى شرف الدين بن [أبي](١) عَصْرُون يقول: لما بلغني وفاة المرحوم، خرجت من مصر لقصد الجهاد، وتطهير البلاد من أهل الكُفْر والعناد، فبلغني حديثُ الهُدْنة المؤذنة بذُلِّ الإسلام، وشَيْنِ شريعة المصطفى عليه الصلاة والسلام، والشيخ أَوْلى من جَرَّد لسانه في إنكار هذا الأمر، فإنَّ بلسانه تُغمد السيوف، وتجرَّد الحتوف.

وأما سيف الدِّين غازي، فإنَّه كان قد سار عن المَوْصل لنجدة عمه نور الدين، ووصل إلى حرَّان، فبلغه وفاةُ عمه، فاستولى على الجزيرة بأسرها ما خلا قلعة جَعْبر، وكان نورُ الدِّين قد أبطل الخمور والمكوس من الجزيرة، فأعادها سيفُ الدِّين، وأقام منادياً ينادي في الأسواق، وبيده باطيةُ خمر وقَدَح وهو يشرب، فكَثُرَ التَّرحم على نورِ الدِّين، والذَّم لسيفِ الدِّين.

وأراد سيفُ الدِّين العبورَ إلى الشَّام، والاستيلاء على حلب، فقال له الأُمراء: ارجعْ إلى بلدك فقد ملكت الجزيرة، ولم يملكها أبوك، وصلاح الدين بين يديك، فعاد إلى المَوْصل، وبلغ صلاح الدين، فكَتَبَ إلى أُمراء نور الدين يلومهم حيث مكَّنوا سيفَ الدِّين من أَخْذِ الجزيرة، ويقول: سوف أَصِلُ إلى خدمة ابنِ مولاي، وأُجازي إنْعام والده عليَّ وما عاملني به.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) هي في هضبة الجولان، وبقربها الآن قلعة تعرف بقلعة النمرود.

وكان شمسُ الدِّين علي ابن الدَّاية في قلعة حلب حاكماً عليها هو وأخوه مجد الدين أبو بكر وسابق الدِّين عثمان، وكانوا أعزَّ النَّاس على نور الدين، وكان مجد الدين [أبو بكر رضيع نورِ الدين][1] وكانت شَيْزَر لشمس الدِّين علي، وقلعة جَعْبر وتل باشر لأخيه سابق الدِّين عثمان، وحارم لبدر الدِّين حَسَن أخيهم، وكان نور الدين قد أسكنهم معه بقلعة حلب، ولا يَصْدُرُ إلا عن رأيهم، فلما مات نور الدين لم يشكُّوا أَنَّهم أحقُّ بتربية ولده من غيرهم، وكان أوجههم شمسَ الدين [عليّ، وكان بالقلعة معه شاذبخت الخادم، فلما وصل سيف الدين إلى الفرات أرسل شمسُ الدين][2] إلى دمشق يطلبُ الملكَ الصَّالح ليدفع به سيفَ الدِّين، فقالوا: إنْ سيَّرْتموه إليه استولى على تربيته، فاعتذروا إليه، وأقام الصَّالح بدمشق تمام هذه السَّنة.

أبو شجاع الطوابيقي البغدادي[3]

شاعر فصيح، أقام بالموصل، ومدح أكابرها، ومن شعره: [من الكامل]

أصبحتَ تُخْرجني بغير جنايةٍ ... من دار إعزازٍ لدار هَوَانِ
كدمِ الفِصادِ يراقُ أرذلَ موضعٍ ... أبداً ويخرجُ من أعزِّ مكانِ
إنْ لم يخلِّصْني الوِصالُ بجاهه ... سأموتُ تحت عقوبةِ الهِجْرانِ[4]

السَّنة السَّبعون وخمس مئة

[قال جدي رحمه الله: في هذه السنة انتهى تفسيري للقرآن على المنبر، فإني كنتُ أذكر في كل مجلس منه آيات، ففرغت في هذه السنة، وسجد على المنبر شكراً لله تعالى، وقال: ما أعرف واعظاً غيري فسَّر القرآن كله على المنبر إلا أنا[5].

(١) في (ح): وكان مجد الدين رضيعه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء العراق: ج١/ ٣١٨-٣٢٢، و«فوات الوفيات»: ٣/ ١١٩-١٩٢ - وفيه القاسم بن الحسين أبو شجاع بن الطوابيقي - و«الوافي بالوفيات»: ٢٤/ ١١٨-١١٩، ووفاته في الفوات والوافي سنة (٥٩٦هـ)، وإخاله وهماً.
قال ابن الأثير في اللباب: ٢/ ٢٨٧ هذه النسبة إلى الطوابيقي، وهي الآجر الكبار الذي يفرش في صحن الدار.
(٤) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٣٢٢، مع اختلاف في ترتيب الأبيات.
(٥) «المنتظم»: ١٠/ ٢٥١.

فصل:

وفيها سُلِّمَتْ إليّ المدرسة التي بباب الأزج، وكانت دار الوزير ابن جَهِيْر، وكانت بنفشا جهة الخليفة المستضيء قد اشترتها وأوقفتها على أصحاب أحمد ابن حنبل، وفوضتْ أمرها إليّ، وأوقفت عليها قرية، وحضر درسي قاضي القضاة والحاجب وأرباب الدولة، وخُلع عليَّ خِلْعة نفيسة، وذكرتُ دروساً كثيرة، وكان يوماً مشهوداً، وخرجتُ وبين يدي الدُّعاة، وارتفعتِ الأدعية للخليفة، ووقفتِ الناسُ صفوفاً مثل يوم العيد.

قال: وأصاب أهل المذهب ـ يعني الحنابلة ـ من ذلك غم عظيم، لأنَّهم حسدوني، وجلستُ تحت المدرسة في شوَّال يوم الأربعاء، فكان الجمع زيادة على خمسين ألفاً، فازداد غمُّ أهل المذهب(١).

وكان جدي يقول: والله لولا أحمد والوزير ابن هُبيرة لانتقلت عن المذهب، فإني لو كنتُ حنفياً أو شافعياً لحملني القوم على رؤوسهم](٢).

وفيها أعاد المستضيء أبا الحسن الدَّامَغاني الحنفي إلى قضاء القضاة ببغداد.

وفيها أمر الخليفة أن يُخلَع على رئيس الرُّؤساء خِلَع الوِزَارة، وكان قطب الدِّين قيماز عدوَّه، فأغلقَ أبوابَ دارِ الخليفة، ومَنَعَ من ذلك، فأَرْسَلَ الخليفةُ إليه صَنْدَل المقتفوي يعينه، فلم يلتفت، وقال: إما أنا وإما ابن رئيس الرُّؤساء؛ لا يقيم معي في بلد. فقيل للوزير: اعبر إلى الجانب الغربي، وأَقِمْ لننظرَ في الأمر، فَعَبَر.

وفيها كانت فتنة قُطب الدِّين قيماز المذكورة، وكان قد طمع في الدَّولة واستطال، واستقلَّ بالأمر، فلم يبقَ معه للخليفة حُكْم، وكان قد تزوَّج أُخت الأمير تتامش، واتَّفقا على الدولة، وكانت العساكر بحكمهما وهما ساكنين في دار الخلافة، ومعهما مفاتيح أبواب الدار.

وكان تتامش قد استولى على واسط والبَصْرة، وبعث نوابه فصادروا النَّاس، ونهبوا أموالهم، فجاء منهم جماعةٌ إلى بغداد، فدخلوا جامع القَصْر، واستغاثوا، وكسروا المنبر، ومنعوا الخطيب من الخُطْبة، فبعث الخليفةُ إلى قطب الدين وتتامش فنهاهما،

---

(١) «المنتظم»: ١٠/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وقال: هذه شناعةٌ قبيحة. فلم يلتفتا، فبعث إليهما صَنْدَل، فأغلظا له، وكان ظهير الدِّين ابن العَطَّار صاحبَ المخزن، فبعث قطبُ الدِّين إلى الخليفة يقول: اعزله. فقال: بالأمسِ عَزَلْنا الوزير واليوم نعزل صاحبَ المخزن، فمن يقوم بخدمتنا؟ فركب قطبُ الدِّين وتامش والعساكر، وأظهرا العِصْيان، وأغلقا أبوابَ دارِ الخليفة، وكان ابنُ العَطَّار ساكناً في الدَّار، فقصدا داره، فهرب إلى باب الحجرة، فنهباها، وأحرقاها، فغضبَ الخليفةُ، وبعث أستاذ الدَّار وصَنْدَل في عسكرٍ لقتالهما، فاقتتل الفريقان على باب دار قطب الدِّين، فلم يقدر صَنْدَل عليه، فأرسل إلى الخليفة يستمدُّه، فصَعِدَ الخليفةُ على منظرة الرَّيحانيين، فظهر للنَّاس، وقد اجتمع أهل بغداد تحت المنظرة، وقال: يا أهلَ بغداد، أنا خليفتكم، وقد عصى عليَّ قيماز، وكَفَر نعمتي، وظَلَمَ رعيَّتي، واستحلَّ ما حرَّم الله تعالى، المالُ مالكم، والدَّم لي. فثارتِ العامةُ، وقصدوا داره ينادون: الخليفة يا منصور، وسمع قيماز الضَّجيج فقال: هذا الصِّياح لنا أو علينا؟ فقالوا: علينا. فقال: هلكنا وربِّ الكعبة. وحَمَلَ العوام على أصحابه فطحنوهم، وضربوا بواباته بقوارير النِّفْط، فأحرقوه، وأحرقوا جماعةً من أصحابه، ودخلوا داره، فهرب هو وتامش من باب السِّرِّ في نفرٍ يسير، والعامةُ خلفهم بالآجُرِّ والنُّشَّاب والمقاليع، وعَبَرَا على عقد المصطنع، وهناك هَرَّاس يقال له ابن النجيل، فضرب قطبَ الدِّين بالمِغْرَفة، وقال له: يا مارق.

ودخلتِ العامَّةُ الدَّار، وكان قطبُ الدِّين قد بَسَطَ الأَنْطاع، وصبَّ عليها المالَ والجواهر واليواقيت وأطواق الذَّهب والخِلَع وأموالاً لم تكن عند الخلفاء ولا الملوك، فنهبوا الجميع بحيثُ إن العوام كانوا يدخلون المطبخ والقُدور بحالها، فيرمي الواحد في القدر المال في الأكياس، ويخرج بها، فاستغنى أهلُ بغداد، ونادى الخليفة آخر النَّهار برفع النَّهب، وعَزَلَ نساءهم وحُرَمَهم في دُور، ووكَّل بهم بعضَ الخدم يحفظهم ويقوم بأمرهم، وحَبَسَ الأمراء والجُنْد الذين وافقوهم، وأُخذت أموالهم.

وأما قطب الدِّين وتامش فهربا إلى المَوْصل، فمات قطب الدِّين بظاهرها، وقيل بتل أَعْفر[1]، وغُسِّل في سقاية، ولم يوجد له كَفَن، وكان معه جماعةٌ من الأمراء؛

---

(١) وهي المعروفة بتل يعفر كذلك، بين سنجار والموصل، انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٣٩.

منهم حسام الدين تميرك، فجاء إلى الشَّام، فأكرمه صلاح الدِّين، وأقطعه الإقطاعات، وكان عماد الدين صاحب سِنْجار قد نهبهم.

واستوزر الخليفةُ عضد الدِّين ابن رئيس الرُّؤَساء، وخَلَعَ [عليه خِلَع الوزارة][1].

وفي آخر صفر توجَّه الملك الصَّالح إلى حلب مع كُمُشْتِكين خادم أبيه، وكان نائباً بقلعة المَوْصِل[2] لنور الدين، فلما مات نورُ الدِّين هَرَب من سيف الدِّين إلى حلب، واتَّصل بخِدْمة أولاد الدَّاية، فأرسلوه إلى دمشق ليُحْضِرَ الملك الصَّالح، فأحضره في صفر، فكان مقامه بدمشق بعد وفاة أبيه خمسة أشهر، ولما دخل حلب كان معه إسماعيل الخازن وأبو صالح بن العَجَمي، فحسَّن له ابنُ العجمي قَبْضَ أولاد الدَّاية، فأمر كُمُشْتِكين، فقبض عليهم، وحَسَّنَ له قبض ابن الخشاب مقدَّم الشيعة، فقبض عليه.

وكان عقيب موت نور الدِّين قد جرت بحلب فتنةٌ بين الفريقين، قُتِلَ من السُّنَّة والشيعة خَلْقٌ عظيم، واجتمعت الشيعة بدار ابن الخَشَّاب، ونُهبت دور بني العَجَمي ودور بني عَصْرون.

وقيل: إنَّ هذه الفِتْنة وقعت عند دخول الملك الصَّالح حلب، فاسْتُدعي الخَشَّاب إلى القلعة، فاعترضه جُرْديك، فقتله، ورمى برأسه إلى البلد، فسكنتِ الفِتْنة.

وبلغ [ابن][3] المقدَّم والأُمراء بدمشق ما فُعِلَ بأولاد الدَّاية، فكاتبوا سيف الدِّين صاحب المَوْصل ليسلِّموا إليه دمشق، فخافَ أن تكون مكيدة، فتوقَّف، وكاتبه الشيعة أيضاً ليسلِّموا إليه حلب، فأقام يتروَّى، وكان قَبْضُ بني الدَّاية، وقَتْلُ ابن الخَشَّاب سبباً لفساد أمر الملك الصَّالح.

---

(١) في (ح): وخلع هو الذي قصده قطب الدين، وما بين حاصرتين زيادة من عندنا مستفادة مما في «المنتظم» ١٠/ ٢٥٤، وأما قوله: «هو الذي قصده قطب الدين» فإخالها: وهو الذي قصده قطب الدين، «وهو» زيادة من ناسخ أو قارئ زيدت في الهامش، ثم أدخلت في المتن، فمن ثم أشرت إليها، ولم أثبتها، والله أعلم.

(٢) في (ح): دمشق، وهو تحريف، والصواب ما أثبته، انظر كتاب «الروضتين»: ٢/ ١٦٨، ٣٢٥ بتحقيقي.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ثم إنَّ الصَّالح ضيَّق على بني الدَّاية، وطلب منهم تسليمَ الحصون التي بأيديهم، وبلغ صلاح الدِّين، فشقَّ عليه، وخاف افتراقَ الكلمة، واستيلاءَ الفرنج على الشَّام، فكاتَبَ ابنَ المقدَّم والأمراء ينكر عليهم اجتراءهم عليه وعلى الدَّولة، وقال: أولاد الدَّاية هم أركانُ الدَّولة، والله لئن لم يُطْلَقوا لأسيرَنَّ إليكم، ولأبدِّدَنَّ شَمْلَكم. فكتبَ إليه ابنُ المقدَّم: لا تجعل هذا سبباً لطمعك في البلاد، وأن تستولي على بيت أُستاذك، وإيَّاك هذا. فَغَضِبَ صلاحُ الدين، وتجهَّز إلى الشَّام، فبلغه وصول أُسطول من صِقِلِّية إلى الإِسكندرية، فخاف على البلاد، وأقام، فوصل الأُسطول، وفيه ستُّ مئة قطعة، فيها من الخَيَّالة ألف وخمس مئة، ومن الرَّجَّالة ثلاثون ألفاً ومعهم الأبراج، ومن المجانيق والدَّبَّابات وآلة الزَّحف، فنزلوا جزيرة الإسكندرية، وصَعِدوا بأَسْرهم، وزحفوا على البلد، وألصقوا الأبراج بالأسوار، ونصبوا السَّلالم، ففتح المسلمون الأبواب، وخرجوا إليهم، وركب جماعةٌ في الشخاتير نحو سفنهم، فخسفوها وغرَّقوها، وضَرَبَ المسلمون مَنْ كان في الجزيرة بالنِّفْط، فانهزموا، وغَرِقَ منهم أكثر ممن قُتِلَ، ولم ينجُ منهم إلا القليل، وقيل: كان ذلك في سنة إحدى وسبعين.

وفيها ملك صلاحُ الدِّين دمشق، لما انقضتْ نوبةُ الأُسطول سار إليها بعساكره، وكان ابنُ المقدَّم والقاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري وابن الجاولي والأعيان قد كاتبوه، وكان بالقلعة رَيْحان الخادم، فعَزَم على قتاله، فجهَّز إليه عسكر دمشق، وركب صلاح الدِّين من جسر الخشب[١]، والتقاه أهل دمشق بأَسْرهم، فأحدقوا به، فَنَثَرَ عليهم الدَّراهم والدَّنانير، ودَخَل دمشق، لم يُغْلق في وجهه باب، ولا منعه مانع.

وقال القاضي [الفاضل][٢]: فملكنا دمشق عنايةً لا عَنْوَةً، ولم نَخْطُ بحمد الله إلى خطيئةٍ خُطْوة، وما جَرَتْ منا مِنْسأةٌ فتجري فيها أُسوة، وكان عسكر دمشق لما رأوا فعل العوام انكفؤوا راجعين إلى القلعة، ونزل صلاح الدين بدار العقيقي، وكانت دارَ أبيه، ونزل أخوه شمس الدَّولة بدار عمه أسد الدين [شيركوه][٢]، وتمنَّعتِ القلعةُ عليه أياماً، ثم سلَّمها إليه ريحان [الخادم][٢]، وأحسنَ صلاحُ الدِّين إلى ابنِ المقدَّم والقاضي

(١) في (ح): الجسور، والمثبت من «الروضتين»: ٢/ ٣٤١.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

[ابن][1] الشَّهْرُزُوري، ومشى إلى داره، فانزعج القاضي، وخرج إلى لقائه، ودخل صلاح الدين، فجلس وباسَطَه، وقال: يا كمالَ الدِّين لما كنتُ في الشحنكية قد كانت بيننا هَنَات ومشاحنات، وما مشيتُ إليك إلا لأُزيل ما في خاطرك من الوهم، وأعرِّفَك أَنَّ ما في قلبي لك ما تكره، فطِبْ نَفْساً وقَرَّ عَيْناً، فالأَمْرُ أَمْرُكَ، والبَلَدُ بلدك.

قلت: ومشي صلاح الدين إلى دار كمال الدين من أحسن ما يسطر في السير، وهو دليلٌ على تواضعه وعفوه بعدما قدر، فيا طوبى لمن جاء بعده إن فكَّر واعتبر، وعرف قدر إنعام الله عليه فحمد وشكر، وأكثر الشعراء في أخذ صلاح الدين دمشق][1].

وقال سَبُع بن خَلَف الأَسَدي: [من البسيط]

للـه أنـتَ صـلاحَ الـديـن مـن أَسَـدٍ ... أدنـى فـريـسـتِـهِ الأيـامُ إنْ وَثَـبـا
رأيـتَ جِـلِّـق ثـغـراً لا نـظـيـر لـه ... فـجـئـتَـها عـامـراً مـنـهـا الـذي خَـرِبـا
نـادتْـكَ بـالـذُّلِّ لـمـا قَـلَّ نـاصِـرُهـا ... وأَزْمـعَ الـخَـلْـقُ مـن أوطـانـهـا هَـرَبـا
أحييتها مِثْلَ ما أحييتَ مِصْرَ فقد ... رَدَدْتَ من عَـدْلـهـا ما كـان قـد ذَهَـبـا
هـذا الـذي نـصـر الإسـلام فـاتَّـضـحـتْ ... سـبـيـلُـه وأهـان الـكُـفْـرَ والـصُّـلُـبـا
ويـوم شـاورَ والإيـمـانُ قـد هُـزِمَـتْ ... جيوشُه حيث كانَ الجَحْفَلَ اللَّجِبا
أَبَـتْ لـه الـضَّـيْـمَ نَـفْـسٌ مُـرَّةٌ ويَـدٌ ... فـعَّـالـةٌ وفـؤادٌ قَـطُّ مـا وَجَـبـا
يَـسْـتَـكْـثِـرُ الـمَـدْحَ يُـتْـلـى فـي مـكـارمـه ... زُهـداً ويـسـتـصـغـر الـدُّنـيـا إذا وهَـبَـا
فـهـو الـجـوادُ ولـكـن لا يُـقـال كـبـا ... وهـو الـحُـسـامُ ولـكـن لا يـقـالُ نَـبَـا
وهـو الـهِـزَبْـرُ ولـكـن لا يُـقـال طـغـا ... وهـو الـضِّـرامُ ولـكـن لا يُـقـال خَـبَـا
فـأَنـتَ إسـكـنـدرُ الـدُّنـيـا ووارِثُـهـا ... فـاقـصـدْ مـلـوكَ خُـراسـان وَدَعْ حَـلَـبـا[2]

ثم إنَّ صلاحَ الدِّين أسكن أخاه سيف الإسلام طُغْتِكِين قلعة دمشق، ثم كَتَبَ إلى الملك الصالح [ابن نور الدين][1] كتاباً يتواضع له فيه، ويخاطبه بمولانا وابنِ مولانا، ويقول: إنما جِئْتُ من مِصْر خدمةً لك لأؤدِّي بعض ما يجب من حقوق المخدوم

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٤٢-٢٤٤ ، وسبع بن خلف هو المعروف بوحيش الأسدي.

المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك، [وتختلُّ أمورك][(١)]، وما قَصْدِي إلا جَمْعُ كلمةِ الإسلام على الفرنج.

فعرض كتابه على أرباب دولته، وفيهم خالد بن [محمّد][(١)] القَيْسَراني، وغِلْمان أبيه، وابن العَجَمي، فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغِلْظة، فكتَبَ إليه يُنكر عليه، وينسُبُه إلى كُفْران النِّعمة وجَحْدِ إحسانِ والده، ووعَدَه وتهدَّده، وبعثَ بالكتاب مع يَنَال بن حَسَّان صاحب مَنْبج، فأغلظ لصلاح الدِّين في الجواب، وقال: السُّيوف التي ملَّكَتْكَ مِصْر هي التي تَرُدُّك. وأشار إلى سيفه، فغَضِبَ صلاحُ الدِّين وقال: ويلك، والله لولا أنَّك رسولٌ لضربت عُنُقك، والله ما جِئْتُ إلى ها هنا شَرَهاً ولا طَمَعاً في الدُّنيا، وفي مِصْر كفايةٌ، وإنما جئتُ لاستنقذ هذا الصَّبيَّ من يد مثلك وأمثالك، فأنتم سببُ زوال دولته. ثم طرده بغير جواب، فعاد إلى حلب.

واستنابَ صلاحُ الدين بدمشق أخاه [سيف الإسلام ظهر الدين][(١)] طُغْتكين، وسار إلى حِمْص، فأخذها، وفتح حماة، وسار إلى حلب، فاستغاثوا عليه بالإسماعيلية، وأعطوهم مالاً وضياعاً، فأرسلوا إليه جماعةً من فُتَّاكهم، ورآهم ناصر الدين خُمارتكين صاحب أبي قُبيس، فعرفهم، [لأنَّه كان مثاغراً لهم][(١)]، فأنكر عليهم مجيئهم، وسَبَقَ إلى خيمةِ صلاح الدِّين ليخبره، فأدركوه على باب الخيمة، فقتلوه، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدِّين، فجذبَ أمير جَنْداره سيف الدين طُغْريل السَّيفَ، وقتلَ واحداً منهم، واجتمع الغِلْمانُ على الباقين، فقتلوهم.

ورحل صلاحُ الدِّين عن حلب في أول رجب، وجاء إلى حِمْص، ثم نازل بَعْلَبَكَّ، فأخذها في رمضان من الخادم يُمْن الرَّيحاني، ووصل عسكر المَوْصِل إلى حلب، وانضاف إليهم عسكرها، ونزلوا تلَّ السُّلْطان، فساق عليهم صلاحُ الدين وبَغَتَهُمْ، وكان مقدَّمهم عِزُّ الدِّين مسعود أخو سيف الدين غازي. فكسرهم كسرةً عظيمة، وانهزموا إلى حلب، وغَنِمَ أثقالهم وأَسَرَ أبطالهم، وجاء وحاصر حلب، وهذه هي المرة [الثَّانية، والمرة][(١)] الأُولى من كسرة المواصلة.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ورجع صلاحُ الدِّين، فنازل حِصْن [بارين][1]، فأخذه من فخر الدِّين مسعود بن الزَّعْفَراني، وكان من أكابر أُمراء نور الدِّين، وأعطى مدينةَ حماة لخاله، وقيل: لابن خاله وصهره ابنِ شهاب الدِّين محمود، وأعطى حِمْص لناصر الدِّين محمّد بن شيركوه، وجاءته رُسُل حلب، واتَّفق الحال أن يكون بدمشق نائباً عن الملك الصَّالح، فأجابهم، وشفع في بني الدَّاية، وقال: لابُدَّ منهم، فلهم علينا حقوقٌ أكيدة، فقالوا: نَعَمْ، وفارقوه على ذلك، وجاءته الخِلَع والتَّشريفات من الخليفة ولأَهْله، ولقِّب بالملك النَّاصر.

وفيها وصلتِ النَّبوية[2] من العراق في عشرة آلاف فارس وراجل، فنزلوا بُزَاعة والباب، فقتلوا ثلاثة عشر ألفاً من الإسماعيلية، وسبوا نساءهم وذراريهم، وعادوا إلى العراق، ومعهم الغنائم، والرؤوس على رماحهم، وعلى القصب عشرون ألف أُذُن.

وبعث صلاح الدين العساكر، فأغاروا على بلاد الإسماعيلية، وأحرقوا سَرْمين ومعرَّة مصرين و[ضياع][1] جبل السُّمَّاق، وقتلوا مُعْظم أهله.

وفيها استخدم صلاحُ الدِّين العمادَ الكاتب؛ وسببه أَنَّه التقى الفاضل على حِمْص، ومدحه بأبياتٍ منها: [من الكامل]:

عـايـنـتُ طَـوْدَ سـكـيـنـةٍ ورأيـتُ شَـمْـ ـسَ فـضـيـلـةٍ وَوَرَدْتُ بـحـرَ فـواضِـلِ
ورأيـتُ سَـحْـبـانَ الـبـلاغـةِ سـاحـبـاً بـبـيـانـه ذَيْـلَ الـفَـخَـارِ لـوائـلِ
حِلْف الـحـصـافة والـفـصـاحة والـسَّـمـا حـةِ والـحـمـاسة والـتُّـقـى والـنَّـائل
بـحـرٌ مـن الـفَـضْـل الـغـزيـر خِـضَـمُّـهُ طـامـي الـعُـبـاب ومـالَـهُ مـن سـاحـلِ
فـي كـفِّـه قَـلَـمٌ يـعـجِّـلُ جَـرْيُـه مـا كـان مـن أجـلٍ ورِزْقٍ آجـلِ
أبـصـرتُ قُـسًّـا في الـفـصـاحـة معـجزاً فـعـرفـتُ أَنِّـي فـي فـهـاهـة بـاقِـلِ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) إخالها نسبة إلى النبي ﷺ، وهي فرقة ذكرها ابن جبير في «رحلته»، فقال: هم سنيون يدينون بالفتوة وأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه يحزمونه بالسراويل، فيلحق بهم.. وإذا أقسم أحد منهم بالفتوة بَرَّ قسمه، وهم يقتلون الروافض أينما وجدوهم، وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف.
انظر رحلة ابن جبير: ٣٥٣، وقد أخطأ محققه حين ظنها منسوبة إلى أبي البيان نبأ بن محمّد، فهذه فرقة صوفية لا علاقة لها بتلك.

من أبيات[1].

فدخل الفاضل على صلاح الدِّين، وقال له: غداً تأتيك تراجم الأعاجم، وما يحلُّها مثل العماد. فقال: ما لي عنك مندوحة، أنتَ كاتبي ووزيري، وقد رأيتُ على وجهك البركة، فإذا استكتبتُ غيرك تحدَّثَ النَّاس، فقال [الفاضل][2]: هذا يحلُّ التراجم، وربما أغيبُ أنا ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبتُ قام مقامي، وقد عرفتُ فَضْلَ العماد وخِدْمته للدَّولة النُّورية. فاسْتَكْتَبَه.

وفيها استوزر[3] سيفُ الدِّين غازي صاحبُ المَوْصِل جلالَ الدِّين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير الأَصْبهاني، فظهر منه من الكفاية والنَّهْضة وحُسْن التدبير والكتابة ما لم يكن في أحد، وكان عمره خمساً وعشرين سنة.

وفيها توفي أرسلان شاه[4] بن طغريل بن [محمَّد بن][5] ملك شاه، وجلس بعده في المُلْك ولده طغرل شاه، وكان صغيرَ السِّنِّ، والذي تولى أمره محمَّد بن إلْدكز أتابك، ويلقب بالبهلوان، فأقام بهَمَذَان يدبِّر الأمور، وبعث أخاه الغزلي، فاستولى على أَذْرَبيجان، وبعث البهلوان يطلب من الخليفة السَّلْطنة لطغرل، فطَرَدَ رسوله، ولم يلتفت إليه.

شملة التركماني[6]

كان قد غَلَبَ على بلاد فارس وخُوزستان، وبنى بها قلاعاً، وقوي على السَّلْجوقية، وكان يُظْهر طاعة الخليفة مخادعةً منه، فأقام كذلك نيفاً وعشرين سنة، وكان يباشر الحروبَ بنفسه، قصده تركمان، فخرج بنفسه، وقاتلهم، فجاءه سهم، فمات بعد يومين.

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٣٧-٣٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ذكر ابن الأثير وزارته في سنة إحدى وسبعين، انظر «الباهر»: ١٧٧ و«الروضتين»: ٢/ ٤١٩-٤٢٠.

(٤) له ترجمة في تاريخ دولة آل سلجوق: ٢٧١-٢٧٥ ـ وفيه وفاته سنة (٥٧١هـ) ـ والعبر للذهبي: ٤/ ٢١٧، و«الوافي بالوفيات»: ٨/ ٣٤٤، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٤٤، وفيها وفاته سنة (٥٧٣هـ).
وكان القائم على دولته زوج أمه شمس الدين إلدكز، ثم ابنه البهلوان.

(٥) ما بين حاصرتين من تاريخ دولة آل سلجوق: ٢٧١.

(٦) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٥٥، و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤٢٣-٤٢٤، و«الوافي بالوفيات»: ١٦/ ١٨٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٦٤-٦٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

وأقام أولاده في قلاع خُوزستان إلى أيام النَّاصر بن المستضيء، فبعث إليهم وزيره ابنَ القَصَّاب، فأخرجهم من البلاد، واستولى على ثلاثين قلعة، وبعث بأولادهم إلى بغداد، فأقاموا بها حتى ماتوا.

علي بن أحمد بن أحمد(١)

أبو الحسن البغدادي، ويُعرف بقِبْلة الأدب، ومن شعره: [من الخفيف]

يـا زمـانـاً خـلا مـن الـنَّـاس واسْـتَـأْ ... صَـلَ بـالـقَـلْـعِ شَـأْفَـةَ الأحـرارِ
لـيـتـنـي مـتُّ إذْ حـلـلـتُ بـواديـ ... ـك فـقـد عِـيْـلَ مـن أذاكَ اصْـطـباري
حـسـبـيَ الـلـه لا سـواه فـمـا أَبْـ ... ـعَـدَ خـيـراً يُـرْجـى مـن الأَشْـرارِ

عمر بن محمد بن عبد الله(٢)

أبو شجاع البَسْطامي، البَلْخي.

كان فقيهاً فاضلاً، [شاعراً، ذكره العماد الكاتب في «الخريدة»، وقال: كان ينشد في مجالس وعظه](٣)، ومن شعره: [من الطويل]

وجـرَّبـتُ أبـنـاءَ الـزَّمـانِ بـأَسْـرهـم ... فـأيـقـنـتُ أنَّ الـقُـلَّ فـي عَـدِّهـم كُـثْـرُ
وخُـبِّـرْتُ طَـغْـواهـم ولـؤم فِـعـالـهـم ... فـلـمـا الـتقـيـنـا صَـغَّـرَ الـخَـبَـرَ الـخُـبْـرُ(٤)

وقال: [من المتقارب]

لـقـد هـبَّـتِ الـرِّيـحُ مِـنْ بَـلْـدتـي ... فـيـا حُـبَّ سـاكـنِ ذاك الـبَـلَـدْ
فـقـمـتُ إلـيـهـا وعـانَـقْـتُـهـا ... ومـا عـانَـقَ الـرِّيْـحَ قـبْـلـي أحَـدْ(٤)

---

(١) له ترجمة في «ذيل تاريخ بغداد»: ٣/ ٢٤-٢٦.

(٢) له ترجمة في الأنساب: ٢/ ٢١٤، «خريدة القصر» قسم شعراء أصبهان: ٢/ ١٠٨-١٠٩، «إنباه الرواة»: ٢/ ١٠٢، «طبقات الشافعية»: للسبكي: ٧/ ٢٤٨-٢٥٠، «العبر» للذهبي ٤/ ١٧٨-١٧٩، «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٥٢-٤٥٤، وفيه تتمة مصادر ترجمته. وفيها وفاته سنة (٥٦٢هـ).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ١٠٩.

[قلتُ][(١)]: من ها هنا أخذ القائل، ولعله أخذه من قول القائل: [من مجزوء البسيط]

هَبَّتْ شمالاً فقال يا بَلَدْ أنتَ به طاب ذلك البَلَدْ
وقَبَّلَ الرِّيْحَ من صَبَابةٍ ما قَبَّلَ الرِّيْحَ قَبْلَه أَحَدْ

يحيى بن جعفر[(٢)]

أبو الفَضْل، زعيم الدِّين.

صاحب مخزن المقتفي والمستنجد والمستضيء، ناب في الوزارة، وما زال يتقلَّب في الأعمال نيفاً وعشرين سنة، وكان حافظاً للقرآن، فاضلاً عادلاً، منصفاً، مُحباً للعلماء والصَّالحين، وداره مأوى لهم، [وكان يحبُّ جدِّي رحمه الله، وكان يأذن للعوام في حضور المجلس، وله فيه مدائح كثيرة، وله على جدي فضل كثير][(١)]، وسمع الحديث الكثير، وكانت وفاته في ربيع الأول، وصُلِّي عليه بجامع الخليفة، وكان يوماً مشهوداً لم يتخلَّف عن جنازته أحد إلا الخليفة، وحمل إلى محلَّة الحربية، فدفن في تُرْبة أبيه، [وكان ثقة صدوقاً، والله أعلم][(١)].

قال العماد الكاتب: جلس يوماً بالدِّيوان في نيابة الوزارة عن الإمام المستضيء، فقام جمال الدِّين بن الصَّفي، فأنشده: [من الطويل]

لكلِّ زمانٍ من أماثل أَهْله برامكةٌ يمتارُهُمْ كلُّ مُعْترِ
أبو الفَضْل يحيى مثل يحيى بنِ خالد ندًى وأبوه جعفرٌ مثل جَعْفَرِ

فقام باشت الواعظ البغدادي، فأنشد بديهاً: [من الطويل]

وفي الجانبِ الشَّرقي يحيى بنُ جعفرٍ وفي الجانب الغربيِّ موسى بن جَعْفَرِ
فذاك إلى الله الكريم شفيعنا وهذا إلى المولى الإمامِ المُطَهَّرِ

يعني أن يحيى بن جعفر صاحب هذه الترجمة كان يسكن الجانب الشَّرقي من بغداد، فهو يشفع لنا إلى الإمام المستضيء بأمر الله، وموسى بن جعفر الصادق ـ رحمة الله عليهما ـ مدفون بالجانب الغَربي، يشفع لنا إلى الله تعالى.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٥٦ .

السَّنة الحادية والسَّبعون وخمسة مئة

فيها عَزَلَ الخليفةُ صَنْدل الخادم المقتفوي عن الأستاذ دارية، وضيَّق على ولده الأمير أبي العبَّاس أحمد النَّاصر لأمرٍ بلغه عنهما، وولى ابنَ الصَّاحب أستاذ الدار مكان صندل، وولى ابنَ النَّاقد[(١)] حِجْبَةَ الباب، ثم عَزَلَه، وولى مكانه أبا سَعْد بن المعوَّج[(٢)]، وسببه أنَّ ابنَ النَّاقد كان يميل إلى التَّشيّع، وعِمامته طويلة، فلقَّبه أهل باب الأَزَج قنبر، وهو ذكر العصافير، فكان إذا رَكِبَ صاحوا: قنبر قنبر، وقَرُبَ العيد، فأمره الخليفة أن يركب في صَدْر الموكب، فجمع العوام قنابير كثيرة، وعزموا على أن يرسلوها حوله في الموكب، وقيل للخليفة: إنْ وقع هذا بقي الموكب هُتْكَة، فعزله، وولى ابن المعوَّج.

وقال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي: وفي هذه السنة عُقِدَ عَقدُ ابنتي رابعة بباب حجرة الخليفة، وحضَرَ قاضي القُضاة، والعدول والخدم والأكابر، على أبي الفَتْح ابن رشيد الطَّبري.

[قال][(٣)]: وزوجتُ ابني أبا القاسم بابنةِ الوزير يحيى بن هُبيرة في ذلك اليوم، وكان الخاطب ابن المهتدي[(٤)].

[قلت][(٥)]: وهذه رابعة هي والدتي، تزوَّجها ابن رشيد الطَّبري، وهو أوَّل أزواجها، ولم يطل عمره معها، ثم زوَّجها جَدِّي بوالدي بعد موت ابنِ رشيد، وقد سمعتْ الحديثَ على ابن البَطِّي، وثابت بن بُنْدار، ومُعْظم مشايخ جدِّي، وزُفَّت إلى ابن رشيد في المحرَّم سنة اثنتين وسبعين [وخمس مئة][(٣)] في دار الجهة بنفشا جهة الخليفة، وجهَّزَتْها بمالٍ عظيم.

[قلت: ما قصد جدي بهذا الكلام إلا الإعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة، وأنَّ أحداً من أبناء جنسه لم يصل إلى مرتبته][(٣)].

---

(١) ستأتي ترجمته في وفيات سنة (٦٠٤هـ).

(٢) هو محمد بن عبدالله بن الحسين، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٧٣هـ).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) «المنتظم»: ١٠/ ٢٥٧ .

(٥) في (ح): قال المصنف رحمه الله، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وأما أخبار الشَّام فإنَّ الحلبيين نقضوا الصُّلْح الذي كان بينهم وبين صلاح الدِّين؛ وسببه أنَّ سيف الدين غازي لامهم على ذلك، وأَرْسَلَ رسولاً إلى صلاح الدين، ودَفَعَ له كتابين أحدهما إلى صلاح الدين ليأخذ منه عهداً للمواصلة، ويكشف ما عنده، وكتاباً إلى الحلبيين يلومهم فيه على الصُّلْح، ويخبرهم أنه واصلٌ بعساكر الشَّرْق، وكان صلاح الدِّين بدمشق، فبدأ به الرسول، وقد ربط الكتابين في منديله لتغفله، فلمَّا دخل على صلاح الدين غَلِطَ، فناوله كتابَ الحلبيين؛ لسعادةِ صلاح الدين، فتأمَّله، وعلم أَنَّ الرسول قد غَلِطَ، فلم يقل له كلمة، وفهم الرَّسول، فقام، وخرج من عنده، ولم يمكنه الاستدراك.

وكتب صلاحُ الدِّين إلى أخيه العادل بمصر بتجهيز العساكر المِصْرية إلى الشَّام بسرعة، وجَمَعَ سيفُ الدِّين العساكر من الجزيرة، وكان أخوه عماد الدين زَنْكي بِسِنْجار عاصياً عليه مائلاً إلى صلاح الدِّين، فصالحه، وجاءَ سيفُ الدِّين، فقطع الفرات، وبَعَثَ إلى أُمراء حلب وكُمُشْتِكين الخادم، وتقرَّر بينهم أمر، وسار إلى حلب، والتقاه الملك الصَّالح بن نور الدِّين، فاعْتَنَقَه سيفُ الدين وبكى، ونزل بظاهر حلب بعين المباركة، وصَعِدَ إلى القلعة جريدةً، وكان أُمراء حلب كل يوم يركبون إلى خِدْمته، ثم رحل إلى تلِّ السُّلْطان ومعه عساكر الشَّرْق، ودياربكر والحلبيون، فكانوا عشرين ألفاً ما بين فارسٍ وراجل[1]، وبلغ صلاح الدِّين وهو بدمشق، ولم يكن عنده سوى ستة آلاف، وما رأى التخلُّف عن لقائهم، وكان في انتظار العسكر المِصْري، فسار، فنزل على حماة، وتركَ أثقاله بها، وساق إلى جباب التركمان، وجاءه رسول الحلبيين يخوفونه بأسهم، ويأمرونه بالرُّجوع إلى مصر. قال رسولهم: فوافيته، وهو في خيمةٍ صغيرة على بساط لطيف، وتحته سَجَّادة، وبين يديه مُصْحف، وهو مستقبل القِبْلة، وإلى جانبه زرديته، وسيفه بين يديه وقوسه، وتركشه[2] معلَّق في عمود الخيمة، فلما رأيتُه؛ وَقَعَ في خاطري أَنَّه المنصور؛ لأني فارقتُ سيفَ الدين

---

(١) ربما أخذ سبط ابن الجوزي عدد الجيش مما كتبه العماد في «البرق الشامي»، وقد نقد ابن الأثير ما حكاه العماد، وحقق عدد الجيش فقال: إنما كان على التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمس مئة. ثم قال: وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه (يعني صلاح الدين) بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفاً، والحق أحق أن يتبع، وانظر «الكامل»: ١١/ ٤٢٩.

(٢) تَرْكَش: الكنانة، جعبة السهام، «المعجم الذهبي»: ١٨٦.

والأمراء وهم على طنافسِ الحرير، والخمور [تروّق والجنوك] [١] تعمل، وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المنكرات المحرَّمات، فأدَّيْتُ إليه الرِّسالة، وجاء وقت الظهر، فضجَّ العسكر بصوت الأذان، وفي كلِّ خيمةٍ إمام، فقال لي: الحق بأصحابك، وقل لهم يستعدوا [للقتال، ويرتقبوا] [٢] لقائي، فإنِّي عند طلوع الشمس نازلٌ عليهم، ويحكم الله بيننا، وهو خيرُ الحاكمين قال: ففارقته وأنا على بصيرةٍ من نَصْره وخِذْلانهم، وسقتُ عامة الليل، فوافيتهم وقت الفجر سكارى، فطلبتُ سيفَ الدِّين. فقيل: هو نائم. فوالله ما انبسطتِ الشمسُ إلا وأعلامُ صلاحِ الدين قد أقبلت، والكوسات تخفق، وأصحابنا نيام، فقاموا مُسْرعين، وكان يوم الخميس عاشر شوّال، وعلى ميمنةِ صلاح الدين شهابُ الدين محمود خاله، وعلى مَيْسرته صاحب بُصْرى، وهو في القلب، و[كان] [٢] في ميمنة المواصلة مظفرُ الدِّين [بن زين الدين] [٢] صاحب إربل، وفي الميسرة الحلبيون، وسيف الدِّين في القلب، وكان صلاح الدين قد وقف على تلٍّ عالٍ، وحَمَل مظفر الدين، فطحن ميسرة صلاح الدِّين، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتعوها، فنزل صلاح الدين [من التل] [٢]، ورأى أن يباشر الأمر بنفسه [وإلا اختلَّ الأمر] [٢]، فساق عليهم، واتفق وصولُ العساكر المِصْرية في تلك السَّاعة مع تقي الدِّين عمر، وعز الدين فَرُّخْشاه، وناصر الدين محمد بن شيركوه، فهال المواصلة ذلك، فولُّوا منهزمين [٣].

وساق صلاحُ الدِّين إلى خيامهم، فأَسَر أمراءهم، ونجا سيفُ الدين بنفسه، وعاد صلاح الدين إلى خيامهم، فوجد سُرادق سيف الدين مفروشاً بالرَّياحين، والمغاني جلوسٌ في انتظاره، والخمور تروق، وأقفاص الطُّيور فيها أنواع من القَماري والبلابل والهَزَارات، ومطابخه بقدورها، فأرسل صلاحُ الدِّين بما كان في السُّرادق من المغنيين والخمور والطير إليه، وقال للرسول: قل له اشتغالك بهذا أليق بك من مباشرة الحروب، فلا تَعُدْ إلى مثلها. ثم فرَّق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على

(١) مابين حاصرتين من (م) و(ش)، والجنوك: جمع، مفردها جنك: وهو العود، انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الترجمة العربية): ٢/ ٣١٣، والألفاظ الفارسية المعربة: ٤٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (م) و(ش): فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات وحسن الأطلاب، والعدد الوافرة، والخيل العربية، فانخذلوا، وولوا منهزمين.

أصحابه، وأعطى عِزَّ الدين فَرُّخْشاه سُرادق سيف الدين، وكان [عز الدين][١] قد أبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً.

وسار صلاح الدين، فنزل على مَنْبج، وبها قطبُ الدِّين يَنَال بن حَسَّان، فقاتله، واتَّفق وقوع ثُلْمةٍ من السُّور، فطلب الأمان على نفسه فأمَّنه، فخرج سليباً، وأخذَ صلاح الدين من الحِصْن ثلاث مئة ألف دينار، وعَرَضَ عليه المقام عنده، فامتنع لشنآنٍ[٢] قديمٍ كان بينهما، وسار إلى المَوْصل، فأقطعه سيفُ الدِّين الرَّقَّة.

وسار السُّلطان، ففتح حِصْن بُزاعة، ونازل حصن أَعْزاز، فأقام عليه ثمانيةً وعشرين يوماً[٣] وفتحه في ذي الحِجَّة، فقال العماد: [من الرجز]

جاز العُلا بِبَأْسِهِ وجُوده وهو أحقُّ الخَلْق باحتيازها
وحلبٌ تنفي كُمُشْتِكِينها كما انتفتْ بغدادُ من قَيْمازِها[٤]
فاليوم ذَلَّتْ حلبٌ لأنَّها كانت تنالُ العِزَّ من أَعْزازها

وفيها قفزتِ الإسماعيليةُ على صلاح الدِّين، وهو على أعزاز؛ جاءه ثلاثة في [زِيّ][١] الأجناد، فضربه واحدٌ بسكِّين في رأسه، وكان في كُمَّته[٥] زَرَدٌ مدفون، فلم يجرحه، وخَدَشَتْ السِّكِّين خَدَّه، وقُتل داود بن منكلان، وقُتل الثَّلاثة.

فرحل صلاح الدين، ونزل على حلب، فبعث الملكُ الصَّالح أُخته خاتون بنت نور الدين في اللَّيل، فدخلتْ عليه، فأقام قائماً، وقبَّلَ الأرض، وبكى على نور الدين، فسألتْ أن يردَّ عليهم أعزاز [فقال: سمعاً وطاعة][١]، فأعطاها إياها، وقدَّم لها من الجواهر والتُّحَف والمال شيئاً كثيراً، واتَّفق مع الملك الصَّالح أن من حماة وما فتحه إلى مِصْر له، وأنْ يطلق الصَّالح أولادَ الدَّاية[٦].

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) الشنآن: البغض «اللسان» (شنأ).
(٣) عند العماد: حاصره ثمانية وثلاثين يوماً، انظر «الروضتين»: ٢/ ٤٠٧.
(٤) انظر حوادث (٥٧١هـ) من هذا الكتاب.
(٥) الكمة: القلنسوة المدورة. «القاموس المحيط» (كمم).
(٦) نزول ابنة نور الدين إلى صلاح الدين، وإتمام الصلح مع الملك الصالح، ورحيل صلاح الدين من بعد إلى بلاد الإسماعيلية كان في أوائل سنة (٥٧٢هـ)، انظر «الروضتين»: ٢/ ٤٢٢، وما بعدها.

وسار صلاح الدين إلى بلاد الإسماعيلية، فنصب المجانيق على مصياث، ونهبتِ العساكرُ بلادهم، وقتلوا وسبوا، وكان مقدَّم الإسماعيلية سنان بن محمد، فأرسل [إلى](١) شهاب الدِّين محمود صاحب حماة، خالِ صلاح الدِّين، يقول: نحن جيرانُك، وقد فعل ابنُ أخيك فينا ما فعل، والمصلحةُ رحيله عنَّا، فاشْفَعْ إليه. فما أمكنه مخالفتهم، فأخبر صلاحَ الدين، وقال: أخاف على نفسي. فرحل إلى دمشق.

وفيها قَدِمَ شمسُ الدولة أخو صلاح الدين من اليمن إلى دمشق سَلْخ ذي الحجة.

وفيها فوَّض سيفُ الدين غازي أمر المَوْصل إلى مجاهد الدين قَيْماز الخادم، وكان قبل هذا بإِرْبل نائب زين الدين(٢).

وفيها توفي

عليُّ بنُ الحسن(٣)

ابن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، أبو القاسم الدِّمَشْقي الحافظ، ويعرف بابنِ عساكر، [وليس هذا الاسم في نسبه من قبل الأب، ولعله من قبل الأم.

وذكره جدِّي، وأثنى عليه في «المنتظم»(٤)، فقال: علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم الدمشقي المعروف بابن عساكر،](١) سمع الحديث الكثير، وكانت له به معرفة، وصنَّف تاريخاً لدمشق، وكان شديد التعصب لأبي الحسن الأشعري، حتى صنف كتاباً سماه «كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري»(٥).

[وتوفي بدمشق في هذه السنة. هذا صورة ما ذكره جدي رحمه الله.

قلت](١): ولد الحافظ أول المحرَّم سنة تسعٍ وتسعين وأربع مئة، وأُمه أُم القاسم بنت القاضي أبي الفَضْل يحيى بن علي القُرَشي، وكان أحدَ أئمة الحديث المشهورين، والعلماء

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) هو زين الدين يوسف بن علي صاحب إربل، وقد توفي سنة (٥٨٦هـ). انظر «الروضتين»: ٤/ ١٦٨ .

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء الشام: ١/ ٢٧٤-٢٨٠ ، و«المنتظم» ١٠/ ٢٦١، «معجم الأدباء»: ١٣/ ٧٣-٨٧ ، «الكامل» لابن الأثير: ١٢/ ٣٥٧ ، «كتاب الروضتين»: ٢/ ٤٢٠ ، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٠٩-٣١١ ، و«تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٣٢٨-١٣٣٤ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٥٤-٥٧١ ، و«طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/ ١٠٥-١١١ ، وقد استقصيت ثمة مصادر ترجمته.

(٤) ١٠/ ٢٦١ .

(٥) هو «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري»، وقد عني بنشره حسام الدين القدسي سنة (١٣٤٧هـ).

المذكورين، سافر إلى الشَّرْق سنة عشرين وخمس مئة، وسمع ببغداد وخُرَاسان وأَصْبهان ونَيْسابور وهَرَاة، ثم حجَّ، وسمع بمكة والمدينة والشَّام، واشتغل بالفِقْه، وصنَّف كُتُباً كثيرة منها: [«تاريخ دمشق» بثمان مئة جزء في ثمانين مجلدة، وكتاب][1] «الإشراف في معرفة الأطراف»، و«فضل أصحاب الحديث» و«الأربعين» و«الجهاد» و«فضائل مكة والمدينة» و«البيت المقدس» و«فضل قُريش والأنصار» و«فضائل أهل البيت» و«فضائل الصحابة» و«مسند أبي حنيفة» و«كتاب الزَّلازل»، وغير ذلك.

وقال ابنُ السَّمعاني: أنشدني لنفسه: [من البسيط]

وصاحبٍ خانَ ما استَوْدَعْتُه وأتى ... ما لا يليقُ بأربابِ الدِّياناتِ
وأظهر السِّرَّ مختاراً بلا سببٍ ... وذاك والله من أوفى الجناياتِ
أما أتاه عن المختار في خبرٍ ... أنَّ المجالس تُغْشى بالأمانات[2]

وقال ابنُ السَّمْعاني: طلب الحافظُ مني كتاب «دلائل النُّبوة» للبيهقي، وأخرتُ إنفاذه، فكتَبَ من دمشق إلى خُراسان يعاتبني، فقال: [من مجزوء الكامل]

ما خِلْتُ حاجاتي إليـ ... ـك وإنْ نأتْ داري مُضَاعهْ[3]
وأراك قد أَهْمَلْتَها ... وأَضَعْتَها كلَّ الإضاعهْ
أنسيتَ ثَدْيَ مودَّةٍ ... بيني وبينك في الرَّضاعه
ولقد عَهِدْتُك في الوفا ... ءِ أخا تميمٍ لا قُضاعهْ
وأراكَ نُكْراً لا تخا ... فُ على الصَّداقة والبضاعهْ[4]

[وذكره العماد في «الخريدة»، وقال: سمعت عليه من التاريخ الذي صنفه من أنواع ما ألفه، وأنشدني لنفسه في ربى دمشق][5] [من المتقارب]

أيا نفسُ وَيْحَك جاءَ المَشْيبُ ... فماذا التَّصابي وماذا الغَزَلْ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٧٥ .
(٣) في (ح): «ما كنت أعرف أن حاجاتي إليك»: وبه لا يستقيم الوزن مع سائر الأبيات، والمثبت من «الخريدة».
(٤) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ٢٧٥-٢٧٦ .
(٥) في (ح): «وقال العماد: أنشدني لنفسه بقرية المزة هذه الأبيات» والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

تــولَّــى شــبــابــي كــأن لــم يــكــنْ وجــاء مــشــيــبــي كــأَنْ لــم يَــزَلْ
فــيــالــيــتَ شــعْــري مــمــن أكــون ومــا قــدَّر الــلــه لــي فــي الأَزَلْ[١]

ذكر وفاته:

توفي ليلة الاثنين حادي عشر رجب، وقد بلغ [من العمر][٢] اثنتين وسبعين سنة وستة أشهر وعشرة أيام، وصُلِّيَ عليه بجامع دمشق، وميدان الحصى، صلَّى عليه القُطْب النَّيسابوري، وحَضَرَ صلاحُ الدِّين الصَّلاة عليه، [سمع ببغداد أبا القاسم هبة الله بن الحصين وغيره، وحج إلى مكة في سنة إحدى وعشرين وخمس مئة، فسمع بها أبا أحمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل المصري، وغيره، ثم سافر إلى المشرق، فسمع بنيسابور وغيرها][٢] وكان ولده أبو محمد القاسم يقول: سمع أبي من ألف شيخ وثلاث مئة شيخ وبضع وثمانين امرأة [[٣]وسمع منه الحافظ أبو العلاء الهمذاني وهو أكبر منه، وذكر ابنه القاسم أنه صنف ستين كتاباً، وكانوا يفضلونه على الخطيب، وله بنى نور الدين دار الحديث بدمشق، وعاش ابنه القاسم إلى سنة ست مئة، وتوفي بها، وسنذكره].

وقال الحافظ: أنشدني أبو الفوارس المظفر بن عمر الآمِدِي: [من الطويل]

وَدِدْتُ بــأنَّ الــدَّهْــرَ يــنــظُــرُ نــظــرةً بــعــيــنٍ جلا عــنــهــا الــغــيــايــةَ نــورُهــا
إلــى هــذه الــدُّنــيــا الــتــي قــد تــخــبَّــطَــتْ وجُــنَّــتْ فــســاس الــنَّــاسَ فــيــهــا حــمــيــرُهــا
فــيــنــكِــرَ مــالا يَــرْتــضــيــه مــحــصِّــلٌ ويــأنــفَ أن تُــعْــزى إلــيــه أمــورُهــا
فقد أبغضتْ فيها الجسومَ نفوسُها مَلالاً وضاقتْ بالقلوبِ صدورُها[٤]

السنة الثانية والسَّبعون وخمس مئة

[حكى[٥] جدِّي ـ رحمه الله ـ أن في هذه السنة تعرَّض رجلٌ لامرأة، فامتنعت عليه إلا أن تدع من ينكحه، فغلب حبُّه لها، فكان يدع من ينكحه ويأتيها]، فقال لها في

(١) «الخريدة»: ١/ ٢٧٥.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) في (ح): وصنف ستين كتاباً، وله بنى نور الدين بدمشق دار الحديث، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٤) الأبيات في «الخريدة»، قسم شعراء الشام: ٢/ ٤٥٩.
(٥) في (ح): فيها تعرض رجل لامرأة، فامتنعت عليه إلا بالنكاح، فكان يأتيها، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

بعضِ الأيام: قد حَبِلْتُ، فاعملي [لي] دواءً للإسقاط. فعملته له، فولد ولداً، وحضرا مجلس بعض الوعَّاظ، وكتبا إليَّ رُقعةً بصورة الحال، فقال: هذا النِّكاح ما صحَّ لأنَّه تبيَّن أنَّه خُنْثى في حُكْمِ امرأة، لأَنَّه يأتي ويُؤْتَى، وعَجِبَ النَّاس من هذا[1].

وفيها بنى مجاهد الدِّين قيماز الخادم النَّائب بالمَوْصل الجامع الذي ظاهرها على دِجْلة، ثم بنى بعده الرِّباط والمدرسة والتُّرْبة والمارَسْتان، وكلُّها متجاورات، ووقَفَ عليها الأوقاف.

وفيها تزوَّج صلاحُ الدِّين بالخاتون عصمة الدِّين بنت الأمير معين الدِّين أُنَر زوجة نور الدِّين محمود، وكانت بقلعة دمشق، زوَّجها منه شرف الدين بن أبي عَصْرون.

وفيها كانت نوبة الكنز، مقدَّم السُّودان[2] بالصَّعيد، [جمع كلَّ أسود بالصَّعيد، وسار][3] إلى القاهرة في مئة ألف أسود ليعيد الدَّولة المِصْرية، فخرج إليه الملك العادل [سيف الدين][3]، وأبو الهيجاء الهَكَّاري، وعِزُّ الدِّين موسك، والتقوا، فَقُتِلَ الكنز ومَنْ معه، فيقال: إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً، وعادوا إلى القاهرة، فقال العماد الكاتب: قُتِلَ الكَنْز، وما انتطحَ فيه عَنْز.

وفيها سار صلاحُ الدِّين إلى مِصْر، واستناب أخاه شمسَ الدَّولة على الشَّام، وجاءت الفرنج إلى داريا، فأحرقوا ونهبوا، وعادوا.

وفيها أمر صلاحُ الدِّين قَرَاقُوش بعمارة سور على القاهرة ومِصْر، وضيَّع فيه أموالاً عظيمة، ولم ينتفع به أحد.

---

(١) «المنتظم»: ١٠/ ٢٦٩.

(٢) نوبة الكنز كانت في سنة (٥٧٠هـ)، وبنو الكنز أصلهم من ربيعة بن نزار بن مَعَدّ، كانوا ينزلون اليمامة، وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومئتين، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد، وأسسوا ثمة إمارة عربية كانت أسوان مقراً لها، واعترف الفاطميون بهذه الإمارة، وفي زمن الحاكم بأمر الله كان أميرهم هبة الله بن محمد بن علي المعروف بالأهوج المطاع، وهو الذي ظفر بأبي ركوة الأموي الخارج على الحاكم، فأكرمه الحاكم ولقبه كنز الدولة، فصار لقباً لكل أمير فيهم، حتى كان آخرهم هذا. انظر «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب» للمقريزي: ٤٤-٤٦، و«الطالع السعيد»: ٣٠، وانظر «الروضتين»: ٢/ ٣٣٧-٣٣٩.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها أبطل صلاحُ الدِّين المكوس التي كانت تؤخذ من الحاج بجُدَّة مما يحمل في البحر، وعوَّض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانين ألف إرْدَبّ[١] قمحاً تحمل إليه في البحر، [ويحمل مثلها][٢] فَتُفَرَّق في أهلِ الحرمين.

وفيها عمر صلاح الدين مدرسة الشَّافعي بالقَرَافة بتولي النَّجم الخبُوشاني، وعمر المارَسْتان في القَصْر، ووقف عليهما الأوقاف.

وحجَّ بالنَّاس من الشَّام قيماز النَّجْمي.

وفيها توفي

عليُّ بنُ منصور، أبو الحسن السَّرُوجي الأديب[٣]

مؤدِّبُ أولاد أتابك زَنْكي بن آق سُنْقُر [وذكره ابن عساكر، وقال:][٤] كان يأخذ الماء بفِيه، ويكتبُ به على الحائط كتابةً حسنة كأنَّها كُتبت بقلم الطُّومار، ويُنَقِّط ما يكتب ويُشْكِلُه.

ومن شعره في فصل الربيع، وفضل دمشق، ومَدْح نور الدِّين: [من البسيط]

فصلُ الرَّبيع زمانٌ نورُه نورُ ... أنفاسُ أشجاره مِسْكٌ وكافورُ
جاءت به الأرضُ تُجلى في ملابسها ... فحارَ مِنْ حُسْنها في الجَنَّةِ الحورُ
تظلُّ تشدو بها الأطيارُ من طَرَبٍ ... فذا هزارٌ وقُمريٌّ وزرزورُ
كأنَّ أصواتَها فوقَ الغُصون ضحًى ... زيرٌ وبمٌّ ومِزْمارٌ وطُنْبُورُ
تميل أغصانُها وجداً إذا سَجَعَتْ ... وُرْقُ الحمام وغنَّتها الشَّحاريرُ
يا لائمي في دمشقَ إنَّ لومك لي ... لومٌ وتشبيهك الزورا بها زُورُ
كأنَّها جنَّةٌ للخُلْد دانيةٌ ... قطوفُها فُتحتْ فيها المقاصيرُ
في كلِّ قطر بها للعِلْم مدرسة ... وجامعٌ جامعٌ للدِّينِ معمورُ
يُتلى القرانُ به في كلِّ ناحيةٍ ... والعِلْمُ يذْكَرُ فيه والتَّفاسيرُ
تكامَلَ الحسنُ فيه مثلما كَمُلَتْ ... أوصافُ مولى بنَشْر العَدْل مشهورُ

(١) الإردب يساوي أربعاً وعشرين صاعاً. انظر «القاموس المحيط» (ردب).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٢٢/٢٣٨-٢٣٩، و«النجوم الزاهرة»: ٦/٧٩، و«الدارس»: ٢/٤١٦، ولم أقف على ترجمته في «تاريخ ابن عساكر».

للدِّين والمُلْك والدُّنْيا بأجمعها ولـلـخـلـيـفـة من أنـوارِه نـورُ
كهف الغريب(١) وكنز للضَّعيف فما للمُغْتفي عنه تقديمٌ وتأخيرُ
مولاي يا خير من يدعى لمكْرُمة وخير من زانه عَقْلٌ وتوقيرُ
عشْ وابقَ واسْلَمْ ومُرْ واحْكُمْ ودُمْ أبداً ما سحَّ غيثٌ وما هبَّتْ أعاصيرُ

وقيل: إنَّه ماتَ سنة سبعين وخمس مئة.

محمد بن سعيد(٢)

ابن محمّد، أبو سعيد ابن الرَّزَّاز، العَدْل.

ولد سنة إحدى وخمس مئة ببغداد، وسمع الحديث، وكان أديباً، فاضلاً، وتوفي في ذي الحِجَّة، كتب إليه صديق له مكاتبة، فكتبَ جوابها: [من البسيط]

يا مَنْ أياديه يعيا من يُعدِّدُها وليس يُحْصي مَدَاها من له يَصِفُ
عجزتُ عن شكر ما أوْليتَ من كرمٍ وصرتُ عبداً ولي في ذلك الشَّرفُ
أهدَيْتَ منظومَ شعرٍ كله دُرَرٌ وكلُّ ناظمِ عِقْدٍ دونه يَقِفُ
إذا أتيتَ ببيتٍ منه كان له قصراً ودُرّ المعاني فوقه شُرُفُ
وإنْ أتيتُ أنا بيتاً يناقضه أتيتُ لكن ببيتٍ سَقْفُه يَكِفُ
ما كنتُ منه ولا من أهله أبداً وإنما حين أدنو منه أقتطِفُ

محمد بن مسعود(٣)

أبو المعالي [ابن القَسَّام الأصبهاني، شاعر فصيح](٤) خرج إلى الحج، فتوفي بفَنْد(٥)، [وذكره العماد، وأنشد من شعره يذم قاضياً بهذه الأبيات](٦): [من الوافر]

---

(١) في (م) و(ش): «الفقير».

(٢) له ترجمة في «المنتظم» ١٠/ ٢٦٨، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ١٠٤-١٠٥، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ١٠١.

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء أصفهان: ١/ ٢٤٣-٢٨٣، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ٥٥، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ٢٣، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٧٩، و«بغية الوعاة»: ١/ ٢٤٤.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) اسم جبل بين مكة والمدينة، قرب البحر، «معجم البلدان»: ٤/ ٢٧٧.

(٦) في (ح): ومن شعره، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ولــمــا أنْ تــولَّــيْــتَ الــقــضــايــا   وفــاضَ الــجَــوْرُ مــن كَــفَّــيْــكَ فَــيْــضــا
ذُبــحــتَ بــغــيــرِ سِــكِّــيْــنٍ وإنــي   لأرجــو الــذَّبْــحَ بــالــسِّــكِّــيــنِ أيــضــا[١]

محمد بن عبد الله[٢]

ابن القاسم، أبو الفضل، كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري.

قاضي دمشق والشَّام، ولد سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة، وقدم بغداد، فتفقَّه على أَسْعد المِيْهَني بالنِّظامية، وسَمِعَ [[٣] الحديث ببغداد والمَوْصِل، وكان رئيس أهل بيته، وولي قضاء القضاة بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين بن زنكي]، وكان إليه في أيام نورِ الدِّين مع القضاء أمرُ المدارس والمساجد والأوقاف والحِسْبة والأمور الدينية والشَّرعية، وكان صاحبَ القلم والسَّيف، و[كانت][٤] شِحْنِكيَّة دمشق إليه، ولَّى فيها بعض غِلْمانه، ثم ولاها نورُ الدِّين لصلاحِ الدِّين، وكانت بينهما مضاغنة، وكان كلٌّ واحد ينقض حُكْم الآخر، فلما كاتبه صلاح الدِّين على أن يساعده على أَخْذ دمشق أعانه، وفَتَحَ له أبوابها، فلما دَخَلها صلاح الدين مشى إلى داره، وطيَّب قلبه، [وقد ذكرناه.

وذكره العماد في «الخريدة» بمعنى ما ذكرنا، وقال][٤]: كان فاضلاً، جَوَاداً سَمْحاً، دَيِّناً عفيفاً، ذا مروءةٍ ظاهرة، وصدقات دارَّة وافرة، وبرٌّ متَّصل؛ جاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وأحمد أوَّل من سَكَنَ منهم قاسيون، فزاره ومعه ألف دينار، فدفعها إليه، فامتنع الشيخ أحمد من أَخْذِها، فاشترى كمال الدِّين قرية الهامة بوادي بردى، ووقَفَ نصفَها على الشيخ أحمد، والمقادسة، والنِّصف الآخر على الأُسارى، وهي باقيةٌ إلى هلمَّ جرّا.

---

(١) «الخريدة»: ١/ ٢٤٥.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٢٣-٣٢٧، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٦٨، و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤٤١، و«كتاب الروضتين»: ٢/ ٤٢٦-٤٢٨، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤١-٢٤٤، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥٧-٥٨، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) في (ح): وسمع بها وبالموصل، وكان رئيساً، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ذكر وفاته

كان بينه وبين شَرَفِ الدِّين بن أبي عَصْرُون ما يكون بين أبناء الدُّنيا على المناصب، وكان نورُ الدِّين يفضِّله على ابنِ أبي عَصْرون، وهو عنده بمنزلةِ الوزير، وبعث به إلى بغداد رسولاً، فكتَبَ إلى الخليفة المقتفي ورقة يقول: المملوك محمد بن عبد الله الرَّسول. فكتَبَ المقتفي عليها: ﷺ.

وكان ابنُ أبي عَصْرون أقومَ منه بالفتوى، فلما مرض وبلغ ابن أبي عصرون وهو بحلب قَدِمَ دمشق، فدخل عليه وعانقه وبكيا، فلما مات تولى ابن أبي عَصْرون أمره، وخرج في جِنازته ماشياً؛ هو وجميع الملوك مشاة: سيف الإسلام، وتقي الدين عمر، وشمس الدولة، وغيرهم، وصُلِّيَ عليه بجامع دمشق، وحُمِلَ إلى قاسيون، فدفن في سَفْحه قريباً من الجادة عند مسجد البصارو، ولم يكن عنده من أولاده أحد، وإنما كان عنده ابنُ أخيه ضياء الدِّين أبو الفضائل.

وكان كمال الدين قد تصدَّق بجميع ما كان عنده، وأوصى بماله، ووقف أوقافاً كثيرة على أبواب البر، وقيل: إنه لم يكن له كفن، فكُفِّنَ في إحرامه، وكانت وفاته سادس المحرَّم.

وأوصى بالقضاء إلى ابن أخيه ضياء الدِّين مع وجود ولده، فآثَرَ صلاحُ الدين أن يولي القضاءَ شَرَفَ الدين بن أبي عَصْرون من غير أن يعزل ضياء الدين، وأفضى بسرِّه إلى الفاضل، وما كان صلاح الدين يمكنه عزله خوفاً من الشَّناعة ولا يصرِّح، بل يقول: هذا الشيخ ابن أبي عصرون شيخ الشَّافعية ماله منصب، أريد منصباً أُولِّيه. ففهم ضياءُ الدِّين، فكتَبَ إلى صلاح الدين يستعفي من القضاء، فأعجبه ذلك، وزاد في إقطاعه، وبعثه رسولاً إلى الخليفة.

وولى ابن أبي عصرون القضاء، وأمره أن يستنيب أبا المعالي محيي الدِّين محمد بن زكي الدِّين، فاستنابه بتوقيعٍ من صلاح الدِّين، وأقام ابن أبي عصرون قاضياً إلى أن ضَعُفَ بصره، فأشار الفاضلُ بتولية أبي حامد محمّد[1]، واستمرَّ إلى سنة سبعٍ وثمانين وخمس مئة، فصُرِفَ، واشتغل محيي الدين محمّد بن زكي الدِّين بالقضاء.

---

(١) هو ابن شرف الدين بن أبي عصرون، وقد توفي سنة (٦٠١هـ).

ومن شعر كمال الدين الشَّهْرُزُوري: [من الطويل]

وجاؤوا عشاءً يُهْرعَون وقد بدا بجسميَ من داء الصَّبابةِ ألوانُ
فقالوا وكلٌّ مُعْظِمٌ بعضَ ما أرى أصابتك عينٌ قلت إن وأجفانُ

وقال: [من الكامل]

ولقد أتيتكَ والنُّجومُ رواصدٌ والفجرُ وهمٌ في ضمير المَشْرِقِ
وركبتُ م الأهوال[١] كلَّ عظيمةٍ شوقاً إليك لعلَّنا أن نلتقي

[[٢] وكان لكمال الدِّين ولد اسمه محمد بن محمد بن عبدالله، ولقبه محيي الدين، وكان أبوه [عيَّنه][٣] قاضياً على حلب، ولما مات كمال الدين رثاه بأبيات[٤].

وكان للقاضي كمال الدين ثلاثة إخوة، أحدهم اسمه يحيى بن عبدالله، مات سنة نيف وستين وخمس مئة.

والآخر القاسم بن عبدالله، ولقبه شمس الدين، ولي قضاء الموصل، وكان يعظ، وله كلام حسن وقبول، وتوفي في سنة ثلاثين وخمس مئة، وقد ذكرناه هناك.

والثالث سعد بن عبد الله، نذكره في سنة ست وسبعين وخمس مئة، إن شاء الله].

السنة الثالثة والسبعون وخمس مئة

فيها وصل تتامش الذي عصى على الخليفة، وقاتل مع قطب الدين قيماز إلى تحت التَّاج، وبيده سيفٌ وكَفَنٌ، وقبَّل الأرض مراراً وطلب العفو، فعفا الخليفةُ عنه، وأعيد إلى إمرته، وأحسنَ إليه.

وفيها تغيَّر الخليفة على الوزير ابن رئيس الرؤساء، وخرج إلى الحج، فقُتِل، وسنذكره إنْ شاء الله.

---

(١) في (ح): وركبت هول هوال، والمثبت من «الخريدة».
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) مابين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.
(٤) منها:

ألموا بسفحي قاسيون فسلِّموا على جدث بادي السنا وترحموا

انظر القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٣٦-٣٣٩.

وفيها وقعت واقعةٌ ببغداد، وذلك أَنَّه كان لرجلٍ عبد وأَمَة، فعتقهما، وزوّج العبد بالأمة، فأولدها أولاداً، وأقاما أربعين سنة على ذلك، ثم تبيَّن أن الأَمَةَ أختُ العبد لأبيه وأمه.

[الجواب: لا إثم عليهما فيما مضى لعدم العلم بحالهما، ويفرَّق بينهما في الأخوَّة، وتعتد لاحتمال أن تكون حاملاً منه، وإذا فرِّق بينهما حرمت عليه، ويجوز له النظر إليها لأنها أخته إلا أن يخاف على نفسه](١).

وفيها كانت وقعة الرَّمْلة في جُمادى الآخرة، خرج صلاحُ الدِّين من مِصْر بالعساكر، فنزل على عسقلان، ثم رحل يريد تل الصَّافية، فازدحمتِ العساكرُ على الجسر تريد العبور، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج، فثبت تقيُّ الدِّين عمر، وقاتل، ثم غُلِبَ، وقُتِلَ من المسلمين خَلْقٌ كثير، وانهزمت عساكر الإسلام، وأُسر كثير، منهم: الفقيه عيسى وغيره، ولولا أنَّ الليل حَجَزَ بينهم لم يبق من المسلمين أحد. وسار صلاحُ الدِّين في الليل إلى مِصْر بغير دليل ولا ماء ولا زاد.

وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع، أنكت في الإسلام، وأَوْهَنَتْ صلاحَ الدين؛ لأنَّه كاد يتلف جوعاً وعطشاً، ونُهبت خزائنه، وقُتلت رجاله، وأُسر أبطاله.

وكان مقدَّم الفرنج أرناط من أكبر ملوك الفرنج، وكان نور الدين قد أسره في وقعة حارم، وحبسه في [قلعة](١) حلب، فأطلقه الملك الصَّالح، فجاء ومعه ملوكُ الفرنج، وما أتلف عسكر المسلمين إلا أنَّهم تفرَّقوا في السَّاحل بسبب الغارات، وكانوا زيادةً على عشرين ألفاً، ووقعت الكسرة، ومعظمهم لم يعلم، فلما عادوا من الغارات لم يجدوا صلاحَ الدِّين، ولم يكن لهم حِصْنٌ يأوون إليه، فدخلوا الرَّمْل، وتبعهم الفرنج قَتْلاً وأَسْراً، ومن سَلِمَ منهم مات عطشاً وجوعاً، وكان يوماً عظيماً على الإسلام لم تجبره إلا كسرةُ حِطِّين.

ورجع أرناط بجمعه إلى حماة، فأناخ عليها، وبها شهابُ الدِّين محمود خال صلاح الدين، وهو يومئذٍ مريض، وعنده سيفُ الدِّين المَشْطُوب، فقاتلهم العسكر وأهلُ حماة قتالاً عظيماً، ولولا المشطوب لملكوها، فقطعوا أشجارها، وأحرقوا ضياعها،

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

ورحلوا إلى حارم، [وبها][(١)] كُمُشْتِكِين الخادم عاصياً على الملك الصالح [إسماعيل][(١)]، فنصبوا عليها المجانيق، وقاتلوها أياماً، فألجأتِ الخادم الضرورةُ إلى مصالحة الملك الصَّالح، فبعث إليه النجدة، فرحلوا عنه إلى أنطاكية، وقُتل الخادم كُمُشْتِكِين وأبو صالح بن العَجَمي.

وبلغ صلاحَ الدين نزولُ الفرنج على حماة، فجمع عساكر مِصْر، وسار إلى الشَّام، فقدم دمشق، وبها أخوه شمسُ الدَّولة مشغولاً بلذَّاته ولهوه، وكان قد بعث إلى الفرنج بمالٍ مصانعةً، فعزَّ على صلاح الدين، ولامه وقَبَّح فِعْلَه، وقال: أنتَ مشغولٌ باللعب وتضيِّع أموال المسلمين! وكان وصوله دمشق في شوَّال، واستناب بمصر أخاه العادل [أبا بكر][(١)].

أحمد ابن بكروس[(٢)]

أبو العَبَّاس، الفقيه الحَنْبلي، ولد سنة اثنتين وخمس مئة، وقرأ القرآن [على أبي العز بن كادش][(١)]، وتفقه [على أبي بكر الدِّينوري][(١)]، وسمع الحديث [من أبي الحصين وطبقته][(١)]، وتوفي في صفر، وصُلِّي عليه بجامع القَصْر، ودُفِنَ قريباً من الإمام أحمد، رحمة الله عليه، وكان زاهداً عابداً، ورعاً، كثير العبادة.

قال المصنف رحمه الله: وزوَّجه جدِّي ست العلماء أكبر بناته، ومن شعره: [من الرجز]

أحبابنا لا سَلِمَتْ من الرَّدى ... يمينُ من يخونُ في اليمينِ
بكيتُ دَمْعاً ودماً لبَيْنِهم ... وأَقْرَحَتْ من أَدْمُعي جفوني
مُذْ رَحَلوا أحبابُ[(٣)] قلبي سَحَراً ... فالشَّوق والتَّذكار أَوْدَعُوني
فيا غُرابَ بَيْنهم لا سَتَرَتْ ... فراخَكَ الأوراقُ في الغُصونِ
لئن حَلَفْتُ أنّ عيشي بَعْدَهُمْ ... صافٍ لقد حَنِثْتُ في يميني

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) «المنتظم»: ١٠/ ٢٧٦، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٣٨، «شذرات الذهب»: ٦/ ٤٠٦، و«المنهج الأحمد»: ٣/ ٢٧٥-٢٧٦، وهو أحمد بن محمد بن المبارك بن أحمد بن بكروس.

(٣) كذا، على لغة أكلوني البراغيث.

فكيف أشكو والوفاءُ مَذْهبي أم كيفَ أنسى والوِدَادُ دِيْني
قالوا وقد وَدَّعْتُهُمْ وأَدْمُعي تجري وخوفُ البَيْنِ يَعْتَريني
الصَّبْرُ أحرى فاصْطَبِرْ إنْ لَعِبَتْ أيدي النَّوى بقَلْبكَ المحْزُونِ

صدقة بن الحسَين[1]

ابن الحسَن، أبو الفَتْح النَّاسخ الحَنْبلي، ويعرف بابن الحدَّاد [إمام المسجد الذي بين العقد والبدرية ببغداد ذكره جدي في «المنتظم»، وقال][2]: ولد سنة سبع وتسعين وأربع مئة، وحَفِظَ القرآن، وتفقَّه وأفتى وناظر، لكنه قرأ الشِّفاء [لابن سينا][2]، وكُتُبَ الفلاسفة، فتغيَّر اعتقاده، وكان يَبْدُرُ من فَلَتَات لسانه ما يدلُّ على [سوء عقيدته، وتارة يسقِّف من جِنْس ابن الرَّاوندي][3]، وتارةً يشير إلى عدم بَعْثِ الأجساد، وتارةً يعترض على القضاء والقدر. [قال: وقال لي يوماً: أنا لا أخاصم إلا مَنْ فوق الفلك.

وقال: ما أدري من أين جئنا، ولا إلى مطبق يريدون أن يحملونا إليه][2].

ومن شعره: [من البسيط]

واحيرتا مِنْ وجودٍ ما تقدَّمنا فيه اختيارٌ ولا عِلْمٌ فَنَقْتَبِسُ
ونحن في ظُلُماتٍ ما لها قَمَرٌ يضيءُ فيها ولا شمسٌ ولا قَبَسُ
مدلَّهينَ حيارى قد تكنَّفَنا جهلٌ تجهَّمنا في وَجْهه عَبَسُ
فالفِعْلُ فيه بلا رَيْبٍ ولا عَمَلٍ والقولُ فيه كلامٌ كلُّه هَوَسُ

وقال: [من الطويل]

نظرتُ بعينِ القَلْبِ ما صَنَعَ الدَّهْرُ فألفَيْتُه غِرًّا وليس له خُبْرُ

---

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٧٦، «صيد الخاطر»: ٢٣٩، و«الكامل»: ١١/ ١٨٣، «المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٠٩، و«الوافي بالوفيات»: ١٦/ ٢٩٢، و«ذيل طبقات الحنابلة» ١/ ٣٣٩، «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٦٦-٦٧، وفيه تتمة مصادر ترجمته.
وقد نقل ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» ما يفيد أن ثمة عداوة بين ابن الجوزي وصدقة بن الحسين أطلقت لسان أحدهما في الآخر، وقد نقل ثناء ابن النجار عن تآليفه، والله أعلم.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): مايدل على ذلك، وتارة يسقف وتارة يشير إلى...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

فنحن سُدًى فيه بغير سياسةٍ نروحُ ونَغْدُو قد تكنَّفنا الشَّرُّ
فلا من يحلُّ الزِّيج وهو منجِّمٌ ولا مَنْ عليه ينزل الوَحْيُ والذِّكْرُ
يحلُّ لنا ما نحن فيه فنهتدي وهل يهتدي قومٌ أضلَّهم السُّكْرُ
عمًى في عمى في ظُلْمةٍ فوق ظُلْمةٍ تراكُمها من دونه يعجز الصَّبْرُ

وقال: [من الرمل]

لا توَّطنْها فليست بمقامِ واجْتَنِبْها فَهْيَ دارُ الإنتقامِ
أتراها صَنْعَةً من صانع أم تُراها رميةً من غيرِ رامِ

[وله أشعار من هذا الجنس مذمومة.

قال جدي: فلما تحقق هذا عندي هجرته سنين، ولما مات لم أصلِّ عليه، ومع هذه الفواحش والاعتقاد السيىء][١] كان يُظْهر الفقر، ويطلب من الناس، فلما مات وجدوا له ثلاث مئة دينار، ومات في ربيع الآخر، ودُفِنَ بباب حرب.

ورآه أبو بكر الدَّلال في المنام وهو عُرْيان، فقال له: ما فَعَلَ الله بك؟ فقال: قلتُ له: اغفرْ لي، فقال: ما أريد أَنْ أغفر لك.

[هذه[٢] صورة ما حكى جدي في «المنتظم»[٣].

وحكى شيخنا عبد الوهّاب بن بُزْغُش المقرىء[٤]، وكان جاره، قال: دخلت عليه يوماً في أيام الفتنة في بغداد، فرعدت الدنيا رعداً مزعجاً، فرفع رأسه إلى السماء، وقال: خباط في الأرض، وخباط في السماء!

قال: وكانت قد سقطت أسنانه، وسخَّر الله له بعضَ الأكابر، فكان يبعث له الدَّجاج والطعام، فكان يقول: قتلني في أول عمري بالفقر والجوع، ويبعث لي في آخر عمري الدجاج، وقد أخذ أسناني، فما أقدر أن آكل!

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): «وقال عبد الوهاب بن بزغش، قال لي صدقة يوماً: يا فلان» والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) «المنتظم»: ١٠/ ٢٧٦ـ٢٧٨ .

(٤) هو ختن ابن الجوزي، وقد توفي سنة (٦١٢هـ)، انظر ترجمته في «توضيح المشتبه»: ٦/ ١٦٢ ، ٩/ ٢١٢ـ٢١٣ ، و«التكملة» للمنذري: ٢/ ٣٥٢ـ٣٥٣ .

قال: وقال لي يوماً]: يا فلان، ما ترى هؤلاء أصحابنا الفَعَلة الصَّنَعة ـ يشير إلى الحنابلة ـ أنا بينهم أموت بالجوع ما يطعمني أحدٌ لقمة، فإذا متُّ غداً، شدُّوا تابوتي بالحبال، وصاحوا: هذي رايات الصَّالحين. فقلتُ له: طَيِّبْ قلبك، ما يفعلوا بك هذا أبداً. فقال: أنتَ أيضاً من الحمير.

[قال: وكان يحسد جدِّي، وكانت بنفشا جارية الخليفة تعلم ذلك، فكانت تغيظه، بعثت إليه يوماً خادماً، ومعه طبق مغطى بمنديل دبيقي(١)، فوضعه بين يديه، فظن أن فيه حلاوة، فكشفه، وإذا بقدح من زجاج فيه ماء، فقال الخادم: الجهة تقول لك: هذا ماء من بئر وقعت فيه فأرة، فانظر هل هو طاهر أم نجس؟ فشتم الجهة، وقال: الخِلَع والحلاوات والمال إلى ابن الجوزي، وصدقة يُسأل عن الماء النجس؟! فأبلغها الخادم، فضحكت، وبعثت له شيئاً](٢).

كُمُشْتِكِين(٣)

خادم نور الدِّين محمود.

كان من أكابر خُدَّامه، ولاه قلعة المَوْصِل نيابةً عنه، فلما ماتَ نورُ الدِّين هَرَبَ إلى حلب، وخَدَمَ شمسَ الدِّين ابن الدَّاية، ثم جاء إلى دمشق، وأخَذَ الملكَ الصَّالح، وجاء به إلى حلب، [وقد ذكرناه](٢)، وأقطعه الملكُ الصَّالح حارم، [(٤)وأقام بها، وعصى عليه، فلما حصره الفرنج صالحه وقد ذكرناه، واختلفوا في سبب قتله على قولين أحدهما أن كمشتكين] حسد أبا صالح ابن العَجَمي وزير الملك [الصَّالح](٢)، فوضع عليه الإسماعيلية، فقتلوه، واستقلَّ كُمُشْتكين بالأمر، فقيل للملك الصَّالح: ما قَتَلَ وزيرَك إلا الخادم ليستبدَّ بالأمر، فحبسه وطالبه بتسليم قلعة حارم، فكتَبَ إلى نوابه، فأبوا أن يسلموها.

---

(١) نسبة إلى دبقا، من قرى مصر قرب تنيس، مشهورة بأقمشتها، انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٤٣٧ .

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) له ترجمة في «الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤١٥ـ٤١٩ ، ٤٤٥ـ٤٤٦ ، و«الروضتين»: ٢/ ٤٦٨ـ٤٧٠ ، و«الوافي بالوفيات»: ٢٤/ ٣٦٧ .

(٤) في (ح): وأقطعه الملك الصالح حارم، وسبب قتله أنه حسد أبا صالح، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

قال العماد الكاتب: فلما طال أمره قَصُرَ عُمره، [(١)والثاني أَنَّهم لما امتنعوا من تسليم قلعة حارم] خَرَجَ إليها الملك الصَّالح من حلب، ومعه الخادم، فقال: مُرْهم بتسليمها، فأمرهم فلم يقبلوا، فعلَّقه منكوساً، ودخَّن تحت أنفه فمات. وعاد الصَّالح إلى حلب ولم يأخذها، ثم أخذها بعد ذلك، وسلَّمها إلى مملوك أبيه سرخك.

محمد بن عبد الله(٢)

ابن هبة الله بن المُظَفَّر بن علي بن الحسين بن أحمد بن محمد بن عمر بن الحسن بن عبيد بن عمرو بن خالد بن الرُّفَيْل، أبو الفرج الوزير، ابنُ رئيس الرُّؤساء ـ [وقد ذكرنا ترجمة ابن مسلمة(٣) وزير القائم بأمر الله](٤) ـ ولقبه عَضُد الدِّين.

ولد سنة أربع عشرة وخمس مئة، وكان أبوه أستاذ دار المقتفي، وأقرَّه المستنجد، فلما ولي المستضيء استوزره، وقصده قطب الدِّين قيماز [على ما ذكرنا](٤)، ثم عاد استوزره المستضيء، فَشَرَعَ ظهير الدِّين أبو بكر بن العَطَّار صاحب المخزن في عداوته، فغيَّر قلب الخليفة عليه، فطَلَبَ الحجَّ في هذه السَّنة، فأَذِنَ له، فتجهَّز جِهازاً عظيماً؛ اشترى ستّ مئة جمل لحمل المُنْقطعين وزادهم، وحَمَلَ معه جماعةً من العلماء والزُّهَّاد، ومارَسْتاناً فيه جميع ما يحتاجون إليه(٥) من الرَّوايا والقُرب والزَّاد وغيره ما لم يحمله وزير، فلما كان يوم الأربعاء رابع ذي القَعْدة ركب في شَبَّارة(٦)، وعَبَرَ في دِجْلة إلى الجانب الغربي، وجميع أهل بغداد من الجانبين يدعون له ويثنون عليه، لأَنَّه كان مُحْسناً إليهم بماله وجاهه ومروءته، قريباً من النَّاس، ولما صَعِدَ من

---

(١) في (ح): «وقيل إنهم لما امتنعوا من تسليمها»، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٧٣ـ٢٧٥، ٢٨٠، و«الكامل»: ١١/ ٤٤٦ـ٤٤٧، و«الروضتين»: ٢/ ٤٨١، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٥ـ٥٨، والفخري في «الآداب السلطانية»: ٢٣٢ـ٢٣٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٧٥ـ٧٧، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٣) ابن مسلمة هو علي بن الحسين بن أحمد، أبو القاسم، مات مقتولاً سنة (٤٥٠هـ)، فانظر ترجمته في حوادثها.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في (ح): ما يحتاج من الروايا، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٦) ضرب من الزوارق، انظر: «تكملة المعاجم» لدوزي، الطبعة الفرنسية: ١/ ٧١٩.

الشَّبَّارة عند القرية، ركب وأرباب الدَّوْلة بين يديه بأَسْرهم، وخدم الخاصَّة، والنَّقيبان وقاضي القضاة، ما عدا [ظهر الدين](١) ابن العَطَّار، فإنَّه لم يودِّعْه، فلما ركب ضُرِبَ البوق على عادة الوزراء، فلما وصل إلى باب قَطُفْتا(٢)، خرج عليه رجل صوفي وبيده قِصَّة، فقال: مظلوم. فقال الغِلْمان: هاتِ قِصَّتك، فقال: ما أُسَلِّمها إلا إلى الوزير. فقال: دعوه، تعال. فجاء إليه ووثَبَ عليه، وضربه بسكِّين في خاصرته، فصاح [الوزير](١): قتلني، وسَقَطَ من دابته، وانكشف رأسه، فغطاه مملوكه بكُمَّةٍ، وبقي على قارعة الطَّريق مُلْقًى، وتفرَّق مَنْ كان معه إلا حاجب الباب ابن المعوَّج، فإنه رمى بنفسه عليه، فضربه الباطني بسكِّين فجرحه، فظهر له رفيقان، فقُتلوا وأُحرقوا، وحُمل الوزير إلى داره بقَطُفْتا، وحُمِلَ حاجب الباب إلى داره، وكان الوزير قد رأى في تلك الليلة في منامه كأنَّه يعانقُ عُثْمان بن عَفَّان ﷺ، وكان قد اغتسل قبل أَنْ يخرج من داره، وقال: هذا غُسْل الإسلام، وأنا مقتول بغير شكّ. ولم يسمع [من الوزير](٣) لما جُرح غير قوله: الله الله، ادفنوني عند أبي. [(٤)وحكى جدي رحمه الله، قال: حدثني] رجلٌ من أهل قَطُفْتا: دخلتُ في اليوم الذي قُتِلَ فيه الوزير قبل قَتْله بساعةٍ إلى مسجد بقَطُفْتا، فرأيت فيه ثلاثة نَفَرٍ قيام أحدهم معترضاً إلى القِبْلة، وقام الآخران فصلَّيا عليه صلاةَ الموت، ثم فعلَ كلُّ واحدٍ منهما كذلك [حتى كملوا الصلاة عليهم قال:](١) فتعجبت منهم ولم أكلمهم، ولم يكلِّموني، ثم قاموا، فخرجوا، ووثبوا على الوزير، فقتلوه وقُتلوا.

وكانت وفاتُه يوم الخميس، فَغُسِّل وكُفِّن، وحُمل إلى جامع المنصور، وصَلَّى عليه ولدُه الأكبر، ودُفِنَ عند أبيه مقابل جامع المنصور، وحَضَر أربابُ الدَّوْلة بأَسْرهم، وابنُ العَطَّار صاحبُ المخزن، وجلس أولاده للعزاء يوم الجمعة، ولم يقربهم أحدٌ من أرباب الدَّوْلة، فبرز أمر الخليفة: ألا يتخلف عنهم أحد. فحضروا يوم السبت بأَسْرهم،

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد، «معجم البلدان»: ٤/ ٣٧٤ .

(٣) في (ح): لم يسمع منه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (ح): وقال رجل، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وجاء خدمُ الخاصَّة ومعهم توقيعُ الخليفة بإظهار الحُزْن عليه، والتأسُّف، وتطييب قلوبهم، وأقامهم من العزاء.

[(١)واختلفوا في سبب قتله، فقال قوم:] إنَّ تتامش واطأ الإسماعيلية على قَتْله لما كان بينهما، فبعث الخليفةُ، فقبضَ على تتامش، وأخَذَ أمواله وحَبَسه في التَّاج، وكان قد كتب مراراً إلى الخليفة يعرضه للفرجة على الحاجّ، ويقول بأنَّ هذا شعار الإسلام، ولو خرج أمير المؤمنين لاشتدَّت قلوب الحاج، فلما قُتِلَ الوزير خِيْفَ أن يكون أراد الخليفة [(٢)وقال آخرون:] إنما وَضَعَ الإسماعيلية عليه ابن العطار صاحب المخزن، [وهو الظَّاهر](٣).

[قلت:](٤) حكى لي والدي رحمه الله، قال: كنتُ قاعداً عند ابن العَطَّار صاحب المخزن في ذلك اليوم فجعل يقول لي: يا حسامَ الدِّين، إلى أين بلغ السَّاعة؟ وأين وَصَلَ؟ وهو قلق، يقوم ويقعد، فلما جاء الخبر بقَتْله، قام قائماً، وقال: الله أكبر يا ثارات ظَفَر، يا ثارات عزّ الدين، يعني ابني الوزير ابن هُبيرة، فإنَّهما قُتلا في أيام ابنِ رئيس الرُّؤساء. قال أبي: ومضيتُ مع صاحب المخزن إلى عزاء أولاد ابن رئيس الرؤساء، فعزَّاهم، وجعل يقول: قَتَلَ الله من قتل أباكم شَرَّ قِتْلَة، ومثَّلَ به أقبحَ مُثْلة.

فكان كما قال، [قُتل](٣) ابنُ العطار شرَّ قِتْلة، ومُثِّلَ به أقبح مُثْلة [وسنذكره](٥).

أسند الوزيرُ الحديث [عن أبي القاسم بن الحصين وغيره](٣)، وكان [الوزير](٣) فاضلاً عادلاً؛ كان يغشاه رجلٌ من الأكابر، فحسده أقوام، فَسَعَوْا به إلى الوزير، وكثَّروا عليه، فقال الرجل: يا مولانا، قد بلغني كذا وكذا، وأنا خائف على منزلتي عندك. فقال الوزير: [من السريع]

ما حطَّكَ الواشون من رُتْبَةٍ   عندي ولا ضَرَّكَ مغتابُ

---

(١) في (ح): وسبب قتله أن تتامش، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) في (ح): وقيل، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٤) في (ح): قال المصنف رحمه الله، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٥) في حوادث سنة (٥٧٥هـ)، وما بين حاصرتين من (م) و(ش).

كـأنَّـمـا أثْـنَـوْا ولـم يـعـلـمـوا عـلـيـك عـنـدي بـالـذي عـابـوا

ولما بلغ القاضي الفاضل قَتْلَه أنشد: [من الطويل]

وأحـسـنُ مـن نَـيْـلِ الـوِزَارة لـلـفـتـى حـيـاةٌ تـريـه مَـصْـرَعَ الـوزراءِ

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1] كان - عفا الله عنه - قد قتل وَلَدَيْ الوزير ابن هُبيرة، وخَلْقاً كثيراً، وأنشد: [من الكامل]

إنَّ الـوزيـرَ وزيـرَ آلِ مـحـمـد أَوْدَى فـمـن يَـشْـنـاكَ كـان وزيـرا

غير أنَّه خُتمت له السَّعادة بما ختمت له من الشهادة، لا سيما وقد خَرَجَ من بيته إلى الله، ثم قرأ ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية[2].

[وخرج ولده علي بن محمد إلى الشام، وأحسن إليه صلاح الدين، وسنذكره في سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة][3].

وأما حاجب الباب ابن المعوَّج، فاسمه محمد بن أبي نَصْر[4]، كان شاباً جميلاً، عاقلاً ديناً، ذا مروءةٍ، ماتَ في اليوم الذي جُرح فيه، ولم يبلغ ثلاثين سنة، وله نوادرُ مع اللصوص؛ أُتي بلصٍّ وقد سَرَقَ، فقال: افرشوه [يعني مدُّوه على الأرض][3]، فنامَ اللِّص، وقال: [ما يحتاج][3] في قدر الموضع أنا.

وجاءت امرأةٌ، فقالت: يا سيِّدي؛ هذا اللِّصُّ فَتَحَ رأسي. فقال له: ويحك، لِمَ فَتَحْتَ رأْسَها؟ فقال: كنتُ قد ملأتها عِنَباً، فأردت [أبصر][3] هل صارتْ خمراً أو خلاً، يعني الخابية، فقال: والكْ، تتقاطع عليَّ؟ فقال: لا أتهجَّى، قال: كم تتنزل عليَّ؟ قال: شَدِّدْني بقطن، فقال: والله لابد ما أقومك؟ فقال: كنتَ قوَّمتَ جدّك، يعني المعوَّج، فضحك، واستتابه، وأطلقه.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦ .

(٢) ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[سورة النساء: ١٠٠].

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٨٢ ، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٨ ، واسم أبي نصر عبد الله بن الحسين.

شهاب الدِّين محمود(١)

خالُ صلاحِ الدين، كانت له حماة، نَزَلَ عليها الفرنج وهو مريضٌ، فتوفي، فأعطاها صلاح الدِّين لناصر الدين منكورَسْ بن خُمارتِكِين صاحب صِهْيَوْن(٢)، وقيل: إنما أعطاها لتقي الدِّين عمر.

وقيل: في السنة الآتية، وكان ناصر الدين نائباً عن تقيِّ الدِّين(٣).

أبو صالح بن العجمي(٤)

وزير الملك الصالح [إسماعيل](٥)، وثب عليه الإسماعيلية يوم الجمعة بعد الصَّلاة في جامع حلب، فقتلوه، وضعهم عليه كُمُشْتِكِين.

وقيل: إنَّ جماعة [من الحاشية](٥) حسدوه، فأَوغروا صَدْرَ الملك الصَّالح عليه، وقالوا: قد اطَّرحَ أمرك، ويراك بعين الصِّغَر. فحبسه، [ودخل عليه قوم فقتلوه، والأول أشهر](٦) وكان مدبراً، فاختلت أمورُ الملك الصَّالح بعده.

السَّنة الرَّابعَة والسَّبعون وخمس مئة

فيها جرى بحثٌ في مجلس ظهير الدين بن العَطَّار في قتال عائشة لعليٍّ رضوان الله عليه، فقال ابن البغدادي [ويعرف بابن حركها](٥) الحنفي: كانت عائشة باغيةً على عليٍّ. فصاح عليه ابنُ العَطَّار، وأقامه من مكانه، وكَتَبَ إلى الخليفة، فأخبره، فقال: يُجمع الفقهاء، ويُسْألون ما يجب عليه. فجمعوا، وقالوا: يُعَزَّر.

---

(١) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر أخباره كذلك في كتاب «الروضتين»: ٢/ ٧٠.

(٢) يعني بعد أن فتحه صلاح الدين، وذلك سنة (٥٨٤هـ). انظر «الروضتين»: ٤/ ٢٨.

(٣) وهذا هو الراجح، فقد رتب صلاح الدين تقي الدِّين عمر في حماة سنة (٥٧٤)هـ، وعين تقي الدين منكورس نائباً عنه، انظر «الروضتين»: ٢/ ٢٧، ٢٥٢.

(٤) هو عبد الرحيم بن أبي طالب، وقد سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر «الروضتين»: ٢/ ٤٦٩.

(٥) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٦) في (ح): ودخلوا عليه فقتلوه، وكان مدبراً..، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

قال المصنف رحمه الله: وكان جدِّي حاضراً، فقال: لا يجب عليه التعزير، لأَنَّه رجلٌ ليس له عِلْم بالنَّقْل، وقد سَمِعَ أَنَّه جرى قتال، ولم يعلم أَنَّ السفهاء أثاروه بغير رضى الفريقين، وتأديبه العفو عنه. فكتَبَ ابنُ العَطَّار إلى الخليفة فقال: يُطْلق ولا يعاود إلى مثلها. فأُطْلق(١).

[قلت: وقد ذكر جدي في بعض مصنفاته وقال: ما وقع الخلاف بين أحد من الصحابة وبين علي عليه السلام إلا والحق مع علي لقوله عليه السلام: «وأدر الحق معه كيفما دار»(٢)، فإن جرت من غيره هفوة فهو مسكوت عنها لقوله عليه السلام: لا تسبوا(٣)](٤).

وفيها عصى شمسُ الدِّين بن المقدَّم ببَعْلَبَكّ، وكان صلاحُ الدِّين قد أعطاه إياها، ومدَّ شمس الدولة تورانشاه عينه إليها، وقَدِمَ صلاحُ الدِّين دمشق، فأرسل يطلبُ ابنَ المقدَّم، فاعتذر خوفاً من شمس الدَّوْلة، فخرج صلاحُ الدِّين، ونزل على بعلبك، فأقام تسعة أشهر يحاصرها، فنفد ما عنده، فأرسل إلى السُّلْطان يسأله العِوَض، فأعطاه بارين وكَفْرطاب، [(٥)وخرج شمس الدين بن المقدَّم إليها، وسلَّم صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة].

وفيها مات الهنفري ملك الفرنج، بلغ السُّلطان أنه يريد [أن](٤) يغار على دمشق، فبعث عِزَّ الدِّين فَرُّخْشاه [ابن أخيه](٤) بعساكر دمشق إلى قرن الحرَّة، وقال: تقيم هناك على مرج عيون، فإنْ جاؤوك فأَرْسِلْ كُتُبَ الطُّيور إليَّ، ولا تواقعهم حتى آتيك، فسار فنزل مرج عيون، فلم يشعر إلا بطلائع الهنفري قد خالطته، ووقع القِتال، فلم يقدر [فرخشاه](٤) على إعلام السُّلْطان، وقاتلهم بنفسه، وجُرح الهنفري جراحات موثقة، فأخذوه وانهزموا، وغنمهم فَرُّخْشاه، ومات الهنفري بعد أيام، وجاء السُّلْطان، فنزل قصر يعقوب، وبعث السَّرايا والغارات إلى بلد الفرنج.

---

(١) انظر «المنتظم»: ١٠/ ٢٨٦.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٠٤٧) من حديث علي، وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠)، وهو عند الإمام أحمد (١١٠٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في (ح): فأعطاه بارين وكفرطاب، وسلمها صلاح الدين إلى شمس الدولة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها توفي

سَعْد بن محمد بن سَعْد(١)

أبو الفوارس ابن الصيفي التميمي، ويلقب بالحيصَ بَيْصَ. كان شاعراً فاضلاً، مدح الخلفاء والوزراء والأكابر، [وما خرج عليه هذا الاسم إلا لأنه لقي الناس في شدة واختلاط، فقال: ما للناس في حيص بيص، فلقب به](٢). ومات ببغداد في شعبان، وله ديوانٌ مشهور، وهو القائل في ابن طِرَاد(٣): [من الكامل]

فتصدَّعوا متفرِّقين كأنهم ... مالٌ تفرِّقه يدُ ابنِ طِرَادِ

وقال: [من الرَّمل]

لا تَلُمْني في شقائي بالعُلا ... رَغَدُ العَيْش لربَّاتِ الحِجالِ
سيفُ عزٍّ زانه رونقُهُ ... فَهْوَ بالطَّبْع غنيٌّ عن صِقالِ
كلَّما أَوْسَعْتُ حِلْمي جاهلاً ... أوسعَ الجَهْلُ له فُحْشَ المقالِ
وإذا شاردةٌ فُهتُ بها ... بَسَقَتْ مُرَّ النُّعامى(٤) والشّمالِ
عَزَّ بأسي أنْ أرى مُضْطَهداً ... وأبى لي غَرْبُ(٥) عزمي أن أُبالي(٦)

وقال: [من الطويل]

أجنِّبُ أهل الأمر والنَّهْي زَوْرَتي ... وأغشى امرءاً في بيته وهو عاطل
وإني لسمحٌ بالسلام لأشعثٍ ... وعند الهُمامِ القَيْلِ بالرَّدِّ باخِلُ
وما ذاك مِنْ كِبْرٍ ولكنْ سجيةٌ ... تعارِضُ تِيْهاً عندهُمْ وتقابِلُ

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج٢/ ٢٠٢ـ٣٦٦، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٨٨، و«معجم الأدباء»: ١١/ ١٩٩ـ٢٠٨، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ٣٦٢ـ٣٦٥، و«الوافي بالوفيات»: ١٥/ ١٦٥ـ١٦٦: و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٦١ـ٦٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) هو علي بن طراد الزينبي الوزير، وقد سلفت ترجمته في وفيات سنة (٥٣٨هـ).
(٤) النعامى: ريح الجنوب، اللسان (نعم).
(٥) الغرب: الحد، اللسان (غرب).
(٦) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٢٩٥.

قال المصنف رحمه الله: وأنشدني شيخ الشيوخ تاج الدِّين ابن حموية رحمه الله في المعنى لغيره: [من البسيط]

لم ألقَ مستكبراً إلا تحوَّلَ لي ... عند اللِّقاءِ له الكِبْر الذي فيه
ولا حلا لي من الدُّنيا ولذَّتها ... إلا مقابلتي للتِّيه بالتِّيه

وقال الحيص بيص: [من البسيط]

عِلْمي بسابقة المقدور ألزمني ... صَمْتي وصَبْري فلم أَحْرِصْ ولم أَسَلِ
لو نِيْلَ بالقَوْلِ مطلوبٌ لما حُرِمَ الـ ... ـرؤيا الكليمُ، وكان الحظ للجبل
وحِكْمةُ العقلِ إنْ عَزَّتْ وإنْ شَرُفَتْ ... جهالةٌ عند حُكْمِ الرِّزْق والأَجَلِ[(١)]

وقال: [من الخفيف]

ربَّ رِفْدٍ وإن تكاثر عَدًّا ... قلَّ من فَرْطِ كَثْرةِ التَّرْدادِ
إنَّما الجودُ كالحياةِ ولكنْ ... يعتريها السَّقامُ بالميعادِ
وسؤالُ الأحرار من غير خُلْفٍ ... ثمنٌ للنَّدى من الأَجْوادِ[(٢)]

شُهْدَة بنت أحمد[(٣)]

ابن الفَرَج بن عُمر الإِبَري. [ويقال لها][(٤)] فخر النساء، الكاتبة.

سمعتِ الحديثَ الكثير، وكتبتِ الخَطَّ الحسن، وكانت مخالطةً لدار الخلافة، و[كان][(٤)] لها معروف [وإحسان][(٤)] وصدقات، [وكانت][(٤)] جليلةَ القَدْر، توفيت ليلة الاثنين رابع عشر محرم، وصُلِّي عليها بجامع القَصْر، وأُزيل الشُّبَّاك الذي في مقصورة الخطابة، فيقال: إنَّ الخليفة صلَّى عليها، وشَهِدَها أربابُ الدُّولة، ودفنت بباب أبرز، وسمعتْ مشايخ العراق [[(٥)]جعفر بن أحمد السرَّاج، وروت عنه «مصارع العشاق»،

(١) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٣٠٣-٣٠٤ مع اختلاف في بعض ألفاظها.
(٢) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ٢٤٣.
(٣) لها ترجمة في «الأنساب»: ١/ ١١٨، «المنتظم»: ١٠/ ٢٢٨، و«مشيخة ابن الجوزي»: ٢٠٨-٢٠٩، «الكامل»: ١١/ ٤٥٤، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٧٧-٤٧٨، «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٤٢-٥٤٣، وفيه تتمة مصادر ترجمتها.
(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٥) في (ح): وسمعت مشايخ العراق، وعمرت قريب مئة سنة. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وسمعت طِرَاد الزَّيْنبي وغيرهما، وقُرِىءَ عليها الحديث سنين، وعمرت حتى قاربت المئة، وذكرها جدي في «المشيخة». وقال: أخبرتنا شهدة الكاتبة بقراءتي عليها في صفر سنة سبع وخمسين وخمس مئة، وروى لنا عنها جماعة منهم جدي، وأبو محمد عبد العزيز بن دلف، وابن الأخضر وغيرهم]، وكانت صالحة، ثقةً.

علي بن جمال الدين(١)

الوزير الأصبهاني، أبو الحسن.

[(٢) قد ذكرنا أن صاحب الموصل استوزره، وله خمس وعشرون سنة، ثم قبض عليه سيف الدين غازي، فشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد، وكان قد زوَّجه ابنته، فأطلقه، فسار] إلى آمد مريضاً، فتوفي بدُنَيْسر، فحمل إلى المَوْصل، فدُفِنَ بها إلى أوانِ الحج، فحُمل إلى المدينة، فدفن عند أبيه، وكان أحسنَ خَلْقِ الله صورةً ومعنى.

[(٣) انتهى تاريخ جدِّي المسمى بالمنتظم في هذه السنة]، وله تاريخٌ صغير سماه «دُرّة الإكليل»، ذَيَّل فيه من هذه السَّنة إلى أن حُمِلَ إلى واسط سنة تسعين وخمس مئة، غير أنه لم يستقصِ فيه الحوادث، ويقال إنه منه دَخَلَ عليه الحادث، والله أعلم.

السَّنة الخامسة والسَّبعون وخمس مئة

فيها ولَّى الخليفةُ قِوام الدِّين يحيى بن زَبَادة حِجْبة الباب، وعَزَلَ عنها عَلَم الدِّين طلحة بن البقشلان، ووقَعَ الغلاء والوباء ببغداد، فأكل النَّاسُ أولادهم، وماتوا على الطرق.

---

(١) له ترجمة في «كتاب «الروضتين»: ٢/ ٤١٩ـ٤٢٠، «وفيات الأعيان»: ٥/ ١٤٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٥٠، وهو علي بن محمد بن علي بن أبي منصور الأصبهاني.

(٢) في (ح): أبو الحسن، سار إلى آمد...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): انتهى تاريخ الشيخ جمال الدين بن الجوزي المسمى بالمنتظم في هذه السنة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وزلزلت أرمينية وبلاد إرْبل، وتصادمتِ الجبال بحيث كان بين الجبلين مسافة، فتقلعهما الزلزلة، فيصطدمان، ثم يعودان إلى مكانهما.

وفي سَلْخ ذي القعدة خطب المستضيء لولده أبي العَبَّاس أحمد النَّاصر بإشارة جهة الخليفة بنفشا، وكان الخليفةُ قد مرض في شَوَّال، وتوفي في ثاني ذي القعدة.

وفي ربيع الأول كانت وقعة مرج عيون، التقى صلاح الدين الفرنج على مرج عيون، فأَسَرَ مقدَّم الداوية والإسبتار، وصاحب الطبرية، وابن بارزان صاحب نابلس والرَّملة، وقسطلان يافا، وصاحب القُدْس، وصاحب جُبيل، وكانت وقعةً عظيمة، فخلَّص بعضُهم نفسه، ومات بعضهم في الأَسْر، وخَلَصَ الفقيه عيسى، [وكان قد أُخذ من الرملة، وقد ذكرناه][١]، وحُسِبَ من القطيعة بستين ألف دينار.

وقيل: إن وقعة مرج عيون كانت في المحرَّم، وهذه وقعة هُونين التي أُسروا فيها.

وسار السُّلْطان في ربيع الأَوَّل إلى حِصْن يعقوب ـ ويسمَّى قصر يعقوب، وبيت الأحزان ـ عند المخاضة، فنَصَبَ عليه المجانيق، وخَلَعَ على النَّقَّابين، وباشر القتال بنفسه، فعلقوا النُّقوب، وأحرقوا الأخشاب، فسقطتِ الأبراج، فصاحوا: الأمان. وعاجلهم المسلمون، ففتحوه عَنْوَةً، وكان عَرْضُ سوره عشرةَ أذرع، وارتفاعُه أربعين ذراعاً، فَقَتَلَ المسلمون منهم ألفاً وخمس مئة، وخلَّصوا من أسارى المسلمين مئةَ أسير، وكان بيت الأحزان ـ الذي يزعمون أن يعقوب عليه السَّلام كان ينفرد فيه، ويبكي على يوسفَ عليه السَّلام ـ كنيسةً، فجعله السُّلْطان مسجداً.

وذكر الشُّعراء هذا الحِصْن، فقال أحمد بن نفاذة الدِّمَشْقي، [ويلقب بالنَّشو][١]: [من المتقارب]

هـلاكُ الـفـرنـج أتـى عـاجـلاً ... وقـد آن تـكـسـيـرُ صُـلْـبـانِـهـا
ولـو لـم يـكـن قـد أتـى حَـتْـفُـهـا ... لـمـا عـمَّـرتْ بـيـتَ أَحْـزانِـهـا

وقال أبو الحسن عليُّ بن أحمد السَّاعاتي: [من الطويل]

وَقَفْتُ على حِصْنِ المخاض وإنَّه ... لـمـوقـفُ حَـقٍّ لا يـوازيـه مـوقـفُ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وما رُفعت أعلامك الصُّفْر ساعة ... إلى أن غَدَتْ أكبادُها السُّود تَرْجُفُ
أَيَسْكُنُ أوطانَ النَّبيِّين عُصْبَةٌ ... تميِنُ لدى أَيْمانها وهي تَحْلِفُ
نَصَحْتُكُمُ والنُّصح في الدِّين واجبٌ ... ذَرُوا بيتَ يعقوبٍ فقد جاء يوسفُ(١)

وكتب الفاضل إلى بغداد كتاب الفَتْح، فأمر الخليفة بضرب البُوقات والدَّبادب على أبواب الأُمراء ما عدا طبول الخليفة، ولم يشهد تقيُّ الدِّين هذه الغَزَاة، لأَنَّ قليج رسلان نزل على حصن رَعْبان في عشرين ألفاً، وادَّعى أنه له، فسار تقيُّ الدين إليه في ألف فارس، فهزمه، فكان تقيُّ الدين يُدِلُّ بهذه الوقعة حيث هَزَمَ ألوفاً بألف.

وفيها خَتَنَ السُّلْطان ولده العزيز عثمان، واتخذ له يوسف بن الحسين، ويعرف بابن المجاور معلِّماً.

وتسلَّم فَرُّخْشاه بَعْلَبَك، ومات المستضيء.

البابُ الرَّابع والثلاثون

في خلافة النَّاصر لدين الله أحمد

وكنيته أبو العَبَّاس، ولد سنة اثنتين أو ثلاث وخمسين وخمس مئة، وأمه زُمُرّد خاتون أم ولد، وكانت بيعته يوم الاثنين ثاني ذي القَعْدة، وله ثلاث أو اثنان وعشرون سنة، وتولَّى أخذ البيعة له ظهير الدين ابن العَطَّار صاحب المخزن، على الرَّغم منه، لأَنَّه كان يميل إلى أخيه الأمير أبي منصور خائفاً من أبي العباس، وانتظر مساعدة بنفشا، فلما جاءه أمر بالخُطْبة لأبي العباس، أُسْقِطَ في يده، وساعد بنفشا مجدُ الدِّين ابنُ الصاحب أُستاذ الدار، وطاشتِكِين أمير الحاج، ثم قُتِلَ ابنُ الصَّاحب، وحُبس طاشتكين بعد ذلك، وحَضَرَ القضاة والأشراف وبنو هاشم وغيرهم وأخوه أبو منصور، وضياءُ الدِّين الشَّهْرُزُوري رسولُ صلاحِ الدين، وبايعوه، وقبض في ذلك اليوم على سَعْد الشَّرابي، وأحسنَ إلى بنفشا، وكان المستضيء أراد أن يعهد إلى الأمير أبي

(١) ليست هذه القصيدة في ديوانه المطبوع، وقد استدركها محققه من «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٣٨-٣٩، انظر «الديوان»: ٢/ ٤٠٩.

منصور، فقالت له بنفشا: اللهَ اللهَ أن تَعْدِلَ عن أبي العَبَّاس، فرأى لها ذلك، وبَعَثَ شيخَ الشيوخ عبد الرَّحيم وصَنْدَل الخادم إلى صلاحِ الدِّين بالبيعة.

وفي يوم الجمعة سابع ذي القعدة قَبَضَ على ظهير الدين [ابن العطار][1] صاحب المخزن، وعلى مسعود النَّقيب.

وحجَّ بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين، ومن الشَّام صفي الدين بن القابض؛ وزير صلاح الدين.

وفيها توفي

إسحاق[2] وإسماعيل ابنا أبي منصور[3]

موهوب بن الجواليقي.

[[4]فأما إسحاق فكنيته أبو طاهر، ولد في سنة تسع عشرة وخمس مئة[5]، وقرأ على أبيه الأدب والحديث، وسمع من ابن الحصين وغيره، ومات في رجب، ودفن بباب حرب.

وأما إسماعيل فكنيته أبو محمد، ولد سنة إحدى عشرة وخمس مئة، وقرأ على أبيه الأدب وبرع فيه، وسمع من ابن الحصين وابن السمرقندي وغيرهما، وأقرأ الأدب بعد أبيه، وروى عنه جماعة منهم عبد العزيز بن الأخضر، وكان شيخنا، وكان يثني عليه ويقول: هو في النسك والعبادة أبلغ من أبيه، قال: وأنشدنا لإبراهيم نفطويه]: [من البسيط]

اقبلْ معاذيرَ مَنْ يأتيك مُعْتذراً ... إنْ بَرَّ عندك فيما قال أو فَجَرا
فقد أطاعك مَنْ أرضاك ظاهِرُه ... وقد أَجَلَّكَ مَنْ يعصيك مُسْتترا

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «معجم الأدباء»: ٦/ ٨٨-٨٩، «إنباه الرواة»: ١/ ٢٣٠، و«الوافي بالوفيات»: ٨/ ٤٢٧.

(٣) له ترجمة في «معجم الأدباء»: ٧/ ٤٥-٤٧، «إنباه الرواة»: ١٠/ ٢١٠-٢١١، «الوافي بالوفيات»: ٩/ ٢٣٠، «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٤٦-٣٤٧، «بغية الوعاة»: ١/ ٤٥٧، «شذرات الذهب»: ٤/ ٢٤٩-٢٥٠.

(٤) في (ح): ولد إسحاق سنة تسع عشرة وخمس مئة، ومات في رجب، ودفن بباب حرب، ولد إسماعيل سنة إحدى عشرة وخمس مئة، وكان في النسك والعبادة أبلغ من أبيه وأنشد لإبراهيم نفطويه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في «معجم الأدباء» و«إنباه الرواة»: ولد سنة سبع عشرة وخمس مئة، وهو الأشبه بالصواب.

المستضيء بأمر الله(١)

أبو محمد، الحسن بن يوسف المستنجد.

كان [جَوَاداً](٢) عادلاً، شريفَ النَّفْس، حَسَنَ السِّيرة، ليس للمال عنده قدر، حليماً، مُشْفقاً على الرَّعية، أَسْقَطَ المكوس والضَّرائب، وكان متواضعاً، وتوفي ثاني ذي القَعْدة، عن ستٍّ وثلاثين سنة، وكانت خلافته تسعَ سنين وستة أشهر وعشرين يوماً، ودُفِنَ في داره، ثم نُقِلَ بعد ذلك إلى تُرْبته المجاورة لجامع فخر الدولة(٣).

ذِكْرُ حاشيته ووزرائه:

وَزَرَ له عضد الدَّولة ابن رئيس الرؤساء، وأبو الفَضْل زعيم الدين بن جعفر، ومحمد ابن محمد بن عبد الكريم الأنباري، ومات في الوزارة ظهير الدين ابن العَطَّار، وكان على قضاء القضاة أبو الحسن علي ابن الدَّامَغاني، وعلى الحجابة مجد الدين أبو الفَضْل الصَّاحب، وأبو سَعْد محمد بن المعوّج، وكان له ولدان أبو العَبَّاس أحمد، وأبو منصور هاشم.

علي بن أحمد بن محمد بن عمر بن الحسين(٤)

ابن هبة الله بن الحسين بن علي بن يحيى بن أحمد بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن العلوي الزَّيْدي.

ولد سنة تسع وعشرين وخمس مئة، وسمع الحديث الكثير، ولما عاد [عضد الدين](٢) ابن رئيس الرؤساء إلى الوزارة بعث إليه بألف دينار، وكَتَبَ إلى المستضيء يقول: إنني نذرتُ إنْ عدتُ إلى الوِزَارة بعثتُ إلى الشَّريف بألف دينار، فقال المستضيء: أنا أحمل إليه ألف دينار، وقالت بنفشا: وأنا أيضاً أحمل إليه ألف دينار، فحُمِلَ الجميعُ إليه، فلم يتصرَّف فيها، واشترى بها داراً بدرب دينار الصغير، وبناها

(١) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٦٨-٧٢.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) فخر الدولة: هو الحسن بن هبة الله، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٧٨هـ).

(٤) له ترجمة في «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار: ٣/ ١٥٨-١٦٢، وسير أعلام النبلاء: ٢١/ ١٠٤-١٠٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

مسجداً، واشترى بباقي الذهب كُتُباً، ووقفها في المسجد [ينتفع الناس بها، وهي باقية إلى هلمَّ جرا، وكانت وفاته في شوال، ودفن في المسجد][١] المذكور، [سمع أبا الفضل بن ناصر وغيره][١]، وكان سيِّداً جليلاً، نبيلاً زاهداً، وَرِعاً.

عَلَم بنت عبد الله بن المبارك[٢]

زوجة الزَّبيدي[٣] [شيخ الوزير ابن هُبيرة][١]، كانت تضاهي رابعة العدوية، وتقرأ القرآن، ولا تَفْتُرُ من الذِّكْر، ولم يكن في زمانها مِثْلُها، وكانت صابرةً على الفقر، وَرِعَةً، مَرِضَ ولدُها أحمد ابنُ الزَّبيدي، فاحْتُضر، وجاء وقتُ الصَّلاة، فقالت: يا بني ادخل في الصَّلاة، فدخل وكبَّر، فماتَ، فخرجت إلى النِّساء، وقالت: هنئنني. قلن: بماذا؟ قالت: ماتَ ولدي في الصَّلاة.

توفيت ببغداد، وعمرها مئة سنة وستّ سنين، ولم يتغيَّر عليها من حواسها شيء، [بل كانت كأنَّها يوم ولدت][١].

محمد بن الحسين بن الحسن[٤]

أبو الفرج [الهِيْتي][١]، ولد بهِيْت[٥] سنة خمس وتسعين وأربع مئة، وسكن بغداد، وكان فاضلاً، فمن نظمه: [من السريع]

يـا راقـداً أَسْـهَـرَ لـي مُـقْـلَـةً   عــزيـزةً عـنـدي وأبـكـاهـا
مـا آن لـلـهِـجْـران أن يـنـقـضـي   عـن مُـهْـجـةٍ هَـجْـرُكَ أَضْـنـاهـا
إن كـنـتَ مـا تَـرْحَـمُـنـي فـارْتَـقِـبْ   يـا قـاتـلـي فـي قـتـلـيَ الـلـهَ

ومن نثره: من كان الصَّمتُ شجرتَه كانت السَّلامةُ ثمرتَه. وفي احتراز اللبيب ما يُغْنيه عن الطبيب، من ترك المِرا استمال الوَرَى.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) لها ترجمة في «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٨٥.

(٣) هو محمد بن يحيى، سلفت ترجمته في وفيات سنة (٥٥٥هـ).

(٤) له ترجمة في «الخريدة» قسم شعراء العراق: مج١/ ج٤/ ٢٨٦ـ٢٨٨، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ١٩ـ٢٠.

(٥) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار، «معجم البلدان»: ٥/ ٤٢١.

وكانت وفاته في شعبان، ودفن بباب حرب، [سمع عبد الوهَّاب الأنماطي وغيره، وروى عنه شيوخنا][(١)].

[فصل: وفيها توفي

محمد بن محمد بن عبد الكريم[(٢)]

أبو الفرج ابن الأنباري، كاتب الإنشاء بديوان الخليفة، ولد سنة سبع وخمس مئة، وهو من بيت الرياسة والكتابة، ناب في الديوان حين توفي والده سديد الدولة في سنة ثمان وخمسين وخمس مئة إلى هذه السنة، وكانت وفاته في ذي القعدة، وصلي عليه بجامع القصر، ودفن عند والده بمقابر قريش.

سمع أبا محمد بن أحمد السمرقندي وطبقته، وكان فاضلاً عاقلاً، نزهاً عفيفاً.

وفيها توفي

محمد بن علي بن محمد[(٣)]

أبو الفتح الدَّامغاني، ابن قاضي القضاة أبي الحسن، من بيت الرياسة والفضل والقضاء، استنابه أبوه في القضاء، وكان فاضلاً نَزهاً، عفيفاً، توفي وهو شاب في شوال، ودفن بنهر القلائين، وبها كانت منازلهم][(١)].

محمد بن علي بن حمزة[(٤)]

أبو يعلى، قُطْب الدين الزَّيدي، ويعرف بابن الأَقْساسي، ولد بالكوفة سنة سبعٍ وتسعين وأربع مئة، وكان نقيبَ العلويين بها، فاضلاً، قدم بغداد، وسمع الحديث، وتوفي في شوال، ودفن بالشُّونيزيَّة، ومن شعره: [من المديد]

ربَّ قومٍ في خلائقهم ... عِرَرٌ قد صُيِّروا غُرَرا
سَتَرَ الإثراءُ عَيْبَهُمُ ... سترى إنْ زال ما سَتَرا

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٤٦١ .

(٣) له ترجمة في «الجواهر المضية»: ٣/ ٢٥٣-٢٥٤ .

(٤) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٤/ ١٥٥-١٥٦ .

وقال: [من الطويل]

وكنتُ إذا خَصَمْتُ خَصْماً كَبَبْتُه على الوَجْه حتى خاصمتني الدَّراهمُ
فلمَا تنازعنا الخصوم تحكَّمَتْ عليَّ وقالت قُمْ فإنَّكَ ظالمُ

مسعود[1] نقيب باب النُّوبي[2]

كان بين يدي [ظهير الدين][3] ابن العَطَّار، وكان قاسياً فاتكاً جباراً لا يعرف الرَّحمة، كم أتلف من الشَّباب بالقَتْل والصَّلْب والقَطْع، وأخذِ أموال النَّاس، وكان ابنُ العَطَّار يقويه على ذلك، فلما كان اليوم الذي ولي فيه الإمام النَّاصر، قَبَضَ عليه، وكان عنده منه المقيم المُقْعد، فَضُرِبَ بالسُّيوف، ومُثِّل به أقبح مُثْلة، وسُلِّم إلى عوام بغداد، فشدُّوا في رِجْله شريطاً، وسحبوه في دروب بغداد وهم يقولون: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. يعنون ابنَ العطار، ثم أحرقوه، وذروا رماده في دِجْلة.

منصور بن نَصْر بن الحسين[4]

ظهير الدين، أبو بكر ابن العَطَّار، صاحب المخزن، نائب الوِزَارة، [وقد ذكرنا أنه كان سبباً لقتل الوزير ابن رئيس الرؤساء، و][3] كان في عزمه أن يولي الخلافة أبا منصور، فانخرقت عليه القواعد، فلما بُويع الإمام النَّاصر لم يحضر، واعتذر بالمرض، وإنما كان به مَرَضُ القلب حيث تيقن الهلاك، فقبض الخليفة عليه في السَّابع من يوم بيعته، ووكل به في حجرةٍ في داره، وقبض على أصحابه، ونُهبت دورهم،

(١) انظر خبره كذلك في «الروضتين»: ٣/ ٥٣.

(٢) باب النوبي: كان يقع في سور دار الخلافة ببغداد إلى الشرق من باب بدر، وهو باب كبير لدار الخلافة، ويسمى أيضاً باب العتبة، فقد كانت فيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا بغداد، وكان هذا الباب في بعض الأدوار باباً رئيساً لقصور الخلافة. انظر «دليل خارطة بغداد»: ١٥٨ـ١٥٩.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وله ترجمة في «الروضتين»: ٣/ ٥٢ـ٥٣، «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٨٤ـ٨٥، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ١٩١، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٨٥.

ونهبَ العامةُ داره، وأحرقوا سقوفها، وكانت على دِجْلة، فلما كانت ليلة السبت ثامن ذي القَعْدة نُقِلَ إلى التَّاج، وقيد، وأُخرج ليلة الأربعاء حادي عَشَرِه ميتاً، وفيه آثارُ الضَّرْب، فيقال: إنَّه مات تحت الضَّرْب، فَسُلِّم إلى أُخته، فغسَّلَتْه وكَفَّنته، فلما كان وقتُ الفجر من يوم الأربعاء أخرج تابوته على رؤوس الحمَّالين ليذهبوا به إلى قبر الإمام أحمد رحمة الله عليه، وبلغَ التَّابوت عقد الحديد، فصاح بعضُ الناس: يا عوام، هذا ابنُ العَطَّار الذي سلط عليكم مسعود النقيب [وأخذ أموالكم، وفعل وفعل][(١)]، ورجمه بآجُرَّةٍ، وتتابع الرَّجم، فرمى الحمَّالون التابوت وانهزموا، فجرَّدوه من الكفن، وشدُّوا في رِجْله شريطاً، وسحبوه إلى دروب بغداد، [وصاحوا عليه: يا عجيل ابن عجيل، وشوَّهوا به][(١)]، ومثلوا أقبح مُثْلة، وكان مسيئاً إلى [الشيعة أهل المختارة والكرخ ومشهد موسى بن جعفر، وقطع أرزاقهم وبدَّد شَمْلَهم][(٢)]، ثم جمعوا له حطباً ليحرقوه بعد أن قطعوا لحمه قِطعاً، فركب قطروش الشِّحْنة، وأراد [أن يخلصه][(٣)] منهم، فرجموه وقاتلوه إلى الليل، [فحجز الليل بينهم][(١)] وبقي من لحمه قطعة، فجاء ناسٌ، فدفنوها عند مقابر الإمام أحمد ابن حنبل.

وظهير الدين هذا هو ابنُ الشيخ نَصْر [ابن العطار][(١)] الحَرَّاني، صاحب الصَّدقات والمعروف والبِرّ والصِّلات والفضائل والكرامات، وقد ذكرناه [في سنته التي توفي فيها][(١)].

السنة السادسة والسبعون وخمس مئة

فيها استناب الخليفة في الوزارة جلال الدين هبة الله بن البخاري، وكان قد استناب سليمان بن ساروس بعد ابن العَطَّار في السنة الماضية، فأقام فيها ثلاثة أشهر، فعزله في المحرَّم في هذه السنة، لأنَّه ظلم، ومدَّ يده إلى الأموال.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): إلى الخلق، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): خلاصه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها ابتدأ الخليفةُ بعمارة دار المسناة في الجانب الغربي من بغداد، وتسمى دار تتر، وهي قائمة إلى هلمَّ جرا.

وفيها ابْتُدِىءَ بعمارة تربة المستضيء المجاورة لجامع فخر الدولة، وتولَّى عمارتها أُستاذ الدَّار ابنُ الصَّاحب، ونقل تابوته إليها.

ووصل شيخ الشيوخ إلى صلاح الدِّين، وخَلَعَ عليه خِلْعة السَّلْطنة، وأعطاه التقليد، فركب [شيخ الشيوخ][1] البحر من مِصْر إلى مكة لنذرٍ كان عليه، وأقام إلى أيام الموسم، وحَجَّ وعاد إلى بغداد[2].

وفيها توفي سيف الدِّين صاحب المَوْصل.

وفيها سار صلاحُ الدِّين إلى بلد الرُّوم؛ وسببه أَنَّ نورَ الدِّين محمد بن قرا رسلان بن سكمان بن أُرْتُق صاحب حِصْن كيفا كان قد انتمى إليه، وكان عِزُّ الدين قليج رسلان بن مسعود بن قليج رسلان قد زوَّجه ابنته، فأَساء العِشْرة معها، فكتبت إلى أبيها تشكوه، فبعث إليه: إما أَنْ تُحْسِنَ عِشْرتها، وإما أنْ تفارقَها. فلم يلتفت إليه، وكاتَبَ صلاحَ الدين، فسار في نجدته، فالتقاه ابنُ أُرْتُق على نهر الأزرق بين بهسنى وحصن منصور، ثم عبرا منه إلى النهر الأسود، وجاءت رسل قليج رسلان، وتقرَّر الصُّلْح، وعاد السلطان إلى بلاد ابن ليون، فأخربها ونهبها، فصالحه على مالٍ وأُسارى، فرجع إلى دمشق، فقال محمد بن سُلْطان[3] يخاطبُ صلاحَ الدين: [من المتقارب]

ورُعْتَ ابنَ سَلْجُوقَ في مُلْكه ... فَقَعْقَعَ من رُعْبه بالشِّنانِ
أَزَرْتَ ابنَ لاونَ لأْوَاءَه ... فأضحى به خَبَراً عن عِيانِ
فأخلى لهيبتك المانقير[4] ... وغادَرَ للهَدْمِ تلك المباني

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) قدم شيخ الشيوخ على صلاح الدين بدمشق بالخلعة، ثم سار معه إلى مصر، ومن مصر ركب شيخ الشيوخ البحر إلى مكة. انظر «الروضتين»: ٣/ ٦٥-٦٧.

(٣) هو محمد بن سلطان بن الخطاب المقرىء النِّيلي ـ بليدة في سواد الكوفة ـ قدم بغداد، وقرأ بها الأدب على ابن الخشاب، وأقرأ الأدب، ولم يذكر الصفدي والسيوطي سنة ولادته ولا وفاته. انظر «الوافي والوفيات»: ٣/ ١١٨، و«بغية الوعاة»: ١/ ١١٥، و«معجم البلدان»: ٥/ ٣٣٤.

(٤) المانقير: هي قلعة شاخة أحرقها ابن لاون خوفاً من صلاح الدين، انظر «الروضتين»: ٣/ ٥٥.

وفيها قدمت امرأةٌ إلى القاهرة عديمة اليدين، وكانت تكتبُ برِجْلَيْها كتابةً حسنة، فحصل لها مالٌ جزيل [من الملوك والخواتين، فقال العماد الكاتب](١): [من السريع]

أُخملتُ في مِصْرَ ومن يلتمسْ غِناه في غُربته يَخْمُلِ

كتابتي قد كَسَدَتْ سوقُها وحِلْيتي بارت ولم أعطلِ

كيفَ يبينُ الفَضْلُ في بلدةٍ نساؤها يكتبْنَ بالأَرْجُلِ

وحجَّ من العراق طاشْتِكِين، ومن الشَّام سيف الدين علي المَشْطوب.

[وفيها توفي

أحمد بن محمد بن أحمد(٢)

أبو المظفر بن حمدي، البغدادي.

ولد سنة عشر وخمس مئة في شعبان، وسمع الحديث الكثير ورواه، وبنى مسجداً ببغداد في درب الرياحين، وهو قائم إلى هلم جرا، وتوفي بالمخزن محبوساً بعدما ذهب بصره، ودفن بباب حرب، سمع أبا القاسم بن الحصين وغيره، وسمع ابن السمرقندي وقاضي المرستان، وكان صالحاً ثقة](١).

وفيها توفي

أحمد بن محمد(٣)

ابن أحمد بن [إبراهيم ابن](١) سِلَفة، أبو طاهر الحافظ، السِّلَفي الأَصْفهاني، [وسلفة لقب جده أحمد، وبه كان يعرف](١).

ولد سنة سبعين وأربع مئة، وطاف الدُّنيا، ولقي الشُّيوخ، وكان يمشي حافياً لطلب الحديث، وقدم بغداد سنة خمس مئة، وسَمِعَ من شيوخها، [وقال الحافظ ابن

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ١٧١ـ١٧٢، و«معرفة القراء الكبار»: ٣/ ١٠٨٦ـ١٠٨٧، و«الوافي بالوفيات»: ٦/ ٢٢٨ـ٢٢٩، و«توضيح المشتبه»: ٢/ ٣٩٨، وفيها: أحمد بن أحمد بن محمد، وهو الصواب.

(٣) له ترجمة في «الأنساب»: ٧/ ١٠٥ـ١٠٦، «تاريخ ابن عساكر» (خ): ٢/ ٩٩ـ١٠٠، و«الكامل»: لابن الأثير»: ١١/ ٤٦٩، «الروضتين»: ٢/ ٤٤٨ـ٤٤٩، ٣/ ٥٤، «وفيات الأعيان»: ١/ ١٠٥ـ١٠٧، «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥ـ٣٩، «وطبقات علماء الحديث»: ٤/ ٧٢ـ٧٧، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

عساكر:](١) وقدم دمشق سنة تسع وخمس مئة، وأقام بها مدَّة، وكَتَبَ عن جماعةٍ من شيوخها، ثم قَدِمَ مِصْر، وسمع بها، وسكن الإسكندرية، واستوطنها، وتزوَّج امرأةً ذات يسار، فحصلت له ثروة بعد فَقْر، وبنى له بها العادل عليُّ بن [إسحاق بن](١) السَّلَّار مدرسةً، ووقَفَ عليها وقفاً، وكانت له حرمة عظيمة بها(٢).

وكان صلاحُ الدِّين وإخوته يزورونه، ويسمعون عليه الحديث، وتوفي يوم الجمعة خامس ربيع الآخر، ودُفِنَ داخل الإسكندرية داخل الباب الأخضر بمقابر وَعْلة، وقد جاوز المئة بخمس سنين، وجوارحه بحالها، وألحق الصِّغار بالكبار، ورحل إليه الطَّلبة من البلاد، وكان حافظاً مُتْقناً، دَيِّناً، صدوقاً، ثقةً، سمع خَلْقاً كثيراً، وحدَّث عنهم.

ومن شعره: [من الخفيف]

إنَّ عِلْمَ الحديثِ عِلْمُ رجالٍ ... تركوا الابتداعَ للاتِّباعِ
فإذا الليل جَنَّهم كتبوه ... فإذا أصبحوا غَدَوْا للسَّماعِ

وقال: [من مجزوء الكامل]

قد قلتُ إذْ رفَعَ الصَّبا ... حُ ذيولَ ليلِ الوَصْلِ عَنَّا
يا ليتَ هذا الليلَ دا ... مَ الدَّهْرَ للصَّبِّ المُعَنَّى
فالليلُ أَسْتَرُ للمتيَّـ ... ـمِ والصَّباحُ عليه أجنى

وقال: [من الرمل]

أنا إنْ بانَ شبابي ومضى ... فلربي الحَمْدُ ذهني حاضرُ
ولئن خفَّتْ وجفَّت أَعْظُمي ... كِبَراً غُصْنُ علومي ناضِرُ

ومدحه ابن قلاقس، فقال: [من الكامل]

وموطَّأ الأكنافِ قد نَسَجَ التُّقى ... ثوباً فأفرغه على جَنَباته
يا حافظاً يطوي صباحَ علومِهِ ... ما مدَّ ليلُ الجهلِ من ظُلُماتِهِ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) انظر «تاريخ ابن عساكر» (خ): ٢/ ٩٩.

تُوران شاه الملك المُعَظَّم(١)

شمس الدولة، فخر الدِّين، أخو صلاح الدين لأبيه، وكان أكبر من صلاح الدين، [(٢)وقد ذكرنا أخباره، وأنه دخل إلى اليمن، وأخذ بعلبك، وكان جواداً سمحاً، حسن الأخلاق، إلا أنه كان في نفسه من الملك، ويرى أنه أحق به] من صلاح الدِّين، و[كانت](٣) تبدو منه كلماتٌ في حال سُكْره، وتبلغ صلاح الدين، فأبعده عنه إلى اليمن، فسفك الدِّماء، وقَتَلَ الأماثل، وأخذَ الأموال، ولم تطب له، [وكان في قلبه من ملك الشام](٣)، فعاد إلى الشّام على مضضٍ من صلاح الدين، فأعطاه بعلبك، [فبلغ صلاح الدين](٤) عنه أشياء [فخاف منه](٣)، فأبعده [عنه](٣) إلى الإسكندرية، فأقام بها منعكفاً على لهوه ولعبه ولذَّاته، ولم يحضر حروب أخيه، وتوفي بالإسكندرية في هذه السنة، فأرسلت أُخته ستُّ الشَّام [وكانت شقيقته](٣)، فحملته في تابوت إلى دمشق، فدفنته في تُرْبتها التي أنشأتها عند العوينة على الشَّرف الشمالي، وبنت عليه القُبَّة، وبهذه التربة ولدها حسام الدين [بن](٣) لاجين، وزوجها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، [ودفنت هي بعد الكل، وسنذكرها](٥).

[فصل: وفيها توفي

سعيد بن عبد الله بن القاسم(٦)

أخو كمال الدين بن الشَّهرُزُوْري قاضي الشام، وهذا أصغر إخوة كمال الدين.

---

(١) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر «الروضتين»: ٣/ ٦٣ـ٦٥، و«وفيات الأعيان»: ١/ ٣٠٦ـ٣٠٩، «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥٣ـ٥٤، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٢٨.
وتورانشاه يعني ملك الشرق، انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٣٠٩.

(٢) في (ح): وكان أكبر من صلاح الدين، وفي نفسه من الملك يرى أنه أحق به، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (ح): فبلغه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في (ح): وكان تورانشاه جواداً سمحاً حسن الأخلاق. قلت: وقد آثرنا حذفها لتكرارها فيما جاء في أول الترجمة من (م) و(ش).

(٦) له ترجمة في «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٩٢.

ولد سنة ست وخمس مئة، وكنيته أبو الرضا، قدم بغداد، وتفقه بها، وسمع شيوخها، وخرج إلى خراسان، فأقام عند محمد بن يحيى النيسابوري مدَّة، فكان يحترمه ويقول: هذا من بيت الرِّياسة والفضل. ثم عاد إلى الموصل، وقد برع وصار أوجه أهل بيته.

وقدم رسولاً من الموصل إلى بغداد مراراً، وتوفي بالموصل.

سمع ببغداد قاضي المَرَسْتان وطبقته، وحدَّث ببغداد لما عاد من خراسان عن زاهر ابن طاهر الشَّحَّامي وغيره، وكان ثقة جليلاً](1).

غازي بن مودود(2)

ابن زَنْكي بن آق سُنْقُر؛ سيف الدين صاحب المَوْصل، كان من أحسن النَّاس صورةً، عاقلاً وقوراً غيوراً، ما كان يدعُ خادماً بالغاً يَدْخُل على حُرَمه، طاهرَ اللِّسان، عفيفاً عن أموال النَّاس، قليلَ السَّفْك للدماء مع شُحٍّ كان فيه.

[وقال المجد ابن الأثير:](1) وكان قد عَلِقَ به سلٌّ، وطالت عِلَّتُه، وأجدبت البلادُ قبل موته، وخرج النَّاس يستسقون وهو معهم، فاستغاث إليه النَّاس، وقالوا: كيف يُستجاب لنا والخمور والخواطىء والمظالم بيننا؟! فقال: قد أبطَلْتُها، ورجعوا إلى البلد وفيهم رجلٌ صالح يقال له: أبو الفرج الدَّقَّاق، فأَهْراق الخمور لا غير، ونَهَبَ العوام دكاكينَ الخَمَّارين، فاستدعي الدَّقَّاق إلى القلعة، وقيل له: أنت جَرَّأْتَ العوام على السُّلْطان، فَضُرِبَ على رأسه، فانكشف رأسه، وأطلق، فنزل مكشوفَ الرأس، فقيل له: غَطِّ رأسك، فقال: والله لا أُغَطِّيه حتى ينتقمَ الله لي ممن ظَلَمني، فماتَ الدُّزْدار والذي ضربه بعد قليل، ومرض سيف الدِّين، وتوفي.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر «الباهر»: ١٨٠، و«الروضتين»: ٣/ ٦٠-٦١، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٤-٥، و«مفرج الكروب»: ١/ ١٩٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥٤-٥٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

ذِكْرُ حكايته مع الشَّيخ أبي أحمد بن الحدّاد الزَّاهد:

كان أبو أحمد قد انقطع في قريةٍ من بلد المَوْصل يقال لها: الفضلية، ومنها أصله، وهي على فراسخ من الموصل، [(١)حدَّثني أبو بكر القديمي وإسماعيل الشعار ـ وكانا قد صحبا الشيخ أبا أحمد ـ قالا: كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد]، فقال له يوماً: يا سيف الدين، أيُّ فائدةٍ في زيارتك لي وأنت تشرب الخمر وتبيح المحرمات وتمكس المُسْلمين؟! فإنْ كنتَ تدع هذا، وإلا فلا تجيء إلى عندي. فقال: يا سيدي، أنا تائبٌ إلى الله من جميع ما قلتَ. وتَرَكَ الجميع، وأقام شهراً، فتحدَّث عليه قُرناء السُّوء، قالوا: هذا مالٌ عظيم، فأعاد الجميع، ورجع إلى ما كان عليه، [وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من يجيء من دمشق قال: فبينما نحن عنده ذات يوم](٢) إذا سيفُ الدِّين قد أقبل، وصَعِدَ على الدَّرج، وكان عند الشيخ صاحبه أبو بكر القُدَيمي، فقال له: أغلقِ البابَ في وَجْهه، وقُلْ له: مالك عندي شغل، وادْفعْه إلى أسفل الدرج. قال أبو بكر القُدَيمي: فخرجتُ، فاستحييتُ منه، فقال لي سيفُ الدين: [يا شيخ](٣)، افعل بي ما أمرك الشيخ. وأدار ظهره إليَّ، فدفعتُ في ظهره حتى أنزلته إلى أسفل الدَّرج [وقعد يبكي](٣)، وصاح الجُنْد بأَسْرهم، فأَشار إليهم؛ أنِ اسْكُنوا، ثم قال لي: يا شيخ أبا بكر، اصعدْ إلى الشيخ، وقل له: فما لي توبة؟ [قال](٣): فصعدت إليه، وأخبرته، فقال: يجوز، ائذن له. فخرجتُ إليه وقلتُ: بسم الله، فدخل على الشيخ، فبكى وقبَّل يده، وتاب إلى الله تعالى، وعاد إلى المَوْصل، فأقام مُدَّةً يسيرة، ومات يوم الأحد ثالث صفر ولم يبلغ ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشرَ سنين وشهوراً.

وأراد أن يعهد إلى ولده سنجرشاه، فامتنع أخوه عِزُّ الدين مسعود من ذلك، وقال له مجاهد الدين قيماز وأكابر الأمراء: قد علمتَ استيلاءَ صلاحِ الدين على البلاد وقُرْبه منا، وسنجرشاه صبيٌّ لا رأيَ له، وأخوك عِزُّ الدين كبيرُ السن، صاحب رأي وشجاعة، فاعهدْ إليه، واجعَلْه وصيًّا على أولادك. ففعل.

---

(١) في (ح): وكان سيف الدين يزوره، فقال له يوماً، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): فبينا الشيخ ذات يوم، وإذا سيف الدين، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وكانت الرَّعية [قد](١) خافت عز الدين لإقدامه على سَفْك الدماء وحِدَّته، فلما ولي تغيَّرت أخلاقُه، فصار رفيقاً بالرَّعية، قريباً منهم، مُحْسِناً إليهم.

[(٢)ولما مات سيف الدين كان] صلاحُ الدِّين في حدود الرُّوم، فأرسل إليه مجاهدُ الدين قيماز [الفقيه](١) أبا شجاع ابن الدَّهَّان البغدادي يطلب منه أن يكون مع عِزِّ الدين كما كان مع أخيه سيف الدين، ويُبْقي عليه الجزيرة وما بيده من حَرَّان والرُّها والرَّقَّة والخابور ونَصِيبين وقاطع الفرات. فقال صلاحُ الدِّين: أما ما حلفتُ له عليه من بلاد المَوْصل فهو باقٍ على حاله، وأما ما ذكره من بلاد الجزيرة، فإنَّما كانت بيده من شفاعة الخليفة على شرط أن يقوي ثغورَ المُسْلمين بالمال والعساكر، أما الآن فالخليفة قد فوَّض أمرها إليَّ لأفعل فيها ما أراه من المصلحة.

مبارك بن علي(٣)

ابن الحسين بن الطَّبَّاخ، أبو محمد البغدادي، نزيل مكة، أقام بها أربعين سنة يَؤُمُّ النَّاس في الحطيم، لا يراه أحد في غير الحرم، ويعتمر كلَّ يوم، ويتعبَّد، لا يكلِّم أحداً، وتوفي بها في شوال، ودفن بالمعلَّى، [سمع أبا القاسم بن الحُصَيْن وطبقته](١)، وكان صالحاً ثِقَةً.

محمد بن محمد بن مواهب(٤)

أبو العِزّ، الأديب الفاضل.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): وكان صلاح الدين...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) له ترجمة في «العبر» للذهبي: ٤/ ٢٢٥، «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٤٦، و«العقد الثمين»: ٧/ ١١٩-١٢٠، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٥٣، و«توضيح المشتبه»: ٦/ ٣٥٥، و«المنهج الأحمد»: ٣/ ٢٨١ وفيه وفاته عندهم (٥٧٥هـ).

(٤) له ترجمة في «الخريدة» قسم شعراء العراق: مج ١/ ج ٣/ ٢٢٨-٢٥٥، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ٤٦-٤٧، و«إنباة الرواة»: ٣/ ٢١٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٨٢-٨٣، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ١١٩، و«الوافي بالوفيات»: ١/ ١٥٠، و«فوات الوفيات»: ٣/ ٢٣٨-٢٣٩، و«بغية الوعاة»: ١/ ٢٣٥-٢٣٦، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٥٧-٢٥٨.

ولد سنة أربع وتسعين وأربع مئة، وسمع الحديث، وكان شاعراً فاضلاً، توفي في شهر رمضان ببغداد، ومن شعره في المسترشد: [من البسيط]

قُلْ للإمامِ الذي إنعامُهُ نِعَمٌ ... وسَحُّ كَفَّيْه منه تخجلُ الدِّيَمُ
وبحرُهُ الجمُّ عَذْبٌ ماؤُه غدقٌ ... سَهْلُ الشَّرائعِ غَمْرٌ طيِّبٌ شَبِمُ
مسترشدٌ إنْ بدا فالبَدْرُ غُرَّتُهُ ... وإنْ يَقُلْ كَلِماً فالدُّرُّ ينتظمُ

السنة السابعة والسبعون وخمس مئة

فيها فُتِحَ رباط المأمونية [ببغداد، و][1] كان دار سُنْقُر المُسْتنجدي قُبض عليه، وأخذ منه من العين مئة ألف دينار، ومن المتاع والخيل والأثاث ما قيمته أكثر من ذلك، وعُمِلَتْ رباطاً للصُّوفية.

وفيها عاد صلاح الدين من دمشق إلى القاهرة، واستناب بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه، وخرج إبرنس الكَرَك يريد تيماء لينتهز الفُرْصة في الحجاز، ومعه الأدلاء من العرب، فخرج فَرُّخْشاه بعساكر الشَّام، فبلغ قريباً من تيماء، وبلغ البرنس، فرجع إلى الكَرَك، وأمر صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طُغْتكين بالمسير إلى اليمن، فأقام يتجهَّز.

وفيها توجَّه صلاح الدين إلى الإسكندرية، فخيم بظاهرها عند عمود السَّواري، وقال: نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف، فسمع عليه «موطأ مالك» [بروايته عن الطُّرْطُوشي][1]، فتمَّ له ولأولاده السَّماع، وكان واليها مجير الدِّين قراجا.

وفيها بعث السُّلْطان قراقوش إلى اليمن، فقبض على سيف الدولة مبارك بن كامل بن مُنْقذ، وطلب منه المال، وكان نائبَ شمس الدولة توران شاه، فبعث بالمال إلى العادل وتاج الملوك، وخواص صلاح الدين، فكلَّموه فيه، فأمر بإطلاقه، وحَمَلَ إلى صلاح الدين مئة ألف دينار، وكان أخوه حِطَّان بزَبيد، وابن الزَّنْجيلي باليمن، وجَرَت بينه وبين حِطَّان وقائع.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وكان بالمِزَّة خطيب يقال له: العَلَم، زوَّر على صلاح الدين خطًّا بزيادةِ جامكيته ووقف عليه فَرُّخْشاه، فعلم باطن الحال، فهمَّ بالإيقاعِ به، فهرب إلى القاهرة، واستجار بالسُّلْطان، فأجاره، وقال: ما أخيب قَصْدَك. وكَتَبَ له توقيعاً بما طلب.

وحج بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين.

وفيها توفي

الملك الصَّالح إسماعيل(١)

ابن نور الدين محمود بن زَنْكي، صاحبُ حلب، كان مرضه بالقُوْلَنج، بدأ به في تاسع رجب، [وذكر ابن الأثير في «تاريخه» أنه](٢) لما اشتدَّ به وضَعُفَ وَصَفَ له الأطباء قليلَ خَمْرٍ، فقال: لا أفعل حتى أسألَ الفقهاء، فسأل الشَّافعية فأفتوه بالجواز، وسأل العلاء الكاساني فأفتاه أيضاً، فلم يفعل، وقال: إن كان الله قد قرَّب أجلي، أيؤخره شُرْبُ الخمر؟ قال: لا. قال: فوالله لا لقيت الله وقد فَعَلْتُ ما حرَّم عليَّ. فمات، ولم يشربه(٣).

[قلت: أخطأ الكاساني، فإن الخمر لا يباح عند أبي حنيفة وجميع أصحابنا للتداوي، وكذا عند مالك وأحمد، وعند الشافعي يجوز للضرورة، وعندنا أن الله تعالى لم يجعل شفاء الأمة فيما حرَّمه عليها](٢).

ولما اشتدَّ به الألم أحضرَ الأُمراء واستحلفهم لعِزِّ الدين صاحب المَوْصل، فقيل له: لو أَوْصيتَ إلى ابنِ عَمِّك عماد الدين صاحب سِنْجار؛ فإنه صعلوكٌ ليس له غير سنجار، وهو تربيةُ أبيك، وزَوْج أختك، وشجاعٌ كريم، وعز الدين له من الفرات إلى هَمَذَان، فقال له: هذا لم يخفَ عني، ولكن قد علمتم استيلاءَ صلاحِ الدِّين على الشَّام ومِصْر واليمن، وعماد الدين لا يثبتُ له، وعِزُّ الدين له من العساكر والأموال، فهو

(١) سلفت أخباره في هذا الكتاب على السنين، وله ترجمة في «الروضتين»: ٣/ ٧٥_٨٠ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١١٠_١١٢ .

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) انظر «الباهر»: ١٨١_١٨٢ .

أقدرُ على حِفْظ حلب، وأثبت من عماد الدين، ومتى ذهبت حلب ذهب الجميع. فاستحسنوا قوله. وتوفي في الخامس والعشرين من رجب، ولم يبلغ عشرين سنة، وكانت أيامه ثماني سنين وشهوراً، وأقام الحلبيون النوح عليه والمآتم، وفرشوا الرَّماد في الأسواق، وأقاموا مُدَّة على ذلك [وجرى عليهم ما لم يجر على أحد](١)؛ لأنه كان صالحاً كما سُمِّي، عادلاً منصفاً، حَسَنَ السِّيرة، سلك أسلوب أبيه.

ذِكْرُ ما جرى بعد وفاته:

كان شاذبخت الخادم والي القلعة، فكَتَبَ إلى عز الدين مسعود يخبره، وكان تقيُّ الدِّين عمر بمَنْبِج، فسار عز الدين عَجِلاً، فقطعَ الفرات، فانهزمَ تقيُّ الدين إلى حماة، فأغلق أهلُها في وجهه الأبواب من جَوْره، وصاحوا: عِزّ الدين أتابك يا منصور، فلاطفهم.

وأما عِزُّ الدين فصَعِدَ قلعة حلب، واستولى على أموالها وذخائرها، وأحسن إلى الأمراء، فقالوا له: سِرْ بنا إلى دمشق وغيرها لنأخذها. وكان صلاح الدين بمصر، فقال: بيننا عهودٌ وأيمان ومواثيق لا يجوز العدولُ عنها. وأقام بحلب مدَّة، وعلم أنه لا طاقةَ له على حِفْظ المَوْصل والجزيرة وحلب، وأنَّ شوكة صلاح الدين قوية، فسار إلى الرَّقَّة، وراسل أخاه عماد الدين في تسليم سنجار وتعويضه عنها بحلب؛ لقُرْب سنجار من المَوْصل، وقيل: إنَّ عماد الدين سأله ذلك، وقال: إن لم تفعل أعطيتُ سنجار لصلاح الدِّين، فأجابه، وسلَّم إليه سنجار، وسار عماد الدين إلى حلب، وكان عز الدين لمَّا حصل في حلب يئسَ صلاحُ الدين منها(٢).

وقال ابن شدَّاد: لما أوصى الملك الصالح لعز الدين بحلب سار مجداً بعساكره خوفاً من السُّلْطان، فكان أول قادم إليها من أمرائه مظفر الدين بن زين الدين في شعبان، ووصل عِز الدين في آخر الشهر، وتزوج [عز الدين أم](٣) الملك الصَّالح في شوال، وأقام بقلعة حلب إلى سادس عشره، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام والموصل

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) انظر «الباهر»: ١٨٢ـ١٨٣، و«الكامل»: ١١/ ٤٧٣، ٤٩٦ـ٤٩٧.

(٣) في (ح): وتزوج امرأة الملك الصالح، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

[لملازمته الشام][(١)]، وألحَّ عليه الأُمراء في طلب الزِّيادات، ودلُّوا عليه لأنهم اختاروه، وضاق عَطَنُه، فسار إلى الرَّقَّة، واتَّفق مع أخيه عماد الدين صاحب سنجار، وتقايضا، ودخل عماد الدين إلى حلب في ثالث عشر المحرَّم سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة[(٢)].

وكتبَ صلاحُ الدِّين إلى الخليفة يستأذنه في الاستيلاء على حلب ويقول بأن الجماعة الأتابكية يسعَوْن في تفريق الكلمة، ويستنهضون الفرنج لقتال المسلمين، ويستعينون [علينا][(٣)] بالإسماعيلية، وأقام بمصر ينتظر الجواب.

عبد الرحمن بن محمد بن أبي السَّعادات[(٤)]

أبو البركات الأنباري النحوي، مصنِّف كتاب «الأسرار في علم العربية»، وكتاب «هداية الذاهب في معرفة المذاهب»، وغيرهما.

كان إماماً في كلِّ فنٍّ مع الزُّهْد والورع والعبادة، والصَّبر على الفَقْر مع القُدْرة، ولا يقبل بِرَّ أحد، وكان يحضر دعوة الخليفة في كلِّ سنة، فيبعث إليه بالخِلَع والذهب فيردُّ الجميع، وكان يَسْرُدُ الصَّوم، ويُفْطر على أيِّ شيء كان، وبابه مفتوح لطلاب العلم، لا يردُّ أحداً، وكان قد تفرَّد بعلم العربية، وشُدَّت إليه الرِّحال، ومازال على فقره وعبادته حتى توفي يوم الخميس ثامن عشر شعبان، ودفن بباب أبرز [عند أبي إسحاق الشيرازي، وخلت بغداد عن مثله][(١)].

عمر بن حموية[(٥)]

عماد الدين، والد شيخ الشيوخ صدر الدين وتاج الدين، وهو من ولد حموية بن علي الحاكم على خُراسان، أيام السَّامانية، وتوفي حموية سنة ثمانية عشرة وثلاث مئة.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٥ـ٥٦.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) له ترجمة في «الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤٧٧، و«إنباه الرواة»: ٢/ ١٦٩ـ١٧١، «وفيات الأعيان»: ٣/ ١٣٩ـ١٤٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١١٣ـ١١٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٥) هو عمر بن علي بن محمد بن حموية، له ذكر في «الروضتين»: ١/ ٣٦، ٢/ ٢٦٤، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٣٢، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٠، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٥٩. =

ولد عمر ببُجَيراباد من جُوين ليلة السبت العشرين من جُمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمس مئة، وقَدِمَ دمشق حاجًّا في زمن مجير الدِّين أَبَق، فأقام بها يسيراً، ثم عاد إلى خراسان، ثم قَدِمها سنة ثلاث وستين في أيَّام نور الدين محمود بن زَنْكي، وأقبل نورُ الدِّين عليه، وأحسن إليه، وسأله المُقام بالشَّام ليصل إلى الصُّوفية بدمشق وبَعْلَبَكّ وحِمْص وحماة وغيرها، ولما توفِّيَ نورُ الدِّين وملك البلادَ صلاحُ الدين أقام عمر على حاله منقطعاً إلى العبادة، لم يكن له بصلاح الدين أُنساً، ولا كان يغشاه، وكان بخانكاه الصُّميصاتي رجلٌ صوفي يعرف بتاج الدِّين مسعود البَنْدَهي، وهو الذي أوقفَ خزانة الكتب بالخانكاه، وكان يغشى صلاح الدين، فسأله يوماً عن عمر، وقال: أيش فيه؟ وما حاله؟ فقصَّر في وصفه، وقال: رجل صوفي في الماء والمحراب، فسكتَ صلاحُ الدِّين، وأقام مدَّة على حاله، واتَّفق وصول صدر الدين عبد الرَّحيم شيخ شيوخ بغداد إلى صلاح الدين رسولاً من الإمام النَّاصر، فنزل بخانكاه خاتون ظاهر دمشق، وبلغه انقطاع عماد الدين عمر، فأرسل إليه يسأله الاجتماع به ويعتذر عن قَصْده، فخرج إليه، فسأله عن حاله، فذكر له طرفاً من حديث البَنْدَهي، فقال: يزول هذا، وبينما هما في ذلك جاء صلاح الدين إلى شيخ الشيوخ، فقال شيخ الشيوخ لعماد الدين: لا تبرح من سَجَّادتي ولا تخرج عنها، وقام شيخ الشيوخ، والتقى صلاح الدين، ودخل وعماد الدِّين قاعدٌ على سجادة صدر الدين، فجلس إلى جانبه، وتأخر شيخ الشيوخ، ووقف في آخر الصُّفَّة، فقام صلاحُ الدين لقيامه، وقال: بسم الله، اجلس، فقال: لو جلس أحد من أجنادك في حضرتك بغير إذنك أما يكون قد أساء الأدب؟ قال: بلى. قال: فأنا من تلامذة هذا الشيخ عماد الدين ومن مريديه، فلا يسعني أَنْ أجلس بحضوره إلا بإذنه، فالتفتَ صلاحُ الدِّين إلى عمر، واعتذر إليه، وقال: نجتمع بخدمتك، ووالله ما عرفتُ مكانك وأصالتك. ولما انصرف صلاح الدين بعث إليه بقُماش وذهب وعِمامة مُذْهبة قيمتها ألف دينار، وترقَّت حاله عنده، وتأخر البَنْدَهي، وبان لصلاح الدين سوء مقصده.

= وكان لأسرة شيخ الشيوخ هذه دور مهم في الدولة الأيوبية. انظر دراسة عنها باسم «العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي» (أسرة شيخ الشيوخ) للدكتور حامد زيان، طبعت بالقاهرة، ونشرت عن دار الثقافة ١٩٧٨ .

ذِكْرُ وفاته:

كان ولده صدر الدين قد قدم من هَمَذَان إلى دمشق، فأقام عنده يسيراً، ثم بعثه إلى العجم ليوفي ديناً عليه، فخرج من دمشق، فمرض الشيخ عماد الدين، فردَّه من بعض الطريق، فأقام عنده أياماً، وتوفي عمر ليلة الاثنين ثالث عشرين رجب، ودفن بمقابر الصُّوفية في الشَّرف الأعلى.

سمع عماد الدين جَدَّه محمد بن عمر بن حمُّوية وغيره، وتفقَّه على محمد بن يحيى وغيره، وسلك طريقة الزُّهْد والتصوف، وكان خروجه من خُراسان في فتنة الغُزّ أيام السلطان سنجر، فأقام بهمذان، وبنيت له بها الرُّبُط، وصنَّف الأمالي والرَّقائق، وكان عارفاً بالحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك، ولما توفي فوَّض صلاحُ الدِّين إمرة المشيخة إلى ولده صدر الدين، وماتَ صلاح الدين وارتفعت منزلته عند العادل، وسنذكره إنْ شاء الله تعالى.

يحيى بن نجاح[1]

أبو البركات، المؤدِّب البغدادي.

من شعره يمدح المستضيء: [من الخفيف]

أخيالٌ لطَيْفِ سُعْدَى يزورُ ... أم كذا في الظَّلام تَسْرِي البُدُورُ
طَرَقَ الرَّكْبُ مَوْهِناً فاهْتَدَى مَنْ ... كان عن منهجِ السَّبيل يجورُ
عَبِقَتْ نفحةُ النَّسيمِ بريَّا ... ه ففاحتْ كما يفوحُ العبيرُ
مَنْ عَذِيري من لائم في هواه ... وَهْوَ في تَرْكِ لومه معذورُ
يتجنَّى عليَّ تِيْهاً ولم أَجْـ ... ـنِ ويجني وذنبُه مغفورُ
وعَذَابُ المُحِبِّ يَعْذُبُ في الحُبِّ ... ويلتذُّ بالهوى المهجورُ
يا له من هوًى يقيمُ له ما ... بين جنبيَّ منزلٌ مَعْمُورُ
ما على اللَّائمِ المعنِّف لو أَقْـ ... ـصَرَ عني والعاذلون كثيرُ

(١) هو يحيى بن نجاح بن مسعود بن عبد الله اليوسفي البغدادي،.له ترجمة في: «خريدة القصر»: قسم شعراء العراق: مج ٣/ج ٣/ ٣٣٣ـ٣٤٢، وذكره ابن الجوزي في «المنتظم»: ١٠/ ٢٤٩ في وفيات سنة (٥٦٩هـ).

سوف أثني عِنانَه[١] عن ملامي بمقالٍ حقٍّ إليه يَصيرُ
بمديحِ المَوْلى الإمامِ الذي قد ملأ الأرضَ عدلُه الموفورُ
لم يَزَلْ منذ حَلَّ في المهد يعلو ه إلى اليوم في الخِلافة نورُ
ثم وافَتْه تنجلي فتلقَّا ها بوجهٍ هو الصَّباحُ المنيرُ
فأضاءَتْ بالمُسْتضيء نواحي الـ أرضِ إذْ قام وانجلى الدَّيجورُ
أنتَ يا ابن القُروم من آل عبَّا سٍ أمينٌ للمؤمنينَ أميرُ[٢]

السَّنة الثامنة والسبعون وخمس مئة

في المحرَّم سار سيف الإسلام طُغْتِكِين إلى اليمن، فنزل زَبيد وبها حِطَّان، فأمره أن يسير إلى الشَّام، فجمع أمواله وذخائره وأسبابه، ونزل بظاهر زبيد، فَقَبَضَ عليه سيفُ الإسلام، وأخذَ جميعَ ما كان معه، وقيمته ألف ألف دينار، ثم قتله بعد ذلك، وكان عثمان الزَّنْجيلي بعدَن، فلما بلغه ذلك سار يطلب الشَّام بعد أن أثر باليمن آثاراً كثيرة، ووقف الأوقاف، وله مدرسةٌ بمكة، ورباطٌ بالمدينة وغيرها.

وفي خامس المحرَّم خرج صلاحُ الدّين من مِصْر، فنزل البركة[٣] قاصداً الشَّام، وخرج أعيانُ الدَّولة لوداعه، وأنشده الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم:

تَمَتَّعْ من شميمِ عَرَارِ نَجْدٍ فما بَعْدَ العَشِيَّة من عَرَارِ[٤]

فطلب القائل، فلم يوجد، فوجم السُّلْطان، وتطيَّر الحاضرون، فكان كما قال، اشتغل السُّلْطان بالشرق والفرنج، ولم يَعُدْ بعدها إلى مِصْر.

---

(١) في (ح): «ملامه»، والمثبت من «الخريدة».
(٢) الأبيات في «خريدة القصر»: مج ١ ج٣/ ٣٣٤-٣٣٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٣) أي بركة الجب.
(٤) قائل ذلك أحد مؤدبي أولاده كما ذكر ذلك العماد، ونقله عنه أبو شامة في «الروضتين»: ٣/ ١٠٤ .
والبيت للشاعر الصمة بن عبد الله القشيري، وهو شاعر غزل، توفي نحو (٩٥هـ)، وهو من أبيات اختارها أبو تمام في حماسته. انظر «شرح المرزوقي»: ٣/ ١٢٤٠-١٢٤٤ .

وسار السُّلْطان على أَيْلَة والحسا ووادي موسى، وكان فَرُّخْشاه بدمشق فبلغه أَنَّ الفرنج قد اجتمعوا عند الكَرَك لقَصْد السُّلْطان، فخرج من دمشق، فنزل طبرية وعكا [ودَبُّورية](١)، فقصدوه، فالتقاهم فكسرهم، وقَتَلَ منهم ألوفاً، وأَسَرَ وساق عشرين ألفاً من الأنعام وغيرها، وفتح حِصْن جلدك، وهو على شقيفٍ مُشْرف على السواد، وقتل مَنْ فيه، وأسكنه المسلمين، وجعلهم طلائع، وساق إلى بُصْرى، فالتقى السُّلْطان عندها، فَسُرَّ به، ودخلا دمشق في صفر.

وكان مُظَفَّر الدين صاحب حَرَّان مقيماً بحلب، وقد استشعر من عِزِّ الدِّين مسعود، فكاتب السُّلْطان وانتمى إليه، وخَرَجَ السُّلْطان من دمشق، ونزل حماة، وجاء مظفَّر الدين، واجتمع به، وسَهَّلَ عليه عبورَ الفُرات، وأَخْذَ الجزيرة، وأَنَّه لا يتعرَّض لحلب؛ لئلا يشغله عن غيرها وأنها في يده، واستصوب رأيه، وعبر الفرات، ونزل على ألبيرة، وكاتَبَ ملوك الشرق بالوفود عليه، فمنْ جاء مُسْتسلماً سُلِّمَتْ له بلاده على أن يساعده على الفرنج، فجاءه قُطْبُ الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أُرْتُق صاحب مارِدِين، فالتقاه وسُرَّ به؛ لأَنَّه أَوَّلُ من جاءه، ثم وصل نورُ الدِّين محمد بن قرا رسلان بن أُرْتُق صاحب حِصْن كيفا، فدخل في طاعته على أن يساعده على تخليص آمِد، ثم سار السُّلْطان من ألبيرة بعد أن أخذها، وأقطعها لشهاب الدِّين محمد الأُرْتُقي، ونزل على الرُّها، وبها فخر الدِّين مسعود الزَّعْفراني، فضايقها مُدَّة، فعَجَزَ مسعود عن مقاومته، فسلَّمها إليه بالأمان، فسلَّمها إلى مظفر الدين مضافةً إلى ما كان بيده من حَرَّان وأعمالها، ثم سار إلى الرَّقَّة، وبها قطب الدين ينال بن حَسَّان صاحب منبج، فأَمَّنه، ثم استولى على الخابور ونَصِيبين، وولاها أبا الهيجاء السَّمين، وولى الخابور جمالَ الدِّين خُشترين، وله رسالة(٢) عز الدين صاحب الموصل، ولا التفتَ إليه، فسار إلى المَوْصل، فنازلها؛ نزل السُّلْطان على الباب العمادي، وأخوه تاج الملوك على باب الجسر، وتقيُّ الدين عمر من ناحية الشرق، وتولى مجاهد الدين قيماز حِفْظَ البلد، فأحسنَ القيام، وبعث عِزُّ الدين مسعود إلى الخليفة يطلب الشَّفاعة

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) كذا في (ح)، ويبدو أن فيها سقطاً، لم أهتد إليه.

إلى صلاح الدين، فبعثَ الخليفةُ شيخَ الشيوخ عبد الرحيم يأمر السُّلْطان بالرَّحيل على أن يعودَ عز الدين إلى الموافقة، ويعاونه على جهاد الفرنج، فقال العماد الكاتب: [من الكامل]

شيخُ الشيوخ أتى ليصلحَ بيننا أيظُنُّ أنَّا في رِباط الزَّوْزَني

وأقام السُّلْطان على المَوْصل أربعين يوماً، ورآه بلداً عظيماً، وفيه العساكر، وأنَّه لا يحصل منه بالحصار غرض حتى يؤخذ ما حوله من القلاع، ويضعف بطول الزَّمان، فرحل ومعه رسول الخليفة، فنزل على سِنْجار في شعبان، وكان نزوله على المَوْصل عاشر رجب، وكان بسنجار شرف الدين بن قطب الدين، فضربها بالمجانيق، فانهدَّ من السور ثُلْمة، فخاف شرف الدين، فطلب الأمان، فأَمَّنه، فخرج بأهله وأمواله وأسبابه إلى الموصل، وأعطى سنجار لتقي الدِّين عمر، وكانت الرياسة فيها لبني يعقوب، فأبقاهم على ما هم عليه، وولَّى القضاء نظام الدين نَصْر بن المُظَفَّر بن محمد بن يعقوب.

ثم رحل إلى حَرَّان، وعادتِ العساكر الدِّياربكرية إلى مراكزها، وشيخ الشيوخ إلى بغداد، وأقام على حرَّان.

وفيها كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج؛ خرج إبرنس الكَرَك إلى أَيْلَة، فأقام بها ومعه الأخشاب على الجمال والصُّنَّاع، فعمل المراكب، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في البحر، فلما تَمَّ عملها ركب فيها، ووصل إلى عَيْذاب في بحر القُلْزُم، فأخذ مراكبَ التجَّار، ونَهَبَ وقتل وأسر، وسار يريد جُدَّة، وبلغ الخبر إلى العادل أخي السُّلْطان، فأمر حسام الدين لؤلؤ الحاجب، فركب في بحر القُلْزُم، وسار خَلْفهم وساعدته الرِّيح، فأَدْركهم وقد أشرفوا على مدينة النَّبيِّ ﷺ، فهربَ بعضُهم في البَرّ، وأَسَرَ الباقين، فأخذ مئة وسبعين أسيراً، وخلَّص أموال التجار، وردَّها عليهم، واستولى على مراكبهم، وعاد إلى القاهرة، وكتبوا إلى السلطان بذلك، فقال: تُضْرب رقاب الأسرى، بعضُهم بالقاهرة، وبعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، ففعلوا.

وكتب [القاضي][(١)] الفاضل إلى الخليفة كتاباً في [هذا][(١)] المعنى، منه: وكان الفرنجُ قد ركبوا من الأمر نُكْراً، وافتضُّوا من البحر بِكْراً، وعمروا مراكب شحنوها بالمقاتلة والأَزْواد، وضربوا بها سواحل تِهامة، وأوغلوا في البلاد، وما ظنَّ المسلمون إلا أنَّ الساعة قد نُشِرَ مطويُّ أشراطها، وطُوِيَ منشورُ بساطها، فثار غضبُ الله لفناء بيته المحرَّم، ومقام أنبيائه المعظَّم، وضريح نبيه المفخَّم ﷺ، ورجوا من فَضْل الله آيةً كآية البيت إذْ قصده أصحابُ الفيل، ووكلوا الأمور إلى الله، فكان حَسْبُهم ونِعْمَ الوكيل، فلم يُبْقِ الله من العدوِّ مُخبِّراً ولا أَثَراً ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: ٧١].

وفيها قَصَدَ ملوكُ الشَّرْق السُّلْطان، وهو على حران، جاءه ظهير الدين سكمان شاه أرمن صاحب خلاط، وهو خال صاحب ماردين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش، وصاحبُ مارِدِين هذا هو خال عِزِّ الدين مسعود صاحب المَوْصل، وسيف الدين بَكْتَمُر غلام صاحب خِلاط، وكان شاه أرمن قد بَعَثَ إلى السُّلْطان يشفع في المواصلة، فلم يقبل منه، فجاء شاه أرمن، فنزل على حَرْزم بدُنَيْسر، وخَرَجَ إليه عِزُّ الدين من المَوْصل بعساكره وعسكر حلب، وكان عسكر مِصْر قد وصل منه إلى السُّلْطان خمسة آلاف، فساق إلى رأس العين، فنزلها، فتفرَّقوا، ورجع كلٌّ واحدٍ إلى بلاده.

وسار السُّلْطان إلى آمِد، وبها محمود بن إيكلدي، وقد حكم عليه رئيسها مسعود بن علي بن نَيْسان، وكان السُّلْطان قد وَعَدَ بها نورَ الدين محمد بن قرا رسلان على ما تقدَّم، فنصب عليها المجانيق، ولم يبق إلا فتحها، فخرج إليه العقائل من نساء ابن إيكلدي وابن نَيْسان يسألونه المُهْلة أياماً، فأمهلهم.

وفيها قبض الجُنْدُ الذين كانوا بقلعة حارم على سرخك واليها، وأخرجوه منها، ونادوا بشعار السُّلْطان، وبعثوا إليه يسألونه تسلُّمها، فأرسل إليهم من تسلَّمها.

وحج بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها توفي

أحمد بن علي بن أحمد[١]

أبو العَبَّاس ابن الرِّفاعي، شيخ البطائحيين، كان يسكن أم عَبِيْدة[٢]، وكان له كراماتٌ ومقامات، وأصحابه [على ما بلغني][٣] يركبون السِّباع، ويلعبون بالحَيَّات[٤]، ويتسلَّق أحدهم في أطول النَّخل، ثم يُلْقي نفسه إلى الأرض ولا يتألَّم، ويجتمع عنده كلّ سنة في المواسم خَلْقٌ عظيم.

قال المصنِّف رحمه الله: حكى لي بعضُ أشياخنا قال: حَضَرْتُ عنده ليلة نصف شعبان، وعنده نحو مئة ألف إنسان، قال: فقلتُ له: هذا جمع عظيم، فقال: حُشِرْتُ محشرَ هامان إنْ خَطَرَ ببالي أني مقدَّم هذا الجمع. وكان متواضعاً، سليمَ الصَّدْر، مجرَّداً من الدُّنيا، وما ادَّخر شيئاً قط.

[[٥]وحكى لي بعضُ أصحابه أنه رآه] في المنام في مقعد صِدْقٍ مراراً، ولم يخبره، وكان للشيخ أحمد امرأةٌ بذيئة اللسان، تَسْفَهُ عليه وتؤذيه، فدخل عليه الذي رآه في مقعد صدق يوماً وبيد امرأته مِحْراكُ التَّنُّور، وهي تضربه على أكتافه، فاسودَّ ثوبه وهو ساكت، فانزعج الرجل، وخرج من عنده، فاجتمع بأصحاب الشيخ، وقال: يا قوم، يجري على هذا الشيخ من هذه المرأة هذا وأنتم سكوت؟! فقال بعضهم: [مهرها ثقيل، قال: ما مهرها؟ قال:][٣] مهرها خمس مئة دينار، وهو فقير. فمضى الرجل، وجَمَعَ خمس مئة دينار، وجاء بها إلى الشيخ في صينية، فوضعها بين يديه، فقال: ما هذا؟ قال: مهر هذه السَّفيهة التي فعلت بك كذا وكذا. فتبسَّم، وقال: لولا صبري على ضَرْبها ولسانها ما رأيتني في مقعد صِدْق.

---

(١) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٤٩٢، و«وفيات الأعيان»: ١/ ١٧١-١٧٢، و«الوافي بالوفيات»: ٧/ ٢١٩، و«العبر» الذهبي: ٤/ ٢٣٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٧٧-٨٠، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) هي قرية، وقد ضبطها كذلك ابن خلكان في وفياته: ١/ ١٧٢.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) قال الذهبي في «العبر»: «ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا لا عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان».

(٥) في (ح): ورآه بعض أصحابه في المنام، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وكراماته أكثر من أن تحصى، وكان سببُ وفاته أنَّ عبد الغني محمد بن نُقْطة الزَّاهد مضى إلى زيارته، فأنشده أبياتاً منها: [من الطويل]

إذا جَنَّ ليلي هامَ قَلْبي بذِكْرِكُمْ أنوحُ كما ناح الحَمَامُ المطوَّقُ
وفوقي سحابٌ يُمْطِرُ الهمَّ والأسى وتحتي بحارٌ بالأسى تتدفَّقُ
سلوا أُمَّ عمرٍو كيفَ باتَ أسيرُها تُفَكُّ الأُسارى دونه وهو مُوْثَقُ
فلا أنا مقتولٌ ففي القَتْلِ راحةٌ ولا أنا ممنونٌ عليه فيعتقُ[١]

فبكى الشيخ ومرض، وكانت وفاته يوم الخميس ثاني عشر جُمادى الأُولى، وقد جاوز سبعين سنة.

الحسن بن هبة الله[٢]

ابن محمد بن علي بن المُطَّلب، أبو المُظَفَّر، فخر الدَّوْلة، وكان أبو المعالي وزيراً، وأخوه أبو المكارم علي أُستاذ الدار، وكان فخر الدولة فاضلاً سديدَ الرأي، يُسْتشار في الأمور الجسيمة، وكان كثيرَ الصدقات، متفقداً لأرباب البيوت، سخياً، ذا مروءة ظاهرة، وله ببغداد آثارٌ جميلة منها جامعه المعروف بجامع فخر الدولة غربي بغداد، غرم عليه أموالاً عظيمة. ومنها رباطه شرقيّ بغداد عند عقد المصطنع عند دار الذَّهب، ووقف عليها أوقافاً كثيرة، وكانت وفاته في شوال، ودُفِنَ بجامعه، وله شبَّاك يشرف على دِجْلة، وقد خرب بعضه باستيلاء دِجْلة عليه.

[قلت: قد رأيت هذا الجامع في سنة خمس وأربعين وست مئة، وقد استولت دجلة عليه، فأخربت بعضه، والظاهر أنها تخرب الباقي][٣].

(١) البيتان الأخيران لشبيب بن البرصاء كما في «الأغاني»: ١٢/ ٢٧٠، ويبدو أن عبد الغني ضمنهما هذه الأبيات مع تغيير في بعض ألفاظهما.
(٢) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٤٩١-٤٩٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٩٧-٩٨، وفيه تتمة مصادر ترجمته.
(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

فُرُّخْشاه بن شاهنشاه بن أيوب[1]

أبو سَعْد، عِزُّ الدين.

كان من الأماثل الأفاضل، كثيرَ الصَّدقات، متواضعاً، سخياً جَوَاداً، مِقْداماً، متنصِّلاً من المظالم، وكان عمُّه صلاح الدين قد استنابه بالشَّام.

وقال العماد: كان يفضل بالفضائل على أهله، ويغني السُّؤَّال عن الابتذال بكرم بَذْله، ومن أَخصِّ خواصه وذوي استخلاصه تاج الدين الكِنْدي علامة زمانه، وحَسَّان إحسانه، ووزير دَسْته ومشير [وقته، وجليس][2] أُنسه، وشعاع شَمْسه، وحبيبُ نفسه، وكان فَرُّخْشاه شاعراً فصيحاً [[3]قال العماد: أنشدني في قلعة دمشق، ونحن بين يدي صلاح الدين هذه الأبيات]: [من الطويل]

إذا شئتَ أَنْ تُعْطي الأمورَ حقوقَها ... وتوقعَ حُكْمَ العَدْلِ أحسنَ مَوْقعِهْ
فلا تَصْنَعِ المعروفَ مَعْ غيرِ أهله ... فظُلْمُكَ وَضْعُ الشَّيء في غير مَوْضِعِهْ[4]

وقال: [من الخفيف]

كلَّ يومٍ يسعى إلى المُلْكِ قومٌ ... في ازديادٍ وعُمْرهُمْ في انتقاصِ
شَرَكٌ هذه الأماني فيا لـ ... لَّهِ كَمْ واقعٍ بغير خلاصِ

وقال: [من الرمل]

أَقْرَضُوني زمناً قُرْبَهُمْ ... واستعادوا بالنَّوى ما أَقْرَضُوا
أنا راضٍ بالذي يُرْضيهمُ ... ليتَ شِعْري بتلافي هل رضوا

وقال في وصف دمشق: [من الطويل]

دمشقُ سَقَاكَ الله صَوْبَ غمامةٍ ... فما غائبٌ عنها لديَّ رشيدُ
عسى مُسْعِدٌ لي أن أبيتَ بأَرْضها ... على أنني لو صحَّ لي لسعيدُ

---

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١١٣-١٣٣، و«الكامل»: ١١/ ٤٩١، و«كتاب الروضتين»: ٣/ ١٢٦-١٣٣، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٥٢-٤٥٣، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٣.

(٢) ما بين حاصرتين من «الروضتين»: ٣/ ١٢٩.

(٣) في (ح): «فمن شعره» والمثبت من (م) و(ش).

(٤) «الخريدة»: ١١٥.

[وله أشعار كثيرة مدونة، وكانت][(١)] وفاته بدمشق في جُمادى الأُولى، ودُفِنَ بقُبَّته على المَيْدَان في الشَّرف الشَّمالي، وكان [السُّلْطان][(٢)] قد عبر الفرات، فأبقى بَعْلَبَكّ على ولده الملك الأمجد بَهْرام شاه، وبعث شمس الدِّين ابن المقدَّم نائباً عنه بدمشق.

وللعماد الكاتب فيه عدة قصائد، منها: [من الكامل]

أَأَحِبَّتي إنْ غِبْتُ عنكُمْ فالهوى ... دانٍ لقلبٍ بالغرام مُوَلَّهِ
أما عُقودُ مدامعي فلقد وَهَتْ ... وأَبَتْ عقودُ الودِّ مني أَنْ تَهِي
لا تَنْهَني يا عاذلي فأنا الذي ... تَبِعَ الهوى وأتى بما عنه نُهِي
قد قُلْتُ للحادي وقد نادَيْتُهُ ... في مَهْمَهٍ أَقْصِرْ وَصَلْتَ مهٍ مَهِ

وهي ثمانون بيتاً[(٣)].

وقد عارَضَها الشَّيخ تاج الدين الكِنْدي، فقال من أبيات: [من الكامل]

هل أنتَ راحمُ عَبْرَتي وتولُّهي ... ومجيرُ صَبٍّ عند مَأْمَنِهِ دُهي
مَنْ بَلَّ من داءِ الغرام فإنني ... مُذْ حَلَّ بي مرض الهوى لم أَنْقَهِ
يا مُفْرداً في الحُسْن إنَّك منتهٍ ... فيه كما أنا في الصَّبابة منتهي
قد لامَ فيك معاشرٌ أفأنتهي ... باللَّوْم عن حُبِّ الحياة وأنتَ هي

قال المصنِّف رحمه الله: وأنشدني المهذَّب أبو الدُّرِّ الرُّومي[(٤)] سنة ستٍّ وتسعين وخمس مئة أبياتاً منها[(٥)]: [من الكامل]

أتظُنُّني أَسْلُو هواكَ وأنتَ هي ... عن حُبَّةٍ تحيي النّفوس وأنتَ هي
بَرِحَ الخَفَاءُ وشاب صبري في الهوى ... ووهى، وها عزماتُ وَجْدي لم تهي
يا منتهٍ في حُسْنه وجماله ... فَرْداً كما أنا في الصَّبابة منتهي

---

(١) في (ح): وكان وفاته، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) انظر «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١١٩-١٢٨.

(٤) أبو الدر الرومي: هو ياقوت بن عبد الله، شاعر مشهور في ذلك العصر، كان من أهل النظامية، توفي سنة (٦٢٢هـ)، ترجمته في «السير»: ٢٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٥) كذا في (ح)، والأبيات هي لأبي الدر، فلعل «منها» محرفة عن: مثلها، والله أعلم.

إن لـم يـكـن لـمـحـبِّـك الـرومـيِّ فـي فِـعْـلِ الـوفـاءِ مـشـابـهٌ فَـتَـشَـبَّـهِ

مسعود بنُ محمد بن مسعود(١)

أبو المعالي، القُطْب النَّيْسابوري، الفقيه الشَّافعي.

ولد سنة خمسٍ وخمس مئة بنيسابور، [وأبوه من طُرَيْثيث](٢)، وتفقَّه [القطب بنيسابور](٢) وسمع الحديث، ودرَّس بنظامية نَيْسابور نيابةً عن ابن بنت الجُوَيْني.

وقد قَدِمَ دمشق سنة أربعين [وخمس مئة](٢)، ووعظ بها، وما كان الوعظ [من](٢) فنه، وحَضَرَ نورُ الدِّين محمود مجلسه(٣)، ودرَّس بالمجاهدية، ثم بالزَّاوية [الغربية في الجامع](٢) بعد وفاة نَصْر المقدسي، ثم سافر إلى حلب، ودرَّس بالمدرستين اللتين لنور الدين وأسد الدين، ثم عاد إلى دمشق، فحدَّث بها ودرَّس، وتوفي يوم عيد الفطر، وصُلِّي عليه بجامع دمشق، وكان يوماً مشهوداً، ودُفِنَ بمقابر الصوفية عند المُنَيْبع، [وتزوج الفخر ابن عساكر ابنته، وذكره الحافظ ابن عساكر وأثنى عليه، وقال:](٢) وكان حَسَنَ العِشْرة، كريمَ الأخلاق، متواضعاً، متردِّداً إلى النَّاس، قليلَ التصنُّع، [سمع بنيسابور من هبة الله بن سهل وغيره، ورأى أبا نصر القشيري والمشايخ، وكان صالحاً ثقة صدوقاً](٢).

ممدود الذهبي البغدادي(٤)

كان مجابَ الدَّعْوة، اتُّهم بسرقةٍ، فأُتي به إلى باب النُّوبي، ومُدَّ ليضرب، فرفع النَّقيب يده ليضربه، فيبست يده، فقال له حاجب الباب: مالك؟ فقال: قد يبست يدي، فرفعوه من الأرض، فعادت يدُه صحيحة، فمدَّده، وعاد النقيب ليضربه، فيبست يده، فعلوا به ذلك ثلاثَ مرَّات، فلما كان في الثَّالثة بكى حاجبُ الباب، وقام له، وأجلسه إلى جانبه، واعتذر إليه، وكتب إلى الخليفة، فأخبره بأمره، فأمر أن يحسن إليه.

---

(١) له ترجمة في «وفيات الأعيان»: ٥/ ١٩٦ ، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ١٩٠ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٠٦ـ١٠٩ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) كان ذلك حين قدومه دمشق زمن نور الدين سنة (٥٦٨هـ)، انظر «كتاب الروضتين»: ١/ ٤٣ ، ٢/ ٢٦٣ .

(٤) له ترجمة في «شذرات الذهب»: ٤/ ٢٦٣ .

هاشم بن المستضيء

أبو منصور، أخو الإمام النَّاصر، كان شاباً حسناً دَيِّناً، [وأشار ابن العطار بتوليه الخلافة، فلم يتمَّ له][١]، توفي في شعبان، ودفن عند أبيه [المستضيء][١].

يوسف بن عبد المؤمن بن علي[٢]

أبو يعقوب، صاحب المغرب، أمير الموحِّدين.

كان حَسَنَ السِّيرة، عادلاً دَيِّناً، ملازماً للصَّلوات الخمس، لابساً للصُّوف، مجاهداً في سبيل الله [[٣]واختلفوا في وفاته على قولين: أحدهما] أن ألفنش ملك طُلَيْطلة أغار على بلد الأندلس، فعدَّى إليه يوسف في مئتي ألف وثمانين ألفاً، ونزل على مدينة الفنش، فخامر عليه وزيره ابنُ المالِقي، فقال للعساكر: إنَّ أمير المؤمنين يأمركم أن تغدوا إلى مراكش، وهو واصلٌ خلفكم، فساروا، وبقي في نفرٍ يسير، فقال لابنِ المالقي: ما سبب هذا؟ قال: [إنهم] قد خامروا. وبعث [ابن المالقي][١] إلى الفنش يقول [له][١]: ما عنده أحد، فجاء [الفنش][١] في عساكره، فركب يوسف والتقاه، فَطُعِنَ في جَنْبه، فمات بعد يومين. [[٤]والثاني: أنه مرض ولم يقتل، ذكره عبد المنعم ابن حسان الأندلسي في «تاريخه»، وقال: وفي سنة ثمان وسبعين وخمس مئة جاز أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في جمع كبير، وحاصر مدينة يقال لها شنترين]، فأصابه مرض، فتوفي في ربيع الأول[٥]، وحمل إلى إشبيلية، وكانت إمارته اثنتين وعشرين سنة، وماتَ عن غير وصية، فأجمع رأي مشايخ الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تقديم ولده [أبي يوسف][١] يعقوب، فبايعوه.

وقيل: مات سنة ثمانين [وخمس مئة][١]، فكتم ولده يعقوب وفاته، ثم أظهرها، ولقب نفسه بالمنصور، [وسنذكره في سنة خمس وتسعين][١]، ولم يكن في بني عبد المؤمن مثل يعقوب [هذا، رحمة الله عليه][١].

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) ترجمته في «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمراكشي: ٣٠٩ وما بعدها، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٩٨.

(٣) في (ح): وسبب وفاته أن الفنش...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (ح): وقيل إنه حاصر مدينة شنترين، فأصابه مرض، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في (م) و(ش): «الآخر».

السَّنة التَّاسعة والسبعون وخمس مئة

في يوم الأحد عاشر المحرَّم تَسَلَّم السُّلْطان آمِد، ودخل إليها، وجلس في دار الإمارة، ثم سَلَّمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا رسلان، وكان وَعَدَه بها لما جاء إلى خدمته.

ذِكْرُ طرفٍ من أخبارها:

كان مدبِّرها قديماً مؤيَّد الدِّين عليَّ بن نيسان، وتوفِّي، فتولَّى أمرها ولدُه مسعود بن علي، وكان لآمد أميرٌ قديم يقال له: إيكلدي من أيام السَّلاطين القدماء، وكان شيخاً كبيراً، وله ولد اسمه محمد صغير، ومات إيكلدي وحكم مسعود على محمد، وكان [يظهر][1] أنَّه يحفظ عليه آمِد، وكان نورُ الدّين يدَّعي أنها أُخذت من أبيه قرا رسلان أو من جدِّه، وأقام أبوه قرا رسلان يحاصرها زماناً، فلم يقدر عليها، ومات بحسرتها، ولما أخذها صلاحُ الدِّين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن إيكلدي منها بأموالهما وحريمهما إلى المَوْصل، وأعانهما صلاحُ الدين بدوابّ تنقل بعض قماشهما، فحملا ما خَفَّ حمله، وعَجَزَا عن حمل كثيرٍ من الذَّخائر والأسلحة.

وكتَبَ الفاضل إلى الخليفة كتاباً في الفَتْح، منه: والخادم يتوقَّع في جواب هذا أن يُمَدَّ بجيشٍ هو الكلام، ورِماحٍ هي الأقلام، وليس ذلك لوسائل تقدَّمت من دولةٍ أقامها بعد مَيْلِ عروشها، ولا لدعوةٍ قام فيها بما تصاغَرَتْ دونه هِمَمُ جيوشها، بل لأن هذه الجزيرة الصَّغيرة منها تنبعث الجريرة الكبيرة، وهي دارُ الفُرْقة ومدار الشُّقَّة، ولو انتظمتْ في السِّلْك لانتظمَ جميعُ عسكر الإسلام في قتال أهل الشِّرْك، ولكان الكُفْرُ ينقلب على عقبيه، ويُلْقي بيديه، ويُغْزى من مِصْر براً وبحراً، [ومن الشام][2] سراً وجهراً، ومن الجزيرة مَدًّا وجَزْراً.

وفي المحرَّم عادَ السُّلْطان، فقطع الفرات قاصداً إلى حلب، واجتاز في طريقه بعين تاب، وبها ناصحُ الدِّين محمد بن خُمارتكين، فنزل إليه، وقام بالضِّيافة فأبقاها عليه، وجاءه ابنُ السَّاعاتي، فأنشده أبياتاً منها: [من البسيط]

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من «الروضتين»: ٣/ ١٥٥ يقتضيها السياق.

فانهضْ إلى حلب في كلِّ سابقة سُرُوْجُها قُلَلٌ تُغْني عن القُلَلِ
ما فَتْحُها غيرُ إقليدِ الممالك والدَّ اعي إليه جميعُ الخَلْقِ والمِلَلِ(١)

فنازل حلبَ في سادس عشرين المحرَّم، ونزل بالمَيْدان الأخضر، وباشر القتال بُكْرةً وعشياً، وزحف يوماً أخوه تاج الملوك بُوري، فجاء سهمٌ في عينه، فحُمِلَ مريضاً، فمات في الثَّالث والعشرين من صفر، ثم عَلِمَ عماد الدين زَنْكي أَنَّه لا طاقةَ له به، وضجَّ من اقتراح الأمراء عليه، فقال لحسام الدين طُمان: اخرج إلى صلاح الدين وسَلْه في الصُّلْح. [فخرج سراً، ولم يعلم به أحد، فقرر الصلح](٢) وأن يردَّ عليه سنجار وأعمالها والخابور ونصيبين، ويسلم إليه قلعة حلب، وعَلِمَ النَّاسُ، فأصبح الأمراء، فخرجوا إلى صلاح الدِّين، فخلع عليهم، وجَعَلَ أهل حلب تحت القلعة إجَّانة وثياباً وصابوناً، وصاحوا على عماد الدين: يا فاعل، يا صانع، انزل، فاغسلِ الثياب مثل المخانيث، ما يصلح لك غير هذا. وعملوا فيه الأشعار، [وغنوا بها في الأسواق](٢)، منها: [من المتقارب]

وبعتَ بسنجارَ خيرَ القِلاعِ ثَكِلْتُكَ من بائعٍ مشتري

[(٣)فلما كان اليوم الثالث والعشرين من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان، فحزن عليه حزناً عظيماً، وجلس للعزاء، ونزل إليه عماد الدين، فالتقاه السلطان، وأكرمه وأخدمه]، وقدَّم له الخيول العِتاق والتُّحَف الجليلة، وعاد [عماد الدين] إلى القلعة، وأقام السُّلْطان كئيباً حزيناً على أخيه، وكان يبكي ويقول: ما وَفَتْ حلب بشعرة من أخي. [وقيل: إنه قال: ما غلت حلب ببوري، والأول أليق بالسلطان، لأنه ما كان في البيت مثل بوري](٢).

(١) ديوان ابن الساعاتي: ٢/ ٣٨٢-٣٨٤.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) في (ح): ولما مات بوري حزن عليه السلطان وخدمه وأكرمه وقدم له...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وسار عمادُ الدِّين إلى سنجار من يومه، وأقام السُّلْطان بالمخيَّم غير مكترث بحلب لما جرى عليه من وفاة أخيه، ثم صَعِدَ إلى القلعة سَلْخ صفر، فأنشده ابن القاضي زكي الدين محمد بن علي القُرَشي قاضي [قضاة][(١)] دمشق أبياتاً، منها: [من البسيط]

وفتحكُمْ حلباً بالسَّيْفِ في صفرٍ مبشِّرٌ بفتوح القُدْس في رَجَبِ

[(٢)فعجب الناس من رمية من غير رام، فكان ـ كما قال ولكن بعد أربع سنين] ـ الذي خطب بالقُدْس لما فتحه السُّلْطان، وولى السلطان القضاء بحلب محيي الدِّين بن زكي الدين، والقلعة سيف الدين أزكش، والدِّيوان ناصح الدِّين إسماعيل ابن العميد، وأعطى تل باشر وتل خالد لبدر الدين دُلْدُرم بن بهاء الدين بن ياروق، وأعطى قلعة عَزَاز لعلم الدين سليمان بن جَنْدَر، ثم رحل عن حلب يوم السبت ثاني عشرين ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الأُولى، فأقام بها أياماً، ثم خرج إلى الفَوَّار، فأقام به على رأس الماء.

وفيها بعث الخليفة عسكراً إلى دقوقا، فأخذها.

وفيها عصى بهاءُ الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بإربل على المواصلة، وكاتب السُّلْطان، وانتمى إليه، فبعثَ إليه منشوراً بإربل، وعصى سنجرشاه بن سيف الدين غازي بالجزيرة، وهو صبيٌّ صغير، وسببُ هذا أَنَّ مجاهد الدين قَيْماز النَّائب بالمَوْصل كان وصيَّ زين الدين وسيف الدين على ولديهما بإربل والجزيرة، فأشار محمود بن زلفَنْدار على عِزِّ الدِّين مسعود بالقبض على مجاهد الدين قيماز حسداً منه له، فقبض عليه، فاختلتْ أمورُ البلاد وعَصَتْ عليه، فأطلقه، وولَّاه قلعة المَوْصل، وأحسنَ إليه، وقَبَضَ على ابن زلفَنْدار وعلى كلِّ مَنْ أشار [عليه][(٣)] بقبض مجاهد الدين.

وفيها كانت غَزَاة بَيْسان: رحل السُّلْطان من الفَوَّار في جُمادى الآخرة، فنزل بَيْسان وقد هَرَبَ أهلها، فقدَّم بين يديه جُرْديك النُّوري، وجاولي الأسدي وجماعة من

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): فكان كما قال بعد أربع سنين، وعجب الناس، وهو الذي خطب...، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

النُّورية، فجاؤوا إلى عين الجالوت والفرنج على الفولة، فصادفوا على عين الجالوت طائفةً من الفرنج، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا مئة فارس، ورحل السُّلْطان إلى الفولة يطلب المصافّ، فتحصَّن الفرنج بالرَّاجل، ولم يخرج منهم أحد، فرحل السلطان إلى الطُّور، فلما كان في الليل ساروا طالبين عكا، ورحل السُّلْطان خلفهم يقاتل السَّاقة، فقتل منهم جماعةً، ودخلوا عكا، فعاد السُّلْطان على صفد، فنهب وأحرق، وعاد إلى دمشق.

ثم خرج في رجب إلى الكَرَك، وكان أخوه العادل قد كَتَبَ إليه أن يعوِّضه بحلب عوض مِصْر، فكَتَبَ إليه أن يوافيه على الكَرَك، فالتقيا على الكَرَك، ونَصَبَ السُّلْطان عليها المجانيق، وحشد الفرنج ونزلوا [الواله](١) قريباً من الكرك، فرأى السُّلْطان أن حصار الكرك يطول، فعاد إلى دمشق ومعه أخوه العادل، فأعطاه حلب، فسار إليها، وبها الملك الظاهر ولد السُّلْطان وسيف الدين أزكش، فسلَّماها إليه، وقدم الظاهر دمشق ومعه أزكش في شوال، وأقام الظاهر في خدمة أبيه، راضياً في الظَّاهر، وفي الباطن ما فيه.

وفيها وصل عبدُ الرَّحيم شيخُ الشيوخ من بغداد رسولاً إلى صلاح الدِّين، ومعه محيي الدِّين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين الشَّهْرُزُوري رسولاً من المواصلة، فأغلظ [محيي الدين](١) للسلطان وقال: [(٢)تحلف لعز الدين أن هذه] الجزيرة وما يقطع الفرات من ناحية المشرق يكونوا مضافين إلى عز الدين، ولا تعلَّق لك بهم، وإلا جاء البهلوان وملوك العجم إليك، واتفقوا عليك. فغضب السُّلْطان وقال: أنا قاصدٌ إليكم، فإذا فرغت منكم سرت إلى البهلوان.

وفي ذي الحِجَّة أمر الخليفة أن لا يستخدم في الديوان يهودي ولا نَصْراني، ولا يُسْتعان بهم في عملٍ من الأعمال، فأُنهي أن ابن زطينا اليهودي ليس له نظيرٌ في الكتابة، فكَتَبَ على المطالعة: مات ابن زطينا، أيش نعمل؟ نبطل الديوان؟ فأسلم ابن زطينا يومئذٍ.

وحجَّ من العراق طاشْتِكِين.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): «يحلف أمراء له على أهل الجزيرة»، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها توفي

بوري بن أيوب[(١)]

تاج الملوك، أبو سعيد.

ولد في ذي الحِجَّة سنة ستٍّ وخمسين وخمس مئة، وكان الله قد جَمَعَ فيه محاسن أخلاق ومكارم وشيم، ولطف طباع، وكرماً وشجاعة، وفضلاً وفصاحةً، وكان أديباً شاعراً مترسِّلاً، وله ديوانُ شعر.

[(٢)وذكره العماد الكاتب في «الخريدة»، وأثنى عليه، وأنشد مقطعات من شعره، منها في رمضان]: [من الكامل]

رمضانُ بل مرضانِ إلا أَنَّهم ... غَلِطُوا إذاً في قولهم وأساؤوا
مرضانِ فيه تحالفا فنهارُهُ ... سُلٌّ وأمَّا ليلُه استسقاءُ

وقال: [من الوافر]

شَرِبْتُ من الفراتِ ونيلُ مِصْرٍ ... أحبُّ إليَّ من شَطِّ الفرات
ولي في مِصْرَ مَنْ أَصْبُو إليه ... ومن في قُرْبه أبداً حياتي
فقلتُ وقد ذكرتُ زمانَ وَصْلٍ ... تمادى بعده روحُ الحياةِ
أرى ما أَشْتَهِيْه يفرُّ مني ... ومن لا أَشْتَهِيْه إليَّ ياتي

وقال [وقد بالغ][(٣)]: [من الخفيف]

يا غزالاً يُميت طوراً ويُحيي ... وَهْوَ بُرْءُ السَّقام سُقْمُ الصَّحيحِ
هذه المعجزاتُ ليست لظَبْيٍ ... إنما هذه فِعالُ المسيحِ

وعاش ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً.

---

(١) له ترجمة في «الخريدة» بداية قسم شعراء الشام: ١٣٤ـ١٣٩، و«الروضتين»: ٣/ ١٦٦، «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٩٠ـ٢٩٢، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٦، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٦٥.

(٢) في (ح): فمنه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

محمد بن بختيار بن عبد الله[(١)]

أبو عبد الله الأبله الشَّاعر، وإنَّما سُمِّي الأبله لذكائه، [وهو من الأضداد][(٢)]، كان خبيثَ اللِّسان، هَجَّاء، [(٣)هجا أباه وأمه وأخاه، وقد ذكرناه في ترجمة الوزير(٤) وقد ذكره أبو المعالي الكتبي في «ملح الملح»، وقال: من شعره في رجل كفل يتيماً، وكان منهوماً بالغِلْمان]: [من مجزوء الكامل]

يــا ذا الــذي كَــفَــلَ الــيــتــيــ ... ـمَ وقَــصْــدُه كِــفْــلُ الــيــتــيــمِ
إن كــنــتَ تَــطْــمَــعُ فــي الــنَّــعــيــ ... ـمِ فــقــد حَــصَــلْــتَ عــلــى الــجــحــيــمِ

[ذكر واقعة عجيبة جرت له][(٢)]:

كان الأبله يصحب حاجب الباب ابن الدوامي ويمدحه، خَرَجَ معه إلى بُسْتان بباب مُحَوِّل، وكانت ليلة مُقْمرة، [(٥)فأخذ ينشد لابن الدوامي قصائد، منها]: [من المديد]

زار مَــن أحــيــا بــزَوْرتــه ... والــدُّجــى فــي لــون طُــرَّتِــهِ
قــمــرٌ يــثــنــي مــعــانِــقُــهُ ... بــانــةً فــي ثِــنْــي بُــرْدَتِــهِ
يــا لــهــا مِــن زَوْرَةٍ قَــصُــرَتْ ... فــأمــاتــتْ طُــولَ جَــفْــوَتِــهِ
بــتُّ أســتــجــلــي الــمُــدام عــلــى ... غِــرَّة الــواشــي وغُــرَّتِــهِ
حــيــن حــلَّــتْ عَــقْــدَ مُــصْــطــبــري ... عُــقَــدٌ مــن ســحــر مُــقْــلَــتِــهِ

فلما أنهاها قال له ابنُ الدوامي: يا حُجَّة العرب، هذه القصيدة لك؟ فقال: نعم. فصاح صائحٌ من داخل البُسْتان: يكذب، ما هي له. فخاف ابنُ الدوامي وغِلْمانُه، وقاموا إلى الباب وهو مُغْلق، فطافوا البُسْتان، فلم يَرَوْا أحداً، فعادوا وجلسوا، فقال له ابنُ الدوامي: أنشدنا أخرى، وأنشده، فقال له: هذه لك؟ قال: نعم. فصاح ذلك الصَّوت بعينه: يكذب، ما هي

(١) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٥٠٣، و«كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٠٢، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٤٦٣-٤٦٥، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ٢٤٤-٢٤٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ح): ومن شعره في رجل كفل يتيماً، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) يعني ابن هبيرة.

(٥) في (ح): فأنشده، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

له. فقاموا وفتَّشوا، فلم يروا أحداً، فقال: أنشدنا أخرى، فأنشده ثالثة، فقال: هذه لك؟ قال: نعم. فصاح ذلك الصَّوت بعينه: يكذب، ما هي له، فقال له الأبله: فخبِّرْه ما هي لي، فلمن هي؟ فقال: لي. قال: ومَنْ أنتَ؟ قال: شيطانك الذي أعلمك قول الشِّعْر، فقال له: صَدَقْتَ، والله يحفظك عليَّ، ولا يفرق بيني وبينك.

وقال أبو الدر الرُّومي الشَّاعر: مَرِضَ الأَبْله، فدخلت [عليه] أعوده، فقال: ما بقيتُ أقدر أنظم شيئاً. قلتُ: فما سببه؟ قال: لا شك أَنَّ تابعي قد مات، وتوفي بعد ذلك في جُمادى الآخرة، وترك ثلاثة آلاف دينار.

[قلت: والدليل على صحة هذه الحكاية قول الشاعر: [من الرجز]

إنــي وكــلُّ شــاعــرٍ مــن الــبَــشَــرْ شيـطـانـه أنـثـى وشيـطـانـي ذكـرْ][1]

السنة الثَّمانون وخمس مئة

[وفيها كتب زين الدين ابنُ نُجَيَّة الواعظ من مصر إلى صلاح الدين يشوِّقه إليها، وكان السلطان بدمشق، قال: أدام الله أيام مولانا السلطان الملك الناصر، وقرنها بالتأييد والنَّصر والتسديد، أترى ما يشتاق مولانا إلى مصر ونيلها، وخيرها وسلسبيلها، ودار مُلْكه ودارة فلكه، وبحرها وخليجها، ونشرها وأريجها، ومقسم مقاسمها، وأُنس إيناسها، وقصور مُعِزِّها ومنازل عِزِّها، وجيزتها وجزيرتها، وبَرَكتها وبِرْكتها، وتعلق القلوب بقَلْيُوبها، واستلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومُرْتقى الهرمين، وروضة جِنانها، وجَنَّة رِضْوانها، ومشاهدها ومجامعها، ومساجدها وجوامعها، ونواظر بساتينها، ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها، وآيات فضائلها.

وذكر ابن نُجية كلاماً طويلاً من هذا الجنس.

فكتب إليه السلطان: ورد كتاب الفقيه زين الدين ـ أدام الله توفيقه ـ لا ريب أن ساكن الشام أفضل، وأن أجر ساكنه أجزل، وأن القلوب إليه أميل، وأن زلاله البارد أعل وأنهل، وأن الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأن الجمال فيه أجمل، والجمال به أكمل، وأن القلب به أروح، والروح به أقبل، ودمشق فعاشقها مستهام، وما على

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

محبها ملام، وما في ربوتها ريبة، ولكل نور بها شيبة، وساجعاتها على منابر الورق خطباء تطرب، وهزارتها وبلابلها تعرب وتعجم، وكم فيها من جواري ساقيات، وسواقي جاريات، وثمار بلا أثمان، وروح وريحان، وفاكهة ورمان، وخيرات حِسان، وكون الله تعالى أقسم به فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[التين: ١] يدل على فضله المكنون، وقال ﷺ: «الشام خيرة الله من أرضه يسوق إليها خيرته من عباده»(١)، وعامة الصحابة اختاروا المقام بالشَّام، وفتحُ دمشق بكر الإسلام، وما ننكر أن الله ذكر مصر، ولكن على لسان فرعون بقوله: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لكن هذا خرج مخرج العَتْب له والذم، ألا ترى أن يوسف عليه السلام نقل منها إلى الشام.

ثم المقام بدمشق أقرب إلى الرباط، وأوجب للنشاط، وأين قطوب المقطم من سناء سَنِير؟ وأين ذُرى مَنْف من ذروة الشرف المنير؟ وأين لبانة البيان من الهرمين، وهل هما إلا مثل السلعتين؟ وهل للنيل مع طول نيله وطول ذيله برد بردى في نقع الغليل؟ وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وإذا فاخرنا بالجامع وقبة النسر ظهر بذلك قِصَرُ القَصْر، ولو كان لهم مثل باناس لما احتاجوا إلى قياس المقياس، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه، ولا نأبى فضله كما أباه، وحب الوطن من الإيمان، ونحن لا ننكر أن إقليم مصر إقليم عظيم الشان، ولكن نقول كما قال المجلس الفاضلي: إن دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر، ولا نشك أن أحسن ما في البلاد البستان، ولعل زين الدين يرجع إلى الحق، ويوافق على ما هو الأحق.

قلت: عاب السلطان على ابن نُجية كون أصله ومنشئه دمشق، وفضَّل عليها مصر، وليست من طارفه ولا من تلاده، وقد كان أولى أن يتشوق إلى السلطان من غير وصف لما فيه مضاهاة لوطنه وبلاده](٢).

وفيها عَزَلَ الخليفة وزيره ظهير الدين أبا الفتح بن صَدَقَة، وكان نائبَ الوِزارة، ورتَّب مكانه أبا الفَتْح محمد بن عبد الملك، فأقام إلى سنة ثلاثٍ وثمانين، وولَّى كمال الدين أبا الفتح أحمد بن هُبيرة حِجْبة الباب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٠٠٥)، وأبو داود في سننه (٢٤٨٣) من حديث عبد الله بن حوالة، ولفظه: «عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده».

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها هَجَمَ السُّلْطان نابُلس؛ كانت عساكر الشَّرْق قد وصلت إليه لنجدته: نور الدين قرا رسلان صاحب الحِصْن وآمِد، وعسكر دياربكر، ومظفر الدِّين، والعادل من حلب، وتقيّ الدين عمر، فخرج من دمشق، فنازل الكَرَك، ونَصَبَ عليها المجانيق، وكان من أكبر مهامِّه فتحه لكونه على طريق مِصْر، وبلغ الفرنج، فجمعوا الفارس والرَّاجل، وقصدوه، فنزلوا الواله قريباً من الكَرَك، فاغتنم السُّلْطان خُلُوَّ السَّاحل منهم، فسار على البَلْقاء، ونَزَل الغور، وهَجَمَ نابلس، فقتل وسبى، ونزل على سَبَسْطِيَة، وبها [جماعة من](1) الرُّهْبان والأقسَّاء، وعندهم الودائع، فطلبوا منه الأمان، وأن يُطْلقوا ما عندهم من الأُسارى، فأَمَّنهم، ثم سلك الغَوْر، وطلع على عقبة فيق، وعاد إلى دمشق، وكان عنده شيخ الشيوخ عبد الرَّحيم وبشير الخادم رُسُل الخليفة مَرْضى، فطلبوا العَوْدَ إلى بغداد، فأَذِنَ لهم، فمات بشير بالسُّخنة، وشيخ الشيوخ بالرَّحبة.

وحج بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين.

وفيها توفي

إيلغازي بن ألبي(2)

ابن تمرتاش بن إيلغازي بن أُرْتُق، قُطْب الدين؛ صاحب مارِدِين، كانت وفاته في جُمادى الآخرة، وخلَّف ولدين صغيرين، وكان جَوَاداً، شجاعاً عادلاً، مُنْصِفاً عاقلاً.

الحسين بن علي(3)

[بن أحمد] بن عبد الواحد بن شبيب، أبو عبد الله الطِّيْبي، سَعْد الدين، صاحب المخزن، كان فاضلاً، عند المستنجد بمنزلة النَّديم والسمير.

ومن شعره: [من الطويل]

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٥٠٨، و«كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٢٢-٢٢٣، و«الوافي بالوفيات»: ١٠/ ٢٦-٢٧، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٧.

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج٢/ ١٨٧-١٩٥، و«معجم الأدباء»: ١٠/ ١٢٦-١٤٧، و«فوات الوفيات»: ١/ ٣٧٧-٣٨١، و«الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٤٤٧-٤٥١، وما بين حاصرتين من مصادر ترجمته.

فأنقَذَ مِصْراً من يدي كلِّ كافرٍ ... لنعماه لا عَقْلٌ لَدَيْه ولا دِيْنُ
إذا ما أرادَ الله إهباطَ دَوْلةٍ ... تبيذقَ منها في الدّسوتِ فرازينُ[١]
ولما مضى فِرْعَوْنُها فرَّ عَوْنُها ... وأدركَها موسى الكليمُ وهارونُ
وقد بقيتْ في نفس يعقوبَ حاجةٌ ... إلى سَيْفك الماضي هي الغَرْبُ والصِّينُ[٢]

وقال: [من الطويل]

صُنِ النَّاس عمَّن مَدَّ كَفًّا إليهمُ ... بسوءٍ تَفُزْ بالحَمْدِ بين الخلائقِ
فما اكتسبَ النُّعْمانُ ذِكْراً مخلَّداً ... على الدَّهْرِ إلا صونه للشَّقائِقِ

وقال: [من الكامل]

ومُدامةٍ رَقَصَتْ لنا من دَنِّها ... بزجاجةٍ فخبا سنا المِصْباحِ
نَظَرَ الحكيمُ فلم يشكَّ بأنَّها ... شمسٌ بَدَتْ في غُرَّة الإصباحِ

وكانت وفاتُه في ربيع الآخر ببغداد.

عبد الرَّحيم بن إسماعيل بن أبي سَعْد[٣]

أبو القاسم النَّيسابوري، شيخ الشيوخ ابن شيخ الشيوخ، ولقبه صَدْر الدِّين.

ولد سنة ثمانٍ وخمس مئة، وتوفي أبوه سنة إحدى وأربعين، فولي مشيخة الشيوخ إلى حين توفي في رحبة ملك بن طَوْق، وقد عاد من عند صلاح الدين في شعبان، ودُفِنَ إلى جانب موفق الدين محمد الرَّحْبي، وكان فاضلاً مترسِّلاً بين الخليفة وصلاح الدين، وكان يَلْبَس الثِّياب الفاخرة، ويتخصص بالأطعمة، فكان أهل بغداد يعيبون عليه حيث لم يسلك طريق المشايخ في التعفُّف عن الدُّنيا، والقناعة منها باليسير، مع لبسه القصير، والتزيي بزيِّ الصُّوفية، حتى هجاه محمود النعال في كان وكان، من أبيات:

كذا طريق الشِّبْلي مع الجنيد اي ... شيخنا يأكل حمل وحملاوه معه دجاج سمين

(١) تبيذق: أي صار بيذقاً، والفرازين جمع، مفرده فرزان، وهو بمنزلة الوزير للسلطان، واللفظان من اصطلاح الشطرنج.

(٢) القصيدة في «الخريدة»: ٢/ ١٨٩.

(٣) له ترجمة في «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢١٠-٢١١، و«وفيات الأعيان»: ٧/ ٨٨، و«مفرج الكروب»: ٣/ ٢٥٧، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٧.

تبعت سنة نبيك تطيب ثوبك بطيب ··· ولـلـدّنـا تـجـمـع كـذا شـروط الـدِّيـن

وعُمِلَ العزاء ببغداد والمَوْصل ودمشق، ورثاه ابنُ المنجم المِصْري، فقال: [من المديد]

يـا أخِـلاَّئـي وحـقِّـكُـمُ ··· مـا بـقـي مِـنْ بـعـدكُـمْ فَـرَحُ

أيُّ صَـدْرٍ فـي الـزَّمـان لـنـا ··· بـعـد صَـدْرِ الـدِّيـن يَـنْـشَـرِحُ

وولي مشيخة الرباط بعده صفي الدِّين إسماعيل.

محمد بن قرا أرسلان[(١)]

نور الدين صاحب حِصْن كيفا الذي أعطاه صلاح الدين آمِد، ترك ابنه قطب الدين سُكْمان[(٢)] صغير، عمره عشر سنين.

أبو طاهر بن عوف[(٣)]

مدرِّس المالكية بالإسكندرية، كان يروي «الموطأ»، وكان شيخاً فاضلاً، صالحاً، وعمَّر طويلاً.

السنة الحادية والثمانون وخمس مئة

فيها قطع السُّلْطان الفرات، ونَزَل على حَرَّان سادس عشرين صفر، وكان مُظَفَّر الدِّين بن زين الدين يكاتبه، ويحثُّه على قَصْد الجزيرة، ويقول: عندي كل ما تحتاج إليه من المال والغرامات، وأحمل إليك خمسين ألف دينار. فلما قَطَعَ الفرات لم يَرَ شيئاً من ذلك، وقيل له: قد مال إلى المواصلة، فأرسل إليه يطلبُ المال، فأنكر، وأشير على السُّلْطان بحمله إلى قلعة حلب، فراسل السُّلْطان وقال: أنا أنزل عما بيدي من البلاد، وأخدمك بقية عمري بغير شيء. فاستقرَّ أن ينزل عن قلعة حَرَّان والرُّها، ويبقى بيده البلدان، فنزل، ثم أعادهما السُّلْطان إليه في آخر السنة.

---

(١) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٣٥٣.

(٢) في (ح): ظهير الدين بن سكمان، وهو تحريف، والمثبت مما يأتي ص ٣٠٤ من هذا الجزء.

(٣) هو إسماعيل بن مكي بن عيسى بن عوف، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٢٢-١٢٣، و«الديباج المذهب»: ١/ ٢٩٢-٢٩٥، وفيه وفاته سنة (٥٨١هـ).

وسار السُّلْطان، فنزل على المَوْصل وضايقها، وخرج إليه أهلها العوام والخواص، فقاتلوه، وظهروا عليه، وجاءه الملوك: زين الدين بن زين الدِّين من إرْبل، وسنجرشاه صاحب الجزيرة، وعسكر دياربكر، وكان القتال يعمل كل يوم، ويخرج إليه المواصلة عُراةً[١] يقاتلون، فبينا هو على ذلك جاءه الخبر بوفاة شاه أرمن صاحب خِلاط، وجاءته كتب مقدَّميها يطلبونه، فشاور الأُمراء، فأشاروا عليه بقَصْدها لما رأوا أَنَّهم لا طَمَعَ لهم في المَوْصل، وقالوا: ما تفوت الموصل. فسار إلى خِلاط، وفي مقدِّمته ناصر الدين محمد بن [أسد الدين][٢] شيركوه، وتقيّ الدين عمر، فوصلوا مَيَّافارِقين، وبها الأسد يرنقش مملوك صاحب مارِدِين[٣]، فامتنع عليهم، وقال: أنا وصيُّ يتامى أُستاذي قُطْب الدِّين، وبعد هذا فالأمر للخاتون والدتهم. فأرسل إليها صلاحُ الدين خادماً، ووعدها أن يتزوَّجها، ويزوج إحدى بناتها بابنه، فأجابته، وسَلَّمت إليه مَيَّافارقين، وأعطاها الهتّاخ[٤]، وأعطى يرنقش جبل جور.

وكان الحاكم على خِلاط الوزير مجد الدين بن الموفَّق، وهو الذي كاتَبَ السُّلْطان، فبعث إليه الفقيه عيسى ليكشف الحال، فغالطه، وقال: في القلعة سيف الدين بَكْتَمُر وبها ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن، وربما جاء البهلوان، فعاد الفقيه عيسى إلى السُّلْطان بغير شيء، وجاء البهلوان بعساكر أذربيجان وهَمَذَان والشَّرْق، ونزل قريباً من خِلاط، وراسل السُّلْطان يقول: هذه البلاد لابنتي، وهي في القلعة، والمصلحة أن تبقى المودَّة بيننا ودوام الصداقة. فرجع السُّلْطان إلى الجزيرة، ورجع البهلوان إلى بلاده بعد أن حمل إليه سيف الدين بَكْتَمُر أموالاً [وهدايا][٢].

وقال العماد: كان قُطْب الدِّين صاحِب مارِدِين قد مات، وبقيت الولاية لابنه الكبير وله عَشْرُ سنين، وكان القائم بتدبيره أسد الدين يرنقش، ومات أيضاً نور الدين صاحب آمِد، وتولى ابنه قطب الدين سُكْمان، فسار السُّلْطان إلى مَيَّافارقين، فعصى عليه

(١) كأنه يريد أنهم يقاتلون بلا دروع، وكان الحر إذ ذاك شديداً، انظر «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٣٠.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) في (ح) و(م) و(ش): «آمد»، وهو تحريف، والمثبت مما يأتي.
(٤) قلعة حصينة في دياربكر قرب ميافارقين. «معجم البلدان»: ٥/ ٣٩٢.

يرنقش، وكان في المدينة الخاتون ابنة قرا رسلان زوجة قُطْب الدِّين سُكْمان صاحب مارِدِين، فأحال يرنقش الأمر عليها، فراسلها السُّلْطان، فأجابته، وطلبت منه الهتَّاخ ليكون عُشّاً للفراخ، فأعطاها إياه، وأقبل قطب الدين سُكْمان صاحب آمِد إلى خِدْمته، فأكرمه، ورَدَّه إلى موضعه، وكان معه وزيره أبو [محمد](١) عبد الله بن سماقة.

وولَّى السُّلْطان على مَيَّافارِقين ودياربكر مملوكه سُنْقُر الخِلاطي، وعاد إلى المَوْصل، وهذه المرة الثالثة وهي الأخيرة، فنزل الإسماعيلات، وقيل: نزل على كَفْر زَمَّار بدِجْلة، وعَزَمَ على أن يشتِّي بذلك المكان، واستعدَّ المواصلة للحصار، وأشار أُمراء عز الدين مسعود عليه بأن يُخرج إليه النِّساء الأتابكيات يشفعن إليه، فخرجن ومعهن والدة عز الدين [مسعود](٢)، فأكرمهن ووعدهنَّ الإحسان، ولم يقبل شفاعتهن، وقال: قد جعلتُ عماد الدين زَنْكي واسطةً فيما يعود نفعه عليَّ وعليكم. ونَدِمَ على رَدِّهن، وبعث إلى عماد الدين صاحب سنجار في معنى الصُّلْح، فقرَّره عماد الدين، وخُطِبَ للسُّلْطان بالمَوْصل، وأُعطي شَهْرُزُور والبوازيج، ووقف بها قرية [تعرف](٢) ببافيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة.

[قال العماد](٢): وكان [السلطان](٢) قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان، واشتدَّ الحر، وأضيف إلى ذلك ندمه على رَدِّ النساء، فمرض مرضاً شديداً، فتناثر شعر رأسه ولحيته، وقيل: إنه سُقي، وضَعُفَ ضعفاً خِيْفَ عليه منه، وأُرجف بموته، وأقام على نَصِيْبين وقد يئسوا منه، ثم تماثَلَ، فَحُمِلَ في مِحَفَّة إلى حَرَّان، فنزل ظاهرها، وبنى داراً سمَّاها دار العافية.

وقال ابنُ شَدَّاد: سببُ صُلْح المواصلة للسُّلْطان أَنَّهم استنجدوا بالدِّيوان والبهلوان، وأخرجوا النِّساء إليه، فلم ينفعهم، فلما مَرِضَ رأوا مرضه فُرصة، وعلموا رِقَّة قلبه، فأرسلوني إليه في هذا الأمر، فلما وصلنا إلى المخيَّم وجدناه في حد الإياس، فأقمنا حتى تماثَلَ، وأحضَرَنا يوم عرفة، وحَلَفَ لنا، ودام على يمينه طول عمره(٣).

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٤٦، وانظر ترجمته ص٣٠٧ من هذا الجزء.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) «النوادر السلطانية»: ٧٠.

قال المصنِّف رحمه الله: كان الصُّلْح قد تقرَّر، وإنما لم يكن السُّلْطان حَلَفَ حتى جاءه ابنُ شداد والزَّبيب فاستحلفاه، وكان قد شاع أَنَّ المواصلة دَسُّوا عليه من سقاه السُّمَّ، فخافوا، وكان السُّلْطان لما يئس من نفسه أوصى إلى أخيه العادل، وجعل مِصْر للعزيز عثمان، ودمشق للأفضل، وحماة لتقي الدِّين، وقسم البلاد، ولما بَرِىءَ وحَلَفَ للمواصلة أرسل إليهم بالهدايا والتُّحف، وجهَّز عِزُّ الدين العساكر في خِدْمة السُّلْطان إلى الجهاد، وَرَدَّ السُّلْطان على مظفر الدين حصن الرُّها وقلعة حرَّان، وسببه أنه لما طلب منه القلعتين بعث مظفر الدِّين نائبه إلى الولاة بالتسليم، فامتنعوا، فقال: قل لهم: بعلامة ما قلت لكم: إنْ أصابني شيءٌ فلا تسلِّموا إلا إلى السُّلْطان ولو بقيت له بنت واحدة. فعلم صلاحُ الدِّين حُسْنَ نيته ومقصده، فردَّهما عليه، وأكرمه.

وجاء تقليدُ الخليفة للسُّلْطان بتفويض بلاد الشَّرْق ودياربكر إليه، وعليه علامةُ الخليفة بيده، وصورتها: النَّاصر الله. ودخل في هذا التوقيع الموصل وغيرها.

وكان المنجِّمون بدمشق قد حكموا بأنه تهبُّ رمل مع هواء مزعج يُهلك النَّاس، فحفروا سرداباً وجثوا فيه، وظهر كذبُ المنجمين[١].

وحج بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين.

وفيها توفي

شاكر بن عبد الله بن محمد[٢]

أبو اليُسْر التَّنوخي المعرِّي؛ كاتبُ الإنشاء لنور الدين محمود بن زَنْكي.

ولد سنة ستٍّ وتسعين وأربع مئة، ونشأ بحماة عند جدِّه القاضي أبي المجد محمد ابن عبد الله، وقرأ عليه الأدب، وسَمِعَ الحديث من جدِّه لأُمه أبي عبد الله الحسين بن العجمي بحلب، وكان فاضلاً.

(١) سيأتي نحو هذا الخبر في حوادث سنة (٥٨٢هـ)، وهو الصواب.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٥ـ٣٧، و«معجم الأدباء»: ٣/ ١١٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٤٥، و«الوافي بالوفيات»: ١٦/ ٨٥ـ٨٧، و«فوات الوفيات»: ٢/ ٩٦، و«الإنصاف والتحري» لابن العديم: ٥٠٤ـ٥٠٥.

قال العماد الكاتب: تولَّى ديوان الإنشاء بالشَّام سنين كثيرة لنور الدين، ثم استعفى، وقَعَدَ في بيته، ووليتُ الإنشاءَ بعده، وتوفِّي بدمشق في هذه السنة، ومن شعره: [من الكامل]

أحبابَنا ذَهَبَ الزَّمانُ ومالنا ... من وَصْلِكُمْ حَظٌّ به نتمتَّعُ
وتبايَنَ الغَرَضانِ مَنْ أهواه يَهْـ ... ـجُرني ومَنْ أشْناه لي يتتبَّعُ
طاووس حُسْنٍ صدَّ عني مُعْرِضاً ... وغدا يُواصِلُني الغرابُ الأبقعُ

عبد الله بن سماقة[1]

وزير صاحب آمِد، كان قد استولى على الأمر، وحَسَمَ موادَّ الفساد، فاتَّفق جماعةٌ من مماليك صاحب آمد على قَتْله، فجاؤوا إليه وهو جالسٌ في الدِّيوان، وقالوا: المَلِك يَسْتدعيك. فقام، ودخل دار المُلْك، فقتلوه في الدِّهْليز، وكان الصَّلاحُ أحدُ الأمراء الأكابر محبوساً، فأخرجوه واثقين به، فَقَتَلَ الجميع.

عبد السَّلام بن يوسف بن محمد[2]

أبو الفَتْح الجُماهري، كان فاضلاً، ومن شعره: [من الطويل]

على ساكني بطن العقيق سلامُ ... وإنْ أسهروني بالفِراق وناموا
حَظَرْتم عليَّ النَّومَ وهو محلَّلٌ ... وحلَّلْتُمُ التَّعذيبَ وهو حَرَامُ
إذا بنتمُ عن حاجرٍ وحَجَرْتُمُ ... على الدَّمْعِ أنْ يدنو إليه مُلامُ
فلا ميَّلَتْ ريحُ الصَّبا فَرْعَ بانةٍ ... ولا سَجَعَتْ فوقَ الغُصون حَمَامُ
ولا قَهْقَهَتْ فيه الرُّعودُ ولا بكى ... على حافَتَيْه بالعَشِيِّ غَمَامُ
فمالي وما للدَّمْعِ قد بان أَهْلُهُ ... وقد قُوِّضَتْ من ساكنيه خيامُ
ألا ليتَ شِعْري هل إلى الرَّمْلِ عودةٌ ... وهل لي بتلك البانَتَيْنِ لِمامُ

(١) له ذكر في «الروضتين»: ٣/ ٢٤٦ـ٢٤٧.
(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج ١/ ج٣/ ٣٠٨ـ٣٢٢، و«الروضتين»: ٢/ ٤٢٠ـ٤٢١، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ٣٦ـ٣٧، و«الوافي بالوفيات»: ١٨/ ٤٣٨ـ٤٣٩، و«فوات الوفيات»: ٢/ ٣٢٦ـ٣٢٧، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٩.

ألا يا حماماتِ الأراكِ إليكُمُ فمالِيَ في تغريدكُنَّ مَرَامُ
فوَجْدي وشَوْقي مُسْعِدٌ ومؤانِسٌ ونَوْحي ودَمْعي مُطْرِبٌ ومُدَامُ

وكانت وفاتُهُ بدمشق.

عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أُنَر(١)

زوجة السُّلْطان صلاح الدين، كانت قَبْلَه زوجة نور الدين محمود، وكانت من أعفِّ النِّساء وأكرمهن وأحزمهنَّ، ولها صدقاتٌ كثيرة وبِرٌّ عظيم، بَنَتْ بدمشق مدرسةً لأصحاب أبي حنيفة في حَجَر الذَّهب [قريبة من حمام أزكش، وتعرف بمدرسة خاتون](٢)، وبنت للصُّوفية رِباطاً على الشَّرف القِبْلي خارج باب النَّصْر على باناس، وبنت تُرْبة بقاسيون على نهر يزيد، ودُفنت بها، ووقفت على هذه الأماكن أوقافاً كثيرة، وكانت وفاتُها في رجب(٣)، وبلغ السُّلْطانَ وفاتُها وهو مريضٌ بحرَّان، فتزايد مرضه وحَزِنَ عليها وتأسَّفَ، وكان يصدر عن رأيها.

ومات بعدها(٤) أخوها سعد الدين مسعود بن أُنَر(٥) في هذه السنة، وكان من أكابر الأمراء، زوَّجه السُّلْطان أُخته ربيعة خاتون [لما تزوج أخته الخاتون](٢)، فلما توفي زوَّجها مظفر الدين بن زين الدين.

محمد بن أسد الدين شيركوه(٦)

ناصر الدِّين، ابن عم صلاح الدين، كان السُّلْطان يخافه لأنه كان يدَّعي أَنَّه أحقُّ بالملك منه، وكان يبلغ السُّلْطان عنه هذا، وكان قد فارق السلطان من حَرَّان، وجاء إلى حِمْص، وكان زوج ستّ الشَّام أُخت السُّلْطان، وتوفي بحمص يوم عرفة، وتناثر لحمه، وقيل: إنَّه سُمَّ، وقيل: مات فجأة، فنقلته زوجته ستّ الشَّام إلى تُرْبتها [بالعوينة

(١) لها ترجمة في «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٤٣-٢٤٤، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٩.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٣) في «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٤٣ في ذي القعدة، نقلاً عن العماد الكاتب.
(٤) وفاته في «الروضتين»: في جمادى الآخرة.
(٥) له ترجمة في «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٤٥-٢٤٦، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٩.
(٦) له ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٤٣-١٤٤، وفيه مصادر ترجمته.

شمالي دمشق][1]، فدفنته عند أخيها شمس الدولة، ولما بلغ السُّلْطانَ وفاتُه أبقى على ولده أسد الدين شيركوه حمص وتدمر والرَّحبة وسَلَمية إقطاع أبيه، وخَلَعَ عليه، وكتب له منشوراً.

السنة الثَّانية والثمانون وخمس مئة

[[2]ذكر محمد ابن القادسي[3] في الذيل فقال:] في يوم عاشوراء فُرش الرَّماد في الأسواق، وعُلِّقت المسوح، وناح أهل الكرخ والمختارة، [وبغداد][1]، وخرج النِّساء حاسرات يلطمن وينحن من باب البَدْرية إلى باب حجرة الخليفة، والخِلَعُ تفاضُ عليهنَّ وعلى المُنْشدين من الرِّجال، وتعدَّى الأمر إلى سَبِّ الصَّحابة: أبي بكر وعمر وعثمان [وطلحة][1] والزُّبير وعائشة ﷺ، وكان أهل الكَرْخ يصيحون: ما بقي كتمان، وأقاموا امرأة، يقال [لها][1] ابنة قرابا من أهل الكَرْخ، كان ظهير الدين العطار قد كَبَسَ دارَ أبيها، فأخرجَ منها كُتُباً في سبِّ الصَّحابة، فقطع يديه ورِجْليه، ورجمه العوام حتى قتلوه، فقامت هذه المرأة على دِكَّةٍ تحت منظرة الخليفة في الرَّيحانيين، وحولها ألوفٌ من الرِّجال والنِّساء، وهي تنشد أشعار العَوْني وغيرها، وتسبُّ عائشة رِضْوان الله عليها، وتقول: العنوا راكبة الجَمَل، وتذكر حديث الإفك والنبي ﷺ بأقبح الشَّناعات، [قال:][1] وكلُّ ذلك منسوبٌ إلى أُستاذ الدَّار ابن الصَّاحب.

وفي هذا الشَّهر عَبَرَ صاحب الباب كمال الدين ابن هُبيرة إلى الجانب الغَرْبي في موكبه إلى بُسْتان، وبين يديه أربابُ الدَّولة والسيوف المسلَّلة، فعاد في آخر النهار من يومه ماشياً، مكشوف الرأس، وبين يديه نفَّاط، وقد نُتِفَتْ لحيته، وعِمامته في حَلْقه،

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (ح): «قال ابن القادسي»، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) القادسي: هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، القادسي: نسبة إلى القادسية، وهي قرية بين سامراء وبغداد، لاقادسية الكوفة التي كانت فيها الوقعة المشهورة، كان له اعتناء بالتواريخ والحوادث، وصنف كتابين «ذيل المنتظم» ـ وهو الذي ينقل عنه هنا سبط ابن الجوزي ـ وقد وصل فيه إلى سنة (٦١٦هـ)، وكتاب «أخبار الوزراء»، وكلا الكتابين لم يصلانا بعد، توفي سنة (٦٣٢هـ) ببغداد.
له ترجمة في «التكملة»: للمنذري ٣/ ١٣١، «وفيات الأعيان»: ١/ ٣٢٩، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ١١٧، و«تاريخ الحكماء»: للقفطي، ط ليبسك: ص ١١١.

وإلى جانبه مغنية ماشية، يقال لها: خطليشي، وكان نُقِلَ إلى الخليفة عنه أنه يعاشر المغنيات والنُّدماء، فاستعظَمَ ذلك حتى فَعَلَ به ما فعل.

وفيها حكم المنجمون في الآفاق بخراب العالم في جُمادى الآخرة، وقالوا: تقترن الكواكب السيارة: الشمس والقمر وزُحَل والمريخ والزُّهَرة وعُطارد والمُشْتري في بُرْج الميزان أو السَّرطان، فتؤثر تأثيراً يضمحلُّ به العالم، وتَهُبُّ سَمُومٌ مُحْرقة تحمل رملاً أحمر، فاستعدَّ النَّاس، وحفروا السَّراديب، وجمعوا فيها الزَّاد، وانقضت المدة [ولم يحدث شيء](١)، وظهر كذب المنجمين، فقال [أبو الغنائم محمد](١) ابنُ المعلِّم [الشَّاعر الهُرْثي](١) في أبي الفَضْل المنجِّم، [وكان رئيسَ القوم](١): [من المنسرح]

قُـلْ لأبـي الـفَـضْـل قَـوْلَ مـعـتـرفٍ ... مـضـى جُـمـادى وجـاءنـا رَجَـبُ
[ومـا جـرت زعـزعـاً كـمـا حـكـمـوا ... ولا بـدا كـوكـبٌ لـه ذنـبُ](١)
كـلا ولا أظـلـمـتْ ذُكـاءُ ولا ... أبـدتْ أذًى فـي قـرانـهـا الـشُّـهُـبُ
يـقـضـي عـلـيـهـا مـن ليس يَعْلَمُ مـا ... يُـقْـضـى عـلـيـه هـذا هـو الـعَـجَـبُ
فـارْمِ بـتـقـويـمـك الـفـراتَ والإسـ ... طرلابُ خيـرٌ مـن صُـفْـرِهِ الـخَـشَـبُ
قـد بـان كِـذْبُ الـمـنـجِّـمـيـن وفـي ... أيِّ مـقـالٍ قـالـوا فـمـا كَـذَبـوا
مـدبِّـرُ الأمـرِ واحـدٌ لـيـس لـلـسَّـ ... بـعـةِ فـي كـلِّ حـادثٍ سَـبَـبُ
لا الـمـشـتـري سـالـمٌ ولا زُحَـلٌ ... بـاقٍ ولا زُهْـرةٌ ولا قُـطُـبُ
تـبـارك الـلـه حَـصْـحَـصَ الـحـقُّ وانـ ... جـابَ الـتَّـمـادي وزالـتِ الـرِّيَـبُ
فَـلْـيُـبْـطِـلِ الـمُـدَّعـون مـا وضـعـوا ... فـي كُـتْـبـهـم وَلْـتُـخَـرَّقِ الـكُـتُـبُ

وفيها قَطَعَ السُّلْطان الفرات، ووصل إلى حلب، وخرج منها يريد دمشق، فتلقَّاه أسد الدين صاحب حِمْص، وأُخته سفري خاتون بتل السُّلْطان، ومعهما الهدايا العظيمة، وسار إلى حِمْص، فأطلق المكوس، وأزال الضَّمانات، وقال لأخيه العادل: اقسمِ التِّركة بينهم على فرائض الله، وكان قد خلف شيركوه وسفري وزوجته ستّ الشَّام، فصعِدَ العادل إلى قلعة حمص، وأقام أياماً يقسم التركة، وكان قد خلَّف أموالاً عظيمة، وجواهر ومناطق الذَّهب والفِضَّة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار، وكان

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

القاضي شرف الدين[(١)] بن أبي عَصْرون حاضراً للقِسْمة، فقام يوماً، فوقعت من تحت ذيله منطقة جوهر، فنسبه العادل إلى مالا يليق، وكان شرف الدين منزَّهاً عن ذلك [لأنه كان غنياً جواداً شريف النفس][(٢)]، فحلف للعادل: إنني ما علمتُ بها، [وصدق، وإنما الحساد وجدوا طريقاً للقول][(٣)].

وفيها دخل سيفُ الإسلام إلى مكَّة، ومنع من الأذان في الحرم بحيّ على خير العمل، وقَتَلَ جماعةً من العبيد كانوا يؤذون النَّاس، وأغلق أمير مكة بابَ البيت، وصَعِدَ إلى أبي قُبيس، فأرسل إليه وطلب المفتاح، فامتنع من إنفاذه، فقال سيفُ الإسلام لرسوله: قُلْ لصاحبك: إنَّ الله نهانا عن أشياءَ فارتكبناها، وقال النبيُّ ﷺ: «لا تأخذوا المفتاح من بني شيبة»[(٤)] فنأخذه، ونستغفر الله تعالى، فبعث إليه بالمِفْتاح.

وفيها قَسَمَ السُّلْطان البلاد بين أولاده وأهله برأي القاضي الفاضل، فإنَّه لما مَرِضَ أشار عليه بذلك، وكان الملك الأفضل بالدِّيار المِصْرية، وهو المترشِّحُ لولاية العهد، وكان قد تأدَّبَ وكَتَبَ، فأحسن خَطَّه، وسمع الحديث، وكان في نَفْس السُّلْطان نقل العزيز إلى مِصْر، فكَتَبَ إلى الأفضل يستدعيه إلى دمشق بأهله ووالدته، فحضر، فزوَّجه السُّلْطان سفري خاتون بنت ناصر الدِّين صاحب حِمْص، فقال ابنُ سعادة الضَّرير: [من السريع]

قد أقبل العُرْسُ السَّعيد الذي أنواره مِنْ وَجْهِكَ المُقْبِلِ
بنتُ سَمِيِّ المُصْطفى زُوِّجَتْ سَمِيَّ صِهْرِ المُصْطفى المُرْسَلِ

وجمع صلاحُ الدِّين أهله والأمراء، وأخذ عليهم العهود للأفضل، وكان السُّلْطان يؤثر أن تكون حلب للملك الظاهر ولده، وكان يستحيي من أخيه العادل، فزوَّجَ الظَّاهرَ بابنته، وقال له: قد علمت أَنَّ مدينة حلب جليلة، وقلعتها عظيمة، فاطْلُبْها من السُّلْطان، فعرَّفَ الظَّاهرُ أباه، فاستحسنَ ذلك من العادل، وفوَّضَ أمر حلب إلى

---

(١) في (ح) و(ش) و(م): نجم الدين، وهو تحريف.

(٢) في (ح): لغناه وجوده شرف نفسه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٢٣٤) و«الأوسط» (٤٩٢) من حديث ابن عباس مرفوعاً: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة، لاينزعها منكم إلا ظالم»، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ٣/ ٢٨٥، وقال: فيه عبد الله بن المؤمل، وثقه ابن حبان، وقال: يخطئ، ووثقه ابن معين في رواية، وضعفه جماعة.

الظَّاهر، وأمر دمشق إلى الأفضل، وأمر مِصْر إلى العزيز، وأقطع العادل إقطاعاتٍ كثيرةً بمصر، وجعله أتابك العزيز، وسيَّرهما إلى مِصْر.

وكان تقيّ الدِّين بمصر، وحكمه بين يدي الأفضل بمنزلة الوالي، وبلغه ما فعل السُّلْطان، وكان يظن أنه يستقلُّ بمِصْر، فشقَّ عليه، وكان غلامه قراقوش قد وصل إلى أطراف المغرب، فكتَبَ إليه يستدعيه، ويطمعه في ملك جديد، فجهَّز أمواله وأثقاله إلى الإسكندرية، وكَتَبَ إلى السُّلْطان يستأذنه، فشقَّ عليه، وخاف أن يتبعه أكثر العسكر إلى المغرب، فكتب إليه يعتبه ويوبخه، ويقول: سمحت بفراقي. ويستدعيه إليه، فما أمكنه مخالفته، ودخل العزيزُ والعادل القاهرة أول شعبان، وقَدِمَ تقيُّ الدين دمشق سَلْخ شعبان، وتلقَّاه السُّلْطان، وأعاد ما كان بيده من البلاد وحماة والمعرَّة ومنبج، وأضاف إليه ميَّافارِقين، وثنى عزمه عن المغرب.

وسار يوزبا مملوك تقيّ الدِّين إلى المغرب، فلقيه صاحب المغرب فأسره، ثم أطلقه، وبعث به إلى بعض الثغور، فأبلى بلاءً حسناً، فقدَّمه على العساكر.

وفيها ظهر الخلاف بين الفرنج، وتفرَّقت كلمتهم، وكان ذلك سبباً لسعادة الإسلام، وكان السبب أن ريمند ابن الصنجيل قومص طرابُلُس رَغِبَ إلى مصافاة السُّلْطان، وكان قد تزوَّج الست صاحبة طبرية، وكان المُلْك في أخيها المجذوم[1]، فلما احتُضر أوصى بالملك لابن أخته وهو صبيٌّ صغير، فلما تزوَّج القومص أُمَّه رباه، وماتَ الصَّبي، فانتقل المُلْك إلى أُمِّه، على قاعدتهم في ذلك، فظن القومص أنَّ زوجته تفوِّض الأمر إليه، فمدَّت عينها إلى بعض الخيَّالة، واجتمعوا في القُدْس، فقامت بين الصَّفَّين وبيدها تاج الملك لتضعه على رأس من يستحقُّ المُلْك، فتركتِ الملوكَ والخيَّالة، ووضعته على رأس الذي مدَّت عينها إليه، وملَّكَتْه طمعاً أن تتزوجه، فناصبها القومص والأكابر العداوة، ولم يرضوا بذلك، وأوقع الله بأسهم بينهم.

---

(١) هذا من الأوهام، إذ إن أخت الملك المجذوم وهو بلدوين الرابع هي سبيللا، وهي التي تولت المملكة من بعد، أما زوجة ريمند فهي إيشيفابور، انظر: «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٢/ ٦٥٢ (الترجمة العربية).

وفيها غدر إبرنس الكَرَك، واسمه أرناط، وكان أخبثَ الفرنج وأشرّهم، فقطَعَ الطَّريق على قافلةٍ جاءت من مِصْر إلى الشَّام، وفيها خَلْقٌ عظيم، ومالٌ كثير، فاستولى على الجميع قَتْلاً وأَسْراً ونَهْباً، فأرسل إليه السُّلْطان يوبِّخُه على ما فعل ويقول: أين العهود [والمواثيق](١)؟ رُدَّ ما أخذتَ. فلم يلتفت، وشنَّ الغارات على المُسْلمين، وفَتَكَ فيهم. قال العماد: وكان معه شِرْذِمة، وهي من شرِّ أُمَّة، وكان على الهُدْنة حتى لاحت له فرصة، فوقع على قافلةٍ ثقيلة، فيها نِعَمٌ جليلة، وكان فيها جماعةٌ من الأجناد وأعيان أهل البلاد، فحملهم إلى الكرك، وأوقعهم في الشَّرَك، فأرسل إليه السُّلْطان، وقبَّح أفعاله وغدره واغتياله، فأبى إلا الإضرار، والفَتْك في المسلمين والتُّجَّار، فنذر السُّلْطان دمه، ووفى في إراقته بحطِّين بما التزمه، وأقام السُّلْطان بدمشق يتجهز للقاء العدو، ويستدعي العساكر من المشرق والمغرب.

وحجَّ بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين، ومن الشام ستّ الشَّام، وولدها حسام الدِّين بن لاجين، وجماعة من المعتبرين.

وفيها توفي

أحمد بن أبي بكر المبارك(٢)

أبو السُّعود الحَرِيْمي الزَّاهد(٣)، كان عطاراً، فأقامه الله تعالى، فانقطع إليه، وصَحِبَ الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه، وأخذ عنه الطريق، فصار المشار إليه بعده، وكان له كراماتٌ وإشارات، وقَبُولٌ عام عند الخاصّ والعام، وكان طريقه الفناء لا يأكل حتى يُطْعَم، ولا يشرب حتى يُسْقى، ولا يَلْبَس ثوباً حتى يُجعل في عنقه، وكان بين يدي الله تعالى بمنزلة المَيْت بين يدي الغاسل، لا يزال مستقبل القِبْلة على طهارة، لا يتكلَّم إلا جواباً، وكان حسنَ الأخلاق، كريمَ الطِّباع، متواضعاً. [وكان سليمان بن شاوس قد

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «شذرات الذهب»: ٤/ ٢٧٤ .

(٣) في (م) و(ش): وفيها توفي أبو السعود الحريمي الطاهري، ويقال له ابن الشبل العطار.

اختصَّ به، وحكى لي جماعةٌ من أهل الحريم من أصحابه، قالوا:](١) وكان جالساً يوماً على الصُّفَّة، وليس عنده أحد، فوقع السَّقف عليه، فجاء طرف الجِذْع في رؤوس أضلاعه فكَسَرها، فلم يتحرَّك حتى جاء أصحابُه، فأزالوا السقف عنه والجذع، فأقام عشرين سنة لا يعلم به أحد حتى مات، فلما وضع على المغتسل رأوا أضلاعه مكسَّرة.

وقدم عليه الشيخ محمد بن قائد شيخ أَوَانا(٢)، فقال له: يا شيخ أبا السُّعود، قد أُعطيتُ شِحْنكية العراق، فلي من أَوَانا إلى بغداد، ولك من بغداد إلى البَصْرة، وَهَبْتُه لك. فقال له أبو السّعود: قد آثرتك بالكُلِّ، أنت في حِلٍّ.

ولما توفي أراد بعضُ أصحابه أن يبقي بيت الحش الذي كان للشيخ، قال: فأتيتُ إلى رأس البئر، وإذا قد سدَّى عليها العنكبوت، وليس فيها شيء.

وكانت وفاته ليلة الأربعاء عاشر شوال، ودُفِنَ بمقابر باب حَرْب، وبنوا عليه قُبَّةً عالية ظاهرة، وقبره ظاهرٌ يزار.

سمع الشيخ عبد القادر وطبقته، [وحدَّث بشيء يسير](١)، واشتغل بحاله عن الرِّواية.

الحسن بن عليّ(٣)

ابن بركة [بن عَبيدة ـ بفتح العين ـ](١)، أبو محمد المقرىء [الكرخي](١) النحوي، [قرأ القرآن على أبي محمد، والنحو على أبي السعادات ابن الشجري، وسمع الحديث على قاضي المارَسْتان وغيره، و](١) استفاد منه خَلْقٌ كثير، وكانت وفاته في شَوَّال، ومن شعره: [من الطويل]

وما شنآنُ الشَّيْبِ من أجل لونه ... ولكنَّه حادٍ(٤) إلى الموتِ مُسْرِعُ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) أوانا: بليدة من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٢٧٤.

(٣) له ترجمة في «معجم الأدباء»: ٩/ ٤٠ـ٤٣، و«إنباه الرواة»: ١/ ٣١٦، و«الوافي بالوفيات»: ١٢/ ١٣٠ـ١٣١، و«غاية النهاية»: ١/ ٢٢٤، و«بغية الوعاة»: ١/ ٥١١، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١٠٣، و«توضيح المشتبه»: ٦/ ١٣٧.

(٤) في (م) و(ش): داعٍ.

إذا ما بَدَتْ منه الطَّليعةُ آذَنَت بأنَّ المنايا بعدها تتطلَّعُ
فإنْ قَصَّها المِقْراضُ جاءتْ بأُخْتها وتطلعُ يتلوها ثلاثٌ وأربعُ
وإن خُضِبَتْ حالَ الخِضابُ لأنَّه يُغالبُ صُنْعَ اللهِ واللهُ أَصْنَعُ
ويَضْحى كريشِ الدِّيْكِ فيه تلمُّعٌ وأنصعُ ما يُكْساه ثوبٌ مُلَمَّعُ

عبد الله بن عبد الجبار(١)

المعروف بابن بَرِيّ النحوي، المِصْري.

كان أديباً فاضلاً، بارعاً في علم النحو والعربية، وانتفع به خَلْقٌ عظيم، وتوفي بمِصْر في شوال، وكان حُجَّةً، ثقة.

[وفيها(٢) توفي

ابن رئيس الرؤساء، واسمه علي بن محمد(٣)

ابن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن الحسن بن المسلمة، أبو نصر ابن الوزير أبي الفرج]، الذي قتلته الباطنية(٤) [في أيام المستضيء](٥) وهو يريد مكّة، ولما قُتِلَ أبوه دخل في طريق التَّصوف، وبنى رباطاً بالقَصْر من دار الخلافة للصُّوفية، ورتَّبَ فيه جماعةً منهم، ولم يدخل في شيء من الولايات، [وكان قد سمع ببغداد أبا الوقت، وأبا الفَضْل بن الأُرْمَوي وغيرهما، وسمع منه ابن البَنْدَنيجي وغيره، وخرج من بغداد ولم يعلم به أحد](٥)، وكان وصل

(١) له ترجمة في «معجم الأدباء»: ١٢/ ٥٦ـ٥٧ ، و«إنباه الرواة»: ٢/ ٣١٨ ، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٥٨ـ٦٠ ، و«كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٦٧ ، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ١٠٨ـ١٠٩ ، «إشارة التعيين»: ١٦١ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٣٦ـ١٣٧ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) في (ح): علي بن محمد ابن الحسن ابن المسلمة، أبو نصر ابن الوزير أبي الفرج، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٦٦ـ١٧٧ ، و«الوافي بالوفيات»: ٢٢/ ٤٧ـ٤٨ ، وفيه وفاته سنة ٥٨١هـ.

(٤) قتل والده سنة (٥٧٣هـ)، وقد سلفت ترجمته في وفياتها.

(٥) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

دمشق، فأكرمه صلاح الدين، واحترمه بحيث إنه كان يأكل معه، ويغسل يده معه في الطَّسْت، فحسده شمسُ الدِّين بن هُبيرة، وبلغ السُّلْطان، فقال: هذا وزير ابن وزير إلى أن ينقطع النَّفَس، مع الدِّين المتين، والزُّهْد في الدنيا، وغيره ليس كذلك، وأقام عند السلطان محترماً إلى أن توفي في جُمادى الآخرة، ودفن بقاسيون، وصلى عليه السلطان، وقد بلغ أربعاً وأربعين سنة.

محمد بن أتابك إلدكز(١)

ولقبه شمس الدين البهلوان [وهو الذي ذكرنا أنه نزل على خِلاط عام أول، و](٢) كان حاكماً على العراق وأذربيجان والرّي وأصفهان، وكان اسم الملك واقعاً على طغريل بن رسلان بن طغريل بن [محمد بن](٣) ملك شاه، وكان تحت حِجْر البهلوان، ويأكل البلاد باسمه، وكان ظالماً فاتكاً، ولما احْتُضر أوصى إلى أخيه لأمه قزل، ومات [البهلوان](٢) بهمَذَان، وخلَّف ما لم يخلفه أحد، أما الأموال فما تحصى، وأما المماليك فترك خمسة آلاف مملوك، وثلاثين ألف فرس وبغل وجمل، وأقام أخاه مقامه وشبَّ طغريل، فأَنِفَ من الاحتجار، فركب من هَمَذَان، ومعه مماليكُ أبيه ومماليكه، وجاء إلى أصبهان، وتبعه قزل، ووقعت الحرب، فأحرق قزل أصبهان حتى مدارسها ورُبُطها ومساجدها، ومات الناس جوعاً [بسبب ذلك](٤).

السنة الثالثة والثمانون وخمس مئة

فيها فُتِحَ البيتُ المقدَّس، وعكا، وحصون السَّاحل، وسببه وقعة حِطِّين.

خرج السُّلْطان من دمشق غُرَّة المحرَّم بعساكر الشَّام، فنزل بُصْرى يرتقب وصول الحاج وأُخته ست الشَّام، وولدها ابن لاجين، وكان قد بلغه أنَّ إبرنس الكَرَك يرتقب

---

(١) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وله ترجمة في «تاريخ دولة آل سلجوق»: ٢٧٥ ، و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٣٨٨ ، ٥٢٥ـ٥٢٦ ، و«كتاب «الروضتين»: ٣/ ٢٦٨ ، «وفيات الأعيان»: ٥/ ٢٠٨ .

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) ما بين حاصرتين من (م)، وفي (ش): من الحصر الذي كان.

وصولهم، فخاف من غَدْره، ووصل الحاجّ في أواخر المحرَّم، وخلا سِرُّ السُّلْطان منهم، فسار إلى الكَرَك، فقطَع الأشجار، ورعى الزُّروع، وفعل بالشَّوْبك كذلك، وأقام ينتظر عسكر مِصْر، وكان عند مسيره إلى الكرك قد أمر ولده الملك الأفضل أن ينزل على رأس الماء بطائفةٍ من العسكر ينتظر باقي العساكر الشَّرْقية، فأنهض الأفضلُ منهم طائفة للغارة على طبرية، وجعل مقدَّم العساكر الشَّرْقية مظفَّر الدِّين بن زين الدين، وعلى عسكر الشَّام صارم الدين قَيْماز النَّجْمي، فنازلوا طبرية، وتقدَّم بدر الدين دُلْدُرم، وكان مقدَّم عسكر حلب إلى طبرية، فخرج إليه [مقدَّم][1] الدَّاوية والإسبتار ومعهما جماعة، فقاتلوهم، فقتلهم دُلْدُرم، وأَسَرَ بعضهم، وسار إلى صَفُّورية، ففعل كذلك، وعاد بالأسارى إلى الأفضل، وهو على شقيف القيعان، وجاء السُّلْطان إلى تسيل؛ قرية غربي نوى، وصَعِدَ على تلِّها، وعرض العساكر، وسُرَّ بما رأى، واندفع يوم الجمعة سابع عشرين ربيع الأول نحو فِيْق، ورحل الأفضلُ والعساكر معه، فالتقوا على القحوانة، وكان يقصد المسير إلى العدو يوم الجمعة تبركاً بأدعية الخُطباء، وخيَّم على ساحل البحيرة في اثني عشر ألفاً من الفرسان، فأما الرَّجَّالة فكثير، وخرج الفرنج من عكا، فلم يدعوا بها مُحتلماً، فيقال: إنهم كانوا في ثمانين ألفاً مابين فارسٍ وراجل، فنزلوا صفُّورية، وتقدَّم السُّلْطان إلى طبرية، فنصبَ عليها المجانيق، ونقَّب أسوارها، ففتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الآخر، وتمنَّعت القلعة عليه، وبها السِّتّ زوجة القومص، وتقدَّم الفرنج، فنزلوا لوبية يوم الجمعة عند طلوع الشَّمس، وملك المسلمون عليهم الماء، وكان يوماً حارّاً، والتهب عليهم الغَوْر، وأضرم مظفر الدِّين النَّار في الزروع، وباتوا طول الليل والمسلمون حَوْلَهم، فلما طلع الفجر من يوم السبت قاتلوا إلى الظُّهْر، وصَعِدُوا إلى تل حطين والنار تُضْرم حولهم، فهلكوا وتساقطوا من التَّل، وكان القومص معهم، فحمل وفتح له السلطان دَرْباً، فصعِدَ إلى صفد، وعملت السُّيوف في الفرنج قَتْلاً وأَسْراً، وأُسِرَ من الملوك: كاي وأخوه جفري وإبرنس الكرك، والهنفري، وصاحب جُبيل وبيروت وصيدا، ومقدم الداوية والإسبتار وغيرهم، وجيء إلى السُّلْطان بصليب الصَّلبوت، وهو مرصَّعٌ بالجواهر واليواقيت في

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

غلافٍ من ذهب، [وهو عند النصارى مثل المسيح]، والذي أَسَرَ الملك دِرْباسُ الكُرْدي، والذي أسر إبرنس الكرك إبراهيمُ غلام المِهْراني، فلما رآهم السلطان [نزل، وسجد شكراً لله تعالى، وجاء إلى خيمته، فاستدعاهم، فجلس الملك عن يمينه، وإبرنس الكرك إلى جانب الملك، ونظر السلطان][(١)] إلى الملك وهو يلتهب عَطَشاً، فأمر له بقدح من ثَلْج وماء، فشربه وسقى الإبرنس، فقال له السُّلْطان: ما أَذِنْتُ لك في سَقْيه، فلِمَ سقيته؟ وكان السُّلْطان [قد][(١)] نذر أن يقتل الإبرنس بيده، فقال له: يا ملعون، يا غدَّار، حلفتَ وغدرتَ ونكثتَ، وجعل يعدِّدُ عليه غدراته، ثم قام إليه فضربه بالسَّيف حَلَّ كتفه، وتمَّمه المماليك، وقطعوا رأسه، وأطعموا جُثَّته الكلاب، فلما رآه الملك قتيلاً خاف، وطار عقلُه، فأَمَّنه السُّلْطان، وقال: هذا غدَّار كذَّاب، غَدَرَ غير مرَّة.

ثم عَرَضَ السُّلْطان الإسلام على الدَّاوية والإسبتار، فمن أسلم منهم استبقاه، ومن لم يُسْلم قتله، فقتل خَلْقاً عظيماً، وبعث بباقي الملوك والأسارى إلى دمشق إلى الصَّفي ابن القابض، فاعتقل الأعيان في القلعة، وبِيْعَ الأسارى بثمنٍ بخس، حتى باع بعضُ الفقراء أسيراً بنَعْلٍ، فقيل له: هذا ثمن بخس. فقال: أردتُ هوانهم. [ودخل القاضي ابن أبي عصرون][(١)] دمشق، وصليب الصَّلبوت منكساً بين يديه.

وعاد السُّلْطان إلى طبرية، وأمن صاحبتها، فخرجت بنفسها ومالها إلى عكا، وولَّى طبرية قَيْماز النَّجْمي.

وأما القومص، فإنَّه خرج من صفد إلى طرابُلُس، فماتَ بها، فقيل: إنَّه مات من جراحاتٍ كانتْ به، وقيل: إنَّ امرأته سمَّته، وقالت: هذا كان سبباً في هلاك دين النَّصرانية.

وأكثر الشعراء في هذه الوقعة، فقال العماد الكاتب: [من الطويل]

حَطَطْتَ على حِطِّيْنَ قَدْرَ مُلُوكِهِمْ ... ولم تُبْقِ من أجناس كُفْرِهُمُ جِنْسا
بطونُ ذئابِ الأَرْض صارت قبورَهُمْ ... ولم تَرْضَ أرضٌ أنْ تكون لهم رَمْسا
وقد طابَ رَيَّانا على طَبَرِيَّةٍ ... فيا طِيْبَها رِيّاً ويا حُسْنَها مَرْسى

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وقال ابنُ السَّاعاتي: [من الوافر]

جَلَتْ عَزَماتُك الفَتْحَ المُبِيْنا فقد قَرَّتْ عيونُ المُؤمنينا
وهانَ بك الصَّليبُ وكان قِدْماً يَعُزُّ على العوالي أن يَهُونا
يقاتِلُ كلُّ ذي مُلْك رياءً وأنتَ تقاتلُ الأعداءَ دِيْنا
فَقَلْبُ القُدْس مسرورٌ ولولا سُطاك لكان مكتئباً حزينا

من أبيات.

ذِكْرُ فَتْحِ عكَّا ـ [وفيها لغتان: المدّ، والنسبة إليها عكاوي،][1] وعكه بالهاء ـ وسار السُّلْطان من طبرية، فنازل عكه يوم الأربعاء سَلْخ ربيع الآخر، وليس بها مَنْ يحميها، لأَنَّ وقعة حِطِّين أبادتهم، وكانوا ثلاثين ألفاً، فطلبوا منه الأمان على نفوسهم، وما يقدرون على حَمْله، فأمَّنهم، ودخَلَها يوم الجُمُعة غُرَّة جمادى الأُولى، وكان بها من أسارى المسلمين أربعة آلاف، فاستنقذهم، وجعل الكنيسة جامعاً، وولَّاها ولده الأفضل، وولَّى القضاء والخطابة والإمامة لعبد اللطيف بن أبي النَّجيب السُّهْرَوَرْدِي، وغَنِمَ المسلمون أموالاً لا تُحصى، لما دخلوا عكا رَكَزَ كلُّ واحدٍ رُمْحه على دارٍ، فأخذها وما فيها، وأعطى [السُّلْطان][1] الفقيه عيسى جميعَ ما يختصُّ بالدَّاوية، ولم يحضر هذا الفتوح العادل، كان بمِصْر، فجاء، ففتح في طريقه مجدل يابا ويافا، وحضره الملك العزيز لأنَّه قَدِمَ مع العسكر المِصْري، ومضى إلى مِصْر، وما عاد اجتمع بأبيه، وفارقه في شعبان والسُّلْطان على صور.

وكتب العماد الكاتب إلى بغداد كتاباً أَوَّله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] والحمدُ لله على ما أنجز من هذا الوَعْد، وعلى نُصْرته لهذا الدِّين الحنيف من قَبْلُ ومن بعد، وجَعَلَ من بعد عُسْرٍ يُسْراً، وأحدث بعد أمرٍ أمراً، وهوَّن الأمر الذي ماكان الإسلام يستطيع عليه صَبْراً، وخُوطب الدِّين بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه: ٣٧] فالأُولى في عَصْر النَّبيِّ ﷺ والصحابة، والأُخرى في هذه الدَّولة التي عَتَقَ فيها من رِقِّ الكآبة، والزَّمان كهيئته قد استدار، والحقّ ببهجته قد استنار، والكُفْر قد رَدَّ ما عنده من المُسْتعار.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

والخادم يشرح مِنْ هذا الأمر والفتح العظيم والنَّصْر الكريم ما يَشْرَحُ به صَدْرَ المؤمنين، ويسوء وجوه الكافرين، ويورد من البُشْرى ما أنعم الله به من يوم الخميس الثَّالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس سَلْخه، وتلك سبع ليالٍ وثمانية أيام حُسُوماً[(١)]، عَدِمُوا فيها نفوساً وجُسُوماً، فأصبحوا قد هَوَوْا في الهاوية ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وأصبحت البلاد إلى الإسلام ضاحكة، كما كانت بالكُفْر باكية، ففي يوم الخميس الأَول فُتِحَتْ طبرية، ويوم الجُمُعة والسبت كانت الكسرة التي ما أبقت منهم بقية، ولا يقوم لهم بعد قائمة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢] وفي يوم الخميس سَلْخ الشهر فتحت عكَّه بالأمان، ورفعت بها أعلام الإيمان، وهي أُمُّ البلاد، وأُخت إِرَم ذاتِ العماد، وصليبُ الصَّلبوت عندنا مأسور، وقلب الكُفْر الأسير بجيشه المكسور مكسور، وأنصار الصَّليب وأعوانه قد أحاطت بهم يد القَبْضة، وغَلِقَ رَهْنه فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذَّهب والفِضَّة، وطبرية قد رُفعت أعلامُ الإسلام عليها، ونَكَصَتْ من عكه مِلَّةُ الكُفْر على عَقِبيها، وعُمِّرت حتى شَهِدَتْ يوم الإسلام، وهو خيرُ يوميها، وصارت البِيَعُ مساجدَ يَعْمُرها من آمنَ بالله واليوم الآخر، وصارت المذابحُ مواقفَ لخطباء المنابر.

وعَدَّ الحصونَ التي فُتِحَتْ، وقال في آخر الكتاب: وما يتأخَّر النهوض إلى بيت المقدس، وهذا أوان فَتْحه، وقد دامَ عليه ظلامُ الضَّلال، وقد آن [أن][(٢)] يُسْفِرَ فيه الهُدَى عن صُبْحه، والسَّلام.

[ذكر ما فتح السُّلْطان في هذه السنة من بلاد الفرنج بعد طبرية وعكا:

لما فتح عكا][(٢)] سار السلطان إلى تِبْنين، فتسلَّمها بالأمان، وتسلَّم صيدا، وبيروت، وجُبيل، وغَزَّة، والدَّاروم، والرَّمْلة، ويُبْنى، وبيت جبريل، والخليل عليه السلام، ونازل عسقلان، فَقُتِلَ عليها حسام الدين المِهْراني، ثم تسلَّمها، فكان بين أَخْذِ الفرنج لها وبين خلاصها منهم خمسٌ وثلاثون سنة، لأَنَّهم ملكوها في جُمادى

---

(١) الأيام الحسوم: الدائمة في الشر خاصة، والحسوم: الشؤم، وأيام حسوم: وضعت بالمصدر: تقطع الخير أو تمنعه، وقيل: المتوالية في الشر. «اللسان» (حسم).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة، وفوَّض السُّلْطان القضاء والخطابة إلى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن، وتسلَّم السُّلْطان هذه الأماكن في أربعين يوماً، أولها ثامن عشرين جمادى الأولى، وآخرها ثامن شهر رجب.

ذِكْرُ فتوح القُدْس: سار إليه السُّلْطان، فنازله يوم الأحد منتصف رجب، وكان المنجِّمون قد قالوا له: تفتح القُدْس وتذهب عَيْنُك الواحدة. فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى.

وكان قد نَزَلَ على غربيِّه أولاً، ثم انتقل إلى شماليِّه من باب العمود إلى بُرْج الزَّاوية، ومن هذا المكان أخذه الفرنج، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيَّالة والرَّجَّالة ما يزيد على ستين ألفاً غير النِّساء والذُّرِّيَّة، فنصب عليه المجانيق وآلة القتال، وتعلَّق النَّقابون بالسُّور، وقاتل الفرنجُ قتالاً شديداً، فلما رأوا أَنَّ المُسْلمين قد ظهروا عليهم سُقِط في أيديهم، وأيقنوا بالخِذْلان فصاحوا: الأمان، فبطل عنهم القتال، واستقرَّ الأمر على أن يخرجوا بأنفسهم وأموالهم وذُرِّيَّاتهم سوى الخيل الحربية والسِّلاح بعد أن يؤدِّي كلُّ واحدٍ منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصَّبي أربعة دنانير، وعن الطِّفْل ديناراً، ومن عجز منهم كان رقيقاً يستملك، ومن أراد من النَّصارى الإقامة فليقم، وتُؤخذ منه الجِزْية، وأقرَّ بأيديهم القُمامة، وعيَّنوا أماكن يزورونها، وسَلَّموا البلد يوم الجمعة سابع وعشرين رجب ليلة المعراج، فكانت مُدَّة استيلاءِ الفرنج عليه اثنتين وتسعين سنة، لأَنَّهم أخذوه سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، [وفتح في هذه السنة؛ سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة][(1)] ودخل السُّلْطان الصَّخرة، وغَسَلها بالماوَرْد وبلحيته وهو يبكي، ومحا الصُّور منها، وكَسَرَ الصُّلْبان، وأخرب دار الدَّاوية، وعمر المسجد الأقصى، وفرَّق الأموال التي أخذها من الفرنج ـ وكانت نيفاً وثلاث مئة ألف دينار ـ على العلماء والفقهاء والصُّوفية، وكان قد حَضَرَ معه هذا الفتح زُهاء عشرة آلاف عِمامة من جميع الأجناس، وتطاول جماعةٌ من الأعيان إلى الخطابة، فتذكَّر السُّلْطان قولَ ابنِ زكي الدين قاضي القضاة بدمشق: [من البسيط]

وفتحكم حلباً بالسَّيف في صَفَرٍ ... مُبَشِّرٌ بفتوح القُدْس في رَجَبِ

---

(١) كذا قال، والصواب سنة (٤٩٢هـ)، ومكث في أيديهم (٩١) سنة.

فأعطاه الخطابة[١].

وقال ابن القادسي [في «ذيله»][٢]: إنَّ صلاح الدين خطب، [بالبيت المقدَّس][٢]، وهو وهم منه.

وخلَّص السُّلْطان من القُدْس ثلاثة آلاف من أسارى المسلمين،، وبعث مع الفرنج الذين كانوا في القدس من أوصلهم إلى صور، وكان بها المركيس.

[قلت: ولقد ضيَّع السُّلْطان الحزم بتسيير الفرنج إلى صور، ولم ينظر في عواقب الأمور، فإن اجتماعهم بصور كان سبباً لأخذهم البلاد، وقتلهم من قتلوا بعكا من أجناد الإسلام والأعيان، وقد كان الواجب عرضهم على الإسلام، فإن أبوا فالسيف، وهو أصدق أنباء من الكتب، وأنى وكيف. وما أشبه هذه القصة بفدية الأسارى يوم بدر حيث أشار بعض الصحابة لأخذ ذلك القدر، وبعضهم أشار بضرب رقاب، وما صدر ذلك الرأي إلا عن صدر، فلا جَرَمَ قتل منهم يوم أُحد سبعون، وأسر سبعون من المسلمين، كما فعلوا يوم بدر بالمشركين][٢].

وكان القاضي الفاضل بدمشق مريضاً لم يحضر هذا الفتح، فأمر السُّلْطان العماد، فكتب إلى بغداد بالفتح كتاباً منه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ﴾[النور: ٥٥].

الحمدُ لله الذي أنجز لعباده الصَّالحين وَعْدَ الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشِّرْك والخلاف، وخَصَّ سُلْطان الدِّيوان العزيز بهذه الخلافة، وبدَّل الأمن به من المخافة، وادَّخر هذا الفَتْح الأسنى، والنَّصْر الأهنى لخادم المقام النَّبوي، ومنحه أخلصَ أوليائه وأخصّ أصفيائه بعد أن انقرض من الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرةِ تمنِّيه، وفوات ترجِّيه، وتقاصرت عنه الهمم، وتخاذلت عنه ملوك الأمم، فلله الحَمْدُ الذي حقَّق بفتحه ما كان في النَّفْس، وبدَّل وحشة الكُفْر فيه من الإسلام بالأُنس، وجعل عِزَّ يومه ماحياً ذُلَّ أمس، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقَسّ،

(١) في (م) و(ش): قال الفاضل: إنه أنطق الله السلطان بالغيب، فأعطاه الخطابة.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وعُبَّاد الصَّليب والشَّمْس، وأخرج أهل [يوم](١) الجمعة منه أهل [يوم](١) الأحد، وقَمَعَ مَنْ كان يقول بالتَّثليث أهل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقد فتح الخادم بحمد الله من الدَّاروم إلى طرابُلُس، وجميع ما حَوَتْ مملكة الفرنج إلى نابُلُس.

وذكر في «الفَتْح القسِّي» كلاماً في هذا المعنى، فقال: وغُسلت الصَّخرة بدموع الباكين من المؤمنين، ونُزِعَ لباسُ البأس عنها بإفاضةِ ثوب المُحْسنين، ورَجَعَ الإسلام الغريب منه إلى داره، وطلع قمرُ الهدى به من سِرَاره، وعادتِ الأرضُ المقدَّسة إلى ماكانت عليه من التَّقديس، وأُمنت المخاوف فيها وبها، فصارت صباح السُّرى ومناخ التَّعْريس، وأُقصي من المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المُصْطَفَوْن المقرَّبون، وخَرِسَ النَّاقوس بزَجَلِ(٢) المسبِّحين، وخَرَجَ المُفْسدون بدخول المُصْلحين، وقال المحرابُ لأهله: مرحباً وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين ما جَمَعَ الله لهم فيه شَمْلاً، ورُفعت الأعلامُ الإسلامية على منبره، فأخذت من بِرِّه أوفى نصيب، وتلَتْ بألسنة عِزِّها ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾[الصف: ١٣] وغُسلت الصَّخرة بدموع المتَّقين من دَنَس الكافرين، وبَعُدَ أهلُ الإلحاد من قُرْبها بقُرْب الموحِّدين، وذُكر بها ما نُسي من عهد المعراج النَّبوي والإعجاز المحمَّدي، وعاد الإسلامُ بإسلامِ البيت المقدَّس إلى تقديسه، ورجع بُنْيانه من التَّقوى إلى تأسيسه.

[وذكر العماد فصولاً في هذا المعنى](١).

وفي شعبان سار السُّلْطان إلى صور، فوصلها غُرَّة رمضان، فوجدها مدينةً حصينة؛ وهي في البحر مثل السَّفينة، والبحر محيطٌ بها من جوانبها، وليس لها طريقٌ إلى البر إلا من كان في القدس من مكان واحد فيه سبعة أبراج، وفيها المركيس، وكان شجاعاً حازماً، وقد انضوى إليه جميعُ مَنْ كان في القُدْس والسَّاحل من الفرنج، وأقام السُّلْطان ينتظر الأُسطول من مِصْر، فوصل فقاتلهم في البر والبحر، واتَّفق أَنَّ الأُسطول غَفَلَ ليلةً، فكبسه الفرنج، فأخذوا المراكب، ورمى بعضُهم نفسه في البحر فغرق، فتأخَّر السُّلْطان إلى سَلْخ شوَّال.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) الزجل: رفع الصوت. «اللسان» (زجل).

ووصل إليه من بغداد تاجُ الدِّين أبو بكر حامد أخو العماد الكاتب، فالتقاه السُّلْطان وأكرمه، فكان معه رسالة وتذكرة مشحونة بالعتاب على أسباب: منها أَنَّ الخليفة عتبه لأجل ابن البُوشَنْجي، ويلقب بالرَّشيد، وكان صبياً [ببغداد][1] لا يُؤْبه إليه، فخرج إلى الشَّام، واتَّصل بصلاح الدين، وقيل له: هذا من بيتٍ كبير، وكان أديباً، فأعجب السُّلْطان، فسأله أن يبعثه إلى بغداد في رسالة، فبعثه، فشقَّ على الخليفة، وقال: ما كان عنده غير هذا! وقصَّروا في حقِّه، فلما عاد إلى السُّلْطان تكلَّم بكلمات، وقال: ما التفتَ عليَّ وأُهِنْتُ.

ومنها أنَّ كلَّ من هَرَبَ من بغداد ولجأ إلى السُّلْطان يقبل عليه مثل تميرك وابن رئيس الرُّؤساء وابن هُبيرة وابن أبي النَّجيب وأمثالهم. ومنها مشاركته في لقب الخليفة بالنَّاصر، وأشياء من هذا الجنس، ثم قال في آخره: ويمنُّ علينا بفتح القدس، وهل فتح إلا بعساكر الدِّيوان وتحت راياته؟

فاستشاطَ السُّلْطان غضباً، وقد كان يرجو أن يأتيه الكتاب من الخليفة يشكره على ما فعل، ثم قال السُّلْطان لأخي العماد: أما ابنُ البُوشَنْجي فمن عندكم جاء، وقيل لي: إنَّه من بيتٍ كبير، وصحبني، وسألني إنفاذه إلى بغداد ليمنَّ على أهله ويتجمَّل بكم، فما أمكنني رَدَّ سؤاله، وأما الذين التجؤوا إليَّ من أرباب البيوت، فإنَّ الإنسان قد يلتجيء إلى كوخِ عجوز في البرية، فيجيره من القتل، فأنا فعلتُ فِعْلَ العرب، وحَفِظْتُ الذِّمام، وعرفتُ حقَّ من قَصَدني ولجأ إليّ، وصُنْتُهم أيضاً عن الحاجة إلى النَّاس، فيصير ذلك عاراً عليكم.

وأما مشاركتي في اللَّقب، فوالله إنني ما اخترته ولا اقترحته، ولكن لما أزلتُ دولةَ عدوه القائمة من مئتي سنة وكسر، وفعلتُ ما فعلت، لقبني المستضيء بهذا اللقب، وكتَبَ من بغداد إلى نور الدِّين بذلك، ولم يكن في زمانكم، ثم لو وقع هذا، ففي عسكري عشرة آلاف تركماني وكُرْدي لَقَبُ كلِّ واحدٍ صلاح الدين، فلِمَ لا أنكر عليه؟

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وأما قوله: إنني فتحتُ القُدْس تحت راياته وعساكره، فأين راياتُه وعساكره؟ والله ما فتحته إلا بعساكري وتحت راياتي.

وأرعد السلطان وأبرق، وتأكدت الوَحْشة باطناً، وأمسك السُّلْطان نفسه ظاهراً، وأكَّد الوحشة قَتْلُ ابنِ المقدَّم في هذه السنة على عرفات، وسنذكره إنْ شاء الله تعالى.

وأمر الفاضل فكتَبَ كتاباً إلى الخليفة يقول فيه: المحاققة تُوجب المفارقة، وإغلاقُ هذا الباب خيرٌ مِنْ فتحه، واندمالُ هذا الجرح خير من اتِّساعه وخَرْقه.

قلتُ[1]: وقد وقفتُ على نسخة الرِّسالة الواردة بالإنكار، وهي عن قِوامِ الدِّين يحيى ابن زَبَادة؛ أُستاذ دار الخليفة إذ ذاك، ومن إنشائه، والجواب عنها إليه من إنشاء القاضي، وهي رسالةٌ غريبة أحببتُ إثباتها هاهنا، والجواب عنها، وصورتُها بعد البسملة: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] ما جمعه الله تعالى للملك الصَّالح صلاح الدِّين ـ أدام الله عُلُوَّه ـ من أشتاتِ المناقب، والآراء الصائبة الثَّواقب، والبصيرة النافذة في المبادي والعواقب، يغني عن إطالة الكلام في كَشْف الغامض الخفي، فَضْلاً عن الواضح الجليّ، ومعلوم أَنَّ الأولياء المحروص عليهم، المرغوب في عمارة قلوبهم، واستخلاص غائل صدورهم، واستدامة الحُسْنى منهم وفيهم، لا تُطْوى الأمور معهم على إدراج الأدراج، ولا تُغضى العيون منهم على إقذاء الأقذاء، ولا تسمح بهم لمراجم الظُّنون ومظانّ الشُّبُهات، ولا يترك تعريفهم كلَّ ما ينظر منهم، بحيثُ يكون الإنعام محفوظاً فيهم، وودائع الصَّنائع مستبقاة عندهم، ولولا مكان صلاح الدين من الخِدْمة الشَّريفة، والشُّحّ به، والمنافسة فيه لما جُوْهِر بالعِتاب، ولا رُفِعَ دونه هذا الحجاب، بل كان يُترك الأمر على اختلاله، ويُدْمل الجُرْح على اعتلاله، وإنما الذي سَبَقَ له من الخِدَم، وسيق إليه من النِّعَم، والزَّمان الذي استنفد في اصطناعه، وإطارة صيته وإطالة باعه، والمبالغة في أسباب عُلوّه وارتفاعه، لا يسمح للغِيَر، ولا يعرض صفوه للكدر، ولا يرى

(١) القائل هو قطب الدين اليونيني، مختصر «مرآة الزمان»، وقد انفرد بإيرادها بتمامها، وانفردت نسخة أحمد الثالث من نسخ «مرآة الزمان» بهذا القسم من الكتاب، والرسالة عسيرة القراءة، فشا فيها التصحيف والتحريف، وقد فاتني ـ على ما بذلت من جهد ـ قراءة بعض كلماتها وعباراتها، وألمعت إلى ذلك في الحواشي، وانظر ص٦٧ من ج٢٢ من هذا الكتاب.

الدِّيوان العزيز أن يطوي عمله عنه بما نشرت الأيام منه، ليعرف مكان النظر بتوقيفه عليه، وإيضاحه لديه، كلٌّ ذلك على سبيل التسديد والتهذيب، لا على وجه التوبيخ والتَّثْريب، وقد ذكرتُ الأسباب التي أخذها الدِّيوان العزيز عليه، واستغرب وقوعها من كماله، لِيُرْعيها سَمْعَه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل القويم، ويُنصف في استماعها والإجابة عنها، غير عائج على الجدل، ولا مُؤْتَمٍّ بالمِراء المذمومَيْن شَرْعاً وعقلاً، بل يحملُ قولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح، وصدق النِّيَّة في رَأْب الثَّأي[1] والإصلاح، فإنَّ اتِّخاذ الدَّواء الممر لا يُتَّهم فيه الطبيبُ المجتلب للعافية.

فمنها أنَّ كلَّ من نشد بالعراق غيرَ ضالَّتِهِ، واقتضى الأقضية بما لم يقض أَرَبه، أو جَهِلَ فَعُرِّف، أو اعوجّ فثُقِّفْ، أو تهوَّر فوقِّف، أو أحوج إلى تهذيبه بالتأديب وسياسته، أو توجَّه عليه حقٌّ، فخاس به بخساسته، لا لعزَّته ونفاسته، لجأ إلى صلاح الدِّين ـ حَرَسَ الله مَجْدَه ـ في دَفْع حُدود الله وحقوقِ النَّاس عنه، فصار كساده عنده نَفَاقاً، ووجوب حرمانه لديه استحقاقاً، ووجد عنده الإقبال عليه، والقَبول والمسامحة له بكل ما يتسمَّجُ به ويقول، حتى سرى ذلك في كثيرٍ من سفهاء جنود أمير المؤمنين وأصحابه، وشاع عنهم التسمُّج فيما لا يصلح، وإلاقة[2] الألْسن فيما لا يحسن، والاجتراء إلى كلِّ مقول تحظِّره الأديان والعقول، ويكرهه الله والرسول، ويَزْجُر عنه المرويُّ والمنقول، وينبو بقائله عن الصِّراط المستقيم، ويؤتي إلى كلِّ أمرٍ مُظْلمٍ بهيم، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] فتوهَّم هذا أنه لو لم يكن لهذه الأعلاق عنده نَفاق، لما قامت بها لديه الأسواق، وقد كان الورعُ الدِّيني والأدب الدنيوي يوجبان على صلاح الدين ـ حَرَسَ الله نعمته ـ أن يقف في رضاه وسخطه، وإعطائه ومَنْعه، وتقريبه وإبعاده، وحِرْمانه وإسعاده عند إشارة الدِّيوان العزيز، ولا يكون له إرادةٌ في نفسه، فيقيم على هيبة الخِدْمة الشَّريفة، حسيباً على ملامح الألحاظ، ومخارج الألفاظ، ومظانّ الإيماء والإيماض، حتى لا يكون لأحدٍ مطمعٌ في أن لا يكون بمرأى من الدِّيوان ومَسْمع، فإنَّ صلاح الدين هو العُدَّة لقَمْع الأعداء بالسُّيوف وإِصْلاتها، فكيف بكفِّ الألسنة الهاجرة وإسكاتها؟ وأعجبُ الأشياء أَنَّه يظنُّ انطواء هذا

---

(١) الثأي: الإفساد، يقال: رأب الثأي: أي أصلح. «معجم متن اللغة»: ١/ ٤٢٢.

(٢) ألق يألق ألقاً وإلاقاً: انبسط لسانه بالكذب. «معجم متن اللغة»: ١/ ١٩٧.

أو ذا في دقائقه عن علوم الديوان العزيز، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فصل: وإنَّ مما أضحك ثغر الاستعبار ما انتهى عن العوام وأشباه الأنعام وطَغَام الشَّام من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التَّشْنيع إلى [اختلاق][1] كلِّ قولٍ كاذب، أما يعلم صلاح الدين وكل من صافح الإسلام قلبه أن هذا البيت المعظَّم الهاشمي هو البيت الذي اختاره الله من بَرِيَّته، واستودعه أسرار نبوته، واسترعاه خَلْقَه، واستخلفه في أرضه، وتعبَّدَ الأُمَمَ بولائه، ورفع من قدره وشانه، وقسم الجَنَّة والنَّار بين أوليائه وأعدائه، وخصَّه لسوق الدنيا بحذافيرها إليه، وتحريم الصَّدقة عليه، وغَرَسَ له في قلبِ كلِّ مؤمن حُبًّا، فقال عَزَّ من قائل: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] فإذا كان ولاؤهم على غيرهم فَرْضاً، فكيف لا يتولى بعضهم بعضاً؟ أفصائرٌ دين الله مُضْغة لكلِّ جاهلٍ، أغلف القلب موقور السَّمْع، منزور العقل، مفتون العقيدة، قد حَطَّه الله عن أوج الاجتهاد إلى حضيض التقليد، وتردَّى من مكان بعيد، لا يفرِّق بين أياً من أي، ولا يعرف الرُّشْد من الغَيّ، لا يعقِلُ الحقَّ فيتوخَّاه، ولا الباطل فيتوقَّاه، أما يعلمُ صلاح الدين أَنَّ هذا البيت المقدَّس عنه يؤخذ الفَرْض، ومنه تتلقَّى السُّنَّة، وباعتقاد إمامته تنعقد الجماعة، يُعَلِّم ولا يُعَلَّم، ويُخرس كلَّ منطق إذا تكلَّم، ولهذا قال عليُّ بنُ أبي طالب عليه السَّلام: «نحن صنائع رَبِّنا، والنَّاسُ بَعْدُ صنائعٌ لنا» فما لكلِّ ذي ظَلْعٍ لا يَرْبَع على ظَلْعه، والخوضُ في دين الله؟ أما تعلم أَنَّ الحُكْم في دين الله مردودٌ إلى هذا البيت؟ أفرد الله تعالى بذلك منصب خليفته، وعزل عنه سائر خليقته، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ٨٣].

ومنها: ما جرى من سَيْف الإسلام بالحجاز من إزعاج الحُجَّاج، وإرهاج تلك الفِجاج، والإقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفِتن ونوائره، وتجديد السِّيَر القاسطة، وإحياء بِدَعِ القرامطة، ما نَفَر منه كلُّ طَبْعٍ، ومجَّه كلُّ سَمْعٍ، لأَنَّ مكَّة ـ حَرَسَها الله تعالى ـ هي أُمُّ الدِّين، الذي انتخبه وقرَّبه أمير المؤمنين، الذي أخرجه إرثاً عن آبائه الخلفاء الأبرار،

(١) ما بين حاصرتين من «الروضتين»: ٣/ ٤٢١، وكان أبو شامة قد انتقى فقرات من هذه الرسالة.

والأنبياء المُصْطَفَيْن الأخيار، فهم أصحابُ هذا البيت مُذْ بوَّأَ الله إبراهيمَ مكانه، ورَفَعَ هو وإسماعيلُ قواعِدَه وأركانَه، وقد كان في الدُّهور المتطاولة، والفترات المتراخية من تداول الدُّوَل، وتناسخ الشَّرائع والمِلَل، ما عَجَزَ أهلُ السِّيَر عن ضَبْطه، وحَصِرَتِ التواريخ عن حَصْره، فلم يكن في هذه الأزمان كلِّها مَنْ تعرَّض لهذا البيت المنصور، في ذلك البيت المعمور، حتى كانتِ الملوكُ في الجاهلية وقَبْلَها يسمُّون هذا الحيَّ من ولد إسماعيل عليه السَّلام: أهل الله وسَدَنة بيته، فإذا كانت الطُّغاة والجبابرة، وأهل النِّحَل الكافرة، لم يعترضوا لتلك البقعة المباركة لعِلْمهم بسِرِّ الله تعالى فيها، وفي أهلها، وإحلال المَثُلات بمن أخافها، وتعرَّض لها مع كونِ الدُّوَل والمِلَل متمالئة عليه، تطمع الآن فيه، والدول تخدمه، والأديان تعظِّمه، هذا من غرائب تساويل الشَّيطان، ومرامي الأطماع، وأماني النفوس، فهذه نبذةٌ من أمالي الشَّرْع وقضايا العقل عُزِيا إلى ما يوجبه الأدب، وعرفان مواقع النِّعَم، أما كان فيما أولاه أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ وولاه من تلك البلاد والأطراف، والولايات الواسعة الضَّواحي والأرياف، إلى غير ذلك مما استكفاه فيه كفاف يصدُّه عن الطموح، إلى وطن أمير المؤمنين، والبيت الذي وقفه عليه ربُّ العالمين؟ فليس لأحدٍ مِنْ خَلْق الله تعالى فيه مطمع، ولا لبصرٍ من الأبصار نحوه مَطْمح، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عِنان أخيه فيما يقوِّض سوابقه وأواخيه، ويثْبِتُ عليه الحُجَّة، وتتعذَّر المعذرة فيه، هل هذا إلا تحككٌ بالغِيَر، وتنفيرٌ لأوانس النِّعَم؟ نعيذ صلاح الدين بالله مِنْ ذلك.

ومنها: ما قضى الناس منه العَجَب، وفُوْرِقَ فيه من الأدب والحَزْم ما وجب، التَّلَقُّب باللَّقب الذي استأثر به أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ وجعله عَلَماً لعظمته، وصار له كالاسم الأعظم الذي لا يُشارك فيه، ولا ينبغي لغيره، وقد شارف زمان الدَّولة ـ ثبَّتها الله ـ خوارج دوَّخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسُوا خلال الدِّيار، وأخافوا المسالك، واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشِّقاق أشقَّ المهالك، فما انتهى أحدٌ منهم فيما ارتكب واحتقب، إلى المشاركة في اللَّقب، فإنْ كان صلاح الدين رأى أو سَمِعَ من شارك الخلفاء الرَّاشدين ـ عليهم السلام ـ في أخصِّ صفاتهم، وانتهى إلى مساماتهم في سماتهم، فليمهد عذره بذكره والإعثار عليه، ليعلم أنَّه بسعادته حذا على مثال، ونسجَ على منوال، وامتثل ما سَبَقَ إليه أمثال، وإلا فسبحان الله! أما كان في الألقاب الفاخرة النَّابهة مندوحة

عن الوقوف على هذا المزلق المرتجِّ، وركوب هذا البحر الملتج، والمنازعة فيما لا يوجد له شاهد ولا محتجّ! ومن العجب أَنَّ أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ يخاطبه من سمة الملك بما لم يكن له، ويزاحمه هو فيما ليس ينبغي لغيره، ومن الحِكَم البالغة في وجيز الكلام: الذي يَصْلُحُ للمولى على العَبْد حرام.

ومنها: أنَّ كلَّ طرف يتاخمُ الدِّيوان العزيز من مواطن التركمان والأكراد ما زال أهلُه رعيَّةَ العراق، وخَوَلَ الدِّيوان العزيز، يَرِثُون الطَّاعة خالفاً عن سالف، لا يعرفون سوى أبوابه، ولا يجتمعون على غير نوابه، يسافر صلاح الدين ـ أدام الله علوَّه ـ إليهم باستزلال أقدامهم، والاسترسال لإقدامهم، وفَلِّ عزائمهم، وطَمْس ما رقمه الزَّمان من الطَّاعة في صدورهم، أفما كان فيهم من ألان الديوان العزيز لصلاح الدِّين مقادته، وألزمهم طاعته، وجعلهم أتباعه وأجناده من جموع تلك الخطط وأمرائها، ومتقدِّمي بيوتها وقدماتها غُنْية عن أجناد الحضرة وأشياع الحوزة؟ ولعل أجمل أعذاره وأمهدها في نفسه أن يقول: إنني أواصِلُ من يواصله الديوان العزيز، وأتقرَّب إلى من يقرِّبه، وتلك خدعةُ الصَّبيِّ عن اللَّبن. وجواب ذلك من وجوه متعدِّدة: أحدها أنه لو كانت قصوده ـ كما ذكر ـ لكان ينبغي له أن يقدِّم استئمار الدِّيوان العزيز فيه، ولا يفاتح أحدَهُمْ بخطاب، ولا يسمح لهم إن فاتحوه بجواب دون المطالعة بذلك، وتنجُّزِ الإذن فيه، وعَرْضِ كلِّ ما يجري في عرض التكاتب والتراسل على رأي الدِّيوان العزيز، فما يرتضيه يمضيه، وما يردُّه يقف عند محدود أمره فيه.

والثَّاني: أَنَّ كلَّ من يتكفَّل الدِّيوان العزيز بأمره، ويقف به في الاستحقاق عند حدِّه وقَدْره، لا يجوز لأحدٍ من الأولياء بَسْطُ أمله إلى حيث يقبضه الديوان العزيز عنه، لأن الذي يُسْديه إلى عبيده من الإنعام، لا يحتاج من غيره إلى تمام، لاسيما إذا عُومل الدِّيوان مع هذه الأحوال الغريبة بالمعافصة والمكاتمة، فظهر على ذلك كلُّ ما يوجب الإيماء بالظُّنون، والإيماض بالعيون، وشاع من ذلك ما أنكرته قلوب الخواصّ، وأطلق ألسنة العوام، نظراً إلى الظواهر والعادات التي لا يعتبر في الأكثر سواها، ولا يُحْكَمُ في الأغلب إلا عليها، وكتب الظَّواهر إذا حَسُنَتْ، والبواطن إذا عمرت سلمت

من هواجم الأوهام البارعة، ورواجم الأقوال المنازعة، فكيف إذا تنكرت المخايل، واشتبهت الدلائل، فقد أضاع ـ أدام الله علوه ـ الحَزْمَ، ونكث عن اللائق بأمثاله من أكابر الأولياء الذين يقتدي بهم مَنْ دونهم، إلى غير ذلك من الأسباب التي توجب الاتِّعاظ بها، ويُعَوَّل على الألمعية الكريمة في التبطُّنِ لها، كلُّ هذا يجري والديوان العزيز لا يتأثر به، ويحمله على أحسن محامله ثقةً بصلاح الدين، واعتماداً على صِدْق ولائه، وأصالة رأيه، وصحة معتقده، إلا أنه لما كَثُرَت الأقاويل النَّاشئة عن كل أمرٍ متوهَّمٍ مخيَّل أوجبَ الحزم أن يُواجه هذا المشروح بمثاله، ويُوازن بمقاله، ويكايل بمكياله، ليلمح صلاح الدين ـ أدام الله علوه ـ بتلطُّف فطنته النيِّرة مرمى الدِّيوان العزيز في ذلك، فيثوب إلى الواجب من قريب، ويرجع في مسالك المخالصة إلى سواء السَّبيل، فما أشار عليه بذلك مَنْ نصحه، ولا سوَّل له مَنْ شَكَرَ صنيعه عنده، لأنه عَرَضٌ لا يظن ويطنُّ به، ويشكك ويتشكك فيه، وما هذا إلا مِنْ حاسدٍ حَسَدَ صلاحَ الدين على نِعَمِ الدِّيوان العزيز، ولم يستطع أن يغير آراءه الجميلة فيه، فغيَّره هو عليه.

ثمْ من أدلِّ الأشياء على صفاء رأي الدِّيوان العزيز، وتلونه بسعادته[1] عليه ما جرى في البوازيج، وهو عضو من أعضاء العراق، كان الدِّيوان قد استولى عليها، ودخل العسكر المنصور من أقطارها، وأقام شمس الدين مقلَّد بن مهارش بها، يستطلع الأوامر الشَّريفة فيها، فأوعز إليه بالخروج عنها لمكان الوثوق بصلاح الدِّين، وما سبق من حلفه مغلَّظات الأيمان، المودعة خُزُن الدِّيوان، أنه يفتتحها وتكريت معاً، ويسلمها إليه، فركن منه إلى ذلك، وأعذر بالمهلة، وأخذ معه بوثائق الحُجَّة، ثم نقضت بالانتظار والإمهال المُدَّة، فلم يعضد ذلك القولَ فِعْلٌ، ولا لاحت له أمارة، ولا تحرَّك فيه ساكن، وطارت بذلك الوعد عنقاءُ مغرب، مع أنَّ الديوان العزيز ما كان يتعذَّر عليه أخذ البوازيج ولا غيرها، فإنَّ عسكره المنصور قد فتح القلاع الناهية بين الخَلْق، فاستنزل أهلها من صياصيها الشُّمْخ الشم، فلم تكن البوازيج المستأمَنة بأطماع التركمان، المستأمِنة برعاتها لتمتنع عن الجيوش المنصورة، التي تكفل الله بإظهارها

(١) كذا في (ح)، ولم أتبين معناها.

في كلِّ ما قط، وأيدها بالملائكة في كل ما رق، ولكنَّ حِفْظَ قلبِ صلاح الدين الذي حفظه عند الدِّيوان العزيز من أهمِّ المطالب، واصطفاء ولائه الذي هو أنفس الرَّغائب، ثم رعى الديوان العزيز مع ذلك دقيقةً مهمة، وصوباً ظاهر الصَّواب، خفيَّ اللَّمْحِ، وهو أن يُظْهِرَ للكافة أَنَّ عند صلاح الدين من حُسْنِ الطاعة ونقاء السريرة، والاجتهاد في مراضي الخدمة ما بعثه على انتزاع البلاد من مخالب الآساد، اقتساراً وحَرْباً، وتسليمها إلى الديوان العزيز صَفْواً عفواً، خدمةً يطَّوَّع بها من تلقاء نفسه، وامتيازاً على كلِّ من يناصبه من أبناء جنسه، واحتجاجاً لأمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ في اختصاصه وإدنائه، وليعرف أصحابُ الأطراف وولاة الممالك أنَّ مُثُلَ الديوان العزيز إلى صلاح الدين دونهم، وإبطائه إعفاءهم[1]، والإنافة به عليهم عن استحقاق بجميلِ المساعي، واستحبابٍ بحميد الوسائل والدَّواعي، لأن الديوان العزيز خصَّ صلاح الدين بالأَثَرةِ والتقديم، ورفع بناءه على كلِّ بيت قديم، واستهدف فيه مع أصحاب الأطراف، وذوي التيجان الموروثة عن الأسلاف لكلِّ معتبة، واحتمل منهم في سبيله كلَّ لائمة، ولو لم يكن في إحفاظهم، وتنكُّرِ طباعهم، وخطأ حظِّهم إلا ما يوجد به ـ أدام الله رفعته ـ من بينهم، وقطع به أنفاس منافساتهم من خطابه بالمُلْك، حتى لم يبقَ من يخاطبه قلمُ الديوان العزيز ملكاً سواه، لكان ذلك كافياً في إنفار قلوبهم، وإيغار صدورهم، واستثارة حفائظهم، واستخراج ضغائنهم، وكأَنِّي بصلاح الدين قد عارض هذه المعاتبة الحازمة، والمراشد الجازمة، والحجج الثَّابتة اللازمة بالامتنان بفتح مِصْر، وجهاد أهلِ الشِّرْك، وسدِّ تلك الثغور المنفرجة، وتمهيد تلك الخطط المضطربة، فإن كان المقصود الجنوح إلى المواربة، والتجانف عن الموافقة والمجامعة، والأخذ في الجدل، وإبراز شُبَهِه في معترض الحِجاج، فذاك أطولُ من الأعمار، وقد جُودل في الآيات المحكمة وصحاح الأخبار، وما أمسكت قط الألسن الأهوية والإعراض عن المماراة والاعتراض، وإن كان المقصود بمحض القول محض الحقِّ، فلا مِرْية أن فوائد فتح مصر كلها مقصورة على صلاح الدِّين ـ أدام الله سعده ـ في إطالة الباع، وإطارة الصِّيْت، وتأثيل المجد، واجتلابِ الدَّرِّ، والمزاحمة بمنكب

(١) كذا في (ح)، ولم أتبين معناها.

الملك، والتخطِّي إلى مقام لم يكن له من قبل، والديوان العزيز في نجوةٍ من ذلك كلِّه، لأن منصب الإمامة المفروضة لا تزيده مصر والثُّغور إذا فتحت، ولا تنقصه إذا استغلقت، وقد كان صيت رسول الله ﷺ في السماء مشهوراً، وصوت بلال بالأذان في القليب مستوراً، ولقد قُبض رسول الله ﷺ ولم يَعْدُ سُلْطانُه دُومة الجندل والبحرين، فما كان ضِيْقُ رقعة مملكته قادحاً في سَعَة أجزاء نبوته، وكانت الولاية الحقيقية في الدنيا له، وإن كانت أسياف أهلها عليه، وكذلك الإمامة التي هي وراثةُ النُّبوة، فلو لم يكن لأمير المؤمنين ـ ثبَّت الله دعوته ـ من دنياه إلا مكان مسجده ومصلاه، لما أبطل تغلُّبُ الباطلِ عليها حقَّه، ولا أخرجه استيلاءُ الطُّغيان عن ملكه لها، وطالما كانت مصر في أيدي الخوارج المارقين، وما أثَّر ذلك في مماجد الخلافة وإمرة أمير المؤمنين، وكما لم يقدح استيلاءُ المُشْركين على بلاد الشَّام، وهي لمقر الخلافة والإمامة أقرب، كذلك لم يقدح استيلاءُ الخارجين على مصر، وهي عنها أبعد، وأمير المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه ـ صاحبُ الأرضِ بأَسْرها، والمستحقُّ لها باستخلاف الله تعالى إياه فيها، سواءٌ زُويت كلُّها له أو زُويت عنه، فإنْ نافره منافِرٌ كان كما لو كَفَرَ بالله كافر، فكما لا يُخْرِجُ الكافرَ كُفْرُه أن يكون عبداً لله، فكذلك التغلُّب على الأرض لا يخرجها عن استحقاقِ خليفة الله، وإذا فخرت الملوك بالممالك، فخرت الممالك بالخلائف، وبعدُ، فوالله ما كانت مِصْرُ محميةً بمن كان فيها، بل باشتغال الخلفاء الرَّاشدين ـ عليهم السلام ـ بالأحداث عنها، ومازال عمال الدولة القاهرة حاكمين فيها إلى أن تجدَّدت الأخلاف الشَّاجرة، والفتن النَّائرة، وانثيال الخوارج من كلِّ صوب، وانتزاء النَّواجم من كل أوب، فَشُغِلَ الدِّيوان العزيز عمن تغلَّب على مِصْر من الباغين، كما شُغِلَ عمن تغلَّب على الشَّام من المشركين، وباباتهم، تَمَّ ذلك كلُّه[1]: ممن خرج على الخلافة وعصاها، وفارق الجماعة وشَقَّ عصاها، ولم يكن الديوان في أثناء ذلك كلِّه مهملاً لمِصْر، ولا غافلاً عما فعل الظالمون، ولكن أَخَّر ذلك إلى حين بلوغ أجلِ الكتاب في التدبير، أَخْذاً بسُنَّة الله تعالى في تقديم الإملاء على التدبير، وكوتب الصَّالح نور الدين محمود بن زَنْكي ـ

(١) كذا في (ح)، ولم أتبين معناها.

رحمه الله ـ في تلك الأيام السعيدة المقتفية ـ قدَّسها الله تعالى ـ لأنه كان يومئذٍ نائبَ الدِّيوان العزيز في ذلك الطَّرف بالشَّرْع في أمر مِصْر، وأن يُعملَ فِكْره، ويستوريَ رأيه، وينتضيَ عزمه، وأنْ يهجرَ الدَّعَة، متجرِّداً في نَصَبه وانتصابه، إلى أَنْ يستقرَّ حقُّها في نصابه، وكان أسدُ الدين شيركوه ـ رحمه الله ـ ظهيره يومئذٍ، فتظاهرا على امتثال ذلك المرسوم، وأصَّلا لذلك الأمر أساساً، وفتلا له أمراساً، وكان صلاحُ الدين المخصوص باختتام مناقبها، واعتلاء مراقبها، والاستئثار بفخر صدورها، فتقدَّمَ الدِّيوان العزيز بقِدَمِ أسبابه حتى أقدم، وابتدائه حتى تمَّم، واحتطب له حتى أضرم، وهل كانت نائبة مِصْر إلا طيفاً حلم به الزَّمان، ورقيمة كُفْرٍ محاها الإيمان، ومَعْلَمَ باطلٍ زَحَفَ به الحقّ، فدرس عفاء، وزبداً احتمله السَّيل فذهب جُفاءً، وإنْ أنصفَ صلاحُ الدين عَلِمَ أَنَّه ما فتح تلك الأَرْتاج، وتسنَّى تلك الاستزادة إلا بيُمْن آراء الدِّيوان العزيز وتسديده، ولا فتح أقاليمها إلا بتقليد تقليده، فإنَّه استند من عِزِّ الخلافة الشَّريفة إلى حَوْلٍ لا يُحاول، وسما من طَوْدِها إلى طَوْدٍ لا يُطاول، وجاش من جُيوشها بصلالٍ لا يُصاول، فذلَّ له كلُّ صَعْب، والتأم به كلُّ شِعْب، وأسلست له المصاعب قِيادَها، وقرَّبت له الآمالُ آمادها، حتى أباح تلك الأرضين وأبادها، وفَرَسَتْ ثعالبه آسادَها، ورسا أصل إمرته ورسخ، وسما فَرْعُها وشمخ، وكذلك كلُّ مَنْ تقدَّم وسلف، وكذا يكون كل من تأخر وخَلَف، ممن عَصَبَتْ عليه النباهة تاجاً، ونَصَبَتْ له الرِّياسة مِعْراجاً، فَمَن الذي ارتفع شأنه إلا بإعلائها، ولُوِيَتْ له الرِّقابُ إلا بلوائها، أو نَبُهَ اسمٌ إلا بتنويهها وإسمائها، وأخصب له جنابٌ إلا في رَوْضها المَرُود، أو نَقَعَ له أُوام مرامه إلا من حَوْضها المورود، أَوْ علت له ذروةُ مجدٍ إلا على ضوامرها القُود، أو رأى يوماً أبيض إلا تحت راياتها السُّود، وهذا كلُّه لا أقوله إنكاراً لجلائل مقاماتِ صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل الله تعالى ونَصْرِ المسلمين، ولا طمساً لآثار مآثره التي طرَّزت السِّيَر، ولا ريناً على أيامه الواضحة الغرر، ولا جَحْداً لمناقبه في النِّضال عن الدولة القاهرة، والنصح لدعوتها الهادية، وركوب الأخطار في إعلاء كلمة الدين حتى قام أوده، وجثومه على رجفان الزَّمان حتى سكن ميده. وإنه ـ أدام الله علوَّه ـ رجل وقته، ونسيج وَحْدِه، والمُرْبي على كلِّ من سَلَفَ من صنائع الدَّولة القاهرة، وعلى من يأتي من بعده، ولكنه الولي المخلص، الذي

عهد فوفى، واسْتُكْفي فكفى، وطَبَّ فشفى، ونَهَجَ محجة الطاعة فلم يغادر فيها أَمْتاً ولا جَنَفاً، فكيف يجوز له بسعادته أن يُهَجِّنَ مساعيه الغُرَّ المحجلة، ويُهْبِطَ مكانته المكرمة المبجلة، ويُبْطِلَ حقوقه الثابتة المسجلة، ويُخْرج عن يده رأياً لا تقوم الممالك إلا بأمره، ولا تطمئن المنابر إلا بذكره، ولا يصحُّ نَسَبُ الفخر إلا بالانتماء إلى عبوديته، وليس في سائر الوجوه عنه عِوَض، ولا يأخذ من الخَلْق عنه عفاء لا سيَّما صلاح الدين وأمثاله من أكابر الدِّيوان لا يَفْرعون ذروةَ المجد، ولا يستمدُّون وِطاء المُلْك، ولا يستصغرون الخدودَ الصُّعْر، ولا يستذلون الرِّقاب الغُلْب، ولا يتوطَّد لهم مقام زَلِق، ولا يتحزَّمُ لهم وضينٌ قَلِق، إلا إذا استندوا إلى رُكْنه، وأووا إلى ربوة خدمته، وأشرقت عليهم أشعة طاعته، وماسوا في ذلاذل تشريفاته، وكاثروا بجنود حدوده، واستنجدوا بالملائكة التي لا تسوَّم إلا لنصره، فقد عَلِمَ كلُّ مَنْ نظر في التَّواريخ والآثار، ونصحته بصيرتُه في التبصُّر والاعتبار، أَنَّ هذا البيت المُعَظَّم مازال يرفع الأقدارَ الخاملة، ويسم الأغفال الهاملة، ويجذب بصنع العبيد من كلِّ مهوى بعيد، تقبلاً لسنة الله تعالى في الإيجاد من العدم، وعموم الأُمم بالنِّعم، فيثورون عليه بطراً، فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم إظهاراً وظَفَراً، كدأب آل طولون وآل سامان وآل بُويه وآل سَلْجُوق، وقروناً بين ذلك كثيراً، فمن الذي زلزلوه فَثَبَتَ؟ ومن ذا الذي حصدوه فنبت؟ وأيّ نار أوقدوها فَخَبَتْ؟ كلا والله ما طاش لهم سَهْمٌ، ولا صَلَدَ لهم زَنْد، ولا فُلَّ لهم حَدّ، ولا قامت إلا ببقائهم قائمة، وهذا أمرٌ عقده الله في سمائه، وحكم بإنفاذه وإمضائه، وعنون به سِرَّ قَدَره وقضائه، ونَصَبَه عَلَماً على إسخاطه وإرضائه، فمن ذا الذي يحلُّ معاقدَ الأقدار، ويطور بهذه الأطوار، ويمانعُ شامخَ الفلك الدَّوَّار، ويكشف الأستار عن مراد الله في هذه الأسرار؟ ولما اعترض فيه الملائكة المقرَّبون أُسْكتوا وبُكِّتوا بأني أعلم نبأ ما لا تعلمون، فبالله عليه بسعادته ما الذي أحوجه إلى فَصْمِ العِصَمِ عن بيتٍ هذا مُرْتقاه في الدُّنيا، وله الشَّفاعة والمقامُ المحمود في العُقْبى؟ وما الذي حمله على هذه الوحشات؟ هل استكثر له جزيل المال؟ أو أُنيف بغيره إلى هذا المكان العال؟ أو طُولب بحقِّ الله مما اختاره من الغنائم والأنفال؟ أو حُطَّتْ له رتبة؟ أو ذُلِّلت له صعبة؟ أو طُومِنَ له بَأْوٌ، أو كُفْكِفَ له شَأْو؟ لا والله، بل جعله أمير المؤمنين ـ صلواتُ الله

عليه ـ مطمحاً للأبصار، وعنواناً لولاةِ الضَّواحي والأمصار، وتاجاً على رؤوس الموالي والأنصار، وأَرْبى به على كلِّ مجد، ووَسَّطَ به كل عِقْد، وأَسْلَفه من النِّعم الشَّريفة في هذا الأمد القصير من التنويه والتنويل، ما لا يُدْرك في المساعي العظيمة في الزَّمان الطويل، بحُسْن فراسةٍ فيه، وجميلِ ظَنٍّ به، وبصيرةِ الرأي في اصطفائه، واستزكاء لمغارس الصُّنْع عنده، فلا ينبغي له مع هذه المزايا التي أصبح بفخرها نابهاً، والعطايا التي أضحى في نعمائها دون الأنام فاكهاً، أن يُصالت من أصلته دون كل سَيْفٍ مغمد، وأشبَّ ناره دون كلِّ وقود مخمد، ولا يحملنَّ صلاحُ الدين ـ أدام الله علوَّه ـ هذا العِتابَ اللطيف، والإبداء والإعادة في التأنيس والتوقيف على صورةٍ ملجئة إليه، ولا حافر باغيةٍ عليه، بل مجرَّد حرص الديوان على استضواء أقباسه، واستثمار أغراسه، وإلا فإنَّ وراء كتبه كتائب تغصُّ الفضا، وتنصُّ القضا، قوية السُّطا، موصولة السيوف بالخُطَا، بأسهم شديد، وقلوبهم تحت الحديد حديد، غانين بالكثرة والأَيْد، عن دقيق الحِيل والكيد، يقارعون على الحَقّ، ويغيرون على الموت في سبيله، والآن فلا يكونن قول هذا مستدعياً للمناقضة، ومفتاحاً للمعارضة، فإنِّي أعلم أَنَّ عنده بسعادته أذهاناً صقيلة، وألسنة قؤولة، وأقلاماً في هياج الاحتجاج صؤولة، لكن لسنا في تحاسين الأقوال، وتلافيق المِراء والجدال، والاستباق في مضمار الكلام، وإنما نحن في معاظم، وتسكين ثوائر، وإطفاء نوائر، وتمهيد أمر مائر، وحدٍّ لا يجوز فيه التجوز، ولا يصلح فيه إلا الإنصات إلى الحق والإنصاف في الحكم به، وأنا معذور، بل مشكور على تشقيق المقال في هذا المعترك من وجوه كثيرة، منها: مذهبي في الصِّدق، وإدارة إرادتي على نَهْجِ الحق، وإنني في هذه السعادة جئت على فَتْرَةٍ من الرُّسُل، وتراخٍ من الكتب، وثائرٍ من القلوب، ولم أجد لإدمال هذه الجراح على أصل الصحة والصَّلاح، إلا بالقول المحض، والصِّدْق الصراح، وربما أُتَّهمُ في قول هذا بإغراقي في النَّصيحة، وكَشْفي الأغطية، وقديماً وقَعَ ذلك لكلِّ مصلح، وقد يستفيد الظِّنَّةَ المنتصح، ولكن مقامي هذا لا يحتمل اللَّجْلَجة والمسايرة دون المصارحة والمظاهرة، والانتهاء إلى الغاية التي توجبها الأمانة، وكفانا بالتعيين في هذه السِّفارة على تاج الدين ـ أدام الله علوه ـ فإن الله سبحانه امتنَّ على الأُمم بابتعاث الرسل إليهم

من أنفسهم، وقد بلغتُ جَهْدي في الكشف عن وجه الأمر ليؤتَى تدبيرٌ من صَوْب الصَّواب، والله الموفق لتيسير الدَّواعي والأسباب، بمنِّه وكَرَمه، اللهم هل بَلَّغْتُ؟ وللرأي السَّامي الصَّلاحي علوُّه، إن شاء الله تعالى.

والجواب عن السُّلْطان صلاح الدِّين رحمه الله من إنشاء القاضي الفاضل رحمه الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]. أدام الله أيام المجلس السَّامي القِوامي إدامةً تؤذن بتشييد معاليه، ويشتمل بيُمْنها وبركتها حاضر وقته وتاليه، ويؤيد من يواليه مواليه، ويخلد معها ناضر وقته وحاليه، ويتكافأ بها ترادف النصر وتواليه، وتزينه بمحاسن الصِّفات وتحلِّيه، وترى طلوع نجمه من مطالع السَّعْد وتجلِّيه، وتضاعف ما تمنحه به الكرامة وتوليه، والله في كلِّ حال حافظه وكاليه. وصل الكتاب الكريم فملأ القلوب مهابةً، وحاكى بطيبِ عَرْفه ملابه، ونشر النَّاشر منه عطراً، ونشق الناشق منه قطراً، وأطيل الرنو إليه بالعيون، وأعظم أن يحمل على الأيدي فحمل على الجفون، وتبسمت الأرض عند معاينته تقبيلاً ولثماً، حتى كاد أن يؤثر بالشفاه صدعاً ورثماً، وكأنما استحال التُّرْب عند لثمه عبيراً، وانقلب أديم الغبراء سُنْدساً وحريراً، ورُفِعَ الدُّعاءُ إلى مقرِّ الإجابة ومظنَّتها، وشفع بمفروض الضراعة وسُنَّتها، على أنه تضمن ما يزعزع الأطواد، ويقطع الأكباد، ويطرد عن الجفون الرقاد، وفض عن ثناء عظيم، وخَطْبٍ جسيم ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] يرعد الفرائص فَرَقاً، ويغصُّ بالرِّيق شَرَقاً، لأنه عَبَّر فيه عما يعجز أهل البلاغة واللَّسَن تلافيه، وشاب عَذْبَ كَلامه بعذاب كِلامه، ومزج الشَّهْد من حُسْنِ رأيه بذُعافِ الواشي وافترائه، وفي سالف الوقت قيل فيمنْ سارع اللائم إليه وأَعْنته: رُبَّ ملومٍ لا ذنب له، وإن كان ـ أعلى الله كلمته ـ أعنقَ في النَّصيحة وأَوْضَع، فلقد أنهر الجروح وأوسع، وربما بالغ الطبيبُ في إغراق المبضع فأوجع، واشتدَّ الألم وإن لم يلم، لأنه غير خاف عن أحد من أهل مِلَّة الإسلام، وذوي العقول والأحلام أن الدِّين عِقْدٌ سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ واسِطَتُهُ، وعَقْدٌ هو رابطته، وَوِرْدٌ هو قُرْبه، وسجاح

هو كرمه، وعماد هو مشيده، وظَهْرٌ هو أبهره ووريدُه، وكتاب هو عنوانه، ودُرٌّ هو صِوانه، ورمح هو مسلاته واهتزازه، وبُرْدٌ هو تحبيره وطرازه، وأنَّ طاعته سبيلٌ مَنْ خالفها ضَلَّ وغوى، ومنار من تنكبه زَلَّ وهوى، وهو الشَّمْس التي لا يكفرها ضبابُ الجحود، والنعمة التي لا ينكرها إلا المارد الكنود، وله العهودُ المحيطة بالرِّقاب، والأمانة الخالدة على الأحقاب، والدعوة الباقية في الأعقاب، والرتبة التي يستوجب بها الأسماء وأشرف الألقاب، ولزوم الحجة التي لا تدفع بالمناكرة، ووجوب الإخلاص الذي لا يُلْغى بالخِدَع والمماكرة، والأمانة المُؤَدِّي حَقّ نفسه من أدَّاها، والمتابعة المنصوص بالسُّخْط على من جاوزها بالخِلاف وتعدَّاها، هذا ما يجب على المسلم اعتقاده، فكيف يُشَكُّ فيمن هذا ما ينطوي عليه ضميره وفؤاده؟ أو يُرتاب بمن قد أسنده ظهر؟ وهو تقديره في نفسه وتقريره، وتحقيقه في حِسِّه وتحريره، وأمير المؤمنين ـ أدام الله سُلْطانه، وعمر بإعزاز الخلافة المعظمة مواقفه الشَّريفة وأوطانه ـ عينُ الحنيفية الصَّافية، والنعمة السَّابغة الضَّافية، والممتثلة أوامره كَرْهاً وطوعاً، والسَّعيد مَنْ كان لدعوتها أسمع وأوعى، وهو وليُّ الأمة وإمامها، وجامع شتات المِلَّة ونظامها، أمورها إليه مردودة، وحدودها إليه محدودة، وهو المفوض إليه ما يتنازع فيه المتنازعون، والحاكم فيما يتثبط عنه المتثبطون، ويسارع إليه المسارعون، لا ينازع في ذلك منازع إلا والله بما يضمر عالم، ولما يقول سامع ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وأما ما أنهى من تترامى به إلى هذه الخطة المرامي، فإنه وإن دعت ضرورته إلى إعانته وجَبْرِ كسرته، فما أصغى إلى شكاته أحدهم بمسمع، ولا التفت عليه بمجمع، ولا تبين له في ذلك مطمع، وكيف ينصت إلى من أضاف إلى الآراء المظهرة جوراً، وجاوز بذلك حداً، وتعدَّى به طوراً، وهي النَّيِّرة بصيرةً عند انطواء الأمور واستتارها، والمأمونة على أحوال الأُمة وأستارها، وإنَّ طريد نقمتها بعدما كان يريد نعمتها، وإنْ وقذته فهي التي غَذَتْه، وأي تقوُّل يبسط، أو قول يظلم فيه ويقسط، ومن يقول بفيه التراب، وعلته الرِّباب، وليده الفدع، ولأنفه الجَدْع، ولو سُمِعَ من متسمج ما بدل

فساد ما أظهره فساد ما أخفاه، لَعُجِّلت عقوبته، ولانتزع لسانه من قفاه، ومَنْ جُلّ همه نَشْرُ الدعوة الهادية كيف يُظَنُّ به أن يسوغ لمن يهدم بهوانه ما بناه، حاش لله، ولولا الوقوفُ على قدم الأدب وقوة الظن أن هذا الضجر لا يقع إلا عن سببٍ لقلت: مِنَ المتزيد غير المتأيد، وأما نسبة ذلك الخادم واعتماده فهو الموجِبُ للهب كبده واتقاده، ونفور جفنه عن رقاده، وكيف يكون ذلك وهو بطاعة هذا البيت الشريف الذي نزلت فيه الآيات، ووردت الأخبار، وعلى ولائه عاش الصلحاء ومات الأخيار، وإليه مقاليدُ الأمور، وعليه أجمع الجمهور، وبفضله نَزَلَ الكتاب، وهلك بذلك المرتاب، فإنه الحَرَمُ المَزُور، والعلم المنشور، ولا يخالف ذلك إلا آثمٌ كفور، وإليه إيالة المغارب والمشارق، وكلما أَفَلَ نجمٌ نَجَمَ شارق، لا تحصى مآثره، ولا تكثر مكاثره، ولا تعدُّ مفاخره، المحمود الممدوح أوله وآخره، ووضوح الحق بذلك واستنارة دلالاته، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فهو معدن المفاخرة وجماعها، والصخرة التي أعيا الرِّجال انصداعُها، والذِّروة التي طال اعتياصها وامتناعها، لم يُغْره من سلطان إنالة، ولا يستطيل غيرهم بما لهم من الاستطالة، ولا يستطيع قائل أن يقول في سواهم هذه المقالة، أمرهم البليغ المطاع، والدُّنيا لهم نسوعٌ وأنطاع، والوَصَاة بطاعتهم من الله ونبيه المختار، أنَّ السلامة في جماعتهم، ومن شذَّ شذَّ في النار. هذا جُزْءٌ من مناقبهم التي لا يستطيع أحدٌ أن يحصيها، ولا ارتيابَ بها ولا شك فيها، وأنه ما طمع في مناوأتهم إلا من قُمِعَ وُوُتِرَ، ولا ناوأهم إلا من دَرَسَ، فلا عينٌ ولا أثر، ولا يغلبُ عليهم متغلِّب إلا عَثَرَ جَدُّه، وعُفِّر خدُّه، وردَّ الله كيده في نحره، ولا يدرك وصف فضائلهم مسهبٌ مطنب، ولا يملك نعت فواضلهم مِصْقَعٌ مُعْرب، طاعتهم واجبة بالاتِّفاق، لازمة في الأعناق، مقترنةٌ بطاعة الله ورسوله على الاطلاع، هذا ما لديَّ عتيد، والله علي به شهيد، وما على من سَمِعَ لَمْزة لَمَزَها متخرِّصٌ، ونُهْزَةً انتهزها متفرِّص عَتْبٌ وملامة، ولا ذنب يكسبه ندامة، وإن هذا عندي أعلمه يقيناً، ولا أفتقر أن أحلف عليه يميناً، بل مؤكد لا يحتاج إلى تقرير، ولم يتوسَّم أو يتوهم في الخادم غير ذلك، ولو احتوى على ما احتوى عليه كتاب المسالك والممالك، وأنه بحمد الله أمدُّ المماليكِ في الخدمة باعاً، وأسرعهم لأوامرها اتباعاً، وأقبلهم لها طباعاً، وأشدهم

بحسن آرائها انتفاعاً، وأكثرهم بها دفاعاً، والله المسؤول والمأمول أن يوضح الآراء الشريفة ما تشتمل عليه من الولاء ضلوعه، وما عليه تعويله وإليه مرجوعه، غير معرِّج على تخرُّصِ العدو واجترائه، وإقدام الواشي وافترائه، فإنه لا يرى نجاح مقاصده إلا بجميل آرائه، ولا معتقده إلا جُنَّة واقية من بأساء الدهر وضرّائه، وقد وَهَبَ الله تعالى الرَّعايا عامة، والمماليك الخدمة الشريفة خاصة، مِنْ فسيحِ رحمتها ورأفتها، وتغمدها بالعواطف المخطىء والمصيب، ومتثبِّط عن الطَّاعة ومستجيب، ما تحصل به الطمأنينة للعبد، لاسيما لمن لا يتداخله في الخلاف لها حَمِيَّة، ولا مرق عن طاعتها مروقَ السَّهم عن الرمية، ولا أَخَذَتْه عن التنويه في الانقياد لأوامرها سَوْرَةٌ جاهلية، بل يرى طاعته لهذا البيت محضاً لازماً، وفرضاً جازماً، مع أنه لم يَشُبْ صفاءَ ودِّه شائبة، وإن رأى يوماً خلافاً رأى ذلك عقاً وجهالة، وإن ابتدعوا الخروج عن الطاعة قال: هذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، لا يوافق لها مخالفاً، ولا يكون لنافرٍ عنها آلفاً، بل يجري من محض الطاعة على معهوده، ويبذل فيها قدرته وأنهى مجهوده، ولو حُمِلَ من الأوامر على الأصعب لرآه الأوفق الأقرب، مستعيذاً بالله من زلةٍ تفتقر إلى التجاوز والإغضاء، معترفاً لأنعمه التي ضفت عليه ملابسها، واطمأنت إليه أوانسها، وظهرت عليه صنائعها، وطلعت عليه بالغدوِّ والآصال طلائِعُها، وما ذكر ذلك إلا ليثبت البراءة من تخرُّصِ ما نَقَلَ الناقل، ليحق الحق ويُبْطل الباطل، ثم مع براءة الساحة وثبوت النزاهة، فإنه يلجأ إلى معقل التجاوز والعفو، ويأوي إلى رُكْنٍ شديد يشرع منه إلى مورد الصفو، ولا يخرج ذلك كما رَسَمَ مخرج الاحتجاج والمجادلة، ولا على وَجْه المناقضة والمناضلة، والمجلس السَّامي ـ أسماه الله ـ يأسو بطبه مرض هذه الحال، ويحسم داء هذا القول المحال، ويقول الخادم: إنّ تجرُّعَ مرارةِ الأعذار خيرٌ من التَّسرُّع إلى المعارضة بالإنكار، لاسيما مع ما يأمل من العفو لعظيم الزَّلات، وما ألف من كرم أعراقه، ومكارم أخلاقه بطلب الصَّلاح فيما يأمر به، ويشير إليه، حيث لم يُؤْنس منه إلا إعمال الرَّوِيَّة الصحيحة، والاعتماد على قوله عليه السلام: «الدين النصيحة»[1]، ولولا امتثالي لأوامره، واعتمادي لمرسومه عن آخره، فلا أقف مع المناهضة ولا المناقضة ولا

(١) هو عند الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٨١) من حديث ابن عباس.

المعارضة، لقلت: متى زَلَّتْ بي عن الطاعة قدم، واستقلت بي استقلالاً يحمل على ندم؟ ولم أزل مرتدياً أردية الخضوع عمري، في باطن حالي وظاهر أمري، لا أخلُّ بالمماحضة في مشهدٍ ولا غَيْبٍ، ولا أخرج عن المناصحة إلى شُبْهةٍ ولا رَيْب، ولا أرفع ولا أضع، ولا أكفُّ ولا أزع، ولا آخذ ولا أدع، ولا أطير ولا أقع، إلا بعد المطالعة بمكنون أمري وخافيه، وما لا يباين ظاهر الصِّدْق ولا ينافيه، وما تعرفت إلى نعمةٍ فكان لها مني تنكير، ولا غفلت عن شُكْرٍ فأفتقر إلى تذكير.

وأما سيف الإسلام، فما جهل فيما اعتمد حقَّ البيتِ وأهله، ولا أنكر حدود حَرَمه، وإنما عاين أموراً مختلة، وأحوالاً معتلة، فظنَّ أنه يلم شعثها، ويرم منتكثها، ويثقِّفُ اعوجاجها، ويُسَكِّن ارتجاجها، فَعَذْلُ المنتهي عن الغرض، كمن يصف للطبيب غير المرض، وما قصد إلا إطفاء الفتنة وإخمادها، أو صادَفَ الحال إجمادها، ولم تُنْه الحالُ على جليتها، ولا جُليت في حِلْيتها، ولو عَلِمَ أَنَّ هذا يقع من الخِدْمة الشَّريفة موقعَ السُّخْط والإنكار، لكان في حيازة مراضيها شُغْلٌ عن تلك الأحوال، والدُّخول فيها، لكن غَلَبَ على ظَنِّه أنَّ فِعْلَه خدمةٌ يتقرَّبُ بها إلى الآراء الشَّريفة، لا لينتسب إلى الإقدام والاجتراء، والحدود تُدْرأ بالشُّبهات، والتوبة تمحو السيئات.

وأما الاتِّسام بما استأثرتْ به الآراءُ الشريفة من اللقب المعظم، فما كان ذلك إلا مِنْ قَبْل أن يقعَ به الاتِّسام النبوي - زاده الله جلالاً - ولم يرسم فيه ما تقع الطَّاعة في مقابلته بالامتثال والارتسام، ولم يُجهل في ذلك مفروض، ولا طُمع أن يُتناول الجوهر تناول العُروض، وكيف يُحاول كَفُّ الثريا باللَّمْس، وأين السُّها النَّحْلَى من مطالع الشَّمْس، الحق أوضح مناراً، وأوسع مطاراً، وكيف يُخامر هِمَّتَه الكريمة الطمعُ في المشاركة في سمةٍ تتحاماها أطرافُ الرِّماح، وتقصر عينُ كلِّ طَرْفٍ عن الدُّنو إلى ذلك الطِّماح، وما صار لبدر الخدمة الشريفة هالة، ونُكِّبَ عن حالة كان عليها إعلاء حاله، فصار بذلك حَرَماً، وملىء ما شاء عتقاً وكرماً، فتحامته الأطماع، ووقع بإجلاله وإعظامه الإجماع، وإنما وقع تواصل ذلك، ولم يُعلم الانقطاع عنه والإمساك لما حصل على توزعها سفار البلاد، وترامت بها الأغوار والأنجاد، فلم يتمكن من استدراكها، ولا ارتجاعها من أيدي ملاكها.

ومـا كـلُّ دارٍ رَوْضُـهُ دارَةُ الـحِـمَـى ولا كـلُّ مَـصْـقُـولِ الـتَّـرائـب زيـنـبُ

وأما مواصلة من أُنكرتْ مواصلتهم من الأكراد، فما كان ذلك لثقلهم عن خدمةٍ هو فيها يشاركهم، قيامُ كلٍّ بها فَرْضُ عين، من غير تخلُّقٍ ولا مَيْن، ولكن كانت لهم وشائجُ نسب، وولائج خدم وسبب، فالتُمِسَتْ موافاتهم لتحصل مكافأتهم، وكان التعويل على استخراج الإذن الأشرف عند إجابتهم، فسيرفدهم بعد الإبعاد، فيحسن قِراهم عند القِرى، ويرجعون إلى خدمة المالك، ولولا ما قد أَلِفَ الخادم من التقلُّب في هذه البلاد، والتعرُّف والتصرف فيها لمغالبة أعداء الله بالجهاد، لودَّ أن يكون تحت الولاية الشَّريفة حاضراً كما هو تحتها بادياً، وأن يخدمها باطناً كما يخدمها رائحاً وغادياً، فيكون على النِّعمة باطنه وظاهره، ويفوز من ذلك بخير الدنيا والآخرة، فبحسن الآراء الشريفة مصبح النِّعم وممساها، تتبع أُولى النِّعم أُخراها، وباسم الله مجراها ومرساها.

وأما البوازيج، فما تأخر أمرها إلا لأمور عرضت من دونها واعترضت، وموارد تكدَّرت مشاربها وغرضت، وتقلُّب الفرنج في البلاد، وتغلُّبهم على حاضرٍ منها وباد، وتنقُّلهم بين الأغوار منها والأنجاد، وتوصلهم إلى البقاع والوهاد، فذاك الذي صرف الهِمَّة عنها والطَّرْفُ إليها طامح، وأوقع الإحجامَ عنها والعَزْم نحوها جانح، وإن خلا لها الزرع، حَصَلَ منها أصلُ المقصود والفرع. وأما الموسومون بالطَّغام، فلا يأنف الغنيُّ منهم الرّغام، وإن كان ما أنكر ثبت عمن له اسم يعتبر، أو وسم يختبر، فإن أنعم بتعريفه أوقع به ما يحذر ولا يعذر، وإن كان من الغثاء والغُتْر، ومن يقلُّ بهم الكُثْر، فأولئك الذين اغتبقوا الجهالة في المهد، ولا يمكن جمعهم على الحقِّ بجهد، وما وجدنا لأكثرهم من عهد، ومن لم يكن له حُلُم يَزَعُهُ، كان في الحلوم الشَّريفة ما يسعه.

وأما ما ذكره فيه بالإنعام عليه بالخطاب المفرد به عمن سواه، فما جهل الإنعام به، فكيف فحواه!

وأما ما تأثر بذلك عند الأطراف، ورجال على الأعراف، فحاله ينوب عندهم عن الديوان العزيز، وتقوم بحجته عند أهل النظر والتمييز، وذلك أنه لم يكن فيهم مَنْ خَدَمَ خِدْمته، ولا قدَّم من مناصحته ما قدَّمه، والبينة عليهم ظاهرة، وبراهين الخادم لهم قاهرة.

وأما ما حصل له من الصِّيت من فَتْحِ مصر فهذا لا يمكن أن يخفى ظهوره، ولا يُطْفا نوره، فإنَّ من احتفَّ بالسُّدَّة الشَّريفة، واقتحم في إعلاء كلمتها الأَهوالَ المخيفة، انتشر له صيتٌ لا يتوارى، وعلا له صوتٌ لا يُشَكُّ في علوِّه ولا يُتمارى، وعلاؤه معذوقٌ بإعلائها، وارتقاؤه متعلِّقٌ بارتقائها، والكلُّ منسوبٌ إليها، ومحسوبٌ من نِعَمِ الله عليها، وليس الخادم للأَنْعُمِ بجاحد، ولا من أيام اغترافه بواجد.

وأما ما يرجع إلى الفتوح التي افتتحها، ومنائح السبيل التي أوسعها الله للإسلام وفسحها، فأفعاله فيها نجومُ الديوان العزيز سناها، وثمارٌ له ما طاب وعَذُبَ من جناها، حيث بدعوتها يُبْدأ ويُعاد، وبمفاخرها يبنى ويشاد، وباستشراف الأدعية على منابرها ومنائرها يُتَشَرَّف، وبنفوذ التصرفات يُتعبد لأوامرها وباستحكامِ أواصرها يُتَصَرَّف، فهل من يقتحم غَمَراتها، فيزدحم على حُماتها بلجم نفسه أخطار دوائرها ودواهيها، إلا متردداً بين أوامرها ونواهيها؟ وهل يُظَنُّ الحِلْم فيه إلا لها لا عليها، والاستقلال بها إلا منها وإليها؟ وهل يكون لمُلابِسها وملامسها صوتٌ أو صيت، ولو ملك جميع آفاقها إلا بجريه على مراضي الخدمة ووفاقها؟ وهل هو عبد الخاصّ والعام، والناقص والتام إلا بمنزلة الرِّيش مع الريح يطير بمطارها، ويسير في أقطارها، يفيء حيث فاءت، ويتصرَّف كيف شاءت، لا ينفرد ببَسْط ولا قَبْض، ولا سماء له مع استزادة ولا أرض، هذا مما يمكن إنكاره، أو يسوغُ للعقل ابتداء الرأي فيه وابتكاره؟ لا والله، بل الحقُّ المبين اليقين، والصدق المبين أَنَّ أمر الخدمة الشَّريفة فوق كلِّ أمر، وقدرها أسمى وأسنى من كل قدر، وأن الكل بطاعتها يقفون، وبسُدَّتها الشريفة يحتفون، وليس ذلك مما يُنْكر فيه الواجب، ولا يُسْتر عن العيون بالرَّواجب.

وأما ما ذكر فيه من توفير الغنائم والأثقال، والإعراض عن إفساد السريع النازل منها والثِّقال، فإنَّ العلوم النبوية محيطةٌ بما قد جرت عليه عادة هذه البلاد، من مَرَدِّ ذلك على أهل المكابدة بها والجلاد، وصار ذلك قاعدة مقرَّرة وسُنَّة، ووقاية دون نقلها إلى غيرها وجُنَّة، وعادة المستناب يفوِّض أمره إليه، يجريه مجراه، ويضعه من المصلحة حيثُ يراه، هذا على أَنَّ أكثرها تعتوره النُّهَّاب، ويستولي عليه الذَّهاب في حالةٍ لا يمكن فيها المناقشة ولا المشاقة، ولا المنافسة ولا المحاققة، خصوصاً مع ما طرق هذه السنوات، وطبَّق من الهَنَات، وما انثال كما انهال من الرِّمال، فأيُّ مال واكتساب يقع بحَصْرٍ واحتساب؟ وأي حاصل يَسْلَمُ للاختزان؟ وأي عطاء يُنْتَظَرُ به لشرط

وميزان، وليس إلا نفوسٌ تُسْلَب، وجثث تُسْحب، ودماء تُسْكب، ومهجات تُطْلب، وكماة على حُشاشاتها تغلب، وفرسان على مناكبها تُقْلب، وحِمامُ الأرواح يجلب، وأخلاف المنيَّة تدرُّ قبل أَنْ تحلب، وشجعان بدماءٍ تُرْمَل، مع ما يعلم أَنَّ الخادم ليس له داعية إلى احتقاب مال ولا احتجانٍ، ولا ارتباط مَقْرَبٍ ولا هِجان، وإنَّ رِكابَ الأحمرِ والأبيض عنده مَلِق، فلا يمرُّ عليه إلا وهو منطلق، وقد مرت عليه أحوالٌ كثيرة، حاملة على التعرُّضِ لرافد الديوان العزيز مثيرة، فمنعه ما يعلم من أثقالٍ تحكم بأن تُحمل عنه، وإن كان البحر لا يَعْدَمُ مجتدياً، والبدر لا يسأم مهتدياً.

وأما ما شرح من أثر سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ـ خَلَّد الله سُلْطانه ومُلْكه، وألحق بعدوه هُلْكَه ـ وحقوقه الواجبة على الإسلام والمسلمين من قديم وحديث، ومكتسب وموروث، وكلٌّ مسلَّم به متعيّن الإقرار، ممن يعتقد فيه متيقن الإسرار، لا يفتقر أن تشقَّق له نهاية العبارات، ولا تتدفق بهاء الإشارات، فالصُّبْح أغنى بانتشار ضيائه مِنْ أَنْ يقال: أضاء أو قد أشرق، قَرَنَ الله كمالَ مناقبه بالتخليد، ووفقنا لحيازة مراضيه وكافة العبيد، قد شَرِبَ الخادم هذا الدواء، ولا بد له من تصريف، وهو ما يعد له من تشريف، لتكون الزيارة من الحبيب، والدواء من الطبيب، إن شاء الله تعالى.

[(١)قلت: وقد ذكر محمد بن القادسي قصة ابن البُوشَنْجي، فقال: كان] أمردَ في دروب بغداد، فطلعت لحيته، فخرج إلى الشَّام، فخدم يوسف بن أيوب، وسأله أن يرسله إلى الدِّيوان في رسالةٍ، فأرسله، فقامتِ القيامة على الدِّيوان، فلما عاد ابن البُوشَنْجي إلى الشَّام أكثر كلامه، فما مضى إلا أسبوع حتى جاءته نُشَّابة فذبحته، وكان ذلك عقوبة لما بسط به لسانه.

[قلت](٢): وهذه من هَنَات ابنِ القادسي، فإنَّه كان عامياً يتعمَّد المثالب، وقد أساء الأدب في مواضع، منها قوله: كان أمرد في دروب بغداد، ومنها قوله عن السُّلْطان يوسف ابن أيوب، وما ذكره ببعض ألقابه، ومنها قوله: جاءته نُشَّابة فذبحته، جعل الشَّهادة في سبيل الله عقوبة. وهذه الواقعة كانت في هذه السنة، وابن البُوشَنْجي

(١) في (ح): قال المصنف رحمه الله: قال ابن القادسي: كان ابن البوشنجي أمرد في دروب بغداد. والمثبت ما بين حاصرتين من (م)، وفي (ش) خَرْمٌ ذهب بالأخبار من هنا حتى أواخر سنة ٥٨٥هـ.

(٢) في (ح): قال المصنف، والمثبت ما بين حاصرتين من (م).

استشهد سنة ستٍّ وثمانين بعد أخذ الفرنج عكا من السُّلْطان، [(١)ومن العجائب في هذه الواقعة أنني اجتمعت في الموصل بالثقة ابن باز؛ شيخ] دار الحديث المظفَّرية في سنة خمس وست مئة، وجرت مذاكرة في غَزَوات صلاح الدِّين رحمه الله، فقال: حضرتُ معه في مرج عكا والفرنج قد أخذوها، فبينا أنا قاعد في سوق العسكر، وإذا بشابٍّ من أحسن الشَّباب قد جلس إلى جنبي، فذاكرته، فرأيته فاضلاً فصيحاً عاقلاً، فقلت له: يا سيدي من أين أنت؟ فقال: من أهل بغداد من بيت البُوشَنْجي، قلت: فما اللَّقب؟ فقال: يقبح بي أن ألقب نفسي، فأقسمت عليه، فقال: يقال: الرَّشيد، فقلتُ: وما الذي جاء بك إلى ها هنا؟ فقال: سمعتُ أَنَّ هذا السُّلْطان يعرف أقدار أولاد النَّاس، ويُحْسن إليهم، ورغبت أيضاً في الشَّهادة، فأتيتُ إليه، فأحسنَ إليَّ وأكرمني وأعطاني، ثم قال: أخاف أن تنقضي هذه الغزوات وما تحصل لي شهادة، فاسألِ الله تعالى أن يرزقني الشَّهادة، فقد تاقت نفسي إليها. فدعوتُ الله أَنْ يختار له [ما فيه الخِيَرة](٢)، ثم قلت [له: يا سيدي](٢) أنشدني [شيئاً](٢) من شعرك، [(٣) قال: نعم. وأنشدني هذه الأبيات]: [من الطويل]

قفوا فاسألُوا عن حالِ قلبي وضَعْفه ... فقد زاده الشَّوق الأسى فوق ضَعْفِهِ
وقولوا لمن أرجو الشِّفاء بوَصْله ... مريضُك قد أشفى على الموت فاشْفِهِ
أخو سَقَمٍ أجفاه إخفاؤه الهوى ... نحولاً ومَنْ يُخْفِ المحبَّةَ تُخْفِهِ
وما شَغَفي بالدَّارِ إلا لأهلِها ... وما جَزَعي بالجَزْعِ إلا لخَشْفِهِ
يعزُّ على قلبي المقام بذي النَّقا ... إذا لم يقمْ ذاك الغزالُ بحِقْفِهِ
وما أُمُّ رئمٍ أشفقتْ منه فالتجت ... إلى شامخ ما ذَرَّ من نحو كَهْفِهِ
تغارُ عليه من نسيمٍ ومرِّه ... وتشفقُ من إيماضِ بَرْقٍ وخَطْفِهِ
أتاحَ لها المقدورُ أَخْدَرَ موغلاً ... على غَفْلةٍ منها بأسباب حَتْفِهِ
بأَوْجَعَ مني يوم بانوا وربما ... توجَّعَ يوم البَيْنِ إلفٌ لإِلْفِهِ

(١) في (ح): واجتمعت بالثقة ابن باز شيخ، والمثبت ما بين حاصرتين من (م).
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) في (ح): فأنشد. والمثبت ما بين حاصرتين من (م).

ثم قام من عندي باكياً، وقَصَدَ الفرنج، فاستشهد، رحمه الله.

وفيها أخرب الخليفة دار السَّلْطنة ببغداد التي عمرها الدَّيالمة والسَّلْجوقية، وإنما قَصَدَ قَطْعَ الأطماع عنها.

وحجَّ بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين، ومن الشَّام شمس الدين ابن المقدَّم، وقتل على عرفات [وسنذكره](١)، وكان في الحج القاضي بهاء الدِّين بن شداد، ولما عاد اتَّصل بخِدْمة [السلطان](١) صلاح الدين.

وفيها توفي

عبد الجبار بن صالح(٢)

من أهل باب الأَزَج، شيخ الفِتْيان ببغداد، لبس منه الإمام النَّاصر سراويل الفتوة، وكان شيخاً صالحاً يعمل في البساتين، و[كانت](١) له صومعة بباب كَلْوَاذى يتعبَّد فيها، وحجَّ بالنَّاس في هذه السنة، وتوفي بمكَّة، ودفن بالمُعَلَّى، رحمه الله تعالى.

عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع الزَّاهد(٣)

ويعرف بابن نُقْطة.

كان له زاويةٌ ببغداد يأوي إليها الفقراء، وكان دَيِّناً جَوَاداً، سَمْحاً، لم يكن ببغداد في عصره من يقاومه في التجريد، كان يُفتح عليه قبل غروب الشمس بألف دينار فيفرِّقها، والفقراء صيام، فلا يدَّخر لهم منها شيئاً، ويقول: نحن لا نعمل بأجرة؛ يعني لا نصوم وندَّخر ما نُفْطر عليه.

وكانت والدة النَّاصر تُحْسِن الظَّنَّ به، زوَّجته بجاريةٍ من خواصِّها، ونقلت معها جهازاً يساوي عشرة آلاف دينار، فما حال الحول وعنده منه سوى هاون، فجاء فقيرٌ

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) هو عبد الجبار بن يوسف بن صالح، له ترجمة في «العبر» للذهبي: ٤/ ٢٤٩، و«الوافي بالوفيات»: ١٨/ ٣٨-٣٩، و«العقد الثمين»: ٥/ ٣٢٦، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١٠٦، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٧٥.

(٣) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ١/ ٦٨ (رقم الترجمة ١٨) (لكن صفحة ترجمته في المطبوع استبدلت بغيرها خطأ)، و«المذيل على الروضتين»: ١/ ١١٤-١١٥، (في ترجمة أخيه أبي منصور)، وفيه تتمة مصادر ترجمته. =

فوقف على الباب، وقال: لي ثلاثةُ أيام ما أكلتُ شيئاً. فأَخرجَ إليه الهاون، وقال: لا تشنِّع على الله، كُلْ بهذا ثلاثين يوماً.

وكان له أخ يقال له: أبو منصور بن نقطة، مزكلش؛ ينشد «كان وكان»[1] في الأسواق، ويسحِّرُ النَّاس في رمضان، فقيل له: أخوك زاهد العراق، وأنت تزكلش في الأسواق! فقال مواليا:

قد خاب مَنْ شَبَّه الجزعه إلى دُرَّه   وسام قَحْبَه إلى مُسْتَحْسنه حُرَّه
أنا مغني وخي زاهد إلى مَرَّه   في الدَّار بيرين ذي حُلْوه وذي مُرَّه

وكانت وفاته يوم الثلاثاء رابع جُمادى الآخرة، ودفن بزاويته، [وحكى لي جماعة من المشايخ أن الحفار الذي وسَّده وسد جماعة منهم الشيخ عبد القادر][2]، فلما أُنزل إلى اللّحد قال بعضُ أصحابه للحفَّار: خُذْ، ما رأيتَ على يديك مِثْلَه. فلما صَعِدَ الحفار قال للرَّجل: قد وسَّدْتُ الشيخَ عبد القادر، وفلاناً، وأنتَ تقول لي هذا؟! فقال: نَعَمْ، الشيخ عبد القادر وغيره طلبوا من الله تعالى، وعبد الغني ما أراد غيرَ الله تعالى.

عبد المُغيث بن زهير[3]

ابن عبد الله بن زهير، أبو العز، الحَرْبي، الحَنْبلي.

ولد سنة خمس مئة، وسمع الحديث، وصنَّف كتاباً في فَضْل يزيد بن معاوية، رَدَّ عليه الشيخ جمال الدين ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتاب سمَّاه: «الرَّد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد»[4].

= وهو والد المحدث محمد بن عبد الغني، صاحب كتاب «التقييد في رواة الكتب والمسانيد»، المتوفى سنة (٦٢٩هـ).

(١) هو قالب من الشعر العامي، لا يتقيد ناظمه فيه بالإعراب، بل غالبه ملحون، كان البغداديون ينظمون به الحكايات والخرافات، فلذلك سموه «كان وكان»، ويسمى بمصر: «الزكالش». انظر «الأدب في العصر الأيوبي»: ص ٢٨٠ .

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) له ترجمة في «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار: ١/ ٢ـ٦ ، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٦٣ـ٦٤ ، و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٢٣٠ ، و«الوافي بالوفيات»: ١٩/ ١٤٩ـ١٥٠ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٥٩ـ١٦١ وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) انظر «مؤلفات ابن الجوزي»: ١٣٢ـ١٣٣ .

توفي عبد المغيث في المحرَّم، ودُفن قريباً من الإمام أحمد، رحمة الله عليه، ومن شعره: [من الكامل]

يا عزّ من سَمَحَتْ له أطماعُهُ أنْ باتَ ذا عَدَمٍ خفيفِ المِزْوَدِ
فاليأسُ عِزٌّ فادَّرِعْهُ وَصِلْ به نَيْلَ السِّيادة في سبيلٍ أَقْصَدِ
والحُرُّ من نَزَلَتْ به أزمانُهُ في حُبِّ مَكْرُمةٍ وحُسْنِ تَسَدُّدِ
لم يَسْتكِنْ للنَّائباتِ إذا عَرَتْ صَوْلاً على الأعداءِ غير مقيَّدِ
مَنْ ذا ينافس كُلَّ قَيْلٍ أروعٍ سَمْحٍ خليقتُه كريم المَحْتِدِ

علي بن أحمد بن علي(١)

ابن محمد، أبو الحسن ابن الدَّامغاني، قاضي القضاة ببغداد، قاضي ابن قاضي ابن قاضي ابن قاضي.

ولد سنة ثلاث عشرة وخمس مئة، ولَّاه المقتفي القضاء بمدينة السَّلام وسائر البلاد شَرْقاً وغرباً، وأقرَّه المستنجد ثم عَزَله، ثم أعاده المستضيء سنة سبعين، ثم أقرَّه النَّاصر إلى أن توفي في ذي القعدة هذه السنة، ودفن بالشُّونِيْزِيَّة عند جدِّه لأُمِّه أبي الفَتْح السَّاوي، وكان فاضلاً، نَزِهاً، عفيفاً.

محمد بنُ عبد الملك بن المقدَّم(٢)

ولقبه شمسُ الدِّين.

من أكابر أمراء السُّلْطان نور الدين، والسُّلْطان صلاح الدين [وقد ذكرنا أَنَّه سلَّم سِنْجار إلى نور الدين(٣)، وأن صلاح الدين أعطاه بعلبك، ثم عوضه عنها ببارين

(١) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٥٦٣، «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار: ٣/ ١١٣-١١٥، «التكملة لوفيات النقلة»: ١/ ٧٤، «العبر» للذهبي: ٤/ ٢٤٩، «الجواهر المضية»: ٢/ ٥٣٨-٥٤٠، «النجوم الزاهرة»: ٦/ ١٠٤-١٠٥، «شذرات الذهب»: ٤/ ٢٧٦.

(٢) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر «كتاب «الروضتين»: ٣/ ٤٢٣-٤٢٦.

(٣) كذا قال، وهو خطأ، والصواب أن المقدَّم والد شمس الدين هو الذي سلَّم سنجار إلى نور الدين، وذلك سنة (٥٤٤هـ) عقب وفاة غازي بن زنكي أخي نور الدين، انظر «كتاب «الروضتين»: ١/ ٢٣٣-٢٣٤.

وغيرها، وأن صلاح الدين لما توجَّه إلى الشرق استنابه بالشَّام،][1]، وله المواقفُ المشهورة في الغزوات، وحَضَرَ حِطِّين والقُدْس، وعكَّا، وفتوح السَّاحل، فلما دنا موسمُ الحجِّ سأل السُّلْطانَ أن يحج [ليجمع بين فضيلتي الحج والجهاد][1]، فأَذِنَ له على كُرْهٍ من مفارقته، فلما وصل إلى عرفات أراد أن يرفعَ علمَ صلاحِ الدِّين على الجبل، ويضربَ الطَّبْل، فمنعه طاشْتِكِين، وقال: هذا موضعٌ لا يُرْفَع فيه إلا عَلَمُ الخليفة. فقال ابنُ المقدَّم: فالسُّلْطان مملوك أمير المؤمنين، ونحن مماليك السُّلْطان. فمنعه طاشْتِكِين، فأمر ابنُ المقدَّم غِلْمانَه، فأطلعوا العلم، فنكَّسوه، فركب ابنُ المقدَّم ومَنْ معه من الشَّاميين، وركب طاشْتِكِين والعسكر، واقتتلوا، وقُتِلَ من الفريقين جماعة، ورمى مملوكُ طاشْتِكِين ابنَ المقدم بسهمٍ، فوقع في عينه، فخرَّ صريعاً، وجاء طاشْتِكِين، فحمله إلى خيمته، وحمله إلى مِنى، فتوفِّي يوم الخميس يوم عيد [الله][1] الأكبر، وصُلِّي عليه بمسجد الخَيْف، ونُهِبَ الحاج الشَّامي، وأقاموا بمِنى ومكة على أسوأ حال، ودُفِنَ شمس الدين بالمَعْلَى.

وقال العماد الكاتب: وَصَلَ شمسُ الدِّين إلى عرفات وما عرف الآفات، وشاع وصوله، وضُرِبَتْ طُبوله، وجالت خيوله، وخَفَقَتْ أعلامُه، وضُربت خيامه، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقي طاشْتِكِين، فركب في أصحابه وأحزابه، فأوقع بشمسِ الدين وأترابه، وكان رَفْعُ العَلَمِ وضَرْبُ الطَّبْل من أوكد أسبابه، وقُتِلَ جماعةٌ من حاج الشَّام، وجُرحوا، وهُتكوا وافتُضِحوا، ونقل طاشْتِكِين شمسَ الدِّين إلى خيمته وهو مجروح، وفيه رُوح، وحمله معه إلى مِنى، فقضى ودفن بالمَعْلَى، وارتاع طاشْتِكِين لما اجترمه، ولم يراقبِ الله وأحلَّ حَرَمَه، وأخذ [طاشْتِكِين][1] شهادة الأعيان أنَّ الذنب لابنِ المقدَّم، وقُرِىءَ المحضر في الدِّيوان، ولما بلغ السُّلْطان مَقْتَلُه بكى بكاء عظيماً، وحَزِنَ حُزْناً كبيراً، وقال: قتلني الله إنْ لم أنتصر له. وتأكدتِ الوَحْشة بينه وبين الخليفة، وجاءه رسولٌ يعتذر، فقال: أنا الجواب عمَّا جرى[2]. ثم اشتغل بالجهاد.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) انظر: «الفتح القسي»: ١٨٨ـ١٨٩.

محمد بن عُبيد الله بن عبد الله[(١)]

أبو الفتح الشَّاعر، البغدادي، ويعرف بسِبْط ابن التَّعاويذي، [مدح][(٢)] الخلفاء والوزراء، ونور الدين وصلاح الدين، وانقطع إلى ابن رئيس الرؤساء، سمع قائلاً يقول: [من مجزوء الكامل]

والعُمْرُ مِثْلُ الكأسِ يَرْ ... سُبُ في أسافِلِهِ القَذَى

فقال: [من المتقارب]

ومَنْ شَبَّه العُمْرَ بالكأسِ يرسو ... قَذاه ويَرْسُبُ في أَسْفَلِهْ
فإنِّي رأيتُ القَذَى طافياً ... على صَفْحةِ العُمْرِ مِنْ أوَّلِهْ

وقال: [من مجزوء الكامل]

يا مُنْفِقاً أيَّامَهُ ... في لَهْوِهِ ومُزَاحِهِ
يستحقبُ الأيَّامَ بيـ ... نَ غُدُوِّهِ ورَوَاحِهِ
ما أنتَ مِمَّنْ نَحْمَدُ الـ ... إسراءَ عند صباحِهِ[(٣)]

وكان الوزير ابن رئيس الرؤساء قد أطلق له عطاءً على يد رجل علوي، ثم عُزِلَ الوزير، فمنعه العلوي، فكَتَبَ إليه: [من الخفيف]

يا سَمِيَّ النَّبيِّ يا ابنَ عليٍّ ... قامعِ الشِّرْكِ والبَتُولِ الطَّهُورِ
أنتَ يا ابنَ المُخْتارِ أَكْرَمُ مَنْ ينـ ... ظُرُ في أمرِ مُسْتَفادٍ حقيرِ
ولقد كان لائقاً بك أنْ تَنْـ ... ظُرَ في الحال عند عَزْلِ الوزيرِ
وأخو الفَضْلِ مَنْ يُساعِدُ في الشِّدَّ ... ةِ لا في الرَّخاءِ والمَيْسُورِ
ومتى ما استمرَّ خَلْفُكَ بالوَعْـ ... دِ ولم تعتذرْ من التَّقْصيرِ

(١) له ترجمة في «معجم الأدباء»: ١٨/ ٢٣٥ـ٢٤٩، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٦٦، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١٠٣ـ١٠٤، و«كتاب «الروضتين»: ٣/ ٤٢٦، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٤٦٦ـ٤٧٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٧٥ـ١٧٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته، وذكر بعضهم وفاته سنة (٥٨٤هـ).

(٢) في (ح): مع، ولا يستقيم بها الكلام، وما بين حاصرتين زيادة من عندي، أثبتها استئناساً بما ورد في «النجوم الزاهرة»: ٦/ ١٠٥، في ترجمته، فإنه غالباً ما ينقل عن «مرآة الزمان».

(٣) ديوانه: ٩٨.

صِرتُ من جُمْلَةِ النَّواصبِ لا آ كُلُ غيرَ الجِرِيِّ والجِرْجِيْرِ
وتكَحَّلْتُ واغتسلتُ ثلاثاً وطبختُ الحبوبَ في عاشورِ
وتبدَّلْتُ مِنْ مبيتيَ في مَشْـ ـهدِ موسى بجامعِ المنصورِ
فتكون المسؤول عن مؤمنٍ ألـ ـقَيْتَهُ أنتَ في عذاب السَّعيرِ(١)

فضحك العلويُّ، وأطلق له العطاء.

وكتَبَ إلى العماد الكاتب: قد كَلِفَ الخادمُ مكارمه وإن لم يكن للجودِ عليها كُلْفة، وأتحفه بما وجَّهه إليه من أمله وهو لعَمْرُ الله تُحفة، أهدى فروة دمشقية، سَرِيَّة نقية، يلين لمسها، ويزين لبسها، دِباغَتُها نظيفة، وخياطتها لطيفة، طويلة كطَوْله، سابغة كأَنْعُمه، حاليةٌ كذِكْره، جميلةٌ كفِعْله، واسعة كصَدْره، نقية كعِرْضه، رفيعة كقَدْره، موشية كنَظْمه ونَثْره، طاهرةٌ كطهارة باطنه، يتجمَّل بها اللَّابس، ويتحلَّى بها في المجالس، فهي لخادمه سِرْبال، وله ـ حَرَسَ الله مَجْدَه ـ جمال، تذهب خميلةُ وَبَرِها، ويبقى حميدُ أثرها، وقد نَظَمَ الخادمُ أبياتاً ركب في نَظْمها الغَرَر، وأهدى بها التَّمْر إلى هَجَر، إلا أنَّه قد وَضَعَ الطِّيْب عند عَطَّاره، وعَرَضَ الثَّوب في يدي سِمْساره، وهي في خِفارة نسبه وكَرَمه: [من مجزوء الرمل]

بأبي من ذُبْتُ في الحُـ ـبِّ له شَوْقاً وصَبْوَهْ
كلَّما زادَ جَفَاءً زادَ مِنْ قلبيَ حُظْوَهْ
شَقْوَتي ما تنقضي في حُبِّهِ والحُبُّ شَقْوَهْ
بُحْتُ شَجْواً فيه والمَحْـ ـزونُ لا يَكْتُمُ شَجْوَهْ
لو أجابَ اللهُ للعا شقِ في المعشوقِ دَعْوَهْ
لسألتُ اللهَ أنْ يُنْـ ـصفَني في حُبِّ عَلْوَهْ
مَلَكَتْ قلبي وقد كا نَ من الحُبِّ بنَجْوَهْ
كَتَبَتْ فيه هوًى لا يمْلك العاذِلُ مَحْوَهْ
يا مليحَ الدَّلِّ زِدْ جَوْ راً على القَلْب وقَسْوَهْ
لي بمَنْ ماتَ بداءِ الـ ـحُبِّ في عِشْقك أُسْوَهْ
لا أتاحَ اللهُ لي وَصْـ ـلكَ إنْ أَضْمَرْتُ سَلْوَهْ

(١) ديوانه: ٢١٤ـ٢١٥، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

قَسَماً إنَّ عمادَ الدِّ ... ينِ في الآدابِ قُدْوَهْ
إنَّ بغدادَ التي للـ ... بُخْلِ أَضْحَتْ دارَ دَعْوَهْ
وبنوها فَهُمُ أكـ ... ـثرُ أهلِ الأرضِ جَفْوَهْ
قد أقامَ الثَّلْجُ فيها ... شَتْوَةً من بعد شَتْوَهْ
فَهْو يغزونا مساءً ... في نواحيها وغُدْوَهْ
مِثْلَما يُتْبِعُ نورُ الدِّ ... ينِ في الأعداء غَزْوَهْ
فافْرِ عن جِسْمي أذاه ... يا أخا الجُوْدِ بفَرْوَهْ
أكْتَسِي منها جمالاً ... رائعاً في كلِّ نَدْوَهْ
فَفِرَا جِلِّقَ عند النَّـ ... ـاسِ في بغداد شَهْوَهْ[1]

فبعث له العماد بفروةٍ، وأبياتٍ على هذا الرَّوِيِّ.

نَصْر بن فِتْيان[2]

أبو الفَتْح، ابنُ المَنِّي النَّهْرواني، الفقيه الحَنْبلي.

ولد سنة إحدى وخمس مئة، وحَفِظَ القرآن وهو ابنُ إحدى عشرة سنة، وبَرَعَ في الفِقْه، وناظر، وسَمِعَ الحديث الكثير، وتفقَّه عليه جماعة: منهم عبد الرَّزَّاق ابن الشيخ عبد القادر، والشيخ الموفَّق، والشيخ العماد، والبهاء النَّابُلُسي، والشِّهاب محمد ابن راجح، والنَّاصح ابن الحَنْبَلي، والفخر ابن تيمية خطيب حَرَّان، وخَلْقٌ كثير.

وكانت وفاتُه في رمضان بعدما أَضَرَّ في آخر عمره، ودُفِنَ إلى جانب مسجده بالمأمونية، وكان شيخاً صالحاً، زاهداً متعبِّداً، صائماً قائماً، وكان الشيخ عبد القادر يقول له: أنت عينُ القِلادة.

---

(١) ديوانه: ٤٥٣-٤٥٦.

(٢) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ١/ ٧٠-٧١، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ٢١٢، و«الروضتين»: ٣/ ٤٢٦-٤٢٧، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٣٧-١٣٨، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٥٨-٣٦٥، و«المنهج الأحمد»: ٣/ ٢٩٤-٣٠٠.

هبة الله بن علي بن هبة الله[١]

أبو الفَضْل، مجد الدين، أُستاذ الدَّار، ابنُ الصَّاحب.

ولاه المستضيء أُستاذ الدار، وأقرَّه النَّاصر، وقرَّبه تقريباً زائداً، فبَسَطَ يده في الأموال، وسَفَكَ الدِّماء، وسبَّ الصحابة ﷺ ظاهراً، وبَطِرَ بَطَراً شديداً، وعَزَمَ على تغيير الدَّولة، وكَثُرَتِ السِّعايات فيه إلى الخليفة، وأُشير عليه بقَتْله وإلا صَعُبَ أمره، فاستدعي يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول إلى دار الخِلافة، فعلم أنَّه مقتول، فاغْتَسَلَ غُسْلَ المَيِّت، وودَّع أهله، وخَرَجَ، فمرَّ على دار الطَّبْل قُبيل الظهر، فقال لعريف الطَّبَّالين: دَخَلَ الوقت؟ فقال: قد قَرُبَ، فتطيَّر، فلما حَصَلَ في بعض الدَّهاليز وَثَبَ عليه ياقوت شِحْنة بغداد، فقتله، وماجت بغداد، فأخرج رأسه، فعُلِّق بباب النّوبي، فسكَنَ النَّاس، وعمره إحدى وأربعون سنة، ووجدوا في داره [ما لم يوجد في دور الخلفاء][٢] من العين ألف ألف وخمس مئة ألف دينار، ومن الخيل والبغال والمماليك والجواهر والثِّياب بمثل ذلك.

السنة الرَّابعة والثَّمانون وخمس مئة

فيها جهَّز الخليفةُ ابنَ يونس ـ وكان قد استوزره ـ إلى هَمَذَان، فخرج ليلة الثلاثاء ثامن عشرين المحرَّم نصف الليل، وسار في العساكر للقاء السُّلْطان طغريل على هَمَذَان، وكان قد بعث إلى الخليفة يطلُبُ السَّلْطنة، فأخرج الأموال، وجَهَّز جيشاً عظيماً قدَّم عليهم ابنَ يونس، وكان في جُمْلة الأمراء طُغْرُل صاحبُ البَصْرة، وأمير الحاج طاشْتِكِين، فأَنِفا من تقديم ابنِ يونس عليهما ولم يُعدَّاه، فقال ابنُ يونس: والله لأرمينَّهم في المهالك. وسار إلى باب هَمَذَان، والتقوا هناك، فقصَّر طُغْرُل وطاشْتِكِين، والتقاهم السُّلْطان، فكَسَرهم ومزَّقهم كلَّ ممزَّق، وقَتَلوا وأسروا، وأُخذ الوزير ابنُ

---

(١) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٥٦٢، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٦٦، و«الوافي بالوفيات»: ٢٧/ ٣٠٢ـ٣٠٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٦٤ـ١٦٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

يونس، [وكان محلوق الرأس][1]، فأحضروه بين يدي السُّلْطان، فألبسه طُرْطُوراً أحمر فيه جَلاجِل[2]، وجعل يضحك عليه، ولم يصل إلى بغداد من العسكر إلا القليل، فتقطَّعوا في الجبال، وماتوا عطشاً وجوعاً، [وكانت هذه الوقعة من جنس وقعة المسترشد][1]، وأُخذت خزائن الخليفة وخَيْله ومماليكه، [وقيل: كانت أعظم، وعمل الناس الأشعار فيها][1]، فقال أحمد بن الواثق بالله: [من الخفيف]

أُتركونا من جائحاتِ الجريمَهْ ... طلعةً طلعةً تكونُ وخيمهْ
بركاتُ الوزيرِ قد شَمَلَتْنا ... فلهذا أمورُنا مُسْتقيمهْ
خَرَجَ الجُنْدُ يَطْلبون خُراسا ... نَ جميعاً بأُبَّهاتٍ عظيمهْ
بخيولٍ وعُدَّةٍ وعديدٍ ... وسيوفٍ مجرَّباتٍ قديمهْ
ووزيرٍ وطاقِ طُنْبٍ ونَقْشٍ ... وخيولٍ مُعَدَّةٍ للهزيمهْ
هُمْ رأَوْا غُرَّةَ العدوِّ وقد أقـ ... ـبل ولَّوا وانحلَّ عَقْدُ العزيمهْ
وأتونا بأوْجُهٍ كالحاتٍ ... خاضعاتٍ مسوَّداتٍ ذميمهْ
لو رأى صاحب الزمان ولو عا ... ينَ أفعالهم وعُظْم المَلِيْمهْ
قابل الكُلَّ بالنَّكالِ وناهيـ ... ـكَ بها سُبَّةً عليهم مقيمهْ

واستوزر الخليفة أبا المعالي سعيد بن علي ابن حديدة، ورتَّب اسفنديار الواعظ في كتابة الإنشاء بديوان الخليفة، وكان يلقب بالموفَّق، فلقب بمؤيَّد الدين، وخُلِعَ عليه.

وفيها نَزَلَ السُّلْطان على كوكب، فرآها تحتاج إلى قتال ومصابرة، فوكَّل بها قَيْماز النَّجْمي، ووكَّل بصفد طُغْريل الجانْدار، وبَعَثَ إلى الكَرَك والشَّوْبك كوجبا صِهْر السُّلْطان، وكانت هذه الحصون الأربعة أحصنَ القِلاع، ومسالكها صعبة، فرأى مطاولتها، وقَطْعَ الموادِّ عنها.

وسار السُّلْطان إلى ناحية الشَّمال في السَّاحل، ففتح عِدَّة حصون، منها أَنْطَرسوس، نازلها في جُمادى الأولى، وكان بها بُرْجان عظيمان، فأخربهما، وقتل مَنْ كان فيهما.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) الجلاجل: جمع، مفرده جُلْجُل: الجرس الصغير.

ومنها جَبَلَة، وكان قاضيها منصور بن نبيل، فأرسل إلى السُّلْطان يشير عليه بقَصْدها، وقيل: إن القاضي والأعيان خرجوا إليه، وهوَّنوا عليه أمرها، فسار من أنطرسوس، وعبر تحت المَرْقَب، وهو حِصْن الإسبتار في مكانٍ ضيِّق، وجاء أُسطول الفرنج من صِقِلِّية، واصطفتِ المراكب، ورموا بالزَّنبورك، فمنعوا العَسْكر من العبور، فصفَّ المسلمون الدَّرَق والجفاتي على السَّاحل، والرُّماة خَلْفها، وعبروا، وأخذ القاضي من السُّلْطان أماناً لأهل جَبَلَة، وسَبَقَ به إلى البلد، وكان إبرنس أَنْطاكية قد سلَّمها إلى القاضي، ووَثِقَ به في حِفْظها، فنازلها السُّلْطان، ففتح البلد يوم الجمعة ثاني عشر جُمادى الأُولى، وامتنع الحِصْن عليه يوماً، ثُمَّ سَلَّمه إليه يوم السبت بالأمان.

ومنها اللاذقية، سار إليها، وهي بلدةٌ كبيرة على السَّاحل، ولها قلعتان متَّصلتان على تلٍّ يشرف على البلد، ولها ميناء من أحسن المواضع، وهي من أطيبِ البلاد، وأحسنها عمارة، فحصرها السُّلْطان، وأقام عليها أياماً، ففتح البلد، وغَنِمَ المسلمون منه غنائم كثيرة، لأَنَّه كان بلدَ التُّجَّار، وفيه أموالهم، وكان فتح البلد يوم الخميس رابع وعشرين جُمادى الأُولى، فأصبح يوم الجمعة، فنازل القلعتين، وعلَّقوا النُّقوب، فصاحوا: الأمان. فأمنهم، فخرجوا بأموالهم وأهلهم إلى أنطاكية، وولاها السُّلْطان مملوكه سُنْقُر الخِلاطي، وشَرَعَ المُسْلمون في تشويهها، وقَلْع رخامها.

[قال العماد: ولقد كَثُرَ تأسفي على تلك العمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات كيف حالت، ولكن زاد سروري بأنها عادت للإسلام مرابع، ولشموسه مطالع][(١)].

وكتب العماد إلى [اليمن إلى][(١)] سيف الإسلام كتاباً منه في وصفها: وهي مدينةٌ جامعة، وخُطَّةٌ واسعة، معاقلها لا تُرام، وأعلاقها لا تُسام، وهي جنَّةٌ، وكان يسكنها أهلُ الجحيم، وطالما مكثت بالكُفْر دار بؤس، فعادت بالإسلام دار نعيم.

ومنها صِهْيَوْن، نازلها السُّلْطان تاسع عشرين جُمادى الأولى يوم الثلاثاء، وهي قلعة حصينةٌ في طرف الجبل، خنادقها أودية هائلة، وليس لها خندق محفورٌ إلا من ناحية واحدة، طوله سِتُّون ذراعاً، نُقِرَ في حجر، ولها ثلاثة أسوار، وكان على قُلَّتها[(٢)]

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) القلّة: أعلى القلعة، انظر «معجم متن اللغة»: ٤/ ٦٣٩ .

عَلَمٌ طويل، عليه صليب، فلما شارفها المُسْلمون وقع الصَّليب، فاستبشروا، ونَصَبوا عليها المجانيق، وصَعِدَ المسلمون سور الرَّبَض، وقاتلوا القلعة، فصاحوا: الأمان، وسَلَّموها ثاني جُمادى الآخرة، وبثَّ السُّلْطان عسكره وأولاده في تلك النَّاحية، فأخذوا جميع الحصون التي بها، بعضها عَنْوَةً وبعضها صُلْحاً، مثل حِصْن بلاطُنُس، وقلعة الجماهريين، وبَكَاس، والشُّغْر، وسُرْمانية، ودَرْبَسَاك، وبَغْرَاس، وأخرب السُّلْطان معظمها، ومن أَحْصنها حِصْن بُرْزَيَه، وهو على سِنِّ جبلٍ شاهق، يُضْرب به المَثَل في المَنَعة والقوَّة، وعلوُّ القلعة خمس مئة وسبعين ذراعاً، من جوانبها أوديةٌ تحيطُ بها، وصاحبها زوج أُخت البرنس صاحب أنطاكية، وتعرف زوجته بدام سِبِيل وكانت عَيْناً للسُّلْطان على الفرنج، والسلطان يُهْدِي إليها ويلاطِفُها، وقاتَلَ السُّلْطان القلعة، ففتحها عَنْوَة، وأَسَرَها وزوجها وأولادها، فأحسنَ السُّلْطان إليهم وأطلقهم، وبعث معهم مَنْ أوصلهم إلى أنطاكية، فزادت محبتها للسُّلْطان، ومناصحتها له.

وقال العماد: وآخر ما فتحنا حصن بُرْزَيَه الذي تُضْرب به الأمثال، ولا تَرْقَى إلى ذُرْوته مُنَى الآمال، فأخذناه بالسَّيف عَنْوَة، وفتحناه ضَحْوة، فيا لها ضحوة أظلمت على أهل التَّثْليث، واشتغل المؤمنون عن ذكر الفتوح القديمة بهذا الفتح الحديث، ولو وكلنا إلى اجتهادنا في هذا الفتح وإلى نفوسنا لتعذَّر، ولكن الله سبحانه وتعالى سَهَّلَ ويَسَّر. وسَلَّم السُّلْطان دَرْبَساك إلى عَلَم الدِّين سليمان بن علي بن جَنْدَر، وهي قلعةٌ حصينة، قريبةٌ من أنطاكية.

ذِكْرُ عَقْد الهُدْنة بين السُّلْطان وإبرنس أنطاكية:

ولما فتح السُّلْطان هذه الحصون سار يقصد أنطاكية، فنزل الجسر الحديد، فضَعُفَ قلب إبرنس أنطاكية، فراسل السُّلْطان وهاداه، وكانت العساكر الشرقية قد ضَجِرَتْ، وخصوصاً عماد الدين صاحب سِنْجار، وطال عليه المقام، وضعفت هِمَمُ العساكر عن القتال، فهادنه السلطان ثمانية أشهر بمقدار ما تستريح العساكر الشرقية، ويُطلق جميعَ مَنْ عنده مِنْ أُسارى المسلمين، فإنْ جاء الفرنج نجدةً، وإلا سَلَّموا أنطاكية.

وبعث شمس الدولة ابن مُنْقذ ليخلِّص الأُسارى.

وسار السُّلْطان إلى حلب مودِّعاً لعماد الدين زَنْكي، فودَّعه، وقدَّمَ له من التُّحَف والألطاف والخيل العِتاق والثياب [الفاخرة][١] ما حيَّره، وكذا فعل بمُظَفَّر الدِّين ابن زين الدين والأمراء، وبات [السلطان][١] بحلب ليلةً واحدة، وعاد طالباً دمشق، ومعه مهنًّا أمير المدينة [وكنيته أبو فَلِيْتة][١]، وكان ميمون النَّقيبة، مبارك الطَّلْعة، [وكان السلطان قد تيمن بطلعته][١]، ما حضر مع السُّلْطان بلداً إلا فتحه، وكان تقيّ الدين بحماة، فأصْعَدَ السُّلْطانَ إلى القلعة، وكان تَلُّها قصيراً، فرفعه تقيُّ الدِّين، وعمرها العمارة الوثيقة، فأعطاه جَبَلَة واللاذقية مضافاً إلى حماة، وكان السُّلْطان قد جعل طريقه على المَعَرَّة، فزار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، والشيخ أبا زكريا المَغْربي، ثم دخل دمشق في رمضان.

وفي رمضان وَصَلَ وزيرُ الخليفة ابن يونس إلى بغداد من كسرة [السلطان][١] طغريل، وكان الخليفة قد كتب إلى بكتمر صاحب خِلاط ليطلبه من طغريل، وكان قزل أخو البهلوان قد حشد [وجمع][١]، والتقى طغريل على هَمَذان، فانهزم طغريل إلى خِلاط، ومعه ابنُ يونس، فأنكر عليه بكتمر ما فعل بالوزير وعسكر الخليفة، فقال: هم بدوني وبغوا عليَّ، والبادي أظلم. فقال له: أطلقِ الوزير. فلم يمكنه مخالفته، فأطلقه، فبعث إليه بكتمر الخيل والبغال والمماليك والخدم، فردَّ الجميع، وأخذ بغلين ببرذعتين، فركب هو واحداً وغلامه الآخر، ولبس الطرطور كأنَّه صوفي، ووصل إلى المَوْصل مع قافلةٍ، وعَلِمَ به صاحبُ المَوْصل، ففعل معه فعل بكتمر، فلم يأخذ شيئاً وقال: أُريد سفينة. فأعطاه [سفينة][١]، فنزل فيها إلى بغداد، وصَعِدَ إلى منزله، ولم يشعر به أحد، وعلم الخليفة، فأنكر على الوزير ابنِ حديدة حيث لم يعلم بوصوله، وكان ذلك أول ما أُخذ على ابن حديدة.

وفي ثامن عشرين رمضان عُزل اسفنديار عن كتابة الإنشاء، ورُتِّب مكانه أبو الفضل ابن القَصَّاب، وخُلِعَ عليه، ولقِّب مؤيَّد الدين، [قال ابنُ القادسي][١]: كان اسفنديار من أهل العِلْم والدِّين، فلما ولي لَبِسَ الحرير، وتختَّم بالذهب، وكان يركب في غير شيء، ويدخل في درب درب ليصاح بين يديه: بسم الله، بسم الله.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

قال المصنف رحمه الله: وفي شوَّال جلس جدِّي ـ رحمه الله ـ في دار الوزير ابن حديدة، ونسبه إلى الأنصار، وقال في حديث السقيفة: إنَّ أبا بكر ﷺ قال للأنصار يوم السقيفة: نحن الأُمراء وأنتم الوزراء، فميراث معين الدِّين لا عن كلالة. ثم قال: وما يصلح لدولة الإمام النَّاصر إلا الأنصار، وقُرِئ بين يديه في ذلك اليوم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] فقال: سبحان الذي قدَّم نبيَّنا على سائر الأنبياء، وأُمَّتَنا على الأُمم، وكتابنا على الأسفار، فأين البُرْهان من زهادنا، وأين من علمائنا الأحبار، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨] وأين أصحاب موسى من ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾[التوبة: ٤٠] كم بين مَنْ قال: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾[المائدة: ٢٤] إلى فاتح الأمصار، أَلَهُمْ كَرَمُ المُنْفِقِ في زمان الإعسار؟ أفي المتقدِّمين كالمقدَّم في العِلْم والشَّجاعة البطل المِغْوار؟ كان الرسول يخصُّه بالخصائص، ويطلعه على الأسرار، وإذا حَمِيَ الوطيس رمى به في لجج البحار والأخطار، بارز يوم بدر عُتْبة وشيبة والوليد الكُفَّار، وعمره يومئذٍ عشرون سنة، فغلب الصَّغيرُ الكبارَ، كان جبريل عن يمينه وإسرافيل عن اليسار، فوصف الحقُّ ما جرى بين أهل الرِّبْح والخَسَار: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾[الحج: ١٩] ومنه الحسن والحسين، فيا حُسْنَ تلك الثِّمار، وزوجته البَتُول بنتُ المصطفى المختار، وجَمْعُ من شَهِدَ بدراً ثلاث مئة وثلاثة عشر، هم أفضل الصَّحابة الأخيار، فمن المهاجرين مئة وثلاثة وثمانون، منهم الخلفاء الأربعة، وصُهَيْب وبلال وعمار، ومئتان وثلاثون كلُّهم من الأنصار، فمن الأوس ثلاثة وستون، ومن الخزرج مئة وسبعة وستون، فالخزرج أفضلُ في المِقْدار، فمنهم قُطْبة ابن عامر بن حديدة، ويزيد بن عامر بن حديدة، وسُلَيْم بن عمرو ابن حديدة، وهم ساداتُ الخزرج الأبرار، هذا هو الفَخْرُ يا معين الدِّين، وما الحُلِيّ المملوك كالمُسْتعار، يا له من نَسَبٍ إذا تضوَّع بين الخَلْق زاد على جُونة العَطَّار، وإذا سال سَيْلُ كَرَمه أقرب السَّواقي للبحار، عَدْلُ المولى الوزير حُلِيّ ومجلسي سِوار، يا قومنا أقمارُ لَفْظي طلعت بالنَّهار، وأنشد: [من المتقارب]

وحُرْمة شُعْثٍ على كلِّ نِضْوٍ ... بَراهُنَّ من ألمٍ ما بَراني
إذا ذكَّرَتْها الحُدَاةُ الهوى ... قَطَعْنَ البُرَى قَطْعَ وَجْدي عِناني

تـطـايَـرْنَ والـشَّـوْقُ يُـدْنـي مُـنًـى ... وكـلُّ الـمُـنَـى عـنـد ذاك الـمـكـانِ
فـلـمـا عَـلَـوْنَ فـويـقَ الـكـثـيـبِ ... تـراءَيْـنَ ذاك الـبـريـقَ الـيـمـانِ
وبَـشَّـرَ نَـشْـرُ نـسـيـمِ الـحـبـيـب ... بـقُـرْب الـدِّيـار ونَـيْـلِ الأمـانـي
لـقـد كَـمَّـلَ الـلـهُ هـذا الـوزيـر ... فـلـيـس لـه مُـشْـبِـهٌ فـي الـزَّمـانِ
أتـخـبِـرُ عـن كَـرَمِ الـسَّـابـقـيـن ... تـأمَّـلْ وخُـذْ فـي حـديـثِ الـعِـيـان

من أبيات.

وفي شوَّال عَزَلَ الخليفةُ أبا طالب ابن زبادة عن أستاذ الدَّارية، ورتَّب مكانه أبا الحسن علي بن بختيار، وبَرَزَ توقيع الخليفة إليه: ما عَزَلْناك عن خيانةٍ ولا جناية، ولكن للملوك أسرار خفية لا يطَّلع عليها العامة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾[ص: ٨٨]. فكَتَبَ ابنُ زبادة إلى الخليفة: [من الكامل]

أوقـعـتَ عَـبْـدَك فـي بـحـارِ وسـاوسٍ ... مَـنَـعَـتْ مـحـاجِـرَه عـن الإغـمـاضِ
وَثَـنَـيْـتَ عِـطْـفَـك عـن عـوائـدك الـتـي ... عُـوِّدْتُـهـا مـن خُـلْـقِـكَ الـفَـضْـفَـاضِ
وتـقـولُ إنِّـي لـسـتُ غـضـبـانـاً ولـلـ ... أسـرارِ بَـرْقٌ صـادِقُ الإيـمـاضِ
هَـبْ أنَّ ذلـك لـيـس مـن سَـخَـطٍ فـمـنْ ... يَـدْري مـع الإعـراض أنَّـك راضـي

وفي رمضان تسلَّم السُّلْطان الكَرَك، فَنِيَتْ أزوادهم، فسلَّموا.

قال العماد: وتسلَّمْنا الكَرَك، وكان صاحبه يحدِّث نفسه بقَصْد الحجاز، وقد نَصَبَ أشراك إشراكه منه على طُرُقِ الاجتياز، فأذقناه عام أَوَّل كأس الحِمام، وملكنا حِصْنه الذي كان يعتصم به في هذا العام، وتَمَّ بأَخْذِ هذا الحِصْن أَمْنُ البيتِ الحرام.

وفي رمضان تسلَّم السُّلْطان قلعة صفد، خَرَجَ إليها بالعساكر، ونَصَبَ عليها بالمجانيق، فصاحوا: الأمان، بعد أن قاتلوا قتالاً شديداً.

وفي ذي القَعْدة فُتِحَتْ كوكب، سار السُّلْطان إليها وضايقها، وتعلَّق بها النَّقابون، فصاحوا: الأمان. وكان قد جاء مطرٌ عظيم.

قال العماد: وسرنا إلى كوكب، فوجدناها في مَنَاط الكوكب، كأنَّها وكر العَنْقاء، أو منزل العَوَّاء، وبها كلابٌ عاوية، وذئاب غاوية، وكان الوقت صَعْباً، والغيثُ سَكْباً، وتكاثرتِ السُّيول، وتكاثفتِ الوحول.

وسار الفاضل إلى مِصْر لأمرٍ عَرَضَ له، وودَّعه السُّلْطان، وأعطى السُّلْطان أخاه العادل الكَرَك، وأَخَذَ منه عسقلان، وبَعَثَ بالعساكر المِصْرية إلى مِصْر، والشَّامية إلى الشَّام.

ثم سار إلى عكا بخواصِّه، فأقام بقية هذا العام.

وحجَّ من العراق طاشْتِكِين.

وفيها توفي

أسامة بن مُرْشد بن علي(١)

ابن المُقَلَّد بن نَصْر بن مُنْقِذ، أبو الحارث، مؤَيَّد الدولة، مجد الدين، الكِناني.

ولد بشَيْزَر سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة، وكانت له اليد البيضاء في الأدب والكتابة والشِّعْر، غزيرَ العقل، كثيرَ الفَضْل، حسنَ التَّدْبير، مليحَ التَّصانيف، فارساً شجاعاً، يحفظ عشرين ألف بيت من شِعْر الجاهلية، قَدِمَ بغداد في أيام المسترشد عند محاربته صدقة بن دُبَيْس، ولم يعبر الجانب الشَّرْقي، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة، وخرج إلى مِصْر، فأقام بها، ثم عاد إلى حماة، فسكنها.

وقال العماد الكاتب: كان من الأُمراء الفضلاء، ومتَّعه بطول البقاء، وهو من المعدودين في شجعان الشَّام وفرسان الإسلام، أُسامة كاسمه في قوة نثره ونَظْمه، لَزِمَ طريق السَّلامة، وتنكب سُبُل الملامة، انتقل إلى مِصْر في أيام الصَّالح بن رُزِّيك، ثم عاد إلى الشَّام، ومضى إلى حِصْن كيفا، فأقام به إلى أن ملك صلاح الدين دمشق سنة سبعين، كان ولده مُرْهَف ـ ويلقب بالعَضُد ـ جليسَ صلاحِ الدين ونديمه، فسأله السُّلْطان عنه، فقال: هو بحِصْن كيفا، فاستدعاه، وكان قد جاوَزَ ثمانين سنة، ثم انتقل إلى حماة، فتوفِّي بها في رمضان وقد بلغ ستاً وتسعين سنة، وله ديوان مشهور، وكان

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٩٨ـ٥٤٧، و«معجم الأدباء»: ٥/ ١٨٨ـ٢٤٥، «وفيات الأعيان»: ١/ ١٩٥ـ١٩٩، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٩٥ـ٩٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٦٥ـ١٦٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

السُّلْطان مُغْرًى بشعره، وكنت أرى ديوانه بين يدي السُّلْطان وهو يستحسنه، فمنه: [من البسيط]

يا مُدَّعي الصَّبْرَ عن أحبابه وله ... دمعٌ إذا عَنَّ ذِكْراهُمْ يُكَذِّبُهُ
خَلَّفْتَ قَلْبَك في أرضِ الشَّآم وقد ... أصبحتَ في مِصْرَ يا مغرورُ تَطْلُبُهُ
هلَّا غداةَ النَّوى استصحبته وإذا اخـ ... ـتارَ المُقامَ فهلَّا كنتَ تَصْحَبُهُ
أفردتَهُ بالأسى في دار غُرْبته ... وعُدْتَ لا عُدْتَ تبكيه وتَنْدُبُهُ
هيهاتَ قد حالتِ الأيامُ بينكما ... فَعَزِّ نَفْسك عما فاتَ مَطْلَبُهُ[١]

وقال في قلع الضِّرْس: [من البسيط]

وصاحبٍ لا أملُّ الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يشقى لنَفْعي ويسعى سَعْيَ مجتهدِ
لم أَلْقَه مُذْ تصاحبنا فمذْ نَظَرَتْ ... عيني عليه افترقنا فُرْقَةَ الأَبَدِ[٢]

وقال: [من الكامل]

قالوا نَهَتْهُ الأربعونَ عن الصِّبا ... وأخو المشيبِ يجورُ ثُمَّتَ يهتدي
كم حار في ليل الشَّباب فَدَلَّه ... صُبْحُ المشيبِ على الطَّريق الأَرْشَدِ
وإذا عَدَدْتَ سنيَّ ثم نَقَصْتَها ... زَمَنَ الهموم فتلك ساعةُ مَوْلدي[٣]

وقال في محبوس: [من الكامل]

حَبَسُوكَ والطَّيْرُ النَّواطقِ إنَّما ... حُبِسَتْ لميزتها عن الأَنْدَادِ
وتهيَّبوكَ وأنتَ مُوْدَعُ سِجْنهم ... وكذا السُّيوفُ تُهابُ في الأغمادِ
ما الحبسُ دارُ مهانةٍ لذوي العُلا ... لكنَّه كالغِيْلِ للآسادِ[٤]

أخذه من قول القائل: [من السريع]

تَطْرقُ أهلَ الفَضْلِ دون الورى ... مصائبُ الدُّنيا وآفاتُها
كالطَّيْرِ لا يُحْبَسُ من جِنْسها ... إلا الذي تُطْرِبُ أصواتُها

(١) «الخريدة»: ١/ ٥١٨.
(٢) «الخريدة»: ٢/ ٤٩٩ـ٥٠٠.
(٣) «الخريدة»: ١/ ٥٠٠ـ٥٠١.
(٤) «الخريدة»: ١/ ٥٠٥.

وقال يمدح صلاح الدين : [من البسيط]

لازِلْتَ يا ملكَ الإسلامِ في نِعَمٍ قرينُها المُسْعِدانِ النَّصْرُ والظَّفَرُ
تُرْدِي الأعادي وتَسْتَصْفي ممالكَهُمْ وعونُكَ الماضيانِ السَّيْفُ والقَدَرُ
فأنتَ إسكندرُ الدُّنيا بنُورِكَ قد تضاءَلَ المظلمانِ الظُّلْمُ والضَّرَرُ
أَعَدْتَ للدَّهرِ أيَّامَ الشَّباب وقد أظلَّه المُهْرِمانِ الشَّيْبُ والكِبَرُ
وجاد غَيْثُ نَداك المُسْلمين فمِنْ سحابه المُغْنِيان الدُّرُّ والبِدَرُ
وسِرْتَ سيرةَ عَدْلٍ في الأنام كما قضى به الصَّادِقانِ الشَّرْعُ والسُّوَرُ
فَثِقْ بنصرٍ على الكُفَّار إنَّهُمُ يُرْدِيْهُمُ المُهْلِكانِ الغَدْرُ والأَشَرُ
ثناهُمُ إذْ رأَوْا إقبالَ مُلْكِهِمُ إليهمُ المُزْعجانِ الخوفُ والحَذَرُ
وما الفِرارُ بمُنْجيهم وخَلْفَهُمُ مِنْ بأسِهِ المُدْرِكان السُّمْرُ والبُتُرُ
وسوفَ يعفو غداً عنهمْ بصارِمِهِ وجيشُهُ المُخْبرانِ العَيْنُ والأَثَرُ
ولو رَقُوا في ذُرى ثَهْلانَ أَسْلَمَهُمْ لسَيْفِهِ العاصِمان الحِصْن والوَزَرُ
قضى بتفضِيْله عمَّن تقدَّمه ما اسْتُوْدِعَ المُخْبرانِ الكُتْبُ والسِّيَرُ
عَدْلٌ به أَمِنَ الشَّاء المُهَمَّل أنْ يَرُوْعَهُ الضَّاريانِ الذِّئْبُ والنَّمِرُ
وجودُ كفٍّ إذا انهلَّت تفرَّقَ في تيَّارها الزَّاخِران البحرُ والمَطَرُ
مكارمٌ جُمِعَتْ فيه توافَقَ في تَفْضيلها الأكرمانِ الخُبْرُ والخَبَرُ
فاسْلَمْ وعِشْ وابقَ للإسلام ما جَرَتِ الـ أفلاكُ والنَّيِّرانِ الشَّمْسُ والقَمَرُ(١)

وقال في أيام نور الدِّين [من البسيط]:

سلطانُنا زاهِدٌ والنَّاس قد زَهِدُوا له فكلٌّ على الخيراتِ مُنْكَمِشُ
أيامُهُ مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ طاهرةٌ من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ(٢)

ولما فارق مِصْر تأسَّفَ على فراقه الصَّالحُ بنُ رُزِّيك، وكان يحبّه، وراسله الصَّالح على أن يعودَ إلى مِصْر، فلم يجبه، وكَتَبَ إليه يطلب تجهيزَ أهله إلى الشَّام من أبياتٍ، أولها [من البسيط]:

(١) «الخريدة»: ١/ ٥٤٥ـ٥٤٦ .
(٢) «الخريدة»: ١/ ٥١٦ .

أجيرةَ القَلْبِ والفُسْطَاطُ دارُهُمُ لم تُصْقِبِ الدَّارُ لكن أَصْقَبَ الكَلَفُ
فارقْتُكُمْ مُكْرَهاً والقلبُ يُخْبِرُني أَنْ ليس لي عِوَضٌ منكُمْ ولا خَلَفُ
ولو تعوَّضْتُ بالدُّنيا غُبِنْتُ وهل يُعَوِضُني عن نفيسِ الجوهر الصَّدَفُ
ولستُ أُنكر ما يأتي الزَّمانُ به كلُّ الورى لرزايا دَهْرِهِمْ هَدَفُ
وما أَسِفْتُ لأمرٍ فات مَطْلَبُهُ لكن لفُرْقة من فارَقْتُهُ الأَسَفُ(١)

فأمر الصَّالح شعراء الدَّوْلة أن يوازنوا قصيدته، وقال: وأنا معكم، وكتب الصَّالح إليه ـ وهي للصَّالح: [من البسيط]

آدابُكَ الغُرُّ بحرٌ ماله طَرَفُ في كلِّ سَمْعٍ بدا من حُسْنِهِ طُرَفُ
نقولُ لما أتانا ما بَعَثْتَ به هذا كتابٌ أتى أم روضةٌ أُنُفُ
إذا ذكرناك مجدَ الدِّين عاوَدَنا شوقٌ تجدَّدَ منه الوَجْدُ والأَسَفُ
يا مَنْ جفانا ولو قد شاءَ كان إلى جَنَابنا دونَ أهلِ الأرضِ يَنْعَطِفُ
فَمِلْ إلينا بآمالٍ محقَّقَةٍ وكُفَّ غَرْبَ دموعٍ دَمْعُها يَكِفُ
كفى اغتراباً فعجِّلْ بالإيابِ لنا فمنكَ لا عِوَضٌ نَلْقى ولا خَلَفُ(٢)

وقال مهذَّب الدِّين [الحسن بن](٣) علي بن الزُّبير: [من البسيط]

أحبابَنا مالنا عن بُعْدِكُمْ خَلَفُ وإن يكن فطويلُ الحُزْنِ والأَسَفُ
ولو جَرَيْتُمْ ولَمْع البَرْق في قَرَنٍ لكان مَعْ شكوكُمْ مَعْ سَيْفه يَقِفُ(٤)
يا لائمينا على أنْ لا نراسلهم ما الوَجْدُ مما أطاقَتْ حَمْلَه الصُّحُفُ
وزادني ثقةً عِلْمي بعِلْمِكُمُ أن المحبَّةَ أضعافُ الذي أَصِفُ
حَبَوْتُمونا بدُرٍّ من قَرِيْضِكُمُ صدورُنا حيثُ ترويها له صَدَفُ
فاهتزَّ عِطْفُ مليكِ النَّاس كلِّهمُ لها وأيُّ كريمٍ ليس يَنْعَطِفُ

(١) «ديوان أسامة»: ٨٥.
(٢) «ديوان أسامة»: ١٨١ـ١٨٣.
(٣) ما بين حاصرتين من ترجمته في «خريدة القصر»، قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٤، وانظر «الروضتين»: ٢/ ٢٥.
(٤) كذا في (ح)، ولم يتبين لي معناه.

وأَطْـرَبَـتْـه مـعـانـيـه فـمـالَ بـه ... شـوقٌ إلـيـكـم ظـنَّـنـا أَنَّـه شَـغَـفُ
ومـا لـمِـثْـلِـكُـمُ عـن مِـثْـلِ دَوْلـتِـهِ ... ومِثْلُهُ في جميعِ الأرض يَنْصَرِفُ

وقال القاضي أبو عبد الله بن أبي جَرَادة[1]: [من البسيط]

ما ضَرَّهُمْ يوم جَدَّ البَيْنُ لو وَقَفُوا ... وزَوَّدُوا كَـلِـفـاً أودى بـه كَـلَـفُ
أَسْتَوْدِعُ الله أحباباً أَلِفْتُهُمُ ... لكن على تَلَفي يوم النَّوى ائتَلَفُوا
الله يعلَمُ أني مُغْرَمٌ بهمُ ... وأنني عن هواهُمْ لستُ أَنْصَرِفُ
فهل تعودُ ليالي الوَصْلِ ثانيةً ... ويصبحُ الشَّمْلُ فينا وهو مُؤْتَلِفُ[2]

فعزم على العَوْد لمِصْر، فَقُتِلَ الصَّالح، وقال أسامة: [من الطويل]

أراني نهارُ الشَّيْبِ قَصْدِي وطالما ... تجاوزَ بي ليلُ الشَّبابِ سبيلي
وقد كان عُذْري أنْ أضلَّنيَ الدُّجى ... فهلْ ليَ عُذْرٌ والصَّباحُ دليلي

قال المصنِّف رحمه الله: وقد رأيتُ ولده العَضُد مُرْهَف[3] في الدِّيار المِصْرية سنة تسع وست مئة، وكان فاضلاً كَيِّساً، لطيفاً ظريفاً، متواضعاً مفنناً، وكان يحضُرُ مجالسي بالقاهرة، ويزورني، ويُنْشدني مقطَّعاتٍ من الأشعار، منها: [من الطويل]

ومازالتِ الأيامُ تُوْعِدُني المُنَى ... بلُقْياكَ حتى بَرَّحَتْ بي وعُوْدُها
فلمَّا تلاقَيْنا افْتَرَقْنا فليتنا ... بقينا على الحالِ التي لا نريدُها

مجاهد الدِّين خالص بن عبد الله[4]

خادم الإمام النَّاصر، كان قريباً منه، سَلَّم إليه مماليكه الخواص، وكان سليم الصَّدْر، دَيِّناً، صلَّى به إمامٌ صلاة الفجر، فقرأ فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فرفع خالصٌ صوته في الصَّلاة، وقال: صَلَّى الله عليك يا

(١) كذا كنَّاه سبط ابن الجوزي هنا، والقرشي في «الجواهر المضية»: ٢/ ٧٣، وهو أبو علي الحسن بن علي بن عبد الله بن أبي جرادة، وسلفت ترجمته في وفيات سنة (٥٥٥هـ).
(٢) سلفت بعض هذه الأبيات في ترجمته في وفيات سنة (٥٥٥هـ).
(٣) توفي مرهف سنة (٦١٣هـ)، وستأتي ترجمته في وفياتها.
(٤) له ترجمة في «الكامل»: ١٢/ ٢٦.

رسولَ الله. فضحك القوم، وقطعوا الصَّلاة، فقال لهم خالص: مجانين أنتم! يقول الله: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] وأسكت أنا؟!

[وفيها توفيت

الإخلاطية، زوجة الإمام الناصر[١]

واسمها][٢] سَلْجوقي خاتون بنت قليج رسلان بن مسعود صاحب الرُّوم، ويقال: مسعود بن قاروت بك الإخلاطية.

قدمت بغداد سنة ثلاثٍ وثمانين، وحجَّت، وعادت إلى حِصْن كيفا، فمات زوجها، فعادت إلى بغداد سنة أربعٍ وثمانين، فتزوَّجها الخليفة، فحظيت عنده، فحكَّمها في داره وفي الخزائن والدولة، فتوفيت يوم الاثنين ثاني ربيع الأول فجأةً، فحزن عليها الخليفة حُزْناً [عظيماً][٢] لم يحزنه رجلٌ على امرأة، بحيث أقامت دورها ومقاصيرها سنين لم تفتح، وكانت كثيرةَ الصَّدقات والمعروف، وبَنَتْ عند عون ومعين تُرْبةً ودفنت بها، فبنى الخليفة إلى جانبها رباطاً للصُّوفية، ووقَفَ عليه وعلى التربة أوقافاً عظيمة، ونَقَلَ إلى التربة الكُتُبَ النَّفيسة، وأمر الناس بالتردُّد إلى تُرْبتها في كل ليلة رجب ونصف شعبان، ويحضر الوزير وأرباب الدولة والوعَّاظ والفقهاء والقُرَّاء، ويحضر الخليفة متخفياً، فيجلس في شُبَّاك، ويتكلَّم الوعَّاظ، وينشد الشعراء من وقت العَصْر إلى غروب الشمس، ويمضي الوزير وأرباب الدولة، ويبقى الوعَّاظ والقُرَّاء يعظون طول الليل، فإذا كان وقت السَّحر فُرِّقَتْ فيهم الحلاوات الكثيرة والخُشْكنانك[٣] وغير ذلك، وعمل لها سبيلاً يخرج عليها في كل سنة ينفق فيه أموال كثيرة.

---

(١) لها ترجمة في «الكامل»: ١٢/ ٢٦، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٨٨، «جهات الأئمة الخلفاء» لابن الساعي: ١١٥ـ١١٩، «الوافي بالوفيات»: ١٥/ ٢٩٦، و«مختصر التاريخ» لابن الكازروني: ٢٤٦ـ٢٤٧.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق، ويكون على هيئة هلال. انظر «المعرب»: ١٣٤، ودوزي: ١/ ٣٧٣.

عيسى بن مودود فخر الدِّين(١)

صاحب تكريت، وكان له أخوة: علي وأزغش وغيرهما، فاغتاله عليٌّ فقتله، وأظهر أنَّ غِلْمانه قتلوه، وكان حَسَنَ السِّيرة، جَواداً لا يدَّخر شيئاً، ولا يردُّ سائلاً، ولا يخيِّب قاصداً، وكان فاضلاً، ومن شعره: [من الوافر]

أرى الأَيَّامَ محكوماً عليها ... ولا حُكْمَ لها فعلامَ عَتْبُ
فلا تتوهَمَنَّ الأمرَ سَهْلاً ... أَمَا واللهِ إنَّ الأمرَ صَعْبُ
قضاءُ اللهِ مقدورٌ علينا ... ولكنْ فيه للإنسانِ كَسْبُ

محمد بن قائد(٢)

الشيخ الزَّاهد، من أهل أَوَانا: قرية كانت بالدُّجَيْل، كان صاحبَ كراماتٍ وإشارات ومجاهدات ورياضات، وكلامٍ على الخواطر، وبيانٍ عمَّا في الضَّمائر، وكان يجتمع عنده في المواسم خَلْقٌ عظيم، وكان قد أُقعد زماناً، فكان يُحمل في مِحَفَّة إلى الجامع يوم الجمعة، واستُشْهد في هذه السنة، وسببه أنه قَدِمَ أَوَانا واعظٌ يُعَرف بالزَّرْزور، فجلس بجامع أَوَانا، ونال من الصَّحابة، وكان سعود الخادم والي دُجَيْل حاضراً، فلم يُنْكر عليه، فقيل للشيخ محمد: الواعظُ يسبُّ الصَّحابة وسعود جالسٌ عنده ولا ينكر عليه، فقال: احملوني، فحملوه في مِحَفَّة إلى عند المنبر، فصاح على الزرزور: انزل يا كلب أنتَ ومن تعتزُّ به. وكان يدَّعي إلى سنان مقدَّم الإسماعيلية، وثار العوام، فرجموا الزرزور، وهَرَبَ سعود، وتعصَّب للواعظ قومٌ، وخلَّصوه من القَتْل، فهرب إلى الشَّام، واجتمع بسنان، [وحكى له صورة الحال](٣)، فيقال: إنَّ سنان بَعَثَ إليه رجلين في زِيِّ الصُّوفية، فجاءا إلى الشيخ، فأقاما عنده بالرِّباط تسعة أشهر يصومان ويصلِّيان وهو لا يعرفهما، [وكانا يتوقعان فرصة،](٣) فقال الشيخ يوم الأربعاء

(١) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٤٧٧، ١٢/ ٤٢، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٩٨-٥٠٠.
(٢) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٣٥٢.
(٣) ما بين حاصرتين من (م).

لأصحابه: يحدث ها هنا حادثة عظيمة. وكان عنده ودائع للنَّاس، فردَّها [على أصحابها](١)، وقال لخادمه: يا عبدَ الحميد، لك فيما يجري نصيب، فبعني إياه بالدولة تكون لك ـ والدولة بستان إلى جانب الرِّباط ـ فقال: ما أبيعك نصيبي بالجَنَّة، ولم يفهم إشارةَ الشيخ، فلما كان يوم الجمعة تهيَّأ الشيخ للصَّلاة، وكان أصحابه يأتون قبيل الصَّلاة، فيحملونه في المِحَفَّة إلى الجامع، فجلس عبدُ الحميد والإسماعيليان يقمعون باقِلَّى لأجل الإفطار عليه، والشيخ جالس [على](١) تختٍ صغير، وإلى جانبه طاقةٌ إلى أهله لا تُفْتح إلا في وقت الحاجة، فقام أحدُ الإسماعيليين، فأغلق باب الرِّباط، وجاء الآخر إلى الشيخ، فقال: يا سيدي، ناولني يَدَك لأُقبلها. فأعطاه يده، فصافحه باليسار، فقال: ويحك! وأين اليمين؟ فقال: هو ذا هي. وأخرج يده اليمنى وفيها السِّكِّين، فضربه بها في جَوْفه، فسقط ما في بطنه على التخت، ومات، وضَرَبَ الآخرُ عبدَ الحميد، فقتله، وقطعا خيط الباب، فوقع الصَّارخ وهربا، [وكان ابن قائد قد جاوز التسعين](١)، ومرَّا بين البساتين [ولم يعلم أحد، فمرَّا](١) على فلاحٍ يسقي بُسْتاناً، وبيده مَرٌّ [يعدل به الماء، فرآهما مريبين](١)، فَحَمَلَ على أحدهما فضربه بالمَرِّ، فَفَلَقَ رأسه فوقع ميتاً، وحَمَلَ الآخرُ على الفلاح، فاتَّقاه بالمَرِّ [ثم ضربه بالمرّ](١)، فقتله، وذلك إلهامٌ من الله تعالى، ثم وقف [الفلاح](١) يفكر ويقول: لِمَ قتلت هذين وعليهما زِيُّ الفقراء؟

وأما الشيخ محمد، فإنَّ أصحابه جاؤوا بالمِحَفَّة على العادة، فوجدوا الباب مُغْلقاً، فعالجوه، [فلم يقدروا على فتحه،](١) فكسروه، ودخلوا، وإذا بالشيخ على التَّخْت وأمعاؤه بين يديه، وعبد الحميد مقتولٌ عند التخت، فصاحوا، وانقلبت أَوَانا، وبَطَلَتْ صلاةُ الجمعة، ولم يبق بأَوانا أحدٌ إلا وقَصَدَ الرِّباط، ولفُّوا الشيخ في ثيابه، ودفنوه على حاله، وكان تحته جِلْدُ غَزَال ـ قال المصنف رحمه الله: وقد شاهدتُ دمه في سنة ست مئة وهو طريٌّ على الجلد ـ ودُفِنَ في الرِّباط، وسأل النَّاسُ عن الفقيرين، فعدما، فتيقنوا أنهما قُتِلا، وأما [الفلاح](١) الذي قتلهما، فلما سمع الضجة جاء إلى الرباط،

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

وسأل: مَنْ قَتَلَ الشيخ؟ قالوا: كان عنده فقيران من صفتهما كذا وكذا، فقال: تعالوا. فجاؤوا، فرأوهما قتيلين، فتعجبوا، وقالوا للرجل: عَلِمْتَ الغيب؟! قال: لا والله، بل أُلهمت إلهاماً، فأحرقوهما.

وأما سعود الخادم فإنَّ الخليفة سَخِطَ عليه، فاستصفى أمواله، ومات تحت الضَّرْب، وألقي في دِجْلة.

[وقد رُوي أن الشيخ عبد الله الأرمني حضر مقتل الشيخ محمد، وسنذكره في سنة إحدى وثلاثين وست مئة](١).

محمد بن محمد(٢)

ابن عبد الله بن القاسم بن المُظَفَّر بن علي، أبو حامد ابن كمال الدين الشَّهْرُزُوري، ولي القضاء بالمَوْصل، وقدم بغداد رسولاً من صاحب المَوْصِل، فأكرمه الخليفةُ، وخَلَعَ عليه، وتوفي في جُمادى الأُولى. ومن شعره: [من الوافر]

ولـمَّـا شـابَ رأسُ الـدَّهْـرِ غـيـظـاً ... لِـمَـا قـاسـاه مـن فَـقْـدِ الـكـرامِ
أقـام يـمـيـطُ عـنـه الـشَّـيْـبَ عَـمْـداً ... ويـنـثُـرُ مـا أمـاطَ عـلـى الأنـامِ

السنة الخامسة والثمانون وخمس مئة

في المحرَّم أَمَرَ الخليفةُ أن يُعهَدَ إلى ولده أبي نَصْر محمد، وكان في العهد: وإنَّ أميرَ المؤمنين أَنْعَمَ النَّظر للمسلمين بتفويضِ عهده والإمامةِ من بعده إلى ولده عُدَّة الدُّنيا والدِّين أبي نصر محمد لما عَلِمَ من عَقله الرَّاجح، وهَدْيه الواضح. وذكر كلاماً بمعناه.

وبعث الخليفةُ ضياء الدِّين عبد الوهَّاب بن علي الصُّوفي ويعرف بابن سُكَيْنة إلى صلاح الدِّين في الخُطْبة، [وبَعَثَ إلى جميع الآفاق، فالتقاه السلطان](١)، فخطب له على المنابر، [وكان الخطيب بدمشق عبد الملك بن زيد الدَّوْلعي](١) وبعث جواب

---

(١) ما بين حاصرتين من (م)، وانظر ج٢٢/ ٣٢٩ من هذا الكتاب.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٢٩-٣٣٩، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١٣٦-١٣٧، و«كتاب «الروضتين»: ٤/ ٢٣٨-٢٣٩، «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤٦-٢٤٨، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٦٠-٦١، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

الرِّسالة مع ضياء الدين الشَّهْرُزُوري، وبَعَثَ معه بصليبٍ كان على صخرة بيت المقدس، فَجُعِلَ في باب النُّوبي تطؤه الأقدام.

وفيها أُعيد ابن يونس الذي كسره طغريل إلى الوزارة، وعُزِلَ ابنُ حديدة، وطُولب بمالٍ أخذه من تركة خالص الخادم، فَهَرَبَ إلى الرِّباط المجاور لتربة الإخلاطية، فاستجار به، فلم ينفعه، وأُخذ منه المال، ووكل به في داره، وقيل: إنما ولي ابن يونس أُستاذ دار.

وفيها بنى الخليفةُ داره التي استجدَّها إلى جانب التَّاج، وسمَّاها الدَّارَ البيضاء.

وفيها تسلَّم نوابُ الخليفة قلعة تكريت، وكان قد حَصَرَها العسكر مُدَّة، ومات صاحِبُها عيسى بن مودود، وولي مكانه أخوه أزغش، فقتله إخوته، وسببُ قتله أنه كان قد استولد مغنية، فكانت تذلُّ إخوته وتهينهم، وكان أزغش قد مال إلى الخليفة، فاتَّهموه بقتل عيسى، فقتلوه، وقتلوا المغنية، وولوا أخاهم هارون بن مودود، فساءتِ الأحدوثة عنهم، وجَهَّز الخليفةُ إليهم العساكر، وخاف أهلُ البلد من النَّهب والقَتْل، فخرجوا بأطفالهم وأهلهم، فسُقِطَ في يد أولاد مودود، فأرسلوا تاج الدين يحيى قاضي تكريت إلى بغداد، فقرَّر أمرهم، وأُفرد لهم دورٌ ببغداد، وكانوا جماعة: الياس وهارون ومحمد وعلي وإسماعيل وإبراهيم ويوسف.

وفيها ولَّى السُّلْطان على عكا حسام الدين بشارة، وعلى عمارة السور قراقوش، وعاد السُّلْطان إلى دمشق في صفر.

وفيه ولى السلطان شحنكية دمشق بدر الدين مودود؛ أخا العادل لأُمه.

وفي ربيع الأول خرج السُّلْطان من دمشق قاصداً شقيف أرنون غربيَّ بانياس، وكان به رجلٌ من دُهاة الفرنج قد قرأ التَّواريخ والسِّيَر والعربية، وكانت له صيدا، فنزل إلى السُّلْطان، واستمهله ثلاثة أشهر لينقل ماله وأهله إلى صور، وكان ينزل كل وقت ويأكل مع السُّلْطان، فلما انقضتِ الأشهر طالبه بتسليم الحِصْن، فقال: إن أهله قد عصوني، فقيَّده، وبعث به إلى دمشق.

وفيها كانت الوقعة على صور، قُتِلَ فيها الغزاة الذين جاؤوا من الشَّرق، وسببها أَنَّ الفرنج كانوا قد اجتمعوا إلى صور مدَّة مقام السُّلْطان على الشَّقيف، وكان السُّلْطان قد

أطلق ملكَ عكا، وشَرَطَ عليه أن لا يَضْرِبَ في وَجْهه بسيف، وأن يكون طليقَ السُّلْطان، فلما حَصَلَ في المركب مزَّق خِلْعة السُّلْطان، وسَبَّه وسبَّ المُسْلمين، وسار إلى صور وبها المركيس، فلم يمكِّنْه من دخولِ البلد، فنزل بظاهره، وجاء السُّلْطان فنزل أرض صيدا، وبينهمُ الجسر، ووصل من الشرق خَلْقٌ عظيم من الغُزاة ما يزيد على عشرة آلاف راجل، فقال لهم السُّلْطان: لا تعبروا الجسر إلا معنا، فالمكان ضيِّق. فخالفوه، وعبروا [الجسر](1)، وكَمَنَ لهم الفرنج، فقتلوا مُعْظمهم، وقُتِلَ غازي بن مسعود بن البصار، وكان شابًّا جميلاً، ولم يعلمِ السُّلْطان، فجاء وقد فاتَ الأمر، وبَعَثَ الفرنج برؤوس القَتْلى إلى الجزائر، وقالوا: أيش قعودكم؟ فهذه رؤوسُ ملوكِ المُسْلمين، فكان ذلك سبباً لاستيلاءِ الفرنج على البلاد.

وفي جُمادى الأولى ولد للملك العزيز ولدٌ وسماه محمداً، ولقبه ناصر الدين، وهو الذي اجتمع عليه أصحابُ العزيز عند موته سنة خمس وتسعين وخمس مئة، وكَتَبَ الفاضل إلى السُّلْطان: أدام الله أيام مولانا السُّلْطان ورشاده وإرشاده، وزاد سَعْده وإسعاده، وكَثَّر عبيده وأعداده، وشدَّ بأعضادهم عضده وأعضاده، ونمَّى عَدَده وعديده حتى يقال: هذا آدم الملوك وهذه أولاده، وقد رَزَقَ الله الملكَ العزيز ولداً ذكراً سوياً، بَرًّا زكياً، نقياً تقياً، من ذُرِّيَّة بعضُها من بعض، وبيت كريم، كادت ولاته تكون ولاةً في السَّماء، وممالكيه ملوكاً في الأرض، وكانت ولادته يوم الأحد، ليعزَّ الله به أهل الجمعة ويذل أهلَ الأحد.

وفي ثاني عشر رجب نَزَلَ الفرنج على عكا؛ ساروا من صور على طريق الناقورة والإسكندرونة على السَّاحل، وهؤلاء الفرنج هم الذين أجلاهم السُّلْطان إلى صور، واجتمعَ إليهم مَنْ كان في السَّاحل، وسار السُّلْطان يقاتلهم في البر، فسبقوه إليها، واستداروا حولها من البحر إلى البحر، ونزل السُّلْطان على تل كَيْسان، وكتب إلى الأطراف يستنجدهم، فأسرعوا، فأول مَنْ جاءه تقي الدين صاحب حماة، ثم [ابن](1) زين الدين بعساكر الشَّرْق، ثم عسكر مِصْر، فزحف عليهم مستهل شعبان وضايقهم، فانضمَّ بعضُهم إلى بعض، فخلا جانبٌ من سور عكا، فدخلها المسلمون بالعُدَد

(١) ما بين حاصرتين من (م).

والذَّخائر، ودخلها السُّلْطان، وصَعِدَ على السور، فرأى خَلْقاً عظيماً، وخرج إلى المخيم.

فلما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان خَرَجَ الفرنجُ بالفارسِ والرَّاجل، وكان في ميمنة السُّلْطان تقي الدين صاحب حماة، فترفَّع عنهم قليلاً قليلاً، فانتهوا إلى التَّلِّ وعليه خيمةُ السُّلْطان، فقتلوا بعضَ الحاشية وجماعةً من أهل السوق، ثم حملت عليهم ميمنةُ السُّلْطان، فانهزموا، وقُتِلَ منهم خمسة آلاف، وأُسِرَ جماعةٌ، وكان فيهم نسوةٌ بزِيِّ الخيَّالة، فسئل بعضُ المأسورين: كم عِدَّتكم؟ فقال: مئة ألف.

ورجع السُّلْطان إلى خيمته، وأمر بالقَتْلى، فطرحوا في النهر الذي يشرب منه الفرنج، وكل يوم يأتي الفرنج مَدَدٌ وقوة، وقيل: كانوا ألفي فارس وثلاثين ألف راجل مقاتلة، والباقي أتباع، وباب عكا مفتوحٌ من ناحية القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قَرَاقوش الذي جدَّده.

وتوفي سُنْقُر الخِلاطي، فحزن السُّلْطان عليه [حزناً كبيراً][(١)].

وكان السُّلْطان يباشر الأمور بنفسه ليلاً ونهاراً، وكان العسكر الذي بعكا يخرجون ويقاتلون، ولما كان في اليوم الحادي والعشرين من شعبان رأى السُّلْطان التوسعة عليهم لعلهم يخرجون فيظفر بهم، فارتفعَ إلى تل العياضية، ومات حسام الدين طُمان، فدفن في هذا التل، وطال القتالُ بين الفرنج وأهل البلد، فصار يتحدَّث بعضُهم مع بعض، وأبطلوا القتال، وأخرجوا الصِّغار يتصارعون، فلما كان يوم الأحد خامس عشرين شعبان خرج الفرنج الفارس والرَّاجل، ووقفوا أطلاباً، واصطفوا ميمنة وميسرة وقلباً، فركب السلطان، وصفَّ أصحابه، فجعل في الميمنة ولده الملك الأفضل والظَّافر وعسكر الشرق ودياربكر، وحسام الدين ابن لاجين صاحب نابُلُس، وقيماز النجمي، وفي طرفها تقي الدين عمر، وفي الميسرة سيف الدين علي بن المشطوب مقدَّم الأكراد ومجلي والمهرانية، ويرنقش مقدَّم عسكر سِنْجار، ومظفر الدين ابن زين الدين [والأسدية][(١)]، ووقف السُّلْطان في القلب، وخَرَجَ يدور على الأطلاب، وبين

(١) ما بين حاصرتين من (م).

يديه الفقيه عيسى يحرِّضُ النَّاس على الجهاد، [ويرغبهم في الثواب][1]، فتحركت ميسرةُ الفرنج، فتأخَّر تقي الدين طمعاً في خروجهم عن الرَّاجل، وطمع الفرنج، وحملوا على طرف الميمنة، وجاءتِ الحملةُ على الدِّياربكرية، ولم يكن لهم خبرةٌ بالحرب، فانهزموا، فتبعهم الفرنج إلى تل العياضية، وعليه خيمةُ السلطان، فدخلوها وقتلوا [جماعة من خواص السلطان، منهم جمال الدين][1] إسماعيل المكبِّس، وابن رواحة، وطشت دار السُّلْطان، وبلغت هزيمة الميمنة إلى الأُقحوانة، ويقال: دخل بعضُهم دمشق، وبلغ الأفضل إلى عقبة فيق، ولما رأى السُّلْطان ذلك صاح: كذب الشيطان. وحَمَلَ عليهم، وقال للميسرة: احملوا. فحمل الجميع، فطحنوا الفرنج طحناً، وقتلوا منهم عشرة آلاف، وأسروا [منهم][1] خَلْقاً كثيراً، وقُتِلَ من المُسْلمين مئة وخمسون ممن لا يؤبه له، وقُتِلَ الظَّهير أخو الفقيه عيسى، فعزَّاه النَّاس، فضحك وقال: هذا يوم هناء.

ولما انكسرت الميمنة نهب بعضُ النَّاس خيامَ بعضٍ لخلوِّها، فذهبت أموالُ النَّاس، وعاد السُّلْطان فرأى النهب، فساءه ذلك، فأرسل إلى المنهزمين، فعادوا، فأمر بردِّ خيامهم وأموالهم، ثم ارتفع السُّلْطان إلى الخَرُّوبة خوفاً على النَّاس من روائح القَتْلى، ولما ارتفع وبَعُدَ عن عكا طمع الفرنج، وشرعوا في حَفْر الخنادق عليهم من البحر إلى البحر، وغلَّق أهلُ البلد الأبواب، وبان حينئذٍ ضعف الرأي، فإنَّ الرحيل عن تل كيسان كان سبباً لأخذ عكا، وانقطعت الطُّرق إلى عكا.

وقَدِمَ الحاجب لؤلؤ بالأُسْطول من مِصْر، فأحرق عِدَّةً من مراكب الفرنج، ودخل جماعةٌ إلى عكا معهم الميرة والعُدَّة، وقَدِمَ العادلُ بعساكر مِصْر.

وفي رمضان وَصَلَتْ مراكبُ الفرنج، وفي جُمْلتها بطسة كبيرة فيها ثلاث مئة إفرنجية مُسْتحسنات لإسعاف الغرباء، لا يمنعن كَفَّ لامس، وبلغ المسلمين ذلك، فهرب إليهن جماعةٌ من الغِلْمان، وكان في المراكب امرأة معها خمس مئة فارس بخيولهم وعُدَدهم، وكان النِّساء يخرجن فيقاتلن في زِيِّ الرجال.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

وفي رمضان [أيضاً] وصلت كُتُبُ الملك الظَّاهر من حلب تخبر بخروج ملك الألمان في مئتين وستين ألفاً من بلاد الرُّوم قاصداً بلاد الإسلام، فندب القاضي بهاء الدين بن شدَّاد، فسار إلى الشرق يُنْذر المُسْلمين بوصوله، فوعده الخليفةُ بإنفاذ العساكر، وبَعَثَ عِزُّ الدِّين صاحبُ الموصل بعساكر مع ولده علاء الدين.

وحجَّت والدةُ الخليفة النَّاصر، ومعها ألف وثمان مئة جمل عليها الزَّاد والماء والمارَسْتان والأموال والثِّياب، وسار في خدمتها صَنْدَل الخادم وطاشْتِكِين وطغريل صاحب البَصْرة، وفعلت خيراً كثيراً.

وفيها توفي

الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري(١)

أبو علي، الفقيه الحموي الشَّافعي، كان دَيِّناً صالحاً، اسْتُشْهد في رجب في خيمة السُّلْطان مع المكبِّس، وهو من ولد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه(٢).

طُمان بن عبد الله النُّوري الأمير(٣)

صاحب الرقة، كان شجاعاً جَوَاداً، محبًّا للخير، كثيرَ الصَّدقات، مائلاً إلى العلماء والفقهاء، بنى مدرسةً بحلب لأصحاب أبي حنيفة، وكان السُّلْطان يحبُّه ويعتمد عليه، ولما احْتُضِرَ والسُّلْطان في مقابلة الفرنج طَلَبَ حِصانه وزرديته ليركب من حِرْصه على الغَزَاة، فلم يقدر لضعفه، فجعل يبكي ويتأسف على موته على فراشه، وكان من شُجْعان المسلمين، فتوفي ليلة نصف شعبان، ودفن في تل العياضية، وحَزِنَ السلطان والمسلمون عليه.

---

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٨١ـ٤٩٦، و«معجم الأدباء»: ١٠/ ٤٦ـ٥٦، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١١٦، و«الروضتين»: ٤/ ٩٧ـ٩٨، «مفرج الكروب»: ٢/ ٣٠٠ـ٣٠٢، و«فوات الوفيات»: ١/ ٣٧٦ـ٣٧٧، و«الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٤١٣ـ٤١٦.

(٢) قال أبو شامة في «الروضتين»: ٤/ ٩٨: «وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابي، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة».

(٣) له ترجمة في «كتاب «الروضتين»: ٤/ ١٠٨، و«الوافي بالوفيات»: ١٦/ ٤٩٧، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١٠٩.

عبد الله بن محمد(١)

ابن هبة الله بن علي بن المطهر(٢)، أبو سَعْد ابن أبي السَّرِي، التَّميمي المَوْصِلي، الحَدِيْثي، القاضي شرف الدين بن أبي عَصْرون.

ولد بالمَوْصل ليلة الاثنين الحادي وعشرين ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة، وقدم بغداد، فأقام بها مدَّة، وقرأ القرآن، [على جماعة، منهم الشيخ محمد بن بنت الشيخ، وأبو عبد الله البارع الأديب، قرأ عليه بالسبعة، وغيره](٣)، وتفقَّه على القاضي أبي محمد ابن الشَّهْرُزُوري الذي خَلَفَ على أُمِّ ابنِ أبي عَصْرُون بعد أبيه، [وعلى أسعد المِيْهني، وقرأ الأصول على أبي الفتح بن بَرْهان، وسمع الحديث من ابن الحُصَيْن، والبارع، وابن السمرقندي وابن الخاضبة](٣).

وصنَّف كُتُباً كثيرة، [ودرَّس الفقه، وأفتى وناظر في الموصل سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة، وبسنجار أيضاً،](٣) وقَدِمَ حلب سنة خمس وأربعين [وخمس مئة](٣)، فأقام بها، وقَدِمَ دمشق لما فتحها نور الدين في سنة تسعٍ وأربعين، ودرَّس بالزَّاوية الغربية، وتولى أوقاف الجامع والمساجد بدمشق، ثم عاد إلى حلب، وولي القضاء بسِنْجار ونَصِيْبين ورأس عين وحَرَّان ودياربكر، ثم عاد إلى دمشق، فولاه صلاحُ الدين القضاء بها ـ [وقد ذكرناه ـ بعد وفاة كمال الدين في سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة](٣)، وأضَرَّ قبل وفاته بعشر سنين، ففوَّض السُّلْطان القضاء إلى ابنه أبي حامد، وأقام منقطعاً بداره في دمشق إلى أن توفي ليلة الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان، وقد بلغ ثلاثاً وتسعين سنة، ودُفن بمدرسته المجاورة لداره قريباً من باب البريد، وقيل: إنه كان مجرَّداً من الدُّنْيا، سائحاً في الجبال على قدم التجريد والزُّهْد حتى اجتمع بنور الدين محمود، فبنى له المدارس بحلب وبَعْلَبَكّ ودمشق، ثم جاء صلاح الدين فولاه القضاء،

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٥١ـ٣٥٧، و«الكامل» لابن الأثير: ١٢/ ٤٢، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١١٧ـ١١٩، و«الروضتين»: ٤/ ١٠٨ـ١٠٩، «وفيات الأعيان»: ٣/ ٥٣ـ٥٧، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٥٨ـ١٦٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٢٥ـ١٢٩، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) كذا في (ح)، والصحيح: هبة الله بن مطهر بن علي، وانظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٥٣.

(٣) ما بين حاصرتين من (م).

فانتقل عن ذلك الحال، [وقد ذكرنا أنه سمع من ابن الحصين وغيره ببغداد، وسمع بالموصل من القاضي أبي عبد الله ابن خميس، مصنف «مناقب الأبرار» وغيره، وذكره العماد الكاتب وأثنى عليه، وذكر مقطعات من شعره، منها][(١)] : [من الخفيف]

كلُّ جَمْعٍ إلى الشَّتاتِ يصيرُ ... أيُّ صفوٍ ما شابَهُ التَّكْديرُ
أنتَ في اللَّهْوِ والأماني مقيمٌ ... والمنايا في كلِّ وقتٍ تسيرُ
والذي غرَّه بلوغُ الأماني ... بسرابٍ وخُلَّبٍ مغرورُ
ويكِ يا نفسُ أخلصي إنَّ ربي ... بالذي أخفتِ الصُّدورُ بصيرُ[(٢)]

وقال: [من الطويل]

أؤمِّلُ وَصْلاً مِنْ حبيبٍ وإنني ... على كَمَدٍ عمَّا قليلٍ أفارِقُهْ
تجارَى بنا خيلُ الحِمامِ كأنَّما ... يُسابقني نحو الرَّدى وأسابِقُهْ
فيا ليتنا مُتْنا معاً ثم لم يَذُقْ ... مرارةَ فَقْدِي لا ولا أنا ذائِقُهْ[(٢)]

وقال: [من الطويل]

أؤمِّلُ أَنْ أحيا وفي كلِّ ساعةٍ ... تمرُّ بي الموتى تُهَزُّ نعوشُها
وهل أنا إلا مِثْلُهُمْ غيرَ أَنَّ لي ... بقايا ليالٍ في الزَّمان أعيشُها[(٢)]

وكتب إليه في فتوى: [من الوافر]

أيا تاجَ الأئمَّةِ والمُرَجَّى ... لكشفِ المُشْكلاتِ من الأُمور
إذا ما الدَّار سَهْمٌ ضاقَ فيها ... مع الإفراز من نفعٍ يسيرِ
وباقيها فسهمٌ ليس يخلو ... مع الإفراز عن نَفْعٍ كبيرِ
فإن نبعِ الكثيرَ فهل مكانٌ ... لشُفْعةِ ذلك الجُزْءِ الحقيرِ
وهل تجري ولا إجبارَ فيها ... مع الحمَّامِ والبئرِ الكبيرِ

فأجاب بديهاً: [من الوافر]

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) «الخريدة»: ٢/ ٣٥٤-٣٥٧.

وَثِـقْـتُ بـخـالـقـي فـي كـلِّ أمـرٍ ... ومـالـي غـيـر ربـي مِـنْ ظـهـيـرِ
أرى الـشِّـقْـصَ الـذي لا نَـفْـعَ فـيـه ... كـبِـئْـرٍ أو كـحـمَّـامٍ صـغـيـرِ
وفـي الـكـلِّ الـخِـلافُ وإن رأيـي ... لَـيُـثْـبِـتُ شُـفْـعـةَ الـسَّـهْـمِ الـحـقـيـرِ
وتُـرْهِـقُـهُ الـمـضـرَّة حـيـن بـاعـوا ... فـمـا غـيـر الـتَّـشَـفُّـع مـن مـجـيـرِ(١)

الفقيه عيسى الهَكَّاري ضياء الدين(٢)

حضر فتح مِصْر، وهو الذي مشى بين الأمراء، وقرَّر حديث السُّلْطان، وحضر فتوح القُدْس والغزوات، وكان السُّلْطان يحبُّه ويحسن إليه، ويحسن الظَّنَّ به ويستشيره، وكان الله قد أقامه لقضاء حوائج النَّاس والتفريج عن المكروبين، مع الورع والعِفَّة، وكانت وفاتُهُ عند رحيل السُّلْطان إلى الخَرُّوبة، فحزن السُّلْطان والمسلمون عليه حُزْناً شديداً، وصلَّى السُّلْطان عليه، وحُمِل إلى القُدْس، فدفن في ظاهره، رحمه الله تعالى.

محمد بن عبد الواحد بن علي(٣)

أبو جعفر بن الصَّبَّاغ، الشَّافعي.

ولد في رجب سنة ثمان وخمس مئة، وولي القضاء ببغداد، وكان صالحاً نَزِهاً، دخل في صلاة العَصْر، فصلى ثلاث ركعات، ومات في الرَّابعة، ودفن بباب حَرْب.

المبارك بن المبارك بن المبارك(٤)

أبو طالب الكرخي، [صاحب الفقيه أبي الحسن ابن الخل، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقه على شيخه ابن الخل، وكتب فأحسن، وخلف أبا الحسن ابن

---

(١) «الخريدة»: ٢/ ٣٥٤-٣٥٧.

(٢) له ترجمة في «الكامل»: ١٢/ ٤٢، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١٢٣، و«كتاب «الروضتين»: ٤/ ١٠٩ـ١١٠، و«المختصر في تاريخ البشر»: ٣/ ٧٧، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٢٥٥ـ٢٥٦، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١١٠.

(٣) له ترجمة في «طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ١٤٨ـ١٤٩، و«الوافي بالوفيات»: ٤/ ٦٤.

(٤) له ترجمة في «معجم الأدباء»: ١٧/ ٥٦ـ٥٨، و«الكامل»: ١٢/ ١٨، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١٢٢، و«مشيخة النعال»: ٩٢ـ٩٤، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ١٧٧، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٥٧، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٢٤ـ٢٢٦، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

البواب، وكان يعلِّم أولاد الخليفة الخط: محمداً ولي العهد، وعلياً، وخلف شيخه أبا الحسن ابن الخل في مدرسته بباب العامة التي بناها كمال الدين ابن طلحة، وأضيف إليه تدريس][(١)] النِّظامية، وولي رباط الإخلاطية [وبني على جانبه دار، فسكنها][(٢)]، وكان زاهداً عابداً ورعاً، [وكان الخليفة يرى له، ويحسن الظن به، وكان يوماً برباط الإخلاطية][(١)] خرج من داره في ذي القَعْدة، ودخل الرِّباط ليصلي بهم العَصْر، فلما وقف في المحراب عرضت [له][(١)] سُعْلة، فتغيَّر، فحمل إلى داره، فتوفي وله نيفٌ وثمانون سنة، وحضر جنازته جميع أرباب الدولة، لم يتخلَّف سوى الخليفة، ومن محبة الخليفة له وحُسْن ظنه به، دفنه في [أعز[(٣)] الأماكن عنده، وهي تربة زوجته] الإخلاطية، وجاء [الخليفة][(٢)] آخر النهار، فصلى عليه، [سمع أبا القاسم بن الحُصَيْن، وقاضي المارستان، وأبا الحسن ابن الخل وغيرهم][(٢)].

موسك بن جكو[(٤)]

[والد الأمير عماد الدين داود، وموسك ابن][(١)] خال السُّلْطان صلاح الدين الذي حفظ القرآن وسمع الحديث، وكان مُحْسناً إلى النَّاس، يقضي حوائجهم، ويتلطَّف بهم، وكان ملازماً للسُّلْطان في غزواته، لم يتخلَّف عنه في شيءٍ منها، وكان دَيِّناً صالحاً جَوَاداً، مَرِضَ بمرج عكا مرضاً شديداً، فأمره السُّلْطان أن يمضي إلى دمشق يتطبَّب، فجاء إلى دمشق، فتوفي بها، ودفن بقاسيون، [رحمة الله عليه، وكان صالحاً ثقة][(٢)].

السنة السَّادسة والثمانون وخمس مئة

في سابع المحرَّم دخل ألب رسلان ابن السلطان طغريل إلى بغداد، وهو صبيٌّ صغير، وعليه كَفَن، وبيده سيف مشهور يطلب عفو الخليفة، وجاء فنزل باب النوبي، وباس العتبة، فبكى أهل بغداد، ورَقَّ له الخليفة، وأنزله دار ابن العَطَّار مقابل

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) في (ح): ودفنه في تربة الإخلاطية، والمثبت ما بين حاصرتين من (م).
(٤) له ترجمة في «كتاب «الروضتين»: ٤/ ١٠٨ .

المخزن، وأكرمه، وأحسن نُزُله، وعفا عن جرائم أبيه وما فعل بابنِ يونس، واستدعاه إلى باب الحجرة، وخلع عليه خِلْعة السَّلْطنة، وطوَّقه بطوقٍ من ذهب، واجتمع بولي العهد أبي نَصْر محمد.

وفيها تسلَّم الخليفة قلعة الحديثة بعد حصار طويل.

وفيها بنى الخليفة دار الفَلَك، ورتَّب فيها ابنة السيد العلوي، ويقال لها: بنت الجدود.

وأما حديث السُّلْطان فإنَّ هذه السنة دخلت وهو مرابطٌ على الخَرُّوبة، وفي ربيع الآخر تسلَّم شقيف أرنون بالأمان بعد الحصار الطويل، وضيَّق على صاحبه أرناط بدمشق، فسلَّمه، ومضى إلى صور.

وفي هذا الشهر قدمتِ العساكرُ الإسلامية على السُّلْطان، وفيهم الملك الظَّاهر صاحب حلب، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص، وسابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر، وعز الدين إبراهيم بن المقدَّم، وغيرهم، فتقدَّم السُّلْطان إلى تل كيسان، وعَزَمَ على لقاء الفرنج، وقدم رسول الخليفة فخر الدين نقيب العلويين بمشهد باب التبن ومعه خمسة أحمال نِفْط، وتوقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على [ذمة][1] الخليفة، فشقَّ على السُّلْطان، وقال: أنا في يوم واحدٍ أُخرج مثل هذا وأضعافه، وما أنا بمضطر. ورَدَّ عليه الجميع، فأشار عليه بعضُ أصحابه بأخذ النفط للغزاة، [فأخذه][1] ورَدَّ التوقيع، وقال: يرحم الله العاضد، وصل إليَّ منه في عشرين يوماً مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار، ومثلها عروض.

حديث حريق الأبراج:

كان الفرنج قد صنعوا ثلاثة أبراج من الخشب والحديد، وألبسوها جلود البقر المسقاة بالخَلِّ والخمر لئلا تعمل فيها النار، وطمُّوا خندق عكا، وسحبوا الأبراج على العَجَل إلى السُّور، فأقبلت أمثالَ الجبال، فأشرفت على البلد، وفي كل برج خمس مئة مقاتل، فأيس المسلمون من البلد وقد حِيْلَ بينهم وبين السُّلْطان، وركب السُّلْطان

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

والعساكر واجتهدوا في الوصول إلى البلد، فلم يقدروا، ورماهم الزَّرَّاقون الذين في البلد بالنِّفْط، فلم يحترق منها شيءٌ، وكان بعكا شابٌّ دمشقيٌّ، يقال له ابن النَّحَّاس، ليس له في الدِّيوان اسم، وكان عارفاً بالنفط والحريق، فهيَّأ ثلاث قدور، وقال لقراقوش: انصبْ لي منجنيقاً، فانتهره، وقال: قد عَجَزَ الصُّنَّاع عن ذلك، فمن أنت؟ فقال: قد عملتُ قدوراً لله تعالى، وما أُريد منكم شيئاً، وما يضركم أَنْ أرميَ بها في سبيل الله، فإن نفعت، وإلا فاحسبني واحداً منهم. فقال قَرَاقوش: ما يَضُرُّنا ذلك. ثم نُصِبَ له المنجنيق، فرمى قدرة واحدة في بُرْج، فاحترقَ بمن فيه، ثم فَعَلَ ذلك بالثَّاني والثَّالث، فكبَّر المسلمون، وسَمِعَ السُّلْطان، فكبَّر والعساكر، وفرح قَرَاقوش والأُمراء، وطَمُّوه بالخِلَع والأموال، فلم يأخذ منها شيئاً، وقال: أنا فعلتُ هذا لله تعالى. وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول.

قال المصنِّف رحمه الله: وقد اجتمعتُ بابنِ النحاس في حلب سنةَ ثلاثٍ وست مئة، وحكى لي صورةَ الحريق، وكان يحضُرُ مجالسي، فطابَ قلبه يوماً، فقال للنَّاس: اشهدوا أن نصفَ ثوابي في حريقِ الأبراج لفلانٍ. عني.

وبعد يومين من حريق الأبراج وَصَلَ عماد الدين زَنْكي صاحب سِنْجار إلى خِدْمة السُّلْطان، فالتقاه وتعانقا، وساق به السُّلْطان إلى خيمته، فترجَّل عمادُ الدين قبل السُّلْطان، ومشى في خدمته بمقدار ما لَبِسَ السُّلْطان سرموزته، ودخلا الخيمة، وقدَّم له السُّلْطان من التُّحَف والطُّرَف ما لم يقدِّم مثله، وبَسَطَ له الثياب الأطلس، فمشى عليها، وأنزله في طَرَفِ المَيْسرة.

حديثُ ملك الألمان:

وفيها قَطَعَ الألمان خليج القُسْطنطينية إلى بلاد قليج رسلان في ست مئة ألف جاؤوا من إفرنجة، فخافَ منهم ملكُ القُسْطنطينية، فقالوا: لا تخفْ، نحن ما جئنا إلا لنخلص القُدْس وصليب الصَّلبوت، ونملك بلادَ المسلمين. فلما دخلوا بلاد قليج رسلان لم يكن له بهم طاقة، فاحتاج إلى مسالمتهم، وكَتَبَ إلى السُّلْطان يعتذر بالعَجْز عنهم، وساروا طالبين الشَّام، ووقع فيهم الوباء وفي دوابهم، فدفنوا كثيراً من سلاحهم ظنّاً منهم أنهم إذا عادوا أخذوه، فهلكوا، وأخذ المسلمون ما دفنوه، ووصلوا إلى نهر

طَرَسُوس، فتحصَّن منهم ابن ليون بقلاعه لأنه أرمني وهم فرنج، فأراد الملك أن يسبح في نهر طَرَسُوس، وكان ماؤه بارداً، فنهوه وقالوا: لا تفعل، فأنت متعوب، فقال: لابُدَّ. فسبح فيه، فأخذته الحُمَّى، فأقاموا على النهر بسببه، فأوصى إلى ولده الذي كان في صحبته، ومات، فسلقوه في خل، وجعلوا عظامه في كيس ليدفنوها في القُدْس، ولما مات اختلفوا على ولده لأنه كان له آخر أكبر منه، وكانوا يميلون إليه، فتأخَّر عنه أكثرهم، ودخل أنطاكية في جيش قليل، وسأل الإبرنس أن يخلِيَ له القلعة ليضع أمواله وأثقاله فيها، [وكان في الإبرنس خبرة](١)، فأجابه إلى ذلك ظنًّا منه أنه لا يتفق عوده إليها، وكان كما ظن ما عاد، وأخذ البرنس الجميع، ثم ساروا إلى طرابُلُس، وجعل أهلُ الجبالِ يقتلونهم غِيْلَةً وينهبونهم، فما وصلوا طرابُلُس إلا في نفرٍ يسير، فأقاموا أياماً، وساروا إلى عكا، فلقيهم الفرنج، واستبشروا بهم، ووصل رسول صاحب القُسْطنطينية يعتذر إلى السُّلْطان عن الروم، وكان صديقَ السُّلْطان، [وأنه خطب للخليفة والسلطان بالقسطنطينية.

وانقطعت أخبار عكا عن السلطان،](١) ، فندب أقواماً للسِّباحة، وأعطاهم المال في أوساطهم، والطيور في أعبابهم، فترد الأخبار، ثم احترز الفرنج بعد ذلك بشِباكٍ نصبوها في الميناء، فإذا جاء سابحٌ وقع فيها، فامتنع الناس، وبعث قراقوش يشكو قِلَّة الميرة، فرتَّب لهم السُّلْطان بُطْسة كبيرة، وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا، فقال: ارفعوا الصُّلْبان على البُطْسة كأنكم قاصدين الفرنج، ففعلوا ذلك، فخرج إليهم الفرنج في الشَّواني، وقالوا: نراكم قاصدين البلد؟ فقالوا: وما أخذتموه بعد؟! قالوا: لا. قالوا: وراءنا بُطْسة أخرى ردُّوها عن البلد. فذهبوا عنهم، فردُّوا القُلوع إلى البلد، ودخلوا الميناء، وكبَّر المسلمون، وامتاروا أياماً.

وأما ابنُ ملك الألمان، فإنَّه أعدَّ دبابة عظيمة يدخل تحتها ألوفٌ من النَّاس، ولها رأسٌ عظيم برقبة طويلة، إذا نطحتِ السُّور دخلت فيه وهَدَمَتْه، وعمل بطسة لها خرطوم عظيم طويل، إذا أرادوا قلبه على السُّور انقلب بالحركات، وزحفوا إلى برج الذُّبَّان، فأحرق المسلمون جميع ذلك، وطلبتِ العساكر الشَّرقية العَود إلى بلادها، فقال

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

السُّلْطان: في هذه الحالة اصبروا إلى زمن الشتاء. فأما عمادُ الدِّين صاحب سنجار فأقام، وأما سنجر صاحب الجزيرة، فأصرَّ على الرَّحيل، ودخل على السُّلْطان، فقبَّل يده، وسار من ساعته، فكَتَبَ السُّلْطان وراءه كتاباً يقول في أوله: [من مجزوء الكامل]

مَـنْ ضـاع مـثـلـي مِـنْ يـديـه فـلـيـتَ شِـعْـري مـا اسـتـفـادا

إنك انتميتَ إلينا، فحميناك من أهلك، فَبَسَطْتَ يدَكَ في الأموال والدِّماء والأعراض، ونهيناك، فلم تنته، وأتيتنا بعسكرٍ قد علمه النَّاس، وقلقت هذا القلق ونحن نقاتل العدو، فأبصرْ من تنتمي إليه غيري، فما بقي لي إلى جانبك التفات. فقرأ الكتاب ولم يلتفت، وسار، فلقيه تقيُّ الدِّين عند عقبة فيق، فقال له: إلى أين؟ فأخبره الخبر، فقال: ارجع. فقال: ما أرجع. وكان تقيُّ الدِّين مِقْداماً، فقال له: ارجع يا صبي وإلا رجعتَ مقهوراً. فرجع، وسأل تقيُّ الدين السُّلْطان، فعفا عنه.

وفيها كتب السُّلْطان إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أمير المغرب كتاباً يستنجد به على يد شمس الدين ابن مُنْقذ، وعنوانه:

إلى أمير المُسْلمين محل التُّقى الطَّاهر، ومقر حزب الله الظَّاهر. وفي أوله: الفقير إلى الله يوسف بن أيوب.

الحمد لله الذي استعمل على المِلَّة الحنيفيَّة من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القَرْض، وأجزى من أجرى على يديه النَّافلة والفَرْض، وزيَّن سماء المِلَّة بدراري الذَّراري التي بعضُها من بعض.

وذكر كتاباً طويلاً من إنشاء الفاضل، يستنجده ويسأله أن يقطع عنه مادَّة البحر، وعاد ابنُ منقذ في سنة ثمانٍ وثمانين وخمس مئة بغير فائدة، لأنه لم يخاطبه فيه بإمرة المؤمنين، وبَعَثَ له هدية حقيرة.

وأما ابنُ منقذ، فإنَّه أحسن إليه لا لأجل صلاح الدين، بل لبيته وفَضْله، ومدحه ابنُ منقذ بأبياتٍ نذكرها في ترجمة يعقوب في سنة خمسٍ وتسعين وخمس مئة.

ودخل فصلُ الشِّتاء، فأعطى السُّلْطان العساكر دستوراً، وأقام في نفرٍ يسير.

وفي ذي الحجة مات ابنُ ملك الألمان، واسْتُشْهد بعكا من المسلمين جماعةٌ، منهم جمال الدين محمد بن أرككز، خرج في شاني يقاتل، فأحاطت به مراكبُ الفرنج، وعرضوا عليه الأمان، فقال: ما أضع يدي إلا في يد مقدَّمكم الكبير. فجاء إليه المقدَّم الكبير، فأخذ بيده وعانقه، وألقى نفسه وإياه في البحر، فغرقا.

وفيها: تسلَّم السُّلْطان [صلاح الدين](1) الشوبك بعد الحصار الشديد بالأمان.

وفيها ملك سيف الإسلام صنعاء، وأعطاها لولده شمس الملوك الذي ادَّعى الخلافة.

وحج بالنَّاس من بغداد طاشْتِكِين.

وفيها توفي

سعيد بن يحيى(2)

أبو المعالي ابن الدُّبَيْثي، ولد سنة سبعٍ وعشرين وخمس مئة، وقال: أنشدني عبد الله بن الحسن بن شبيب لنفسه: [من الطويل]

وأغيدَ لم تسمحْ لنا بوصاله ... يدُ الدَّهْرِ حتى دَبَّ في عاجه النَّمْلُ
تمنيتُ لما اخْتَطَّ فقدانَ ناظري ... ولم أرَ إنساناً تمنَّى العمى قَبْلُ
ليبقى على مرِّ الزَّمانِ خيالُه ... حيالي وفي عَيْني لمنظرِهِ شَكْلُ

عبد الرَّشيد بن عبد الرَّزَّاق الكرجي الصُّوفي(3)

كان يتفقَّه ببغداد بدار الذَّهب، وكان وَرِعاً عاملاً عابداً، وكان ببغداد رجلٌ يقال له: النَّفيس الصُّوفي، يضحك منه ويسخر به، وكان يدخل على الخليفة، فدخل يوماً مدرسة دار الذهب، فجعل يتمسخر، فقال له الكرجي: اتّقِ الله، نحن نبحث في العِلْم وأنت تَهْزِل! ما هذا موضعه. فدخل على الخليفة، وبكى بين يديه، وقال: ضربني الكرجي وعَيَّرني. فغضِبَ الخليفة وأمر بصَلْبه، فأُخرج وعليه ثوب أزرق [من ثياب

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) هو سعيد بن يحيى بن علي بن الحجاج، الواسطي المعروف بابن الدبيثي، له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ١/ ١٢٤، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ٩٠.

(٣) ذكر قصته هذه نقلاً عن «مرآة الزمان» أبو شامة في «المذيل على الروضتين»: ١/ ٩٩-١٠٠.

الصوفية][1] إلى الرحبة، ونصبوا له خشبة [ليصلبوه][1]، فقال: دعوني أُصلِّي ركعتين. فصلَّى فصلبوه، فجاء خادمٌ من عند الخليفة، فقال: لا تصلبوه. وقد مات، فلعن النَّاس النفيس [الصُّوفي][1]، وبقي أياماً لا يتجاسر أَنْ يظهر ببغداد. ورأى الكرجيَّ بعضُ الصَّالحين في المنام، فقال: ما فَعَلَ الله بك؟ فقال: أوقفني الحقُّ بين يديه، فقلت: يا إلهي، رضيتَ بما جرى عليَّ؟ فقال: أَوَما سَمِعْتَ ما قلتُ في كتابي: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٦٩] الآية.

علي بن محمد بن علي[2]

أبو الحسن، البَرَانْدِسي.

ولد سنة ثمانين وأربع مئة، وقرأ القرآن، وتفقَّه على مذهب أحمد، رحمة الله عليه، ودرَّس بمدرسة الوزير ابن هُبيرة بباب البَصْرة، وانتفع به خلْقٌ كثير، وكانت وفاته في ربيع الأول وقد بلغ مئة سنة، ودفن بمقبرة جامع المنصور، وكان زاهداً ورعاً، ثقة.

قزل بن إلدكز أتابك[3]

صاحب العراق، وأخو البهلوان، كان قد استولى على أَذْربيجان وغيرها، وهو الذي حَجَرَ على طغريل السّلجوقي، وكان فاسقاً فاتكاً، نام ليلة وهو سكران فأصبح مذبوحاً، وقيل: قتلته خاتون زوجته.

مسعود بن علي بن عُبيد الله[4]

أبو الفَضْل ابن نادر، الصَّفَّار، الأديب الفاضل.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) له ترجمة في «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار: ٤/ ٢٤، و«التكملة لوفيات النقلة» للمنذري: ١/ ١٣١ـ١٣٢، «مشيخة النعال»: ٩٥ـ٩٦، «المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ١٣٦، «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٦٦ـ٣٦٨، «المقصد الأرشد»: ٢/ ٢٥٦ـ٢٥٨، «شذرات الذهب»: ٦/ ٤٧٠، و«المنهج الأحمد»: ٣/ ٣٠٠ـ٣٠١.
وبراندس: قرية من قرى بغداد.

(٣) له ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٩٧ـ١٩٨، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٦٢، وفيهما وفاته سنة ٥٨٧هـ.

(٤) له ترجمة في «الكامل»: ١٢/ ٥٩، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١٢٨، و«مشيخة النعال»: ٩٧ـ٩٨، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٦٠، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١١١، و«توضيح المشتبه»: ١/ ٦٥٨، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٨٧.

ولد سنة خمس عشرة، وبَرَعَ في الأدب، وكَتَبَ خطًّا حسناً نحواً من مئة ربعة ومُصْحف [(1)وأخذ اللغة على ابن الجواليقي وغيره، أنشدنا عبد الرحمن بن أبي حامد الحربي، قال: أنشدني ابن نادر لنفسه هذه الأبيات]: [من الطويل]

تولَّوْا فأولوا الجسمَ من بعدهم ضَناً ... وحرّاً شديداً في الحشا يتزايدُ

وزاد بلائي بالذين أُحِبُّهمْ ... وللنَّاس فيما يذهبون مقاصِدُ

[سمع قاضي المارستان وغيره، وكان ثقةً، وتوفي في المحرم، ودفن بباب حرب](2).

يوسف بن علي بن بكتكين(3)

زين الدين، صاحب إربل، [وهو أخو مظفر الدين بن زين الدين، كان عند السلطان في هذه السنة على الخروبة، فمرض](4) في رمضان عند السلطان، فارتحل من الخَرُّوبة إلى النَّاصرة، فأقام يمرِّض نفسه، وكان عنده أخوه مظفر الدين يمرضه، فيقال: إنه سقاه سمًّا فمات، [وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك](5) ولم يكترث لموته، ولا تأسَّف عليه.

قال العماد: أتينا مظفر الدين نعزِّيه، ظنًّا منا أنه قد حزن عليه حُزْنَ الأخ على أخيه، فكأنا جِئْنا نهنيه، وإذا به مشغولٌ عن العزاء بحيازة أمواله وأسبابه، والقَبْض على عُمَّاله وكُتَّابه، ثم أرسل إلى السُّلْطان يطلب منه إربْل، وينزل عن حَرَّان والرُّها، فأجابه إلى ذلك، وسأله كتاباً إلى صاحب المَوْصل في هذا المعنى، فكتب: قد أحاط العِلْم بانتقال زين الدين إلى جوار الله تعالى، ومقرِّ رحمته، مجاهداً في سبيله، شاكراً

---

(١) في (ح): وكتب خطاً حسناً نحواً من مئة ربعة ومصحف، وتوفي في المحرم، ودفن بباب حرب، وكان ثقة، ومن شعره، والمثبت ما بين حاصرتين من (م).

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) له ترجمة في «الكامل»: ١٢/ ٥٦-٥٧، و«الروضتين»: ٤/ ١٦٨-١٦٩، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٥ (ضمن ترجمة أخيه مظفر الدين)، و«العبر» للذهبي ٤/ ٢٦٠، و«الوافي بالوفيات»: ٢٩/ ٢٦١-٢٦٢، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١١١-١١٢، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٨٨.

(٤) في (ح): زين الدين صاحب إربل، مرض في رمضان، والمثبت ما بين حاصرتين من (م).

(٥) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

لنعمته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[النساء: ١٠٠] الآية. فما أفجعَ القلوبَ بمصابه، وما أنكى في النفوس [فلول][1] شَبَا شبابه، ولقد كانت الهِمَمُ متوفِّرة على تربيته، وإعلاء درجته، ولكن استأثر الله به قبل ظهور حُسْن الآثار في إيثاره، وبُلي بَدْرُ تَمِّه بِسِراره، ولا خفاء أَنَّ إربْل من إنعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزَّيْني منذ سبعين عاماً، لم يحِلُّوا لعقد إنعامهم بها نظاماً، وما رأى الخادمُ أن يخرجَ هذا الموضع منهم، ولا يُصْدَف به عنهم، والأَجلُّ مُظَفَّر الدين كبيرُ البيت وحاميه، والمقدَّم في الولاية بمقتضى وصية أبيه، قد أُنهض ليسدَّ مسَدَّ أخيه.

وكان السُّلْطان لما بلغه موت زين الدين حزن عليه لمكان عِفَّته وشبابه وغُرْبته، وكان تقيُّ الدين عمر عند السُّلْطان، فسأله إضافةَ حَرَّان والرُّها، وما كان بيد زين الدين إلى يده مع حماة وسلمية واللاذقية وجَبَلَة وسُمَيْساط ودياربكر وميَّافارقين، فأعطاه ما طلب، وزاده جُمْلين والمُوَزَّر وسَرُوج ورأس عين، فبعث نوَّابه إليها.

السنة السَّابعة والثمانون وخمس مئة

في صفر سار تقيُّ الدِّين إلى حَرَّان والرُّها والبلاد التي أقطعها، وشَرَطَ عليه السُّلْطان أن يعود عاجلاً، فلما حصل هناك اشرأبتْ نَفْسُه إلى أخذِ البلاد الشَّرْقية والمَوْصل وخِلاط وجميع البلاد، وعَلِمَ صاحبُ خلاط والمَوْصل ومارِدين وآمِد والروم، فنفروا عنه، وتقاعدوا عن نُصْرة السُّلْطان، وتعاهدوا أن لا ينجدوه، وكتبوا إلى الخليفة، فساعدهم خوفاً من تقيِّ الدين، وبَعَثَ الخليفةُ إلى بَكْتَمُر خِلَعَ السَّلْطنة، وخيلاً، وتُحَفاً وسلاحاً يساوي خمسين ألف دينار، وعيناً ثلاث مئة ألف دينار مع أزغش مملوك الخليفة صاحب دَقُوقا، وبلغ السُّلْطان، فقامت عليه القيامة، وجمع الأُمراء، وقال: يا قوم، نحن في هذه الشِّدَّة والبلاء، والمسلمون في خُطَّة الهلاك، والخليفة لا يُنفِذ إلينا دِرْهماً، ويحيلنا على التُّجَّار، وينفذ إلى بَكْتَمُر هذا المبلغ؟! ما أثار هذا علينا إلا تقي الدِّين، والله إني لخائفٌ عليه[2]، ويقال: إنه دعا عليه، وقال: لا يفلح بعدها. فمات تقيُّ الدين في رمضان، فكان

---

(١) زيادة من «كتاب «الروضتين»: ٤/ ١٧٠ .

(٢) كذا في (ح)، ولعلها: لحانق عليه، والله أعلم.

بينه وبين هذا القول ثلاثة أشهر، وقال السُّلْطان: والله لَتُؤْخَذَنَّ عكا، ويُقتَل المسلمون، ويكون هو السبب. فكان كما قال.

وكان سامة الجِيْلي ببيروت، فكتب إليه السُّلْطان بأن يرصد مراكب الفرنج التي تعبر عليه، فأخذ مراكبَ كثيرةً فيها أموالٌ عظيمة حتى قيل: إنَّه أخذ في يومٍ واحد خمس بطس مملوءة مالاً، ولم يُطْلِعِ السُّلْطان على شيءٍ منها، وصحَّ الحديث النَّبوي في هذا الأمر «مَنْ جَمَعَ مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابر»[1] تمزَّقَتْ أمواله، وتغيَّرَتْ أحواله، وخَرِبَتْ ديارُه، ودَرَسَتْ آثاره، وهو الذي سَلَّم بيروت للفرنج.

ذِكْرُ استيلاء الفرنج على عكا: اشتدَّ عليها الحصار في جُمادى الآخرة، وطَمَّ الفرنج الخنادق، ونَصَبوا المجانيق والدَّبَّابات والسَّلالم، ومَلَّ المسلمون من السَّهر والتعب والقتال، وأنكت فيهم الجراحات، وكان الفرنج قد صنعوا تلاً من ترابٍ يقدِّمونه يسيراً يسيراً، ويقاتلون من ورائه، لأن المسلمين أحرقوا أبراجهم ومجانيقهم ودباباتهم، فعملوا هذا التَّلَّ وسَرْدَقُوه، فصار للمقاتلة مثل الحائط.

وجاء كتاب أهل عكا إلى السُّلْطان يقولون: قد عَجَزْنا، وما بقي إلا طلب الأمان والتَّسليم. فلم يَرِدْ على السُّلْطان خبرٌ أشدُّ منه، لأنَّه كان قد نقل إلى عكا جميع سلاح السَّاحل والقدس ودمشق وحلب ومِصْر، فقال للعسكر: إني هاجم على القوم من البر، ويخرج المسلمون من البلد، فقالوا: ما هذا مَصْلحة، قد ترى ما بين أيدينا من الخنادق [وما لنا سبيل إلى ذلك][2]، والرَّجَّالة كالسُّور [بين أيدينا][2]، وبعدهم الخَيَّالة، وهم أضعافُ عددنا، ولم يوافقوه.

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، والسُّلْطان قد ركب والعساكر بأَسْرها، وإذا بأعلامِ الفرنج قد طَلَعَتْ على عكا وقت الظُّهْر، وصاح الفرنج صيحةً عظيمة، وطلع

---

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٢١) و(٤٢٢)، والرامهرمزي في «الأمثال» (١٣٩) مرسلاً، نهاوش: أي من غير حله، كما تنهش الحية من هاهنا وهاهنا. ونهابر: مهالك. أي: أذهبه الله في مهالك وأمور متبددة. «اللسان» (نهبر).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

عَلَمٌ على القلعة، وآخر على مئذنة الجامع، وملؤوا الأبراج بالأعلام، ودخلوا عكا وأسروا مَنْ كان بها، واستولوا على جميع ما كان فيها، وكانوا قبل ذلك قد قرَّروا على أهلها مئتي ألف دينار، وألفي أسير، وصليب الصَّلبوت، ويخرج مَنْ بها من المسلمين سالمين بأموالهم وأهليهم، وأخبروا السُّلْطان فأجابهم، فقال الفرنج: سَلِّموا إلينا المال والأسارى، واقنعوا بأماننا حتى نُسَلِّمَ إليكم أصحابكم. فقال السُّلْطان: وأيُّ أمانٍ لكم؟ ونخاف من غَدْركم، والبلد وما فيه قد صار في أيديكم، وتوقف الحال.

فلما كان يوم السبت سابع عشرين رجب خَرَجَ الفرنج من عكا، ووقفوا وسط المرج بين تل كيسان والعياضية، وأحضروا المُسْلمين موثقين في الحبال، وكانوا زهاء عن ستة آلاف مسلم، وحملوا عليهم حملةَ رجلٍ واحد ضَرْباً وطعناً، فقتلوهم، ويَزَكُ[1] المُسْلمين يشاهدوهم، ولا يعلمون لبُعْدهم ما يصنعون، ورجعوا إلى عكا، فلما جاء يَزَكُ المُسْلمين إلى المكان في اللَّيل، وجدوا القَتْلى في مصارعهم، فعادوا، وأخبروا السُّلْطان، فبكى بكاءً شديداً، ويقال: إنَّه لَطَمَ على رأسه، ونَتَفَ لحيته، ووقَعَ العويل والبكاء في العسكر، ورَحَلَ السُّلْطان عن منزله.

ذِكْرُ ما جرى بعد انفصالِ أمر عكا:

لما كان غُرَّة شعبان يوم الأحد رحل الفرنج من عكا ومقدَّمهم الإنكتار، وكان ملكاً عظيماً، فسار في البر بالفارس والرَّاجل، والمراكب في البحر معهم فيها أزوادهم، فنزلوا على نهر القصب، وكانوا ثلاثة أقسام: الملك العتيق، واسمه جفري في المقدَّمة مع السَّاحلية، والإنكتار مع الفرنسيسية في الوسط، وأولاد السِّتّ أصحاب طبرية في السَّاقة، والسُّلْطان في أعراضهم، وجَرَى بينهم قتال على نهر القصب، قتل فيه أياز الطَّويل مملوك السُّلْطان، وكان فارساً عظيماً، في دَبُّوسه عشرة أرطال حديد، كان يَضْرِبُ الفارس فيهشِّمه، فقاتل في ذلك اليوم قتالاً عظيماً، وقتل من الفرنج جماعةً، فتقنطَرَ به فرسُه، فقتلوه، فحَزِنَ السُّلْطان عليه، ودفن على تلٍّ عالٍ مُشْرف على بركة،

---

(١) اليزك: كلمة فارسية تعني طلائع الجيش، وهي جماعة كانت ترسل للاستكشاف، انظر عنهم «الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين» ص ١٧٧ـ١٨٠ .

وطلب الإنكتار الاجتماع بالملك العادل، فركبا، وكلٌّ واحدٍ في نفرٍ يسير، فقال الإنكتار: إنما نحن جِئْنا لنُصْرة إفرنج السَّاحل، فرُدُّوا عليهم ما أخذتم، واحقنوا دماء الفريقين. فقال العادل: حتى أجتمعَ بالسُّلْطان.

ذِكْرُ وقعة أرسوف:

لما كان يوم السبت رابع عشر شعبان أصبح الفرنج على تعبئة، وصفَّ السُّلْطان عساكره، فاندفع جماعةٌ من المسلمين، وثَبَتَ العادل وقيماز النَّجْمي وعسكر الموصل، وكان مقدَّمهم علاء الدين خُرَّم شاه ولد عز الدين مسعود، فلقبه السُّلْطان [في ذلك اليوم](١) الملك السعيد، ثم عادت عليهم عساكر المُسْلمين، فلولا حيطان أرسوف، لحلَّت بهم الحتوف.

وقال ابن القادسي: انهزمَ صلاحُ الدين في ذلك اليوم، ورجع في عسكر المَوْصل، وكانوا في ألفِ فارس، فقتل من الكفار مئة ألف وأربعين ألفاً.

قال المصنف رحمه الله: هذه من هَنَات ابنِ القادسي، [(٢) أما قوله: إن صلاح الدين انهزم، فما انهزم صلاح الدين قط في ذلك اليوم، ولا في غيره، وقد حكى الواقعة القاضي ابن شداد، وكان حاضرها، وليس المخبر كالعيان، فقال: ما انهزم السلطان،] وإنما بقي في سبعة عشر رجلاً وأعلامه واقفة، وكوساته تخفق، فلما رأى ما نزل بالمُسْلمين صاح فيهم، وحَرَّضهم، ووقف في طُلْبه، فلما رآه النَّاس [في طلبه](٣) ثابَتِ العساكرُ إليه، فتراجع الفرنج إلى منزلتهم، وقتل [من الفريقين جماعة.

وأما قول ابن القادسي: إنه قتل من الكفار مئة وأربعين ألفاً، فإن الفرنج ما بلغت عدتهم يوم أرسوف ثلاثين ألفاً. قال القاضي: قتل](٣) منهم خمسون إفرنجياً، وقيل: أقل.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) في (ح): فإنَّ صلاح الدين ما انهزم قط، وعدة الفرنج يوم أرسوف، ما بلغت ثلاثين ألفاً، وقد قال ابن شداد رحمه الله، وكان حاضراً، ما انهزم صلاح الدين، وما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

[ذكر خراب عسقلان][(١)]:

وسار السُّلْطان، فنزل عسقلان، فأجَمَعَ الأمراءُ على خرابها، فبكى السُّلْطان وقال: والله إن فقد أولادي أهون علي من خرابها [أو من نقض حجر منها][(١)]. قالوا: أَخْرِبْها وإلا جرى عليها ما جرى على عكا، وهذه بين القُدْس ويافا، ولا يمكن حفظ الموضعين، [فاختر أيهما شئت][(١)]. وجاء الخبر بنزول الفرنج على يافا، فأمر بخراب عَسْقلان، وكان فيها شيءٌ كثير، فأباحه للمسلمين، فنهبوه، وأخربوا بعض السور، والسُّلْطانِ يبكي وينتحب.

وبعث الإنكتار يعرض على العادل أن يزوِّجَه بأُخته، فأجاب [العادل][(١)]، فاجتمع الأقسَّاء، وأوقفوا الحال، وقالوا: إن تنصَّر العادل، ودخل في دينها وإلا غَضِبَ المسيح، [على الإنكتار، فتوقف الحال إلا على ما ذكر الأقساء][(١)]، وكان الإنكتار يجتمع بالعادل [في][(١)] كلِّ وقتٍ، ويتهاديا، [وكان][(١)] خديعة من الاثنين، وبعث الإنكتار إلى السُّلْطان يقول: لابُدَّ من القُدْس وصليب الصَّلبوت، فادْفَعْهُما إلينا، ولك من قاطعِ الأردن إلى ناحية الشَّرْق. فقال السُّلْطان: أما القُدْس فهو عندنا أعظمُ مما هو عندكم، لأنه مسرى نبينا ﷺ، ومجمع الملائكة، فلا يتصور أن نَنْزِلَ عنه، وأما صليب الصَّلبوت فهلاكه عندنا قربة عظيمة، فلا يجوز أن نفرطَ فيه إلا لمصلحةٍ راجعة إلى الإسلام هي أوفى منه، فقال إنكتار للعادل: اجمع بيني وبين السُّلْطان، فقال له: الملوك إذا اجتمعوا تقبح الحرب بينهم بعد ذلك، فإذا انتظم الصُّلْح حَسُنَ الاجتماع.

وعاد الفرنج إلى الرَّملة، وطَلَعَ السُّلْطان إلى القدس في ذي القَعْدة، وأخذ في تحصينه، [وشرع][(١)] ينقل الحجارة هو وأولاده على أكتافهم، وأُمراؤه وأجناده [كذلك][(١)]، والقضاة والعلماء والفقراء والعامة والخاصَّة.

وفيها وَرَدَ كتابُ الخليفة يطلب الفاضل ليقرِّر معه أموراً، فاعتذر السُّلْطان بكثرةِ أمراض الفاضل، وضَعْفه عن الحركة.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وفيها عزل السُّلْطان أبا حامد محمد بن عبد الله ابن أبي عَصْرون عن قضاءِ دمشق، وولى محيي الدين بن زكي الدين، و[قالوا: إنَّ][(١)] سببَ عزله ابنَ أبي عَصْرون مداخلتُه الجُنْد، واشتغاله [بما يشتغل به الأمراء من][(١)] اتخاذ الخيول والمماليك الترك ومباشرة الحروب، ومعاملة الأمراء ومداينتهم، فتبرَّم السُّلْطان منه [، وعزله][(١)]، وكان قد وَقَعَ في يده أسيرٌ من كبار الفرنج، فطلبه السُّلْطان منه ليفادي به بعضَ من يعزُّ عليه، فلم تسمح نَفْسُه به، فقال السُّلْطان: بالثمن. فامتنع، وباعه للفرنج، فغَضِبَ السُّلْطان، فعزله عن القضاء، وحجبه عن الدخول عليه، فقال ابنُ النَّحاس يُسْلِيه: [من الكامل]

لا تَجْزَعَنْ مِنْ حادثٍ بمُلِمَّةٍ ... أرأيتَ قَبْلَكَ ليثَ غابٍ يجزعُ

منها:

واخترْ لنفسِكَ مِنْ علومكَ مَنْصِباً ... وولايةً من حُكْمِها لا تُخْلَعُ

فالبرُّ[(٢)] تُنْزَعُ منه كلُّ ولايةٍ ... إلا ولايةَ عِلْمِهِ لا تُنْزَعُ

وافخرْ بجدِّك بل بمجدِك واطَّرِحْ ... قَدْرَ الزَّمانِ فإنَّ قَدْرَكَ أَرْفَعُ

وحجَّ بالنَّاس من بغداد طاشْتِكِين.

وفيها توفي

الموفق أسعد بن المِطْران الطَّبيب[(٣)]

كان نصرانياً، أَسْلَم على يد السُّلْطان، وكان غزير المروءة، حَسَنَ الأخلاق، كريم العشرة، جَوَاداً، متعصِّباً للنَّاس عند السُّلْطان، ويقضي حوائجهم، وصحبه صبيٌّ [من المسلمين][(١)]، حَسَنُ الصُّورة اسمه عمر، فأحسن إليه، وكان الموفق يحبُّ أهلَ البيت ويبغض ابن عنين [الشاعر][(١)] لخُبْثِ لسانه [وقبح هجائه، وثلبه لأعراض الناس][(١)]، ويحرِّضُ السُّلْطان على نفيه [من البلاد][(١)]، وقال: أليس هو القائل: [من المنسرح]

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) كذا في (ح)، ولعلها: فالحَبْر، والله أعلم.

(٣) له ترجمة في «الفتح القسي»: ٥٧٦، و«كتاب «الروضتين»: ٤/ ٢٩٣، و«طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة: ٦٥١ـ٦٥٩، و«الوافي بالوفيات»: ٩/ ٤٠ـ٤٣، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١١٣.

سُـلْـطـانـنـا أعـرجٌ وكـاتِـبُـهُ أُعـيـمـشٌ[١] والـوزيـرُ مـنـحـدِبُ

فهجاه ابنُ عُنين وقال: [من البسيط]

قـالـوا الـموفق شيـعـيٌّ فـقـلـتُ لـهـم هـذا خـلافُ الـذي لـلـنَّـاس مـنـه ظَـهَـرْ

فـكـيـف يـجـعـلُ ديـنَ الـرِّفْـضِ مَـذْهَـبَـهُ ومـا دعـاه إلـى الإسـلامِ غـيـرُ عُـمَـرْ[٢]

وكان الموفق يعود الفقراء المرضى، ويحملُ إليهم من عنده الأشربة [والأدوية][٣] حتى أجرة الحمام، وزوَّجه السلطان بجارية [يقال لها جوزة، وكانت من حظايا السلطان، ونقل معها جهازاً عظيماً، وقال ليلة عرسها: احملوا إليه المطبخ، فنزل الموفق جامع دمشق ليصلي العصر، فجاءت إليه صوفية خانكاه البلد، وطلبوا منه سماعاً في الخانكاه، فقال: سمعاً وطاعة، وقام، فدخل إلى الخانكاه التي للصميصاتي، واستدعى مطبخ السلطان من دار العقيقي، وكان السلطان قد قال له: اعمل العرس بدار العقيقي، وأحضر المغاني والحلاوة الكثيرة إلى الخانكاه][٤]. ونزلت العروس مع حظايا السُّلْطان إلى دار العقيقي، فأقمن طول الليل ينتظرنه وهو عند الصُّوفية وهم يرقصون، وما علموا أَنَّها ليلة عرسه [وهو فاستحى أن يعرفهم،][٣]، فلما كان آخر الليل قيل للصُّوفية: أيش عملتم؟! الرجل الليلة عريس على جارية السلطان [، والساعة يبلغ السلطان فيغضب][٣]، فجاؤوا إليه بأجمعهم واعتذروا، وسألوه أن يمضي، فقال: لا والله، إلى الصَّباح، وبلغ السلطان فقال: أُلام على محبة هذا وتقريبه!

---

(١) في النسخ الخطية و«النجوم الزاهرة»: «أعمش»، ولا يتزن به البيت، وقد سقط هذا البيت من ديوان ابن عنين: ٢١٠ ، واستدركه محققه من «مرآة الزمان»، كما أشار في الحاشية، وأثبت من عنده «ذو عمش»، وما أثبتناه هي رواية البيت في «الوافي بالوفيات»: ٩/ ٤١ .

(٢) ديوان ابن عنين: ١٣٣ـ١٣٤ .

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (ح): وزوَّجه السلطان بجارية من حظاياه، يقال لها جوزة، ونقل معها جهازاً عظيماً، وحمل إليه المطبخ ليلة عرسه، فنزل الموفق إلى جامع دمشق ليصلي العصر، فجاء إليه الصوفية، وطلبوا منه سماعاً في الخانكاه، فدخل الصميصاتي، واستدعى مطبخ السلطان من دار العقيقي المعدة للعرس، وأحضر المغاني والحلاوة الكثيرة، ونزلت العروس مع حظايا السلطان، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وكانت وفاته في ربيع الأول بدمشق، ودفن بقاسيون على قارعة الطريق عند دار زوجته جوزة، ولما مات اشترت [زوجته][1] داراً، وبنت إلى جانبها مسجداً، وعمرت له تربة، وهي تعرف بدار جوزة، [ولما قدمت الشام في سنة ثلاث وست مئة[2] كانت جوزة باقية][1]، وكانت صالحة زاهدة عابدة.

الحسين بن حمزة بن الحسين[3]

أبو القاسم، قاضي حماة. كان فاضلاً جواداً سَمْحاً، لا تَنْزل قِدْرُه من النَّار، يضيف الخاص والعام، وما اجتاز بحماة أحدٌ من الملوك والأكابر إلا وأضافه، وكان صلاحُ الدين يحبُّه ويحترمه، وكذا العادل وتقي الدين، [وبلغني أَنَّ العادل اجتاز بحماة][4]، فأرسل [إلى القاضي][5] يقول: أُريد الحمام خلوة. فأخلاه، فما خرج [العادل من الحمام][1] إلا وقد أعدَّ له من الفواكه والأطعمة والحلاوات ما كفاه وأصحابه.

وكان لا يقبل برَّ أحد، لا صلاح الدين ولا غيره، وكان قد تزوَّج بدمشق خطلخ خاتون بنت سودكين، فأولدها ابنة وسماها زينب، ومات القاضي وهي صغيرة، فلما بلغت تزوَّجها إسماعيلُ بنُ قرباص من أهل حماة، ثم مات عنها.

قال المصنف رحمه الله: فتزوجتُها سنة عشرين وست مئة، وتوفيت سنة ثلاث وأربعين[6] وست مئة وأنا ببغداد، فدفنوها في تربتي بقاسيون.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) كذا قال هنا، وقد ذكر في مواضع كثيرة أنه قدم دمشق سنة (٦٠٠هـ)، وبقي مقيماً فيها حتى أواخر سنة (٦٠٣هـ)، حين عاد إلى بغداد عن طريق حلب. انظر حوادث سنة (٦٠٠هـ) و(٦٠٣هـ) و(٦٠٤هـ) و(٦١٧هـ) من هذا الكتاب.

(٣) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٣٦١.

(٤) في (ح): واجتاز العادل بحماة، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٥) في (ح): إليه، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٦) في (ح): «وعشرين»، والمثبت من (م) و(ش).

وكذا قال هنا، وذكر في موضع آخر أنه كان في بغداد سنة (٦٤٤هـ)، وبقي بها حتى شهر صفر من سنة (٦٤٥هـ)، انظر حوادث سنة (٥٧٧هـ) و(٦٤٤هـ) من هذا الكتاب.

وخلَّف أبو القاسم ولداً ذكراً، وللولد أولاد، [ومات القاضي وهو على قضاء حماة][(١)].

سليمان بن جَنْدَر[(٢)]

من أكابر أمراء حلب، ومشايخ الدولتين النُّورية والصَّلاحية، [وهو والد صديقنا علي بن سليمان][(٣)]، شهد مع السُّلْطان حروبه كلَّها، وأشار بخراب عَسْقلان [لتتوفر العِناية على حفظ القدس][(١)]، ولما صَعِدَ السُّلْطان إلى القُدْس مرض سليمان، فطلب المسير إلى حلب، فأَذِنَ له السُّلْطان، فسار، وتوفي بغباغب في أواخر ذي الحجة، وحُمِلَ إلى حلب، فدفن بها.

عمر بن شاهنشاه بن أيوب[(٤)]

الملك المُظَفَّر تقي الدين، فذكرنا بعضَ أخباره مفرَّقة، وآخر أمره طَمِعَ في مملكة الشَّرق، فنفرت عنه وعن صلاح الدين قلوبُ السَّلاطين، وسار من ميَّافارقين إلى خِلاط، فالتقاه سيف الدين بَكْتَمُرشاه أرمن صاحب خلاط، فكسره تقي الدين، فعاد إلى خِلاط، وحاصر تقي الدين منازكرد، وكان قد قيل له: مَنْ ملك منازكرد ملك خلاط، فأقام أياماً يضربها بالمجانيق، وهم يعصبون رؤوس الأبراج بالعصائب يستهزؤون به، فمرض في رمضان، وتوفي يوم الجمعة العاشر منه[(٥)]، وكان معه ولده محمد، ويلقب بالمنصور، فكتم موته، وحمله في مِحَفَّة، وأظهر أَنَّه مريض إلى ميَّافارِقين، وبُنيت له مدرسة بظاهر حماة، ثم نُقِلَ إليها، وكان السُّلْطان يكره ابنه محمداً، فانحلَّ أمره، فدخل العادل في أمره، فصلح حاله على مَضَضٍ من السُّلْطان، ثم أُخذت من ابنه البلاد بعد ذلك، واقتصر على حماة، وكان تقيُّ الدِّين شجاعاً

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «الفتح القسي»: ٢٥٩ ، و«كتاب الروضتين»: ٤/ ٢٩٢ ، و«تلخيص مجمع الآداب»: ج٤/ ق١/ ٥٨١ .

(٣) في (م) و(ش): علم الدين بن سليمان، وهو وهم، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٦٢٢هـ).

(٤) أخباره مبثوثة في تواريخ تلك الفترة، ولا سيما في «كتاب الروضتين».

(٥) ذكر العماد أن وفاته يوم الجمعة تاسع عشر رمضان، انظر «الروضتين»: ٤/ ٢٩٠ .

مِقْداماً، جَوَاداً فاضلاً، شاعراً فصيحاً، عاشَرَ العلماء والأدباء، وتخلَّق بأخلاقهم، واكتسب من أوصافهم، وله ديوان، فمنه: [من البسيط]

قلبي وإن عَذَّبوه ليس يَنْقَلِبُ ... عن حُبِّ قوم متى ما عَذَّبوا عَذُبُوا
راضٍ إذا سَخِطُوا دانٍ إذا شَحَطُوا ... هم المُنى ليَ إنْ شَطُّوا وإن قَرُبوا[(١)]

وقال: [من الوافر]

إذا حَثُّوا مطاياهم لِبَيْنٍ ... فسائِقُها لأحشائي يَحُثُّ
قتيلُكُمُ وحقِّ الوَصْلِ صالٍ ... جحيمَ الهَجْرِ فابْكُوه وأُرثوا
جديداً كان حَبْلُ الوَصْلِ دَهْراً ... فمذْ هجروا فحبلُ الوَصْلِ رَثُّ
فؤاد الصَّبِّ بالهِجْرانِ مَيْتٌ ... ووَصْلُكُمُ له نَشْرٌ وبَعْثُ[(٢)]

وقال: [من السريع]

قد صاحَ حادي عِيْسِهِمْ بالنَّوى ... فصَمَّ سَمْعي حين نادى وصاحْ
صافحتُهُ والقَلْبُ في أَسْرِهِ ... فَسَلَّ باللَّحْظِ عليَّ الصِّفاحْ
وقال لي أنتَ قتيلُ الهوى ... قلتُ كذاك أثخنتني الجِراحْ[(٣)]

وقال: [من الطويل]

دمشقُ سَقَاكِ اللهُ صوبَ غمامةٍ ... فما غائِبٌ عنها لديَّ رشيدُ
عسى مُسْعِدٌ لي أنْ أبيتَ بأَرْضِها ... ألا إنَّني لو صَحَّ لي لسعيدُ[(٣)]

وقال: [من الطويل]

يقولون لي إنَّا سنرجِعُ من شبرا ... ومَنْ لي بأنِّي لا أُفارِقُهُمْ شِبْرا
وكيفَ احتيالي والهوى قائدٌ لهم ... فؤاداً أبى أنْ يقتني بَعْدَهُمْ صَبْرا
فَرِقُّوا لقلبٍ قَلَّبَتْهُ يَدُ النَّوى ... وعَيْنٍ عليكمْ بعد بُعْدِكُمُ عَبْرَى[(٤)]

وقال: [من مجزوء الكامل]

---

(١) «الخريدة» بداية قسم شعراء الشام: ٨٧ ـ ٨٨ .
(٢) «الخريدة» بداية قسم شعراء الشام: ٩٠ .
(٣) «الخريدة»: ٩١ - ٩٥ .
(٤) «الخريدة» ٩٧ـ١٠١.

يـــا نـــاظِـــرَيْـــه تَـــرَفَّـــقـــا ... مـــا فـــي الـــورى لـــكـــمـــا مـــبـــارِزْ
هَـــبْـــكُـــمْ حَـــجَـــزْتُـــمْ أَنْ أرا ... ه فَـهَـلْ لـقـلـب الـصَّـبِّ حـاجِـزْ[1]

وقال: [من الطويل]

حبـائـبَـنَـا شَـطَّ الـمَـزَارُ وأَوْحَـشَـتْ ... ديـارٌ عَـهِـدْنـاهـا بـكُـنَّ أَوَانـسـا
وحَقِّ الـهـوى لا غَـيَّـرتـنـي يـدُ الـنَّـوى ... ولا كنتُ ثوبَ الغَدْرِ فيكُنَّ لابسا[1]

وقال: [من الخفيف]

كـلَّ يـومٍ يَـسْـعـى إلـى الـمُـلْـكِ قـومٌ ... فـي ازديـادٍ وعُـمْـرُهـمْ فـي انـتـقـاصِ
شَـرَكٌ هـذه الأمـانـي فـيـا لـلَّـ ... ـه كـم واقـعٍ بـغـيـرِ خـلاصِ[1]

وقال: [من الرمل]

أنـا راضٍ بـالـذي يُـرْضـيـهُـمُ ... لـيـتَ شِـعْـري بـتـلافـي هـل رَضُـوا
أَقْـرَضُـونـي زمـنـاً قُـرْبَـهُـمُ ... واسـتـعـادوا بـالـنَّـوى مـا أَقْـرَضُـوا[1]

وقال: [من الوافر]

أرى قـومـاً حَـفِـظْـتُ لـهـم عُـهـوداً ... فـخـانـونـي ولـم يَـرْعَـوْا حِـفـاظـا[1]
أَرِقُّ لـهـم مـحـافـظـةً فـألـقـى ... لـهـمْ خُـلُـقـاً وأفـئـدةً غِـلاظـا

وقال يمدح عمه صلاح الدين، رحمه الله: [من الكامل]

خيرُ الـمـلـوكِ أبـو الـمُـظَـفَّـرِ يـوسـفُ ... مـا مِـثْـلُ سيـرتِـهِ الـشَّـريـفـةِ تُـعْـرَفُ
لـو سُـطِّـرَتْ سِـيَـرُ الـمـلـوكِ رأيـتَـهـا ... ديـوانَ شِـعْـرٍ وَهْـي فـيـهـا مُـصْـحَـفُ
مـلـكٌ يـبـيـتُ الـدَّهْـرُ يُـرْعِـدُ هـيـبـةً ... مـنـه ولـيـس يـخـافُـهُ مـن يُـنْـصِـفُ[1]

وقال: [من الطويل]

ألـم تـريـا نَـفْـسـي وقـد طَـوَّحَـتْ بـهـا ... عُقابُ السُّرى في البِيْدِ من رأسِ حالقِ
يـسـيـرُ أمـامَ الـيَـعْـمَـلاتِ كـأَنَّـمـا ... حَـكَـتْ أَلِـفـاً قُـدَّام أَسْـطُـرِ مـاشِـقِ
تَـراهـا إذا كَـلَّـتْ تَـئِـنُّ صـبـابـةً ... إلـى مـنـزلٍ بـيـن الـلِّـوى والأبـارقِ
فقلتُ لها سيري ولا تُظْهري وجًى ... فبين ضلوعي لاعجُ الشَّوْقِ سائقي

---

(١) «الخريدة»: ١٠١-١٠٥.

وها أنتَ قد فارقتَ مِثْلي جهالةً ستذكُرُ يوماً سِيْرتي وخلائِقي(١)

وقال: [من الكامل]

زعَمُوا بأنَّكِ قد كَرِهْتِ وصالَنا حاشاكِ مما رَجَّموا حاشاكِ
من لي بأيَّامِ الشَّبيبة والصِّبا أيامَ كنتُ من الزَّمانِ مُناكِ(١)

وقال: [من الطويل]

وقد زعموا أني سَلَوْتُ وشاهِدِي على فَرْطِ وَجْدي زفرةٌ وعويلُ
وإنَّ دواعي الشَّوْق وَهْي خفيفةٌ عليكمْ لها عِبءٌ عليَّ ثقيلُ(١)

وقال في صلاح الدين رحمه الله: [من الكامل]

أصلاحَ دينِ الله أمرُك طاعةٌ فَمُرِ الزَّمانَ بما تشاءُ ليَفْعلا
فكأنَّما الدُّنيا ببهجةِ حُسْنها تُجْلى عليَّ إذا رأيتُك مُقْبلا(١)

وقال: [من الطويل]

أأحبابَنا إنْ تَسْألوا كيف حالُنا فإنَّا على حِفْظِ المودَّةِ ما حُلْنا
حَلَلْتُمْ بقلبي والدِّيارُ بعيدةٌ ومِلْتُمْ عن العَهْدِ القديمِ وما مِلْنا
وأنساكُمُ حِفْظَ العهودِ مَلالُكُمْ وعُوِّضْتُمُ بالغَيْرِ عنا وما اعْتَضْنا
وإنِّي لأرعاكُمْ على بُعْدِ دارِكُمْ وإنْ كان منكُمْ أصلُ ذا الغَدْرِ لا مِنَّا(٢)

وقال: [من الطويل]

أأحبابَنا إنَّ الوُشاة إليكُمُ سَعَوْا لا سَعَتْ أقدامُ من باتَ واشِيا
يرومُون بتَّ الحَبْلِ بيني وبينَكُمْ فلا بُلِّغوا فيما أرادوا الأمانيا(٣)

محمد بن عمر بن لاجين(٤)

حسام الدين ابن ستِّ الشَّام؛ أُخت صلاح الدين.

---

(١) «الخريدة»: ١٠١ـ١٠٥.

(٢) «الخريدة»: ١٠٨.

(٣) «الخريدة»: ١١٢.

(٤) له ترجمة في «الفتح القسي»: ٥٧١، و«الروضتين»: ٤/ ٢٩١، و«الوافي بالوفيات»: ٤/ ٢٤٨، وقيل اسمه: عمر بن لاجين. انظر «الروضتين»: ٣/ ٦٥، وقد نبه على ذلك الصفدي في «الوافي بالوفيات».

كان صاحبَ نابُلس، وكان شجاعاً مِقْداماً جَوَاداً، توفي ليلة الجمعة تاسع رمضان بدمشق، وبينه وبين وفاة تقي الدين ساعات، ففُجِعَ السُّلْطان بابنِ أخيه وابن أُخته في يومٍ واحد، ودفن بالتُّربة التي أنشأتها والدته بالعوينة بظاهر دمشق.

يحيى السُّهْرَوَرْدِي المقتول بحلب(١)

كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسِّيمياء وأبواب النارنجيات، فاستمال بها خَلْقاً كثيراً، وتبعوه، وله تصانيف في فنه، منها «الرقم القُدْسي» في تفسير القرآن على رأي الأوائل، و«اللمحات» في المنطق، و«لب البحث»، وَوَرَدَ إلى حلب، واجتمعَ بالملك الظَّاهر غازي، فأعجبه كلامه، فمال إليه، فكَتَبَ أهل حلب إلى السُّلْطان: أدرك ولدك وإلا تلف، فكتب السُّلْطان إلى الظَّاهر بإبعاده عنه، فلم يُبْعده، فكَتَبَ إليه: اجمعِ الفقهاء لمناظرته، فجمعهم وناظروه، فظَهَرَ عليهم بعبارته، فقالوا: إنَّك قلتَ في بعض تصانيفك: إنَّ الله قادر على أن يخلق نبيًّا، وهذا مستحيل، فقال لهم: فما وجه استحالته؟ فإنَّ القادر هو الذي لا يمتنع عليه شيءٌ. فتعصَّبوا عليه، فَحَبَسَه الظَّاهر، وجَرَتْ بسببه خطوبٌ وإشاعات، [وكان](٢) دنيء الهِمَّة، زرِيّ الخِلْقة، دَنِسَ الثِّياب، وَسِخَ البَدَن، لا يغسل له ثوباً ولا جِسْماً، ولا يداً من زُهومة، ولا يقصُّ ظُفُراً ولا شَعْراً، وكان القَمْل يتناثر على وَجْهه، ويسعى على ثيابه، وكل مَنْ رآه يهربُ منه، وهذه الأشياء تنافي الحكمة والعقل والشرع.

قال ابنُ شدَّاد: ولما بلغ السُّلْطانَ أمره أَمَرَ ولده الملك الظاهر بقَتْله، فلما كان يوم الجمعة بعد الصَّلاة سَلْخ ذي الحِجَّة أُخرج من الحبس ميتاً، ومما ينسب إليه من الشِّعْر: [من الكامل]

أبـداً تَـحِـنُّ إلـيـكُـمُ الأرواحُ ووصـالُـكُـمْ رَيْـحـانُـهـا والـرَّاحُ

---

(١) هو يحيى بن حبش بن أميرك، له ترجمة في «معجم الأدباء»: ١٩/ ٣١٤ـ٣٢٠، «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٦٨ـ٢٧٤، و«طبقات الأطباء»: ٦٤١ـ٦٤٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٠٧ـ٢١١، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

وقلوبُ أهلِ وِدَادِكُمْ تَشْتاقُكُمْ — وإلى كمالِ جمالِكُمْ ترتاحُ
وارحْمَتَا للعاشقِيْنَ تكلَّفوا — سَتْرَ المحبَّةِ والهوى فَضَّاحُ
بالسِّرِّ إنْ باحوا تُباح دماؤهم — وكذا دماءُ البائحينَ تباحُ
وإذا هُمُ كتموا تحدَّثَ عنهم — عند الوُشاةِ المدمعُ السَّحَّاحُ
وبَدَتْ شواهدُ للسَّقام عليهُمُ — فيها لِمُشْكِلِ أمرهم إيضاحُ
خَفَضَ الجَنَاحَ لكُمْ وليس عليكُمُ — للصَّبِّ في خَفْضِ الجَنَاح جُناحُ
فإلى لقاكُمْ نَفْسُهُ مُرْتاحةٌ — وإلى رضاكُمْ طَرْفُهُ طَمَّاحُ
عُودوا بنور الوَصْلِ من غَسَقِ الجفا — فالهجر ليلٌ والوِصالُ صَبَاحُ
صافاهم فصفوا له فقلوبُهُمْ — في نورها المِشْكاةُ والمِصْباحُ
وتمتَّعوا فالوقتُ طاب بقُرْبكم — راقَ الشَّرابُ ورقَّتِ الأقداحُ
يا صاحِ ليس على المحبِّ ملامةٌ — إنْ لاحَ في أُفقِ الوصالِ صباحُ
لا ذنبَ للعُشَّاقِ إنْ غلب الهوى — كتمانَهُمْ فنمى الغرامُ وباحوا
سمحوا بأنفسهمْ وما بخلوا بها — لمَّا دَرَوْا أنَّ السَّماحَ رباحُ
ودعاهُمُ داعي الحقائقِ دعوةً — فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سنن الوفا فدموعُهُمْ — بحرٌ وشِدَّةُ شَوْقهم ملَّاحُ
والله ما طلبوا الوقوفَ ببابه — حتى دُعوا وأتاهُمُ المِفْتاحُ
لا يطربونَ بغير ذِكْرِ حبيبهمْ — أبداً فكلُّ زمانهم أفراحُ
حَضَروا وقد غابتْ شواهِدُ ذاتهم — فتهتَّكوا لمَّا رَأَوْه وصاحوا
أفناهُمُ عنهمْ وقد كُشِفَتْ لهم — حجبُ البقا فتلاشتِ الأرواحُ
فتشبَّهوا إن لم تكونوا مِثْلَهم — إنَّ التَّشَبُّهَ بالكرام فلاحُ
قُمْ يا نديمُ إلى المُدَام فهاتها — في كأسها قد دارتِ الأقداحُ
من كَرْمِ إكرامٍ بدنِّ ديانةٍ — لا خمرة قد داسها الفلاح

قلت[1]: وقد وقفتُ على ترجمته في «وَفَيات الأعيان» تصنيف القاضي شمس الدين ابن خَلِّكان: كان المذكور من علماء عَصْره، قرأ الحكمة وأُصول الفِقْه على الشيخ

---

(١) القائل هو قطب الدين اليونيني؛ مختصر «مرآة الزمان».

مجد الدِّين الجِيْلي بمدينة المراغة من أعمال أَذْرَبيجان إلى أن بَرَعَ فيهما، وهذا مجدُ الدِّين هو شيخ فخر الدين الرَّازي، وعليه تخرَّج، وبصحبته انتفع، وكان إماماً في فنونه.

وقال في «طبقات الأطباء»: وكان السُّهْرَوَرْدِي أوحدَ أهلِ زمانه في العلوم الحكمية، جامعاً للفنون الفلسفية، بارعاً في الأُصول الفقهية، مفرطَ الذَّكاء، فصيحَ العبارة، وكان عِلْمُه أكبرَ من عَقْله، ثم ذكر أنه قُتِلَ في أواخر سنة ستٍّ وثمانين وخمس مئة، والصَّحيح ما سنذكره في آخر هذه الترجمة إنْ شاء الله تعالى، وعمره نحو ستٍّ وثلاثين سنة، ثم قال: ويقال: إنه كان يعرف علم السِّيمياء.

وحكى بعضُ فقهاء العجم أنَّه كان في صحبته وقد خرجوا من دمشق. قال: فلما وَصَلْنا إلى القابون؛ القرية التي على باب دمشق في طريق مَنْ يتوجَّه إلى حلب لقينا قطيعَ غنمٍ مع تركمان، فقلنا للشَّيخ: يا مولانا، نريد من هذه الغنم رأساً نأكله. فقال: معي عشرة دراهم، خذوها واشتروا بها رأسَ غنم. وكان هناك تركماني، فاشترينا منه رأساً بها، ومشينا قليلاً، فلحقنا رفيق له، فقال: رُدُّوا الرأس، وخذوا أصغر منه، فإنَّ هذا ما عرف يبيعكم، يساوي هذا الرأس أكثر من هذا، وتقاولنا نحن وإياه، فلما عَرَفَ الشيخ ذلك قال لنا: خذوا الرأس وامشوا، وأنا أقف معه وأرضيه. فتقدَّمنا نحن، وبقي شيخنا يتحدَّث معه ويطيِّب قلبه، فلما أبعدنا قليلاً تركه وتبعنا، وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به، وهو لا يلتفت عليه، ولما لم يكلمه لحقه بغيظٍ، وجَذَبَ يده اليُسْرى، وقال: أين تروح وتخليني؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه، وبقيت في يد التركماني ودمها يجري، فَبُهِتَ التركماني، وتحيَّر في أمره، ورمى اليد وخاف، فرجع الشيخ، وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا، وبقي التركماني راجعاً وهو يلتفت إليه حتى غابَ عنه، ولما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى منديلاً لا غير.

قلت: ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة، والله أعلم بصحتها.

وله تصانيف، فمن ذلك كتاب «التنقيحات» في أُصول الفِقْه، وكتاب «التلويحات» وكتاب «الهياكل» وكتاب «حكمة الإشراق»، وله الرسالة المعروفة بـ «الغربة الغريبة» على مثال رسالة «الطير» لأبي علي ابن سينا، ورسالة «حي بن يقظان» لابنِ سينا أيضاً، وفيها بلاغةٌ تامة أشار فيها إلى حديث النفس، وما يتعلَّق بها على اصطلاح الحكماء.

ومن كلامه: الفكر في صورة قدسية، يتلطَّف بها طالبُ الأريحية، ونواحي القُدُس دار لا يطؤها القوم الجاهلون، وحَرَامٌ على الأجساد المُظْلمة أن تَلِجَ ملكوت السموات، فوحِّدِ الله وأنتَ بتعظيمه ملآن، واذكُرْه وأنتَ من ملابس الأكوان عُرْيان، ولو كان في الوجود شمسان لانْطَمَسَتِ الأركان، فأبى النِّظام أن يكون غير ما كان: [من الكامل]

فخفيتُ حتى قلتُ لستُ بظاهرٍ وظهرتُ من سَعَتي على الأكوانِ

آخر: [من الرمل]

لو علمنا أننا ما نلتقي لقضينا من سُلَيمى وَطَرا

اللهم خلِّصْ لطيفي من هذا العالم الكثيف.

وتنسب إليه أشعار، فمن ذلك ما قاله في النفس على مثال أبيات ابن سينا العينية، فقال هذا الحكيم: [من الكامل]

خَلَعَتْ هياكلها بجَرْعاء الحِمى وَصَبَتْ لمغناها القديم تشوقا
وتلفَّتَتْ نحو الدِّيار فشاقَها رَبْعٌ عَفَتْ أطلالُه فتمزَّقا
وقفتْ تُسائِلُهُ فردَّ جوابَها رَجْعُ الصَّدى أنْ لا سبيل إلى اللِّقا
فكأنَّها بَرْقٌ تألَّقَ بالحِمى ثُمَّ انطوى فكأنَّه ما أبرقا

وله في النَّظْم والنَّثْر أشياء لطيفة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها، وكان شافعيَّ المذهب، ويلقب بالمُؤَيَّد بالملكوت، وكان يُتَّهم بانحلالِ العقيدة والتعطيل، ويعتقد مذهب الحكماء المتقدِّمين، واشتهر ذلك عنه، فلما وَصَلَ إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قَتْله بسبب اعتقاده، وما ظَهَرَ لهم من سوء مَذْهبه، وكان أشدَّ الجماعة عليه الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا جَهْبل.

وقال الشيخ سيف الدين الآمِدي: اجتمعتُ بالسُّهْرَوَرْدِي في حلب، فقال لي: لابُدَّ أَنْ أملك الأرض. فقلتُ: من أين لك هذا؟ فقال: رأيتُ في المنام كأني شربتُ ماء البحر، فقلت: لعل يكون اشتهار العلم أو يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه، ورأيتُه كثيرَ العِلْم، قليل العقل، ويقال: إنه لما تحقَّق القتل كان كثيراً ما يُنْشد: [من الهزج]

أرى قدمي أراق دمي وهانَ دمي فها نَدَمي

والأول مأخوذ من قول أبي الفَتْح علي بن محمد البُسْتي: [من الهزج]

إلـى حَـتْـفـي مـشـى قَـدَمـي أرى قَـدَمـي أراقَ دمـي
فـلا أنـفـكُّ مـن نـدم ولـيـس بـنـافـعـي نَـدَمـي

وكان ذلك في دولة الظَّاهر بن السُّلْطان صلاح الدين رحمه الله، فحبسه، ثم خنقه بإشارة والده صلاح الدِّين، فكان ذلك في خامس رجب سنة سبع وثمانين وخمس مئة بقلعة حلب، وعمره ثمان وثلاثون سنة.

وذكر القاضي بهاء الدين المعروف بابن شَدَّاد قاضي حلب في أوائل سيرة صلاح الدين، وقد ذكر حُسْن عقيدته، وقال: كان كثيرَ التَّعظيم لشعائر الدِّين، وأطال الكلام في ذلك، ثم قال: ولقد أمر ولده صاحب حلب بقَتْلِ شابٍّ نشأ كان يقال له: السُّهْرَوَرْدِي، قيل عنه: إنه كان معانداً للشَّرائع، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرف السُّلْطان به، فأمر بقَتْله، فقتله، وصلبه أياماً.

قال القاضي شمس الدين ابن خَلِّكان رحمه الله: وأقمتُ في حلب سنين للاشتغال بالعِلْم الشَّريف، ورأيتُ أهلها مختلفون في أمره، كلٌّ واحدٍ يتكلَّم على قدر هَوَاه، فمنهم من ينسبه إلى الزَّنْدقة والإلحاد، ومنهم من يعتقد فيه الصَّلاح، وأَنَّه من أهل الكرامات، ويقولون: ظَهَرَ لهم بعد قتله ما يشهد له بذلك، وأكثر النَّاس على أَنَّه كان مُلْحداً لا يعتقد شيئاً، نسأل الله تعالى العفو والعافية، والمعافاة الدَّائمة في الدِّين والدنيا والآخرة، وأن يتوفَّانا على مذهب الحق والرَّشاد(١).

الصَّفي بن نصر الله ابن القابض(٢)

كان قد خدم السُّلْطان لما كان في شِحنكية دمشق، وأمدَّه بالمال، فرأى له ذلك، فلما ملك استوزره، وكان شجاعاً ثِقَةً، دَيِّناً أميناً، ولما نزل الفرنج داريا والسُّلْطان في الشرق جَمَعَ من أهل دمشق سواداً عظيماً، وخرج إلى ظاهر البلد، فرآهم، فظنوهم عسكراً، فرحلوا.

(١) انظر النقل بطوله في «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٦٩-٢٧٣.

(٢) سلفت أخباره في هذا الكتاب، وانظر «كتاب الروضتين»: ٤/ ٢٩٢.

وكان كثيرَ المعروف، وكَتَبَ أملاكه لمماليكه لأنه لم يكن له ولد، وبنى بالعُقَيْبة مسجداً، ودُفِنَ به في رجب، ويعرف اليوم بمسجد الصَّفي.

النجم الخُبُوشاني(١)

قدم الدِّيار المِصْرية، وأظهر الناموس، وتزهَّد، وكان يركب الحمار، وآنية بيته كلها خزف، فنفق على السُّلْطان وأهله، وأعطاه السُّلْطان مالاً، فبنى به المدرسة التي إلى جانب الشَّافعي رحمة الله عليه، وكان كثير الفِتَن منذ دخل مِصْر إلى أن مات، ما زالت الفتن قائمةً بينه وبين الحنابلة وابن الصَّابوني وزين الدين بن نُجَيَّة، يكفرونه ويكفرهم، وكان طائشاً متهوراً، نَبَشَ ابن الكِيْزَاني(٢)، وأخرج عظامه من عند الشَّافعي رحمة الله عليه، [وقد ذكرناه](٣)، وكان يصوم ويفطر على خبز الشَّعير، فلما مات وجدوا له ألوف دنانير، وبلغ صلاح الدين، فقال: يا خيبة المسعى. وكان يبعث إليه بالصَّدقات، فيأخذها لنفسه.

ولما توجَّه سيفُ الإسلام إلى اليمن جاء إليه يودِّعه ويستقضي حوائجه، فقال له الخُبُوشاني: لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: تضرب رقبةَ كلِّ مَنْ في المدينة ومكة، وتأخذ أموالهم، وتسبي نساءهم، وقد أبحتُ لك ذلك. فقام سيفُ الإسلام من عنده، وهو يسبُّه، ويقول: انظروا إلى هذا الرَّقيع، يُبيح دماءَ جيران الله، ودماءَ أهلِ بيت رسول الله ﷺ!

وكانت وفاته في صفر، وسكنتِ الفتن، واصطلح النَّاس، وقالوا: هذا فتوح ثاني، وكان سيِّءَ الأخلاق، قبيحَ العِشْرة، وولي بعده تدريس مدرسة الشَّافعي شيخ الشيوخ صدر الدين بن حَمُّويه، [فأحسن التدبير والأمور](٣).

---

(١) هو أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد الخبوشاني، نجم الدين، وله ترجمة في «الفتح القسي»: ٥٧٧، و«رحلة ابن جبير»: ٤٨، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١٦١-١٦٢، و«كتاب الروضتين»: ٤/ ٢٩٣-٢٩٤، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٣٩-٢٤٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٠٤، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) انظر ترجمة ابن الكيزاني في وفيات سنة (٥٦٢هـ).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

فهرس الموضوعات